روايـة

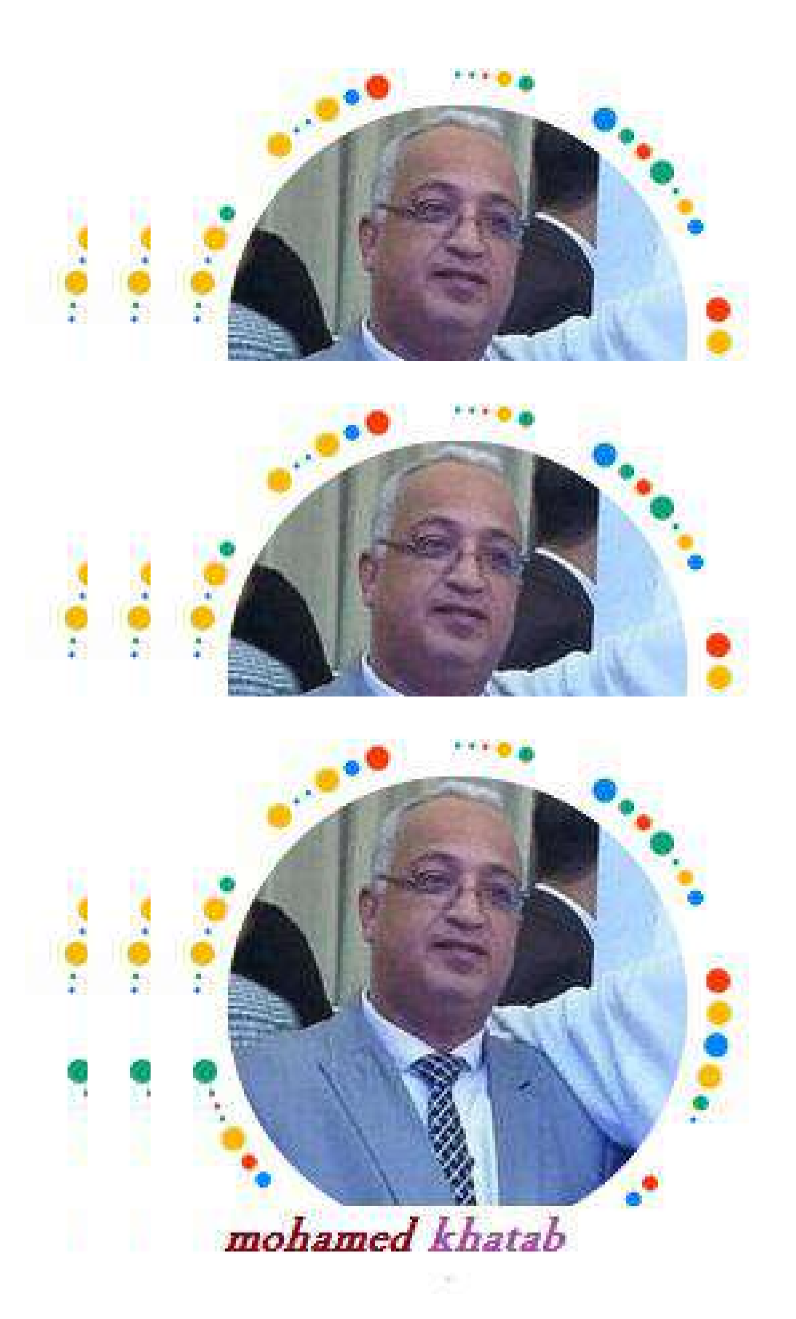
مكتبة

مادلين ثين

لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً



ترجمة: علي عبد الأمير صالح


mohamed khatab



Author: **Madeleine Thien** — اسم المؤلف: مادلين ثين

Title: **Do not say we have nothing** — عنوان الكتاب: لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً

Translated by: **Ali Abdul Amir Saleh** — ترجمة: علي عبد الأمير صالح

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy** — تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P. C.: **Al–Mada** — الناشر: دار المدى

First Edition: **2018** — الطبعة الأولى: 2018

We acknowledge the support of the Canada Council for the Arts for this translation





للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2269

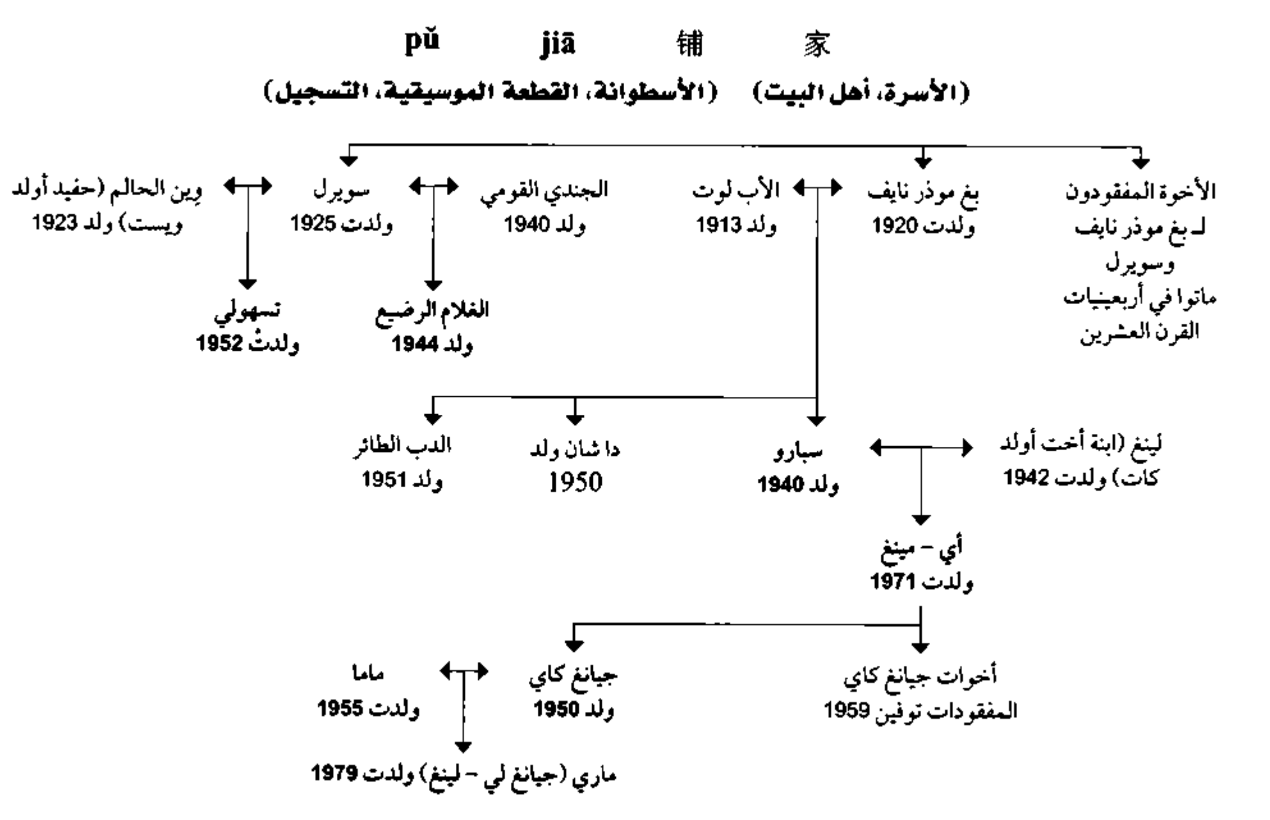
مادلين ثين

لا تقولوا إننا
لا نملك شيئاً

ترجمة:

علي عبد الأمير صالح

إلى أمي وأبي وكاترين وراوي


pǔ jiā 铺 家
(الأسرة، أهل البيت) (الأسطوانة، القطعة الموسيقية، التسجيل)
الأخوة المفقودون لـ بغ موذر نايف وسويرل ماتوا في أربعينيات القرن العشرين
بغ موذر نايف ولدت 1920
الأب لوت ولد 1913
الجندي القومي ولد 1940
سويرل ولدت 1925
وِين الحالم (حفيد أولد ويست) ولد 1923
تسهولي ولدت 1952
الغلام الرضيع ولد 1944
لينغ (ابنة أخت أولد كات) ولدت 1942
سبارو ولد 1940
دا شان ولد 1950
الدب الطائر ولد 1951
أي – مينغ ولدت 1971
أخوات جيانغ كاي المفقودات توفين 1959
جيانغ كاي ولد 1950
ماما ولدت 1955
ماري (جيانغ لي – لينغ) ولدت 1979

مقدمة المترجم

وُلدتْ مادلين ثين في العام 1974، وهي كاتبة قصص قصيرة وروائية صينية - كندية، تكتب باللغة الإنكليزية. مجموعتها القصصية المعنونة *«وصفات بسيطة»* التي صدرتْ في العام 2001 هي باكورة أعمالها السردية. صدرتْ روايتها الأولى *«اليقين»* في العام 2007. أما روايتها الثانية *«كلاب في محيط الدائرة»* المنشورة في العام 2012 فقد تُرجمتْ إلى تسع لغات.

وللعلم، نقول: إن جميع أعمال مادلين ثين السردية الأربعة نالت جوائز، وتُرجمتْ قصصها ورواياتها إلى 25 لغة عالمية ونُشرتْ مقالاتها في *«الغارديان»*، *«فاينانشيال تايمز»*، *«فايف ديالز»*، *«بريك»*، و«الجزيرة». أما رواية *«لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً»* فقد نالتْ جائزتين أدبيتين كنديتين، هما «جائزة الحاكم العام للأدب القصصي المكتوب بالإنكليزية» لعام 2016، و«جائزة غيلر»، وهما أرفع جائزتين في مجال الرواية بكندا، وكذلك حازتْ «جائزة بيلي ومنز للفن القصصي» لعام 2017. كما ترشحتْ للقائمة القصيرة لجائزة «البوكر» العالمية لعام 2016، وتُرجمتْ إلى 17 لغة عالمية.

والكاتبة ابنة مهاجريْن ماليزيين - صينيين إلى كندا، وتقيم حالياً في مونتريال. وهي شريكة الروائي اللبناني المغترب الذي يكتب بالإنكليزية، والحائز على جوائز عدة: راوي الحاج.

«في عامٍ واحد، غادرنا أبي مرتين. في المرة الأولى، كي يضع نهايةً لزواجه، وفي الثانية، حين انتحر. يومذاك، كنتُ في سن العاشرة».

تأخذنا الكاتبة البارعة مادلين ثين إلى داخل أسرة كثيرة الأفراد في الصين، وترينا حيوات جيلين متعاقبين - أولئك الذين عاشوا خلال «الثورة الثقافية» التي أطلقها ماو تسي تونغ في العام 1966 ودامت عشرة أعوام، وأولادهم، الذين أصبحوا طلبة جامعيين محتجين في «ساحة تيانانمين». في لب هذه الرواية الملحمية ثمة شابتان: ماري جيانغ «جيانغ لي - لينغ» وأي - مينغ. من خلال العلاقة المتبادلة بينهما تسعى ماري جيانغ إلى جمع أجزاء حكاية أسرتها الممزقة في فانكوفر يومنا الحاضر، باحثةً عن أجوبة في الطبقات الهشة لقصتهم الجماعية. يكشف مسعاها هذا النقاب عن كيف أن كاي، أباها المُبهم، جيانغ كاي، وهو عازف بيانو موهوب، ووالد أي - مينغ؛ سبارو، المؤلف الموسيقي الخجول واللامع، بالإضافة إلى تسهولي، معجزة الكمان، كانوا مرغمين على أن يتخيلوا من جديد ذواتهم الفنية والشخصية إبان الحملات السياسية في الصين وكيف أن مصائرهم تتردّد عبر الأعوام بعواقب ثابتة.

برعتْ ثين في تدوين رواية على قدرٍ كبير من النضج والتعقيد، الفكاهة والجمال، رواية هي في آنٍ حميمة وسياسية بنحوٍ كبير، مدتْ جذورها في تفاصيل الحياة في الصين لكنها استثنائيةً في كونيتها.

ومما يلفت القارئ والناقد الأدبي هو قوة الحبكة ومتانة الأسلوب ورقة الكلمات وشاعريتها بحيث إنّ المتلقي لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يلتهم صفحات هذه الرواية الأخاذة، فنرى الكاتبة تقفز من زمنٍ إلى زمن في لعبة سردية ذكية، إذ يتنقل الراوي بحرية بين الماضي والحاضر، تارةً للأمام، وطوراً للوراء. وخلال صفحات هذا الأثر الروائي المهم تُعرّفنا ثين على موسيقى بتهوفن وباخ وشوستاكوفيتش وكثير من الموسيقيين الغربيين، وعلى الإرث الأدبي والفكري والفني للكتاب والفلاسفة والرسامين والموسيقيين الصينيين منذ زمن السلالات الحاكمة والاحتلال الياباني وحتى يومنا الحاضر. نتعرّف على آلات موسيقية صينية لم نسمعْ عنها من قبل، ولا يفوت الكاتبة أن تصف لنا درجات

السلالم وطرائق العزف والأحاسيس التي ترافق الاستماع للألحان والمؤَلفات الموسيقية؛ وهذا بالطبع لم يأتِ من الفراغ، على نحو ما يقول اليونانيون، بل من خلال دراسة عميقة، متخصصة، لأن كاتبتنا درست الموسيقى والباليه قبل شروعها بالكتابة الإبداعية. نعم، حازتْ ثين على شهادة البكالوريوس في الرقص المعاصر من «جامعة سيمون فريزر» قبل نيلها شهادة الماجستير في الكتابة الإبداعية من «جامعة كولومبيا البريطانية»، بعد حصولها على منحة دراسية.

وفضلاً عن ذلك، لا يفوت القارئ اللبيب أن ينتبه إلى أن الكاتبة تعمدتْ أن تتخذ روايتها هذه بنية مؤَلف موسيقي، فالجزء الثاني من الرواية سمّته المؤلفة «الفصل صفر»، وهو يتكوّن من سبعة أجزاء على غرار درجات السلّم الموسيقي السبع، وفي نهاية الكتاب تضع لنا الخاتمة التي سمّتها: «التقفيلة»، وهي المقطع الختامي من اللحن الموسيقي. وهذه إشارة واضحة إلى أن الكاتبة تريدنا أن نتلقى أو نتذوق عملها الروائي باعتباره مؤَلفاً موسيقياً حاله حال تلك المؤلفات التي أبدعها الموسيقيون الأثيرون لديها من أمثال باخ، ودميتري شوستاكوفيتش، وليونارد كوهين، وغلين غولد، وسواهم. ولِمَ لا، وهي التي موسقتْ كلماتها ووفرتْ لنا متعةً ما بعدها متعة حين أخذتنا إلى عالمها المشحون بالعواطف الجياشة، وكدنا نذرف الدموع ونحن نقرأ بشغف ما دوّنه قلمها الذهبي. اقرؤوا معي هذه الكلمات الجميلة التي تتحدث فيها مادلين ثين عن بطلها الشاعر وِين الحالم: «كل شيء في الجو هو زوجته الحبيبة، سويرل، السماء الفيروزية، الرمل الذي يومض كالنجوم، نور الشمس الذي يلامس جلودنا». الزوجان وِين الحالم وسويرل، لم يعودا يعيشان معاً. لقد تقاذفتهما حملات الرئيس ماو يمنةً يسرةً، ولم يتمكنا من العيش معاً، وتعيَّن عليهما أن يقضيا شطراً كبيراً من حياتيهما في الصحراء. وها هم المدانون يكابدون ظروفاً قاسيةً بسبب جرائم لم يرتكبوها بل لُفقتْ ضدهم زوراً وبهتاناً. دعونا نقرأ السطور

الآتية: «كانوا قد نقلوني في عربة خفيفة ذات دولابين يجرّها حصان إلى جيابانغو. على مدى أشهر، رفضتُ أن أصدق أنني حللتُ هناك. رجالٌ جريمتهم الوحيدة هي الانتقاد النزيه، كانوا يحفرون الخنادق ويصيبهم الهزال. خلال تلك الحقبة، هناك في ديارهم، كانت أُسرهم تقيم في أمكنةٍ مخزية، كان أطفالهم يعاملون بازدراء في المدارس أو يُطردون منها بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، صُودرتْ بيوتهم، رُميتْ ممتلكاتهم في الزبالة، أُرغمتْ زوجاتهم على التسول في الشوارع، على إفراغ المراحيض العمومية والإبلاغ عن أزواجهن. كنا قادرين على الاحتجاج مطالبين بكل ما نريده إنما ذلك لا فائدة منه. أخبرنا الحراس أننا محظوظون، ليس لأننا فقط استثنينا من الإعدام، بل لأن ثمة سقوفاً فوق رؤوسنا وأحذيةً في أقدامنا».

وفي حوارٍ مع الكاتبة تقول إنها تعوّدتْ أن تكتب أعمالها السردية في جوٍّ من الهدوء التام أو شبه التام، لكنها في روايتها هذه كانت تستمع للموسيقى خلال مراحل تأليفها ووضعها في قالب روائي محبوك حبكاً متقناً. لكنها وجدتْ أن الإصغاء إلى باخ وبروكوفييف وشوستاكوفيتش كان يغني عملية الكتابة، وفتحت الموسيقى خيالها ووعيها المفاهيمي بطرائق غير متوقعة، وشقتْ بنى سيمفونياتهم، بارتيتاتهم، سوناتاتهم، تنويعاتهم إلخ. طريقها إلى وعيها بوصفها طرائق تفكير وأشكالاً سردية. كما تشير في الحوار عينه، أن الموسيقى كانت على الدوام مضفورةً مع الحركة، مع الرقص وسرد الرقص. وكان التحدي الوحيد هو أن تعبّر عن بُعدية وفيزيائية الموسيقى. ومن هنا، تقول محاورتها: «بقدر ما يُمكن قراءة الرواية موسيقيّاً، يمكنني أيضاً أن أقرأها باعتبارها رقصة - رقصة اللغة، رقصة الشخصيات الروائية، رقصة الفضاء، والزمن».

ولا غرابة أن تستعين الكاتبة بأغانٍ ونصوص وأشعار وأمثال مستقاة من التاريخ الصيني، ومن بينها «كتاب السجلات التاريخية»، وعنوان الرواية نفسه، وهو العتبة النصية الأولى للرواية، باعتباره موجِّهاً مهمّاً

للقراءة والتأويل، يحيلنا إلى «النشيد الأممي»، الذي كان «النشيد الوطني» للصين في زمنٍ معين.

سلّطتْ مادلين ثين في روايتها هذه الضوء على فترةٍ مظلمةٍ من تاريخ الصين المعاصر حيث قوبلت نتاجات الموسيقيين والكتاب الصينيين بالشك وتعرّضتْ لأقسى أنواع العنف الفكري، الأمر الذي يذكّرنا بما تعرّض له المثقفون والكتاب في بقاع شتى من العالم، من مثل سولجينتسين وباسترناك في الاتحاد السوفييتي السابق، وما عاناه نظراؤهم خلال الحملة المكارثية في أميركا خلال أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، حينما كان يجري البحث عن أيّ دلائل تشير إلى اعتناق الكتاب وكتاب السيناريو والمخرجين والممثلين السينمائيين أفكاراً شيوعية وُصفتْ بأنها «نشاط معادٍ للمصالح الأميركية». وهذا هو ما عرضه لنا راي برادبري في روايته الشهيرة «*451 فهرنهايت*»، وللعلم نقول: إن درجة الحرارة هذه هي درجة الحرارة التي تحترق عندها الكتب.

على النحو نفسه، ضاع كثير من إبداعات الأدباء والفنانين ومنهم الموسيقيين إبان «الثورة الثقافية» في الصين، حيث تحدثنا الروائية الصينية - الكندية كيف أن «المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي» قد أُغلق في العام 1966، خلال أعوام تلك «الثورة» المقيتة، ودُمرتْ جميع البيانوات الخمس مئة الموجودة فيه ويُجبر سبارو، أحد المؤلفين الموسيقيين المشهورين آنذاك على العمل في «معمل لصناعة الصناديق الخشبية»، ومن ثم في «معمل لصناعة الأسلاك الكهربائية» وبعدها في «معمل لصناعة أجهزة الراديو». ويستمر ذلك عشرين عاماً، يبتعد فيها عن شغفه، مرغماً على الصمت والعزلة ويهيمن عليه الشعور بالحزن والحسرة على ضياع موهبته في زمن يُجبر فيه أبناء الشعب على أن يكونوا كما أراد لهم الحزب، فهو الذي يصوغ حيواتهم كما يشاء، ويقولبهم كما يشاء، ويزجّهم في السجون بسبب «جرائم سياسية مفبرَكة».

في هذه الرواية الأخـاذة نتعرف على منجزات طيف واسع من الموسيقيين الكلاسيكيين العالميين في القرون الماضية لكن ثيمتها الرئيسـة تركز أكثر على حيوات الموسيقيين الصينيين إبان «الثورة الثقافية»، وتظاهرات الطلبة في «ساحة تيانانمين» في العام 1989، الذين كانوا يطالبون بإجراء إصلاحات وتعديلات على مجمل أداء الحكومة وإدخال أساليب حديثة في جميع مفاصل الحياة اليومية للمواطن الصيني ومنحه الحرية والكف عن مصادرة حقوقه في الحياة الكريمة. كما تتناول الكاتبة الظروف القاسية التي يتعرض لها الصينيون وكيف أن كل فرد يبلّغ عن أخيه أو أخته أو أحد أصدقائه كي يُنقذ نفسه؛ إذ كان الخوف يستحوذ عليهم من بطش السلطة المستبدة والحزب الذي يتهم مواطنيه بكونهم مناوئين لنهجه الاشتراكي ويضمرون مشاعر العداء للرئيس ماو تسي تونغ. وهذا الأخير كان يتهم خصومه بكونهم إمبرياليين، بورجوازيين، يمينيين، تسللوا خفيةً إلى صفوف الحزب الشيوعي الصيني. وفي نهاية المطاف كان يعاقب خصومه من خلال زجّهم في معسكرات الأعمال الشاقة في مناطق نائيةٍ جداً، وصحراوية في أغلب الأحيان، لكي تُعاد «تربيتهم»، وبغية استئصال الفكر «اليميني» القابع في نفوسهم، وكذلك من خلال «جلسات النزاع»، حيث يُهانون ويُذلون وينالون شتى ضروب القدح ويُضربون ضرباً مبرِّحاً، ويُجبر الضحية على الاعتراف بـ «جرائمه» أمام حشدٍ من الناس الذين يسيئون معاملته شفوياً وجسدياً ومعنوياً إلى أن يبدأ بالاعتراف. وغالباً ما تُنقل هذه «الجلسات» عبر شاشة التلفزيون ليرى المشاهدون ما يتعرض له الموسيقيون وعموم الناس من عقوباتٍ معنوية وجسدية من أجل زرع الخوف في نفوسهم. كانت شعارات الحزب تقول صراحةً: «يتعيَّن علينا أن نكنس حشد الشياطين الذين حصّنوا أنفسهم في المؤسسات الثقافية». وتدعو إلى سحق «الاختصاصيين، العلماء، «الأساتذة المبجلين» البورجوازيين، وإلى أن يدوسوا بأقدامهم كلَّ ذرةٍ من هيبتهم وأن يحيلوهم غباراً.

يقول أحد شخوص الرواية: «أعطانا الرئيس ماو طريقةً واحدةً للنظر إلى العالم، وهكذا فعل ماركس، إنجلز ولينين. جميع الشعراء والكتاب، جميع الفلاسفة كانوا يتفقون على المشاكل لكنهم لم يتفقوا على الحلول».

هذه الرواية، تنقلنا إلى واقع مرير، حيث تتمزق الأسر، ويتفرق أبناؤها، وتبتعد الأخت عن أختها، والأب عن أبنائه، وتذوب الشابة حزناً وكمداً على فراق حبيبها الذي غادرها بلا رجعة. الحكومة تشكك بنوايا أبناء الشعب وترسلهم إلى المعتقلات الصحراوية النائية، معتقلات الأشغال الشاقة، التي تبعد آلاف الكيلومترات عن مرابع صباهم، وديارهم الأثيرة؛ هذه المعتقلات تذكّرنا بالمعتقلات السيبيرية التي نُفي إليها دويستويفسكي وسولجينتسين في زمن مضى. ولا غرابة أن نقرأ عن مصائر عشرات الكتاب والفنانين ومنهم الموسيقيون ممَن آثروا الانتحار لأنهم لم يطيقوا قسوة الواقع ومصادرة الحريات و«العزلة الداخلية» التي يفرضها الكاتب أو الفنان على نفسه أو بسبب تلك التي تفرضها السلطات المستبدة عليه وتبعده عن شغفه بالأدب والموسيقى وسواها من الفنون.

وفي الصين، إبان «الثورة الثقافية»، كان الناس يخفون الأشياء، أو يبدعونها سرّاً، أو يستفيدون من الفنون المتاحة لديهم كي يصقلوا براعاتهم اليدوية ومهاراتهم، بحيث إنّه فيما بعد، حين يتوافر لديهم نوعٌ مختلف من حرية التعبير، تكون بحوزتهم القدرة التقنية على العمل وفقاً لما تشاء أخيلتهم. فإذا كان النظام، أو الأيديولوجيا، أو المكان يريدك أن تختفي، فإن العيش والإبداع هو شكل من أشكال المقاومة، وبخاصة، إن كنتَ تقوم بذلك بعزٍّ وكرامة. وللفن القدرة على قول أشياء كثيرة، وعلى تمويه الأفكار وأساليب الكينونة.

في جمهورية الصين الشعبية، في عهد ماو تسي تونغ تحديداً، كان الحزب يتحكم بحيوات أفراد الشعب. هم، ببساطة، لا حقَّ لهم بأن يقيموا في الأمكنة التي يرغبون، وأن يُغرموا بمَن يحبون، وأن ينجزوا

العمل الذي يرغبون. باختصار، كل شيء يقرره الحزب. أما الطلبة الذين تظاهروا في «ساحة تيانانمين»، في قلب بكين، في مايو «أيار» 1989 فكان مطلبهم الأساس هو منح المواطن الصيني حرية العيش في المكان الذي يختاره، وأن يمارس العمل الذي يهواه. وكان هؤلاء الشبيبة الجريئون، المشبعون بحب الحياة والحرية والعدالة وكرامة الإنسان، أفراد هذه الشريحة المهمة والواسعة من المجتمع، حين اختاروا التمرد على النظام، كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن كل شيء يبدأ بهذه الحركة الأولى، حالها حال الموسيقى التي تتردد أصداؤها مراراً وتكراراً عبر صفحات هذه الرواية الفذة.

تؤرخ لنا مادلين بلغةٍ رشيقةٍ وأسلوب جميل ما وقع خلال تلك الحقبة الحاسمة في تاريخ الصين. تكتب ثين: تسرد أي - مينغ، إحدى الشخصيات الرئيسة في روايتنا هذه على مسمع صديقتها ماري جيانغ، فتقول الأخيرة: «روتْ لي عن تلك الأيام، والليالي حينما أقبل إلى «الساحة» أكثر من مليون إنسان. بدأ الطلبة إضراباً عن الطعام استمر سبعة أيام وأي - مينغ نفسها أمضتْ الليالي على الإسمنت المسلّح، نائمةً بجوار أفضل صديقاتها، ييوين. جلستا في العراء، لا يوجد تقريباً شيء يحميهما من الشمس أو المطر. إبان تلك الأسابيع الستة من المظاهرات، شعرتْ أنها بالفعل في وطنها الصين؛ فهمتْ، لأول مرة في حياتها، أنها فهمتْ، ما هو شعورها حين تنظر إلى وطنها من خلال عينيها هي وتاريخها هي، أن تصبح واعيةً أسوةً بملايين البشر سواها. لا تريد أن تكون هي نفسها نهراً راكداً، كانت تريد أن تكون جزءاً من المحيط الهادر. لكنها لا تريد الرجوع الآن، قالت لي حين مات أبوها، كانت قد طُردتْ من بلدها. هي، أيضاً، فارقت الحياة».

أبدعت لنا الكاتبة الصينية - الكندية روايةً عابقةً بالمرارة، والألم، واللوعة، والقنوط، والغضب، عن «جمهورية الصين الشعبية»، في «زمن الزهو»، و«الانتصارات الكبرى»، و«الوطن الاشتراكي»، و«الزعيم

المحبوب»، «ربان السفينة» الذي سيقود بلاده وشعبه إلى الرخاء والعيش الرغيد، كما كان يزعم.

من حق القارئ النموذجي والناقد الذكي على حدّ سواء أن يعدّ رواية *«لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً»* روايةً تاريخية لأن الكاتبة استلهمتْ فتراتٍ مهمةً من تاريخ الصين المعاصر، تأملته بعينٍ فاحصة، درسته بعمق، لأنه يحتوي على أعظم دراما، فالتاريخ منجمٌ خصبٌ للأخيلة، يمنحك القدرة على أن تعيد كتابته واكتشافه بشكل متجدد ومستمر. والسرد التاريخي لا يعدو في كثيرٍ من الأحيان، كونه «محاولةً لملء وترميم تلكم الثغرات والهوامش المنسية، وإضاءه المناطق المعتمة بواسطة الفن»، وما الفن إلّا مفتاح لفهم الإنسانية.

لجأ كتّاب كثيرون حول العالم إلى الاغتراف من التاريخ القريب والبعيد كي يدوّنوا رواياتهم، على نحو ما فعل جرجي زيدان في أدبنا العربي المعاصر، وما فعله أمين المعلوف، ووالتر سكوت وسواهم من الكتّاب. وهؤلاء الكتّاب عاودوا الرجوع إلى الماضي، نبشوا فيه، استقوا منه العِبر، أسقطوا عليه وجهات نظرهم، رؤاهم، أفكارهم، وتنبؤوا، عبر معالجاتهم الفنية، ما ستؤول إليه الشعوب والبلدان في المستقبل القريب. لقد استدعى هؤلاء الكتّاب ومنهم مادلين ثين الماضي عبر الحكي والقص، وهي تعترف على لسان بطلتها أن القصص تكون، على الدوام، بلا نهايات، شأنها شأن البدايات؛ «وإن لحظاتٍ كثيرةً لا يمكن استعادتها البتة، إلّا أنّنا، أنا وأنت، نعرف أنها كانت موجودة».

كانت اهتمامات مادلين ثين دوماً سياسية وتاريخية، ووجدتْ هذه الاهتمامات طريقها إلى كتاباتها من خلال روايتها الثانية *«الكلاب في محيط الدائرة»*، التي مضتْ فيها إلى كمبوديا في عهد بول بوت، وهي فترة من التاريخ الدموي خرج منه قلة من الأحياء ليسردوا لنا ما جرى لهم إبان تلك السنوات العجاف، وشكّلت الإبادة الجماعية لـ«سنة صفر» عبئاً ثقيلاً على الضمير التاريخي. وليس من العجب أن يعتبر كثير

من الدارسين «الرواية التاريخية» من أكثر أنواع الرواية رقياً، لأنها تسمو بموضوعاتها بغرض تحقيق أهداف ذات أهمية بالغة، من خلال دراسة الماضي وقراءة الحاضر واستشراف المستقبل؛ وبذلك تؤدي الوظيفة الاجتماعية الثقافية نفسها وهي إشباع الرغبة الإنسانية في اكتساب المعرفة، أو: «الفضول المعرفي cognitive curiosity». لأننا لا نفتأ نسأل أنفسنا على الدوام: ماذا جرى، على وجه الدقة؟ وماذا بعد؟

ولا بدَّ لنا أن نقول هنا إن الرواية التي بين أيدينا هي رواية بوليفونية، حشّدتْ فيها الكاتبة أعداداً كبيرةً من الشخصيات، ومنها شخصيات عادية من عامة الشعب، وشخصيات من الشبيبة والطلبة الجامعيين، والطبقة العاملة، والمزارعين، ومن المثقفين والموسيقيين وحتى أعضاء الحزب الشيوعي الصيني. ومنذ البداية وجدنا أن الرواية كانت فضاءً للتعددية السردية ولوجهات نظر مختلف الشخصيات الروائية. وحتى إن الكاتبة لم تبخلْ على الشخصيات الثانوية والعابرة فجعلتها تظهر على صفحات روايتها هذه، وتشارك في وقائعها، وتعرب عن أفكارها وتعبّر عن مشاعرها. وبلا ريب، هذه الشخصيات ساهمتْ، على ما نعتقد، في بناء سيمفونية التعدد الصوتي والبوليفوني في الرواية. وهي إلى ذلك، رواية متعددة المستويات، يمكننا أن نقرأها قراءات متعددة، بحسب وعي المتلقي وذائقته ووجهات نظره. فهي رواية عن الصين، في زمن «الثورة الثقافية» وما قبلها، ورواية عن «مذبحة ساحة تياناتمين»، ورواية عن الموسيقى والموسيقيين؛ وفي الأرجح، سيجد فيها محبّو الموسيقى متعةً إضافيةً لأنها تستعرض مراحل مهمة من الموسيقى الكلاسيكية الغربية، وتشير إلى أبرز المؤلفين الموسيقيين، وعازفي الكمان والكمان الأوسط والبيانو وسواها من الآلات الموسيقية، ناهيك عن قادة الفرق السمفونية في بلدان عدة، أقلها الصين والاتحاد السوفيتي وإيطاليا وفرنسا وكندا إلخ. وهي، كذلك، رواية عن العائلة والذاكرة والفقدان. إذ يمكننا أن نضعها ضمن إطار روايات الأجيال Generations Novels،

لأنها تروي لنا سير مجموعة من الشخصيات تنتمي لأسرتين صينيتين، وحتى إن الكاتبة وضعتْ شجرةً للأسرتين في استهلال الرواية، وشرعتْ تروي لنا من دون تسلسل كرونولوجي ما جرى لأعضائهما. ولعلها تعيد إلى ذاكرتنا رواية *«ثلاثية غرناطة»* لـ رضوى عاشور، و*«ثلاثية»* نجيب محفوظ. ويخيّل إلينا أن الرواية تحولتْ بفضل الحرية التي منحتها الكاتبة لأبطالها وبطلاتها إلى رواية شخصيات متعددة شاركتْ كلها في بناء الفعل الروائي وتحريكه استباقاً واسترجاعاً في سرد واقعي جميل تتخلله الفكاهة والطرافة والسخرية المُرة. هذه الشخصيات الذكورية والنسوية تشارك في تأثيث فضاء العمل الروائي، وربما يخطر ببالنا أن نطلق عليها وصف: «رواية البطل الجماعي». كما يمكننا، أيضاً، أن نعدّها رواية تاريخية، حالها حال *«ليون الأفريقي»* و«*سمرقند*» للكاتب اللبناني - الفرنسي أمين معلوف، و*«دروز بلغراد»*، و*«رحلة الغرناطي»* للروائي اللبناني ربيع جابر، و*«البيت الأندلسي»* للروائي الجزائري واسيني الأعرج، و*«خاتون بغداد»* للروائي العراقي شاكر نوري، التي تناول فيها سيرة حياة مس غيرترود بل، و*«مخيم المواركة»* للروائي العراقي جابر خليفة جابر.

لكن الكاتبة، مع أنها اقتبستْ كثيراً من أقوال ماو تسي تونغ وعددٍ من الزعماء الصينيين في الحزب والدولة، واعتمدتْ على كتب ومخطوطات ووثائق تاريخية وأفلام وثائقية وصحف صينية وأجنبية، إلّا أنها قدّمتْ شخصيات متخيّلة تداخلتْ مع الشخصيات الواقعية، وجعلت الأمكنة الحقيقية مسرحاً لأحداث عملها السردي، معيدةً بذلك بناء الفضاء الزمني الذي جرتْ فيه وقائع الرواية، بطريقةٍ إبداعية وتخييلية.

تتحرك الرواية في فضاء زمني يزيد على نصف قرن أو أكثر، بدءاً من منتصف ستينيات القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر، وخلال هذه المدة الزمنية الطويلة لاحقت حيوات شخصيات أسرتين صينيتين، كان أفرادها شغوفين بالغناء والموسيقى والشعر، وبعضهم يغني في محال

الشاي العمومية. لكنهم كانوا سيئي الحظ وكابدوا كثيراً من الويلات في ظلِّ النظام الدكتاتوري وحماقاته وسوء إدارته وتعسفه؛ تضوروا جوعاً وتناولوا مزيجاً من أوراق الشجر اليابسة وعلف الحيوانات، وحرصوا على التفتيش عن آخر كسرة خبز صالحة للأكل. أما مكانيّاً فقد بدأت الرواية في «الحيّ الصيني»، فانكوفر، في كندا، وأخذتنا إلى الصين، وإلى هونغ كونغ، وعادتْ بنا مجدداً إلى فانكوفر، حيث تعيش بطلة الرواية، والراوية، الأكاديمية المتخصصة بالرياضيات لِي لينغ مع أمها، منذ أن انتقلتْ أسرتها للسكن في كندا في العام 1979. وخلال السرد الممتع نتعرّف على «صحراء تَكَلامَكان» و«صحراء غوبي» و«كهوف مغاو» و«ساحة تيانانمين»، و«كونسرفتوار شنغهاي»، و«قناة الماء البارد» و«قرية بنغبي» و«فوكسنغ بارك»، و«محافظة غانسو»، إلخ؛ فضلاً عن نوادي «مونغ كوك» الليلية وحاناتها في هونغ كونغ وسواها من الأمكنة في الصين وخارجها.

والحق، هي رواية حزينة، تزخر بمَشاهد قاسية تعلق بذهن القارئ ولا تغادره أبداً؛ تقول أشياءً كثيرةً لم يقلها الصينيون، وقلّما نقرأ عنها. وفيما كنتُ أترجم هذا العمل الروائي اللافت، تذكّرتُ آنا أخماتوفا، الشاعرة الروسية المرموقة، التي كانت تمضي إلى السجن الذي أُودع فيه ابنها، تقف في الطابور وسط مجموعةٍ من النساء القانطات المرعوبات... نعم آنا أخماتوفا، التي أحفظ لها قولاً لا يكاد يفارق ذاكرتي: «للشاعر فمٌ معذَّب يصرخ من خلاله مليون إنسان».

الجزء الأول

توجد ألف طريقة للعيش. كم نعرفُ منها نحن الاثنين؟

• تسهانغ وي، *«السفينة المُوغِلة في القِدم»*.

من بين المَشاهد التي كانت تعجُّ بها جدران الكهوف، أقواها وأكثرها تعقيداً هي مَشاهد الجنة.

• كولِن ثوبرون، *«ظلّ طريق الحرير»*.

-1-

في عامٍ واحد، غادرنا أبي مرتين. في المرة الأولى، كي يضع نهايةً لزواجه، وفي الثانية، حين انتحر. في ذلك العام، 1989، طارتْ أمي إلى هونغ كونغ وجعلتْ أبي يرقد بسلام في مقبرةٍ قريبةٍ من الحدود الصينية. فيما بعد، ذاهلةً، هرعتْ إلى منزلنا الواقع في فانكوفر حيث كنتُ وحدي هناك. يومذاك، كنتُ في سن العاشرة.

هذا ما أتذكّره.

كان لأبي وجهٌ وسيمٌ، دائمُ الشباب؛ كان رجلاً ودوداً، لطيفاً لكنه حزين. إنه يلبس عوينات من دون إطارات والعدسات تعطي الانطباعَ بأنها ترفرف أمامه مباشرةً، أشبه بستائر خفيفة جدّاً. عيناه، البنيتان الغامقتان، كانتا محروستين وغير واثقتين؛ لم يكنْ عمره قد تعدّى التاسعة والثلاثين. كان اسم أبي جيانغ كاي وقد رأى النور في قريةٍ صغيرةٍ تقع في محيط تشانغشا. وفي وقتٍ لاحق، حين عرفتُ أن أبي كان عازف بيانو ذائع الصيت دائم المشاركة في الحفلات الموسيقية في الصين، فكّرتُ في الطريقة التي كانت تنقر فيها أصابع يديه على طاولة المطبخ، كيف كانت تربّت بسرعة على سطوح الكاونترات وعلى ذراعيْ أمي الليّنتين وصولاً إلى أطراف أصابعها، الأمر الذي كان يدفعها إلى الجنون ويجعلني أغرق في نوباتٍ من المرح. وهبني اسمي الصيني جيانغ لِي - لينغ، واسمي الإنكليزي ماري جيانغ. حين فارق الحياة، كنتُ لا أزال طفلةً، والذكريات القليلة التي حفظتُها، وهي ذكريات

ضئيلة على أية حال، مع أنّها كانت غير دقيقة، هي كل ذكرياتي عنه. ومع مرور الأعوام، لم أدعها تفارقني قط.

آنَ كنتُ في العشرينيات من عمري، في الأعوام العصيبة التي أعقبتْ وفاة أبويَّ، منحتُ حياتي بإخلاص للأعداد - للملاحظة، للحدس، للمنطق والبرهان، وهذه هي الأدوات التي لا نفسّر فيها نحن علماء الرياضيات العالمَ فقط، إنما كنا، ببساطة، نصوّره. على مدى العقد الأخير من الأعوام، كنتُ مدرّسةً أكاديمية في «جامعة سيمون فريزر»، وهي إحدى الجامعات الكندية. كانت الأرقام قد أتاحتْ لي الفرصة كي أتحرّك بين ما هو كبير بنحوٍ لا يمكن تخيّله وصغير بنحوٍ استثنائي؛ أن أعيش حياةً بعيدةً عن أبويَّ، بعيدةً عن شؤونهم وأحلامهم التي لم تُعوَّض وتعوّدتُ أن أفكّر، أعيش حياتي أنا.

قبل بضعة أعوام خلتْ، في العام 2010، فيما كنتُ أسير في «الحيّ الصيني» في «فانكوفر»، مررتُ بمتجر يبيع أقراص الـدي. في. دي. أتذكر أن المطر كان يهطل مدراراً وكانت أرصفة المشاة خاليةً تماماً. كانت موسيقى حفلة موسيقية تدوّي من مكبرَيْ صوت ضخمين خارج المتجر. كنتُ أعرف تلك الموسيقى، إنها سوناتا[1] باخ رقم 4 التي تُعزف على البيانو والكمان وكنتُ منجذبةً إليها بقوةٍ كما لو أنّ شخصاً ما يجرّني من يدي. فن مزج الألحان «الطباق»، يوحّد المؤلِّف الموسيقي، العازفين الموسيقيين، وحتى الصمت، الموسيقى، بأمواجها الحلزونية الطافحة بالحزن والنشوة هي كل ما علِق بذاكرتي.

دائخةً، اتكأتُ على الزجاج.

---

1 - «سوناتا sonata»: قطعة موسيقية مسموعة، وهي عملٍ معزوف على أدوات موسيقية، وتكون عادةً منذ عصر هايدن - موتسارت (الذي يُعدّ العصر [الكلاسيكي] لعملٍ من هذا النوع) في ثلاث أو أربع حركات - أو على وفق مثال سوناتا بيانو ليست (1852 - 1853) بحركة واحدة. فقط العمل الذي يؤديه عازف واحد أو عازفان يُطلق عليه عادة: سوناتا؛ أما العمل الذي يؤديه ثلاثة عازفين فيُسمى: ثلاثية، والذي يؤديه أربعة عازفين يُسمى: رباعية... إلخ. أما الذي تؤديه الأوركسترا فيسمى: سيمفونية - م.

وعلى حين غرة، كنتُ في السيارة مع أبي. سمعتُ المطر يلوّث إطارات السيارة بقطراته المتناثرة وأبي، يغمغم. كان نابضاً بالحيوية، محبباً جدّاً إلى القلب، بحيث إنّ الغموض الذي غلّف انتحاره أدخل الحزن إلى فؤادي مجدداً. في حينها، كانت قد مضتْ عشرون سنةً على وفاة أبي، وإن ذكرى صافيةً تتصل به كهذه لم تعدْ إليّ ثانيةً. كنتُ في سن الحادية والثلاثين.

دلفتُ إلى داخل المخزن. عازف البيانو، غلين غولد[1]، ظهر من على شاشةٍ مسطحةٍ: هو ويهودي مينوهين[2] كانا يعزفان سوناتا باخ التي تعرّفتُ عليها. كان هنالك غلين غولد وهو يحني ظهره على البيانو، يلبس بذلةً داكنة، ويسمع أساليبَ موسيقيةً وراء المدى الذي تسنى لمعظمنا أن يفهمه، وكان... مألوفاً جدّاً بالنسبة لي، مثل لغة كاملة، غير منقوصة: عالمٌ، كنتُ نسيته.

***

في العام 1989، كانت الحياة قد أصبحتْ مجموعةً من الأعمال الروتينية الضرورية بالنسبة لأمي ولي: العمل والمدرسة، التلفزيون، الطعام، النوم. كانت أول مغادرة لأبي قد تزامنتْ مع الأحداث الخطيرة في الصين، وهي أحداث كانت أمي قد شاهدتها بقلقٍ غير سويّ من على قناة الـ CNN. سألتها مَن يكون هؤلاء المحتجون، فردتْ عليّ قائلةً إنهم طلبة وأناس عاديون. سألتُها ما إذا كان أبي بينهم، فأجابتني قائلةً: «لا، إنها [ساحة تيانانمين] في بكين». كانت التظاهرات التي استمالتْ مليون مواطن صينيّ إلى الشوارع، قد بدأتْ في نيسان «أبريل»، حين كان أبي

---

1 - غلين غولد (1932 - 1982): عازف بيانو كندي الجنسية، أصبح واحداً من أشهر عازفي البيانو الكلاسيكيين في القرن العشرين. وهو مشهور بالأخص بوصفه مفسراً لموسيقى لوح المفاتيح العائدة لـ يوهان سباستيان باخ - م.

2 - يهودي مينوهين (1916 - 1999): عازف كمان وقائد فرقة موسيقية، مولود بأميركا، ينحدر من أسرة بيلاروسية يهودية. أمضى معظم سني حياته الفنية في بريطانيا. يُعدُّ واحداً من أشهر عازفي الكمان في القرن العشرين - م.

لا يزال يقيم معنا، واستمرتْ بعد اختفائه في هونغ كونغ. يومذاك، في الرابع من حزيران «يونيو»، وفي الأيام والأسابيع التي تلت المذبحة، بكتْ أمي. كنتُ أراقبها ليلةً بعد ليلة. كان أبي قد انشق من الصين في العام 1978 وكان ممنوعاً من الدخول إلى البلد ثانيةً. إلّا أنَّ عدم فهمي كان ذا صلة بالأشياء التي بمستطاعي رؤيتها: تلك الصور المُرعِبة، المليئة بالفوضى، صور الناس والدبابات، وأمي أمام شاشة التلفزيون.

في صيف ذلك العام، كما لو أنّ ذلك حدث في حلم، تابعتُ دروسي المتعلقة بالخط في المركز الثقافي القريب، وكنتُ أستخدم الفرشاة والحبر كي أنسخ بيدي بيتاً بعد بيت من الشعر الصيني. غير أن الكلمات التي باستطاعتي إدراكها - كبير، صغير، فتاة، قمر، سماء (大، 小، 女، 月، 天)[1] - كانت قليلةً. كان أبي يتكلّم لغة الـ مندرين[2]، وكانت أمي تتكلّم اللغة الكانتونية[3]، أما أنا فكنتُ أتكلم الإنكليزية فقط بطلاقة. في أول الأمر، كانت أحجية اللغة الصينية بدتْ أشبه بمباراة، بمصدر سرور وابتهاج، إلّا أنَّ عدم قدرتي على الفهم بدأ يضايقني ويقلقني. المرة تلو المرة، كنتُ أكتب حروفاً أبجدية لا يمكنني قراءتها، أجعلها أكبر فأكبر إلى أن يتسرب الحبر الزائد إلى الورق الرديء النوع ويمزقه. لم أكنْ أعبأ بذلك. توقفتُ عن مواصلة الكتابة.

في تشرين الأول «أكتوبر»، أقبل ضابطا شرطة إلى باب منزلنا. أبلغا أمي أن أبي غادر عالمنا، وأن مكتب المحقِّق في أسباب الوفيات المشتبه

---

1 - هذه الكلمات الصينية تُقرأ من اليسار إلى اليمين، كما وردتْ في النص الإنكليزي الأصلي - م.

2 - الـ مَندرين Mandarin: اللغة الصينية الرئيسة المنطوق بها في نحو أربعة أخماس الصين - م.

3 - الكانتونية أو الصينية الفصحى Cantonese: هي نوع من اللغة الصينية، يتحدث بها الصينيون المقيمون في إقليم «غوانغ تسهاو» وما يحيط به في الجنوب الشرقي من الصين. وهي نوع مميز تقليدي من يوي Yue، وهي واحدة من الفروع الرئيسة من اللغة الصينية - م.

بها في هونغ كونغ سوف يتولّى الملف. قائلاً إنَّ أبي توفي في حادثة انتحار. ومن ثم، بات الهدوء (qù) شخصاً آخر يقيم في داخل منزلنا. كان ينام في خزانة الثياب مع قمصان أبي، مع سراويله وأحذيته، كان يحرس التسجيلات الموسيقية التي كانت بحوزته، قطع بيتهوفن، بروكوفييف[1] وشوستاكوفيتش[2] الموسيقية، يحرس قبعاته، كرسيه ذا المسندين وكوبه الخاص. الهدوء (闃) انتقل إلى داخل عقولنا وثار كالمحيط في باطن أمي وباطني. في شتاء ذلك العام، كانت فانكوفر حتى أكثر كآبةً ورطوبةً من المعتاد، كما لو كان المطر بلوزةً صوفية سميكةً لا يمكننا أن ننزعها.

1 - سيرغي بروكوفييف (1891 - 1953): مؤلف موسيقي، عازف بيانو، قائد فرقة موسيقية «مايسترو» سوفييتي. ولأنه أبدع تحفاً مُعترفاً بها في أجناسٍ موسيقية شتى، يُعدُّ واحداً من أكبر المؤلفين الموسيقيين في القرن العشرين. أنجز سبع أوبرات كاملة، سبع سيمفونيات، ثماني باليهات، خمسة كونشيرتات بيانو، كونشيرتين كمان، وسواها. بعد الثورة البلشفية في العام 1917، غادر بروكوفييف روسيا بعد حصوله على مباركة رسمية من الوزير السوفييتي أناتولي لوناتشارسكي، واستقر في الولايات المتحدة، ومن ثم ألمانيا، وبعدها باريس. وخلال ذلك تزوج من المغنية الإسبانية كارولينا كودينا، وأنجب منها ابنين ذكرين. في العام 1936 عاد إلى وطنه، مع أفراد أسرته. استمتع ببعض النجاح، ومن بين أشهر أعماله: باليه «روميو وجولييت»، «ألكسندر نيفسكي»، وهي موسيقى وضعها بروكوفييف لفيلم بالاسم نفسه أخرجه سيرغي إيزنشتاين في العام 1938. حرّضه الغزو النازي لبلاده لأن يؤلف عملاً موسيقياً طموحاً جدّاً، وهو نسخة أوبرالية من رائعة تولستوي «الحرب والسلام». في العام 1948، اتّهم بروكوفييف بأنه أنتج «شكلانية معادية للديمقراطية»- م.

2 - دميتري شوستاكوفيتش (1906 - 1975): مؤلف موسيقي وعازف بيانو روسي. يُعدُّ واحداً من أكبر المؤلفين الموسيقيين في القرن العشرين. حقق شهرةً واسعةً في الاتحاد السوفييتي برعاية رئيس الأركان السوفييتي ميخائيل توخاتشيفسكي، لكنه فيما بعد خبر علاقةً صعبةً ومعقدة مع الحكومة. حظي بمظاهر التكريم والإشادة ونال جوائز الدولة وخدم في السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي (بدءاً من العام 1962 وحتى وفاته). تميز بأساليب موسيقية متعددة. تأثر بالأساليب الكلاسيكية - الجديدة للرائد إيغور سترافينسكي (وبخاصة في سيمفونياته)، والرومانسية المتأخرة التي ترافقتْ مع غوستاف ماهلر. يشتمل عمله الأوركسترالي على خمس عشرة سيمفونية وستة كونشيرتات. تضم أعماله الأخرى ثلاث أوبرات، العديد من سلاسل الأغاني، والباليهات وقدراً كبيراً من موسيقى الأفلام وسواها - م.

كنتُ أنام متأكدةً من أنه، في الصباح، سوف يوقظني أبي من النوم كدأبه، صوته يسحبني بقوة من النوم، إلى أن ضاعف هذا الوهمُ الفقدانَ، وآذاني أكثر مما حصل من قبل.

توالت الأسابيع، واختفى العام 1989 في العام 1990، وكنا أنا وأمي نتناول العشاء على الكنبة ليلياً لأنه ليس ثمة حيز على مائدة الطعام العائدة لنا. وثائق أبي الرسمية - شهادات من أنواع مختلفة، تصريحات ضرائبية - كان قد جرى تنظيمها في وقتٍ سابق، إلّا أنَّ البقايا ظلتْ على ما هي عليه. حين فتشتْ أمي الشقة بنحوٍ أشملٍ، ظهرتْ إلى النور قصاصاتُ ورق أخرى، تسجيلات موسيقية، حفنةٌ من الرسائل كان قد دوّنها أبي لكنه لم يرسلها («سبارو، لا أدري ما إذا ستصلك هذه الرسالة، لكن...») وحتى مزيدٌ من دفاتر الملاحظات. وبينما كنتُ أرى هذه المواد تزداد، تصوّرتُ أن أمي كانت تظن أن أبي سوف يتجسّد من جديد بهيئة قطعة ورق. أو لعلها كانت تظن، كما كان يفعل كبار السن في الأزمنة الغابرة، بأن الكلمات المدوَّنة على الورق هي طلاسم، وبشكلٍ من الأشكال يمكنها أن تدفع عنا الشر وتحمينا من الأذى.

في معظم الليالي، كانت أمي تجلس بين تلك الأوراق، وهي لا تزال بملابس المكتب خاصتها.

حاولتُ أن لا أزعجها. كنتُ أبقى في غرفة المعيشة الملاصقة وأرهف السمع، بين حينٍ وآخر، إلى تقليب الصفحات الصامت تقريباً.

صوت أنفاسها الهادئة.

المطر ينفجر ويشرّح زجاج النافذة.

كنا معلّقين في الزمن.

المرة تلو المرة، قعقعت الحافلة الكهربائية رقم 29 وهي تمرّ بمحاذاتنا.

كنتُ أتخيّل حواراتٍ. حاولتُ أن أتصوّر أبي وهو يولد مجدداً في العالَم السفلي، وهو يشتري دفتر يوميات آخر، يستخدم عملةً ماليةً

مختلفة، ويدسّ قطعه النقدية في جيب سترةٍ جديدة، سترة خفيفة الوزن مصنوعة من الريش أو ربما عباءة من وبر البعير، سترة قوية بما يكفي للسماء وللعالَم السفلي معاً.

في أثناء ذلك، كانت أمي تلهي نفسها بأن تحاول العثور على أفراد أسرة أبي، أينما يُحتمل أن يكونوا، كي تخبرهم بأن ابنهم أو أخاهم أو عمهم أو خالهم الذي لم يروه منذ أمدٍ بعيد لم يعدْ حيّاً في هذا العالم. بدأتْ تفتش عن والد أبي الذي تبناه، وهو رجل سكن في يومٍ ما في شنغهاي وكانوا يسمّونه «البروفيسور». كان هذا الرجل هو الفرد الوحيد من الأسرة الذي ذكره أبي. كان البحث عن المعلومات بطيئاً ومُتسماً بالمثابرة في بذل الجهد؛ لم يكنْ هنالك بريد إلكتروني أو شبكة إنترنت في ذلك الحين، ولهذا كان من السهل على أمي أن تبعث رسالةً إنما كان يصعب عليها الحصول على جواب حقيقي. كان أبي قد غادر الصين منذ وقتٍ طويل وإذا كان البروفيسور على قيد الحياة، كان سيصبح رجلاً عجوزاً بامتياز.

كانت بكين التي شاهدناها من على شاشة التلفزيون، بمستودعات الجثث والأُسر الحزينة على أبنائها المقتولين والمصابين، بالدبابات المُرابِطة في تقاطعات الشوارع، تنتصب فيها البنادق، عالَماً بعيداً كل البُعد عن بكين التي عرفها أبي. ومع ذلك، أفكر غالباً، أنها لا تختلف كثيراً على كل حال.

***

بعد بضعة أشهر، وتحديداً في آذار «مارس» 1990، حدث أن أرتني أمي «كتاب السجلات التاريخية». في تلك الليلة، كانت أمي جالسةً في موضعها المألوف إلى مائدة الطعام، تقرأ. كان دفتر الملاحظات الذي في يدها طويلاً وضيقاً، بقياسات باب مُصغّر. كان مُجلّداً بخيط قطني جوزي اللون، وكان التجليد غير مُحكم.

مضى زمن طويل على وقت نومي، أشارتْ عليّ أمي، على حين غرة.

«ماذا جرى لكِ!» قالت لي. وبعدها، خاطبتني مرتبكةً من سؤالها نفسه: «هل أنهيتِ واجبكِ المدرسي؟ كم الوقت الآن؟».

كنتُ فرغتُ من فرضي المدرسي منذ زمنٍ طويل وكنتُ أتفرّج على فيلم رعب بصوت خافت. لا أزال أتذكّر: كان ثمة رجل قُتل توّاً بمِعوَل الثلج[1].
«إنه منتصف الليل»، أجبتها، منزعجةً، لأن الرجل كان ليناً كالعجين.
مدّتْ أمي يداً ومضيتُ إليها. طوّقتْ خصري بإحدى ذراعيها وعصرتني. «هل ترغبين برؤية ما أقرؤه؟».
انحنيتُ على دفتر الملاحظات ونظرتُ إلى الكلمات المحتشدة. كانت الحروف الأبجدية الصينية قد تركتْ آثارها على الصفحة كما لو كانت بصمات حيوان على الثلج.
«إنها قصة»، قالت أمي.
«أوه. أيّ نوعٍ من القصص؟».
«أعتقد أنها رواية. يوجد مغامر اسمه دا – وي يبدأ رحلته إلى أميركا وبطلة اسمها [ميّ فورث][2] تقطع صحراء غوبي[3]...».
نظرتُ بنحوٍ أقوى لكن الكلمات ظلّتْ غير مقروءة.
«في زمنٍ ما كان الناس ينسخون كتباً كاملة باليد»، قالت أمي «كان الروس يسمّون هذه الطريقة samizdat [4]، ويسميها الصينيون... حسناً، لا أحسب أن لدينا اسماً لها. انظري كم هو قذرٌ دفتر الملاحظات هذا،

---

1 – معول الثلج: أداة لتكسير الثلج – م.
2 – ميّ فورث May Fourth الرابع من أيار «مايو»: هي حركة ثقافية، سياسية، مناوئة للإمبريالية، نمتْ من الطلبة الجامعيين المشاركين في بكين في الرابع من أيار «مايو» 1919، وهم يحتجون على رد الحكومة الصينية الضعيف تجاه «معاهدة فرساي»، بخاصة لأنها تسمح لليابان أن تأخذ أراضٍ في شاندونغ التي تنازلتْ عنها ألمانيا بعد حصار تسينغتاو. لكن ميّ فورث هي شخصية من شخصيات روايتنا هذه، وهي حبيبة دا – وي – م.
3 – صحراء غوبي: Gobi Desert: منطقة صحراوية واسعة في آسيا. تغطي أجزاءً من شمال وشمال غرب الصين وجنوب منغوليا – م.
4 – الـ samizdat: نسخ الكتب الممنوعة والمنشورات السرية باليد إبان العهد السوفييتي. هذه الكتب كانت توزع باليد من شخصٍ إلى آخر. وهذا النشاط السري يقوم به المنشقون أو المناوئون للسلطات في دول الاتحاد السوفييتي السابق – م.

وحتى توجد قطعٌ صغيرةٌ من الحشائش عليه. يا للهول كم عدد الناس الذين تناقلوه في الأمكنة كلها... عمرهُ يكبر عمركِ، لي - لينغ، بعقود».

تساءلتُ في سري: ما هو الشيء الذي لا يكبرني سناً بعقود؟[1] سألتُها ما إذا كان دفتر الملاحظات هذا قد نسخه أبي.

هزّتْ أمي رأسها نفياً. قالت «إن خط اليد جميل، وهو عمل خطاط ماهر، في حين كان خط أبي لا بالحسن ولا بالسيّئ. دفتر الملاحظات هذا هو فصلٌ من شيء أطول. هو ذا يقول: الفصل رقم 17. لا يقول مَن هو المؤلف، إنما انظري، يوجد هنا عنوان: [كتاب السجلات التاريخية]».

ألقتْ دفتر الملاحظات جانباً. على مائدة الطعام، كانت لأوراق أبي مظهر موجات مُزبِدة، تندفع للأمام، تهمُّ بالارتفاع فوق السطح والانفجار على السجادة. كل موادنا البريدية كانت هنا، أيضاً. بدءاً من السنة الجديدة، كانت أمي قد بدأتْ بتلقي رسائل من بكين، وهي تعازي من موسيقيين في «الفرقة السمفونية المركزية»[2] الذين لم يعرفوا بوفاة أبي إلّا مؤخراً. كانت أمي تقرأ هذه الرسائل وفي متناولها قاموس لأن الرسائل كانت مكتوبة بصينيةٍ مبسطة، لم تتعلمها من قبل. لأنها تلقتْ تعليمها في هونغ كونغ، كانت درست الألف باء الصينية التقليدية. إنما في الجزء الرئيس من البلد في خمسينيات القرن العشرين، أبجدية جديدة، أبسط أمستْ قانوناً في الصين الشيوعية. تغيّرتْ آلاف الكلمات؛ في سبيل المثال، «أن تكتب» (xiě) تحولتْ من (寫) إلى (写)، و«أن تعرف» (shí) تحولتْ من (識) إلى (识). حتى اسم «الحزب الشيوعي» (gòng chăn dăng) تبدّل من (共產黨)[3] إلى (共产党)[4]. في بعض الأحيان، كان بمستطاع أمي أن تفهم طبيعة الكلمة السابقة، وفي أحيان

---

1 - هنا تعني الكاتبة: أن ماري صغيرة جدّاً في السن، ولهذا كل الأشياء تكبرها عقوداً عدةً من الأعوام. كما أوضحتْ لنا الكاتبة في رسالةٍ منها إلينا - م.

2 - الفرقة السيمفونية المركزية Central Philharmonic، كما تُسمى أيضاً: الأوركسترا. - م.

3 - هذا الاسم يُقرأ من اليسار إلى اليمين - م.

4 - هذا الاسم، أيضاً، يُقرأ من اليسار إلى اليمين - م.

أخرى كانت تخمن معانيها. قالت إن ذلك يشبه قراءة رسالة آتية من المستقبل، أو يشبه التحدث إلى أشخاصٍ أداروا لها ظهورهم. كل ذلك تعقد بفعل الحقيقة القائلة إنها لم تعدْ تقرأ بالصينية، وكانت تعبّر عن أغلب أفكارها بالإنكليزية. لم يرقها تحدثي باللغة الكانتونية لأنها، كما قالت، «لكنتكِ ملتوية تماماً».

«المكان بارد هنا»، همستُ. «دعينا نلبس مناماتنا ونأوي إلى الفراش».

تطلعتْ أمي إلى دفتر الملاحظات، وحتى إنها لم تصغِ إليَّ نصف إصغاء.

«ماما ستكون متعبةً في الصباح»، قلتُ بإلحاح. «ماما سوف يداهمها النوم الخفيف عشرين مرة».

ابتسمتْ لكن عينيها الكائنتين خلف نظاراتها ضاقتا حيال شيء ما.

«اذهبي إلى النوم»، قالت: «لا تنتظري ماما».

طبعتُ قبلةً على خدها الناعم. «ماذا قال البوذي لصانع البيتزا؟».

«ماذا؟».

«وحّدني مع كل شيء».[1]

قهقهتُ وتأوهتُ وقهقهتُ مجدداً، ومن ثم ارتعدتُ، وأنا أفكر بالضحية التي شاهدتها على شاشة التلفزيون، بشرته اللينة كالعجين. باسمةً، دفعتني بصرامة.

***

وأنا مضطجعة في سريري، فكرتُ ملياً في حقائق عدة.

الحقيقة الأولى، في الصف الخامس، كنتُ صبيةً مختلفةً تماماً. كنتُ

---

1 - وحّدني مع كل شيء: نكتة تنطوي على تلاعب بالكلمات باللغة الإنكليزية. يسأل البوذي بائع اللقانق الساخنة: ماذا يمكنني أن أعمل لك؟، What can I make you? فيجيبه البوذي: Make me one with everything. أي: وحّدني مع كل شيء طبيعي في العالم - م.

طيبة القلب جدّاً وحسنة التنظيم والانضباط هناك، ديناميكية وناجحة، لا أدري ما إذا كان عقلي وروحي منفصلين.

الحقيقة الثانية، أنه في البلدان الأكثر فقراً، الأشخاص مثلي ومثل أمي لا يكونون وحيدين تماماً. على شاشة التلفزيون، البلدان الصغيرة عادةً ما تكون أمكنةً مزدحمة، مصاعد محمَّلة أكثر من اللازم تحاول الصعود إلى السماء. الناس ينامون، كلُّ ستة أفراد في سرير، في الحجرة الواحدة يسكن عشرة أشخاص. هناك يمكنك دوماً أن تعبّر عما يدور في ذهنكَ بصوتٍ عالٍ، متيقناً من أن أشخاصاً معينين ما سوف يسمعونكَ حتى إذا لم يرغبوا بذلك. في الواقع، إن أفضل طريقة لمعاقبة شخصٍ ما هي أن تُبعده عن أفراد أسرته وأصحابه، تعزله في بلدٍ بارد، وتدمّره بالوحدة.

الحقيقة الثالثة، وهذه ليستْ حقيقة بل سؤال: لماذا كان حبنا يعني شيئاً قليلاً جدّاً بالنسبة لأبينا؟

لا بدَّ أنني نمتُ لأنني أفقتُ من نومي فجأةً لأجد أمي منحنيةً عليَّ. كانت أناملها تمسح وجهي. لم أكنْ أبكي نهاراً، كنتُ أبكي ليلاً فقط.

«لا تكوني هكذا، لِي - لينغ»، قالت لي. كانت تتمتم بأشياء كثيرة. قالت لي: «إذا وقعتِ في فخٍّ في الغرفة ولم يأتِ أحد لنجدتكِ، ماذا يمكنكِ أن تفعلي؟ عليكِ أن تقرعي على الجدران وتهشمي النوافذ. يلزمكِ أن تتسلقي وتفري بجلدكِ. إنه شيء واضح، لِي - لينغ».

«اسمي ماري»، صحتُ «ماري!».

ابتسمتْ «مَن أنتِ؟».

«أنا لِي - لينغ!».

«أنتِ فتاة». استخدمت الاسم الدال على التحبب الذي يطلقه عليَّ أبي، لأن كلمة (女) تعني فتاة وابنة معاً. كان يحب أن يمزح قائلاً، إنه في المكان الذي أقبل منه، الفقراء لا يأبهون بتسمية بناتهم. كانت أمي تقبّل كتفه بقوة وتقول بالكانتونية: «لا تملأ عقلها مثلما تملأ علبة النفايات».

محميةً بين ذراعيها، أتكوّر مرةً أخرى وأشرع بالنوم.

فيما بعد استيقظتُ على صوت أمي وهي تغمغم بأفكار مستمرة وكانت تضحك على نحوٍ متقطع. هذه الصباحات الشتوية كانت مظلمةً جداً، إلّا أنَّ ضحكات أمي غير المتوقعة اخترقت الحجرة مثل طنين منبعث من مُسخِّن كهربائي. كان لبشرتها عبير وسائد نظيفة، عبير كرِيم أزهار نبات الـ أوسمانثوس الحلو الذي كانت تستعمله.

حين همستُ باسمها، تمتمتْ قائلةً: «هِه». ومن ثم، «هِه، هِه».

سألتها: «هل تمشين على اليابسة أم في عرض البحر؟».

بجلاءٍ تام، قالت: *«إنه هنا»*.

«مَن هو؟» حاولتُ أن أمعن النظر في ظلام الحجرة. كنتُ أظن حقيقةً أنه حاضر هناك.

«الرجل الذي تبناه. ذلك هممم. ذلك... بروفيسور».

قبضتُ على أصابعها بقوة. في الناحية الثانية من الستائر، كانت السماء تغيّر لونها. نويتُ أن أتبعها وأتغلغل معها في ماضي أبي، على الرغم من أنني لم أكنْ أثق به. بوسع الناس أن يفروا من وضعهم الصعب صوب الأوهام، قد يشاهدون شيئاً مبهجاً جدّاً بحيث إنّهم يهملون الالتفات من حولهم. كنتُ أخشى، حالي حال أبي، بأنها لن تعود تتذكر أسباب مجيئنا إلى المنزل.

***

الحياة في الخارج - بداية عام دراسي جديد، انتظام الاختبارات، مسرات معسكر الرياضيات - استمرتْ كما لو أنّها لن تتوقف أبداً، مدفوعةً إلى الأمام بفعل العالم الدائري للفصول. كانت جاكتات أبي الصيفية والشتوية لا تزال تنتظر إلى جوار الباب، تحت قبعاته وفوق أحذيته.

في مطلع كانون الأول «ديسمبر»، وصل مغلّف سميك من شنغهاي

وجلستْ أمي مرةً أخرى مع قاموسها. كان القاموس بحجم صغير، بظهر سميك وقوي بإفراط وذا غلاف أخضر - و - أبيض. الصفحات، حين قلّبتها، شفافة، وبدتْ عديمة الوزن. هنا وهناك، أجد لطخة شحم أو حلقة قهوة، من كوب أمي أو ربما كوبي أنا. كل كلمة محفوظة في ملف تحت أصلها، كما كانت معروفة بكونها أصلية. في سبيل المثال، (門) تعني بوابة، لكنها أيضاً أصلية، أي إنها، قالب البناء بالنسبة لكلمات ومفاهيم أخرى. إذا شع ضوءٌ، أو شعت الشمس (日)، عبر البوابة، يكون لدينا فضاء (間) إذا كان هنالك حصان (馬) في داخل البوابة، يكون هذا كمين (闖)، وإذا كان هنالك فم (口) في داخل البوابة، يكون لدينا سؤال (問). إذا كانت هنالك عين (目) وكلب (犬) في الداخل، يكون لدينا هدوء (闃).

كانت الرسالة القادمة من شنغهاي بثلاثين صفحة ومكتوبة بيدٍ عنكبوتية؛ بعد بضع دقائق تعبتُ من مراقبة أمي وهي تبذل جهوداً حثيثةً من أجل فهم محتواها. مضيتُ إلى الغرفة الأمامية وتطلعتُ إلى الجيران. في الناحية المقابلة للفناء، شاهدتُ شجرةً بائسةً من أشجار عيد الميلاد. بدتْ كما لو أنّ شخصاً ما حاول أن يخنقها بخيوط أو أشرطة معدنية أو ورقية أو بلاستيكية لمّاعة.

عصف المطر وصفّرت الريح. جلبتُ لأمي شراب البيض[1].

«هل هي رسالة جيدة؟».

ألقتْ أمي الصفحات جانباً. بدتْ أجفانها متورمةً. «لم تكنْ كما توقعتُها».

مررتُ إصبعي على المظروف وبدأتُ أفك مغاليق الاسم على عنوان الإرجاع. أذهلني. «امرأة؟» سألتها، وقد انتابني الخوف فجأةً.

أومأتْ أمي برأسها.

---

1 - شراب البيض: بيض مخفوق مع السكر والقشدة والخمر - م.

«لديها طلب»، أجابتْ أمي، وهي تأخذ المظروف مني وتدسّه تحت بعض الأوراق. دنوتُ منها كما لو أنّها زهريةٌ توشك على الانزلاق من على سطح طاولة، غير أن عينيْ أمي المتورمتين نقلتا عاطفةً غير متوقعة. راحة؟ أم ربما، ويا لعجبي، فرحاً. تابعتْ أمي كلامها: «إنها تطلب مني أن أعمل لها معروفاً».

«هلا قرأتِ لي الرسالة؟».

قرصتْ أمي قصبة أنفها. «المسألة كلها طويلة حقيقةً. إنها تقول إنها لم ترَ أباكِ منذ زمن طويل. لكنهما، في يومٍ ما، كانا أشبه بأسرة واحدة». تلعثمتْ وهي تتلفظ بكلمة *[أسرة]»*. إنها تقول إن زوجها هو الذي درّسَ أباكِ التأليف الموسيقي في [المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي][1]. إلّا أنَهما فقدا التواصل بينهما، إبان السنوات العجاف».

«أيّ سنوات عجاف؟» بدأتُ أرتاب بأن أيّ معروف سوف يتضمن دولارات أميركية أو ثلاجة كهربائية جديدة، وخشيتُ من أن يتمّ الاحتيال على أمي.

«قبل ولادتكِ. في ستينيات القرن العشرين. حينما كان أبوكِ طالباً يدرس الموسيقى». نظرتْ أمي إلى الأسفل وعلى وجهها تعبير لا يمكن قراءته. «إنها تقول إن أباكِ اتصل بهم في السنة المنصرمة. كتب أبوكِ لها من هونغ كونغ قبل وفاته بأيام قلائل».

خطرتْ في ذهني سلسلةٌ من الأسئلة. كنتُ أعرف أنه يتعيّن عليَّ ألّا أضايقها إنما أخيراً، لأنني أردتُ فقط أن أفهم، قلتُ لها: «مَن تكون هذه المرأة؟ ما اسمها؟».

«اسم أسرتها دينغ».

«لكن ما اسمها هي؟».

---

1 - المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي: Shanghai Conservatory of Music. نشير إليه، غالباً، في ترجمتنا هذه باعتباره: كونسرفتوار شنغهاي - م.

فتحتْ أمي فمها إنما لم تخرج الكلمات منه. أخيراً نظرتْ مباشرةً في عيني وانبرتْ قائلةً: «اسمها هو لِي - لينغ».

كان اسمها هو اسمي نفسه، فقط إنه مكتوب بالصينية المبسطة. تناولتُ رسالتها. وضعتْ أمي يدها بقوة على يدي. أدركتْ مسبقاً سؤالي التالي، ولهذا اندفعتْ قُدُماً وأردفتْ قائلةً: «هذه الصفحات الثلاثون تتعلق بالحاضر وليس الماضي. ابنة دينغ لِي - لينغ وصلتْ إلى تورونتو إلّا أنَّ جوازها غير صالح للاستعمال. ابنتها لا تعرف مكاناً تمضي إليه، إنها تحتاج إلى مساعدتنا. ابنتها...». برشاقة، دسّتْ أمي الرسالة في داخل المظروف. «ابنتها سوف تأتي للإقامة معنا برهةً من الزمن. هل تفهمين؟ هذه الرسالة تخص الحاضر».

شعرتُ أنني في حالة اضطراب وتشوّش. «لماذا يجب أن تسكن معنا فتاةٌ غريبةٌ؟».

«اسم ابنتها أي - مينغ»، قالت أمي، وهي تسعى إلى أن تقودني للوراء. «سوف أتصل هاتفياً وأرتب لها الأمور كي تأتي إلينا».

«هل نحن، أنا وهي، في العمر عينه؟».

بدتْ أمي مضطربة. «كلا، لا بدَّ أنها في التاسعة عشرة في الأقل، إنها طالبة جامعية. تقول دينغ لِي - لينغ إن ابنتها... تقول إن أي - مينغ واجهتْ مشكلةً في بكين خلال تظاهرات تيانانمين. لاذتْ بالفرار».

«أيَّ نوع من المشاكل؟».

«كفى»، قالت أمي. «هذا كل ما تحتاجين لمعرفته».

«كلا! أريد أن أعرف المزيد».

ساخطةً، أغلقتْ أمي القاموس بقوة. «مَن الذي أنجبكِ؟ أنتِ أصغر عمراً من أن تكوني فضوليةً هكذا!».

«لكن -».

«*كفى*».

***

انتظرت أمي إلى أن آوي إلى فراشي قبل أن تُجري الاتصال الهاتفي. تكلّمتْ بلغتها الأم، الكانتونية، مع إقحامات موجزة بلغة الـ مندرين، وكان بمستطاعي أن أسمع، حتى من وراء الباب الموصد كيف كانت تتلعثم بالنبرات التي لم تكنْ تأتيها بصورةٍ طبيعية.

«الطقس باردٌ جدّاً في المكان الذي أنتِ فيه؟» سمعتُ أمي تقول.

وبعدها قالت: «بطاقة الـ غريهاوند[1] تنتظرك في...».

نزعتُ نظاراتي وتطلعتُ إلى النافذة غير الواضحة. لاح المطر أشبه بالثلج. بدا صوت أمي غريباً بالنسبة لي.

بعد برهة صمت طويلة ثبّتُّ نظاراتي من جديد على أذنيَّ، نزلتُ من السرير ومضيتُ إلى خارج الغرفة. كانت أمي تمسك بقلم حبر في يدها وثمة كدس من الفواتير أمامها، وكأنها تنتظر إملاءً. رأتني وبادرتني قائلةً: «أين خفّاكِ؟».

أجبتها بأنني لا أعرف.

انفجرتْ أمي. «اذهبي إلى الفراش، يا فتاة! لماذا لا تفهمين؟ أريد فقط أن أنعم بشيءٍ من الراحة! إنكِ لا تتركينني وحدي، إنكِ تراقبينني على الدوام كما لو أنّكِ تحسبين أنني سوف...». قذفتْ قلم الحبر بقوة، كُسرتْ قطعةٌ منه وتدحرجتْ على الأرض. «إنكِ تظنين أنني سأغادر؟ تظنين أنني أنانية مثله؟ إنني لن أهجركِ وأؤذيكِ مثلما فعل هو من قبل؟». كان ثمة انفجار طويل، وعنيف باللغة الكانتونية، وبعدها: «فقط اذهبي إلى فراشكِ!».

بدتْ هرمةً وهشةً جدّاً وهي جالسة هناك، مع قاموسها القديم، والسميك.

هرعتُ إلى الحمام، صفقتُ الباب ورائي، فتحتُه، صفقتُه بصورةٍ

---

1 – غريهاوند: خط حافلات عمومية بين المدن، يصل إلى 3800 موقع في أميركا الشمالية. اسم الشركة الأصلي: Greyhound Lines Inc. – م.

أقوى، وانفجرتُ بالبكاء. فتحتُ صنبور الماء في حوض الاستحمام، وأنا أدرك أن ما كنتُ أبتغيه، حقيقةً، هو الذهاب للسرير. تحوَّل نشيجي إلى فواق، وحين توقف الفواق أخيراً، كل ما سمعتُه هو صوت تدفق الماء إلى الأسفل. جلستُ على حافة حوض الاستحمام، راقبتُ قدمي وهي تتشوه تحت السطح. انطوت ساقاي الشاحبتان فيما كنتُ أغطس.

أبي، في ذاكرتي، عاد إليّ. دفع كاسيت صوتي في داخل جهاز التسجيل، أخبرني أن أجعل النوافذ تدور إلى الأسفل، ومشينا بوقار في «مين ستريت» وعلى طول «غرَيت نورثرن ويّ»، كونشيرتو[1] بيتهوفن المدوّي: «الإمبراطور»، يعزفه غلين غولد مع ليوبولد ستوكووسكي[2] قائداً للفرقة الموسيقية. نغمات موسيقية متدفقة بسرعة واختلاط سقطتْ كالشلال إلى الأسفل وبصورةٍ لانهائية إلى الأعلى، وأبي يعزف بيده اليمنى فيما هو يوجه بيده اليسرى. أسمع دندنته، ألحانه القارعة: دا! دا - دي - دي - دي دا!



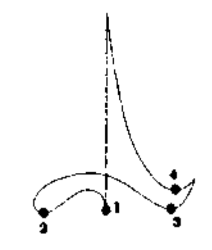
دا، دا، دا! كان لديَّ الإحساس بأنه، فيما كنا نستعرض بانتصار عبر فانكوفر، لم تكن الحركة الأولى من إبداع بيتهوفن، بل من إبداع أبي.

---

1 - كونشيرتو Concerto: لحن يُعزف على آلة وحيدة أو أكثر بمصاحبة الأوركسترا - م.
2 - ليوبولد ستوكوويسكي: Leopold Stokowski (1977 - 1882): قائد فرقة موسيقية «مايسترو» بريطاني من أصول بولندية وإيرلندية. وهو واحد من أبرز قادة الفرق الموسيقية في مطلع ومنتصف القرن العشرين، معروف بعمله مع «أوركسترا فيلادلفيا» وظهوره في فيلم «فانتازيا» - م.

كانت يده تتحرك بشكل الإيقاع الموسيقي «4 / 4 time»، الرعشة المتسمة بالترقب بين الضربة الرابعة والأولى[1].

وتساءلتُ ما معنى أن لا يحتفظ رجلٌ كان في يومٍ ما ذائع الصيت، وهو الذي كان يعزف الموسيقى في بكين أمام ماو تسي تونغ نفسه، ببيانو في منزله الخاص؟ هو الذي كان يكسب رزقه من خلال عمله في متجر؟ في الواقع، مع أنني كنتُ أتوسل من أجل تلقي دروس في الكمان، كان أبي يرفض ذلك على الدوام. ومع ذلك ها نحن هنا، نجتاز شوارع المدينة التي تطوّقها هذه الموسيقى المنتصرة، بحيث إنّ الماضي، ماضي بيتهوفن وماضي أبي، لم يمتْ قط بل كان صداه يتردّد تحت حاجب الريح[2]، وبعدها يصعد إلى الأعلى ويغطينا كالشمس.



ذهبت الـ بيوك[3]، باعتها أمي. كانت أمي على الدوام هي الأكثر عناداً وصرامة، على غرار الصبّار في غرفة المعيشة، النبتة الوحيدة في المنزل التي ظلتْ حيةً بعد رحيل أبي. كي يعيش، كان أبي بحاجة إلى المزيد. التف حولي ماء الحمام. شعرتُ بالحرج من هدر الوقت وأغلقت الصنبور بأن لويته. قال لي أبي، ذات مرة، إن الموسيقى تمتلئ بحقب الصمت. لم يخلّف لي شيئاً، لا رسالة، لا خطاباً. لم يتركْ لي كلمة واحدة.

قرعتْ أمي الباب.

«ماري»، قالت. أدارت أكرة الباب إلّا أنّه كان مغلقاً. لِي - لينغ، هل أنتِ على ما يرام؟».

---

1 - في الشكل اللاحق، تتحرك يد المايسترو «قائد الفرقة الموسيقية» بشكل مثلث في الهواء ومن ثم تهبط من الأعلى إلى الأسفل حين تتحرك من الضربة الرابعة إلى طورٍ جديد من الموسيقى - م.

2 - حاجب الريح: الحاجز الزجاجي الأمامي الذي يقي سائق السيارة من الريح - م.

3 - الـ بيوك Buick: أقدم أنواع السيارات الأميركية - م.

انقضتْ لحظة طويلة.

في الحقيقة، كنتُ أحبُّ أبي أكثر. إدراكي لهذا الأمر أتى إليّ في الوقت نفسه الذي عرفتُ فيه، بنحوٍ لا يرقى إليه الشك، بأن أبي كان حتماً يتألم ألماً شديداً، وبأن أمي لن تتخلى عني أبداً. وهي، أيضاً، كانت تحبه. باكيةً، أرحتُ يديَّ على سطح الماء. «إنني فحسب أريدُ الاستحمام».

«أوه»، قالت أمي. بدا صوتها كأنه يتردّد في داخل حوض الاستحمام نفسه. «لا تدعي البرد يصيبك هناك».

حاولتُ فتح الباب مجدداً إلّا أنّه كان لا يزال مغلقاً.

«سنكون على ما يرام»، قالت لي في النهاية.

كنتُ أريد، أكثر من أيّ شيء آخر، أن نستيقظ كلانا، أنا وأمي، من هذا الحلم. وبدلاً من ذلك، بنحو عاجز، رششتُ الماء على دموعي وأومأتُ برأسي. «أعرف ذلك».

أرهفتُ السمع لصوت خفيها وهو يتضاءل فيما كانا يبتعدان ماشيين بخطى خافتة.

***

في السادس عشر من كانون الأول «ديسمبر» 1990، أقبلتْ أمي إلى المنزل بواسطة سيارة أجرة مع ابنة جديدة لم تكنْ ترتدي سترةً، بل ترتدي فحسب وشاحاً سميكاً، بلوزةً صوفيةً سميكةً، سروالاً من الجينز الأزرق وحذاءً من الكنفا. لم يسبقْ لي أن قابلتُ فتاةً صينيةً من قبل، أيّ، واحدة، على غرار أبي، أتتْ من الجزء الرئيس الحقيقي من الصين. زوج من القفازات الرمادية يتدليان من خيط يطوّق رقبتها ويتأرجحان بإيقاع عصبي على ساقيها. أطراف وشاحها الأزرق ذات الأهداب بعضها يتدلى في الأمام وبعضها الآخر في الخلف، تبدو مثل طالبة متفوقة. كان المطر ينهمر بغزارة، وكانت تمشي ورأسها مطأطأ، تحمل حقيبة سفر مستطيلة، متوسطة الحجم بدتْ خاليةً. كانت الفتاة شاحبة اللون وكان لشعرها لمعان البحر.

بالمصادفة، فتحتُ الباب واتسعتْ عيناي كما لو أنّني لا أتوقع زائرين.

«يا فتاة»، خاطبتني أمي. «خذي حقيبة السفر. أسرعي».

دلفتْ أي - مينغ إلى الداخل وتوقفتْ هنيهةً عند حافة ممسحة الأرجل. حين تناولتُ حقيبة السفر، مستْ يدي يدها عَرَضاً، لكنها لم تسحبها. عوضاً عن ذلك، امتدتْ يدها الأخرى وغطتْ يدي برشاقة. نظرتْ إليَّ مباشرةً، بتلك الصراحة والفضول بحيث، تعبيراً عن حيائي، أغمضتُ عينيَّ.

«أي - مينغ»، قالت أمي. «دعوني أعرّفكما إلى بعضكما. هذه فتاتي».

تراجعت للوراء وفتحتُ عينيَّ من جديد.

خلعتْ أمي سترتها، وتطلعتْ إليّ أولاً ومن ثم إلى الغرفة. كانت الكنبة البنية بأشرطتها الثلاثة التي بلون البعير قديمةً وباليةً، لكنني هندمتها بجميع الوسائد المزهرة والحيوانات المحنطة التي أتيتُ بها من سريري. كما أنني أشعلتُ جهاز التلفزيون كي أهب هذه الغرفة مظهراً نابضاً بالحيوية. أمي أومأتْ لي بقوة. «يا فتاة، رحبي بخالتك».

«في الحقيقة، لا بأس إذا ما سميتني أي - مينغ. أرجوكِ. إنني حقيقةً، ممم، أفضّل هذا الاسم».

وحتى أهدئهما كلتيهما، قلتُ: «مرحباً».

ومثلما توقعتُ بالضبط، كانت حقيبة السفر المستطيلة خفيفةً جداً. بيدي الطليقة، تحركتُ لآخذ سترة أي - مينغ، لكنني بعد برهةٍ طويلة تذكرتُ أنها لا تملك سترةً. تمايلتْ ذراعي في الهواء مثل علامة استفهام. مدّتْ يدها، قبضتْ على يدي وهزّتها بقوة.

كان لديها سؤال في عينيها. كان شعرها، المشدود للوراء إلى أحد الجانبين، ينسدل بحرية على الجانب الآخر، بحيث إنّها كانت تبدو أبداً في صورتها الجانبية، كأنها تهمّ بالالتفات إليّ. من دون أن تفلت يدي، كانت تناور فردتيْ حذائها من دون ضجيج وهي تحاول

نزعهما من قدميها، في البداية إحداهما ومن ثم الأخرى. حبات مطر صغيرة جداً لمعتْ على وشاحها. كانت حيواتنا قد تقلّصتْ إلى درجةٍ ما بحيث إنّني لم يكنْ بمستطاعي أن أتذكر آخر مرة دخل فيها رجل غريب أو امرأة غريبة إلى بيتنا. حضور أي – مينغ جعل الأشياء كلها غير مألوفة، كما لو أنّ الجدران قد اندفعتْ للأمام بضع بوصات وغدتْ أقرب إليّ كي تراها. في الليلة الفائتة، كنا، أخيراً، قد حزمنا أوراق أبي ودفاتر ملاحظاته، وضعناها في صناديق وكدّسنا الصناديق تحت طاولة المطبخ. الآن، وجدتُ سطح الطاولة عارياً بصورةٍ مُضلِّلة. حررتُ يدي، وأنا أقول إنني سأضع حقيبة السفر العائدة لها في حجرة النوم خاصتها.

أخذتها أمي هنا وهناك وأرتها الشقة. عدتُ إلى الكنبة وتظاهرتُ بمشاهدة «قناة المناخ» التلفزيونية، التي تنبأتْ بجوّ ممطر طوال بقية أيام الأسبوع، بقية العام 1990، بقية القرن العشرين، وحتى بقية الأزمنة كلها. كان صوتاهما يركضان الواحد تلو الآخر مثل سيارتين مربوطتين بأسلاك، وكان الصمت يتخلل حديثهما بين الحين والحين. كانت كثافة الشقة قد تسللتْ إلى داخلي، وكان لديَّ شعور بأن الأرض مصنوعة من الورق، وبأن هنالك كلمات مكتوبة في الأمكنة كلها لا يمكنني قراءتها، وأن إيماءةً غير دالة على تفكير بوسعها أن تطيح بهذا المكان بأسره.

***

تناولنا الزاد سويةً، ونحن جالسات حول طاولة الطعام. رفعتْ أمي ورقةً، محوّلةً الطاولة من بيضة إلى دائرة. كانت قد توقفتْ عن كلامها غير المترابط كي ترسل إليّ نظرةً تقول: *كفي عن التحديق.*

بين الفينة والفينة، كانت قدمي بالمصادفة تركل أحد الصناديق الموضوعة تحت الطاولة، الأمر الذي يجعل أي – مينغ تجفل.

«أي – مينغ، هل لاحظتِ البرد القارس؟» قالت أمي بابتهاج، وهي تتجاهلني. «أنا نفسي لم يسبقْ لي أن خبرتُ شتاءً إلى أن أتيتُ إلى كندا».

«بكين لديها شتاء لكنني لم أره. في الواقع، نشأتُ في مكانٍ بعيد عنها، في الجنوب حيث يكون المناخ رطباً ودافئاً، لذلك حين انتقلنا للسكن في بكين، كان البرد جديداً عليَّ».

«لم يسبقْ لي أن كنتُ في العاصمة، لكنني سمعتُ أن الغبار يطير في الهواء آتياً من الصحارى الغربية».

«هذا صحيح». أومأتْ أي – مينغ برأسها، وهي تبتسم. «الغبار يتسلل إلى داخل ثيابنا وفي ثنايا شعرنا، وحتى يدخل إلى طعامنا».

وأنا جالسة قبالتها، كان بوسعي أن أرى أنها بالفعل في ربيعها التاسع عشر. بدتْ عيناها منتفختين ومرهقتين، وذكّرتاني، بنحوٍ غير متوقع، بوجه أمي الكئيب. في بعض الأحيان، أعتقد، يمكنكَ أن تنظر إلى شخصٍ ما وتعرف أن عينيه مليئتان بالكلمات. ربما كانت الكلمات محتبسةً بسبب الألم أو الخصوصية، أو ربما كانت تلك مجرد ذريعة. ربما كانت هنالك كلمات ذوات حافات حادة كالسكاكين تنتظر سحب الدم. شعرتُ أنني مثل الاثنتين معاً: مثل طفلة وامرأة بالغة. أردتُ من أمي ومن نفسي أن تدعاني وشأني إنما، لأسباب عدة لا يمكنني تفسيرها، أردتُ أن أكون قريبةً منها.

«ما هذه الـ[مينغ] في [أي – مينغ]؟» سألتها بالإنكليزية، وأنا أرفس صندوقاً كي أشدد على سؤالي. «هل إن الـ[مينغ] تعني أن نفهم، أم إنها الـ[مينغ] التي تعني القَدَر؟».

كلتاهما تطلعتا إليّ.

«تناولي دجاجكِ»، قالت لي أمي.

تفحصتني الابنة، وعلى وجهها يلوح تعبير سار. رسمتْ في الهواء الكائن بيننا: (明). الشمس والقمر اتحدا كي يصنعا الفهم والسطوع. كانت كلمة متداولة يومياً.

«كان أبواي يريدان فكرة [أي مينغ ài míng]»، قالت. «[كي يُعزا الحكمة]. لكنكِ على حق، ثمة شك فيها. فكرة تفيد بأن... ممم، ليس

التعلّق بالقدر، ليس تماماً، بل القبول به». التقطتْ طاسها من جديد ودستْ طرفيْ عوديها[1] في ليونة الرز.

سألتها أمي ما إذا كانت تحتاج إلى أيّ شيء، أو ما إذا ثمة شيء تودّ القيام به.

وضعتْ أي - مينغ طاسها على سطح المائدة. «بصراحة، أحسُّ كما لو أنّه مرَّ وقتٌ طويلٌ منذ أن نمتُ نوماً ليلياً جيداً. في تورونتو، لم يكنْ بوسعي أن أرتاح. في كل بضعة أسابيع كان يتعيَّن عليّ أن أغيّر مقر إقامتي».

«تغيرين منزلكِ؟».

كانت أي - مينغ ترتجف. «أعتقد... أنني كنتُ أخاف من البوليس. كنتُ أخشى أن يعيدوني إلى بلدي. لا أدري ما إذا كان بمستطاع أمي أن تروي لكِ كل شيء. أتمنى ذلك. في بكين، لم أقترفْ شيئاً خاطئاً، شيئاً إجرامياً، إنما على الرغم من ذلك... في الصين، كانت خالتي وزوج خالتي قد قدّما لي المساعدة كي أغادر البلاد واجتزتُ الحدود متجهةً صوب قرغيزستان وعقب ذلك... اشتريتِ لي بطاقتي هنا. على الرغم من كل شيء، لقد قدمتِ لي العون... إنني ممتنة جداً، وإنني أخشى ألّا أكونَ قادرةً على أن أشكركِ كما ينبغي لي. إنني آسفة على كل شيء...».

بدتْ أمي مُرتبكةً. «الآن»، قالت. «كُلي شيئاً ما».

إلّا أنَّ تغيراً طرأ على أي - مينغ. كانت يداها ترتجفان بشدة، ولم يكنْ بمستطاعها أن تتدبر أمرها مع عوديها. «كل يوم أعود وأتأمل الأمور بكل تفاصيلها لكنني لا أفهمْ كيف وصلتُ إلى هنا. يبدو لي كما لو أنني لاجئة. في وطني، أمي تقاوم. وأنا هنا أخشى النوم... غالباً، أحلم بأن شيئاً من هذا لم يحدثْ فعلاً لكنني بعدئذٍ أفيق من نومي ويغدو هذا كابوساً. ليتني كنتُ مع أمي، ليت أبي حيّاً يُرزق، ليته لم... إلّا أنَّ الشيء المهم جدّاً هو أنني عملتُ من نفسي شيئاً لأنه، الآن تحديداً، ليس لديَّ شيء.

1 - العودان: هما اللذان يتناول بهما الصينيون طعامهم - م.

إنني حتى لم أحصلْ على جواز سفر. إنني أتخوف من استخدام الجواز الذي حصلتُ عليه من قبل، إنه غير... قانوني. إنه غير عائد لي إنما لم يكنْ أمامي خيار آخر. سمعتُ أنه إذا ما قُيّض لي أن أكون وراء الحدود في الولايات المتحدة الأميركية، يوجد عفو عام عن الطلبة الجامعيين الصينيين وربما أكون مؤهلة لهذا العفو. حتى إذا كنتُ لا أملك شيئاً سأسدد كل المبالغ المترتبة عليّ، إنني أقسم. إنني أتعهد بذلك».

«Zhí nǔ»، قالت أمي، وهي تميل نحوها. الكلمتان أربكتاني. كانتا تعنيان «ابنة أخي»، غير أن أمي ليس لديها أخوة.

«كنتُ أريد أن أرعاهما إلّا أنَّ الأمور كلها تغيّرتْ بسرعةٍ شديدة. كل شيء مُني بالفشل».

«لا حاجة بكِ لأن تدافعي عن نفسكِ الآن»، قالت أمي. «نحن أفراد أسرة واحدة وهذه ليستْ محض كلمات، أتفهمين؟ هذه أكبر من الكلمات بكثير».

«وكذلك»، قالت أي - مينغ، وهي تغدو شاحبة الوجه. «إنني آسفة حقيقةً على فقدانكِ زوجك».

تبادلت أمي وأي - مينغ النظر إحداهما إلى الأخرى. «شكراً لك»، قالت أمي. الدموع المفاجئة في عينيها تغلبتْ على كل شيء في داخلي. على الرغم من كل الظروف القاسية التي مررنا بها، نادراً ما كانت أمي تبكي. «وأنا آسفة جداً على رحيل أبيكِ. زوجي كان يحب أباكِ حباً جماً».

***

في أول سبت لم يكنْ يتعيَّن على أمي أن تعمل فيه، مضتْ إلى المركز التجاري للمدينة وعادتْ إلى المنزل ومعها الجوارب، البلوزات الصوفية السميكة، وزوج من الأحذية الشتوية وسترة. في أول الأمر، كانت أي - مينغ تنام ساعاتٍ طويلة. كان تخرج من غرفة نوم أمي بشعر غير منتظم، مرتديةً زوجاً من كساء الساقين عائداً لي

وقميصاً قطنياً قديماً عائداً لأمي. كانت أي - مينغ تخشى الذهاب إلى الخارج، لذلك مرتْ بضعة أسابيع قبل أن تنتعل الحذاء الجديد. السترة، على أية حال، كانت تلبسها يومياً. في أوقات ما بعد الظهيرة، كانت تطالع كثيراً، وهي جالسة في المطبخ مع كدسٍ من كتب أبي. كانت تقرأ ويداها في جيبيْ سترتها، وكانت تستخدم ساطوراً كي تُبقي الكتاب مسطحاً. كان شعرها ينزلق غالباً إلى الأمام ويحجب عنها الضوء، فكانت ترفعه إلى الأعلى وتدس خصلة الشعر في داخل عنق بلوزتها الصوفية السميكة.

في إحدى الليالي، وكان قد مضى أسبوع على وجودها بيننا، طلبتْ من أمي أن تقص شعرها. كان ذلك بعد عيد الميلاد مباشرةً، على ما أتذكر. بما أن دوام المدرسة قد انتهى، كنتُ أمضي معظم وقتي في تناول الشوكولاته، ماركة «تورتلز»، أمام شاشة التلفزيون. أمرتني أمي بأن آتي وأرش الماء من الزجاجة البلاستيكية على شعر أي - مينغ، لكنني رفضتُ، قائلةً إن شعر ضيفتنا يجب أن يبقى على ما هو عليه.

ضحكت المرأة. قالت أي - مينغ إنها تريد أن تظهر عصرية. مضتا إلى المطبخ وبسطتا صفحات عريضة من إحدى الصحف، ونزعتْ أي - مينغ سترتها وصعدتْ فوق سطح مسند القدمين كي يقع شعرها الطويل بحرية بين مقص أمي. كنتُ أشاهد حدثاً واقعياً من *«ذه أي - تيم»*[1] والحفيف الضعيف للمقص، فضلاً عن ضحكاتهما، جعل من العسير عليّ أن أتابع البرنامج. في أول فاصل إعلاني، مضيتُ إلى المطبخ كي أعاين المرحلة التي وصلا إليها في قص الشعر.

أي - مينغ، يداها مطويتان كما لو أنّها تصلي، دوّرتْ عينيها ناحيتي. قصتْ

1 - ذه أي - تيم: The A - Team: فيلم كوميدي - أكشن أميركي، مقتبس من مسلسل تلفزيوني بالاسم نفسه. يروي الفيلم قصة «الفرقة أ»، وهي فرقة مسلحة أميركية مكلفة بالطواف في منطقة معينة لإقرار الأمن فيها. أُنتج الفيلم سنة 2010. في حين تمّ عرض المسلسل التلفزيوني بين عاميْ 1983 و1989 - م.

أمي نحو ثلث شعرها، والأطراف الطويلة، الندية استقرتْ على الأرض مثل كائنات بحرية مذبوحة. «أوه»، قلت، «كيف استطعتِ أن تفعلي ذلك؟».

رفعتْ أمي سلاحها. «سيأتي دورك، يا فتاة».

«ما - لِي، سوف تحل قريباً السنة الميلادية الجديدة. وقت قص الشعر». كانت أي - مينغ تجد صعوبةً في أن تقول ماري، لذلك استخدمت الاسم الصيني الذي يعني، وفقاً للقاموس: «المعدن الفاتن».

حينئذٍ فقط، فصلتْ أمي قطعة كبيرة الحجم وغليظة من الشعر. رفرفتْ هذه القطعة، كما لو أنّها لا تزال تتنفس، في طريقها صوب الأرض.

«إنها السنة الميلادية الكندية. الناس في كندا لا يقصون شعرهم عند حلول السنة الميلادية. إنهم يشربون الشمبانيا».

في كل مرةٍ تسحب فيها زناد الزجاجة البلاستيكية، يحجب ضبابٌ ناعمٌ النظر عن أي - مينغ، التي أغمضتْ عينيها بقوة حيال البرد. وبينما كنتُ أراقب، تحوّلتْ أي - مينغ أمام عينيْ. حتى شحوب بشرتها أخذ يبدو أقل فظاعةً. بعد أن قصتْ شعرها ليصبح بمستوى كتفها، شرعتْ أمي تعيد شكل شعر ناصية أي - مينغ الذي كان ماثلاً على جبينها بطريقةٍ أنيقة من دون تردّد. كانت جميلةً جدّاً، جدّاً. كانت عيناها داكنتين وصافيتين وكان شكل فمها، مثلما يقول الشعراء، وردةً على بشرتها. ثمة نضارة في وجنتيْ أي - مينغ لم تكنْ موجودةً قبل ساعةٍ مضتْ، ينبثق لونٌ في كل مرة. تتطلع أميٍ فيها على مدى لحظاتٍ طويلة، وهي تعيّن قيمة عملها اليدوي. نسيتا كلّ ما يتعلّق بي.

حين رجعتُ إلى الغرفة الأخرى، كانت المواقف المشرِّفة تلتف حول «*ذه أي - تيم*». تهاويتُ على الكنبة وسحبتُ ركبتيَّ إلى صدري. لمعتْ أضواء مهرجانية في جميع النوافذ تقريباً باستثناء نوافذنا، وكان لديَّ الشعور بأن شقتنا كانت خاضعة للتدقيق من المقيمين في شيءٍ طائر غير مُحدَّد[1]، غير متأكدين ما إذا يتعيَّن عليهم أن يهبطوا في فانكوفر أم

---

1 - شيءٌ طائرٌ غير محدَّد؛ بالإنكليزية: An unidentified flying object، واختصاراً:

يواصلوا الطيران. الغرباء في سفينتي الفضائية كانوا يسألون أنفسهم: هل يملكون الصودا؟ أيّ نوع من الطعام يأكلون؟ ربما يتعيَّن علينا أن ننتظر ونعود في الربيع؟ *اهبطوا*، قلتُ لهم. *لم يُخلق البشر كي يعوموا عبر الهواء. ما لم نعرفْ وزن أبداننا، ما لم نشعرْ بقوة الجاذبية سوف ننسى ماذا نحن، سوف نضيّع أنفسنا من دون أن ننتبه إلى ذلك.*

كانت أي - مينغ تقرأ أحد كتب أبي الشعرية المكتوبة بلغتين. التقطتُه الآن، وهو كتاب مألوف بالنسبة لي لأنني استخدمتُه في دروس تحسين الخط. تصفحته إلى أن وصلتُ إلى قصيدةٍ كنتُ أعرفها، كلمات كان أبي قد وضع تحتها خطوطاً:

راقبْ شيئاً فشيئاً الليل وهو ينطوي.
الأصداء في المنزل؛ تبغي الصعود إلى الأعلى، لكنها لا تجرؤ.
وميض وراء الحاجز؛ يريد أن يخترق الحاجز، لكنه لا يقدر.
سيكون مؤلماً جدّاً، أن ترى السنونو على دبوس شعرها.
شيءٌ يُشعرني بالعار حقيقةً، أن أرى العنقاء في مرآتها.
إلى هينغ تانغ أعود فجراً
أخبو مثل ضوء على سرجٍ مرصّع بالجواهر.[1]

أقرأ القصيدة مرتين من البداية إلى النهاية وأغلق الكتاب. كنتُ أتمنى أن أبي، في العالم الآخر الذي مضى إليه، كان يحتفل أيضاً بـ عيد الميلاد والسنة الميلادية الجديدة، لكني خفتُ من أن يكون وحيداً في

UFO. وردتْ مختصرةً في النص الإنكليزي الأصلي - م.

1 - «راقبْ شيئاً فشيئاً الليل وهو ينطوي...». اقتباس محوَّر من «قصيدة بلا عنوان [3]» لـ لي شانغين، وهو شاعر السلالة الحاكمة تانغ، من «*قصائد سنوات تانغ المتأخرة*»، ترجمة: أي. سي. غراهام (نيويورك: نيويورك ريفيو أوف بوكس، 2008): 147 - هامش الكاتبة [ملاحظة: سنشير لاحقاً إلى هوامش الكاتبة بـ (ك)].

هذا الاحتفال، وأنه على خلاف أي - مينغ، لم يعثرْ حتى الآن على أسرةٍ تحميه. على الرغم من غضبي عليه، على الرغم من الألم الذي لم يشأْ أن يغادرني، لا يمكنني أن أتخلّص من توقي إلى سعادته.

***

كان شيئاً محتوماً، بالطبع، أن تكتشف أي - مينغ الصناديق الموضوعة تحت طاولة المطبخ. في كانون الثاني «يناير» أتيتُ إلى البيت قادمةً من المدرسة ووجدتُ أوراق أبي مكشوفةً تماماً - ليس لأنها حرّكتها، بل لأنها دفعتْ طاولة الطعام إلى الخلف. أحد الصناديق كان قد أُفرِغ كليّاً. يوميات أبي، التي كانت تفترش سطح الطاولة، ذكّرتني بفقر سوق البرغوث[1] في فانكوفر. وما يزيد الطين بلةً، أن بمستطاع أي - مينغ أن تقرأ كل حرف من حروف الأبجدية بينما أنا، ابنته، لا يمكنني أن أقرأ سطراً واحداً مما كتبه.

كانت تعدّ سَلَطة الكرنب وبشرتْ كميةً كبيرةً من الفجل الحار بحيث إنّني تساءلتُ ما إذا كان الكرنب يتوافق معه فعلاً.

قلتُ لا أعرف ما إذا كان بوسع معدتي أن تهضم هذه الكم الهائل من الفجل الحار.

أومأتْ برأسها بشرود ذهن وزجتْ بالكرنب، قذفته بتهور. كل شيء طار عالياً في الهواء وانهمر في داخل الطاس. كانت أي - مينغ تلبس مريول «كندا: العالم الملاصق» العائد لأمي، وتحته سترتها الشتوية.

مضتْ إلى الطاولة. «ذات مرة، حين كنتُ صغيرةً جدّاً، قابلتُ أباك».

بقيتُ في موضعي. أنا وأي - مينغ لم نتحدثْ عن أبي. كونها عرفته في الماضي، كونها لا تعتقد أنها ذكرتْ ذلك من قبل، أصابني بخيبة أمل

---

1 - سوق البرغوث: flea market: بازار من نوع خاص، يؤجر أو يوفر حيزاً للناس كي يبيعوا أو يقايضوا السلع، الحاجيات المستعملة، الأشياء الرخيصة، المقتنيات، والأنتيكات: تُباع عادةً في هذا السوق. توجد أسواق مشابهة لهذا السوق في مدن عديدة حول العالم - م.

عميقة جدّاً بحيث لم يعد بإمكاني التنفس.

«عصر هذا اليوم»، قالت لي، «بدأتُ أنظر في داخل هذه الصناديق. هذه هي حاجيات أبيكِ، أليس كذلك؟ بطبيعة الحال، كان يجب عليّ أن آخذ رخصةً منك، إنما توجد دفاتر ملاحظات كثيرة جدّاً».

أجبتها من دون أن أتطلع إليها. «انتقل أبي للسكن في كندا في العام 1979. هذه أوراق اثني عشر عاماً. حياة كاملة. بالكاد ترك لنا شيئاً».

«إنني أسمّي هذه الغرفة «zá jì»»، قالت. «الأشياء غير الملائمة. شذرات وعينات...».

في داخل رأسي، كي أهدئ الارتعاش الذي بدأ في صدري والذي بدأ الآن يشع إلى أطرافي، كررتُ المرة تلو المرة، الكلمتين اللتين استخدمتهما أي - مينغ لكنني لم أسمعْ بهما من قبل: zá jì.

«فهمتِ، أليس كذلك؟» سألتني. «الأشياء التي لا نقولها جهاراً ولهذا يكون مآلها هنا، في اليوميات ودفاتر الملاحظات، في أمكنة خاصة. وحينما نكتشفها يكون قد فات الأوان». كانت أي - مينغ تمسك بدفتر ملاحظات بقوة. عرفته حالاً: كان طويلاً وخفيفاً، شكله أشبه بباب متناهي الصغر، مُجلّد تجليداً غير مُحكم بخيط قطني. «كتاب السجلات التاريخية».

«شاهدتِ، إذن، دفتر الملاحظات هذا من قبل؟» وعندما لم أردّ عليها، ابتسمتْ لي بحزن. «هذا خط أبي. أتعرفين؟ كان يكتب بصورةٍ عفويةٍ جدّاً، من دون أن يبذل أيَّ مجهودٍ على الإطلاق، خطه بارع جدّاً. كان يكتب على الدوام بعنايةٍ بالغة، حتى إذا كان الحرف الأبجدي سهلاً جدّاً. كان من طبيعته أن يكون يقظاً».

فتحتْ دفتر الملاحظات. بدت الكلمات كأنها تطفو على السطح وتتحرك من تلقاء نفسها. تراجعتْ للوراء. لم تكنْ بي حاجةٌ لأن تريني، كنتُ أعرف ما هو شكله.

«أملك zá ji الخاصة بي»، استطردتْ. «لكنها موجودة الآن في الأمكنة كلها، ولا أدري كيف أحتويها. أتعرفين لماذا نحفظ الأسطوانات، ما - لِي؟ ينبغي أن يكون هنالك سببٌ ما لكن ما هي فائدة حفظ أشياء غير ضرورية كهذه؟ كان أبي مؤلفاً موسيقيّاً بارعاً، موسيقيّاً ضليعاً، لكنه تخلّى عن موهبته كي يوفر لي الحماية. كان فرداً مستقيم الخلق ومخلصاً حتى حين كان أبوكِ يودُّ الابتعاد عنه. على الرغم من أن أباك مغرم به. لكنهم تسببوا في موته. قتلوه كما لو كان حيواناً. كيف يستطيع المرء أن يفسر هذا الأمر لي؟ لو كان أبي لا يزال حيّاً، ما كنتُ لأكون هنا. ما كنتُ لأكون وحيدةً. وأبوكِ، ما كان... أوه، ما - لِي. أنا آسفة. أنا آسفة جدّاً».

قامتْ أي - مينغ بشيءٍ لم أرها تقوم به منذ وصولها قبل أكثر من شهر مضى. لم تبكِ فقط، بل كانت مشلولة القوى جدّاً بحيث إنّها لم تستطعْ أن تشيح أو تغطي وجهها. أزعجني صوتها أيّما إزعاج، عويل واطئ فكك كل شيء. حسبتُها تقول لي: «ساعديني، ساعديني». كنتُ أخاف خوفاً شديداً من أنني إذا لمستها، فإن وجعها سوف يتضخم في داخل جسمي ويغدو وجعي أنا إلى الأبد. لم يكنْ بمستطاعي أن أطيقه. انصرفتُ عنها. مضيتُ إلى داخل غرفة نومي وأغلقتُ الباب.

***

بدت الغرفة صغيرةً جدّاً. *أسرتي*، همستُ مع نفسي، كانت صندوقاً ثميناً لا يمكن فتحه وإغلاقه ساعةَ يشاء المرء، فقط لأن أمي قالت ذلك. صورة أبي على طاولة الزينة العائدة لي تؤلمني ألماً شديداً. لا، لم تكنْ صورته هي التي تؤلمني، بل الشعور الذي سببته لي، هذه العاطفة المُغضِبة التي حوّلتْ كل شيء، حتى حبّي لأمي ولـ أي - مينغ، إلى شيء مرير ومُوجع. أردتُ أن أرمي الصورة على الأرض لكنني خفتُ أن تكون حقيقيةً، أن تضم أبي نفسه، وإذا ما ألحقتُ بها الضرر، لن يكون بوسعه المجيء إلى المنزل. المطر في الخارج طرق على أفكاري. على سطوح زجاج النوافذ، تغير وانزلق، وجداول الماء تلك كلها، كبيرها وصغيرها،

الملتحمة والمرتجفة، بدأتْ تُربكني وتُسحرني. هل أنا ضرورية إلى هذا الحدّ؟ هل بمستطاعي أن أغيّر أيَّ شيءٍ ما مهما كان؟ فجأةً تذكرتُ عطر أبي، حلاوة تشبه أوراقاً نباتية جديدة أو حشائش جُزتْ منذ عهدٍ قريب جداً، رائحة الصابون الذي يستعمله. صوته بالبناء الغريب لجملته المتمسكة باحترام الشكليات وآداب السلوك، «ماذا تريد الابنة أن تقول للأب؟ لماذا تنشج الابنة؟». نبرة صوته لا تشبه أيّ نبرة صوت عاشتْ في أيّ وقتٍ مضى.

تذكرتُ، على العكس من مشيئتي، كيف أني سمعتُ أمي وهي تقول إنهم آنَ عثروا على أبي، لم يكنْ بحوزته أيّ شيء تقريباً. كانت تتكلم على التلفون، مسافة طويلة، إلى صديقة لها في هونغ كونغ. قالت إن حقيبة السفر العائدة له التي كانت ممتلئة حين غادر المنزل، كانت خالية. كان قد تخلّص من الأشياء كلها، بما فيها خاتم زواجه، جهاز الـ C D المتنقل ماركة «سوني» وموسيقاه. وحتى إنه لم يكنْ يحمل صورةً فوتوغرافيةً لنا. قصاصة الورق الوحيدة التي تركها لم تكنْ رسالة وداع. كل ما قاله في تلك الورقة الصغيرة هو أنه لم يكنْ بمستطاعه دفع ديون مترتبة عليه، ولم يكنْ بمقدوره أن يتعايش مع الخسائر التي مُني بها، وأنه يريد أن يُدفن في هونغ كونغ، على الحدود الصينية. قال إنه يحبنا.

مرةً واحدة سنويّاً، دأب أبي على أن يأخذنا إلى الحفلة الموسيقية التي تقدمها «الفرقة السمفونية» [الأوركسترا]. لم نكنْ نحصل على مقاعد جيدة إلّا أنَّ أبي ما كان ليبالي بذلك، المسألة هي، أن نكون حاضرين هناك، أن نكون في الحجرة بينما الموسيقى، مهما يُحتمل أن تكون قديمةً، تتجدد. الحياة حافلة بالعقبات، دأب أبي على أن يقول لي ذلك دوماً، وما من أحد بوسعه أن يكون متأكداً من أنه في الغد أو في السنة القادمة، ستبقى الأشياء على ما هي عليه. قال لي إنه، حين كان غلاماً يافعاً، كان أبوه الذي تبناه، البروفيسور، مضى معه إلى السيمفونية في شنغهاي وإن تلك التجربة غيّرته إلى الأبد. في داخله، الجدران التي

لم يعرفْ أنها كانت موجودةً من قبل تكشفتْ له على حين غرة. «كنتُ أعرف أن قدري رسم لي أن أعيش حياةً مختلفة»، قال لي. وفي يومٍ من الأيام، ما إن انتبه لوجود هذه الجدران، جلّ ما استطاع أن يفكر فيه هو كيف يهدّها.

«أيّ جدران تقصدين؟» سألتُها.

«مينغ»، قال لي. «القدر». في وقتٍ لاحق فقط، حين تطلعتُ إلى الكلمة مجدداً، رأيتُ أن مينغ (命) كانت تعني القدر إلّا أنّها كانت تعني الحياة أيضاً.

الطرق على الباب أعادني إلى المطر، إلى الغرفة وإلى نفسي.

***

«ما - لِي»، بدأتْ أي - مينغ حديثها، وهي تجلسٍ عند قدم سريري. كانت قد أشعلتْ مصباح طاولة الكتابة، بدتْ أشبه بظلٍّ شاحب رميتُه أنا. «ما كان ينبغي لي أن أقرأ يوميات أبيك. هذا ما وددتُ أن أخبركِ به. إنني آسفة فعلاً، ما - لِي. أرجوك، سامحيني».

اشتد السكون. كنتُ أجلس أبعد ما يكون عنها، على قمة وسائدي.

همستْ أي - مينغ: «أنا فعلاً شابة مُخيفة جدّاً».

«ممَّ تخافين؟».

«أخاف أن تطلب مني أمكِ المغادرة. لا يمكنني أن أعيش وحدي ثانيةً. أعرف أنني لا أقوى على ذلك».

تفجر الخزي في داخلي. كلماتها ذكّرتني، بشكلٍ من الأشكال، بأبي. «أنتِ واحدة من أفراد الأسرة، هكذا قالت أمي».

«كل ما في المسألة، ما - لِي، هو أن حيواتنا مرتبكة. وهي ذي... الحسرة بين أسرتكِ وأسرتي».

أومأتُ برأسي كما لو أنني فهمتُ ما قالته.

استطردتْ أي - مينغ قائلةً: «كان أبي مغرماً بالموسيقى، حاله حال

أبيكِ. دأب على أن يعطي دروساً في [المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي]، إنما كان ذلك قبل ولادتي».

«وماذا عمل لاحقاً؟».

«عمل في المصانع على مدى عشرين عاماً. في البداية، كان يصنع صناديق خشبية، وبعدها بات يصنع أجهزة الراديو».

«لم أفهمْ. لماذا يفعل ذلك طالما هو مغرم بالموسيقى؟».

كان المطر ينهمر بغزارة بحيث إنّه كان يضرب النافذة مثل نقاط من الفضة. من دون إنذار، تخيلتُ أمي وهي تنتظر عند موقف الباص، سترتها تلتصق بجسمها، الريح والرطوبة تُصيبان عظامها بالبرد.

«قابلتُ أباكِ»، قالت أي - مينغ، وهي تتفادى سؤالي. «حين كنتُ فتاةً صغيرةً، جيانغ كاي أتى إلى قريتي. كان أبي مسروراً جدّاً برؤيته بعد أعوام طويلة جدّاً. كان ذلك في العام 1977 والرئيس ماو كان قد فارق الحياة وكانت بداية عهد جديد. تغيّرتْ أشياء كثيرة جدّاً إنما، مع ذلك، كان أبي حذراً في ما يتعلق بإظهار عواطفه. لكنني شاهدتُ كم كانت تعني زيارة جيانغ كاي بالنسبة له، ولهذا السبب كنتُ أتذكرها على الدوام. ومن ثم، بعد أن توفي أبي، اتصل بنا جيانغ كاي هاتفياً. كان أبوكِ في هونغ كونغ. تحدثتُ معه على التلفون».

«أي - مينغ، لا أريدكِ أن تتكلمي عن أبي. لا أريد أن أسمع اسمه أبداً، أبداً».

«ممم»، قالت. وضعتْ يديها في داخل جيبيْ سترتها وعلى الفور أخرجتهما مجدداً.

«لماذا تشعرين دوماً بالبرد القارس؟!» سألتها، مرتبكةً.

شبكتْ يديها معاً كي تدفئهما. «غادرتُ بكين في الشتاء وأعتقد أن البرد علق بعظامي لأنني لا أقدر أن أدفأ الآن. ساعدتني أمي وجدتي على مغادرة الصين. كانتا خائفتين لأنه... لا يمكنني أن أتظاهر. لم يكنْ

بمستطاعي الاستمرار وكأنه لم يتبدلْ شيء». اختبأت أي - مينغ أكثر في داخل سترتها. بدتْ شابةً ووحيدةً بنحو فظيع.

«إنكِ تفتقدين أمكِ كثيراً، أليس كذلك؟».

أومأتْ أي - مينغ برأسها.

فرقع شيء ما في بالي. تسلقتُ سريري بجهد نازلةً منه. دفتر الملاحظات بخط أبيها، «كتاب السجلات التاريخية»، كان من اليسير العثور عليه. التقطتُه، وأنا أعرف أنه سوف يدخل البهجة إلى فؤادها. لكنني حين أعطيتُ دفتر الملاحظات إلى أي - مينغ، تجاهلتني.

حاولتُ مرةً ثانية. «أخبرتني أمي أنها مغامرة كبرى، أن يذهب أحدهم إلى أميركا ويذهب شخص آخر إلى الصحراء. قالت إن الشخص الذي سوّى هذه النسخة خطّاط من الطراز الأول».

نزعتْ أي - مينغ سترتها. «إنه شيء حقيقي، إن أبي يتحلى بخط ممتاز، إلّا أنّه لم يكنْ خطاطاً من الطراز الأول. وعلى أية حال، مهما كان جميلاً [كتاب السجلات التاريخية]، إلّا أنّه مجرد كتاب. إنه ليس كتاباً واقعيّاً».

«هذا شيء لا بأس به. إذا قرأتِه لي، يمكنني أن أحسّن لغتي الصينية. هذا شيء حقيقي».

ابتسمتْ. بعد لحظات قلائل من تقليب الصفحات، أعادت دفتر الملاحظات إلى غطاء السرير، الذي أصبح أرضاً مشتركةً بيننا. «إنها ليستْ فكرة سديدة»، قالت. «هذا هو الفصل السابع عشر. إنه شيء عديم النفع أن تبدئي من المنتصف، خاصة إذا كان هذا هو الفصل الوحيد الذي تملكينه».

«يمكنكِ أن تلخصي الفصول الستة عشر الأولى. إنني متيقنة من كونكِ تعرفينها».

«مستحيل!» غير أنها كانت تضحك. «هكذا درجتُ على مضايقة جدتي باستمرار بأن أفعل أشياءً لا نيةَ لها للقيام بها».

«هل كانت جدتكِ تستسلم؟».

«أحياناً».

سحبتُ البطانية من حولي كما لو أنّ المسألة قد حُسمتْ.

«قبل أن تشعري بأنكِ مرتاحة جدّاً»، قالت أي - مينغ، «ينبغي لي أن أخبركِ بأن جدتي كانت معروفةً للجميع بوصفها [بغ موذر نايف][1]».

«هذا ليس اسماً حقيقيّاً!».

«في هذه القصة، كل الأسماء حقيقية». أمالتْ رأسها بعبث. «أم هل ينبغي لي أن أقول [فتاة]؟ أم ما - لِي؟ أم لِي - لينغ؟ أيٌّ منها هو اسمكِ *الحقيقي*؟».

«كل هذه الأسماء حقيقية». إنما حتى حين نطقتُ بالكلمات، شككتُ وتساءلتُ، وخفتُ من أن كل اسم من الأسماء يحتل حيزاً كبيراً جدّاً، وحتى قد يكون عائداً لشخصه هو، بحيث أنا نفسي سأختفي في نهاية المطاف.

مرتبكةً، تكوّرتُ في الحيز الخالي بيننا. كانت أي - مينغ لا تزال تقلّب صفحات دفتر الملاحظات. سألتها ما هو شكل «بغ موذر نايف». ربتتْ أي - مينغ على شعري وفكرتْ لحظةً. قالت كل الأشياء المتعلقة بـ«بغ موذر» هي كبيرة وصغيرة معاً: حاجبان طويلان على عينين رفيعتين، أنف صغير وخدان كبيران، كتفاها أشبه بقمتيْ هضبتين. منذ أن كانت «بغ موذر نايف» فتاةً صغيرة، كانت قد جعّدتْ شعرها؛ حينما أصبحتْ كبيرة السن، كانت الخصلات المجعدة رائعةً وخفيفةً جدّاً بحيث إنّها بدتْ كأنها من الهواء». «بغ موذر» كانت لها ضحكة غراب الزيتون، مزاج رهيب، وصوت مرتفع، وحتى حين كانت طفلةً صغيرةً، ما من شخص كان قادراً على معاملتها باستخفاف.

أغمضتُ عينيّ ووضعتْ أي - مينغ دفتر الملاحظات جانباً.

---

1 - بغ موذر نايف: بالإنكليزية: Big Mother Knife، وتعني: سكين الأم الكبيرة - م.

في محال شرب الشاي العمومية والمطاعم، كان بمستطاع «بغ موذر نايف» وشقيقتها الصغرى «سويرل»[1] أن تنشدا ألحاناً فاتنةً جداً بحيث إنّ المشاكل، كبيرها وصغيرها، كانت تختفي تحت سحر صوتيهما. سافرتا من المدينة إلى القرية، قالت أي - مينغ، وهن ينشدن الأغاني على منصات استخدمتْ كبدائل مؤقتة، شعرهن الداكن يشعٌّ بالأزهار أو سلاسل القطع النقدية. القصص المُسلسلَة من مثل *«ذه ووتر مارجن»*[2] أو *«وو سونغ يقاتل النمر»*[3] كان بوسعها أن تستمر بمئة فصل، والحكواتيون المُسنون يمكنهم أن يحيكوها على مدى أشهر، وحتى أعوام. لم يكنْ بوسع المستمعين أن يقاوموا، كانوا يصلون بشكل منتظم، متلهفين لسماع الحلقة التالية من القصة. كان ذلك زمن الفوضى، زمن القنابل، والفيضانات، حين كانت أغاني الغرام تتدفق من أجهزة الراديو وتكتسح الشوارع. كانت الموسيقى تؤازر الأعراس، الولادات، الطقوس، العمل، المسيرة، الضجر، التحدي والموت؛ الموسيقى والقصص، حتى في

---

1 - سويرل: بالإنكليزية Swirl: تعني: دوامة - م.

2 - ذي ووتر مارجن: The Water margin: حافة الماء (أو حافات المياه - الاسم المعروف عربياً): هي رواية صينية منسوبة إلى شي نيبان، تُعدُّ واحدةً من الروايات الكلاسيكية العظيمة الأربع في الأدب الصيني. الرواية مكتوبة بالصينية العامية بدلاً من الصينية الكلاسيكية. تجري أحداث الرواية خلال عهد سلالة «سونغ» الحاكمة. تحكي لنا كيف يجتمع 104 أفراد من الخارجين على القانون في «جبل ليانغ» كي يشكلوا جيشاً قبل أن ينالوا عفواً عامّاً من الحكومة ويُرسلوا في حملات عسكرية لمقاومة الغزاة الأجانب وقمع القوات المتمردة. ثمة مسلسل تلفزيوني ياباني استند إلى هذه الرواية، بُثّ في موسمين في 1973 و1974، وكل جزء يشتمل على 13 حلقة. هذا المسلسل عُرض من على شاشة تلفزيون العراق أكثر من مرة - م.

3 - وو سونغ يقاتل النمر: Wu Song Fights the Tiger: وو سونغ إحدى الشخصيات المتخيلة في «حافة المياه». بحسب الأسطورة هو تلميذ رامي السهم زهاو تونغ. تصفه الرواية بكونه رجلاً جميل الطلعة، ذا عينين براقتين، وحاجبين سميكين، وجسم عضلي، ومشية لافتة. يُلقب بـ «الحاج»، أو «الرحالة». دخلت هذه الشخصية القصصية إلى أعمال قصصية وروائية أخرى في الأدب الصيني، كما دخلتْ إلى أعمال درامية في التلفزيون والسينما - م.

أزمنةٍ من مثل هذه، هي ملاذ، جواز سفر، في الأمكنة كلها.

***

في تلك الأيام، قريتكِ ربما كانت تنقل ملكيتها كل بضعة أسابيع، هذا اليوم تنقلها للشيوعيين، وفي اليوم التالي للقوميين، وفي اليوم الثالث لليابانيين. كم من السهل أن تخطئي بشأن أخيكِ فتحسبينه خائناً أو تظنين أن حبيبكِ عدوّ، كم من السهل أن تخشي من كونكِ أنتِ نفسكِ ولدتِ في اللحظة الخطأ من التاريخ. إنما في محال الشاي العمومية، كل شخص يمكنه أن يتقاسم عدداً قليلاً من الأغاني، كل شخص يمكنه أن يرفع كوب الخمر ويشرب نخب شرعية واستمرارية الحب. «الناس يعرفون بأن الأسرة والقرابة كانتا حقيقيتين»، قالت [بغ موذر]. «كانوا يعرفون أن الحياة النظامية كانت موجودة في يومٍ ما. إنما لا أحدَ يقدر أن يقول لهم لماذا، هكذا جرى الأمر، ولسببٍ غير وجيه على الإطلاق، كل الأشياء التي كانت موضع اهتمامهم ورعايتهم دُمرتْ وسُحقت تماماً وباتتْ هباءً منثوراً».

كانت في الثامنة عشرة حين سمّتْ طفلها المولود حديثاً «سبارو»[1]، وهو اسم متواضع قلّما يُطلق على الصبيان. كان سبارو الصغير طائراً شائعاً جدّاً بين الآلهة والرجال، بين المثاليين واللصوص. الشيوعيون والقوميون، يتجاهلونه بازدراء. كان سبارو المسالم خفيف الوزن لأنه لا يملك أمتعةً حتى يحملها وليس لديه رسائل كي يسلّمها.

خلال سنوات طفولته، كان سبارو يستيقظ مذعوراً في المدن الصغيرة. الزبائن الدائمون في محال الشاي العمومية «الجايخانات» كانوا يصيحون وقد لعبت الخمرة في رؤوسهم بجانب أمه وخالته، الرجال يرعدون كآلات الترومبون الموسيقية والنسوة يتكلمن بأصواتٍ مرتعشة كأصوات الفلوتات «النايات». وحينما أصبح في الخامسة، بات يحصل على قوته، وهو ينشد أغاني من مثل «أغنية المطر البارد» أو «في

---

1 – سبارو: بالإنكليزية: Sparrow: وتعني عصفوراً – م.

ذلك المكان البعيد»، وهي أغانٍ عاطفية راقصة مثيرة جداً بحيث إنّه حتى أولئك الذين لا يملكون سوى الغبار في جيوبهم حاولوا أن يطعموه شيئاً ما، مقداراً صغيراً جدّاً من اللفت أو كسرةً من الخبز اليابس، أو حتى نَفَساً من غلايينهم، غلايين التبغ التي بطول الأحذية. «هو ذا عصفور الرمل الصغير [أو الجناح الذهبي، أو العصفور الأحمر أو عصفور الحجر]»، تقول الجدات: «تعال انقر أفئدتنا كرّةً أخرى».

ذات مرة، في زمن الفوضى، مروا بفرقةٍ من الموسيقيين العميان في قريةٍ مهجورة. كان أعضاء الفرقة يسيرون - اليد تمسك بالمرفق، والمرفق يمسك باليد - تقودهم فتاة بصيرة لم تتعدَّ الثامنة أو التاسعة من عمرها. سأل سبارو أمه كيف يستطيع الموسيقيون العميان، وهم يميلون للأمام مثل حبل في الغبار، أن يخفوا أنفسهم حين تأتي الطائرات الحربية، وهي تقصف المنازل والملاجئ، الأشجار والأنهار. أجابته [بغ موذر] بفظاظة: «أيامهم معدودة. هل بإمكان يدٍ واحدة أن تحجب السماء؟» كان ذلك صحيحاً. سنةً بعد سنة، الطرقات حُفرتْ وانهارتْ إثر انفجار القنابل، غابتْ عن الأنظار مدنٌ بأكملها، سُحقتْ في داخل الطين، ولم تخلّف وراءها سوى القمامة، الكلاب، الروائح القوية، العفنة، اللزجة للجثث التي تُعدُّ بالمئات، بالآلاف، ومن ثم بالملايين. ومع ذلك كلمات الأغاني الشعبية التي يُقدّر عددها بعشرة آلاف أغنية [«أنا وأنتِ فرّقنا النهر إلى الأبد / حياتي وأفكاري سارا في اتجاهين...»][1] زاحمتْ كل ما رسخ في ذاكرة سبارو بحيث إنّه، حينما اشتد عوده، لم يحتفظ إلّا

1 - «أنا وأنتِ فرّقنا النهر إلى الأبد... «من» رحلة إلى كسينجيانغ»، نيوز بلص، راديو الصين الدولي، بكين. الأول من تشرين الثاني «نوفمبر»، 2013، راديو - ك.
كلمات أغانٍ من أغاني شعبية تُرجمتْ من الروسية إلى الصينية، جمعها الموسيقي وانغ ليوبن الذي حلم يوماً ما أن يدرس في كونسرفتوار باريس. في سن الخامسة والعشرين، التقى بالمصادفة بـموسيقى كسينجيانغ وأُغرم بها وعلى مدى عقودٍ من الزمن، سافر في أنحاء المنطقة، يجمع ويحوّر أكثر من 700 أغنية في ثمانية ألبومات. أمضى أكثر من 19 عاماً من حياته في السجن - ك.

بذكرياتٍ قليلةٍ جداً عن تلك الحرب. فقط فرقة الموسيقيين العميان لا يُمكن محوها. ذات مرة، في بداية الحرب ومن ثم، بنحوٍ مثير للدهشة، قرب نهايتها، عاودوا الظهور مع الفتاة البصيرة، التي أصبحت الآن فتاةً مراهقة، هي القادمة من اللامكان، والمختفية في اللامكان، مثل شريط ينزلق بلا نهاية بين المباني، آلاتهم الموسيقية تدوّي فيما هم يمرون. هل كانوا أناساً حقيقيين؟ من دون أن يدرك هو، هل تمكن هو، «بغ موذر»، و«سويرل»، حالهم حال الموسيقيين، أن يجدوا طريقةً ما للبقاء على قيد الحياة من خلال التواري عن الأنظار؟

كان ذلك في العام 1949، وكانت الحرب الأهلية تتهادى نحو نهايتها. كانوا في المدينة على مقربة من النهر الكبير، وفي الخارج، الثلج الذائب يخلق جلبةً كما لو أنّ جميع العظام في الصين كانت تفرقع. في لحظةٍ ما، بين الأغاني، ظهر وجه «بغ موذر»، مقلوباً رأساً على عقب، عريضاً وليناً، يحدّق من تحت الطاولة.

أعطته قطعة حلوى واحدة من عصير الكمثرى. «هذا سيبقي صوتكَ عذباً»، همستْ له. «تذكّر ما أقوله لك: الموسيقى هي الحب العظيم بالنسبة للشعب. إذا ما أنشدنا أغنيةً جميلةً، إذا ما تذكّرنا بإخلاص الكلمات كلها، الشعب لن يتخلى عنا. من دون الموسيقي، الحياة بأسرها ستكون محض عزلة لا تطاق».

كان سبارو يعرف ما هي العزلة. إنها جثة ابن عمه الصغيرة الملفوفة بملاءة بيضاء. إنها الرجل الواقف على رصيف المشاة، الهرم جدّاً، الذي لا يقوى على الهرب حين يأتي «الحمر»، إنها الجندي - الغلام الذي كان رأسه المقطوع يستريح على بوابات المدينة، مشوّهاً وطريّاً في الشمس.

ساهراً، أكمل سبارو مكتبته الغنائية، راح ينشد لنفسه، «ذهب عني شبابي مثل طير مهاجر...».[1]

1 - «ذهب عني شبابي مثل طير مهاجر...» من «رحلة إلى كسينجيانغ» - ك.

بعد مضي أشهر عدة، حين وقف الرئيس ماو في أعلى بوابة «ساحة تيانانمين»، ثارت صيحات الفرح عبر أمواج الأثير. نقل الراديو صوت الرئيس الشبيه باللحن إلى الشوارع والمنازل، وحتى إلى ما تحت الطاولات حيث أحسَّ سبارو أنه كان ينتظر هناك دوماً، وأعلن بدايةً جديدةً، مجتمعاً شيوعيّاً، وولادة «جمهورية الصين الشعبية». كانت الكلمات قد التفتْ كالخيط حول كل كرسي، رسغ، وطبق، كل عربة وفرد، وأخذتْ تسحب حيواتهم كلها صوب نظام جديد. انتهت الحرب. سحبته أمه إلى العراء، حضنته بقوة بحيث لم يعدْ بوسعه أن يتنفس، بكتْ وأعطته كثيراً جدّاً من الحلوى بحيث داخ رأسه. في صبيحة اليوم التالي تحديداً، لجؤوا إلى الطرقات من جديد، وجعلوا يسيرون متجهين نحو منزلهم الواقع في شنغهاي.

***

بعد أن توارى على مدى أعوام عدة، عاد والد سبارو بطلاً ثوريّاً. كان الأب لوت رجلاً فارع الطول، ممتلئاً فضلاً عن كونه طويل القامة، ذا يدين عريضتين، قدمين سميكتين، وحاجبين مثلثي الشكل مروِّعين. وكانت سيجارة «الحصان الطائر» تنسحق أبداً بين شفتيه اللحميتين. إلّا أنَّ الأمواج الخفيفة من الشعر الأسود كالكهرمان الذي وصفته «بغ موذر» ذات يوم لـ سبارو كانت قد اختفتْ؛ كان رأس أبيه الضخم الأصلع يشعّ كالقمر.

في لقائهما الأول، اقتلع أبوه سبارو من الأرض ورماه على رأسه. «كنتُ نكرةً حين انخرطتُ في الحزب!» صاح الأب لوت. حاول سبارو ألّا يتقيأ. كان على الدوام صبيّاً هزيلاً، وهذا الهزال أقنع أباه الآن بأن سبارو لا يزال صبيّاً صغير السن. «كنتُ أذن خنزيراً!» هتف أبوه، وهو يبدو منتصراً بنحوٍ غريب. «إلّا أنَّ [حزبنا الأسمى] سحقني سحقاً وخلقني من جديد. وُلدتُ ثانيةً بفعل دم أشقائي في [جيش تحرير

الشعب]![1] يعيش [الحزب الشيوعي]! يعيش الرئيس ماو تسي تونغ، [الشمس الحمراء]، [نجمة الإنقاذ الحمراء]!».

مرفوعاً عالياً في الهواء، تطلع سبارو إلى أبيه بإخلاصٍ موجعٍ، مسبّبٍ للدوار.

***

كان الحزب قد دعمهم بمنزل تقليدي يقع في زقاق، لا يبعد كثيراً عن «المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي». كان يتألف من طابقين، ذا فناء داخلي وأجنحة جانبية رحبة، بحجرة تكفي لخمس عوائل، على الرغم من الشح في الإسكان الأرضي، فقط شخصان آخران كانا يقاسمونهما الفناء: زوج وزوجة يحملان لقب «ما»، كانا قد فقدا أبناءهما الثلاثة في القتال. صبغ الاثنان مع الأب لوت الكلمات الآتية: «ضعْ ثقتكَ في الحزب في الأشياء كلها» على جدار القرميد المشترك بينهما، وكانت أقدامهم تقرع لحناً معقداً طول هذه البرهة الزمنية.

إن «بغ موذر» هي الوحيدة التي لم يكنْ لديها شغفٌ بالموسيقى. هنا في مدينة طفولتها، ألفتْ نفسها تحلم بأبويها الراحلين وأشقائها المفقودين، تحلم بزوج وطفل «سويرل» المفقودين، تتخيل أنهم، على غرار الأب لوت، سوف يظهرون بغتةً كالأعجوبة. كانت إحدى عينيها قد عميتْ («بسبب النظر إليكَ»، قالت لزوجها) ورأتْ أن شبابها، في تلك الأعوام، أعوام النكبة والهرب، أعوام الركض على طول جرفٍ ما، قد وصلتْ إلى نهايتها. انتهى زمن الأحزان الساحقة، انتهى زمن الرعب، وانتهى، كذلك، استقلالها. كانت تخشى من كونها لا تملك أيّ فكرة عن الكيفية التي تعيش فيها بسلام.

والأسوأ من ذلك، كان قد انتهى بها المطاف بأن تزوجتْ من ملك

---

1 – جيش تحرير الشعب (الصيني): People's Libreation Army: القوات المسلحة لجمهورية الصين الشعبية والحزب الشيوعي الصيني. يتألف من خمسة تشكيلات: القوة البرية، القوة البحرية، القوة الجوية، قوة الصواريخ، قوة الدعم الاستراتيجي – م.

الشعارات. كل ما يتعلق بالرجل هو أيديولوجي. كان الأب لوت يطالب بأحذيةٍ من القش المتواضع بدلاً من القماش العادي وبالإضافة إلى حفظ أخبار اللوح الأسود عن ظهر قلب، يقرأ الـ *جيفانغ ديلي*[1] بورع، ذراعاه مفتوحتان كما لو أنّه يعانق كلمات الرئيس ماو. أبلغها زوجها في صباح يومٍ ما، أن [مدير الدفة العظيم] قال إن الحب ليس عذراً كي نمتنع عن النقد.

«متى حدث أن بصقتُ عليكَ كلمة حب؟» قالت. «أنتم الشيوعيون جميعاً واهمون».

مذعوراً، انتزع زوجها سيجارته بوجهها. «لو كنتِ رأيتني في [مقر القيادة العليا]، سوف تعرفين إلى أيّ مدى يحترمني رفاقي!».

«سامحني... كنتُ أحمل ابنك بمشقةٍ هنا وهناك على ظهري. مشيتُ خمسة آلاف لِي[2] متمنيةً أن أتعثر بوجهكَ الضخم ثانيةً! في غضون ذلك، أين كنتَ؟ بعيداً عند [مقر القيادة العليا] تعزف على البيانو وتؤدي رقصات البولكا. أنتَ أيها البطيخ! مَن هو البطل الثوري الحقيقي؟».

صرفها. لا يهم. حبهما المتنافر جعلها تشعر أنها مجوّفة، كما لو أنّ العالم قد تكشَّف عن كونه مسطحاً على كل حال. إجلالاً لمنزلة زوجها بوصفه بطلاً، عُيّنتْ «بغ موذر نايف» في وظيفةٍ إدارية ممتازة في «شركة الأسلاك الكهربائية رقم 2 في شنغهاي». كانت الاجتماعات السياسية مرتين يوميّاً لانهائية بكل معنى الكلمة ومعذِّبة نفسيّاً بحيث إنّها كانت تودّ بأن تغرز أصابعها في تجاويف نقاط الكهرباء.

الآن، أصبح سبارو في سن الحادية عشرة، وكانت خلافات أبويه تطفو

---

1 – جيفانغ ديلي Jiefang Daily: هي جريدة الحزب، تصدرها لجنة شنغهاي للحزب الشيوعي الصيني. بعد أن وافقتْ عليها الحكومة المركزية قبل تحرير شنغهاي على أيدي قوات «جيش تحرير الشعب»، بدأت الجريدة بالصدور في 28 أيار «مايو» 1949، باستخدام اسم جريدة الحزب جيفانغ ديلي نفسها التي كانت تصدرها الحكومة المركزية في مدينة ينآن الواقعة في محافظة شآنكسي الكائنة في شمال غرب الصين – م.

2 – لِي: وحدة لقياس المسافات، تعادل ثلث ميل – م.

مارةً به بخفة مثل صفير ريح. فضلاً عن عمله المدرسي المألوف، كان الأب لوت يعطيه دروساً خصوصية في النظرية الموسيقية والـ جيانبو، وهو التَّنويْت[1] باستخدام الأرقام، الخطوط والنقاط

2/4 0 0 3 | 6 0 3 | 4 0 2 | 3213 2172 | 1 6

الذي صادفه سبارو أول مرة حين كان عمره ثلاثة أعوام، قبل أن تدخل أيّ كتابة أخرى إلى حياته بزمنٍ طويل. قال أبوه إن تنويْت الـ جيانبو[2] مُتاحٌ للجميع، وحتى أكثر ابنة تواضعاً لأكثر فلاح تواضعاً يمكنها أن تقرأه. الأرقام يمكنها أن تصف عالماً آخر. الآن، بينما كان أبوه يقطب جبينه وكانت أمه تصيح، كان يترنح وهو جالس إلى طاولة الكتابة خاصته، يغني ويغني ثانيةً هذه الموسيقى المُنعشة أمامه، قطعته الموسيقية التي سوف يقدّمها نموذجاً لأدائه لـ «المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي». كل شعرة في رأسه، يبدو أنها ترفرف كالأجنحة. التسجيل الذي أعطاه له أبوه كي يتعلّمه هو *كونشيرتو الكمان في A minor* [3] العائد لـ باخ، المُرتب «المُكيّف» للكمان الصيني، ذي الوترين: الـ إيرهو[4].

---

1 – التَّنويْت: التدوين باستخدام العلامات أو الرموز (أي العلامات الموسيقية) – م.

2 – جيانبو jianpu: نظام تنويت موسيقي واسع الانتشار في الطبعات الموسيقية في الصين. يرجع استعماله إلى النظام الذي صممه بير غالين Pierre Galin، ويسمى Galin– Paris – Cheve system. هذا النظام مشابه لـ تنويت Gongche من سلالة تانغ. في هذا النظام تُستخدم الأرقام من 1 – 7، وهي تمثل السلّم الموسيقي – م.

3 – الـ A: هي درجة من درجات السلّم الموسيقي؛ تعني الـ: لا، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي. أما Minor فتعني: السلّم الموسيقي الصغير – م.

4 – الـ إيرهو the erhu: آلة موسيقية مقوَّسة، ذات وترين، تُسمى، أحياناً، في العالم الغربي: الكمان الصيني، أو الكمان ذو الوترين – م.

-2-

بحلول شباط «فبراير» يكون قد مضى على وجود أيّ - مينغ معنا شهران فقط، إنما بدا كما لو أنّها كانت معنا دوماً. ذات ليلة، أتذكر أن *السيمفونية* رقم خمسة لـ شوستاكوفيتش كانتْ تُذاع على الراديو. في نقطةٍ ما أثناء الحركة الثالثة، جلستْ أي - مينغ ونظرتْ إلى مكبرات الصوت كما لو أنّها تنظر إلى وجه شخصٍ كانت تعرفه. وحتى أنا، على الرغم من كوني صغيرة السن، أحسستُ بالقلق والانزعاج من جراء الموسيقى والعواطف التي تنقلها. أو ربما هذا كله إدراك متأخر[1]، لأنه فيما بعد، عبر «كتاب السجلات التاريخية»، فهمتُ أن شوستاكوفيتش كتب هذه السمفونية في العام 1937، في أوج الرعب الستاليني حين أُعدم أكثر من نصف مليون إنسان، بمَن فيهم بعض أصدقاء شوستاكوفيتش الحميمين. تحت الضغط الرهيب، ألّف الحركة الثالثة في السيمفونية، وهي حركة بطيئة جدّاً دفعتْ جمهورها لسكب العبرات بأن نصّت ثانيةً على ثيمة الحركة الأولى وفككتها: إن ما بدا في البداية بسيطاً ومألوفاً، وحتى ساذجاً، قد انقلب تماماً وانطوى من جديد إلى بُعد آخر. كانت الحركة الأولى مضلِّلة. في الداخل، مخفيةً وتنتظر مَن يسمعها، كانت أفكاراً وذوات لم تُمحَ قط.

كنتُ أعدُّ أطباق الطعام حين بدأت الحركة، وعند نهايتها لم أكنْ قد فرغتُ من تحضير الطعام بعد، تجعدتْ يداي بالماء البارد، استرختْ أصابعي بإزاء الحافة المسننة للسكين.

---

1 - الإدراك المتأخر: هو إدراك طبيعة حادثة ما بعد وقوعها - م.

«آنَ كنتُ صغيرة السن»، قالت أي - مينغ، «كان الراديو يطلق ألحان ثماني عشرة قطعة من الموسيقى المُوافق عليها. لا شيءَ آخر. كنا نسميها «yàngbǎnxì»، الأوبرات الثورية. إنما عادةً، ما - لِي، كنتُ أضبط أبي وهو ينصت إلى موسيقى غير قانونية».

أبوها، سبارو «يستمع كالطائر؟» سألتُها، وأنا أستغرق في القصة التي أمست الآن جزءاً من روتيننا اليومي.

وبصورةٍ غير متوقعة، أنشدتْ سطراً من النوتات الموسيقية، والموسيقى، التي كانت طبيعية بالنسبة لها حالها حال التنفس، كانت تشتمل على الحزن والكبرياء. بدتْ كأنها تتوسّع في داخل ذهني حتى حين كانت تختفي؛ كانت حميمةً جدّاً، حيويةً جدّاً. أحسستُ أنني حتماً كنتُ أعرفها طول سني حياتي كلها. حين سألتُها ما إذا كان ذلك السطر من تأليف شوستاكوفيتش، ابتسمتْ وقالت لا. أخبرتني أن هذه الموسيقى من آخر مؤلفات أبيها. هكذا كان سبارو، كان يريد الحضور من خلال الموسيقى، أيضاً. حينما كنتُ صغيرة السن، كان يعزف أسطواناته السرية في الليل فقط، لا يعزفها في النهار أبداً. في القرية التي نشأتُ فيها، كانت السماء الليلية تبدو أبديةً.

«لكن، أي - مينغ، كيف يمكن أن تكون *الموسيقى* غير قانونية؟» بدا هذا الرأي سخيفاً، وحتى إنني كدتُ أضحك.

عبستْ بوجه الأطباق الموضوعة في حوض المطبخ «السنك» التي بدتْ كأنها تضاعفتْ بدلاً من أن تنقص، أخذتْ غطاء المائدة ودفعتني بقوة جانباً. جعلت الماء البارد يسيل وبدأتْ من جديد.

على مدى ليالٍ كثيرة، قالت لي أي - مينغ، وهي تتجاهل سؤالي، كانت موسيقى أبيها تسحبها من النوم. _سبارو_، كانت تلملم الأشياء ببطء، كان واحداً من أشهر المؤلفين الموسيقيين في شنغهاي. إنما بعد أن أُغلق «الكونسرفتوار» في العام 1966 ودُمرتْ جميع بيانواته الخمس مئة، عمل سبارو في معملٍ لصناعة الصناديق الخشبية، ومن ثم في معمل

لصناعة الأسلاك، وبعدها في معمل لصناعة أجهزة الراديو، على مدى عشرين عاماً. سمعته أي – مينغ يهمهم شذراتٍ من الموسيقى حينما اعتقد أن لا أحدَ يصغي إليه. وفي النهاية توصلتْ إلى الفهم بأن هذه الشذرات هي كل ما بقي من سيمفونياته هو، رباعياته وأعماله الموسيقية الأخرى. النسخ المكتوبة أُتلفتْ.

أي – مينغ ربما كانت تستيقظ من نومها وهي تسمع شوستاكوفيتش أو باخ أو بروكوفييف؛ كانت تعرفهم جميعاً، إلّا أنَّ موسيقاهم لم تنلْ اهتمامها. بجانب حدبة بدن جدتها الغارق في النوم، تململتْ، متمنيةً أن تستيقظ بغ موذر نايف؛ وفيما كانت الأخيرة نصف نائمة، قالت أشياء لم يكنْ من المفترض أن تسمعها أي – مينغ.

«كنتُ مزعجةً»، قالت لي أي – مينغ. «كي أوقظها من نومها، كنتُ أغني بصوتٍ عالٍ [الحياة الفتية للمرء تشبه الزهرة]، التي كانت أيضاً غير قانونية في ذلك الزمن. جدتي علمتني إياها بالمصادفة وكان بوسعي أن أقلّدها تقليداً مضبوطاً». ونزولاً عند طلبي، أرتني كيف أنشدتْ تلك الأغنية. «بغ موذر نايف» بيديها الرقيقتين وكتفيها الشبيهين بكتفيْ مصارع، بصوتها الهش مع أنه ألتو[1] رنان، شعرها المجعد مثل كرة قطن، عاد إلى الحياة أمام عينيَّ: *آه، يا بلدي المحبوب، متى أقع بين أحضانكَ؟*

في معظم الليالي، كانت «بغ موذر» تستيقظ، وهي تلعن حفيدتها بحنق وتعود للنوم من جديد. إلّا أنَّها بين الفينة والفينة، كانت تلين.

«قصصي قديمة جداً بالنسبة لك»، ربما تقول. «إنكِ لا تملكين الذكاء الكافي كي تفهميها».

«لعلكِ لا ترويها بصورةٍ جيدة».

«قصصي ضخمة جداً. إنكِ لا تملكين الصبر. اذهبي العبي بالتراب بدلاً من ذلك».

---

1 – الألتو alto: هو أخفض الأصوات في غناء النساء – م.

«لديَّ صبر أكثر مما تملكين».

«طفلة مولعة بالقتال!».

في هذه اللحظات، عرفتْ أي - مينغ أن أباها كان يسترق السمع. كان بمقدورها سماع نوبات ضحكه المكبوتة. كانت رائحة تبغه تتسلل إليهم، كما لو أنّه مباشرةً خلف الجانب الآخر من الحائط.

«كنتُ أفترض»، قالت لي أي - مينغ، «أنه حين تنتهي قصص [بغ موذر]، سوف تستمر الحياة وأعود أنا إلى ما كنتُ عليه. إنما هذا غير صحيح. كانت القصص تغدو أطول فأطول، وأصبحتُ أنا أصغر فأصغر. حين أخبرتُ جدتي بهذا الأمر، قهقهتْ وضحكتْ على عقلها. قالت لها: «لكن هكذا هو حال العالم، أليس كذلك؟ أم أنكِ تحسبين أنكِ أكبر من العالم؟».

تقول عندئذٍ: [هل أنتِ جاهزة؟ هذه القصة التالية سوف تستمر وقتاً طويلاً بحيث إنّكِ سوف تنسين أين ولدتِ].

[أسرعي، يا بغ موذر!].

[اسمعي الآن: ذات ليلة، سمع شاب معه قصائد مطوية في جيبه (سويرل) وهي تغني في (جايخانة العالم الجديد). كانت تلك أول مرة يرتاد فيها ذلك المكان، والمخلوق المسكين وقع في غرامها. حسناً، مَن الذي لا يقع في غرامها؟] قالت بغ موذر. لماذا كان صوتها ينكسر هكذا؟ لماذا كانت تبكي؟ [ما من أحدٍ كان بوسعه تقديم المساعدة. هكذا كان العالم في ذلك الزمن].

***

وِين الحالم[1]، الشاعر الطموح، وُلد في قرية بنغبي لأسرةٍ ثرية ذات تاريخ غير جدير بالثقة والاعتماد. يومئذٍ في العام 1872، كان جده قد نال شرفاً كبيراً: كان البلاط الإمبراطوري قد اختاره كي يكون واحداً

1 - وِين الحالم: Wen the Dreamer - م.

من بين 120 صبياً للدراسة في أميركا. باعت الأسرة كل شيء لغرض المساعدة في تسديد نفقات رحلة الغلام. ابتسم لهم الحظ جميعاً لأنه، بعد انقضاء عشرة أعوام فقط، كان الابن الممتاز جدّاً، الذي يُسمى الآن «أولد ويست»[1] أبحر صوب الوطن، بعد أن كان جاراً لـ مارك توين، درس في «يال» وحصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة المدنية.

لكن بعد أن أمضى «أولد ويست» عشرة أعوام في «مستودع أسلحة شنغهاي»، مات بغتةً بسبب داء السل، تاركاً وراءه زوجةً وطفلةً، ومطلوباً لعشرة أعوام من العمل الماهر لصالح الإمبراطور. كان ذلك كارثة. ذرف والد «أولد ويست» عشرة آلاف دمعةً ودعا لأن يحل به الدمار. الأبناء الأربعة المتبقون، قرروا أن يحسّنوا قيمتهم، وتوحّدوا. في نطاق جيل واحد، حصل الأشقاء على دزينة من أكرات الأرض، بما فيها بساتين التفاح ومنزلٌ من القرميد يُحسدون عليه، وكانوا من بين أغنى الرجال في بنغبي.

في تلك الأثناء، كانت ابنة «أولد ويست» قد نشأتْ وهي تخاف من كتب أبيها، كما لو كانت تنقل مرضاً بوسعه أن يدمر قريةً. كانت «ليتل ويست»[2] قد حزمتْ كتبه ووضعتها في وعاء ودفنتْ مجموعةً كبيرةً منها. كان ابنها الوحيد، الذي وُلد بعد أن تخلتْ عن الأمل بإنجاب طفل، هو قُرّة عينها، وكانت تطمح أن يترعرع كي يصبح مالك أرض ممتازاً حاله حال أخوال أمه. عوضاً عن ذلك أضاع الغلام عقله وأضحى شاعراً. كان الغلام عربةً محملةً بالكتب تسير على قدمين، وكان يجلس إلى طاولة الكتابة العائدة له، فرشاة الخط في يده، يرنو ببصره إلى السقف كما لو أنّه ينتظر الكلمات كي تبتلعه. بدتْ غرفة نومه كأنها تطفو، منفصلةً، فوق العالم الحقيقي للصفقات، للتجارة، والأرض. كان تسميه، تارةً برقة، وطوراً بخشونة، «وِين الحالم». كان مراهقاً قوي الملاحظة، حساساً وحين نشبت الحرب حطمته.

في العام 1949، حين انتهى القتال، أرسلته «ليتل ويست» إلى شنغهاي،

---

1 – أولد ويست: Old West، وتعني: الغرب القديم – م.

2 – ليتل ويست: Little West، وتعني: الغرب الصغير. هي ابنة أولد ويست – م.

يحدوها الأمل أن يساعده ذلك في استعادة نشاطه وعنفوانه. كانت الكتب قد أثقلتْ جيوبه كلها. حين يقابله معارفه في الطريق، كان وِين يقول إنه لا يستطيع التوقف لغرض مناقشة موضوعات من مثل الشيوعيين أو القوميين، ستالين، ترومان أو حالة الطقس، لأنه كان يؤلف شعراً موزوناً من ثمانية أبيات بستة أحرف أبجدية في ذهنه، وأن أيَّ تغييرٍ في مساره سوف يجعل الكلمات تندفع وتصبح غير صالحة للاستعمال. كانت تلك أكذوبة. في الواقع، كان يفتقر إلى الشعر ويخشى الكلمات. إبان الحرب، كانت بنغبي قد دمرتها أسوأ مجاعة في القرن، أما هو نفسه فلم يعرف الجوع أبداً. كان يجلس إلى طاولة الكتابة العائدة له وهو يحفظ عن ظهر قلب الأشعار الموغلة في القِدم والحديثة بينما، في الخارج، كان العمال لا يأكلون شيئاً باستثناء لحاء الأشجار، والأمهات يبعن أولادهن والصبيان الصغار يموتون موتاً شنيعاً في خطوط الجبهة. كان نصف سكان قرية بنغبي قد جاعوا حتى الموت، إلّا أنَّ أبناء الطبقة الأرستقراطية، ورثة الموارد اللامحدودة على ما يبدو، بقوا أحياءً. الآن، رجال الأدب في شنغهاي كانوا يتحدثون عن نوع جديد من الشعر، أدب ثوري جدير بأمةٍ تولد من جديد، وكانت فكرة هذا الأدب قد حفزته وأزعجته في آنٍ. هل بمستطاع الطليعيين أن يعبّروا عن الأفكار الضمنية، غير المنطوقة، هل يمكنها أن تواجه رياء الحيوات كحيواتهم هم؟ لم يكنْ يعرف. حين تعود قصائده من إحدى الصحف الثورية، فرشاة سميكة خربشتْ على طول الصفحة: «خط ممتاز. إلّا أنَّ قصائدك لا تزال نائمة في سجنها الريفي. قمر هنا، ريح هناك، ومن يعبأ بجدكَ اللعين؟! استيقظ!!!».

كان يعرف أنهم على صواب. كان وِين يحتفظ برسائل رفض النشر ويرمي قصائده. تذكّر ما كتبه برتولت بريخت:

أنا أيضاً أودّ أن أكون حكيماً
في الكتب القديمة ثمة قول يشرح لنا ما هي الحكمة:
أن تنأى بنفسكَ عن نزاع العالم كي تعيش

زمنكَ القصير من دون خوفٍ
هذا كله لا يمكنني أن أقوم به.[1]

بالمصادفة، تجوّل في «جايخانة العالم الجديد». كانت ثمة شابة تغني ووِين الحالم، حائراً ومفتوناً، أرهف السمع إليها على مدى خمس ساعات من دون انقطاع. وعقب ذلك، أراد أن يتحدّث إليها، كي يُطري جمال موسيقاها القاسي، لكن بأيّ كلمات؟ كانت موسيقى الشابة تحتوي شعراً والكلمة المكتوبة، ومع ذلك كانت تسافر بعيداً عنهما إلى مملكةٍ، إلى سكونٍ، كان يحسب أنه لا يمكن التعبير عنهما. كان وِين يعتزم أن يصيح عليها تعبيراً عن دهشته وإعجابه لكنه بدلاً من ذلك رآها تختفي، وحيدةً، في أعلى مجموعةٍ متواصلة من السلالم. لم يتغيرْ شيء، العالم لا يزال كما كان عليه، ومع ذلك، وهو يمشي صوب منزله، شعر وِين بأن حياته قد انشطرتْ نصفين. وقف على مدى زمنٍ طويل يتطلع إلى النهر الموحِل، اليقظ، الذي كان في العتمة مجرد صوت، يحاول أن يفهم ما الذي تغيّر.

***

في ليلةٍ رطبةٍ حارة من ليالي آب «أغسطس»، وصل طرد بريدي إلى سويرل في مسكنها الذي تتقاسمه مع ثلاث أرامل. كان هذا الطرد البريدي يشتمل على دفتر ملاحظات وحيد: أشبه بباب صغير جدّاً، مجلّد بقطعة من خيط قطني بلون جوزي. لا توجد علامة بريد، عنوان الإرجاع أو رسالة تفسيرية: فقط اسمها مكتوب على المظروف بخطٍّ مُتقن ومع ذلك مؤثر. جلستْ لغرض تناول عشاءها المؤلف من اللفت المملح لكن دفتر الملاحظات، وهو يحتل الحيز الخالي بجانبها، أغراها. فتحته

1 - «أنا أيضاً أودّ أن أكون حكيماً...»: اقتباس من برتولت بريخت: «إلى الذين سيولدون لاحقاً»، ترجمة جون ويليت: ***«كتاب فيبر للقصائد الألمانية في القرن العشرين»*** (لندن: فيبر وفيبر، 2005): 71 - ك.

سويرل على الصفحة الأولى وشرعتْ تقرأ. كانت تلك قصة، مكتوبة بالفرشاة والحبر. لم تكنْ قد قرأت قصة منذ أعوام عدة، وفي أول الأمر لم تفهمْ منها شيئاً.

صفحةً إثر صفحة، ذابتْ غرفتها المكتظة، المنعزلة؛ استنشقت الهواء المغبر لـ بكين متخيِّلة حيث كانت الحكومة في حالةٍ ميئوس منها، المعتقدات القديمة كلها أُفسدتْ، والصديقان دا - وي و«ميّ فورث»، اللذان كانا في يومٍ ما صديقين حميمين على الدوام، وصلا إلى «الكلمة العاشرة»، المكان الذي أُخلفتْ فيه التعهدات وانحرفتْ فيه الحيوات. حين انتهى دفتر الملاحظات مثلما بدأ - في منتصف جملة - استرجعت المظروف وهزّته بقوة، آملةً بأن يسقط دفتر ملاحظات آخر، إلّا أنَّه كان فارغاً. جلستْ على سريرها في الغرفة الجديدة الهادئة، وهي تواسي نفسها بأن تلحّن مقطعاً من القصة. حين غنّت الكلمات، أخذتْ فضلاً عن ذلك حياةً أخرى، وملأت الغرفة بالإمكانية. جاراتها، الأرامل الثلاث، طرقن على الجدران وصحن عليها بأن تلزم الصمت.

بعد مرور أيام قلائل، وصل فصل جديد. لماذا يتحرش بها هذا الشخص، رجلاً كان أم امرأة، بإرسال المواد البريدية؟ في الأسبوع التالي، تلقتْ فصلاً ثالثاً ورابعاً. استمرت الرواية، وهي تتابع أولاً دا - وي ومن ثم «ميّ فورث»، بينما كانا يشقان طريقهما وسط الصين الخرِبة. كان السرد يقفز ويستدير، كما لو أنّ فصولاً أو صفحاتٍ بأكملها قد انتزعتْ؛ إلّا أنَّ سويرل، أيضاً، كانت قد اجتثتْ من جذورها بفعل الحرب، ولم تكنْ لديها مشكلة في ملء الفجوات المفقودة. شيئاً فشيئاً، سخطُها أفسح المجال للإدراك وببطء، من دون أن تعرف ذلك، للمودة.

في ظاهرها، كانت القصة ملحمة بسيطة تؤرخ لسقوط الإمبراطورية، لكن الأشخاص الذين وقعوا في الشرك بداخل الكتاب ذكّروها بالأشخاص الذين حاولتْ ألّا تتذكرهم: أشقاؤها وأبواها، زوجها وابنها المفقودان. أشخاص كانت الحرب، على الضد من مشيئتهم، قد دفعتهم إلى حافة

الجرف الصخري. قرأتْ دفاتر الملاحظات الرابع، التاسع والثاني عشر كما لو أنّ القراءة سوف تُبقي هذه الشخصيات مثبتةً بالصفحات. بطبيعة الحال، كانت هي مجرد مشاهِدة؛ شخصية إثر الأخرى، أُسقطتْ من شاهقٍ في البحر وابتلعتها الأمواج. حلتْ لحظات جديرة جدّاً بالشفقة، كانت تريد أن تغلق الكتاب بقوة وتغمض عينيها على صوره، مع ذلك ظلت الرواية تسحبها إلى الأمام بإلحاح، كما لو أنّ بقاءها على قيد الحياة يعتمد على ترك الماضي والأموات وراءها. لكن ماذا لو كانت الرواية مكتوبة من شخصٍ من معارفها؟ أفراد أسرتها كانوا جميعاً يمتهنون: الغناء والرقص وسرد الحكايات، الذكور منهم والإناث. ماذا لو كانوا عاشوا بشكلٍ من الأشكال، أو عاشوا زمناً طويلاً بما يكفي كي يدونوا هذا العالم المتخيَّل؟ هذه الأفكار غير المنطقية ألقتْ في قلبها الرعبَ، كما لو أنها تُغوى للوراء نحو غمٍّ أكبر من العالم أو من الواقع نفسه. ماذا لو جاءتْ دفاتر المذكرات من زوجها الراحل، وهو جندي قومي قُتل في مطلع الحرب، الرسائل وُضعتْ في غير موضعها في خضم الفوضى الشاملة وها هي ذي تصل الآن؟ سمعتْ سويرل أن شيئاً من هذا القبيل يحدث، كيس يضم بريداً ضاع في شمال غرب الصين في القرن الرابع الميلادي، حفظه هواء الصحراء. بعد مرور ألف وثلاث مئة سنة، عثر عليه مستكشف هنغاري في برج ساعة متداع. لكن أشياءً كهذه كانت جيدة حالها حال حكايات الجان. كانت سويرل قد وبختْ نفسها بسبب أوهامها.

وصلت الطرود البريدية في مساءي الأحد والخميس، حين كانت منشغلة في الطابق السفلي من الجايخانة، وهي تغني «*ذه دريم أوف ذه ويست جامبر*»[1]. هل يُحتمل أن يكون مؤلف الأغنية شخصاً يجلس الآن بين الجمهور، أو أنه (أو أنها) ببساطة اغتنم الفرصة كي ينسل بخفة إلى الداخل من دون أن ينتبه إليه أحد، تاركاً الطرد عند بابها؟ يقظةً،

---

1 – ذه دريم أوف ذه ويست جامبر: The Dream of the West Chamber، وتعني: حلم الغرفة الغربية – م.

أشعلت الشموع التي لم يكن باستطاعتها أن تتلفها وباشرتْ تطالع دفاتر الملاحظات كرّةً أخرى، باحثةً عن مفاتيح للألغاز. ثمة شيء آخر لفت انتباه سويرل. كان المؤلف يلعب على اسميْ [دا - وي] و [ميّ فورث]. في دفتر الملاحظات الأول، في سبيل المثال، كان اسم [wèi] قد كُتب [位] التي تعني مكاناً أو موقعاً. في دفتر الملاحظات الثالث، كُتب اسم [wèi] [卫]، وهي مملكة غابرة في محافظة هينان أو هيبي. وفي دفتر الملاحظات السادس، ورد اسم [危] [wēi]، وهو اسم آخر لـ تايوان، كأن موضع الكاتب قد تمَّ تشفيره في ثنايا الكتاب نفسه.

في اليوم الذي تلقتْ فيه دفتر الملاحظات الخامس والعشرين، قابلتْ شقيقتها في «فوكسنغ بارك»[1]. «لا يمكنني أن أزعزع الشعور بأني أعرف هذا الشخص»، قالت سويرل. «لكن علامَ هذا اللعبة الشاقة ولماذا أكون أنا المستلمة؟ إنني مجرد أرملة ليس لديَّ أيّ ذائقة أدبية على الإطلاق».

«إنكِ تعنين أن تلك الطرود البريدية لا تزال تصل إليكِ»، سألت [بغ موذر]، وهي مرتابة. «كان يتعيَّن عليكِ أن تخبريني في وقتٍ أبكر. لعلها عصابة إجرامية أو لعله فخ سياسي!».

لم يكنْ بوسع سويرل سوى أن تقهقه.

«وأرجوكِ لا تعطيني هذا الهراء المتصل بالذائقة الأدبية»، استطردتْ شقيقتها. «هذا النمط من الحديث هو مجرد شفتي بعير وفم حصان. إذا ما تحدثنا عن هذا، متى تكفين عن الإقامة مع تلكم الأرامل البائسات وتأتين للسكن معي؟».

---

1 - فوكسنغ بارك: Fuxing Park، وتعني: متنزه فوكسنغ. يقع هذا المتنزه في شنغهاي في المنطقة التي تنازلتْ عنها الحكومة الصينية سابقاً لصالح فرنسا لغرض التوصل إلى اتفاقٍ ما. يقع في مقاطعة لووان بالقرب من طريق نانشنغ. وهو أكبر المتنزهات في شنغهاي، ومهّدته فرنسا في 1909. تبلغ مساحته عشرة هكتارات، صُمم على وفق الطراز الفرنسي، ويحتوي على بحيرة، نافورات، خيمة واسعة مسقفة وأحواض زهور. ويُعدّ من المواقع الجديرة بالمشاهدة في شنغهاي - م.

في المرة التالية حين التقتا، لم تذكرْ سويرل الرواية البتة. قدّمتْ «بغ موذر» اقتراحاً للمناقشة، قائلةً إن قصصاً كهذه هي عالم مزيف ستفقد فيه شقيقتها الصغرى، إن لم تتوخَّ الحذر، كيانها المادي وتغدو مجرد هواء واشتياق.

إلّا أنَّ سويرل لم تكنْ تصغي إلّا نصف إصغاء. كانت تفكر في شخصيات الرواية: دا - وي، المغامر، و«ميّ فورث» التلميذة الموهوبة. لم يكنْ خوفهما الشديد من الموت، بل من قِصر الحياة غير الكافية. ميّزتْ فيهما الرغبات، التي، حتى الآن، ظلتْ من دون تعبير في داخلها. ابتسمتْ لأختها، وهي عاجزة عن إخفاء حزنها. «[بغ موذر]»، قالت، «لا تأخذي الأمور مأخذاً بالغ الجدية. إنه مجرد كتاب على كل حال».

بعد دفتر الملاحظات الواحد والثلاثين، كانت تنتظر على جاري عادتها. إنما يوماً بعد يوم، ومن ثم أسبوعاً إثر أسبوع، لم تصلْ مواد بريدية جديدة.

وفيما كان الوقت يمضي، كانت العزلة الباردة لحياة سويرل تؤكد نفسها مجدداً. كانت تتناول وجبات طعامها ودفاتر الملاحظات تتكدّس قبالتها، مثل صديقة لزمت الصمت.

في الطابق السفلي، كانت الشائعات قد سادتْ.

كان المدير يساوره القلق، بوجود الرئيس ماو في السلطة، من احتمال أن تُعلن محال الشاي العمومية رسميّاً باعتبارها أشياءً تافهة بورجوازية، وأن يتمّ تعيين المغنين والمغنيات في وحدات عمل، وأن تخضع كلمات كل أغنية من الأغاني للفحص والمراقبة. واغتاظتْ [كسرة الخبز][1] من أن الحكومة سوف تحظر كل الألعاب، ومن بينها بالأخص: لعبة الشطرنج. لأول مرة، تساءلتْ سويرل ما إذا حان الوقت

1 - كسرة الخبز: Bread Crumb - م.

لمغادرة شنغهاي؛ أجرة السفر إلى هونغ كونغ تغدو أغلى يوماً بعد يوم. إنما هناك في الأسفل، في مكتب تذاكر القطار، قابلتْ بالمصادفة صاحب [مكتبة الآلهة]، الذي كان في الخارج يشم الهواء مع ببغائه ذي العُرف. وفي ذهولها، ذكرتْ دفاتر الملاحظات المبهمة. ضايقها بائع الكتب بالسخرية وقال لها إن لديها توأماً في هذه المقاطعة - شاعر فاشل معروف باسم وِين الحالم وهو يتجول من مكانٍ إلى آخر، يفتش عن نسخة من الكتاب نفسه بالضبط.

«جربي [ذه أولد كات][1] في مخزن كتب [ذه بيرلوس هايتس][2]. سوتسهو كريك رود»[3]، قال لها. «الزقاق الثالث في الأسفل. إنها تقحم شواربها في كل شيء».

شكرته سويرل. أخذت القطار متجهةً إلى مخزن الكتب، وهي تظن أنها سوف تشتري بقية الرواية وتأخذها معها إلى هونغ كونغ. كان مخزن كتب [ذه بيرلوس هايتس] قد وُضع في أحد أجنحة دار كبيرة قوية ذات فناء في الوسط، والكتب مصفوفة بثلاث طبقات من الأرض إلى السقف. في قسم الأدب، تسلقتْ سلّماً منزلقاً وبدأتْ تعاين الرفوف. لكن لا مع عنوان الرواية ولا مع اسم المؤلف، كان البحث من دون جدوى. في أثناء ذلك وصل سيل قوي من الزبائن الدائمين، شبان وشابات كانوا يحدّقون في الأنحاء كلها، من الشمال إلى الجنوب، كما لو أنّهم يبحثون عن شيءٍ سقط منهم فجأةً. دنا أحدهم من بائعة الكتب وأخذ يهمس لها بإلحاح. دفعه جد يرتدي جاكتة غربية الطراز على زيّ مهني أزرق داكن.

«هل هو جاهز؟» سأل، بين سعالين جافين. [ذه أولد كات]، التي لم تكنْ تبدو شائخةً جدّاً، سلّمته حزمة أوراقٍ منسوخةً باليد. من

1 - ذه أولد كات: the Old Cat، تعني: القطة الكبيرة - م.
2 - ذه بيرلوس هايتس: The Perilous Hights، وتعني: المرتفعات المحفوفة بالمخاطر - م.
3 - سوتسهو كريك رود: Suzhou Creek Road: وتعني: طريق جدول سوتسهو - م.

نقطة الأفضلية خاصتها، كان بوسع سويرل أن ترى ترجمة غوو موريو لـ«*دكتور فاوست*».[1]

بدأتْ شفتا الجد ترتعشان. «لكن ماذا عن الجزء الثاني؟».

«هذا ليس مصنعاً»، قالتْ [ذه أولد كات]، وهي تصفع شيئاً معيَّن الشكل على الكاونتر. «تعال الأسبوع القادم».

أما الآخرون فكانوا يريدون روايات أجنبية، أعمال دوّنها فلاسفة، علماء اقتصاد وعلماء في الفيزياء الذرية. وفيما كانت تجيب عن الأسئلة إجابات موفقة قلما كانت [ذه أولد كات] ترفع بصرها. كانت هي بدورها تنسخ صفحاتٍ لانهائيةً بخطها المتدفق. في الظاهر كان النسخ باليد شيئاً ضرورياً إلى حدٍّ ما وربما لا يمكن تعويضه أبداً.

حين نزلتْ سويرل من سلّمها وسألتْ عن دا - وي و«ميّ فورث»، غمغمتْ بائعة الكتب: «ليس ثانيةً».

في كل صباح، كانت سويرل تمضي إلى مخزن الكتب، الهدوء يعمّ في الداخل والرفوف زاخرة بالكنوز. من المؤكد، قصة أخرى بوسعها أن تؤدي الغرض عينه، وتنتشلها من عزلتها. استغرقتْ في كتب الرحلات التي تتناول باريس ونيويورك، وهي تتخيّل رحلةً تأخذها إلى الغرب البعيد.

وراء طاولتها، نادراً ما كانت [ذه أولد كات] ترفع عينيها؛ الحركة الوحيدة التي أتتْ من قلمها الجاف الذي كان ينزلق بكفاءة إلى أعلى الصفحة وأسفلها، بحيث إنّ القلم كان يبدو هو الذي يعطي النصيحة، المعلومات، والعون. ثمة كتاب حقق أفضل المبيعات، «*أشخاص مساكين يشهرون الأسلحة من أجل الثورة*»، حفظ الأوراق من أن تطير.

---

1 - دكتور فاوست: Doctor Faustus: مسرحية تراجيدية للكاتب والشاعر والمترجم الإنكليزي كريستوفر مارلو الذي عاش في الحقبة الإليزابيثية (1564 - 1593). استندت المسرحية على شخصية «دكتور فاوست» الألمانية، ومُثلت المسرحية بين العام 1588 والعام 1593، وهو العام الذي توفي فيه مارلو - م.

بعد أسابيع عدة من روتينها الجديد، شاهدتْ سويرل جبلاً آخر من الورق يستقر على طاولة الكتابة، كما لو أنّ الكومة الأولى قد اجتذبتْ معجباً. وبعدها، فيما كانت عيناها مرتفعتين، طوقتْ نفسها بسترة رمادية نظيفة ذات أزرار من القماش، وجيب مملوء بالأوراق، وختاماً، بيدين مصطبغتين بالحبر. تطلعتْ مجدداً ورأتْ شاباً ذا شعر متموج ينظر إليها وفي عينيه اهتمام خاص يشوبه الارتباك.

«وِين الحالم»، قالت.

«الآنسة سويرل»، ردَّ عليها.

«استغرق الأمر وقتاً طويلاً بما يكفي»، قالت [ذه أولد كات]. قلمها ضرب برفق على بحر الصفحة.

كانت مخطوطة الشاب تهدد بالسقوط، وتفحص الصفحات التي تحمل بصمات أطراف أصابع يده اليمنى. هبطتْ سويرل من الدرج وشرعتْ تنظر من دون حياء إلى الصفحة العليا، وأخذتْ تدرس الأعمدة النظيفة للكلمات، خط اليد المشبوب بالعاطفة والهادئ الذي وصف العلاقة الغرامية المستحيلة بين «ميّ فورث» ودا - وي. كانت تريد أن تغترف المخطوطة منه، كي تلتحق بـ ميّ فورث في القطار الذاهب إلى هوهوت، *تنعم النظر عبر النوافذ المكسوة بطبقة سميكة من الغبار كي ترى حبيبها الذي يدخن على الرصيف؛ سوف يبقى هناك على مدى أسبوع، شهر، عمر بأكمله، إن طلبتُ منه ذلك. الأمر ليس فيَّ، أدركتْ، أن أقع في غرام شخصٍ يمكنه أن ينتظر. لا يمكنني أن أقتنع بنصف حرية.*

«هل أستطيع؟» قالتْ، وهي تومئ برأسها للمخطوطة.

رفضتْ أنامل الشاب أن ترتفع عن الصفحات.

«أنا خائف»، قال، «لسوء الحظ، بسبب الإهمال...».

هو لا يشبه زوجها البتة. إذن هذا هو الكاتب، المرسل الخفي للطرود البريدية. وِين الحالم كان هزيلاً وشاحباً، بينما بزة زوجها القومية بالكاد تحتويه. تخضب وجهها بالاحمرار ارتباكاً.

«سامحيني»، قال لها، وهو يبدأ كلامه من جديد. «أنا آسف هذه المخطوطة قصة مختلفة. كاتب مختلف».

«إنها مخطوطتك، على الرغم من ذلك».

«أجل»، قال. «لا. حسناً، أنتِ تفهمين، *الكتابة* عائدة لي».

سارت ببطء مقتربةً منه. تقريباً هناك.

«توقف عن الانكماش خوفاً في الأجمات»، قالت ذه أولد كات. رفع القلم الجاف رأسه ووجّه طرفه المستدق إلى سويرل. «إن كنتِ، أيتها الآنسة الصغيرة، تفتشين عن خالق دا - وي، حظّاً سعيداً! سأكون أول مَن يهنئك حين تعثرين عليه، وأعطيه، بالطبع، حوالةً سخيةً، علاقاتٍ ممتازة، إلخ. لكن مكان وجود المؤلف هو سرّ كبير بالنسبة لكِ مثلما هو لـ وِين المسكين هنا. أي بمعنى، إن كنتِ تريدين أحداً ينسخ لك رسائلكِ باليد أو يدوّن لكِ مراسلاتك، بشكل جيد! ما من يد أروع من يده أو روح أرق من روحه».

«فتشتُ في جميع الأنحاء عن بقية الرواية»، قال وِين الحالم. «ينبغي أن يكون هناك، في الأقل، خمس مئة صفحة أخرى. ربما أكثر. أعتقد أن اسمها هو [كتاب السجلات التاريخية]».

«لكنكَ -» بدأتْ سويرل. ظلتْ تنظر إلى المخطوطة التي بدتْ جديةً وغير مشكوك في قيمتها.

«عملتُ لك نسخةً من الكتاب، لأنني كنتُ أتمنى... كنتُ أريد...».

كانت سويرل تعرف أنه ينبغي لها أن تنهي الحوار. مع ذلك، لم يكنْ بمستطاعها أن تحرّك نفسها بعيداً عن الطاولة.

«كنتُ أريد أن تهبك القصة السعادة الغامرة. ما تقوله ذه أولد كات صحيح، الكلمات ليستْ لي». يداه الضعيفتان اقتربتا وشبكتا نفسيهما. «بعثتُ الفصول الأولى قبل أن أفرغ من نسخ المخطوطة باليد. حين أدركتُ ما حصل، أن الكتاب انتهى، حرفياً، في منتصف جملة، حاولتُ أن اكتب فصولي أنا. جربتُ أن أنهي القصة لكنني...».

«إنكَ لا تملك الموهبة»، قالت ذه أولد كات.

ضعفه أصبح الآنَ محزناً. لكنه مع ذلك لم يتلعثمْ أو يتراجعْ، بل ظلَّ هادئاً جدّاً ولم يكفّ عن التحديق إليها.

«ربما ذات يوم».

«اعذرني»، قالت سويرل، وهي تتراجع إلى الوراء. شعرتْ بالخجل إنما لم يكنْ بوسعها أن تفهم جيداً لماذا يتعيَّن عليها أن تشعر هكذا، ما إذا كانت العاطفة عائدة له أو لها. استدارتْ على عقبيها وسارتْ نحو الباب وتمكنتْ من أن تدير أكرة الباب وتفتحه. ملأ هواءٌ نقيٌّ رئتيها وسمعتْ صفحاتٍ ترفرف في الجوانب كلها.

«سوف تندهشين من مسألة كيف أن قلةً من الناس بوسعهم أن يرووا قصةً ما»، قالت ذه أولد كات. كانت نبرة صوتها خشنةً ومطمئنة كما لو كانت حصى تتدحرج سويةً. «ومع ذلك هؤلاء الأباطرة الجدد يريدون أن يحظروهم، يحرقوهم، يشطبون عليهم كلهم. ألا يعرفون كم هو صعب أن تنال السعادة الغامرة؟ أو لعلهم يعرفون ذلك. الماعز الماكر!».

«هل لي الشرف أن أوصلكِ إلى المنزل مشياً على الأقدام؟» قال وِين الحالم.

ظهر أن الريح دفعتها إلى الخلف ودوّرتها. لكنها ما إن واجهته، ما إن رأتْ عينيه اليقظتين، المفعمتين بالأمل، خذلتها الكلمات. فتحتْ فمها ومن ثم أغلقته ثانيةً.

«يا للسماء، القلق!» قالت ذه أولد كات.

في النهاية، كما أن ذلك أيضاً، إذا جاز التعبير، عمل الريح، أومأتْ سويرل برأسها وهي ترد على وِين. «إذن يجب عليك أن تفعل ذلك».

كان وِين الحالم بجوارها، كان يمسك بالباب، وكانت تخرج ماشيةً.

كانت أوراق الشجر تسقط في كل حدب وصوب. سيأتي الشتاء حالاً بستراته المبطنة وقفازاته المحاكة باليد وعند وصول طلائع الثلوج، سوف

يجلب لها وِين الحالم الأوشحة والجوارب الصوفية، جرار العسل، والروايات التي كان قد نسخها بيده بخطه المحدود إنما المتحمس.

كان الشتاء رحيماً مع وِين. كان ضعفه قد أضحى نوعاً رقيقاً من الصلابة. كانت الفتيات الصغيرات وأمهاتهن تعلّقن غسيلهن في الجهة الثانية من الأزقة ويُبدين إعجابهن بعلامة الاستفهام المتطاولة الخاصة بجسده فيما كان يقفز على أرصفة المشاة الزَّلِقة، متجهاً صوب الجايخانة التي كانت تغني فيها سويرل. «لا تمضي بسرعة»، صاح عليه جيرانه. «كلماتك سوف تتدافع وتختلط من دون نظام!» هو لا يزال لا يعرف كيف يتكلم عن النظام السياسي الجديد، الأحزاب المختلفة وكل مُثُله العليا؛ أبيات شعرية احتلتْ ذهنه، كتبها ورماها أدراج الرياح. كتب وكتب وأحرق الصفحات. انتظرَ.

«الحمام الناقل!» كانوا يسمونه.

ومع ذلك، انطلاقاً من حب الاستطلاع المُلِحّ، بدأتْ سويرل تقترب من الأجانب الذين يطالعون في الجايخانة كي تستفسر منهم ما إذا كانوا قد تعرّفوا على دا – وي، ما إذا قاموا برحلةٍ إلى صحراء تَكلامَكان[1] وترك لديهم انطباعاً قوياً بسبب أصالته في بعث رسائل خاصة إلى عشيقته لتذاع من على الراديو، فيما كان يصغي عشرات الآلاف من الناس أثناء ذلك؟

«مختفياً في مَشهد جلي»، قالت سيدة حسنة الهندام. «لكن لا، لم أسمعْ بهذا الشيطان قط. أأنتِ متأكدة أنه كاتب محلي؟». سأل أحد الشعراء. «الجميع هنا لا قيمة لهم. لا بدَّ أنها ترجمة لعمل أجنبي». طالب جامعي كان مقتنعاً أنها كانت منتحلة من رواية بقلم شي لاو[2]، وظنَّ آخر بأنها بدتْ أشبه بإعادة سرد حديثة لـ *«تسجيل لأعمال مفقودة حتى الآن»*

---

1 – صحراء تَكلامكان Taklamakan desert: صحراء تقع في شمال غرب الصين – م.

2 – شي لاو She Lao (1899 – 1966): روائي وكاتب دراما صيني. يُعدُّ واحداً من أبرز الأدباء الصينيين في القرن العشرين، اشتهر بروايته «غلام الجنركشة»، ومسرحيته «الجايخانة» – م.

أو ربما «*صفعُ الطاولةِ بدهشة*» بقلم لِي مينغ تشو.[1] «على أية حال، لا تضيّعي وقتكِ على الروايات»، قال لها أحدهم. «إن الشخص الذي يستحق القراءة الآن هو الشاعر المغرور جامع البنادق من تشينغ دو. مع أنّه، على العموم، كل شيء يُمدح في جميع الأحوال والأمكنة، هو محض هراء منافي للعقل».

في إحدى الليالي، عادتْ إلى دفاتر الملاحظات العتيقة، وشرعتْ تقرؤها كلها من جديد من البداية. وفيما كانت شمعتها تخفق، أمستْ متأكدةً من أن الكاتب ذهب إلى المنفى أو لعله صادف مأساةً من نوعٍ ما. ربما كانت واحدةً من جرحى الحرب، كانت قد تمزقتْ من حياةٍ سابقة، والرواية الآن لم تعدْ أكثر من حلم مضطرب. أو، ربما، على غرار زوج سويرل، قُتل الكاتب في أثناء القتال، والفصول الأخيرة يمكنها فقط أن تعود للحياة في العالم القادم. أخبرها وِين أنه ليس هو بل المؤلف الذي كتب أسماء الشخصيات الرئيسة – دا – وي ميّ فورث – برموز كتابية[2] مختلفة. وِين، كذلك، كان يعتقد، أن الأسماء كانت جزءاً من شيفرةٍ ما، أثراً يستطيع المرء أن يتعقبه. لكن إلى أيّ نهاية؟ لفّتْ سويرل دفاتر الملاحظات بورق بنيّ بعناية؛ لا بدَّ أن تكون محترسةً. على كل حال، كان «كتاب السجلات التاريخية» هو محض لهو يُبعد المرء عن وقائع الحياة الحديثة. كان محض كتاب، لماذا، إذن، لا تدعه وشأنه؟ فتحتْ صندوق ثيابها ورأتْ أشياءً من ماضيها، زمناً تلاشى ونفساً سابقة. لو أنّها خذلتْ حارسها، كان يمكنها تقريباً أن ترى ابنها يزحف نحوها. كان يجر فستانها، يجر أطراف أصابعها، كانت بهجته أشبه بحبلٍ يطوّق فؤادها. كانت سويرل قد أنجبته حين كان عمرها لا يتجاوز الرابعة عشرة. في الليلة التي فارق فيها الحياة، كان الظلام شديداً، وكانت الريح

---

1 – لِي مينغ تشو (1580 – 1644): كاتب صيني في عهد السلالة الحاكمة مينغ. اشتهر بمجموعته القصصية المكتوبة بالدارجة الصينية: «صفعُ الطاولةِ بدهشة» – م.

2 – الرموز الكتابية – ideograms: جمع ideogram: الإيديوغرام، وهو صورة أو (رمز) تُستعمل في نظام كتابي ما (كالهيروغليفية والصينية) وتمثل شيئاً أو فكرةً لا كلمة خاصة بهذا الشيء أو تلك الفكرة – م.

شديدة، بالنسبة لطفلٍ كي يسافر إلى الآخرة بمفرده. كانت تريد أن تتبعه إلى حافة الجرف، إلى داخل البحر، لكن بغ موذر بكت بحرقة وتوسلتْ إليها ألّا تتركها.

لم يغمضْ لها جفن، وظلتْ يقظةً حتى طلوع الصباح.

ضوء كليل أحاط بالستائر كما الإطار. سمعتْ سويرل طفلاً رضيعاً ينتحب، مضتْ إلى الشباك وحينما تطلعتْ إلى الأسفل، شاهدتْ زوجاً وزوجة يحاولان أن يكيّفا لباساً شتويّاً على مقاس طفلهما الصغير، يضبطان الذراعين ومن ثم الساقين وبعدها الرأس فيما كان الطفل الصغير يتقاعس ويشاكس، ومن ثم عبّس وجهه وشرع يبكي، ومع ذلك رفض الرداء الخارجي أن يصبح مُحكماً. حين أقبل وِين على طول الجادة، كتلة من الأوراق كانت تبرز من جيبه. مال نحو الطفل الباكي مثل فارزة في سطر بحيث إنّ الطفل، بصورةٍ مؤقتة، مرتبكاً، علّق بكاءه، أصبح الرداء الخارجي مُحكماً، والأسرة الصغيرة استمرتْ في طريقتها الهيّابة.

في وقتٍ لاحق من صباح ذلك اليوم، آنَ وقفتْ مع وِين في «طريق هويهاي»، حين بجّل الأخير أبويْ سويرل المفقودين وأشقاءها الأكبر سنّاً، زوجها المفقود وابنها المحبوب، حين تمنى البركة لشقيقتها الكبرى، كانت لديها ذكرى صافية فيما يتعلق بنجلها الصغير. كان قد أضاع موطئ قدمه وهوى إلى الوراء من الترام على الإسمنت المسلّح. لم يُصبْ حتى بخدشٍ صغير. ضحك وسأل ما إذا كان باستطاعته أن يفعل ذلك ثانيةً، ومن ثم مدَّ يده الضعيفة وخطف الرغيف من فم سبارو. كانت شفتا سبارو مغلقتين على الهواء، والارتباك يطفو على وجهه الصغير.

في «طريق هويهاي»، طلب منها وِين أن تكون زوجته.

تذكرتْ سويرل هدوء السرير حين نهضتْ بغتةً. كانت قد التقطتْ يد ابنها المثالية، وبدا كما لو أنّ حزناً رماديّاً قد انتقل من صدره إلى صدرها، وفي تلك اللحظة تحديداً، حين عرفتْ أن ابنها قد انتقل إلى العالم الآخر، أنها فقدتْ أبويها، أشقاءَها وزوجَها كلهم مجدداً. ولأنها

غير قادرة على التوقف عن البكاء، رفضتْ أن تدعَ جثمان الطفل وشأنه. لكنه أضحى متيبساً وبارداً بعد الوفاة. فقط بغ موذر استطاعتْ أخيراً أن ترفع الجثة من يديها.

«آنسة سويرل»، قال لها وِين الآن، فيما كان المتسوّقون الذين يحملون أكياساً فارغة يتجولون بمحاذاتهما، «أعدكِ أنه طول حياتنا المشتركة معاً، سوف أسعى وراء عوالم ربما ما كان لنا أن نصادفها في تفرّدنا وعزلتنا. سوف أحافظ على أسرتي وأحميها. سوف أشاطركِ دموعكِ. سأربط سعادتي بسعادتكِ. بلدنا يتأهب للولادة. دعينا، نحن أيضاً، نغتنم الفرصة كي نبدأ من جديد».

«أجل»، قالت سويرل، كما لو كانت الكلمات صلاة. «دعنا نفعل».

-3-

ذات مرة، قالت لي أي - مينغ: «ما - لِي، إنني متيقنة من أنني اختفيتُ. أليس كذلك؟ هل يمكنكِ، أن تريني *بالفعل*؟» رفعتْ يدها اليمنى ومن ثم اليسرى، ببطء شديد. غير متأكدة من كونها تزعجني بالأسئلة أم لا، قلّدتُ حركاتها، وأنا أتصوّر أنني تحت رحمة الريح، دفعتني قوّى غير مرئية إلى الأمام، ودوّرتني جانباً. «إنني غير مرئية، أنا أيضاً، أي - مينغ. أترين؟» سحبتُها إلى داخل الحمام، حيث نظرنا إلى انعكاساتنا كما لو أنّها، ومن هنا نحن، أنفسنا، كنا سراباً. الآن فقط، في إدراك متأخر، أعتقد أنها رأتْ اختفاءها هي باعتباره صفةً مطلوبة. لعلها تريد، أخيراً، أن تعيش من دون أن ينتبه إليها أحد.

كان ذلك في العام 1991، في منتصف آذار «مارس»، وكانت أي - مينغ معنا على مدى ثلاثة أشهر. كانت أمي تعمل طول اليوم الآن، وكانت قد أخذتْ عملاً إضافياً كي تغطي تكاليف أي - مينغ، تحسباً للمستقبل. قررتُ أن أستخدم نقودي، نقود «السنة الصينية الجديدة»، نقودي الجالبة للحظ، كي أدفع نفقات عشاء أي - مينغ. كانت خطتي أن آخذها إلى مطعم أبي المفضل. في الليلة التي انطلقنا فيها، كان الطقس معتدلاً، وكنا نتماسك بالأيدي فيما كنا نمشي بجوار الشجيرات في الجادة الثامنة عشرة، بمحاذاة منازل متدلية ومروج غير مجزوزة، تحت أزهار مُبهِجة كانت تُعطّر حتى المباني ذات المظاهر البالغة الحزن.

في «الشارع الرئيس»، انعطفنا شمالاً. أتذكر أن قطة عجوزاً رمادية

اللون كانت راقدةً في منتصف رصيف المشاة ولم تتحركْ قط حين دنونا منها، فقط مدتْ قدماً واحدة أكثر، وشرعتْ تضرب ذيلها بعنف من جانب إلى جانب. بدا كأن المطعم قد ابتعد عن الظلال مرتدياً ثوباً من الأضواء. كان مطعماً بولندياً يُدعى «مازوركا». كان دافئاً في الداخل ومكتظّاً إلى ربعه، وكانت هنالك مناديل مائدة بيض وأدوات ثقيلة، وشموع صغيرة جدّاً في كؤوس متناهية الصغر. برفقة أي - مينغ، شعرتُ أنني بالغةٌ ودنيوية، محنكة بالفعل. هي، على أية حال، كانت تتحدر من بكين، وهي مدينة، كان يسكنها، في العام 1991، أحد عشر مليون نسمة. شرحتْ لي أي - مينغ قانون الأرقام الكبيرة «LLN»، والطرائق المتنوعة لتأسيس برهان رياضي، بما فيها «البرهان من دون كلمات» الذي كان يستخدم الصور البصرية. ذُهلتُ من مقولات من مثل

إذا نعرف x، نحن نعرف y أيضاً، لأنه... أو

إذا نعرف p إذن نحن نعرف q...

في صيف 1989، حين كانت أي - مينغ لا تزال في بكين، أدت اختبارات الدخول إلى الجامعة القومية. بعد ذلك بوقتٍ قصير، مُنحتْ وظيفةً في «قسم علوم الكومبيوتر» الذي أُسس حديثاً في «جامعة تسينغهوا»، وهي أرقى الجامعات العلمية في الصين.

«كان ينبغي لي الذهاب»، قالت لي. «إنما كيف يتسنى لي ذلك؟».

كان قرارها بعدم الالتحاق بـ«جامعة تسينغهوا»، خياراً مبدئيّاً لكنه متهوّر، وهو يدهشني الآن. إنما حين كنتُ في سن الحادية عشرة، قلتُ لها إن ذلك كله ذو معنى.

وفيما كانت أي - مينغ تتناول لفائف الكرنب والزلابية المحشوة، أخبرتني أنها ممتنة لسخاء أمي لكنها تشعر أنها غير جديرة بذلك. كانت تشعر أنها سريعة التأثر نهاراً، وتخشى أن يراها أحد، لكنها بحاجة لأن تكون جريئةً وتبدأ حياتها من جديد. أخبرتني أي - مينغ أن العزلة بوسعها أن تُعطي شكلاً جديداً لحياتكِ. «مثل نهر ينقطع عن البحر»،

قالت لي. «إنكِ تحسبين أنه يجري إلى جهةٍ ما، لكنه لا يجري. يمكنكِ أن تغرقي في باطن ذاتكِ. هكذا أشعر. أتفهمين، ما - لِي؟».

تذكرتُ ليلةً ما قبل أن تأتي أي - مينغ كي تقيم معنا، حين غطستُ رأسي تحت حمام الماء وتخيلتُ كيف سيكون حالي حين أتوقف عن التنفس، حين أضع حدّاً للزمن، كما فعل أبي. قلتُ لها إنني فهمتُ ما عنتْ. كيف كنتُ أتوق لأن أفهم كل شيء.

كان ضوء الشمعة قد مسَّ مسّاً عابراً رفيقاً كل الأشياء الموجودة في الحجرة. تحدّث إلينا النادل بوداعة، كما لو أنّنا أقبلنا من مدينةٍ نائيةٍ جدّاً، من مكانٍ تنتظر فيه الكلمات أصداءَها. كنتُ أتخوّف من أن تمرّ طفولتي قبل أن يكمل هو جملةً ما. وحتى حين أجبته بلهجتي الكندية غير المفهومة، استمر مع بطء العصور، إلى أن شعرتُ أنا، بدوري، بأن نبضي بطيء، وأن الزمن أصبح نسبيّاً، مثلما برهن علماء الفيزياء أنه كذلك، لذا من المحتمل أننا، أنا وأي - مينغ، لا نزال جالستين هناك، في زاوية المطعم، ننتظر وصول وجبة الطعام خاصتنا، ننتظر أن تبلغ جملةٌ ما نهايتها، ننتظر أن تواصل فترة الاستراحة مسارها.

وقتئذٍ، كانت أي - مينغ قد قررتْ أن تحاول دخول الولايات المتحدة. كان العفو العام عن الطلبة الجامعيين الصينيين الذين يصلون إلى أميركا بعد تظاهرات تيانانمين قد انتهى، لكن، في آذار «مارس»، كتبتْ صديقة أمها منذ زمن الدراسة قائلةً إن [كونجرس الولايات المتحدة] كان يدرس مشروع قانون جديداً خاصّاً بالهجرة، شبيهاً بالعفو العام الشامل لسنة 1986 الذي عفا فيه عن مليونين وثمان مئة ألف أجنبي غير شرعي وضَمِن لهم الإقامة الدائمة. كان الاشتراط في حينها ينص على أن مقدّم الطلب يجب أن يكون قد أقام أربعة أعوام في الأقل في الولايات المتحدة؛ ولم يكنْ أحدٌ يعرف ماذا يُحتمل أن تكون القيود الجديدة. صديقة أمها، المقيمة في سان فرانسيسكو، عرضتْ على أي - مينغ مكاناً للإقامة المؤقتة؛ قالت لها إن التأخر شيء سخيف.

كانت أمي قد حصلتْ في وقت سابق على جواز سفر مزور لـ أي - مينغ، كما حصلتْ على أوراق أخرى ذات صلة بجواز السفر. لا أنا ولا أمي كنا نريدها أن تغادرنا، إلّا أنّ القرار ليس بأيدينا. كان دخل أمي المالي القليل يعني أننا غير مؤهلتين لتكفّل هجرة أي - مينغ إلى كندا.

كانت أي - مينغ تشعر أنها متأكدة من أنني في يومٍ ما، في وقتٍ لاحق من حياتينا، سوف أزورها في الولايات المتحدة. كانت تتباهى بأنها عرفتني لأنني، في حينها، سأكون ذائعة الصيت. «ممثلة»، خمنتْ. هززتُ رأسي. «رسامة؟»، «لا، بالتأكيد». «ساحرة!»، «أي - مينغ!» تأوهتُ، مذعورةً. ابتسمتْ وقالت: «كاتبة؟ الجمل هي معادلات، أيضاً». «ربما». «خبيرة بتعويض الأرقام بالأرقام». لم أكنْ أعرف ما هو ذلك لكنني ابتسمتُ على أية حال وقلتُ لها: «بالتأكيد». فقط في وقتٍ لاحق اكتشفتُ أنه مصطلح صيني لنظرية الرقم الجبري. أخبرتني أنني أمتلك ما هو مطلوب من كل عالم رياضيات عظيم، ألا وهو ذاكرة ممتازة وإحساس بالشعر. أحسستُ أنها تغلغلتْ إلى داخل ذاتي، نفذتْ إلى ما وراء كل مَظهر من المَظاهر الكاذبة ووراء كل زخرفٍ من الزخارف، وأنها كلما تعرفني أكثر تُغرم بي أكثر. كنتُ يافعةً جدّاً، يومذاك، بحيث لم يكنْ بمستطاعي أن أعرف إلى أيّ مدى سيدوم هذا الحب، وكيف أنه نادراً ما يدخل إلى حياة المرء، وكم هو صعب أن يتقبّل المرء نفسه، ناهيك عن تقبّل الآخر. حملتُ معي هذا الضمان - حبّ أي - مينغ، حبّ شقيقةٍ تكبرني سناً - بعيداً عن عهد الصبا إلى حياتي كشابةٍ بالغة.

أو ربما كنتُ أخذتُ معي جميع حواراتنا المتبقية، كل الحوارات نصف المنتهية وتلك التي بالكاد بدأتْ، ووضعتُ كل كلمة في داخل هذه الليلة الاستثنائية، بحيث إنّني تخيلتُ يومئذٍ في الوقت المحدد بعض التفسيرات لكل ما هو عصي على التفسير، والأسباب التي جعلتني أُغرم بها وأنتظر بلهفةٍ كلّ رسالةٍ من رسائلها إلى حدّ يوم وصولها هي حينما لم تعدْ تأتي رسائل أخرى. هل كانت تسعى للرجوع إلى شنغهاي

وإلى أمها؟ هل أحرزتْ هي نفسها النجاح في الولايات المتحدة؟ هل وقعتْ لها حادثةٌ ما؟ على الرغم من جهودي كلها، لا أزال أجهل. ربما نسيتُ كل شيء. كان لديَّ فقط فهم قليل للأشياء التي جرتْ في بلدها، بلد أبي، في العام 1989، في نهاية الربيع وبداية الصيف، الأحداث التي حتّمتْ مغادرتها. هنا، في المطعم المفضل لدى أبي، طرحتُ السؤال الذي كنتُ أتحرّق شوقاً للمجاهرة به، أن أسألها ما إذا كانت قد شاركتْ في التظاهرات في «ساحة تيانانمين».

ترددتْ أي – مينغ طويلاً قبل أن تردّ على سؤالي. وفي الختام، روتْ لي عن تلك الأيام، والليالي حينما أقبل إلى «الساحة» أكثر من مليون إنسان. بدأ الطلبة إضراباً عن الطعام استمر سبعة أيام وأي – مينغ نفسها أمضت الليالي على الإسمنت المسلّح، نائمةً بجوار أفضل صديقاتها، ييوين. جلستا في العراء، لا يوجد تقريباً شيء يحميهما من الشمس أو المطر. إبان تلك الأسابيع الستة من المظاهرات، شعرتْ أنها بالفعل في وطنها الصين؛ فهمتْ، لأول مرة في حياتها، أنها فهمتْ، ما هو شعورها حين تنظر إلى وطنها من خلال عينيها هي وتاريخها هي، أن تصبح واعيةً أسوةً بملايين البشر سواها. لا تريد أن تكون هي نفسها نهراً راكداً، كانت تريد أن تكون جزءاً من المحيط الهادر. لكنها لا تريد الرجوع الآن، قالت لي. حين مات أبوها، كانت قد طُردتْ من بلدها. هي، أيضاً، فارقت الحياة.

قالت لي أي – مينغ إنني كنتُ، على الدوام، بالنسبة لها، فرداً من أفراد أسرتها، سأكون على الدوام شقيقتها الصغرى، ما – لِي، ماري، فتاة. بأسمائي العديدة، أحسستُ كأنني شجرة ذات تيجان من الأغصان. أنشدتْ لي نتفاً من الأغاني التي علّمتها إياها «بغ موذر» وكنا نقهقه طوال الطريق المؤدي إلى المنزل. حين وصلنا، أحسستُ، شيئاً فشيئاً، أن أذرعنا توارتْ عن الأنظار، وأن شكل جسدينا لم يعدْ موجوداً، وحتى وجهينا، بحيث إنّنا في الداخل كنا مخفيتين، ممحوتين فعلاً وتماماً، من

العالم. إنما هذا لا يبدو ضياعاً؛ كنا قد اعتنقنا إمكانية أن نكون جزءاً من شيءٍ أكبر من نفسينا.

حين عدنا إلى شقتنا، لم تشعلْ أي - مينغ المصابيح. أعدّت الشاي واستلقينا في العتمة ورحنا نحدّق من وراء النوافذ، إلى الفناء وإلى المنازل القريبة، الغامضة. استمرتْ أي - مينغ تخبرني بقصة «كتاب السجلات التاريخية»، الذي لم يكنْ، على كل حال، خلاصة لدفاتر الملاحظات تلك التي يبلغ عددها واحداً وثلاثين، بل كانت تتناول حياةً أقرب بكثير إلى حياتي. قصةٌ كانت تحتوي على تاريخي وسوف تحتوي على مستقبلي.

***

حين تزوج الاثنان: سويرل ووِين الحالم في بنغبي في العام 1951، وصل المغنون وبائعو الكتب من كلا الجنسين، كان هؤلاء يقيمون في شنغهاي وهم متحمسون ونابضون بالحيوية؛ وصلوا حاملين معهم آلاتهم الموسيقية وكتبهم المنسوخة باليد. أخوال وِين ضربوا على ظهره، امتصوا أطراف غلايينهم الطويلة وهتفوا قائلين: «زوجتك كنز. [أولد ويست] يبتسم إليك من عليائه!». لعبوا الورق ودخنوا بغزارة، والضباب الكثيف الناتج عن تدخينهم جرفه تيار الهواء إلى الطريق وأربك راكبي الدراجات الهوائية المارين من هناك، مشوّشاً عليهم الرؤية. «ذه أولد كات»، ببذلة من ثلاث قطع، رقصتْ بتلك الأناقة بحيث إنّه حتى الأب لوت، الذي كان يحكّه جلده في ملابسه الريفية، بكى وهو يعزف. فيما بعد، اقترحتْ «ذه أولد كات» أن يشربوا نخب ذلك «المستكشف غير المشهور، ذلك العملاق وسط الرجال، دا - وي!». شرب الجميع، معظمهم كانوا يعتقدون أن هذا حتماً هو الوغد الذي حطم قلبها. بدت الحفلة كأنها طالتْ أكثر من حدودها، دارتْ إلى الأمام مثل أغنية شهيرة ذات أشعار إضافية.

كان سبارو قد كتب قطعةً موسيقية، سوناتا مشذبة ذات ثيمة رئيسة

وتوسيع لها، ودندن بها لـ وِين الحالم فيما كانت الشمس تطلع على الضباب في اليوم التالي. في الدندنة ذات الصدى بعد أن انتهى، قال وِين: «إنكَ، بالطبع، مساعدٌ للسيد[1] باخ الشهير؟».

لم يفهمْ سبارو أربع كلمات في الجملة الأخيرة لكنه أومأ برأسه فقط في حالة ما.

«في تلك الحالة، لديَّ شيء ما لك»، قال وِين. قدّم له ثلاث أسطوانات ثمينة، مستوردة من أميركا.

في النهاية، في اليوم الثالث، فيما كان العصر يوشك على الانتهاء، غنتْ سويرل و«بغ موذر نايف» لحناً ثنائياً، وفي غنائهما ودَّعتْ كل منهما الأخرى، ودَّعتا الأسرّة الضيقة ومخاوف الصبا التي تقاسمتاها، والطرق المفتوحة التي علّمتْ هذا الانتقال من نَفَسٍ واحدٍ من الحياة إلى النَّفَس التالي. «لقد أكملتُ واجبي حيال أبويَّ»، قالت بغ موذر في نفسها. سويرل سوف تقيم هنا، في قرية بنغبي، في منزل أسرة وِين الحالم، قبضتْ على شقيقتها بإحكام مرةً أخرى، قبل أن تستدير.

كل شيء يمضي، فكرت «بغ موذر»، فيما كانت جالسة في سرير القطار الواطئ في طريق عودتها إلى البيت.

فرقعتْ قشور جافة لبذور زهرة الشمس مثل ضَرَم[2] تحت حذاءيها. قابل الأب لوت أصدقاءً قدامى من «مقر القيادة العامة» ومضى ليلعب الورق في حجيراتهم الخاصة بالقطار؛ أما سبارو فكان يطالع نسخةً مرميةً من «*إصدارات أدبية وفنية في الاتحاد السوفييتي*». كان المشهد الطبيعي يمضي في موجاتٍ من اللونين الأخضر والأصفر كما لو أنّ الريف كان بحراً غير محصود بلا حدود. توقف القطار غرب سوتسهو ودفع رتلٌ طويلٌ من الحمالين البضائع بخشونة. تطلعتْ «بغ موذر» من الشباك وشاهدت امرأةً في سنّها واقفةً على الرصيف المقابل، أمامها

1 – وردت في النص الإنكليزي كلمة هر: Herr الألمانية، التي تعني: سيد – م.
2 – الضَّرَم: مادة ملتهبة تُضرم بها النار – م.

طفلة صغيرة. بدت الفتاة الصغيرة مستغرقةً في أفكارها وتأملاتها. استقرتْ يدا الأم بنحوٍ ينمّ عن الحماية على كتفي الطفلة. أغمضتْ «بغ موذر» عينها المريضة وضغطت الأخرى على الزجاج.

المرأة، حين نظرتْ عن كثب، كانت تبكي من دون تحفظ. انحدرت الدموع من دون توقف على خديها. تحرك وراءها جنود من «جيش تحرير الشعب»، طوّقوا الأم والطفلة بودّ متكتم. رنَّ الصفير وأُغلقتْ أبواب القطار بقوة. ومع ذلك لم تتحرك المرأة.

انسحب القطار مبتعداً، والأم والطفلة والجنود تواروا عن الأنظار.

رجع الأب لوت، نصف سكران، أطرافه تفتقر إلى البراعة. حاول أن يثني نفسه في الحيز الواقع بجانبها، لم ينجحْ إلّا نجاحاً جزئيّاً. «على الرغم من حقارتكِ، أنتِ الشخص الذي أعود إليه»، غمغم، عيناه مغمضتان. «أعود إلى المنزل من العالم المُمل». أرادتْ «بغ موذر» أن تهينه إلّا أنَّها كبحتْ نفسها. كانت شفتا زوجها رفيعتين وحزينتين وكان وجهه شائخاً. حتى لحيته الرمادية التي لم يحلقها منذ أيام بدتْ كئيبةً. خارج النافذة، مرَّ المشهد الطبيعي سريعاً كما لو أنّه يريد أن يمحو كل ما أتى قبله.

***

مرَّ عام، ومن ثم أربعة أو خمسة أعوام، وفيها نادراً ما رأتْ «بغ موذر نايف» أختها. سويرل ووِين أصبح لديهما الآن ابنة، تسهولي، التي ولدتْ كقوة ماحقة بعشرة أرطال قبل أن تتمدد لتصبح طفلةً رشيقةً وحلوة الشمائل. «الفتاة»، كتبتْ سويرل، «تغني طوال الوقت. الطفلة هي السر الواقع في مركز حياتي».

ردّتْ عليها بغ موذر بأن كتبت لها: «إنهم يتحولون إلى خسيسين».

كان ذلك في العام 1956 وكانت أسرة «بغ موذر» في شنغهاي على مدى عشرة أعوام تقريباً. بتعاقب سريع، كانت قد أنجبتْ غلامين آخرين

بشعر أرق وأخف وبحاجبين خفيفين، مثلثين. أصرَّ الأب لوت على أن يسميهما «دا شان» (الجبل الضخم) و«فِي كسيونغ» (الدب الطائر). ماذا بعد، صاحتْ به بغ موذر: «لحم الضأن اللذيذ؟» كانت جدران المنزل الواقع في الزقاق قد بدأتْ تضغط عليها مثل سترة أصبحتْ ضيقةً جدّاً. صباح هذا اليوم، في سبيل المثال، دا شان خزَّ أصابعه العشرة كلها في وجه شقيقه الأصغر الباكي. في غضون ذلك، كان سبارو أصم حيال أيّ شيء باستثناء الأسطوانات التي استعارها من «المعهد العالي للموسيقى». كان ابنها الأكبر على وشك أن يتخرج باختصاصين هما البيانو والتأليف الموسيقي إنما، ليلةً بعد ليلة، كان يجلس وجبينه الأحمق مضغوط على الغرامفون، كما لو أنّ هذه الآلة هي أمه. كان يكيّف *«تنويعات غولدبيرغ»*[1] على تنويت الـ جيانبو والموسيقى البورجوازية رفرفتْ عبر المنزل، المرة تلو المرة، إلى أن سمعتها بغ موذر حين كانت الغرف ساكنة. وفي أثناء ذلك، زوجها البطل كان مشغولاً بقيادة حملةً أخرى من حملات استصلاح الأرض، وكان دوماً بعيداً، يطيح بأسرة صاحب الأرض، وهو يسترجع حقول البازلاء، الكتان، الدخن، وربما الهواء نفسه، بالنيابة عن الشعب. وإذا لم يكنْ ذلك استصلاح الأرض فشغله الشاغل هو الأغنية، وفرق الرقص، جلسات الدراسة السياسية، الاجتماعات الحزبية، أو دروس الفلوت الخصوصية لكادر مؤثر آخر. هل لا يزال يعطي دروساً في «المعهد العالي للموسيقى» حتى الآن؟ في المنزل كان فظّ السلوك ولا يُطاق، وكان ينظر إلى «بغ موذر» والأولاد كما لو أنّه ينظر إلى شباك قذر جدّاً. تجاهلته. لم يكنْ ذلك شيئاً صعباً. الإهانات التي من المفترض أن تخز فؤادها كانت عديمة الضرر حالها حال العصيدة.

---

1 – تنويعات غولدبيرغ Goldberg Variations: عمل كتبه يوهان سباستيان باخ لبيانو قديم قيثاري الشكل، يتألف من لحن وطاقم من ثلاثين تنويعاً. نُشر أول مرة في العام 1741. يُعدّ هذا العمل أهم الأمثلة المهمة على شكل التنويع. سُميت *التنويعات* على اسم يوهان غوتليب غولدبيرغ، الذي قد يكون أول مَن عزف هذا العمل الموسيقي – م.

مع ذلك، نوتات البيانو الجميلة تلك كانت تسخر من كل الحركات التي نفذتها. كانت النوتات تقطر من المطبخ إلى غرفة النوم إلى قاعة الاستقبال، تتسرب كما يتسرب ماء المطر إلى ثمار البرسيمون الموضوعة على الطاولة، السّتر الشتوية العائدة لأفراد أسرتها، والنعومة الهادئة لوجه الرئيس ماو في البورتريه الرمادي المؤطر على الحائط. كانت تعتقد أنه يبدو عجيني القوام، وهو لا يشبه على الإطلاق ذلك المحارب الوسيم، الباسل الذي كان في يومٍ من الأيام. دبَّ الندم في فؤادها وأطرافها؛ هل دبَّ في فؤاد وأطراف الرئيس ماو؟ على الرغم من أفضل جهودها، كانت الوحدة تتعدى على «بغ موذر نايف».

في وقت الظهيرة تقريباً، بعد أن غادر الصبيان إلى المدرسة، وصل الأب لوت بنحو مباغت إلى البيت. كان زوجها يحمل حقيبة الجيش خاصته على كتفيه، وكان يبتسم كأنه خرج ظافراً من معركةٍ ما، إذ لاحتْ على وجهه بسمة انتصار. كانت سترته المبطنة بزرقة قوقعة - المحار كزرقة سماء الشتاء باستثناء أثر شيء يشبه الدم، وما أحزن «بغ موذر» أن العالم الخارجي، بكل صنوف كراهيته، الصغيرة منها والتاريخية، أتتْ إلى داخل منزلها.

«معتوهة أنا»، قالت. «كنتُ أظن أن الحرب وضعتْ أوزارها في العام 1949».

كان الأب لوت قد غاب مدة ستة أسابيع وظنّاً منه أنه سوف يرى أفراد أسرته مجدداً، شرع يعدو حالما دخل إلى الزقاق. كان عدم مبالاة زوجته يدفعه لأن يحس كأنه متسول يستعطي. كانت بغ موذر في فستانها الليلي وشعرها المجعد منتصب على رأسها مثل حشوة قطن. لم يكنْ باستطاعته أن يقرر ما إذا كان ينبغي له أن يوبخها أم يريحها.

رمى إلى الأسفل نسخته من جريدة «*جيفانغ ديلي*» وعلبة من سجائر «البوابة الأمامية». «باشر الحزب بحملةٍ جريئةٍ أخرى. ألا يثير هذا اهتمامكِ؟ ولماذا لا تلبسين ثوباً؟».

«أوه، حسناً. حملة جديدة. كما يقول الرئيس ماو [بعد أن كُنس الأعداء المزوَّدون بالبنادق، سيبقى لنا الأعداء الذين من دون بنادق]».

تجاهل نبرتها. «ألم تقرئي الصحف؟».

«لقد أغلقوا مكتبنا لأن الأنابيب جمدتْ»، قالت بغ موذر. «طفا كل شيء. نحن وحدة مؤلفة من أكثر من مئتي شخص واللجنة يتعيَّن عليها أن تجد فضاءً جديداً لنا. لذا فقد حرروني من المسؤوليات».

«لا يوجد عذر لبقائكِ في المنزل ورثائكِ نفسكِ!».

تفرّستْ بغ موذر في وجه زوجها.

تنهد وحاول أن يليّن نبرته. «ألا يوجد شيء كي نأكله؟». خلع سترته ومضى إلى المغسلة، شرب من الصنبور مباشرةً. في أسفل البطانات كلها، رأتْ أن ثياب الأب لوت بدتْ كبيرةً جدّاً، كما لو أنّ حجمه قد بلغ نصف حجمه السابق. ربما تبرّع بلحمه للفلاحين. نهضتْ، وراحتْ تضرب بعنف كل ما حولها وفي الختام وضعتْ بقوة بعض الطعام أمامه. تصرف الأب لوت كأنه لم يأكلْ منذ أسبوع. بعد أن أنهى الأب لوت جبلاً من الرز وساق دجاجة، حصتهم الكاملة من اللحم على مدى أسبوع، سلّم بأنه اشتاق إليها.

تنشقتْ. «هل الوضع سيّئ هناك في الخارج؟».

«كالعادة». وجد قطعة قماش نظيفة ومسح فمه، ومن ثم وجهه كله، وأخذ يضغط على عينيه. كان الأب لوت ممتلئ الجسم جدّاً على الدوام، ويمتاز بثقةٍ عاليةٍ بالنفس، ثقة رجل ضخم البدن بنفسه. هذه النحافة الجديدة صيّرته رجلاً حساساً، ذا نظرة جائعة، الأمر الذي أربكها. مرَّر قطعة القماش على مؤخرة عنقه. «سياسة إصلاح الأرض خاصتنا مجيدة، لكن الشعب في حالةٍ من الفوضى. ومع ذلك، إنه عملٌ ضروريٌّ هذا الذي ننفذه. ما من أحد يقدر أن يقول خلاف ذلك». من دون أن يبدو أنه يفعل، بدأ يهمهم: «الأعشاب الضارة لا يمكن إزالتها».[1]

---

1 - الكلمات الموضوعة بين الأقواس هي كلمات أغنية، بحسب ما أفادت الكاتبة - م.

«أنتَ واستصلاح الأرض»، قالت. «أتعتقد أن أمكَ هي التي أنجبتْ هذه الفكرة؟».

غير أن الأب لوت كان مفزوعاً جدّاً بحيث إنّه ضحك. تفحص نفسه وقال بفظاظةٍ: «اذهبي إلى الشيطان، كيف يمكنكِ أن تهزئي بهذه الطريقة؟ سوف تعرضين نفسكِ للقتل». وفيما كان يطرح قطعة القماش، بدتْ يداه مرتعشتين. «بغ موذر، يلزمكِ أن تُمسكي لسانكِ».

تطلعتْ إلى العظم على طبقه. التقطته نظيفاً. «أنتَ هنا في المنزل على مدى ردحٍ من الزمن، أليس كذلك؟».

«نعم».

«حسناً. لأنني ذاهبة إلى بنغبي كي أزور شقيقتي».

«إيه؟» قال لها. ارتفع حاجباه عالياً جدّاً بحيث إنّها ظنتْ أنهما سوف يطيران. «لكن ماذا بشأن زوجكِ؟».

التقطت العظم وعضتْ على طرفه. «سوف يبقى حيّاً».

ابتسم الأب لوت إنما بعدها، وهو يفكر في ما قالته، قطّب جبينه. بيده ضرب الطاولة بقوة، وأعدَّ نفسه لانزعاج عظيم. «[بغ موذر، أصغي إليّ الآن. ألا تعرفين أننا في منتصف حملةٍ بين الحياة والموت؟ أرجوكِ! لا تنظري إليّ بهذه الطريقة. إنني أقول لكِ، ثمة حرب تجري على قدم وساق في الريف».

«توجد، دوماً، حربٌ معكم، أنتم الشعب».

«هي ذي أنتِ تبدئين من جديد! الآن فقط التزمي الصمت وفكري في الأمر مليّاً».

ما إن استعد الأب لوت للذهاب، لم يكنْ بوسعها أن تمنعه. تطلعتْ بجوعٍ إلى طبقه الفارغ.

«بعض هؤلاء الفلاحين، هؤلاء الأشخاص اليائسين»، استطرد قائلاً: «ينبغي أن يُجبروا على تذكّر كل نوع من أنواع الإذلال. يُجبروا! يجب أن يدفعهم الحزن كي يصبحوا مجانين قبل أن يتمكنوا من أن

يجدوا الشجاعة حتى يلتقطوا سكاكينهم ويُقصوا أصحاب الأراضي بالإكراه. بطبيعة الحال، إنهم خائفون. في التاريخ العالمي بأسره، أيّ ثورة من ثورات الفلاحين لم تُحدثْ تغييراً مستديماً؟». دعك رأسه الأصلع مجدداً. «إنني أعرف ما الذي أتكلّم عنه الآن، لا تظني أنني لا أعرف. على كل حال، الأمور كلها بدأتْ تهدأ الآن لكن الحملة الجديدة حرّضت الجميع ثانيةً. إنها تشجع الجماهير على انتقاد الحزب! والآن لقد فعلوها...».

«وحدة العمل خاصتي أصدرتْ لي رخصة سفر».

«زوجكِ يمنعك من ذلك».

«الرئيس ماو يقول إن النساء يحملن نصف السماء». أخذتْ طبقه، التقطتْ عظم الدجاجة وقذفته إلى دلو النفايات. أخطأت الهدف. اصطدم العظم بالحائط ولصق هناك. «كنْ أباً مثالياً»، قالت، «واعتنِ بأولادك».

«هل يلزمكِ أن تكوني عنيدةً جدّاً، على الدوام؟» هتف. سقط الأب لوت إلى الأمام على الطاولة. «لم تكوني عنيدةً جدّاً حين تزوجتُك». كان كذلك. انفجر ومن ثم هدأ من جديد. كالترومبيت.

لأول مرة خلال شهرين، أحسَّتْ بغ موذر أنها نوعاً ما أفضل حالاً. «هذا صحيح»، أومأتْ برأسها، «لم أكنْ عنيدةً جدّاً».

***

كانت الرحلة من شنغهاي إلى قرية بنغبي تستغرق تسع عشرة ساعة بالقطار والحافلة الصغيرة. في نهاية رحلتها، شعرتْ بغ موذر نايف كما لو أنّها امرأة كُسرتْ ساقاها كلتاهما. في بنغبي، مشتْ باضطراب من الحافلة إلى الرذاذ ووجدتْ نفسها في حقل خالٍ. القرية، التي كانت تتذكرها مزدهرةً، بدتْ وسخةً وقبيحةً.

عندما صعدتْ، أخيراً، بمشقة الدرب الجبلي المؤدي إلى منزل

أسرة وِين الحالم، كانت في مزاج سيّئ. عند بوابته، ظنتْ أن عينيها كانتا تتحايلان عليها. من المؤكد أن السائق رجل غير شريف، والأحمق جعلها تترجل من الحافلة الصغيرة عند القرية الخطأ أو حتى في المقاطعة الخطأ. ومع ذلك... لا يستطيع المرء أن ينكر الحقيقة القائلة إن أحجار الرصيف اللوحية بدتْ مألوفةً. فناء المنزل افتقد بوابته، كان لديه أرض منبسطة توارتْ عن الأنظار. وفيما هي ترى ضوء مصباح، مشتْ عبر الفناء الداخلي ودلفتْ إلى الجناح الجنوبي. كان هناك سقط متاع في كل حدب وصوب، كما لو أنّ المنزل الرائع يتأهب للتهديم. وفيما هي تدخل، رأتْ نصف دزينة من الأشباح تزحف على الأرض. وفي رعبها، كادت تسقط روحها (بحسب تعبير أبيها)، إنما بعدها أدركت بغ موذر نايف أن تلك لم تكنْ أشباحاً بل بشراً. كانوا أشخاصاً منهمكين بإزالة الآجرات وحفر الأرضيات.

«تحياتي، أيتها الأخوات الرفيقات!» قالت.

توقف شبحٌ عن حركة الحفر وأنعم النظر فيها.

ألحتْ «بغ موذر». «أرى أنكِ مشغولة بإعادة البناء؟ كل واحدة منا يجب أن تبني الصين الجديدة! إنما، هل يمكنكِ أن تخبريني، أين يمكنني الذهاب كي أعثر على الأسرة التي تقيم هنا؟».

قالت المرأة التي كانت تنعم فيها النظر: «تمَّ رمي أفرادها. أُعدموا كما يُعدم المجرمون».

«يسافرون - كالمجرمين؟» قالت «بغ موذر». كانت غريزتها تحثّها على الضحك. ظنتْ أنها سمعت بالخطأ xíng lù «أُعدموا» (刑 戮) بدلاً من xíng lù «سافروا» (行 路).

امرأة أخرى رفعتْ بندقية متخيلةً بيدها، وأطلقت النار على رأسها هي، وانفجرت تبتسم بسمةً فاترةً. «في الأول الرجل»، قالت، «وثانياً»، أطلقت النار من جديد، «المرأة».

«كانوا قد دفنوا قطعاً فضية تحت البلاط»، «قالت امرأة أخرى. «تلك

النقود عائدة للقرية، كانا يعرفان أنها ملك للقرية، وسوف نكشف النقود كلها».

مدّتْ بغ موذر يدها بيد أن الجدار كان بعيداً جدّاً.

«مَن تكونين، على أيّ حال؟» قالت المرأة التي تظاهرتْ بأنها تحمل بندقية. «تبدين أليفة».

«أودّ أن أعرف مَن الذي أعطاكِ الرخصة كي تكوني هنا»، قالت بغ موذر. ويا لغضبها الشديد، كان بوسعها أن تكتشف رعشةً في صوتها.

«الرخصة!» قالت المرأة باستهزاء.

«الرخصة!» كررت النسوة الأخريات. ابتسمن لها كما لو كانت هي الشبح.

دارت بغ موذر على عقبيها ومضتْ إلى الخارج. مضتْ ببطء عبر الفناء الداخلي، مباشرةً إلى مقدمة المنزل. هنا فقدت الزخم وجلستْ على جدار قرميدي منخفض يبعد مئة ياردة عن المدخل. لم يلاحقها أحد واستمر مصباح الكيروسين بالخفقان من الداخل. الآن سمعتْ ضربات مجارفهن. كان سائق السيارة ذاك حفيد سلحفاة! من المؤكد أنه أنزلها في المكان الخطأ. كانت تحذيرات الأب لوت تهيمن عليها كالهاجس. سحبتْ شعرها وحاولتْ أن توقظ نفسها، ضغطتْ يديها بعنف على وجهها، لكن على الرغم مما فعلته، رفضتْ عيناها أن تنفتحا والحلم لم ينتهِ. أجالتْ بصرها في ما حولها وشاهدتْ سخافة حقيبة السفر العائدة لها، الأرض الطينية، المنزل العبوس ونجوم الليل المتناهية الصغر وهي تبزغ. سوف تعود إلى داخل المنزل وتعدّل الأشياء. نعم، سوف ترجع وتمضي إلى الداخل. كانت تلك ليلةً غريبةً، ليلةً عاصفةً وفي مقدورها سماع صرخة حادة يتردد صداها في سفح التل. أيّ أشباح هذه التي ترددتْ على هذا المكان؟ بوسعها الآن أن تسمع الصرخات، وهي تدنو، ورنين جرس قرصي. جنازة، فكرتْ بخدر، لكن مع ذلك بغ موذر لم تتوقفْ أو تنسحب.

***

كان ثمة حشدٌ يأتي بمحاذاة الطريق، يتمايلون ويلهثون في موكب. دفعتْ بغ موذر نفسها على قدميها المتجمدتين. لم تكنْ لديها فكرة كم طال بقاؤها هنا، إلّا أنَّ النساء ذوات المجارف كنْ ذهبن إلى بيوتهن في الضباب، وفي اهتياجهن، حتى إنهن لم يشاهدنها حين مررن بها.

حين اقترب الموكب، كان بوسع بغ موذر أن تسمع أصواتهن بجلاء أكثر. على الرغم من أن هناك، في الحقيقة، جرساً قرصيّاً، أجراساً وانفجاراً عَرَضيّاً من الغناء، لم تكنْ تلك جنازة. تكررتْ كلمات معينة: «اثبتْ»، «تحلَّ بالشجاعة»، «شيطان»، إلّا أنَّ الصياح تفكك بنحوٍ غريب، كما لو أنّ زعماء معارضين كانوا يكافحون من أجل التحكم بالشعارات.

في صدارة الموكب، كان وِين الحالم يسير وجسده منحنٍ للأمام. ثمة امرأة تمشي وراءه. كان شعر سويرل ينسدل مرتخياً وجامحاً. كانت مائلةً للأمام تماماً، كما لو أنّها تحمل قطعة أثاث على ظهرها، إنما لم تكنْ هناك أيّ قطعة. كانت المسافة بينهما قد انشطرتْ إلى نصفين ومن ثم انشطرت إلى نصفين ثانيةً. وجوهٌ مسعورةٌ اقتربتْ من «بغ موذر»، وهي تزعق وتتأوّه. لم يكنْ بوسعها أن تفهم الكلمات كلها لكنها سمعتْ:

«بجّلوا الرئيس!».

«اقتلوا الشياطين!».

«يعيش استصلاح الأرض المجيد خاصتنا!».

أنا قطعتُ الطريق ووصلتُ إلى الموت نفسه، فكرتْ «بغ موذر». الآنَ رأتْ أن ذراعيْ شقيقتها كانتا مربوطتين بحبلٍ وراء ظهرها، في وضعٍ كان يُجبر مرفقيها الاثنين على أن يرتفعا عالياً في الهواء. ظهر الجميع في حالة إعياء شديد، كأنهم أُوقظوا توّاً من النوم. تمدد الموكب على طول الطريق، غير أنهم كانوا مستغرقين جدّاً في ضوضائهم بحيث إنّهم، هم بدورهم، لم يلحظوا بغ موذر. كان الفرد الأخير، غلامٍ صغير يكافح كي يجاريهم، تطلع إلى جهتها لكن عينيه لم تثبتا عليها. غذّ خطاه مسرعاً.

نهضتْ بغ موذر، تاركةً فجوةً واسعةً، تبعتهم. استمر الموكب على مدى ساعة أخرى في الأقل. وفي الختام، قبل خط الأشجار على وجه الدقة، خمد الصياح وجف البشر تدريجياً مثل جداول من الماء. عندما وصلتْ بغ موذر إلى نقطة النهاية، كانت شقيقتها ووِين قد فُكَّ وثاقهما وكانا واقفين، بصورةٍ غير لائقة، وحدهما. كانا يختبران ظهريهما باحتراس، ويمدّان أذرعهما ببطء. كانا يحملان حبالهما، كما لو أنّ الحبال هي مجرد دعامات.

«هل أنتِ أنتِ فعلاً، شقيقتي؟» سألتها بغ موذر.

استدارتْ سويرل، وهي تنعم النظر في العتمة.

«سويرل الصغيرة»، قالت بغ موذر ثانيةً، وهي تخشى من لمس المرأة. «هل هذه أنتِ؟».

***

لم تسمعْ «بغ موذر» القصة كلها في تلك الليلة أو في الليالي التي أعقبتْ تلك الليلة مباشرةً. كل ما تقوله شقيقتها هو أن هذه المواكب، «جلسات النزاع»[1]، سمّتها، كانت قد استمرتْ طوال الأشهر الثلاثة الماضية.

«في أغلب الأحيان، إنها عديمة الضرر»، قالت سويرل. «إنهم يأخذوننا إلى ساحة المدرسة ويتهموننا بكوننا مالكي أراضي. يتعيَّن علينا أن نجثو، غير أن كل ما يحتاجونه هو نقد - الذات الشامل. في بعض الأحيان، كما حصل الليلة، كنا قد سرنا في موكب في أنحاء القرية.

1 - جلسات النزاع struggle sessions: جلسة النزاع هي شكل من أشكال الإذلال والتعذيب العلنية استخدمها الحزب الشيوعي الصيني في عهد ماو تسي تونغ، وبالأخص إبان «الثورة الثقافية» كي يشكلوا الرأي العام وكي يُذلوا، يُضايقوا، أو يُعدموا منافسيهم السياسيين وأعداءهم الطبقيين. عموماً، يُجبر الضحية في جلسة النزاع على الاعتراف بجرائمه أمام حشدٍ من الناس الذين يسيئون معاملته شفوياً وجسدياً إلى أن يبدأ بالاعتراف - م.

لم يكنْ بمستطاع بغ موذر أن تحتوي غيظها. «ومـاذا عن بقية الوقت؟».

تطلعتْ سويرل إلى تسهولي، التي كانت مثنيةً في حضن أبيها، ولم تقلْ كلمة.

تحدث الجميع هامسين، كأنهم يخشون من إيقاظ آلهة القدر، أو حتى الرئيس ماو نفسه. الكوخ، بجدرانه الطينية وسقفه القش، كان عُني بأن يكون مخصصاً لإيواء الحيوانات، وأن أشياءً كثيرةً كانت جليةً بوفرة. تساءلتْ بغ موذر أين ذهبت الخنازير والأبقار التي استردوا ملكيتها.

«نحن لا نعاني»، قالت شقيقتها.

«إنه شيء محتوم»، أخبرها وِين الحالم، صوته بالكاد يعلو على صوت البخار المنبعث من شايه. «العدالة يجب أن تحل في خاتمة المطاف».

وهكذا، مرَّ يومان ومرت ليلتان بصمت بحيث إنّهما تركا جرحاً بليغاً في نفس بغ موذر. لم تكنْ تحتاج إلى شرح مطوّل، ما حصل كان واضحاً. إنما في شنغهاي، لم تشهدْ حملة استصلاح الأراضي. في المدن، الناس من كل مشارب الحياة وكل الانتماءات السياسية كانوا قد خُصصتْ لهم أحياءٌ جديدة. الأشخاص الذين فقدوا منازلهم مُنحوا منازلَ جديدةً. كان ذلك جزءاً من التعافي من الحرب.

في الليلة الثالثة، استلقتْ بغ موذر على الـ«كانغ»[1] بجوار أختها وطفلتها، تسهولي، التي كانت قد أصبحتْ في سن الخامسة. كانت الطفلة تشخر شخيراً قويّاً. كانت الـ«كانغ» مُسخنة من الأسفل بواسطة موقد من الفحم النباتي، وتبدو أثراً من قبر شخصٍ ما. كي تفسح المجال، مضتْ أم وِين العجوز لتبقى مع إحدى قريباتها.

---

1 - الـ كانغ kang: في المنازل الواقعة في شمال الصين بالأخص، وهي منصة أرضية في طرف غرفةٍ ما، تُدفأ في فصل الشتاء بواسطة النار من الأسفل، وتفرش بالسجاد لغرض النوم – م.

على الرغم من الدفء النسبي للسرير المُسخَّن، كانت شقيقتها ترتجف.

«أخبريني بشيءٍ ما»، قالت سويرل على حين غرة. «فقط كلمات قلائل كي تصرفيني من هذا المكان».

ابتلعتْ بغ موذر ريقها كي تخفف الجفاف في حنجرتها. في الخارج، كان وِين يدخن؛ الجدران الخفيفة ربما كانت، بدورها، من القماش. أخبرتْ أختها بشأن سبارو وشقيقه، بشأن موسيقى الـ جيانبو التي كانت تعدو من صفحةٍ إلى صفحة. لم يتوقفْ سبارو عن التأليف الموسيقي. إنه لا يتنفسْ، هكذا فكرت، كان فقط يُصدّر موسيقى. «أولادي الذكور مفعمون بالحيوية ولديهم أفكار مخفية تزيد على ما هو موجود ملء عربة من الكتب. الأم لا تعرف أبناءها مثلما تتخيّل».

«يا له من شيء حقيقي، يا له من شيء حقيقي»، همستْ شقيقتها.

قالت بغ موذر إنها في الماضي كانت ترتاد جايخانة قديمة حيث اعتادوا أن يغنوا هناك، «جايخانة الجبل الأرجواني». «لقد غيّروا الاسم»، قالت. «أمسى اسمه الآن: [بيت انتعاش الشعب: الجبل الأحمر]». قهقهتْ سويرل. «الحجرات مسدودة وكل ما كانوا يقدمونه هو الشاي وبذور البطيخ. لكن، مع ذلك، الحشد المألوف لا يزالون يأتون كي يتجاذبوا الحديث من دون تكلّف، يشربون قليلاً أو يملؤون علبهم الصغيرة. وحتى يوجد هنالك مغنون يؤدون الذخيرة[1] الجديدة: [الشرق أحمر]، [أغنية المشاركين في حرب العصابات] وكل الأغاني من هذا القبيل. إنها شيء مثير، مَن يقدر أن يجادل! حتى أنا كنتُ أريد أن أدمّر شيئاً ما حين سمعتها. إلّا أنَّ الموسيقى الثورية تؤذي الأذن بعد برهة. لا يوجد فيها حنين مَرَضي، لا يوجد فيها مكان للناس كي يتقاسموا همومهم. بالطبع»، بغ موذر تابعتْ بعجالة، «في [الصين

1 - الذخيرة: ذخيرة من الأغاني تدرب عليها الموسيقيون والمغنون وكانوا مستعدين دوماً لتقديمها - م.

الجديدة] هموم من هذا الطراز كما نعرف أكل عليها الدهر وشرب». ومضتْ كي تصف قلةً من الزبائن الدائمين، بمن فيهم أولئك الذين لا يزالون يأتون ومعهم طيورهم، طيور الصفار والسمّان، ورواة القصص ومؤلفو الأغاني العاطفية الراقصة الذين باتوا الآن يسردون ملحمة «[المسيرة الطويلة][1] الخاصة بالرئيس ماو» في خمسين حادثة مترابطة عنيدة من الحياة الواقعية.

«أتذكرين ذلك الكتاب الذي حكيتُ لكِ عنه»، سألتها سويرل. «الـ 31 دفتر من دفاتر الملاحظات؟ [كتاب السجلات التاريخية]». كان صوتها بالكاد يصل إلى بغ موذر، مع أنّهما كانتا متكورتين معاً على الـ كانغ الضيق.

«أحرقتِه، أتمنى ذلك؟ كل ما يُلهِم إخلاصاً كهذا ممنوع بالتأكيد».

«أحرق [كتاب السجلات التاريخية]؟» سألتها أختها. ثمة تباهٍ رخيص في نبرة صوتها. «كيف يمكنني أن أحرقه؟».

«كي تصوني نفسكِ»، ردّتْ عليها بغ موذر.

«كي أصون نفسي، لا يمكنني أن أفعل ذلك».

كان الكتاب لا يزال في مخبئه في داخل منزل الأسرة. دُستْ بين صفحات الكتاب جميع الرسائل التي كتبها وِين الحالم إلى سويرل. عندما لم تجدْ تلك الأرواح الجائعة قطعاً نقدية فضية، فتحوا الجدران. لا شيءَ مخفياً يظلّ غير مرئي. وصفتْ سويرل الأسماء المشفرة، كيف أن الصور الكتابية «الإيديوغرامات» المستخدمة لـ دا - وي وميّ فورث تغيّرتْ، وبدتْ كأنها تشير إلى نقاط بوصلة على خارطةٍ ما. شعرتْ بغ

1 - المسيرة الطويلة The Long March: (تشرين الأول «أكتوبر» 1934 - تشرين الأول «أكتوبر» 1936): هو تراجع عسكري قام به الجيش الأحمر التابع للحزب الشيوعي الصيني، سلف «جيش تحرير الشعب»، كي يتحاشى الكومينتانغ «جيش الحزب القومي الصيني». لم تكنْ هنالك مسيرة طويلة واحدة، بل مسيرات طويلة عدة بما أن جيوشاً شيوعية مختلفة في الجنوب هربتْ صوب الشمال والغرب - م.

موذر ببرودةٍ رهيبة. رسائل الحب ستكون سيئةً بما يكفي، لكن ماذا يوجد في ذلك الكتاب على أية حال؟ ماذا لو تبيّن أنها مكتوبة من خائن قومي؟ سيكونون مربوطين بلولب مع الجيل الثامن عشر.

«أريد الرجوع إلى البيت»، قالت سويرل. «عليَّ أن أسترجع دفاتر الملاحظات تلك».

«لا تكوني حمقاء».

كانت هاتان الكلمتان قد نُطقتا بقسوة وفظاظة إلّا أنَّ سويرل بدتْ كأنها لم تسمعْ. «جد وِين نسّاخ، أيضاً، أتعرفين ذلك؟ هنالك كتبٌ مخفيةٌ في الأرض حُفظتْ على مدى قرون عدة، جميع الكتب التي جلبها أولد ويست من أميركا». جرّت الغطاء للأعلى حتى حنكها بحيث إنّ عينيها وقصبة أنفها وحدهما اللذان ظلا مرئيين. «كل شيء على أديم كوكبنا هذا له مدة حياة وبعد ذلك، يجب أن يكون طبيعياً، علينا أن نطمسه، نجعله يختفي عن الأنظار. كما لو أنّ الجديد لم يولدْ من رحم القديم. كما لو أنّ الجديد لم يتطورْ من القديم».[1]

تلعثمتْ بغ موذر ومن ثم سألتْ برقة: «لكن ما هذا الغليان؟».

«ألم تريه؟ أعتقد أن حملة استصلاح الأراضي قد وصلتْ إلى الأمكنة كافة. إبان سنوات الحرب... لن أنسى ما حييتُ الأعمال الوحشية التي شاهدناها بأمّ أعيننا. إنني أفهم لماذا لا يبقى كل شيء على حاله».

«بطبيعة الحال، لكن...».

«ما إن ينكسر كل شيء، يمكنهم أن يبنوا مجتمعاً مرةً أخرى».

كم مرةً نطقتْ فيها شقيقتها هذه الكلمات؟ «هم»[2]، قالت بغ موذر. «اللجان الثورية؟ الحزب الشيوعي؟».

---

1 - فسرتْ لنا الكاتبة الجمل السابقة قائلةً: إن الحملات السياسية استهدفت الطرائق القديمة للكينونة. وإن سويرل تقول إن كل شيء هو جديد وقديم في اللحظة نفسها - م.

2 - هم: هنا تستفسر بغ موذر عمَن قصدتهم سويرل حين قالت في الجملة أعلاه: يمكنهم. أي مَن الذين يمكنهم أن يبنوا مجتمعاً... إلخ - م.

«إنهم يقولون إنها عجلة التاريخ[1]. لستُ خائفةً. أنتِ تعرفين كيف هي الأمور، إن يداً واحدة لا يمكنها أن تمنع الفيضان من أن يحطم الضفة. فقط... إنني أقلق على تسهولي. لقد وُلدتْ في الطبقة الخطأ، إنها ابنة وِين الحالم. ابنة مالك أرض. لا يمكنني أن أفعل شيئاً لغرض تغيير هذا الوضع. ماذا لو لم يكنْ باستطاعتي توفير الحماية والأمان لها؟».

«تعالي معي إلى شنغهاي. زوجي غير الصالح يمكنه أن يرتب الأمور».

«إنها عجلة التاريخ»، قالت سويرل. لا توجد دموع في نبرة صوتها، بل فقط الزجاج القاطع للبراغماتية. «يقول الحزب المذنب وحده هو الذي يحاول الإفلات من العقاب. إذا لذنا بالفرار، حتى الأب لوت لن يكون قادراً على التدخل. لا يمكننا المخاطرة بالهرب. يلزمني أن أحمي تسهولي، إنما كيف؟».

***

بعد ذلك بزمنٍ طويل، في الأعوام التي أُطلق فيه سراح سويرل من معسكرات العمل الصحراوية، حين كانت تسهولي قد كبرتْ وأصبحتْ شابةً، لملمتْ بغ موذر القصة.

وصل رجال الحزب إلى بنغبي في اليوم الذي كان فيه وِين وأخواله يسحبون الثلج من البحيرة الجبلية. كان ذلك عملاً شاقّاً، إنما يستحق العناء المبذول في سبيله لأنه، ما إن غُطِّيَ بالقش، الثلج، المفيد دوماً، سيكون بالمستطاع الحفاظ عليه شهوراً عدة.

كان من عادة الأخوال أن يكون لديهم عمال لكنهم الآن فضّلوا أن يقوموا بهذا العمل بأنفسهم. في العام الفائت، حين وصلت عملية إعادة توزيع الأراضي إلى بنغبي، كان الأشقاء قد عرفوا بشكل أفضل بحيث إنّهم لم يجادلوا. كانت هناك مصائر أسوأ بكثير من أن

---

1 - عجلة التاريخ: من دأب الماركسيين والشيوعيين أن يقولوا: إنها الحتمية التاريخية - م.

يتخلى المرء عن أكرات قليلة من الأرض. في المقاطعة المجاورة، كانت دزينة من الأشخاص قد خضعوا لـ «جلسات نزاع» - وهو اجتماع موسّع من نوعٍ ما حيث يتم المجاهرة بالاتهامات، يُضرب فيها المتهمون ضرباً مبرِّحاً ويتلقون غالباً شتى صنوف التعذيب - ويُعدمون، لكن الأموات كانوا، في الأعم الأغلب، رجالاً أثرياء لديهم سمعة سيئة فيما يتعلق بهمجيتهم. في السنة الماضية، حين وصلتْ وفود من «جمعية الفلاحين في بنغبي» إلى بوابتهم، لم يقاوم الأشقاء وتخلوا عن سندات المِلكية الخاصة بجميع الأكرات التسعة عشر العائدة لممتلكات الأسرة، التي سوف يُعاد تقسيمها بين سكان القرية. فعلاً، زوجة الأخ الثاني غادرته، لكنه لا يزال يملك ابنين بالغين. والأخ الرابع، الأصغر سناً، تكلّم عن رغبته بالانتحار، إنما لم يأخذ أحدٌ كلامَه على محمل الجد. في أثناء ذلك، استمرت الحياة: إلى أن وصلتْ حملة استصلاح الأراضي إلى نهايتها، الحقول مع ذلك يجب حرثها والبساتين يجب العناية بها. في الواقع، كان حصاد التفاح الحلو في تلك السنة الأكثر سخاءً في ذاكرة الأشقاء.

بينما كانت العربة تشق طريقها بصعوبةٍ بالغة عبر البوابة، وِين وأخواله كانوا مندهشين لدى رؤيتهم غريبيْن، فضلاً عن زعيم القرية ورئيس «جمعية الفلاحين»، واقفين في الخارج. خرج الأخ الأكبر من وراء كتلة الثلج. رحب بالزائرين ودعاهم للدخول كي يتناولوا معه وجبة الطعام. رفض زعيم القرية. كان الأمر كله تقريباً غير مريح وقال الأخ الأكبر الذي كان على الدوام غير صبور: «حسناً، إن لم يكنْ هناك شيء مُلحّ، سنعود إلى العمل. الثلج لا يمكن أن ينتظر».

أحد الغريبيْن، الذي لم يقدّم نفسه بعد، تدخّل. كان ثمة اجتماعٌ سرّي في مدرسة القرية، أبلغهم، وكان الأشقاء قد تخلّفوا عن الحضور.

سار زعيم القرية إلى الأمام. «هذان المعلمان»، قال، وهو يشير إلى الغريبيْن، «كانا قد تجشما عناء المجيء من لجنة الحزب في المقاطعة.

بالطبع، طالما أن أسرتكم ذات منزلة رفيعة في بنغبي، كيف يمكننا أن نبدأ عقد الاجتماع من دونكم؟».

في فناء الدار، بدا كأن الصمت ردّد صدى الآجرات والثلج. أين كان الجميع على أية حال؟ لا الأخ الأكبر ولا إخوانه تناولوا الطعام على مدى ست ساعات تقريباً. مع ذلك، قاد أشقاءه ووِين عبر البوابة ووقف في الرتل وراء الغريبيْن وزعيم القرية.

***

في المدرسة الابتدائية، كانت سويرل قد رُكنتْ جانباً هي وابنتها، حيث جثتا مع أخريات يبلغ عددهن عشرين ونيّفاً على الأرض الباردة. بينهن زوجات أخوال وِين، اللواتي جيء بهن تحت الحراسة وهن الآن في مركز المنصة. كان الحشد قد بلغ المئات، ومع ذلك لا يزال يصل أناس كثيرون كي يشاركوا في الاجتماع. زوجة الأخ الأكبر كانتْ تُصفع وتُركل مراراً إلى أن شرعتْ تبكي طلباً للشفقة. كانت المرأة الشرسة، غير الحمقاء، التي بلغتْ منتصف الخمسين من عمرها في وقتٍ مضى، مصابة بالهيستيريا. كانت تنبش الأرض بقدميها كما لو أنها تسعى للعثور على قطعة نقد في الثلج.

تسهولي توقفتْ عن الصراخ منذ أمد طويل. كانت تمسك بأمها بقوة، صامتة تماماً. لم تجرؤْ سويرل على أن تريحها. حين أصل إلى البيت، حدثتْ نفسها، سوف أسخّن قليلاً من الماء، وأرطّب قطعة قماش وأمسح دموعها المتجمدة في مآقيها. لا شيء. ما من شيء لا يستطيع أن ينظفه قليلٌ من الماء الدافئ.

راهناً، أقبل الرجال، الأشقاء الأربعة وزوجها وِين. طُوِّقوا وقُيّدوا بسرعة. سويرل يمكنها سماع الأخ الأكبر وهو يصيح. كانت ابنتها تصيح بصوتٍ منخفض: «بابا!» صيّرتْ جسدها كالكوب حول تسهولي، وهي تظن أن الطفلة يجب ألّا ترى، يجب ألّا يحدث شيء. إلّا أنَّ الأيدي أتتْ وجرّتْ تسهولي. صاحت الأصوات على الطفلة كي تفتح عينيها، عليها

أن تتعلّم. تعثرتْ سويرل وسقطتْ على قدميها وحاولتْ أن تسترد ابنتها، لكنهم تحركوا بحزم ووحشية. حين رفعتْ عينيها من على الأرض، رأتْ أن تسهولي كانت قد رُفعتْ وأصبحتْ على كتفين نحيلتين لأحد الرجال. جلست الفتاة، من دون حراك، وهي تحدق إلى الأمام.

وصول وِين الحالم وأخواله جلب حياةً متجددة إلى الحشد المتجمد. اتهامات جديدة أتتْ إلى المقدمة. تحدث أحدهم عن المجاعة وكيف أنه باع أرضه إلى الأخ الأكبر من دون مقابل. «نهب!» هتف أحدهم. «استخدمتَ حظكَ السعيد كي تدوس على جيرانك وتدفنهم في الطين. كيف تستطيع بخلاف ذلك أن تحصل على ما يزيد عن أكراتك السبعة عشر في وقتٍ قصير؟» اتهم شقيق زوجة الأخ الثاني اتهم الأخ الثاني بأنه أساء معاملتها، وأنه كان يضربها وحتى إنه كان يحرمها من الزاد. أنكر الأخ الثاني ذلك، وحاول أن يشرع في العراك معه لكن الآخرين أقبلوا كي يصرعوه. كانت قد عمّت الفوضى. تفرّق الغريبان عبر الحشد وهما يسألان الناس: «مَن ضربكم؟ مَن ذلّ آباءكم واغتصب بناتكم؟ هل كانوا هم؟».

«نعم، كانوا هم... كانوا هم...».

«مَن الذين صنعوا ثرواتهم إبان الحرب؟».

«مالكو الأراضي هؤلاء يعتقدون أن بإمكانهم أن يبصقوا جانباً مئة قدم مربع من الأرض. إنهم يعتقدون أنه يتعيَّن عليك أن تجثو على ركبتيكَ وتباركهم!».

«علينا أن نحرر أنفسنا!» كان ثمة انتقام في نبرات أصواتهم، إنما يوجد كذلك حزنٌ وبكاء.

«أيها الرفاق، تحلّوا بالشجاعة كي تقفوا صفّاً واحداً مرةً وإلى الأبد!».

«حياة من أجل الحياة!».

«مَن هو الذي أذلّكم؟ أخبرونا. هذا ليس عاركم! لماذا يتعيَّن عليكم أن تحملوه؟».

أسرعت امرأة وولجتْ إلى داخل الدائرة. أشارتْ بأصبعها إلى رجلٍ برداء مهني أزرق قاتم. «هذا الرجل اغتصبني حينما كنتُ في السادسة من عمري»، قالت. «غطّى وجهي بملابس أمي و...». كانت قد أمسكتْ معدتها وشرعت تهزها كما لو أنّها تهز مهداً وأخذتْ تنتحب. «تلك كانت فقط البداية. أدركَ أن أبي ميت وما من أحد يتولى العناية بي. هذا المسخ، هذا الحيوان! كل وجعٍ كنتُ أعانيه يهبه اللذة». أحدهم دفع جاروفاً بين يديها. في البداية كانت ضرباتها واهنة، كما لو أنّ الحزن وحده، وليس الغضب، هو الذي حفزها للقيام بذلك. إلّا أنَّ إنشاد الجمهور حثّها على مواصلة الضرب واتخذ الجاروف إيقاعاً جديداً، حازماً. واصلت القبض على الجاروف حتى عندما لم يكنْ هناك اختلاف.

«عشرون عاماً من الحرب لأيّ غرض؟ كي يرمونا في بالوعة المجتمع مجدداً؟».

«أجهدتُ نفسي حتى الموت كي أحصد خمس دانات dàn[1] من الحبوب. بينما تحصل أنت على أربع دانات مقابل تأجير الأرض»، قال رجلٌ لـلأخ الأكبر. «أكلنا قشور الرز، قشور القمح، قشور الدخن. أطفالي جائعون من يوم ولادتهم. لكن ماذا يشكّل مستأجرو أرضكِ بالنسبة لك؟ إنهم لا شيء سوى سماد!».

«أعطيتكَ شروطاً منصفة»، بدأ الأخ الأكبر لكنه توقف عن الكلام حالاً.

«منصفة؟» ضحك الرجل بمرارة.

«سدد ديونكَ! الجميع يجب أن يسددوا ديونهم!».

«إن لم تسوِّ الأمور معهم الآن»، قال أحد الغريبيْن بهدوء، «مالكو الأراضي هؤلاء سوف ينتظرون إلى أن نمضي، وبعدها سوف يبيدونكم جميعاً واحداً إثر الآخر. لا يمكنكم أن تصنعوا نصف ثورة».

---

1 – أخبرتنا الكاتبة بأن الـ دان dàn هي: وحدة وزن صينية قديمة تساوي تقريباً مئة باوند (الباوند هو: رطل إنكليزي يعادل نحو 453 غم) – م.

أُثقل مالكو الأراضي بالازدراء والسخرية. تفاقم الهرج والمرج. جيء بأسرة جديدة وكان هنالك مزيدٌ من الجرائم ومزيدٌ من الاتهامات. سويةً، كانت قصصهم تقدّم زعماً لم يستطعْ أن ينكره أحد.

«أليس هؤلاء هم مزارعوك؟» قال رجلٌ، وهو يهجم على وِين. «أليستْ هذه جريمتكَ؟».

«جريمتي»، قال وِين.

صفعه الرجل. «هل هذه جريمتكَ؟».

«إنني أقرّ بها. إنني موافق»، صرخ.

بدأ أنف وِين ينزف. كان الرجل يصفعه المرة تلو المرة، كما لو أنّه يؤدب طفلاً. كان الحشد يقهقه وكان لضحكاتهم نبرة صوت حادة، شاكية. رجلان على المنصة رُكلا إلى أن فقدا القدرة على الحركة. ظنتْ سويرل أنها حتماً أُصيبتْ بالهلوسة حين سُحبت البنادق وأُعدم الأخ الأكبر وزوجته. أُشعلت المشاعل وطالب الآخرون بمزيدٍ من القتل. رأتْ وِين يُجرّ إلى الأمام. كان زوجها يتوسل كي يرأفوا بحاله. ابتعدت البندقية عنه، عادتْ، ابتعدتْ مجدداً، عادتْ. كانت ابنتها تنشج، تكافح كي تحرر نفسها من ذراعي الغريب القويتين. «بابا!» زعقتْ. «بابا!» الأخ الثاني أُطلق عليه النار في صدره ومن ثم في وجهه. ثلاثة رجال آخرون أُطلق عليهم الرصاص. أحدهم لم يشأ أن يموت وكان يجب ضربه. شعرتْ سويرل أنها تفقد وعيها. سكونٌ عميقٌ بدا كأنه يأتي إليها من الجوانب كلها.

«انتهى كل شيء»، قال أحدهم. رفعتْ وجهها وفتشت العتمة. كانت ثمة امرأة ترفرف فوقها. كانت تلك زوجة وكيل زعيم القرية، وهي فتاة كانت تأتي أحياناً كي تجلس مع سويرل في مدرسة القرية وتتقاسم معها قصصاً قليلة عن المدينة، وتتعلم بعض الأغاني. «اذهبي إلى المنزل»، همست الفتاة. «غداً منزلك سوف تستولي عليه [جمعية الفلاحين]، إنما توجد هنالك بعض المخابئ الخالية هناك على جانب التل. سيأتون بكِ

إلى ذلك المكان. هم لن يتركوكِ من دون سقفٍ فوق رأسكِ. إنهم أفضل من مالكي الأراضي في الماضي».

تضاءل تدريجياً صوت الفتاة وذابتْ هيئتها في الظلال. تسهولي الآن تسحب ذراعيْ سويرل، كانت الطفلة وسخة. وحين رفعتْ بصرها أخيراً، رأتْ وِين وهو يجثو على جثتيْ خاليه، وهو يحاول بصورةٍ لا مجدية أن يرفع جثمان الأخ الأكبر بين ذراعيه الملتويتين.

***

إلّا أنَّ هذا كله لن تُخبر به بغ موذر نايف إلّا بعد مرور وقتٍ طويل جدّاً. لم تشأ سويرل أن تخبرها ولا وِين. في حينها، لم تفهم بغ موذر تماماً بأن «جلسات النزاع» واجتماعات الاتهامات لا زالتْ مستمرةً. لم يُعدم شخص آخر. وعوضاً عن ذلك، رأتْ سويرل أن أولئك الذين رفعوا المجارف، الذين أنزلوا الضربات أو سحبوا زناد المسدسات، بدوا قلقين. حين قابلوا وِين في طرقات القرية، حدّقوا إليه، كان خائفاً، كما لو أنّ وِين هو الذي قتل إنساناً. وإذا ما كان قد فعل ذلك بيديه الاثنتين، إذن من المؤكد، من دونه، ما كان ليكون العنف ضرورياً. في هذا الارتفاع، كان الضباب قاسياً. لا يستطيع المرء أن يرى ظله هو بعد الآن إلّا لماماً.

في الليلة الرابعة من مكوثها، ظلتْ بغ موذر مستيقظةً. هذا الكوخ الطيني بأكمله، فكرت، كان أصغر من الخزانة التي تُحفظ فيها المؤن وأدوات المائدة في منزل وِين الحالم السابق. السقف القش، وهو من نوع بائس، كان بحاجة إلى استبدال، بدا أشبه بواحدٍ من الأسلاف يرتجف في الريح. أغمضتْ عينيها، وتذكرتْ شذرةً من قصيدةٍ ذائعة الصيت كانت قد ألقتها في زفاف سويرل:

زواج فتاةٍ، بعيداً عن أبويها،
هو الانطلاق بمركب صغير في نهرٍ رائع.
كنتِ يافعةً جدّاً حين فارقتْ أمكِ الحياة

الأمر الذي جعلني لطيفةً معكِ.
شقيقتكِ الكبرى فتشتْ عنكِ،
والآن كلتاكما تبكيان ولا تستطيعان أن تفترقا،
ومع ذلك، إنه شيء صحيح أن عليكما أن تستمرّا في...»[1].

كانت الكلمات قد أتتْ من نسخةٍ قديمةٍ من هذا البلد، من حلمٍ آخر. فوق الـ كانغ، كانت تسهولي الصغيرة تحفر كعبيْ قدميها في ظَهر بغ موذر إذا جاز التعبير. «ليس ثمة حرارة كافية كي يتنقل المرء هنا وهناك! أبقيني دافئة، أيها السيدة العجوز، أو امضي في حال سبيلكِ». كيف تقدر مخلوقة ضعيفة كهذه أن تشغل مكاناً واسعاً كهذا؟ بعد أن شبعتْ بغ موذر، نزلت من السرير. كانت الشريرة الصغيرة قد نخرتْ برضا، وهي تستشعر الدفء الذي تركته وراءها.

عثرتْ بغ موذر على فردتيْ حذائها. هزتهما بعنف. حين اقتنعتْ بأنه ما من كائنات شائكة قد أوتْ هناك، لبستهما بخفة. فوق بلوزة قطنية سميكة ثانية، كانت قد زررتْ سترتها ذات البطانة، سحبتْ قبعتها الصوفية إلى الأسفل ومضتْ إلى الخارج.

لم يكنْ هواء الشتاء فظيعاً جدّاً كما كانت تخشى. بغ موذر وجّهتْ عينها السليمة إلى جهة اليمين ومن ثم اليسار، وهي تقيّم موقعها. كان القمر قد حجبته السحب ولهذا وضعتْ ثقتها في البوصلة الموجودة في داخل رأسها هي، وهي تنزل على السفح إلى أن تلاشت الأشجار وكانت محاطة باليابسة المكسوَّة بالثلج. رقد غصن ساقط على البياض البارد. رفعت الغصن.

«لكن لماذا أنا مستيقظة»، سألتْ نفسها، «وعلى مَن سأستخدم هذا السلاح؟».

---

1 – «زواج فتاةٍ، بعيداً عن أبويها...»: اقتباس محوّر من وِي يِنغ وو: «إلى ابنتي في زواجها في [أسرة يانغ]»، في ويتي بينر: *«جبل اليشب: منتخبات صينية، ثلاث مئة قصيدة من السلالة الحاكمة تآنغ»*: 618 – 906 (نيويورك: كنوبف، 1930): 212 – ك.

كان فؤادها، الذي كان يضرب ضرباتٍ مكتومة، قد هدأ. حين وصلتْ إلى المنزل الأنيق لم تتردد بغ موذر. رفعتْ عودها، غذّتْ خطاها بثقةٍ عاليةٍ بالنفس عبر المدخل العديم البوابة وصعدت السلّم الأول.

شيئاً فشيئاً، تكيّفتْ عينها السليمة مع الحجاب القاتم الكثيف. هنا وهناك كان بوسعها أن تميّز كتلاً من الكسارة الصلبة إنما ليس ثمة حتى أثرٌ ضئيلٌ من الأثاث.

صباح هذا اليوم، سألتْ سويرل، بنحوٍ غير مؤذٍ، ما إذا كانت المادة التي كانت ترغب بأن تستعيدها هي صعبة المنال. «نعم ولا»، قالت سويرل. «أتذكرين الدرجات في الجناح الشرقي التي تصعد إلى الفجوة الكائنة في جدار الغرفة». بدلاً من أن تصعد مباشرةً، قالت لها شقيقتها، إن الدرجات كانت بمنزلة سلّم كي تصل إلى رفٍّ عالٍ، رفٍّ ضيق، طويلٍ جدّاً. «في الجهة البعيدة، توجد فتحة صغيرة أسفل السقف. كي تصلي إلى هناك سوف يصيبك الصداع، قد يزل المرء ويبذل جهداً مضنياً. من المؤكد أن «جمعية الفلاحين» سوف تنظر في أمكنة أسهل أولاً». واصلتْ بغ موذر البحث هنا وهناك في الغرف. الآن ألفتْ نفسها عند أسفل درجات الفجوة. وضعتْ عكازها جانباً، توقفتْ قليلاً كي تعطي قصيدةً إلى «رب الأدب» لأنه، على كل حال، دفاتر الملاحظات الغامضة هذه تعود لملكيته. تلت:

حين يُمجَّد العقل،
يخف الجسم،
ويحس كما لو أنّه يعوم في الريح.
المدينة تشتهر بكونها مركزاً للآداب؛
وكلكم معشر الكُتّاب الآتين إلى هنا
تبرهنون على أن اسم البلد العظيم
تصنعه أشياءٌ أفضل من الثروة.[1]

1 – «حين يُمجَّد العقل...»: اقتباس محوّر من وِي يينغ وو: «تضييف أدباء في مقر إقامتي الرسمي في يومٍ مطير»، «*جبل اليشب*»: 208 – ك.

صعدتْ.

كان الرفّ، حين وصلتْ إليه، ضيقاً بالفعل، بالكاد يبلغ عرضه نصف قدم واحدة وكان يمتدّ بعيداً على طول الحائط. كانت الأشباح، على كل حال، قد عملتْ معروفها لأن الرفّ، الفارغ والنظيف، كان خالياً من العقبات.

بنحوٍ غير عملي مثل حمامة، وهي تلعن السترة السميكة التي لبستها، صعدتْ فوق الرف. «إنني أرفض»، أخبرتْ نفسها، «بأن تكون نهايتي كيساً من العظام على الأرض كي تحمله شقيقتي». سارتْ ببطء على طول الرف. لعنتْ «رب الأدب» لأنه لم يخبرها بأن تُحضر معها «الدب الطائر». أصغر أبنائها كان بالمستطاع أن تعتمد عليه كي يقوم بأشياءٍ حمقاء كهذه. وختاماً، انتهى الرف. نقّبتْ بعمى بحثاً عن المخبأ إلّا أنّها لم تجده. وحين تحركتْ إلى الأعلى مجدداً، فقدتْ موطئ قدمها. برز وركها إلى الخارج، ضربتْ يديها بقوةٍ وبتهور بحثاً عن شيءٍ تمسكه بيدها لكنها لم تمسكْ سوى الهواء. إحدى قدميها ركلتْ. دفعتْ بغ موذر نفسها باستماتة إلى جهة اليمين. التصقتْ بالحائط، يدها اليمنى امتدتْ جانباً ومن ثم، ما إن تباطأتْ أفكارها وعرفتْ أنها باتتْ مرهقةً، قبضتْ أصابعها على فتحة. قبضتْ بغ موذر من أجل الحياة العزيزة، أصابعها باتت تضغط بقوة شديدة بحيث كان بوسعها أن تستشعر العظام الصغيرة يحتك بعضها بالبعض الآخر. استقامت الغرفة. كانت لا تزال واقفةً، إحدى ساقيها مرتفعةٌ في الهواء.

شرعتْ تضحك، لكنها فكرتْ فيها بشكل أفضل، وأمستْ جادة. في هذه الفتحة، وجدتْ، كما قالت سويرل بالضبط، صندوقاً من ورق الكارتون. مع ذلك، كانت تريد أن تتأكد وهكذا، بيدٍ واحدة، فكت الحبل، رفعت الغطاء، ودستْ يدها في الفتحة. لم يسبقْ لها أن أمسكتْ بدفاتر الملاحظات من قبل لكن سطوحها بدتْ أليفةً تماماً بالنسبة لها، كما لو أنّ «كتاب السجلات التاريخية» قد لامس أصابعها ألف مرة قبلاً.

«أيها الرب القديم»، قالت بمرح. «ما كان ينبغي لي أن ألعنك. انظرْ ماذا وجدتُ».

بذراعٍ واحدةٍ طوّقت الصندوق، تهادتْ في مشيتها وهي تعود على طول العارضة الخشب، حطتْ على المنصة، هبطت الدرجات وقبضتْ على سلاحها مرةً ثانية.

الهواء نفخ رئتيها فيما كانت هي تستعيد خطواتها. كان العكاز قد أفادها كثيراً، وكان يذكرها بالطفل البصير الذي يرشد الموسيقيين العميان عبر كسارة أحجار الحرب وبعيداً عن المدينة المطموسة. حصل ذلك في زمن حياةٍ مضى، ولا بدَّ أن الطفل قد كبر الآن واشتدّ عوده. أسرعتْ بغ موذر عبر ممرٍّ يؤدي إلى الفناء الداخلي إلى أن وصلتْ، أخيراً، وهي تعبُّ الهواء النقي، إلى أسفل سماء الليل. في وضوحها، بدت الكواكب كأنها موجودة في متناول الذراع. هل سيفتح هذا الصندوق القابع الآن في ذراعها أبواباً كثيرةً في ذاكرتها؟ أيّ نوع من الكائنات هذا الكتاب؟ فكرتْ بغلام سويرل الصغير، الذي لقي حتفه في العام 1941. كان لا يكبر سبارو إلّا ببضعة أعوام قليلة إنما، على العكس من سبارو، لم يكنْ يبدو أنه يخاف من طلقات البنادق، من التفجيرات، من الزعيق أو النار. تذكرتْ وهي ترفع جسده الصغير من بين ذراعيْ أختها، وكيف أن الدموع التي ذرفتها سويرل بدتْ كأنها تحرق جلد بغ موذر.

هذا المنزل، فهمتْ، سوف يتهدم في يومٍ من الأيام ويتحول إلى كساراتٍ مبعثرة من الحجارة. سيختفي من على وجه البسيطة، ولن يترك أيَّ أثرٍ، وكل الكتب والصفحات التي حفظها وِين الحالم وأمه، أخواله وأولد ويست، حفظوها بعنايةٍ وحرصٍ شديدين، أو حفظوها بخوف، سوف تؤول إلى رماد أو غبار. عدا، ربما، هذا الكتاب، الذي سوف يذهب إلى مخبأ آخر، كي يعيش وجوداً إضافياً.

***

في تلك الليلة، استيقظ سبارو في الظلام. كانت الموسيقى تتسلل من الجدران، وتدخل إلى الغرفة حيث كان هو وشقيقاه الأصغر منه سناً نائمين. كانت الموسيقى تختلط مع شخير شقيقيه غير المنتظم، كما لو أنّ كلا الطفلين كانا يعزفان بانسجام من الزاوية نفسها في الفرقة الموسيقية. كان الدب الطائر، ذو الأعوام الخمسة، صغيراً وحسن الطلعة وكان يشخر كأنه دبابة. لا بدَّ أنه كان يركل شقيقه لأن دا شان كان قد التصق بالجدار بقوة، وقد تخلى عن البطانية والمخدة معاً. دا شان، الذي بلغ السابعة من عمره، كان زاهداً، يفضّل الماء الحار والخبز الذي يصدر بخاراً على كل شيء آخر؛ قرر الغلام الانضمام إلى «جيش تحرير الشعب» في أقرب فرصةٍ ممكنة.

كان سبارو يحلم. في حلمه، كان يسير على طول الطابق الأول في «المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي»، مرَّ بغرفةٍ كان فيها عازفو الكمان مصطفين كتماثيل صغيرةٍ في واجهة متجر، يمر بغرفة نوم فخمة مزودة بـ pipa [1]، guzheng [2] وdulcimer [3]، ووصل أخيراً إلى قاعةٍ حيث تنتصب هناك سبع آلات بيانو كبيرة الحجم مثل أشجار سنديان ضخمة. من خلال النوافذ الوامضة، كانت السماء الليلية ترسل الزفرات بوجه الصباح. كان باخ العجوز نفسه قد أقبل إلى شنغهاي؛ جعلوه يجلس إلى أبعد آلة بيانو. كان الطباق السابع[4] من *«تنويعات غولدبيرغ»* من تأليف باخ يتدحرج نحو سبارو مثل مدٍّ من الحزن. كان سبارو يريد أن يخرج من الطريق إلّا أنّه كان بطيئاً جدّاً والنوتات اصطدمتْ به. صعدت إلى أعلى عموده الفقري ونزلت منه، وبدتْ كأنها تفككه إلى ألف قطعة

---

1 – pipa: آلة موسيقية صينية، ذات أربعة أوتار وجسم خشبي يشبه الكمثرى. تُسمى غالباً: العود الصيني – م.
2 – guzheng: وهي آلة موسيقية، تُسمى بآلة القانون الصينية. يمتد تاريخ هذه الآلة الموسيقية إلى 2500 سنة، وفيها 16 وتراً أو أكثر وجسور متحركة – م.
3 – dulcimer: آلة موسيقية وترية، تُعدّ صنفاً من آلة القانون. توجد أشكال عدة منها – م.
4 – الطباق السابع: the seventh canon – م.

إجمالاً، حيث كل قطعة من القطع كانت أكثر كمالاً وأكثر حيويةً مما كانت عليه ذاتُه كلها في أيّ وقتٍ مضى.

إذ رقدا في الفراش، تساءل سبارو ما إذا كان هِر باخ حصل أن حلم مرةً بـ شنغهاي. دفع الأغطية جانباً وجلس في السرير. وهو يرى استيلاء الدب الطائر على السرير كله، سحبه سبارو إلى الوراء؛ تكلم الغلام بحماقة وغضب. دا شان، وهو يستشعر الفضاء المفتوح من حوله، تدحرج مبتعداً عن الحافة. غادر سبارو الغرفة.

كانت هناك موسيقى تقطر عبر المنزل. كان قد نسي خفيه ولسعته الأرض ببرودتها، إنما مع ذلك واصل المسير إلى أن وصل إلى مكتب أبيه. كان الباب منفرجاً، وأفلتت الموسيقى عبر الفتحة. ولأن سبارو يعرف أن أباه سوف يغضب إذا ما رآه، لم يهمسْ بأيّ ضجيج. لذا حين ناداه الأب لوت[1]، في البداية لم يقدرْ أن يفكر بردٍّ ما.

تكلّم أبوه ثانيةً: «الطقس هنا دافئ، سبارو. ادخلْ».

دخل سبارو إلى الغرفة.

إلّا أنَّ الأب لوت كان جالساً على كرسي منخفض أمام آلة التسجيل. كان يحني ظهره، ذاوياً تقريباً، وبالكاد يبدو هو نفسه. كانت الشقة فارغة من دون بغ موذر نايف، استنتج سبارو. كان فمها الساخط والفاحش شيئاً جوهريّاً بالنسبة لحيواتهم مثل عوارض الخشب بالنسبة للمنزل، الطعام الذي أكلوه، وعضوية أبيه، عضوية الحزب الشيوعي.

«كنتُ سمعتُ هذه القطعة الموسيقية مئة مرة قبلاً»، قال الأب لوت. «لكن سماعها وحيداً، في سكون الليل، هو حقيقةً شيء هائل».

الدخان الكثيف المنبعث من سجائر أبيه، ماركة [الحصان الطائر]، جعلتْ عينيْ سبارو تدمعان، لكنه مع ذلك غامر بأن مكث أكثر في الغرفة، جالساً إلى طاولة كتابة أبيه. لم يعترضْ أبوه. استمرت الموسيقى،

1 – الأب لوت: Ba Lute: وتعني الأب عود «أي: آلة العود الموسيقية» – م.

واندمجتْ مع الدخان، غدت الآن سريعةً وخفيفةً، نغمات الربع تغدو غير واضحة مثل ومضة أجنحة، مثل غصن مستدق الطرف. كان الأب لوت قد أحنى رأسه. كانت عيناه نصف مغمضتين كأنه ينظر إلى شيء ما في داخل ذاته. حين انتهى الجانب الثاني، قلب التسجيل وجعله يشتغل مجدداً. كان التنويع التاسع قد جعل سبارو يريح رأسه على سطح طاولة الكتابة. كل ما كان يصبو إليه هو أن يعيش في باطن هذه التنويعات، «*تنويعات غولدبيرغ*»، أن يجعلها تمتد إلى ما لانهاية في داخله. كان يريد أن يعرفها بصورةٍ جيدةٍ مثلما يعرف أفكاره هو.

«لكن ماذا لو كانت هنالك مشكلة؟» قال الأب لوت. «هل تعتقد هي أنهم محصنون؟».

رفع سبارو بصره. مَن هم هؤلاء المحصنون، تساءل.

وهو يرغب بأن يبدو ابن بطل شيوعي، قال سبارو: «يمكننا أن نمضي وننقذها».

لم يردْ عليه أبوه.

تواصلت الموسيقى.

سار سبارو خارجاً إلى سطح القمر للتنويع الخامس عشر، جنباً إلى جنب مع أبيه ومع ذلك انفصل عنه. كان غلين غولد يواصل العزف، عارفاً بأن الموسيقى مكتوبة وأن الدروب معيّنة، إلّا أنّه يعزف كل نغمةٍ وكل ميزان موسيقي كما لو أنّ أحداً لم يسمعهما من قبل البتة. كان التنويع مميزاً جدّاً ومع ذلك هو واقعي جدّاً، بحيث إنّه تنهد بشكل مسموع معتقداً بأنه، حتى لو عزف الموسيقى على مدى مئة ألف سنة، لن يحصل على امتياز كهذا.

«ليس ثمة مستقبل في الموسيقى»، قال الأب لوت. كان صوته يخلو من اللوم. كان بوسعه أن يقول إن هذه الحجرة مربعة وإن للوطن الأم اثنتين وعشرين محافظة، ومنطقة واحدة تتمتع بالحكم الذاتي،

وعدد سكانه 528 مليون نسمة. أصغى سبارو كما لو أنّ أباه كان يتكلّم مع شخصٍ آخر، إلى بورتريهات الرئيس ماو، رئيس الوزراء تسهاو إينلي ونائب رئيس الوزراء ليو شاأوكي، على سبيل المثال، الذين كان يتفرس فيهم بذكاء من الجدار. كان وجه أبيه يلوح كأنه يتوافق مع البورتريهات. «حين كنتَ طفلاً، جيد، لا بأس من أن تكون حالماً. لكنكَ الآن عاقل نوعاً ما، أليس كذلك؟ ألم يحنِ الوقت الآن كي تبدأ بقراءة الأوراق وتبني مستقبلك؟ في عالمٍ جديد، عليكَ أن تتعلم أساليب جديدةً. يلزمك أن تدرس فكر ماو تسي تونغ الماركسي - اللينيني بحماسةٍ أكبر! عليكَ أن تكرّس نفسك للثقافة الثورية. يقول الرئيس ماو: [إن كنتَ تريد اكتساب المعرفة، عليك أن تساهم في العمل الجاري لتغيير الواقع. إن كنتَ تريد معرفة طعم الكمثرى، عليكَ أن تغير الكمثرى بأن تأكلها أنتَ بنفسك. إن كنتَ تريد معرفة النظرية والوسائل الثورية، عليك أن تساهم في الثورة.]».

أخذهم التنويع السادس عشر على حين غرة بنحوٍ مهيب، دخول فخم مزين برعشات الأنغام. وفيما كانت النوتات تتسارع، لاحتْ كأنها تحمل سبارو معها. شاهد مربعاً عميقاً مملوءاً بأشعة الشمس.

«حين تعيش عملياً في [الكونسرفتوار]»، كان أبوه يقول، «حين تغلق الباب المؤدي إلى حجرة التمرين تلك، أتعتقد أن أحداً لن يسمعكَ؟ هل تعتقد، حقيقةً، أن أحداً لا ينتبه إلى كونك عزفتَ موسيقى باخ على مدار تسعة وسبعين يوماً من دون انقطاع، وقبل ذلك عزفتَ موسيقى بوسوني[1] على مدار واحد وثلاثين يوماً! إنكَ تأبى بأن تزعج نفسك بالـ pipa، erhu أو sanxian[2]. وقد بذلتُ مجهوداً كبيراً جدّاً في إطار حملة استصلاح الأرض! كنتُ أباً نموذجيّاً، لا يمكن

---

1 - بوسوني (فيروشيو): (1866 - 1924): عازف بيانو ومؤلف موسيقي إيطالي، كثير الأسفار، بدءاً من 1894 أقام بشكل رئيس في برلين، ومات هناك (كانت أمه ألمانية) - م.

2 - Sanxian: العود الصيني - آلة موسيقية، يُمسك بها من دون عتب العود، ذات ثلاثة أوتار - م.

لأيّ امرئ أن يقول خلاف ذلك...» شرب الأب لوت بمقدار قليل وركن إلى الصمت. «لماذا تحب باخ هذا وبوسوني هذا؟ بأيّ شيء ينفعك هذان؟».

هبَّ أبوه واقفاً، دار في أنحاء الغرفة إلى أن أصبح وجهاً لوجه مع بورتريه رئيس الوزراء تسهاو إينلي. «بالطبع، باخ له إيمانه الخاص، أيضاً»، خلص الأب لوت إلى القول. «الابن المسكين للأرنب لديه واجبات أكثر من [سكرتير الحزب] خاصتنا: في كل أسبوع قداس آخر، fugue [1]، كانتاتا[2]، كما لو أنّ باخ معمل وليس مخلوقاً آدمياً. لكن انظر إلى حياتي، سبارو». من الـ بورتريه، بدا رئيس الوزراء تسهاو كأنه يومئ بتعاطف. «أسبوعيّاً، خمسين حفلة موسيقية في المدارس، المعامل، القرى، الاجتماعات! إنني ماكنة أعمل لصالح الحزب وسوف أقيم حفلةً موسيقيةً عند فراش الاحتضار خاصتي إذا دعت الضرورة. فهمَ باخ العجوز أن الموسيقى تخدم هدفاً أعظم، لكنني لا أعرف هذا، أيضاً؟ هل يعرف الرئيس ماو؟... في قلبك، سبارو، إنكِ تعتقد أن الغريب رفيق أذكى من أبيك؟». أطلق الأب لوت تنهيدةً مثقلةً بالهم. «ما هو الشيء الذي وعدكَ به؟ في لحظةٍ ما، يلزمكَ أن تتوقف عن سرقة دجاجات باخ وتحصل على دجاجاتك العائدة لك، أليس الأمر كذلك؟».

في الخارج، كان العالم معتماً وشجرة ووتونغ[3] يافعة في الفناء بدتْ كأنها تحمل عبء ليلة الشتاء على تاجها الخفيف. كان سبارو يتمنى لو كان بوسعه أن يدير عقارب الساعة إلى الأمام، يعبئها سنةً إضافية، وبعدها سنةً إضافية أخرى، إلى أن تُعزف سيمفونياته في قاعة الاستماع

---

1 - fugue: طريقة في مزج الألحان الموسيقية بصوتين أو أكثر، مبنية على ثيمة موسيقية تُقدم في البداية بهيئة تقليد، وتتكرر مراراً خلال العزف - م.

2 - الـ كانتاتا cantata (قطعة مغناة): عمل كورالي مطوّل مع أو من دون أصوات منفردة، وعادةً ترافقه أوركسترا. هذا هو التعريف الطبيعي للمصطلح، لكنه في حالة باخ قد يعني ببساطة صوتاً منفرداً أو أصواتاً منفردة من دون كورس - م.

3 - ووتونغ: Wutong: نوع من أشجار الزينة - م.

في «الكونسرفتوار». تصور أوركسترا عميقة ذات تناسبات ماهلرية[1]، كبيرة بما يكفي كي تجعل الموسيقى الساكنة في داخله تخشخش السقوف، تهزّ الأرض وتعيد رصف الحيطان.

«ابني لم يسمعْ شيئاً»، قال الأب لوت. «إنه أصم».

«إنني أصغي، يا أبي».

«تصغي إليّ»، قال والده، وهو ينظر إلى غلاف الألبوم. «أريدك أن تصغي *إليّ*». لكنه تحدّث كما لو أنّ كلماته كانت موجهةً إلى غلين غولد أو باخ نفسه. «كنْ عمليّاً، يا بُني. فكّر في المستقبل. حاول أن تفهم. هنالك درجات عديدة وطرق كثيرة للسعادة».

***

حين عادتْ بغ موذر نايف إلى كوخ الطين، رقدتْ سويرل والشيطانة الصغيرة بالضبط كما تركتهما، ملتحمتين معاً على الـ كانغ في نوم مُنهَك. كان وِين قد شرنق نفسه بغطاء على الأرض. كان وجه شقيقتها في ضوء القمر شاحباً ومخططاً، وبدتْ تسهولي كأنها تجرّها كما دأب الأطفال أن يفعلوا، مرنةً ومخلصةً في احتياجاتها. بغ موذر، وهي جالسة في الركن، مستخدمةً سترتها بوصفها بطانية، كانت تشاهد ضوء القمر وهو يزحف تحت الباب. دخل إلى الغرفة بنحوٍ نافذٍ جدّاً بحيث إنّها، حين أنزلتْ عينيها ونظرتْ إلى أصابعها، بالكاد استطاعتْ أن تتعرّف على نفسها. كانت تحسب أنها رأتْ يديْ سويرل. كانت تحسب أن فردتيْ حذائها هما فردتا حذاء وِين الحالم، ركبتيها هما ركبتا الأب لوت، ذراعيها يعودان لـ دا شان، بطنها يعود لـ الدب الطائر، قلبها لـ سبارو. كان لديها هاجس رهيب بأنهم، واحداً إثر الآخر، سوف ينكسرون ويؤخذون بعيداً عنها. أم إنها هي التي ستكون أول مَن يغادر؟

---

1 – ماهلرية: نسبة إلى ماهلر (غوستاف) (1860 – 1911): مؤلف موسيقي وعازف ذائع الصيت، نمساوي الجنسية (ولد في بوهيميا التشيكية) – عمل في أوبرا فيينا العائدة للدولة للمدة بين 1897 – 1907 – م.

بدا أن فرار بغ موذر مع [رب الأدب] قد حصل منذ دهورٍ خلت وعلى بُعد أميال كثيرة.

في اليوم الفائت، كانت بغ موذر قد قصدت المدينة واشترتْ أبسط الأشياء العملية، بطانيات سميكة، ترمس[1]، ستر ذات بطانات، إضافة إلى الرز، الشعير، زيت الطبخ، الملح والسجائر. في غضون أشهر قلائل، حدّثتْ بغ موذر نفسها، أنها سوف تحصل على رخصة كي تأتي وتزور شقيقتها من جديد. حينئذٍ يكون قد بدأ الزرع الربيعي، وربما سيكون بوسعها أن تخمن احتياجاتهم مرةً أخرى. أخبرتها سويرل أن سكرتير الحزب كان قد وعدها بوظيفة تعليمية في المدرسة الابتدائية. ربما لم تكنِ الظروف مُلحةً جدّاً. لكنها حتى حين تفكر في هذا الأمر، يهيمن عليها حزن كثيف، ثقيل الوطأة. رفعتْ بصرها ورأتْ أن تسهولي كانت قد استيقظتْ من نومها وكانت تغمز لها، يدٌ صغيرة واحدة تغطي عينها اليمنى.

«طاب صباحك، أيتها الشيطانة الصغيرة»، قالت بغ موذر.

لوت الفتاة يديها وغطتْ عينها اليسرى.

امتصتْ بغ موذر أسنانها. «قردة وقحة!».

«تعوّد أبي أن يسميني بهذا الاسم»، قالت سويرل. «إنني أتذكر الآن». كان شعر شقيقتها قد سقط بسرعة واختلط على كتفيها حين قامتْ من السرير. «لماذا لا تأتين هنا حيث المكان دافئ».

ببطء استندتْ بغ موذر على قدميها. كل شيء يوجعها. كان جسدها قد أصبح شائخاً وعديم النفع، نتيجة، بالتأكيد، الاجتماعات السياسية وجلسات الدراسة التي لا نهاية لها. كانت دعاية الحزب قد كبتتْ أفكارها، ولفتها بعجينة سميكة من البلاهة.

«ما الخطب؟» سألتها سويرل. «لماذا تنتحبين؟».

«بسبب الفرح»، قالت بغ موذر كاذبةً.

1 – الترمس: قنينة حافظة لدرجة حرارة محتوياتها الباردة أو الساخنة – م.

ضحكتْ شقيقتها. الفتاة، بدورها، ضحكتْ ضحكةً نصف مكبوتة.

وهي تغمز للفتاة، التقطتْ بغ موذر الصندوق الكارتوني ووضعته على الـ كانغ بجانب شقيقتها.

نظرتْ إليه سويرل بتركيز، كما لو أنّ الصندوق ذكّرها بشخصٍ لم تره منذ سنوات طويلة. امتدتْ أصابعها، تناولت اللولب والحبل الملتف إلى الأسفل. رفعتْ سويرل الغطاء وزحلقته جانباً. خفضتْ بصرها ناظرةً إلى دفاتر الملاحظات التي يبلغ عددها واحداً وثلاثين، الفصول الوحيدة التي تمكن وِين من العثور عليها، من «كتاب السجلات التاريخية».

«لكن – لمستْ زاوية الصندوق – أعرف أنه شيء غير ممكن».

«لنقل فقط، [رب الأدب] دعاه إلى البيت».

***

في صباح اليوم التالي، في الباص، في طريق أوبة بغ موذر إلى شنغهاي، وضعها القدر بجوار شابة جريئة كان زوجها نائب زعيم قرية. «بعيداً عن منزلك، هممم؟» قالت الشابة، وهي تفتح منديلاً مطوياً أحمر اللون، وتنشره على ركبتيها كما لو أنّه غطاء مائدة، وأودعتْ على سطحه كميةً كبيرةً من بذور زهرة الشمس.

«في هذا البلد الشاسع والمجيد»، قالت بغ موذر برقة ولطف، «الأمكنة كلها هي منزلنا».

«هل هي فعلاً كذلك!» قالت الشابة، وهي تسحب أصابعها عبر البذور كما لو أنّها تبحث عن قطعة نقد فضية. كان الريف يطير ما وراء النافذة، وهو يستيقظ مع أول شعاع من أشعة الصباح. حولهم من جميع الجهات، كان الناس يغطون بالنوم في مقاعدهم أو يتظاهرون بأنهم نيام. بصبر، حاولت الشابة أن تستنبط السبب الكامن وراء زيارة بغ موذر إلى بنغبي («شقيقتكِ هي مَن، هل قلتِ؟ تلك الشابة التي اعتادتْ أن تغني في الجايخانات؟»)، تعمل كالإبرة تحت جلد بغ موذر. بغ موذر،

وهي تتأمل قشور زهرة الشمس تتكدس على الأرض، وتفكر، عموماً، بالجشع الذي يحث على الحروب وشتى ضروب الاحتلال، وفي الازدياد القاتل للحروب الأهلية، فتحتْ ترمسها وسكبتْ كوباً سخياً من الشاي لرفيقتها. كما جرت العادة، قررتْ بغ موذر نايف، بنحو متهورٍ، أن تضبط استراتيجيتها.

«سررتُ»، انبرتْ قائلةً، «بأن أشهد أمجاد استصلاح الأرض هنا في الريف».

«مشروع عبقري!» قالت الشابة بنفوذ. «مبتكَر - لا، مُعدّ - من الرئيس نفسه. برنامج فكري لا نظير له في تاريخ البشرية كلها، الماضي، الحاضر، أو برنامج مستقبلي».

«في الحقيقة»، قالت بغ موذر. جلستا صامتتين مستغرقتين في التفكير على مدى لحظة ومن ثم استطردتْ: «أنا، نفسي، أرحب بتضحيتي من أجل تحرير فلاحينا المحبوبين من هذه... الشنيعة».

«أوه، شنيعة جدّاً!» همست الشابة.

«القيود الإقطاعية. ما من ريب أن زوجكِ، نائب زعيم القرية، أدى واجبه بنوعٍ من التفوق». مدتْ بغ موذر يدها في جيب سترتها وسحبتْ حفنةً من حَلوى «الأرنب الأبيض».

«وا!» قالت الشابة بدهشة.

«من فضلك، جربي واحدة. جربي عدداً منها. هذه الحلويات أُرسلتْ إلينا من رئيس دعابة شنغهاي نفسه. نكهتها لطيفة ومع ذلك قوية. هل ذكرتُ لكِ أن زوجي ملحن وعازف موسيقي؟ إنهم يقولون إن أوبراته[1] الثورية وجدتْ لها حظوةً لدى الرئيس ماو نفسه».

«آه، ها»، قالت المرأة بلطف.

خفّضتْ بغ موذر صوتها. لاحت الكلمات كأنها أتتْ إليها وهي

---

1 - أوبراته جمع أوبرا - م.

تتسلل من دفاتر الملاحظات التي يبلغ عددها واحداً وثلاثين الموجودة في حقيبتها، التي أصرتْ سويرل على أن تأخذها معها إلى شنغهاي؛ شقيقتها نفسها تريد أن تتخلص من رسائل الحب، أو هكذا كانت تأمل بغ موذر. «إلّا أنَّ [ربان سفينتنا العظيم] كان دوماً هو الذي هو يدير قضايانا، بطرائق عظيمة ومتواضعة. بطبيعة الحال، زوجي أكثر تواضعاً من أكثر ثور خجلاً، لكنه قام بجولةٍ جنباً إلى جنب مع أبطال أمتنا مباشرةً صوب يانآن، عشرة آلاف لي! عزفنا أنا وزوجي بتلك الحماسة الثورية بحيث إنّ أصابعه كانت أكثر صلابةً من قدميه الحافيتين، اللتين لم تعرفا الأحذية. نعم، في كل خطوة كان يعزف على الـ guqin [1]. كان يتحتَّم عليه أن يستبدل أوتار القوس بشعرات الحصان».

«لم يسبقْ أن تطوعتْ شعرات بفرحٍ أكثر!».

سمحتْ بغ موذر لنفسها بأن تبتسم. «إنني متيقنة من أن الحال كذلك».

قبلت الشابة حفنةً أخرى من الحلوى. كانت قد دستْ جميع القطع في جيب قميصها باستثناء قطعة واحدة. «زوجكِ ينحدر من أين؟».

«يتحدر من [محافظة هونان]، مهد الثورة»، قالت بغ موذر. كانت المرأة تفتح بعصبية قطعة الحلوى خاصتها وبغ موذر تنتظر بصبر خشخشة الورق كي تستريح. «اسمه الثوري [أغنية الشعب]. هو، إن سمحتِ لي، رجل ضخم البدن بشكل مفرط. وهو شخص، واقعي، حديث، مساير للموضة السائدة».

«سمعتُ اسمه»، قالت الشابة وهي تمضغ بتلذذ، الحلوى لصقتْ كلماتها واحدةً بالأخرى.

«آخر مرة أتى إلى قريتنا كان بغرض حضور زفاف شقيقتي. في الواقع، وِين الحالم وزوجي تربطهما علاقة حميمة كأنهما شقيقان».

---

1 - الـ guqin: آلة موسيقية صينية تُمسك باليد بسبعة أوتار، من عائلة القانون. يُعزف عليها منذ العصور الغابرة، وهي مفضلة تقليدياً لدى التلامذة الموهوبين والطبقة المثقفة باعتبارها آلة ذات رقة ونقاء - م.

هل أحسَّتْ بالذُّعر؟ هل أصبحتْ حتى بذور زهرة الشمس نفسها باردةً على حين غرة؟

«قريتنا ترحب بزوجكِ أجمل ترحيب»، قالت الشابة الجريئة. «فقط أخبريني مسبقاً بقدومه، كي تُنجز جميع التحضيرات الضرورية».

«أوه لا»، قالت بغ موذر بلطف. «إنه يكره أن تُخلق ضجة حوله. كما يقول الرئيس ماو بنحوٍ مشرِّف جدّاً: [نحن الكوادر بالأخص علينا أن ندافع عن الكد والاقتصاد في الإنفاق!] لكنني متأكدة أنه سوف يزور، فهو يضمر إحساساً عظيماً جدّاً حيال الناس المقيمين هنا، بالأخص، أقول، الرفيق وِين الحالم. أرجوكِ، خذي قطعة حلوى أخرى».

حين واصلت الحافلة طريقها تبادلت المرأتان الأدوار في سكب الشاي إحداهما للأخرى، تقاسمتا فاكهتهما المجففة، وراحتا تعربان عن إجلال شاعري لزوجيهما، لأبويهما وقادتهما العظام. بعد انقضاء أربع عشرة ساعة، حين وصلت الحافلة إلى شنغهاي، كانت بغ موذر نايف قد استهلكتْ كميةً كبيرةً من حبوب عباد الشمس بحيث شعرتْ كما لو أنّ بوسعها أن تضرب بجناحيها وتحلّق بعيداً. شبكت الشابة يديها وتمنتْ لها طول العمر، دوام الازدهار والمجد الثوري، ووقفتا تتناديان كمرشدتي مرور، بعد أن أنزلتهما الحافلة وامتلأتْ بالركاب مرةً أخرى. سارتْ بغ موذر ناحية البيت من محطة الباص، عبر الشوارع الفظة شبه المظلمة، وكانت الرواية في حقيبتها تهبها هدوءاً سارّاً، وهمياً، كما لو أنّها تغادر اجتماعاً سريّاً والوثائق التي تحملها يمكنها أن تُطيح بأنظمة، ببلدان، بأكاذيب، وبفسادٍ مالي وإداري.

ربما ليست الأوراق نفسها، أسرارها، التي كانت انفجارية جدّاً، لكن أسماء القراء التي ينبغي حمايتها. زُمر جريئة، محاربو المقاومة، جواسيس وحالمون! لا تدري لماذا تراودها هذه الأفكار، إنما بدا كما لو أنّ الهواء تحديداً غلّف المباني بجنون العظمة. كم كانت دفاتر الملاحظات تلك صغيرة إنما ثقيلة. بدأتْ تتساءل ما إذا كان وِين الحالم، خلال ساعات

نسخه لـ «كتاب السجلات التاريخية»، قد تماهى مع المؤلف أو حتى مع الشخصيات نفسها، أو لعله تحوّل إلى شيءٍ فسيح وغير ملموس؟ حين انتهى من نسخ الكتاب، هل رجع إلى ما كان عليه من قبل، هل رجع إلى كينونته الأصلية أم إن هياكل أفكاره، لونها وإيقاعها، تغيرتْ بذكاء؟ وهي تمر بـ «طريق بكين»، وصلتْ إلى شوارع مألوفة، إلى أزقة ضيقة، وختاماً وصلتْ إلى الباب الخلفي لفنائهما. كان بمستطاعها في وقتٍ سابق أن تسمع صوتاً يغني، زميلة لها تتدرب مع الأب لوت أو ربما لعله مجرد صوت آتٍ من الراديو، وقد رُفع صوته بنحوٍ مدمِّر. حين دخلتْ بغ موذر الجناح الجانبي للمنزل، كان زوجها يحوم بنحوٍ ينم عن الإثم في الداخل، وراء الباب مباشرةً، قميصه مزرر بنحو أعوج. خدش رأسه الصقيل وتطلع إليها برعبٍ مرتبك، سادّاً عليها الطريق.

«دعني أدخل، في سبيل السماء!» صاحت.

منكمشاً، تنحى جانباً. رأتْ أن الغرفة كانت معتمة، وأن الضوء المتبقي أتى من المصابيح الكائنة في الخارج. أنزلتْ حقيبتها على الأرض. «هل نفد الكيروسين خاصتك؟» سألته. ومن ثم سمعته وهو يجيب: صوت هزيلٍ وضعيف تحت صوت الراديو المدوي. نظرتْ إلى الأب لوت باحثةً عن تفسير لكنه فقط هزَّ كتفيه من دون اكتراث وابتسم ببلاهة.

سقط قلبها إلى ركبتيها. ريح تخرج من المرء. إن مغنيةً أوبرالية جدّاً تحتاج إلى عشرة أجهزة مذياع في أعلى صوت كي تغطي على صرخاتها. وفيما كانت بغ موذر تمسك بالمكنسة، تابعت الصوت متجهةً نحو غرف النوم. عند الباب الأول، أنعمت النظر في الداخل وشاهدت ابنيها الأصغر سنّاً نائمين، تقريباً كل واحد منهما فوق الآخر، كما لو أنّهما يهربان من الأحلام في الجانب الشمالي من السرير. ضغطتْ على باب مكتب الأب لوت. كيف يجرؤ؟ سوف تحطم أنفه، سوف تنتف الشعرات المتبقية في رأسه، سوف... كان الباب موارباً إنما، مع ذلك، تسرَّب الصوت، كما يتسرّب الماء الطافح من الكأس. أدارت المقبض ودفعت الباب.

كان ثمة مصباحان يشتعلان بضوء خافت في الناحية البعيدة من الحجرة. حدقتْ إلى جهة الضوء. كان سبارو جالساً إلى طاولة كتابة أبيه، قلمه الحبر يستقر على ورقةٍ طويلةٍ. يوجد ورق، في الحقيقة، في الأمكنة كلها، على الكرسي ذي المسندين، على السجادة، تسقط كالشلال على المكتب، صفحات مشوَّشة وصفحات ملطخة بالحبر. في آلة التسجيل، ثمة قرص يدور.

«هل فقد الرجال في هذا المنزل صوابهم؟» قالت أخيراً، وهي تنزل المكنسة.

خفض ابنها بصره ناظراً إليها وتطلع بنحوٍ متوقع إلى الصفحات المنثورة كما لو أنّها من الجائز أن تجيب نيابةً عنه.

«هل أبارح بيت الجنون هذا وأرجع إلى الريف سليم العقل، أوه نعم، سليم العقل بنحوٍ عجيب؟».

«أوه»، قال سبارو، حينما لم يجبْ أحد سواه. «لا».

«لدينا مشروع مدرسي ثانوي، أي بمعنى، مشروع صغير وغير مهم»، قال الأب لوت. ذلك الوحش، ذلك الملقب بـ[أغنية الشعب] جاء وراءها.

«مشروع! كي تحيا في الظلام مثل إنسان الكهوف؟» سألته بغ موذر. «كي ترى كم يستغرق الأمر قبل أن يجعلك راديو الدولة أصم؟».

دفعها الأب لوت برفق إلى داخل الغرفة وأغلق الباب وراءهما. «ما من شيء يستدعي القلق»، قال. «هكذا هو الأمر، بعض اهتماماتنا – اهتمامات موسيقية قليلة – لا ضرورة لأن تُذاع على الهواء».

التقطتْ قطعةً من الورق من الأرض ورفعتها عالياً إلى عينها السليمة. تفحصت الأرقام التي صعدتْ إلى أعلى وأسفل الصفحة، الأرقام من واحد إلى سبعة، الخطوط والنقاط، الأوتار المتصاعدة كالسلالم. كانوا يحوّرون الموسيقى إلى تنويت الـ جيانبو.

«مشروع مدرسي؟» قالت بريبة.

«لا صفي؟» قال سبارو. ثمة حبر على وجهه.

«لكن لماذا؟».

الموسيقى المنبعثة من آلة التسجيل دارتْ بوهن حولهما مضيفةً أفكارها الخاصة إلى المحاورة. المباني الباروكية التي كان ابنها مغرماً جدّاً بها، *تنويعات غولدبيرغ* من تأليف باخ. سبارو، الذي كبر وأصبح طويلاً جدّاً، كان واقفاً بجوارها الآن. متى كبر الطفل؟ بالأمس فقط كان يعدو تحت طاولات محال الشاي العمومية، مرتدياً القبعة الخضراء الخشنة التي حاكتها له، الحواشي الصغيرة تكسو أذنيه وتلتف من حولهما.

«من أجل السعادة الغامرة»، قال الابن بهدوء.

«أجل»، قال الأب لوت، كما لو أنّ الكلمة هبطتْ من السماء. «من أجل السعادة الغامرة!».

«لكن ما فائدة هذا؟ إذا كنتَ تريد موسيقى ورقية، لماذا لا تأخذ فقط ابنك إلى أولد تسهانغ؟ الـ جيانبو للأطفال الصغار ومغني الجايخات، وليس لطلبة [المعهد العالي للموسيقى]». استمرت الأسطوانة، وهو يُعرب فقراته في الهواء، ورأتْ هي أن زوجها وابنها لم يكونا ينصتان إليها، كانا يصغيان للأسطوانة. «لقد حاولتُ»، قالت بنحوٍ غير متوقع. «إنني ذاهبة إلى الفراش. لا تزعجاني». استدارتْ وغادرت الحجرة، بالضبط في اللحظة التي دوّتْ فيها الموسيقى في باقةٍ من الأصوات، وجعلتْ تمطر عليها مثل تصفيق كاذب. أغلقت الباب وراءها.

طوال الليل، تحت دوي الراديو، كانت الموسيقى تقطر هزيلةً عبر المنزل. سمعتها، بوهن، حين رقدتْ على جانبها الأيسر ومن ثم على جنبها الأيمن، آنَ رقدتْ ووجهها إلى الأسفل، وجهها إلى الأعلى، أو رقدتْ بشكل منحرف على السرير. في الختام، زحفتْ إلى خارج الغرفة ومضتْ إلى الفراش مع ولديها. نام الدب الطائر نوماً ثقيلاً، قدماه مكوّرتان وأصابعها موجهة للأعلى، لكن عزيزها دا شان اجتاز السرير ليكون معها. هذا الابن، بدوره، كبر بسرعةٍ شديدة. كان قد

تدحرج بنحو أخرق ليغدو بين ذراعيها. «إنني سعيد بكونك رجعتِ إلى البيت، ماما»، قال، كان صوته نعسان. قبض على يدها وأمسك بها، مذكّراً بغ موذر بـ سويرل وابنتها الصغيرة، وبتلك الـ كانغ الفظة، والدخان الهادئ المتصاعد من سجائر وِين الحالم.

***

في الربيع، عادتْ بغ موذر إلى بنغبي، وبعدها عادتْ مرتين أخريين في الشتاء والربيع التالي. كانت الحياة قد هدأتْ في القرية ومع أنّ أسرة سويرل لا تزال تقيم في الكوخ الطيني، كانت الأسرة قد بدأتْ ببطء تنجح من جديد. كان وِين قد شرع يفلح نصف أكر من الأرض المروية بالماء وكانت سويرل تدرّس في مبنى المدرسة الابتدائية.

في هذا الوقت كله، لم تفتحْ بغ موذر الصندوق الذي يحتوي على دفاتر الملاحظات التي يبلغ عددها واحداً وثلاثين. إنما في منتصف العام 1958، كان البصر في عينها السليمة قد بدأ يتدهور. أفاقتْ من النوم في صبيحة يومٍ ما وهي محتقنة، مصابةً بالحمى، ونصف عمياء. وفي الحال، شرعت تنظف المنزل، من أعلاه إلى أسفله ومن اليمين إلى الشمال. الستائر أُنزلتْ، البطانيات والوسائد انتزعتْ من سجاجيد النوم العائدة لهم. صَقَلت الأفاريز، دعكت الجدران، أفرغت الكابينات، نخلتْ غرفة الأولاد واكتشفتْ رسماً بالقلم الرصاص لها وللأب لوت، كانت هي في الرسم بدينةً كاليوسفي «الكريب فروت» وزوجها طويلاً كالكراث. تحت الرسمين، بخط الدب الطائر الواسع المدى، كُتبت الكلمات: yué qìn (قيثارة القمر) و dí zi (الفلوت). الغائطان الصغيران! كانا قد ضحكا على التخويل. ضربت اللحف «جمع لحاف» بعنف معتقدةً أن مينشيوس[1] نفسه سوف يجر آذانهم، يعدّل كتابتهم، ويُدخل بعض الحرمان الجسدي إلى حياتيهما، لكنها هي ذي الآن،

1 - مينشيوس (385 - 302 / 303 ق. م): فيلسوف صيني، وهو أشهر فيلسوف كونفيشيوسي في أعقاب كونفوشيوس نفسه - م.

تحمل الرسم في جيبها كما لو أنّه علبة عزيزةً من سجائر «هاتامين».
«أوه، ماما!» صاحتْ، وهي تُجفل سبارو الذي كان منحنياً على حزمة من ورق المخطوطات.

راقبها سبارو بقلقٍ مضطرد. لاحظ أنها كانت تصطدم بالأشياء الصلبة، مفضلةً عينها السليمة، تدير رأسها إلى هذه الجهة وتلك كالحمامة. في الأعوام الأخيرة هذه، كانت قد أصبحتْ ممتلئة الجسم ورخوة، مع أنّها كذلك أمستْ سريعة الانفعال أكثر، مثل ملك من ملوك الأزمنة الماضية. كانت الشقة في حالةٍ شديدة من الفوضى. «أوه، بابا!» قالت متنهدةً، وهي تضع صندوقاً كارتونيّاً صغيراً على المنضدة. كما لو أنّها تحمل محن العالم كلها على كاهلها، انكمشتْ وتهاوتْ على أحد الكراسي. لا يوجد وتر ولا شريط تسجيل والصندوق يمكن فتحه فوراً، إلّا أنَّ بغ موذر نايف كانت تتطلع إليه فقط، كأنها تتوقع أن يرتفع الغطاء من تلقاء نفسه.

«هل أفتح لك طردك البريدي، ماما؟» سألها.

«إيه؟» قالت، وهي تدير رأسها تسعين درجة كي تنعم النظر فيه بعينها اليسرى. «هل قاطعتكَ؟ هل شوشتُ عليكَ سلسلة أفكارك هكذا؟».

«معذرةً، ماما».

«أنتم... الرجال!» هتفتْ، فيما كان الدب الطائر يمشي بخطى خافتة بصندليه البلاستيكيين[1] «لا بدَّ أن أمكم كانت من قرميد. وإلاّ كيف كبرتم حتى تصبحوا طغاةً رأسماليين سيئي السلوك هكذا؟» تطلع الغلام إليها. فمه، الذي كان يوشك أن يُغلق حول قطعة من الخبز يتصاعد منها البخار، تجمد بحيرة وتردد.

راقب سبارو خفيةً فيما كان اهتمام أمه يعود إلى الصندوق الممزق.

1 – في اعتقادنا أن الكاتبة تقصد: الصندلين المطاطيين أو الصندلين المصنوعين من الكاوتشوك – م.

جلستْ من دون حراك، كما لو أنّها كانت توصي محتوياته بأن تتنحنح وتفسر أنفسها. ربما كان خالياً، فكر سبارو. مدّتْ بغ موذر يدها إلى الخارج طلباً لكوب شاي لم يكنْ موجوداً هناك، وبعدها تنهدتْ ودعكتْ جبينها وتابعت النظر إلى الصندوق. حين سكب سبارو كوب شاي طازج لها، ووضعه بجانب يدها الباعثة على الغم، قفزتْ وحدّقتْ بكراهية إليه. جلس مجدداً واعتدل في جلسته. دسَّ الدب الطائر قطعة الخبز في فمه وخرج مسرعاً.

حين رفع عينيه لاحقاً، شاهد أنها قرّبت الصندوق إليها، فتحته ورفعتْ كدساً ضخماً من دفاتر الملاحظات. فتحت الأول ورفعته عالياً إلى عينها السليمة. كانت تنظر إلى الصفحة بإمعان شديد بحيث إنّه ظنَّ أنها قد تحترق تلقائياً. «ماما»، قال، وهو يستجمع شجاعته. كانت عينها السليمة تدور كي تواجهه. «هل أقرؤها لكِ؟».

«انصرفْ!».

كان مروَّعاً جدّاً بحيث إنّ قلمه الرصاص سقط من يده. وعلى عجل، جمع سبارو أوراقه وغادر طاولة الكتابة.

«طفل فضولي يتدخل في شؤون الآخرين!» صاحتْ وراءه.

رجع سبارو إلى غرفة النوم، حيث وجد الدب الطائر يقهقه. صفعه برفق وسمح الغلام لنفسه أن يلتف بشقلبة رشيقة. كان دا شان واقفاً بصورةٍ غير مناسبة في وسط الغرفة، انحنى، لمس بأنامله أصابع قدميه العارية. وضع سبارو أوراقه على السرير وجلس في الضوء الأخير عند النافذة، وجعل ينتظر. حين سمع أمه وهي تناديه أن يعود، ابتسم وردّ شقيقاه على ابتسامته. سحب سبارو نفسه، وعاد إلى المطبخ، ورأى أمه تضم قبضتيها كطفلةٍ تمشي بخطوات قصيرة قلقة. جلس بجوارها. بمرارةٍ، سلّمته بغ موذر دفتر الملاحظات الأول. من دون أن ينتظر التعليمات، باشر يقرأ بصوتٍ عالٍ.

بدأت القصة من الوسط عبر كلمات أغنية شعبية.

قرأ:

كيف يمكنكَ أن تتجاهل هذا المِخرَز الحاد
الذي يخترق فؤادكَ؟
إن كنتَ تتحرّق لأشياءٍ خارج ذاتك
سوف لن تحصل أبداً على ما تبحث عنه.[1]

1 - «كيف يمكنكَ أن تتجاهل هذا المِخرَز الحاد الذي يخترق فؤادكَ ؟...»: اقتباس من أغنية من تأليف مبشّر يسوعي، وهو طالب متفوق صيني وموسيقي: ماتيو ريجي (1552 - 1610)، كما ورد في «*رابسودي بالأحمر: كيف أصبحت الموسيقى الغربية الكلاسيكية صينيةً*» (نيويورك: دار النشر ألغورا، 2004): 59 - ك.

-4-

«ما - لِي، عودي. استيقظي».

في أحلامي، استمر «كتاب السجلات التاريخية». حين صحوتُ من النوم، لم أتمكنْ من تذكّر أين كنتُ أو حتى مَن يحتمل أنني كنتُ. شاهدتُ أضواءً تنسل عبر سقف حجرة نومي، استرعت انتباهي كله، وهي تدنو بنحوٍ لانهائي، عائدةً مع أنّها لا يمكن التنبؤ بها.

في الخارج، كان الظلام لا يزال مخيماً. كانت أي - مينغ جالسةً على حافة سريري، مرتديةً السترة التي أعطتها أمي لها. كان وجهها أكثر امتلاءً الآن، شعرها بلون البحر، بدتْ محببةً إلى القلب وهي جالسة هناك. مددتُ ذراعيَّ وأمسكتُ بها بقوة، بأن طوّقتُ خصرها. خمشتْ أي - مينغ رأسي. كانت رائحتها طيبة، كرائحة البسكويت.

«ذات يوم، ما - لِي، سوف نذهب إلى شنغهاي وسوف أعرّفكِ إلى بغ موذر نايف».

«بغ موذر!» تنهدتُ. «سوف تأكل رأسي».[1]

«فقط إذا كانت مغرمةً بكِ. سارعي وانهضي من الفراش، قبل أن آكل الفطور كله».

سمعتُ الأبواب وهي تُفتح وتُغلق ووقع أقدام أمي وأي - مينغ كما لو أنّهما كانتا تقطعان من دون مجهود ليس فقط المسافة من حجرة إلى

1 - المعنى هو: أن يجيب المرء بغضب وبنحو مفاجئ ومتكرر عن سؤال أحدهم - م.

حجرة، بل تقطعان المسافة بين أحلامي وحاضري. ماذا يجب أن تكون الصورة، تساءلتُ في سرّي، إذا ما بدأتُ من جديد؟ هل سأبقى الفرد نفسه إذا ما استيقظتُ في لغةٍ أخرى ووجودٍ آخر؟ وأنا أفرك عينيَّ، نزلتُ من السرير.

كان ذلك في السادس عشر من أيار «مايو» 1991. حقيبة سفر أي - مينغ المستطيلة المسطحة، الحقيبة نفسها التي وصلتْ بها، تنتظر بجانب الكنبة. في برهةٍ قصيرة، هي وماما سوف تنتقلان بسيارةٍ مؤجرة إلى الحدود وسوف تعبران إلى داخل الولايات المتحدة. وما إن تكون هناك، حتى تأخذ أي - مينغ حافلةً تتجه بها إلى سان فرانسيسكو، حيث تنتظرها صديقة أمها هناك بغية استقبالها.

على مائدة الطعام، كانت أمي قد وضعتْ خبزاً فرنسياً محمصاً. خلطتُ العصير من عصير مركز مجمد، هيأتُ ثلاث كؤوس، وقدمتها كما لو كانت كؤوس شمبانيا.

أخبرتنا أي - مينغ أنها، لأول مرة على مدى بضعة أشهر، لم تحلمْ على الإطلاق، وهذا الصباح، وهي تفتح عينيها من النوم، شعرتْ بالراحة والطمأنينة، كما لو أنّها واقفة في وسط «متنزه فوكسنغ» الواقع في شنغهاي، في بحيرةٍ عميقةٍ من أشعة الشمس. حتى المباني المحيطة بالمتنزه، تلك التي شُيّدتْ في أزمنة وعصور مختلفة تنتمي للماضي، كانت تتمايل كما لو أنّها هي أيضاً، لم تكنْ مصنوعةً إلّا من ورق الشجر.

قلتُ لها إنني حلمتُ بالحدود.

تنهدتْ أمي.

«أرجوكِ خذيني معكِ»، خاطبتها، مع أنّني كنتُ أعرف أن رجائي هذا غير مُجدٍ. «ماذا لو رموكِ في السجن؟ كيف تتمكنين من أن تبعثي لي رسالة؟ إنهم لا يودعون الأطفال الحبس. أنا هي الوحيدة التي تستطيع أن تنقذكِ».

«لنأمل أن لا يصل الأمر إلى هذا الحدّ»، قالت أمي.

جزء مني فهم أن أي – مينغ وأمي تتمنيان أن تكون هذه المغادرة مغادرةً واعدةً، ولهذا التقطتُ شوكتي ومضيتُ معهما. كم اشتقتُ لأن أكون أكبر سناً، أن أكون قادرة على لعب دورٍ معين. تأخرنا على الفطور، واخترعنا لعبةً تشتمل على رسم كلمات في الهواء. قالت أي – مينغ إن كلمتي «أن تصل» (来) مصنوعة من جذر الشجرة (木) وإن كلمة «ليس بعد» (未): الوصول هو شجرة لم تأتِ بعد. قالت أمي إن كلمة «بصل» تحتوي على الحرف الأبجدي yáng (洋) يانغ (اللانهاية، أن يحتوي على عدد وافر)، وهكذا فإن البصل هو جذر اللانهاية. أردتُ أن أعرف لماذا تتكون «اللانهاية» من (氵) (الماء) و(羊) (الخراف)، إنما لم يقدر أحدٌ أن يجيبني.

إذا ما تجاوزتُ ما حصل لاحقاً، فذلك لأنه، حتى الآن، بعد مرور خمسة وعشرين عاماً، أشعر باللوعة على هذا الفراق. في كندا، لم يُمررْ أيّ عفو عام منذ سنة 1983، وأمي ليس لديها الموارد المالية كي تساعد أي – مينغ بالطرائق التي كانت تحتاجها. في أميركا، كنا جميعاً نريد أن نعتقد، أنه سيكون لـ أي – مينغ أفضل فرصة لتحقيق مستقبل مستقر.

قبل مغادرتها، عانقتني برهةً طويلةً. أمضتْ معنا زمناً قصيراً جدّاً لكنها الآن تغادرنا، رأيتُ كيف غيّرتنا بعمق، وبعفوية. كنتُ أتوجس خيفةً من أنني وأمي لن يكون بوسعنا أن نهتم إحدانا بالأخرى بمفردنا.

«ما من عار في البكاء»، همستْ أي – مينغ. «ما من عار في التذكر. لا تنسي، ما – لِي. لم يذهبْ شيء أدراج الرياح. ليس بعد».

حررتني ذراعاها. فتحتُ عينيَّ. لأنني كنتُ مغرمةً بها، قلتُ لها وداعاً. تشبثتُ بالحرف الأبجدي الذي رسمته لي، (未)، (وِي wèi)، ليس بعد، المستقبل، حركة أو قطعة من الموسيقى، سؤال لا يزال من دون جواب.

فيما بعد، استلقيتُ على الكنبة. لم أبكِ. الشعر والذاكرة، قالت أي –

مينغ، قويان في داخلي؛ كنتُ خُلقتُ لعلم الرياضيات. هيأتُ نفسي كي أتذكر كل ما قالته لي، الأفعال الجميلة، الفظة والجريئة، التي ارتكبها أبوها وأبي، اللذان ربطا حياتينا معاً.

***

كانت بغ موذر نايف عليلة. كان الإعياء الناجم من زيارتها الأخيرة إلى بنغبي، رحلة الـ تسع عشرة ساعة وإفراط في تناول الفطيرة المحلاة الحاوية على البيض، اجتمعتْ كلها كي تدمر أمعاءها. حين تجاوزت الأسوأ، رقدتْ في سريرها، تعيسة. حتى جفناها لاحا مرهَقين، تهدّلا وحجبا الضوء.

أخذ سبارو مجلاته وتسجيلاته ومكث في حجرة أبويه، أحضر الشاي لأمه، قشّر البرتقال لها، وكان يزيح الستائر على وفق مرور الشمس وأهواء أمه، وينتظر، ينتظر على الدوام، إلى أن يصفو تفكيرها بما يكفي كي تطلب منه أن يأتي إلى جوار سريرها، أن يحضر إليها كوم دفاتر الملاحظات التي كانت تسميها [كتاب السجلات التاريخية] وتكمل القصة.

أمست الصحراء، مسرح الأحداث، في الفصول المبكرة، منزل سبارو الثاني، إلى أن بدا الجلد الذي يكسو يديه هو مرقعاً وخشناً. في بعض الأحيان، كان ينسى أنه يقرأ بصوتٍ عالٍ. بدلاً من ذلك، أضحت الكلمات كلماته هو؛ كان دا - وي نفسه، وقع في فخ محطة الإذاعة في «صحراء غوبي»، حين أتت الحرب كالإعصار ومزقت الأرض أشلاءً، إلى أن خاف من أن يكون الشخص الأخير الذي يغادر هذا العالم المقلوب. كي يريح نفسه، تخيل دا - وي المستمعين الذين لم يكنْ بوسعه أن يشاهدهم ولم يسمعْ منهم شيئاً، صنع الأدب يوماً بعد يوم، وطرّز حيواتهم:

«أليس صحيحاً، سيد دا - وِي، أن بعض الأشخاص قُدّر لهم أن يختفوا مثلما تتبخر بحيرات معينة في أكثر الفصول

جفافاً؟ في غضون ذلك، أشخاص آخرون يجب أن يجتازوا سقف العالم. ليعش أولئك الذين يحاربون من أجل استقلالنا! عسى أن نصفح أحدنا عن الآخر ونجد راحة البال، عسى أن نغفر لأشقائنا لأن هذه الحرب هي مرضنا وأملنا معاً. سيد دا – وِي، أطلب منك أن تُملي الحركة الثالثة العائدة لـلسيمفونية الثالثة لـ أولد بِي لابني: هارفيست وانغ. أودّ أن أقول: بغهارفيست، قفْ شامخاً واخدمْ وطنكَ بشجاعة. عيد ميلاد سعيد، بُني».

تابع المستمعون صوت دا – وِي عبر غسق حجراتهم الصغيرة، في برودة الليل وعلى طول أول شق من شقوق الصباح. انتظر الناس، محتشدين معاً أو كانوا وحيدين تماماً، ريثما تنقضي الحرب، انتظروا الهدوء الذي جاء قبل العاصفة التالية، انتظروا العاصفة التي تأتي بعد هذا الإرجاء الصغير لحكم الإعدام. *هذه القطعة الموسيقية اللاحقة أتتْ إليّ عن طريق جدي*، قال دا – وِي. كان صوته حميماً جدّاً، وبدا كما لو أنّه جلس أمامك في غرفتك الدافئة جدّاً. *كان قد عُلّم أن يعزفها بواسطة موسيقي ألماني في كنغداو، الذي عزف على آلة موسيقية بطوله نفسه ومحيطها ضعف محيطه، تُدعى تشاي - لو. اسمعْ، أرجوك*. ومن ثم، حين انتهت الموسيقى، *أليستْ هي جميلة! دعنا نرهف السمع ثانيةً. مرةً أخرى، العجوز باخ وألحانه الأوركسترية*[1] *لآلة الـ تشاي - لو.*

«هل أعرف هذا الشخص»، قالت بغ موذر وهي تدير كمثرى بتأمل في يدها. «مَن يكون هذا الكاتب الشرير؟».

«كنتُ وحدي في محطة الإذاعة مدةً طويلةً بحيث كان بوسعي أن أتعرّف على كل أسطوانة من الأسطوانات من خلال علاماتها، كما لو أنّ كلّ واحدةٍ منها هو وجه أعرفه.

تستمر القصة وتختفي أوقات ما بعد الظهر. حين أفسح ربيع العام

---

1 – اللحن الأوركستري suite: يتألف هذا المؤلَّف الموسيقي من ثلاثة أجزاء أو أكثر – م.

1958 المجال للصيف، رجع سبارو وقرأ من جديد الفصول المبكرة، ملأ الفضاءات المفتوحة في الرواية بالمناظر الطبيعية وتمنياته هو بحيث إنّه هو، بدوره، يمكن أن يصبح جزءاً لا يمكن الاستغناء عنه من هذا العالم الجديد حيث الرغبات التي لم يعترفْ بها قط كانت، في هذه الحروف الأبجدية، قد مُنحتْ شكلاً ومادةً وحريةً.

«سبارو»، تناديه أمه، بعد أن تستيقظ من النوم وتدير وجهها صوب نور ما بعد الظهر. وينهض هو، يمشي بهدوء إلى الكرسي الكائن بجوار السرير، ويلتقط الفصل الذي كان في انتظاره على الطاولة المجاورة للسرير، كما لو أنّه ذاهب للقاء مستقبله.

***

وقع سبارو في شِرك هرب دا - وِي اليائس إلى ميناء شنغهاي حين رنَّ صوت قرع متكرر على الباب الخلفي، واستمر الرنين كما لو أنّ الآلية كانت تعطلتْ عن العمل والباب قد قُدّر له الآن أن يُصفع إلى الأبد. يداه لم تريدا أن تفلتا دفتر الملاحظات. فقط سباب أمه هو الذي أرغمه على أن يدسّه تحت أبطه، أن يقفز ويهرع إلى الفناء. انخرط دا شان في شجار آخر، فكر هو، أو أن الدب الطائر كان يتنمّر عليه الجار المرعِب الذي كان يحمل كنية «وند فاكتوري». إنما حين فتح سبارو الباب الخلفي، لم يرَ أحداً. كانت هنالك طفلة شحاذة، لا يزيد عمرها على ستة أعوام. كان سيغلق الباب مجدداً لو أنّها لم تقلْ شيئاً. كانت فقط واقفةً هناك وهي تحمل حقيبة بلاستك بيدها. في الحقيبة البلاستك لمح قطع ملابس، منشفة وبنحوٍ غريب، أسطوانتين.

«لا بدَّ أنكِ أتيتِ إلى المنزل الخطأ، أيتها [الآنسة الصغيرة]».

«خالة؟».

«هذا ليس منزل خالتكِ، أيتها الآنسة الصغيرة»، أخبرها سبارو بلطف.

«أرجوكَ قلْ لـخالتي موذر نايف إنني هنا».

جثا كي يصل إلى قامتها، وبعدها لاحظ أن أحد الألبومين كان أسطوانةً أجنبية. تطلّع في وجه الفتاة الصغيرة التي بدتْ، بشكلٍ من الأشكال، قد طمسه الغبار. كان يعرف أن الكلمات المكتوبة على الألبوم ألمانية وتعرّف على تلك التي تهمه: جيّ. أس. باخ.[1] تطلع إليها سبارو من جديد، وهو لا يريد أن يصدق هذه الطفلة المُحزنة، والمعوزة.

«أخبرْ خالتي»، قالت بحزم.

إنما لم يكنْ ذلك ضرورياً لأن أمه كانت قد خرجتْ إلى ساحة الدار، ثمة لحاف مرمي على كتفيها، وهي واقفة الآن وراءه. صرختْ أمه وسحبت الطفلة وضمتها بين أحضانها. «تسهولي»، قالت. «أين أمكِ؟» مرعوبةً، مرتْ بـ سبارو ودخلتْ إلى الزقاق، وهي تحدق في ما حولها.

«سويرل»، صاحتْ بغ موذر، وظلتْ تصيح. كان الزقاق خالياً، لا يوجد فرد واحد، لا شيءَ سوى النفايات والريح.

فرَّ سبارو عبر الزقاق، متجهاً مباشرة نحو «طريق بكين». إلّا أنَّ خالته سويرل ووِين الحالم لم يكونا هناك، لم يكونا في أسفل المدخل المقنطر الرحِب، وليس في الشارع. في الختام استخدم القطع النقدية القليلة الموجودة في جيبه كي يشتري نصف دزينة من البطاطس الحلوة المحمصة وكيساً ورقياً من الخبز الذي ينبعث منه البخار، ومن ثم اندفع بسرعة عائداً عبر التقاطع، وجعل يراوغ الدراجات الهوائية، ويقفز بين المشاة. وحين رجع إلى البيت، وجد تسهولي قد أُجلستْ إلى الطاولة قبالة أمه. كانت الطفلة ترتدي ثياب الدب الطائر والقميص الصغير، المألوف (كان يعود في يومٍ ما إلى سبارو) يكسوها كالخيمة. حين وضع سبارو الطعام أمامها، أكلتْ من دون أن ترفع عينيها، متنفسةً من أنفها فيما كانت تحاول أن تدس في فمها أكثر ما يمكن من الزاد. راقبتها بغ موذر بصمت.

---

1 – اسم يوهان سيباستيان باخ بالإنكليزية: Johann Sebastian Bach، ولهذا يُختصر اسمه: جي. أس. باخ – م.

حين فرغتْ تسهولي من تناول طعامها، مضتْ، من تلقاء نفسها، إلى غرفة النوم التي يتقاسمها سبارو مع شقيقيه. وجدتْ قميصاً آخر ولبسته فوق القميص الذي كانت تلبسه. ومن ثم صعدتْ إلى السرير وطلبتْ من سبارو أن يستلقي، هو أيضاً. مرتبكاً، فعل ما طلبتْ منه الطفلة. تسهولي، التي بدتْ كأنها تغدو أصغر في كل لحظة، زحفتْ واندستْ بين ذراعيه، أغمضتْ عينيها ونامتْ.

***

في الهزيع الأخير من تلك الليلة، دُسَّ عبر الباب الأمامي ظرف مختوم. كان المظروف مُرسلاً إلى «السيدة أغنية الشعب» والسيد والسيدة «ما» قد داسا عليه بمحض المصادفة حين مرّا متجهين صوب الجناح الشرقي من المنزل. أعطى السيد «ما» المظروف إلى بغ موذر نايف التي فتحته بأن مزقت الغلاف إنما، لكونها غير قادرة على تمييز الكلمات بعينها السليمة، دسته بين يدي الأب لوت. كانت الرسالة تشير إلى أن سويرل ووِين الحالم كانا متهمين باقتراف جرائم مضادة للثورة وصدرتْ بحقهما عقوبة تقضي بأن يؤديا الأعمال الشاقة مدة ثمانية أعوام. كانا قد نُقلا في وقتٍ سابق إلى معسكريْ إعادة تربية منفصلين في الشمال الغربي من البلاد. لا يهم كم مرةً سمعتْ بغ موذر هذه الكلمات، لم يكنْ للرسالة أيّ معنى. استطردت الرسالة قائلةً: «توفيتْ أم الرفيق وِين بسبب المرض. وطالما أنه ليس هناك أحد في بنغبي كي تُؤتمن لديه الطفلة، أخذتُ حريتي بأن جلبتها إلى هنا. سوف تجدين الكتب الرسمية ورخص الإقامة مع الرسالة. ليعش وطننا الأم! ليعش الرئيس ماو!» كانت هناك قطعة حلوى، ماركة «الأرنب الأبيض»، مسحوقة، ذائبة في المظروف.

«إنكِ تعرفين كيف تجري الأمور»، قال الأب لوت أخيراً. «في بعض الأحيان [اللجنة الثورية المحلية] تجرفها الحماسة والحرص المبالغ بهما. سأتولى الأمر بنفسي. إن عقوبةً كهذه لا تُنفذ حالاً. سويرل ووِين

حتماً لا يزالان في بنغبي». لكنه لم ينظرْ مباشرةً في وجهها، وبدلاً من ذلك راح يتفحص علبة السجائر الفارغة في يده.

طول الليل، كان الأب لوت يتقلّب في فراشه يمنة ويسرة. كلما حاولتْ بغ موذر أكثر أن ترى الخطوط الخارجية للغرفة، بدت الجدران كأنها تطوّقها من الجوانب كلها. كان زوجها يصرخ في نومه، وكانت تنخسه في ذراعه إلى أن هدأ. في الأحلام المحمومة لـ بغ موذر نفسها، ظهرتْ أختها، لكن سويرل كانت قد أمستْ ثانيةً طفلةً صغيرة. كانتا تهربان من شنغهاي، محاولتين الإفلات من الجيش الياباني.

حين أفاقتْ بغ موذر من نومها لاحقاً، كانت تسهولي لا زالتْ نائمة بجوارها.

لبثتا في الفراش بينما نهض الأب لوت والأولاد. أصغتا فيما كانت الحقائب المدرسية تقعقع خلال فتحها وغلقها، كانت مكبرات الصوت تجأر بالنشيد الوطني، وكانت الأجراس والمُصفقات[1] تقعقع عبر الأزقة. حين فتحتْ بغ موذر عينيها من جديد، كانت مرتبكة وقتياً وفكرتْ أنهما معاً، هي وسويرل، كانتا نائمتين في سرير أبويهما، شعر شقيقتها اللامع ينساب على الوسائد. كانت شقيقتها هي الحب الكبير في حياتها. حين اختفى زوجاهما في أتون الحرب، كانتا، هي وسويرل، قد نجتا معاً، وبغ موذر لم تخذلْ أختها. كفكفتْ دموعها، لكنها لم تستطعْ أن تمنعها من الانهمار.

كان يراودها شعورٌ غامضٌ، اضطراب، بشأن الأشخاص الذين يقاومون، أشخاص يهجم أحدهم على الآخر، وباستمرار، هؤلاء الأشخاص كانوا يصعدون ويسقطون ويسحب أحدهم الآخر، في صمتٍ كبيرٍ يبعث على السأم. لكن ما هي الجريمة التي ارتكبوها؟ في معسكرات إعادة التربية الواقعة في الشمال الغربي، شقيقتها ووِين

1 - المصفقات: جمع مصفقة clapper: إحدى عصوين أو عظمتين مسطحتين يمسك بهما المرء بين أصابعه لإحداث بعض النغمات - م.

الحالم سوف يفترق بلا ريب كل واحد منهما عن الآخر. من المؤكد، سوف يُخلى سبيلهما توّاً، مهما كانت الجرائم التي كانا ارتكباها لا بدَّ أن تكون يقيناً أخطاءً صغيرةً. ولكن ما هي هذه الجريمة الصغيرة، جريمة الثورة المضادة؟ حتى الآن لم يسبقْ لـ بغ موذر أن سمعتْ بجريمةٍ من هذا النمط. جلست الفتاة الصغيرة في السرير. كما لو أنّ دموع خالتها وبَّختها، زحفتْ تسهولي من تحت الأغطية وخرجتْ من الحجرة.

***

في تلك الليلة، استقل الأب لوت الباص الذاهب إلى بنغبي. داخ، وشرع يفكر في المقامرين والدخان في أثناء زفاف سويرل، يفكر في الطيور والموسيقى، وفي التحرك العنيف والبطيء لأوركسترا الرئيس ماو الحربية التي تشكلتْ حديثاً، وحينما أفاق من نومه، كان الباص يتمايل على ممر جبلي، وهو يبدأ مسيره في منعطف حادّ. أمسك بالمقعد الذي أمامه. في الخارج المشهد مُزرٍ. في الداخل والخارج، كان يراود الأب لوت إحساس مُغلَّف بالخطر والخداع. كان هذا الهاجس بالشر قويّاً جدّاً بحيث، حين انبلج الفجر، كان قد أُخذ على حين غرة فألفى الباص وهو يترنح عبر مشهد طبيعي رقيق. كانت الهشاشة الذهبية - الخضراء للحقول المحيطة، الدراجات الهوائية الفضية والطوابير الواطئة من الطيور تصعد وترتفع إذ يخلط المرء بينه وبين شخص آخر. كانت الشعارات تعلن جهاراً: «اخدمْ الشعب!»، «حاولْ بشجاعة وجرأة أن تفكّر، حاولْ بشجاعة وجرأة أن تفعل!» كان مطلع الصيف لا يُطاق، بنوبات الرعد والحرارة القاسية. كان قميصه قد بدا ملتصقاً بشكلٍ مستديم بظهره.

ولدى وصوله إلى بنغبي، سار الأب لوت إلى «مكتب الحزب»، وهو مبنى صغير، معتدل، ذو باب قصير جدّاً.

في الداخل، كان قد اندهش لدى رؤيته مروحة كهربائية تتهادى من السقف، وهي تقمّع الهواء الدافئ إلى الأسفل. كان للمكتب مولدته

الكهربائية الخاصة. ما إن عرّف الأب لوت نفسه، كان قد رحّب به زعيم القرية مع قطعة كبيرة جداً من الكعك. وهو يتخلّص من قلقه، مدد نفسه بحيث كان لوردياً ولا يمكن الهجوم عليه، وتكلم بصوتٍ عالٍ. حين ذكر الأب لوت اسميْ سويرل ووِين الحالم، الموظف المبتسم بسمة عريضة بسترته الدافئة بإفراط تخضّب باللون الوردي وأصابه الخرس. حرّكت المروحة قطرات العرق الصغيرة عبر رأسه الأصلع.

«لحظة واحدة أرجوك، رفيق»، قال الرجل، وخرج مسرعاً من الحجرة.

ظهر مزيدٌ من الكعك. دخل عامل، وهو يترنم بأغنية. «نهارك سعيد، رفيق!» قدّم له كوباً من الشاي، مسح سطح الطاولة التي كانت أصلاً نظيفةً ومربوطة القوائم. «يعيش زعيمنا العظيم!».

«حسناً؟» قال الأب لوت، حين رجع زعيم القرية. «أين هما؟ إنني متلهف جدّاً لرؤيتهما».

بدا الرجل غير المرتب كما لو أنّه كان في موسكو وعاد توّاً. «حسناً، بالطبع»، انبرى قائلاً، «لقد سُجّلا هنا –».

«أجل، أجل».

«– لكن، صباح هذا اليوم، أو، بنحوٍ أدق، في الساعة الحالية».

«الرفيق وِين مؤلف أغاني عاطفية شعبية يحظى بإعجاب كبير، هو [كتاب أغاني]، كما يقول المثل السائر. ليس لدينا سواه في حفلتنا الموسيقية. الجنرال تشين يي[1] نفسه يصر على ذلك!».

رفع الرجل عينيه إلى الأعلى، مفزوعاً. «تحياتي لـ تشين يي! جنرال جسور وخادم وفيّ للرئيس ماو نفسه. بطل الاثني عشر برميلاً! ليعِشْ –».

---

1 – تشين يي (1901 – 1972): قائد عسكري وسياسي شيوعي صيني. خدم كرئيس بلدية شنغهاي من العام 1949 – العام 1958 ووزير خارجية الصين بين عاميْ 1958 و1972 – م

أخذ الأب لوت جرعةً وصفع الكوب على الطاولة. «الرفيق وِين وزوجته يجب أن يقدّما نفسيهما حالاً. إنني مستعد لأن أضغط من أجل إخلاء سبيلهما».

«أيها الأخ الرفيق، الحياة تمضي في طرقٍ حلزونية غير متوقعة. أي بمعنى، ثمة أمكنة كثيرة غير متوقعة يجد المرء نفسها ينعطف إليها».

«شعركَ يُربكني، رفيق».

تورّد الرجل بحمرة الخجل. «دعني أبدأ من جديد. أيها الأخ الأكبر ـ في حقيقة الأمر، إنهما ليسا هنا». راوغ الرجل بنحوٍ ينمّ عن عدم الارتياح.

«تحدثْ بحرية، أرجوكَ».

سكب الرجل الشاي وعرض عليه أن يحتسيه.

انتظر الأب لوت. أصبحت المروحة تدور أسرع الآن، كما لو أنّها تحاول الطيران.

«بذلنا أقصى ما نستطيع كي نفرض النظام»، قال الرجل، «إنما بوصفي شخصاً قيادياً بارزاً في المنطقة كما تعرف أنتَ نفسك، الناس لا يمكنهم أن يتحركوا بنصف خطوات كانوا يسقطون فحسب. كي يجتازوا حدّاً كبيراً جدّاً عليهم أن يقفزوا وغالباً أن يقفزوا كثيراً. وربما يكون الحال كذلك، في حالة الرفيق وِين، ربما كانوا قد قفزوا كثيراً. على كل حال، نحن نحيا في زمنٍ يجب أن يتخذ الحلم الثوري مجراه الطبيعي، ألا توافقني الرأي؟».

لم يقلْ الأب لوت شيئاً. بدا طعم الكعك قديماً في فمه.

«يبدو»، قال الرجل، «أن الرفيق وِين وزوجته كان لديهما سرداب سرّي في أرض أجداد أسرته».

شرب الأب لوت بقية الشاي في كوبه ونظر بتأمل إلى القدر. «إنها ليستْ جريمة، رفيق».

انتظر الرجل وبدلاً من أن يختلف مع الكلام، اختلف مع الصمت.

«بالطبع»، استطرد قائلاً، «السلع المهربة تصعد دوماً إلى السطح. نحن صادرنا كل شيء. الكتب. الأسطوانات، وبعض الأشياء الثمينة المتوارثة من جيل إلى جيل. كان لديه *[كتاب الأغاني]* و *[كتاب التاريخ]*. كما كان يمتلك كتباً من أميركا. إنني مندهش»، قال، وسمح لنفسه بأن يتوقف وقفةً قصيرة، «لكونكَ لا تعرف هذا الأمر».

تطلّع الأب لوت إلى الجدار الكائن وراء الرجل. لا يمكن أن يخطئ المرء بأن تغيراً مفاجئاً طرأ على نبرته، كل ذلك الشّعر المشوَّش، ذلك العرق المشع، توارى بغتةً كالضباب.

«لم أكنْ أعرف»، قال الأب لوت بهدوء وعدم تحيز.

«مممم».

هبَّ الرجل واقفاً، مدَّ يده إلى حبل طويل وأوقف المروحة. تباطأتْ ومن ثم توقفتْ، وتركت الغرفة محصورةً وساكنةً تماماً. «بوصفنا كوادر حزبية، نحن، بطبيعة الحال، يمكننا فقط أن نخدم الشعب ونتّبع خط الحزب. لقد أحلناه إلى اللجنة الثورية وهم الذين مرروا الحُكم. وجدوا أنه عنصر خطير».

يبستْ حنجرة الأب لوت، إنما لم يُقدّم إليه مزيدٌ من الشاي.

«إعادة التربية من خلال العمل الشاق»، استطرد الرجل، وهو يقعد ثانيةً. «هذه هي الخاتمة وكان قد أُخذ كما ينبغي».

«وزوجته، الرفيقة سويرل؟».

«أُدينتْ بكونها يمينية وبورجوازية عديمة الحياء. العقوبة نفسها». بدا كأن حرارة الرجل قد تصاعدت الآن. لاح وردياً وذهبياً. «هذه المكتبة السرية ربما أسستها الرفيقة أم وِين خلال حرب ما أو سواها، كي تخفي هذه الكتب النادرة عن المتطفلين. لقد رحلتْ عن عالمنا في العام المنصرم، إذن كيف يتسنى لنا أن نعرف ذلك؟ لعلكَ سمعتَ عن أبيها، أولد ويست؟ عنصر رجعي، مقرَّب جداً من النظام الإمبريالي في زمنه.

بطبيعة الحال، كان أولد ويست في يومٍ ما تلميذاً موهوباً ذائع الصيت أُرسل إلى الخارج كي يخدم بلاده، ومخابئ كهذه كانت شائعة في يومٍ ما... طيب، مَن أكون حتى أطلق الأحكام؟ نحن مجرد قرية صغيرة. نحن لا نزال نتعلم الخط الصائب». ابتسم الرجل للأب لوت. كم غريب أن هذه البسمة كانت، باعثةً على الأسف جزئيّاً، مُنذِرة جزئيّاً. «[اللجنة الثورية] تعمل تحت قيادة تشين بي، أليس كذلك؟». قال الرجل برقة. «إنني أتصوّر أن تشين بي كان قد أبلغكَ بالعقوبة التي أُنزلتْ بهما».

«قلْ لي»، قال الأب لوت، وهو يتجاهل تلميح الرجل، «كيف اكتشفت المكتبة؟».

«رفيق وِين وزوجته كانا في الحقل كالعادة. كانت ابنتهما قد دخلتْ إلى الفتحة. كانت هي التي اكتشفتها. لا بدَّ أن الثلج الذائب قد أزاح المدخل». سكب بقية شايه في نبتةٍ موضوعة في أصص على الأرض، ومن ثم أعاد الكوب من دون صوت إلى سطح الطاولة. «كان المكان دافئاً هناك في الداخل. لا بل هو مريح أكثر، في الواقع، مقارنةً بالمكان الذي سكنوا فيه. كان أحد القرويين يجتاز الحقل، وشاهد أن الرفيقة تسهولي قد اختفتْ، كما لو أنّ الأرض ابتلعتها».

تفحصه زعيم القرية بصراحة. بادله الأب لوت النظر، من دون ندم. وراء أناقة الرجل المتكلّفة، ووراء عينيه المخفيتين، وأنفه الناعم، المتعرّق، كان تعبيره غير المضطرب مألوفاً. أمسى الصمت السائد بينهما عميق التفكير. أغمض الأب لوت عينيه ومن ثم تطلع إلى زعيم القرية ثانيةً. أحسّ كما لو أنّه خرج من المكتب وبعدها دخل من جديد عبر باب مختلف. «كنتُ أعرف أنك في [مقر القيادة العامة]. منذ العام 1946. أليس كذلك؟».

أشرق وجه الرجل بالسعادة.

استطرد الأب لوت قائلاً: «كانوا قد جنّدوك من أجل الأوركسترا. ربما كان ذلك في العام 1944، هل يحتمل ذلك؟». كان بوسعه أن يرى هاتين العينين الآن، ذلك الرأس الأصلع المشع وراء مزمار. كان

قائد الأوركسترا قد مضى إلى القرى كي يجنّد اليافعين، وصديقه، لِي ديلون، علّمهم كيف يعزفون الموسيقى. «هؤلاء الأولاد لم يسبقْ لهم قط أن رأوا آلة موسيقية في أحلامهم!»[1]. قال ديلون. حتى الطريقة التي يحمل فيها المجنّدون الجدد مزاميرهم وترومبيتاتهم كانت ظريفةً، كانوا يمشون معها كما لو أنّهم يمشون مع صديقة جديدة تماماً. «آه، آه، آه، آه»، قال الأب لوت، وهو يسعى إلى تفسير أفكاره.

«أولم يكنْ ذلك زمناً بارزاً؟». قال الرجل. «تعلّم العزف على المزمار في وسط الغزو الياباني، إصلاح أفكارنا وإقامة حفلات رقص ثنائية في قاعات الرقص ليلة كل يوم سبت. الزعماء الكبار يحبون أن يرقصوا الفالس. هذا الأمر أثار دهشتي».

«لا توجد مجموعة موسيقية هنا»، قال الأب لوت.

«لا، لا توجد هنا».

«أما زلتَ تملك مزماركَ؟».

صمت. تلعثم الرجل، غير متأكد مما إذا كانت المزحة على حسابه. «نعم»، أقرّ.

«واحد - اثنان العجوز» قال الأب لوت، وهو يتذكر فجأةً اسم الرجل. كانوا قد اشتركوا جميعاً في جلسات النقد الذاتي عينها، التي كانت في الواقع هجمات صريحة، كلّ منهم على الآخر. كان هذا الرجل صارماً إلّا أنّه لم يكنْ سادياً حاله حال بعض الأشخاص الآخرين. «كنا نطلق عليك لقب [واحد - اثنان]، لأنك لا تستطيع أن تحصي في داخل ذهنك».

قهقه الرجل. كان الصوت لا يمكن توقعه البتة، بحيث إنّ الأب لوت جفل وقرع بكوبه الفارغ. أنصف الرجل الأمر بسرعة. «أنتَ على حق.

---

1 - «هؤلاء الأولاد لم يسبقْ لهم قط أن رأوا آلةً موسيقية في أحلامهم!»: اقتباس من لِي ديلون، الذي جلب آلاتٍ موسيقية تمّ التبرع بها إلى المركز الشيوعي الرئيس في ينآن في 1946، وأصبح مؤسس، ومدرّس وقائد الأوركسترا. كما اقتبس من شيلا ميلفين وجيندونغ كاي في *«رابسودي بالأحمر»*: 176 - ك.

عازف الترومبون هو الذي وهبني ذلك الاسم»، قال. «الصق بي ذلك الاسم».

كان الأب لوت في منتهى العطش وحتى إنه كان يشعر أن عينيه جافتين. تراءتْ له صورة ما لهذه الحجرة ولكل حجرات الماضي التي عرفها، حاول أن يرى كيف أن جميع العتبات والمداخل تنسجم معاً، إنما ما من زاوية من الزوايا يمكن أن تتوقف عن الحركة. «أخبرني بطلباتك»، قال في خاتمة المطاف.

«صديقي، أنتَ تسيء فهمي».

«أودّ الحصول على رخصة لغرض زيارتهما. هل هما محتجزان في مكان قريب؟».

«رفيق»، قال الرجل، «هذا غير ممكن». طرفتْ عيناه بسرعة كما لو أنّ مشاعره قد جُرحتْ. «كانت قد صدرتْ بحقهما عقوبة الأعمال الشاقة في الشمال الغربي. في أثناء هذا الزمن، [اللجنة الثورية] ليس أمامها خيار سوى أن تهدّ كوخهما».

الرسالة إذن لم تبالغْ، فكر الأب لوت. كانا قد ذهبا.

هبَّ واحد – اثنان واقفاً من وراء طاولة الكتابة. «يلزمكَ أن تعرف كيف تجري الأمور. لقد اشتهرتَ بكفاءتك واستحقاقك. بطل حملة استصلاح الأراضي، جندي مشاة موسيقي منتصر. لقد صيّرنا أنفسنا أشداء في [مقر القيادة العامة]، أليس كذلك؟ كنا أول الذين قمنا بالإصلاح عبر النضال. كما يقول الرئيس ماو: التمرد الحقيقي ليس منظماً أو جميلاً. إن أبطالاً من مثلكم يبنون الطرقات. إنني فقط أسلك الدرب».

كيف يمكن أن تبدو كلمات إطراء كهذه كأنها سخرية؟ كان المكتب نظيفاً بنحو مروِّع.

«أتريد مزيداً من الشاي؟» سأل الرجل.

«لا. شكراً لك».

«هل يوجد شيء يمكنني أن أساعدكَ فيه؟».

وقف الأب لوت، ورفع نفسه حتى انتصب بكامل قامته. تنقّل زعيم القرية بنحوٍ غير مريح. «شكراً لك، رفيق»، قال الأب لوت. «كنتَ نافعاً جدّاً. إنني متيقن أنه ستكون لدينا فرصة أخرى كي نتحدث ثانيةً».

«الآن أنا أتذكر»، قال الرجل، مع أنّه بالطبع لم ينسَ قط. «كانت زوجة وكيلي قد قابلتْ زوجتكَ في الحافلة ومع أنّ الرحلة دامتْ يوماً واحداً لا غير، انعقدتْ بينهما علاقة متينة. منذ ذلك الحين، كانت قد حرصتْ على العناية بـ تسهولي. أتتْ بها إلى مكانٍ آمن».

شعر الأب لوت أن الجدران تتحرك ثانيةً.

«يتحتّم على المرء أن يحترس من الشمس»، قال الرجل، كما لو أنّه يحدّث نفسه. مدَّ يده، وجعل يسحب الخيط، وبدأت المروحة تعمل مجدداً. «يتعيَّن على المرء أن يتمرن في الظلِّ».

***

شقَّ البرد طريقه بشقّ الأنفس. وعلى الرغم من أن سويرل قد أفرغتْ حقيبة السفر خاصتها ولبستْ جميع قطع ثيابها التي كانت بحوزتها، لم يكنْ هناك من سبيلٍ للتغلّب عليه، الآن تحديداً عند الحنفية، كانت قد راقبتْ، مفتونةً، فيما كانت يداها تغطسان في الماء وأخفقتْ في التعبير عن أيّ إحساسٍ. بدا كما لو أنّ يديها تعودان لشخصٍ آخر. كانت قد انتزعتهما، خائفةً، بطريقةٍ خالية من الإحساس، بحيث إنّ أصابعها كادتْ تتمزق. لا شيءَ مما يحيط بها كان كما بدا عليه. الهواء، الأزرق القاتم، بدا كالورق.

تقاسمتْ سريراً طويلاً مفرداً مع قائدة مقاطعة، مع طبيبة، مع عالمة اقتصاد، ضابطة من ضباط الأمن العام، محامية ضرائب، مدرّسة، ومترجمة للأدب الروسي. هي، نفسها، كانتْ معروفة باعتبارها الزوجة. في الأسبوع الأول، كانت قد تعرّفتْ إليهن من خلال عادات نومهن؛ كيف كنَّ يتقلّبنَ في أفرشتهن، يصرخنَ ويشخرنَ، كم مرةً ينهضنَ خلال الليل، كم كن ملتصقات بقوة في أسرّتهن، أو ما إذا كن ينمنَ من دون

حراك كالأموات. هذا الصباح، قائدة المقاطعة، مقتنعةً بأنها لم تقترفْ جريمةً، كانت تفكر ملياً في موعد إطلاق سراحها. «ربما اليوم»، قالت. «خلال هذا الشهر، بالتأكيد».

«رفيقة! ألا ترين أن هذه الفكرة بحدّ ذاتها تجعلك مرشحةً مثالية لإعادة التربية؟» عالمة الاقتصاد، التي كان أمضتْ هنا أطول مدة، كانت مقتنعةً بأنه لن يغادر أيّ فرد على الإطلاق.

«أنا نفسي انتميتُ للحزب حين كنتُ في سن الحادية عشرة! من دون أشخاص من مثلي، ما كانت لتحصل [الثورة]».

«شش. أنتِ المرأة الوحيدة التي لا تزال تحسب نفسها ثوريةً».

النساء الأخريات ضحكن ضحكات نصف مكبوتة إلّا أنَّ قائدة المقاطعة لم تكترثْ. «لم أتوقعْ أن مجرمةً مثلك يمكن أن تفهم ذلك. الحزب هو أسرتي وأفضّل أن أموت على أن أخونه».

بعد التفقد[1]، سرن بهيئة أرتال كي يدخلن إلى «الكانتين»[2]. أقدام كثيرة جدّاً عملتْ عاصفةً من سحب الغبار؛ لوّنت الهواء، كست الأرضيات بقشرة وكانت شفاههن تتذوق طعم الملح في كل شيء تلامسه. سويرل والمترجمة كانتا تتناولان الطعام جنباً إلى جنب. كانت المترجمة تمضغ الطعام وهي تغمض عينيها بقوة، مُحدِثةً ضجة اعتراف بالجميل كما لو أنّها، في بالها، كانت تتلذذ بساق بطة ريان.

في الأمس، كانت سويرل قد سُلّمتْ باليد إشعاراً من «اللجنة الثورية» في بنغبي تفيد بأن تسهولي كانت قد سُجلت الآن كي تقيم في شنغهاي. كانت الأنباء ثقيلة الوطأة على سويرل بحيث إنّها، هي، التي لم تبكِ قط، أذهلت الجميع من خلال بكائها المستمر. لم تصلها أخبار عن وِين، بل مجرد شائعات تفيد بأنه في معسكر الرجال الذي لا يبعد كثيراً عن معسكر

1 - التفقد: المناداة على الأسماء لمعرفة المتغيبين. يُسمى هذا المصطلح في العراق، وبخاصة في الجيش: التعداد الصباحي - م.
2 - الكانتين: مطعم مؤقت أو متنقل - م.

النساء، لم يبقَ أحد على قيد الحياة. كانت الجثث قد تُركتْ في الصحراء، من دون دفن. لا تسمحْ سويرل لنفسها بأن تصدّق هذه الشائعات.

في الخارج، تحت سماء تحولتْ من اللون الأزرق إلى اللون الأبيض كالورق، كن قد انتظمن في طابور كي تغسلنَ طاساتهن. لون النقاء، فكرتْ سويرل. كان الناس في الأزمنة الغابرة يتخيلون الأبيض باعتباره لون الجنائز، لون الإنجاز، الفقدان والانتهاء والآن السماء البيضاء بدتْ مستعدةً لمحو الأرض. كانت ترفع عالياً سلةً ومجرفةً وانضمتْ إلى مجموعتها. ولأنها كانت تحاول على الأرجح، لم يكنْ بوسعها أن تفهم كيف استطاعتْ أن تمشي إلى حافة الجرف وتجد نفسها هنا. في موقع العمل، على مبعدة بضعة كيلومترات، كن يحفرن قنالاً. التربة، جافة وسهلة التآكل، كانت تتفتت عند أقل ضغط. عملتْ من دون أن تفكر بشيء معين؛ وعند حلول منتصف النهار، كان الرمل يلمع كقطعة نقد.

ليلةً بعد ليلة، كانت القصص تتوالى على السرير الطويل. كانت شهور عدة قد انصرمتْ إلى أن عرفتْ أخيراً الحكايات المعقدة لجميع النسوة اللواتي نامتْ إلى جوارهن، وعرفن، بالمثل، حكايتها. رتل من النساء، كن، واحدة إثر الأخرى، قد سقطن عبر شق في حلمٍ ما واستيقظن منه هنا. في عمرٍ سابق، كانت سويرل قد مضتْ إلى مكتب قطع التذاكر في شنغهاي، وهي تتأهب لشراء بطاقة الانتقال إلى هونغ كونغ، لكن إحدى الروايات صرفتها عن ذلك، رواية [كتاب السجلات التاريخية][1]. أحرجتها الآن الطريقة التي أشعلتْ فيها الشموع بشرود ذهن، وهي تحدق إلى كلماتٍ بدتْ كأنها تخفي أفكاراً، أو أفكاراً لا يمكن التعبير عنها بالكلمات، كيف أخذتها الجمل قُدُماً كنهرٍ أو كقطعةٍ موسيقية. ومع ذلك كم بدتْ قريبةً الحقيقة في ذلك الحين. كانت في الرابعة والعشرين وكانت قد وقعتْ في الغرام.

يوميّاً، كان الظلام يهبط بسرعة. الأسود هو لون السماء الشمالية

1 - كتاب السجلات التاريخية: Book of the Records – م.

ومن هنا السماء، لون المحيطات، ولون كل شيء عميق وضروري، وهكذا لا بدّ أن يحتوي الحياة التي كانت تسعى للوصول إليها. كانت يداها ترتعشان طوال الوقت. وهو يؤيد عقوبتها، رئيس «اللجنة الثورية» في بنغبي، كان ينظر إلى قيمتها بلامبالاة. كان قد ختم كلامه بالقول: «في أعماق قلبكِ أنتِ تعارضين [الحزب الشيوعي]». كانت سويرل قد نكرت التهمة الموجهة إليها، إنما لئن كانت غير صحيحة يومذاك، فمن المؤكد أنها باتتْ صحيحةً راهناً. قد تكون جريمتها بسيطةً بالقدر الذي يجعلها غير قادرة على التصديق. في الواقع، منذ سن الرابعة عشرة، وحتى الوقت الذي قابلتْ فيه وِين، لم تكنْ تؤمن تقريباً بأيّ شيء.

***

إن حياة السجين هي حياة ذات حراك لانهائي. كانوا ينقلونها من موقعٍ إلى موقعٍ آخر، ككيس من السلع. تحفر الخنادق، تطحن الدقيق، ترعى الخنازير، تزرع الخضار، وكانت الأوامر ترغمها بأن تصلح أفكارها، أن تحب الحزب، تجمع الحطب، تشجب الآخرين، تغسل الحبوب، تنشد الأغاني. قائدة المقاطعة، التي كانت متأكدة جدّاً من أنها سوف تُجنَّد مجدداً وتعود إلى المجتمع، انتحرتْ في خاتمة المطاف. عالمة الاقتصاد، التي كانت تصرّ بعناد بأن الكون كله نسيهن، كانت هي أول اللواتي أُطلقن سراحهن. النهار يعقب الليل، إلى أن ارتابتْ سويرل في الحزب نفسه الذي لم يعدْ يعرف مكان وجودها. لم تصلْ أيّ رسالة، وما من كلمة من وِين؛ تذكرت نفسها حينما كانت تجلس في الجايخانة، وهي تنتظر التعين الذي لن يأتي أبداً. أخبرتهن الطبيبة عن معسكرٍ لا يبعد كثيراً حيث كانت هناك امرأة، وكانت حبلى عندما صدرتْ بحقها العقوبة، وُلدتْ والصبي الصغير أصبح مبعثَ سعادةٍ لمهجع النساء، بدت القصة عصيةً على التصديق. كيف تستطيع أمٌّ وطفلها الرضيع أن يظلا على قيد الحياة في ظروفٍ كهذه؟ حلمتْ سويرل بـ بغ موذر وعلى مدى أيامٍ عدة، واستْ نفسها بعهد الصبا. في الحلم، كانت تجلس

بجوار ابنها المفقود، أبويها، وِين، تسهولي. كانوا يتحدثون عن كل شيء ومن ثم، حين انتهى الوقت، أعادوها إلى المهجع، أعادوها مجدداً إلى موقعها السابق كما يُعاد كتابٌ إلى موضعه القديم في الرف.

كانت صديقتها الوحيدة هي مترجمة الأدب الروسي، وكانت سويرل مغرمةً بها. كانت مستعدة لأن تهديها آخر فِن[1] في جيبها، وآخر قطعة خبز.

على السرير الطويل، كانت المترجمة أول مَن تبرّعن لسرد قصصهن:

«كان ذلك خلال [حملة المئة زهرة][2]. أخبرونا أن ننتقد الحزب، الجامعة، تنقد إحدانا الأخرى، حتى نوع وجبات طعامنا وأداء العمل في دورات المياه». انقلبتْ على جنبها وهكذا فعلتْ جميع النسوة، واحدة إثر الأخرى، مثل أمواج على الساحل. «لذا، أنا، البلهاء، مضيتُ قُدُماً وقلتُ إن طلبي هو أن يمنحوني رخصة للسفر إلى لينينغراد، الأمر الذي لم يوافقوا عليه أربع عشرة مرة، وأن طالبةً متفوقة من منزلتي عليها أن تنخرط مع أبناء وبنات جيلها. وفيما كنتُ أستمر في ذلك، سارع الجميع إلى اتخاذ موقف الاستعلاء والتكبر.

«السؤال الذي طرحته على نفسي لاحقاً»، قالت المترجمة، وهي تضع سبابتها برفق على أنفها: «هو كيف أنني درستُ دويستويفسكي بصورةٍ مركزة جدّاً ولم أكنْ أدرك أنني كنتُ أحفر قبري بيدي؟» إن كلمة «دويستويفسكي»، المكونة من ثماني إيديوغرامات مختلفة، جعلتهن كلهن يتمتمن بإعجاب. «كانت أمي العجوز تظن أنني عُينتُ في جامعةٍ ما في

---

1 – الـ فِن fen: عملة صينية – م.

2 – حملة المئة زهرة: The Hundred Flowers Campaign: حقبة زمنية خلال العام 1956 في جمهورية الصين الشعبية؛ خلالها شجّع الحزب الشيوعي الصيني مواطنيه على التعبير بصراحة عن آرائهم بالنظام الشيوعي. شُجعتْ رؤى وحلولٌ متباينة تتعلق بالسياسة القومية استناداً إلى مقولة ماو، زعيم الحزب الشيوعي الصيني ماو تسي تونغ: إن سياسة السماح بتفتح مئة زهرة وتنافس مئة مدرسة فكرية تهدف (أي السياسة) إلى دعم ازدهار الفنون وتقدّم العلوم. تُسمى أيضاً: حركة المئة زهرة: The Hundred Flowers Movement – م.

هَربين. كانت ستعمل من أجل باب السماء لو قُيِّض لها أن تعرف الحقيقة». كانت المترجمة قد ضغطتْ بيدها على السرير، كما لو أنّها تطرد شبحاً.

«علينا ألّا نفقد الأمل! الرئيس ماو رجل صالح. إنه يعرف أيَّ طرازٍ من البشر نحن وسوف ينقذنا». ضغطت المترجمة بإحدى يديها على فؤادها كأنها تحميه من أن ينكسر. تردد صدى تأييد من امرأة إلى امرأة. «كيف يمكن أن تكون الأمور بخلاف ذلك؟».

***

أتى زمنٌ لم يكنْ فيه أيّ طعام. كانت تلك أشهر اليأس. حتى العمل الشاق توقف. وافقت مديرة المعسكر على أن طاقة المرء من الأفضل أن تُصرف على البحث عن الأعشاب أو الجذور البرية. كانت المجاعة قد دمرت المحافظة؛ أن تعطي حبة دخن واحدة إلى مُدانين ستكون جريمةً مضادة للثورة. سويرل كان لديها الشعور بصفحات ترفرف أمام عينيها. كانت المترجمة هي التي تهويها. كان لديها الإحساس بأنها تتدحرج في رواق. كانت تلك هي المترجمة وهي تدلّك ذراعيها وساقيها. حلمتْ أنها تأكل ساق بطة لذيذة. كانت تلك هي المترجمة، التي سرقتْ حفنةً من الفاصوليا من مطبخ مديرة المعسكر، طهتها بنحو غير مشروع وأطعمتها لها. أصغتْ مثل شخص يقرأ بصوتٍ عالٍ من [كتاب السجلات التاريخية]. لم يكنْ ذلك شيئاً واقعياً. كانت تلك هي المترجمة وهي تقبض على يدها. مرتبكة، مشوشة الذهن، سألتْ سويرل قائلةً: «مَن سيأتي لإنقاذنا؟».

أجابت المترجمة ببسمة طفيفة: «لا أحد. هكذا سيكون الحال».

في نهاية المجاعة، بقيتْ منهن ثلاث فقط في سريرهن الطويل: المترجمة، محامية الضرائب وسويرل. كن ينمن مكورات سويةً طلباً للدفء. أما البقية - الطبيبة، ضابطة الأمن العام، المعلمة وقائدة المقاطعة - فقد مضين، كما يقول المثل السائر، إلى السماء البيضاء الصافية، إلى السماء الغربية.

***

في العام 1963 كان قد أُخلي سبيل محامية الضرائب وسويرل والمترجمة نُقلتا إلى معسكر يُسمى «الحقل 835». لأول مرة، كان يُسمح لهما أن يتلقين المواد البريدية. كانت سويرل قد تلقتْ مظروفين من الرسائل - من بغ موذر والأسرة، ومن تسهولي - علبتان سميكتان جداً بحيث شغلتا نصف سعة بساط نومها. كانت تستمتع بإحداهما كل يوم، كما لو أنّ كل رسالة منهما هي طاس من الرز. المترجمة، الوحيدة في عالمها، لم تتلقَّ شيئاً قط.

في يومٍ من الأيام، كانتا تهيئان سترة المترجمة للشتاء، تخيطان طبقات حشوة القطن مع البطانة. كانت المترجمة جالسةً وعيناها مغمضتان. كان لديها قطعة قماش لغسل الوجه والجسد تستقر على قدميها بدلاً من فردتي الحذاء.

ناداهما صوتٌ.

رفعتْ سويرل عينيها فأبصرتْ أحد الحراس بجانب رجل، وهو زائر من عالمٍ غريب. الغريب، وهو رجل من مدينةٍ ما، كان يلبس بنطلوناً فضفاضاً أزرق وسترة زرقاء مكسوَّةً بالغبار. كلما طال نظرها إليه، بدا أشبه بلافتة في الطريق، لافتة محجوبة وبعيدة ومن العسير قراءتها. كان رجلاً طويل القامة ونحيفاً، وسيماً، قد يكون في مطلع عشرينياته.

«خالة سويرل».

جفلتْ. نظر الحارس إلى فضولها. قال شيئاً ما للشاب، وبعدها التفت ومضى في حال سبيله، تاركاً الشاب وحيداً.

«إنك تعرفينني، أليس كذلك، خالة سويرل؟».

لم يخرج الصوت من حنجرتها. حاولتْ ثانيةً، لكن الكلمات خرجتْ بنحوٍ غريب. «سبارو الصغير».

فتحت المترجمة عينيها. «جنتلمان وسيم، كي يطمئن قلبك. لكن رفيقة سويرل، هذا الطائر ليس صغيراً جداً».

كان يقف أمامهما الآن. وفيما كانت سويرل تطرح السترة جانباً والحشوة، وقفتْ على قدميها. كان يتحتَّم عليها أن تمسك بكتف المترجمة كي تستند عليها.

«سبارو» قالت. «كم هو غريب أن أراكَ. هذا...». هزّتْ رأسها كي تصحيه. «هذه صديقتي، الليدي دويستويفسكي».

«سرّني التعرّف إليكِ، رفيقة!» قال سبارو.

«أهي فعلياً كذلك! طيب، اقتربْ منا ودعنا ننظر إليك...».

كانت سويرل تريد أن تطمئنه إنما لم تسعفها كل الكلمات التي كانت متاحةً لها. كانت كلها هزيلةً جدّاً، وهميةً جداً.

كانت قبة الهواء العالية قد ابتلعتْ أصواتهم. «كيف وصلتَ إلى هنا؟ أقرب طريق يؤدي إلى هنا يبعد أميالاً عدة».

«أتيتُ بالقطار أو بالحافلة. بعد لانتسهو، نقلتني عربة يجرها حمار. على مدى اليومين الماضيين، لم نرَ أحداً».

الغلام، لكنه لم يعدْ غلاماً، بدا متأثراً. هي، سويرل، عرفتْ ذلك على حين غرة. لا بدَّ أنه لم يستطعْ تمييزها قط، وكان مظهرها قد أزعجه. شعرتْ بالخجل مع أنّها كانت تعرف أن ذلك لا علاقة له بالخجل، إنه فقط الزمن والظروف، وعجزها عن تغييرهما. كانت متأثرةً لأنه استخف بالرحلة الطويلة من شنغهاي، خمسة أيام كاملة من السفر في الأقل.

بدأ سبارو يفتح كارتونات السجائر، البسكويت، الرز، السمك المجفف، الملح، الخضار المحفوظة، وعلبةً إثر علبة من حلوى السرغوم.

كانت الوفرة مثيرة للأعصاب، أطلقت المترجمة لعنة رقيقة. مالتْ إلى الجانب. «هذا إذن ابن أختكِ، إيه؟ المؤلف الموسيقي الذي شاء القدر أن يجعل منه بيتهوفن [نهر هوانغبو]؟ هل أنتِ متيقنة من أن هذا هو ما يفعله؟».

ربما انطلاقاً من الحرج أو الرعب، حاول سبارو أن يطوّقهما بالكلمات. قال إن الجميع بخير، وإن تسهولي كانت تنمو بقوة. قال إنه يكتب الموسيقى، إن سيمفونيته رقم 2 كان قد استلهمها من رحلتهم عبر الصين إبان سنوات الحرب، من محال الشاي العمومية «الجايخانات» والموسيقيين العميان... كان يفكر في نوع الشروق، أي بمعنى، كيف يمحو نور النهار النجوم والكواكب، ويجعلها غير مرئية لعيون البشر. إذا كان المرء يحتاج إلى العتمة كي يرى السماء، ربما يكون نور النهار شكلاً من أشكال العمى؟ هل يحتمل أن الصوت هو أيضاً شكل من أشكال الصمم؟ إن كان الأمر كذلك، فما هو الصمت؟

كانت عيناه مغرورقتين بالدمع، ربما بسبب جفاف السهل الواسع المرتفع. تطلعتْ هي والمترجمة إليه كما لو كانتا تتطلعان إلى شبح. ويا لدهشتهما، كان قد سحب كتاباً من حقيبته، *«المطر على جبل با»*، وهو رواية كلاسيكية.

«طلبتْ مني تسهولي أن أعطيكِ هذا، إنه كتابها المفضل».

تناولته سويرل بين يديها، وهي مرتبكة. «إنما كيف تمكنتْ تسهولي من قراءته؟».

«إنها في الحادية عشرة الآن»، قال سبارو، كما لو أنّه هو، بدوره، مرتبك. بعد أن أفرغ حقيبة الظهر وعلّقها من دون فائدة بيده، بدا محروماً وبائساً. كان يريد أن يستمر في إخراج الأشياء، فكرت، كما لو أنّ بمستطاعه أن يملأ الصحراء بالزهور.

أشعلت المترجمة السجائر لهم: لها، ولـ سويرل، ولـ سبارو، وعلى مدى وقت طويل ظلوا جالسين ببساطة في صمت مستغرقين في التأمل، يدخنون. حاولتْ سويرل أن ترى السماء والمهاجع ومكتب المعسكر عبر عينيْ سبارو، إنما كل ما استطاعتْ أن تفعله هو النظر إليه، كما لو في حلم، وأن تتابع الدخان الذي كان يتكوّر خارجاً من بين أصابعه.

«أمي تتوسل كي تُسقط الإدانة بحقك»، قال. «ملأت استمارة

الترخيص بزيارتك ويجب أن تكون قادرةً على المجيء في غضون شهر. يقول الأب لوت إنه يتعيَّن عليكِ ألّا تعودي إلى بنغبي، سوف تقيمين معنا في شنغهاي. تسهولي عازفة كمان موهوبة جدّاً، إنها لا تكفّ عن التمرّن على العزف، [المعهد العالي للموسيقى] سيبذل كل ما بوسعه من أجل الحفاظ عليها».

«لكن سبارو...».

«أبواي لا زالا يبحثان عن زوج خالتي وِين. أشعر باليقين بأننا سوف نحصل حالاً على أنباء طيبة عنه».

«سبارو»، قالت سويرل، وهي تأخذ يده لأول مرة. ثبتَتْ صوتها. «عليك أن تخبر بغ موذر أنه، حين وجدتني، همي الوحيد هو اشتياقي لأسرتي، لزوجي، لابنتي. لا شيءَ عدا ذلك. ليس لديَّ معاناة. عليك أن تشكرهم على ما يبذلونه من أجلي. يلزمكَ أن تخبر تسهولي أن حياتي على ما يرام، الحزب يعيد تربيتي وسوف أنجح في تصحيح أخطائي. تأكدْ من كونها تفكر في مستقبلها حصراً. يجب ألّا تتعرّض للمشاكل».

«بالطبع، خالة».

بغتةً تذكر سبارو شيئاً في جيبه. أخرج صورةً فوتوغرافية لـ تسهولي مع آلة الكمان، وأعطاها لها. لم ترَ وجه ابنتها منذ ما يزيد على أربعة أعوام. تفرستْ في الصورة، كما لو أنّها تتفرس في عالم مجهول.

«ما هي القصيدة المشهورة؟» سألت المترجمة. «*شاء القدر أن أصل في دوامة غبار / وأن أرتفع بنحوٍ لا يرحم مثل سديمٍ فوق النهر*. تبدو ابنتكِ شبيهةً بكِ. عزيزتي سويرل، للطفلة وجهكِ».

لماذا أبكي، فكرتْ، وهي ترتجف. يتعيَّن عليَّ أن أمتلئ ابتهاجاً. بدتْ لها ابنتها كأنها ضاعتْ إلى الأبد، ومع ذلك هي الآن، قريبةً جدّاً وفي متناول اليد. لعل زوجها موجود مثلها، لا يزالان متهمين بكونهما خائنين وخصمين، ومع ذلك فإن مصيريهما انصهرا معاً منذ وقتٍ طويل جدّاً.

في عصر ذلك اليوم، في مكتب المعسكر، انتظرتْ سويرل في المدخل، محتميةً من الشمس الحارقة، مع سبارو. كانت شاحنة النفط قد وصلتْ، ابن أختها صعد إلى ظهر الشاحنة وكما لو أنّ الأمر كان سهلاً على الدوام، غادر «الحقل 835». كان قد قبض بقوة على أحد براميل النفط، وجعل ينظر إلى الوراء وهو يرى أن المسافة الفاصلة بينهما كانت تزداد شيئاً فشيئاً، وكانت تعرف أن ثمة شيئاً ما كان يرغب بالإفصاح عنه لكنه لم يقدرْ. حاولتْ أن تتصور رحيله: مكتب المعسكر يصغر حجمه، ومن ثم المباني الأخرى التي يصل إليها ومن ثم تختفي هي الأخرى، إلى أن يصل سبارو إلى خط سكة الحديد، القطارات التي لا نهاية لها والوجوه في النوافذ. نور النهار تمتصه الأرض. كانت تعرف أنه، في يوم قريبٍ جدّاً، من دون سابق إنذار، الإدانة بحقها سوف تُسقَط. وعلى غرار آلافِ الأشخاص الأحياء المناوئين للثورة، سوف تُبلَّغ، بعد سنوات من العمل الشاق والمُضني في السجن، أنها لم تعدْ مجرمة. هل ستنتحب؟ هل ستشعر بالغبطة؟ يتعيَّن عليها أن تشعر بالامتنان لفرصة العودة إلى الحياة. ومع ذلك حين تخيلتْ سويرل شنغهاي، ساورها الخوف من أنه يبدو أن الصحراء والسماء الواسعتين المفتوحتين هما وحدهما اللتان تعرفانها، وأن كلاًّ منهما سوف تصبح حادةً وتتوسع أبداً.

-5-

طوال عصر ذلك اليوم، بعد أن ذهبتْ أبي - مينغ وأمي في السيارة، جلستُ قرب النافذة، أطالع نسخة أمي من «*ديفيد كوبرفيلد*»[1]. كنتُ أعود مراراً وتكراراً إلى السطور الاستهلالية للرواية: «ما إذا يتبين لاحقاً أنني بطل حياتي، أو أن يتبوأ أيّ فردٍ آخر هذا المركز الاجتماعي، هذه الصفحات يجب أن تُظهر هذا الأمر».

في نحو السابعة مساءً، رجعتْ أمي أخيراً إلى البيت. شاهدتها وهي تسير عبر الفناء الداخلي وترتقي درجات السلم، تتحرك بتؤدة كما لو أنّ السلالم أمستْ أكثر حدةً بنحوٍ غير مرئي. سترتها الخضراء، الخفيفة مثل ورقة نبات صيفية، كانت مألوفةً جدّاً بالنسبة لي، كانت بحوزتها قبل ولادتي. شاهدتها وهي تصعد عبر بيت السلّم، كما لو أنها تفعل ذلك عكس جريان الزمن. وآنَ رأتني عبر الزجاج، ابتسمتْ وشرعتْ تتحرك أسرع. كانت تحمل طرداً بريديّاً بين يديها، وهو صندوق مخبز صغير، أبيض.

هرعتُ إلى الباب وفتحته، وسحبتُ أمي إلى الداخل.

كنتُ أعددتُ وجبة طعام من الرز، الخيار القثاء والبيض المسلوق سلقاً تامّاً؛ فيما كنا نأكل، ملأت أمي الصمت بأن وصفتْ، بالتفصيل، كيف تفتّح النهار. كان حارس الحدود، قد لوّح لهما، وهو يتثاءب. في ضواحي

---

1 - ديفيد كوبرفيلد David Copperfield: رواية شهيرة للكاتب البريطاني تشارلز ديكنز. صدرتْ ككتاب أول مرة في العام 1950، بعد أن نشرها بهيئة حلقات في عاميْ 1949 و1950 - م.

سياتل، كانتا قد واجهتا حركة المرور الصباحية. كانتا قد توقفتا كي تتناولا الهمبورغر. اشترتْ أي - مينغ كعكتي الإسفنجية[1] المفضلة وأرسلتها إليّ مع أمي في صندوق المخبز الأبيض. انتظرتْ أمي ريثما ركبتْ أي - مينغ الـ «غريهاوند»، وراقبت الباص وهو ينسحب ويتوارى عن الأنظار.

بعد العشاء، اتصلتْ أمي هاتفياً بـ شنغهاي، إذ تحدثتْ ما يزيد على الساعة مع أمّ أي - مينغ. جلستُ بجوارها على الكنبة، قريبةً منها بنحوٍ كافٍ بحيث إنّ صوتها كان يغطيني.

في الفراش، في تلك الليلة، ركزتُ بكل ما أُتيتُ من قوة، يحدوني الأمل أن يكون باستطاعتي سماع صوت أبي لو أنّني فقط أرهفتُ السمع بنحوٍ أقوى بما يكفي. الضوء والظلّ تسلّلا عبر السقف، تارةً يأتي وطوراً يذهب، وبينما كنتُ أفكر في الأسباب التي جعلتْ أبي يغادر هذا العالم، غمرني الحزن. ومع أنّ صوت الريح كان يُسمع على النوافذ، وفي الغرفة المتاخمة، لا زالتْ أمي تتنفس وتتغير وتحلم. كنتُ أروم الذهاب إليها، كنتُ أريد العثور على طريقةٍ ما لحمايتها. تركتْ لي أي - مينغ رسالةً التقطتها على الفور مجدداً:

> «كنا قد أخبرنا، كلُّ واحدةٍ منا الأخرى، سرّاً، في عالم منتصف الليل الهادئ / أننا كنا نرغب بالتحليق صوب السماء، طائرين طرفا جناحيهما ملتصقان / وأن يكبرا معاً على الأرض، غصنين من شجرةٍ واحدة. / الأرض تبقى، السماء تبقى، مع أنّ كلتيهما سوف تنتهيان».[2]

كانت أي - مينغ هي صلة الوصل بيننا، بين أبي وأبيها، بيني وبين أمي. إلى أن عرفنا أنها في مأمن، كيف كان باستطاعتنا أن نجعلها تمضي بعيداً؟ في تلك الآونة، فكرتُ أنه ما كان يلزمني أن أدعها وشأنها.

---

1 - الكعكة الإسفنجية: كعكة محلاة رقيقة ذات مسام - م.

2 - «كنا قد أخبرنا، كل واحدة منا الأخرى، سرّاً، في منتصف الليل الهادئ...»: اقتباس محوّر من باي جيبي: «أغنية الحزن الأبدي» في ويتر بينر: «*جبل اليشب*»: 120 - ك.

«في خريف العام 1965»، قلتُ للنوافذ، للمغرفة، لصورة أبي الفوتوغرافية الموضوعة على طاولة الكتابة، في الليلة التي سبقتْ عيد ميلاد سبارو الرابع والعشرين، وصل ليلاً شابٌ، يرتدي معطفاً فضفاضاً جدّاً، كبير المقاس مقارنةً ببدنه الهزيل.

***

الأسرة - الأب لوت، بغ موذر والغلامان، تسهولي وسويرل (التي أُطلق سراحها منذ عهد قريب، بعد أيام من إطلاق سراح صديقتها، المترجمة) - ناموا بسرعة، إلّا أنَّ سبارو كان لا يزال يكتب. في الخارج، ظهر طيفٌ في الزقاق. بينما كان سبارو يعمل على سيمفونيته رقم 3، كان بمستطاعه أن يسمع صرير خطواتهم، وهم يجيئون ويذهبون، يدورون ويعودون. كانت الجلبة قد زحفتْ إلى موسيقاه: مزمار[1] منخفض الصوت تضارب مع خط الجهير bass، تارةً يأتي وطوراً يذهب.

منزعجاً، وضع سبارو قلمه الرصاص جانباً. رفع المصباح، نزل درجات السلم وخرج إلى ساحة الدار، وراح يصيخ السمع؛ لا يوجد صوت على الإطلاق. فتح الباب الخلفي بقوة.

صرخ الغريب، وجعل الاثنين يسقطان جانباً.

مُحرجاً، هزَّ سبارو المصباح. «تكلّم، رفيق!» قال، بصوتٍ أجش بأقصى ما يستطيع. «كيف يمكنني أن أُسدي لك العون؟».

في أول الأمر، وحدها الريح ردتْ على سؤاله. ومن ثم قال الغريب، صوته ليس أعلى من تنهيدة: «إنني أبحث عن الشاب سبارو».

كان نحيلاً جدّاً، قصيراً جدّاً ومن المؤكد لا أحد يخشاه، لكن مع ذلك ارتجف المصباح في يد سبارو. «الشاب سبارو؟ ماذا تريد منه؟».

في يد الغريب، ظهر مظروف مجعد. حتى في الضوء الشحيح، عرف سبارو الخط للتوّ. كان ذلك الخط نفسه بالضبط الذي دأب على النظر إليه

---

1 - في النص: bassoon: وهو مزمار ذو أنبوبة خشبية مزدوجة وفم معدني ملتوٍ - م.

على الدوام منذ عهد مراهقته: خط مُتقن فضلاً عن كونه مليئاً بالحماسة، وهو يحكي قصة دا - وِي وميّ فورث. ارتجف الغريب ببؤس وأعاد يده بحركة سريعة. كان متوتر الأعصاب، إنما لم يكنْ يتصرف بطريقة جاسوس أو سجّان معتدّ بنفسه، ومنتفض. الشاب، بالأحرى، بدا مفزوعاً من عرض الزقاق.

«أنا هو. أي، أنا سبارو. ماذا تريد، رفيق؟».

هزّ الغريب رأسه.

«هل هذه الرسالة لي؟».

«لدي ما يمكنكَ أن تسميه... أخبار».

«بسرعة، تعال ادخلْ». هزَّ الغريب رأسه. تعيَّن على سبارو أن يمنع نفسه من أن يسحبه جسديّاً إلى داخل المنزل. «أنتَ لم تأكل بعد، صحيح؟ تعال. لن يؤذيك أحد».

نظر الشاب إلى ما وراء سبارو. لم تكن الظلال لطيفةً معه؛ كل شيء فيه كان هزيلاً ومسحوقاً. «لن أدخل»، قال برقة، كما لو أنّه ينصح نفسه. «كلا، كلا. لن أدخل! على الإطلاق، يقيناً لن أفعل».

مدَّ سبارو يده إلى جيبه. في الليلة الفائتة موظفٌ في «المفوضية المركزية للتفتيش عن التهذيب» دفع له عشرين يواناً عن إعطاء دروس خصوصية - كانت الموظف يريد أن يتعلّم «سوناتا ضوء القمر» لـبيتهوفن - وكانت الفواتير الكبيرة لا زالتْ بذمته. «رفيق، إن لم يكن باستطاعتك البقاء معي وتشاركني تناول الطعام، من فضلك تقبّل مني هذه الهدية الصغيرة، غير المهمة». كان يريد أن يخرج ورقة نقدية واحدة، لكن الأوراق النقدية الأربع خرجتْ مرةً واحدة.

طرفتْ عينا الشاب، مذهولاً.

تلعثم سبارو. عقب ذلك، بصرامة، كما يحتمل أن يفعل الأب، تناول الرسالة من يدي الغريب ووضع النقود هناك عوضاً عن الرسالة. الآن

وهو يغادره، شعر سبارو بغصة تشوش وندم؛ لم يعدْ في جيبه فِن واحد. وعلى الرغم من ذلك، بقي ينظر إلى عيني الشاب الذي كان يتطلع إليه. «إما أن تقبل بأخذ النقود أو تدخل إلى المنزل».

فتح الغريب يده وتفرّس في الأوراق المالية العجيبة. «لن آخذ شيئاً من أسرة الأخ وِين»، قال بهمس. «لكن ظروفي... حسناً، إنه شيء واضح، أليس كذلك؟». تطلّع إلى سبارو مباشرةً، وكان من الجلي أن الغريب لم يتجاوز سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة. هو مجرد غلام.

ومن ثم الغلام، عوزه ونقود سبارو اختفوا في الزقاق. لولا المظروف في يديْ سبارو، بدا كما لو أنّ الغلام لم يحضرْ.

أغلق الباب وانقلب على عقبيه عبر الفناء الداخلي. في الطابق العلوي، من الشرفة، تطلع إلى الجهة التي ركض فيها الصبي. بدأ الفجر يجرح السماء جرحاً خفيفاً، وكان طابور المؤن في «طريق بكين» قد بدأ ينتظم، ويغدو أطول لحظةً بعد أخرى، لكن الصبي كان قد مضى زمن طويل على مغادرته.

لم يكن المظروف معنوناً إلى أبويه، ولا إلى الخالة سويرل أو تسهولي، بل إلى «الشاب سبارو». جلس مقرفصاً مع المصباح، فتح المظروف، استل الورقة الوحيدة في داخله وشرع يقرأ.

***

في الفجر، خرجتْ تسهولي إلى الشرفة. نادت السيدة «ما» التي كانت في الأسفل تنتظر دورها عند حنفية الماء العمومية، تمنَّتْ لها صباحاً سعيداً، ابتسمتْ لـ سبارو، أخذت كوب شايه الفارغ ورجعتْ معه وهو ممتلئ وينبعث منه البخار. جلستْ على كرسي مكسور وقالت: «رسالة غرامية».

نخر سبارو.

«ابن خالتي العزيز»، همستْ، «عيد ميلاد سعيد! عسى أن يكون هذا

العام هو العام الذي تُعزف فيه سيمفونيتك رقم 3 في قاعة الحفلات الموسيقية أمام الرئيس ماو نفسه ورئيس وزرائنا المخلص تسهاو إينلي! أمام العميد[1] هِي لوتنغ وكافة الموسيقيين العظام في [المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي]! عسى أن تكون باقات الورد الملقاة عند قدميك فوّاحةً وكثيرةً، وعسى أن يكون العازف المنفرد لـ كونشيرتو البيانو المقبل العائد لك غلاماً أنيقاً موثوقاً من تشانغشا -».

«تسهولي، إن لم تسرعي، ذلك الغلام من تشانغشا سوف يحجز أفضل غرفة للتمرّن. عليكِ أن تعزفي على كمانكِ في الشارع».

«إنكَ محقّ! جيانغ كاي يتدّرب أكثر من أيّ شخص في [المعهد العالي للموسيقى]. ما عداي. لكنكَ تعرف»، قالت، نبرة صوتها تنخفض أكثر: «البيانو في الغرفة 103 هو بيانو عتيق *جدّاً* وكل عازفي البيانو يتحاشونه. بالنسبة لعازف الكمان، ثمة فضاء كبير جدّاً وهو من الناحية العملية عبارة عن فيللا». دفعته في ركبته. «لكن، حقيقةً، ممَّن هذه الرسالة؟».

قلب المظروف قبل أن تميّز خط أبيها. «رئيس الوزراء تسهاو إينلي، دعاني للعزف في قاعة استقباله الفخمة حيث -».

«المظروف غير مزخرف».

«هِر باخ يطلب مني أن -».

«المظروف حديث جدّاً».

«جدة الحي السكني، تسأل لماذا أؤلف للبيانو التالف بدلاً من الـ غوكِن الرائع».

أومأتْ برأسها. «أنا أفهم. ابن خالتي»، قالت، بعد لحظة، «صباح هذا اليوم وجدتُ كيساً من البازلاء المجففة كان مفقوداً. كانت البازلاء في كُم سترة أمي».

«ماذا فعلتِ؟».

---

1 - العميد: والمقصود هنا: عميد المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي. استخدمت الكاتبة كلمة president التي تعني رئيس المعهد؛ لكننا آثرنا استخدام كلمة: عميد - م.

«تركتُ الكيس هناك! إنها تعتقد أنها لصة حاذقة جدّاً!».

«إنها لصة ممتازة، فقط لا يوجد مكان تخبّئ فيه الشيء المسروق».

«في أحد الأيام»، استطردتْ تسهولي، «حاولتُ أن أرمي جورباً فيه ثمانية ثقوب إلّا أنّ أمي التقطته من الزبالة، غسلته ووضعته من جديد في جراري. هذا الأمر يشبه لبس شبكة صيد السمك. كنتُ أرتقها طوال الأعوام الثلاثة المنصرمة! كانت تمضي إلى النفاية كي تبحث عن الأشياء، كانت في الحقيقة... البارحة، لفت اللحاف مرتين حول نفسها، مع أنّ الطقس كان حارّاً إلى درجة الغليان. ومن ثم طلبتْ مني أن أنام قريبةً جدّاً منها وأن أبعد التيار الهوائي. حاولتُ أن أفعل ما طلبته مني، لم يكنْ هنالك تيار هوائي! وعلى الرغم من ذلك ظلتْ تهتز وترتجف!».

كانت ابنة خالته كائناً مغتبطاً وصريحاً، بدتْ كأنها لا صلةَ لها بأيّ واحد منهم. «الخالة سويرل مضتْ حتى نهاية العالم ورجعتْ. أعطها وقتاً».

«الكلام عن الوقت!» قفزتْ من مكانها، وأمسكتْ بصندوق الكمان. «سآتي إلى مكتبكَ ظهراً! دعني أضيّفكَ على الغداء لمناسبة عيد ميلادك».

أبعد سبارو المظروف بسرعة بحيث إنّه كاد يجلس عليه. «ابنة خالتي، فيما يتعلق بـ رافل[1]. إن تقنيتك ممتازة بالطبع، إنما يوم أمس بدا [جمع النغمات في مقاطع] بالنسبة لي قارصاً، بخاصة النغمة المعزوفة بطريقة نقر الأوتار بالإصبع. إنها مسألة العثور على الشيء البسيط في الشيء المعقد بدلاً من العثور على المعقد في المعقد، هل فهمتِ ما قصدتُه؟ اعملي على عزف الكمان اليوم، هل ستفعلين؟».

«سبارو المُجد خاصتي، ماذا عساي أفعل من دونك؟ تعال إلى الغرفة 103 في وقت الغداء، وسأجعل رافل نفسه فخوراً».

***

---

1 – رافل Ravel: جوزيف موريس (1875 – 1937): مؤلف موسيقي، عازف بيانو وقائد فرقة موسيقية، فرنسي الجنسية. إبان عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، عُدَّ رافل، على المستوى العالمي، واحداً من أعظم المؤلفين الموسيقيين الفرنسيين الأحياء – م.

وحيداً، مرةً أخرى، التقط سبارو المظروف مجدداً. كان ذلك صحيحاً، لا يوجد مكان يُخبأ فيه أيّ شيء في هذا المنزل، أو حتى هذا الحي السكني، حتى ولو كيس بازلاء أو فكرة آثمة. أعاد قراءة رسالة وِين الحالم، ومن ثم تناول علبة عيدان الثقاب من رف النافذة، وضع الرسالة على منفضة السجائر وأشعل النار. أصبحتْ كتابة وِين مشوهةً ومدورةً، طويلة ورفيعة، إلى أن كانت كل جملة من الجمل سواء: لا شيء سوى البقية. لكن سبارو تذكر كل كلمة كما لو أنّ الرسالة الموجزة كانت قصيدة أو partita باخ[1]. كان بوسعه أن يقف ويلقيها الآن، كلمةً بكلمةٍ، لحناً بلحن.

***

طوال الصباح، طفت الكلمات عبر ذهن سبارو ولم تشأ أن تغادره، حتى حين أسقط الدب الطائر فطوره على الأرض وسار دا شان حافي القدمين على كِسَر الخزف الصيني. استمرت الرسالة حتى حين أزال سبارو الدم، الخزف والفطور من على قدم دا شان.

«هل يلزمنا الذهاب إلى العيادة الطبية؟ ربما أحتاج إلى خياطة الجرح بعدة غرزات؟».

«لا أعتقد هذا. المُطّهر وحده يكفي».

«بالطبع». كان صوته ترومبون مُحبَط.

في غضون ذلك، نظفتْ سويرل الأرض، أحضر الأب لوت طاساً آخر من الطعام، وأمه نادتْ الجميع، وتظاهر الدب الطائر بأنه يطعن شقيقه بحربة في ظهره.

ظلت الرسالة راسخةً في ذهن سبارو وجلبتْ دموعاً غير متوقعة إلى عينيه.

---

1 - Partita: قطعة موسيقية تُعزف على آلة موسيقية واحدة. استخدمها لمجموعة من القطع الموسيقية كمصطلح مرادف للحن أوركستري راقص مؤلف من ثلاثة أجزاء أو أكثر - م.

مال دا شان إلى الأمام، مسح دموعه بأصابعه الرقيقة ولم ينبسْ ببنت شفة.

صديقي العزيز، إنني أثق بأن رسالتي هذه ستصلك وأنتَ بأفضل حال وأن تتذكرني، صديقك الحالم الذي يُعزكَ كما لو أنّكَ ابنه هو. اليوم أنا لا في الشرق ولا في الغرب. ذات يوم، سأخبركَ بكل الأهواء، بمسلسلات المغامرات واستطرادات القصة. إنما، باختصار: لقد هربتُ من معسكر هـ- ومضيتُ لأختبئ. لا يمكنني أن أصف لك الظروف، أيها الطائر الصغير. يقع المعسكر في أطراف الدنيا، حقيقةً. أنا لستُ مناوئاً للثورة وحتى أولئك المنفيين معي ليسوا كذلك. في قلبي، أعتقد أن عصرنا وقادتنا، ذات يوم، سوف يُحاسبون على جرائمهم. خلال الشهر الأول، كنتُ أبحث عن منزل آمن. في الأسبوع الماضي، قادني القدر إلى شنغهاي ورأيتُ أفراد أسرتي. لم يروني ولم أبالِ بأن أجعلهم يعرفونني. طوقت السلطات المكان فغادرتُ المدينة متجهاً صوب محافظة ج -. أيها الطائر الصغير، أرجوك، ابذلْ كل ما بوسعكَ كي تمنع أفراد أسرتي من البحث عني. يتحتم عليَّ أن أختم رسالتي هذه. كتاب كامل لا يتحمل ما أودّ قوله الآن.

صديقك،

الرفيق «باخ».

ملاحظة أخيرة: عثرتُ على فصل آخر من كتابنا، [كتاب السجلات التاريخية]. أصبح الفصل في متناول يدي في مكانٍ لا يخطر على البال قط، بعد أن نقلوني من جيّ -

ملاحظة أخيرة ثانية: إن لم تجد الفرصة السانحة، فتشْ عن الرفيق العين الزجاجية في «قرية القطط» وقدّم نسخة من [كتاب السجلات التاريخية] له. كان يرافقني في جيّ - ومؤلفه الموسيقي الأثير هو شونبيرغ.[1] قلْ له إنكَ تعرف جميع أصدقاء

1- أرنولد فرانز وولتر شونبيرغ (1874 - 1951): مؤلف موسيقي، منظر موسيقي ورسام نمساوي. ارتبط اسمه بالحركة التعبيرية في الشعر والفن الألماني وقائد «المدرسة

طفولته، المغامر، دا - وي وميّ فورث الجريئة.

انقضتْ ثلاثة أيام قبل أن يظهر ضباط من «دائرة الأمن العام» عند الباب. وعلى غرار الغريب المُعدَم، أقبل الضباط في الصباح الباكر، حتى قبل أن يوضع الفطور على المائدة. وعلى العكس منه، قرعوا على بوابة الزقاق واستأسدوا وهم يشقون طريقهم إلى الداخل. قالوا إن «المناوئ للثورة، المجرم، اليميني، الملوَّث سياسيّاً»... والآن تعيَّن عليهم أن يتوقفوا قليلاً ويفتشوا في أوراقهم... «الرفيق وِين»... هرب، آذى ضابطين من الجيش بصورةٍ خطيرة. اتهموا الأب لوت كونه يؤوي عدوّاً للدولة.

استمع الأب لوت بهدوء، إنما حين أعلن الضابطان أن سويرل وتسهولي يجب أن تحضرا فوراً من أجل الاستجواب، مال للأمام، ورمى إلى الأسفل مسوّدة سيمفونية سبارو رقم 3 التي حدث أن كانت في يديه. «كيف تتجرآن على أن تخزياني في منزلي!». صرخ. بدأ ينقب في الحجرات. «تعالا إلى هنا! هل إن الرفيق وِين مختبئ تحت السرير؟ هل هو في خزانة الثياب؟ هل استخدمنا جثمانه وقوداً لموقدنا؟ أمعنوا النظر في دلو القمامة، دورة المياه وكيس الملابس المعدة للغسل!». بعثر الأشياء في أنحاء الغرفة بينما كان ضابطا الأمن، شاحبين وغير سويين، يضربان بعضهما بعنف في عجالتهما كي يفلتا من أشياء الأب لوت المقلوبة في أنحاء الغرفة. كان والد سبارو أطول من أيّ وقتٍ مضى إنما كان شبه ممتلئ الجسم، وهكذا كان مرعباً مرتين. «الرفيق وِين يمتلك عدوانية ورقة نباتية ساقطة! كيف يؤذي ضابطين من ضباطنا؟ الطريقة التي تؤذي بها قطرةُ مطر الرصيفَ؟ مَن يبيع البطاطس هنا؟».

«زوج خالتي» قالت تسهولي.

«هل فقدتَ صوابكَ؟» قالت بغ موذر نايف بهدوء.

الفيينية الثانية». مع صعود الحزب النازي إلى سدة الحكم عُدتْ موسيقاه مخربة - م.

«نلتُ كفايتي!» هتف الأب لوت. «لقد تركتم انطباعاً سيئاً لدى زوجته! هذا صحيح! انظروا إلى أنفسكم وأنتم ترتعشون مثل كيس من الـ توفو[1] الطازجة! تفحصوا الأسطوانات بأنفسكم، كانت قد عادتْ إلى الحياة! إنها تعمل الآن من أجل الحزب وربما تبوأتْ مرتبةً أعلى من مرتبتكم أنتم! أنتم التافهون الصغار لوثتم ثورتنا وفي يوم ما سوف أسحبكم أمام تشين بي نفسه وأجعله يضرب خصيكم بالسوط. حمير! هل لديكم أيّ فكرة عمَن أكون؟».

السيدة «ما» استدعيتْ وأبلغت الضابطين بأنها رئيسة «لجنة الحيّ السكني»، وليس هناك على الإطلاق أيّ يمينيين هاربين في نطاق سلطتها. إن الفكرة بحدّ ذاتها، تمتمتْ، مروّعة. إن كافة الأشخاص الموجودين هنا لديهم تصريحاتهم ومسجلون في أسرهم بحسب النظام، ويمكنهما أن يتيقنا من ذلك. رفعتْ رأسها بحركة مفاجئة وعرضتْ على الضابطين أن ترافقهما إلى الخارج.

بجوار الباب، لم يقلْ سبارو شيئاً. صفحات سيمفونيته، المرمية جانباً من الأب لوت، كانت تحمل طبعات حذاء. مضى ليجمعها.

ولم تلتفتْ سويرل إلى بغ موذر إلّا بعد أن ذهب الضابطان. عندئذٍ خاطبتها قائلةً: «هل قالا إنَّ وِين فرَّ من المعسكر؟».

«نعم»، أجابتْ. كانت عينها السليمة قد تبللتْ والتفتتْ جانباً كي تعاين الخراب الذي حلَّ في منزلها.

«لكن كيف؟» قالت سويرل، وهي تجلس. «إلى أين يُمكنه الذهاب؟».

تحدث الأب لوت بصخب وعنف ردّاً على ما سمعه حين أصبح في الغرفة: «اللعنة! اللعنة! اللعنة، اللعنة، اللعنة، ماذا جنيتُ على

1 - كيس الـ توفو: كيس قماشي صغير مملوء بخثارة حليب فول الصويا، ويكون ليناً جداً، رجراجاً wobbly. استخدمت الكاتبة كلمات a bag of fresh tofu - م.

نفسي؟» سبارو أخرج شقيقيه الصغيرين من الغرفة بخشونة ودفعهما إلى داخل المطبخ، وراح يلهيهما بأهرامات سكر صغيرة وبلعبة سريعة من «مراقبة النمر»، ومن ثم مضى إلى الشرفة، وأنعم النظر في العلبة التي تحتوي على رماد رسالة وِين الحالم. كانت هناك دزينة من أعقاب السجائر، ولفة سميكة من التبغ إنما لا يوجد أيّ أثر من الصفحة، الكتابة أو الكلمات. تطلع سبارو من فوق الدرابزون. في الزقاق، كان الضابطان قد انهمكا في مناقشةٍ يكتنفها الاهتياج والقلق. السيدة «ما» كانت تهزّ رأسها بحزم. كان ماء الصرف الآتي من البالوعة يطوّق أقدامهم.

اختفت الرسالة إلى الأبد، فكر سبارو. كانت قد ذابتْ في الهواء نفسه، هربتْ إلى مكانٍ لا يوجد فيه أيّ ضابط، جاسوس أو رئيس لجنة بحيث يمكنه أن يستعيدها. في أول فرصة سانحة، حينما لا يكون هناك أيّ شخص في الجوار، سوف يخبر الخالة سويرل ماذا كتب وِين الحالم.

***

تُرِك سبارو مع تسهولي، ابنة خالته، وهي تمسك بصندوق الكمان بين ذراعيها، تمشي بقدمٍ واحدة أمام الأخرى، وبين القدمين مسافة ضيقة، كما لو أنّها نادمة على كلّ بوصة فضاء استوطنته. إزاء الموجة الرمادية – الزرقاء من المشاة المقتربين، كان سبارو يرغب بأن يفسح ممرّاً لها وهكذا سار وصدره إلى الخارج وذراعاه النحيفان تتأرجحان، وهو يخدع نفسه بأنه دبابة وليس زورقاً من ورق. إنما لا أحدَ، حتى تلاميذ المدارس، تنحى جانباً من أجله. كانت الدراجات الهوائية تطن قريبةً جدّاً بحيث إنّ مقاود الدراجات الهوائية كانت تضرب مرفقيه بسرعة وعنف. كم كان مختلفاً عن الأب لوت. بسبب ثقل أبيه، كان سبارو يشعر أنه لين، رقيق، وغير جوهري.

وصل الترام. التفتتْ تسهولي وردتْ على بسمته ببسمةٍ تنمّ عن شرود الذهن، قبل أن يختفي اللون الأزرق المتموج لفستانها بين الركاب الآخرين. لم يلتقيا مجدداً إلى أن وصلا إلى بوابات «المعهد العالي للموسيقى»، حيث نادتْه من الأعلى حين كان هو في الأسفل. تسهولي

وازنتْ نفسها بنحو لبق على عتبة كونكريتية، إحدى يديها تتشبث بسور حديدي، وبقية جسدها مائلة إلى الجانب. كان شعرها، الملموم في ضفيرة طويلة، يستقر على كتفها وبدتْ أطرافه نابضةً بالحيوية في النسيم. في داخل البوابات، كان عازف البيانو ين تشاي، ألمع نجم في «المعهد العالي للموسيقى» وكان يروقه، باعتراف الجميع، أن يظهر بالقميص والسروال بالطراز العسكري، جالساً على مصطبة. كان قد رجع من موسكو بعد أن حلَّ في المرتبة الثانية في مسابقة تشايكوفسكي وأينما ولّى وجهه، أو هكذا بدا الأمر لـ سبارو، يتعقبه فيض من أضواء المسرح.

«ماذا تظن، ابن خالتي؟» قالت تسهولي، وهي تجلس برقة بجواره.

كانت دردشة الطلبة تقرع طبلاً في رأسه مثل الصداع. ابتسم كي يخفي غيرته ولجأ إلى صيغة جاهزة «كليشيه» تقول: «هل يستطيع العصفور والسنونو أن يعرفا مشيئة الإوزة الرائعة؟ ين تشاي كنزٌ قومي».

«إنني أفضل مؤلفاتك الموسيقية على الميلودراما العائدة له».

«صحيح؟» قال سبارو، وهو لا يقدر أن يصدق. ومع ذلك حين عزفت ابنة خالته عمله، بدا كما لو أنّها نخلت الغبار، ففقدت النوتات ووجدت الموسيقى.

أخبر تسهولي أنه سوف يجدها في الغرفة 103، غرفة تدريبها المفضّلة، وبعدها راوغ جمهرة الناس وصعد السلّم المهيب. في الطابق الأرضي، كل آلات البيانو الخمس مئة العائدة لـ«المعهد العالي للموسيقى» بدتْ كأنها تغني وتنخرط معاً في نظام إقطاعي. التف حول الغرفة 204 بأجراسها القرصية وصنوجها، الغرفة 313 بآلات القانون الخاصة بها ذات الأوتار الكثيرة، وورش صنع الكمان في الغرفة 320. في الطابق الرابع، نظر من خلال باب مفتوح وشاهد «عميد المعهد العالي للموسيقى»، هِي لوتنغ [1]، مستغرقاً في محاورة

1 – هِي لوتنغ (1903 – 1999): مؤلف موسيقي صيني في مطلع القرن العشرين. لحّن أغاني للأفلام السينمائية الصينية بدءاً من ثلاثينيات القرن العشرين. بعضها حافظتْ

مع أحد الكوادر لم يستطعْ سبارو أن يتعرّف عليه. «ذلك هو قرارك أنتَ» كان هِي لوتنغ يقول: «لكن على وجه الدقة ما الذي يعيّن جريمةً ما في أيامنا هذه؟». كان العميد يشتهر بكونه فظّاً. في بعض الأحيان، كان يدعو سبارو إلى منزله كي يحتسي عصير الليمون، يصغي للأسطوانات ويقرأ مؤلفاته الموسيقية. كان «المعهد العالي للموسيقى» بأكمله يعرف ذلك، حين كان هِي لوتنغ صغيراً، كان شقيقه الأكبر سنّاً يمتلك كتاباً موسيقيّاً مدرسيّاً باللغة الفرنسية، وكان الكتاب قد سحر الرفيق هِي كثيراً بحيث إنّه، كان يتسلل، ليلاً، وينزل درجات السلم وينسخه بيده. ولأنه كان مفتوناً ببنية الموسيقى الغربية، علّم نفسه التنويت بالعصا. وحين أصبح، أخيراً، طالباً في «المعهد العالي للموسيقى» في عشرينيات القرن العشرين، كان قد ذاع صيته كونه هوى من السرير ويداه ما تزالان تتحركان في الهواء. كان سبارو يتحرق شوقاً لمعرفة ماذا كان يعزف هِي لوتنغ في أحلامه. هل كان يعزف أم يؤلف الألحان؟ هل كان يحلم بمعلمه، هوانغ تسي، الذي كان بدوره قد تتلمذ على يد بول هايندميث[1]؟ هل تستطيع الأحلام أن تلقي الضوء على بنية الموسيقى الماثلة في ذهنه؟ سبارو، أيضاً، كان يحلم طوال الوقت بالأشياء التي لم يكتبها. صباح كل يوم، حين يفيق من نومه، كان يسمع هذه المقطوعات الموسيقية مثل ضوضاء متوارية في الشارع، وكان يريد أن يبكي على الموسيقى التي فقدها.

«ما من حاجة لتبديد الوقت. فقط ضعْ تهديداتك في *«الليبريشن*

على شعبيتها. في العام 1949، أصبح عميد «المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي». إبان «الثورة الثقافية» خضع إلى استجواب قسري مؤذٍ لكنه رفض الاعتذار. «اتهاماتكم باطلة»، صاح على المحققين، «العار عليكم بسبب كذبكم!». قال أليكس روس إنه ما من مؤلف موسيقي امتلك موقفاً أجرأ منه في وجه الحكم الاستبدادي – م.

1 – بول هايندميث (1895 – 1963): مؤلف موسيقي، عازف كمان أوسط، معلم كمان، وقائد فرقة موسيقية «مايسترو» ألماني، غزير الإنتاج – م.

ديلي»[1] وانظرْ ماذا أقول غير ذلك - «كانت نظارات هِي لوتنغ قد انزلقتْ كثيراً إلى أسفل أنفه. ورداً على ذلك، رسم الغريب بسمةً لطيفةً على ثغره. أسرع سبارو.

في مكانٍ متقدم من الممر، وصل إلى المكتب الذي تقاسمه مع أولد وو، وهو طفل عبقري كان يعزف على الـ إيرهو كما لو أنّ ذلك ليس أصعب من أن يشذب أظافر أصابع قدميه. لم يسبقْ له أن رأى أولد وو على مدى أسابيع.

على طاولة كتابة سبارو كانت ثمة مذكّرة مكتوبة في حواشي قصاصة صحيفة: «المعلم سبارو: شكراً لك على إعارتي نسختك من *[الحياة الموسيقية للألمان]*. طالعتُه في جلسةٍ واحدة ولم يغمضْ لي جفن طوال الليل. هل يسعني المجيء إلى مكتبك اليوم، في الواحدة تقريباً؟ مع خالص تقديري واحترامي: جيانغ كاي». سبارو قرأ الرسالة مجدداً. في الواحدة بعد ظهيرة هذا اليوم. يين تشاي سوف يعزف تشايكوفسكي في قاعة الاستماع لموجات عظيمة من التصفيق. لا بدَّ أن كاي قد نسي.

دسَّ سبارو النوتة بخفة في طاولة الكتابة خاصته. جدران الغرفة الصغيرة العاج الأربعة بدتْ كأنها تميل نحو فتحة النافذة. تناول سيمفونيته رقم 3، طبعات القدم وكل شيء، وألقى الحركة الأولى على مكتبه. حاول، كما يُفترض به أن يفعل، لكنه لم يستطعْ أن يسوّي الصفحات المجعدة. أخرج قلمه الرصاص على كل حال.

الزمن نفسه، الساعات، الدقائق، والثواني، الأشياء التي أحصوها والطريقة التي أحصوها بها، كانت قد تسارعتْ في «الصين الجديدة». كان يريد أن يعبر عن هذا التغيير، أن يكتب سيمفونية تستوطن الصين القديمة والحديثة معاً: تلك التي لم تُخلق بعد، وتلك التي مضتْ تقريباً.

---

1 - ليبيريشن ديلي: Liberation Daily: الاسم الآخر لجريدة جيفانغ ديلي Jiefang Daily - م.

كانت التكتكة في الفواصل الموسيقية[1] الأولى اقتباساً من ماكينات بروكوفييف ذات الأزيز في السيمفونية رقم 7 وفي الطليعة كانت هناك رقصة، سريعة وقوية[2]، تتسارع إلى أن أصبحت الفواصل الموسيقية واهنة الدرجات، والتفتْ حرةً في النهاية مثل طلقة بندقية متجهة صوب السماء. سقوط حرّ في الحركة الثانية، ضحك، ثلاثة عازفين يؤدون مقطوعة موسيقية على آلات الكمان لا يبدون هم أنفسهم، ينسحبون مثل الرياح وبدأتْ آلات النفخ الموسيقية النحاسية تعزف لحناً عسكرياً بطيئاً. تلاشى الصوت مثلما تعلّم أن يكون مسموعاً.

من الجدار المقابل، نظر إليه الرئيس ماو ببسمةٍ تنمّ عن الدراية. ما كتبتَه في زمانك، قال الرئيس ماو موبخاً، هو الأصل؟ ما يحتمل أن تقوله هو شيء ذو قيمة؟ انقضى الوقت وأصبح الورق دافئاً في رقعته من نور الصباح. ثلاثة أرباع وقت سبارو كان يقضيه وهو يلبي الحصص النسبية لآخر حملة سياسية، والربع الآخر يدرّس نظرية التأليف الموسيقي. كانت سيمفونيته رقم 1 قد عُزفتْ، وتمَّ تنقيحها بشكل جيد، لمجرد أن تُنتقد من «اتحاد المؤلفين الموسيقيين». السيمفونية، قالوا، تعاني من الشكلانية والتجريب غير المُجدي؛ إجلال الحركة الثالثة لم يفعلْ شيئاً كي يسمو بـ «الشعب»؛ والمعنى، على العموم، لم يكنْ جلياً توّاً. لو لم تكن الانتقادات من أجل حماية هِي لوتنغ، لكانت أسوأ بكثير. السيمفونية رقم 2، التي كان يعرف أنها عمل يمتاز بجمال رائع، وهنتْ وذبلتْ في جرار مكتبه، لأنها حتى لم تخضع للموافقة. في الشهر المنصرم، لحّن للغناء ست قصائد شعرية

1 – الفواصل الموسيقية: جمع (فاصلة): measures (لدى الأميركين)، ولدى الإنكليز: bars. يطلق الأشقاء المصريون كلمة «مازورة» على الفاصلة الموسيقية measure. تعني «الفاصلة»: طريقة معينة لتقسيم الموسيقى، تُعلّم على الورق بوصفها المسافة بين خطين عمودين – م.

2 – سريعة وقوية: allegro risoulto، هكذا وردتْ في النص الأصلي – م.

كتبها وانغ وي[1] وبرتولت بريخت، عرف سبارو، كان من الأفضل أن تُتركا من دون سماع. كان طلبته يريدون انفتاحاً ثوريّاً وحاول الأعلى منه منزلةً أن يربوه على النهج السياسي الصحيح، لكن أيّ نهج يمكن أن يكون هذا؟ ما إن احتواه في يده، حتى فتح أجنحته وملأ السماء. أيّ فكرة موسيقية لبثتْ على مدى سنة كاملة أو على مدى عمر كامل، ناهيك عن عصر ثوري؟

فتح جرار مكتبه الذي أصدر صريراً ونظر مجدداً إلى كتابة يد كاي الواثقة من نفسها. وعلى غرار هِي لوتنغ، كان كاي قد تحدر من المنطقة الريفية البعيدة، كان كثير المزاح، فعالاً، يتحلى بذاكرة استثنائية، مغرماً بالموسيقى بنحوٍ مبهم، وبنحوٍ مُربك، مثل سبارو نفسه. غير أن كاي كان مهيئاً للنجاح. كي يكون موسيقيّاً مشهوراً، يتعيَّن على المرء بالتأكيد أن يكون ناجحاً في ذهنه هو؛ الموسيقيون ممَّن يملكون هذه الميزة وحدهم الذين بإمكانهم أن يتفوقوا على الآخرين. الحياة، شعر سبارو، ليس لديها أيّ خيار سوى أن تكون كريمةً مع كاي.

لم يحاولْ أن يفكر في فرصه المتناقصة. كان قد محا الموازين الموسيقية العشرين الأخيرة التي كتبها. جلس، وقتاً طويلاً، يفكر، إلى أن أمست الغرفة بحدّ ذاتها غرفةً أخرى. في الصفحة الفارغة، جاء إليه سطرٌ ما. تحرك السطر إلى الأمام بمحاذاة منعطفٍ أشد انحداراً. تبعه، من دون أن يعي فعل الكتابة.

***

انقضى الصباح. كان سبارو يفكر في الرسالة التي بعثها وِين الحالم و«الرفيق العين الزجاجية» الغامض حين فُتح الباب بغتةً وظهرتْ

1 - وانغ وي (699 – 759): شاعر وموسيقي ورسام ورجل دولة في عهد سلالة تانغ الحاكمة. وهو أحد أشهر الشخصيات الأدبية والفنية في عصره. كثير من قصائده الشعرية لا زالتْ محفوظة. إحدى وعشرون قصيدة من قصائده أُدرجتْ ضمن مختارات القرن الثامن عشر المؤثرة جدّاً، المعنونة: «ثلاث مئة قصيدة تانغ» – م.

تسهولي، شاحبةً مثل شمعة غير مشتعلة. كانت تحمل ترمساً أخضر اللون، صندوق الكمان العائد لها وكيساً ورقيّاً. «ابن خالتي»، قالت، «ألا تقرقر معدتكَ؟ انتظرتك في الغرفة 103، لكنكَ لم تأتِ!».

كان قد نسي الأمر. تغافلتْ عن اعتذاره وابتسمتْ بسمةً عريضةً. بفستانها الأزرق العتيق، بدتْ تسهولي متعبةً لكنها بدتْ نشيطةً أيضاً، أكبر من عمرها البالغ أربعة عشر عاماً. هبَّ واقفاً ومضى إلى الطاولة الصغيرة التي وُضعتْ عليها الأكواب والأطباق، التقط اثنين من التي كانت ملطخة أقل ببقع الشاي، وتفحص علبة حلوى عصير الكمثرى الذي تلقاه أولد وو من إحدى المعجبات، وهي فتاة تُلقّب بـ«البسكويت». أولد وو اختار قطعةً واحدةً وتخلى عن البقية.

صبَّ الشاي ونثر عدداً قليلاً من الحلوى على أحد الأطباق. كانت تسهولي تنظر بقصد إلى الصفحات الملقاة على طاولة الكتابة. كانت تتمتم باللحن الآن. غارقةً في أفكارها، فتحتْ صندوق الكمان العائد لها، رفعت الكمان خاصتها وشرعتْ تجرّب مع المقاطع الموسيقية.

«ليس بعد، تسهولي».

خفضتْ ذراعها. «لكن سبارو، استمعْ إلى هذا المقطع. يمكنني أن أسمع كيف».

«الحركة الثانية حتى لم تنتهِ. بالكاد بدأتُ بها».

«بالكاد بدأتَ بها؟ لقد أرهقتَ نفسكَ في هذه السيمفونية! ابن خالتي، ألا ترى أنه أسمى شيء كتبته في زمانك؟ في اعتقادي أن عليكَ أن تُريه لقائد الفرقة الموسيقية [لو] الآن حالاً. أنتَ تثق به، أليس كذلك؟».

سُمع قرع شديد وفُتح الباب ثانيةً. هو ذا كاي، بدا كأنه استيقظ من النوم قبل دقائق قليلة وحسب، وهرع من تشانغشا ليصل إليهما. كان يلبس قبعة عسكرية متخلياً عنها وقميصاً متغضناً كان، مبقعاً بالعشب، بنحوٍ كوميدي. بعد أن حياهما، اجتاز الغرفة. «ماذا تعزفين، رفيقة تسهولي؟».

عبستْ بوجهه وملّستْ فستانها.

«لا شيء»، أجاب سبارو، «مجرد أفكار كسولة من جعبتي». جمع أوراقه، مذكّرة كاي ومقالةً كان يستثيرها، ونظف كل شيء. «كاي»، قال، «لو استعجلتَ، يمكنكَ أن تهيئها لحفلة يين تشاي الموسيقية[1]. أنتَ لن تتأخر».

«لكن ألا نلتقي؟ تركتُ لك مذكّرة». وجهه، وحتى قبعته الأنيقة، ظهر كأنهما يسقطان. أحسَّ سبارو كما لو أنّه أغلق بمحض المصادفة غطاء البيانو على أصابع الشاب.

«المعلم سبارو يؤلف الموسيقى»، قالت تسهولي بإجلال. «هل تناولتَ طعامك، كاي؟ خذه هذه».

شاهد سبارو الكيس الورقي يقفز من يدٍ إلى أخرى. شعر بأنه كبير السن حين قال: «من فضلك اترك فتات الخبز على كنبة وو لي».

نظر وو لي بجوعٍ في داخل الكيس الورقي. «أولد وو؟ سوف يرسل أمه لتزيلها. أو ربما جدته».

أفلتت ابنة خالته ضحكةً.

كانا خاليين جدّاً من الهموم، هذان الاثنان. كانت ذراعا تسهولي عاريتين لكنها بدتْ كأنها لا تشعر بنسيم الشباك المفتوح.

نظر كاي إليه بصراحةٍ مباشرة، مترددة. «سيكون من الأفضل أن نذهب إلى الخارج، نتمشى في المتنزه ونرهف السمع لموسيقى الشعب». كانت الشمس قد دفأتْ يديْ سبارو. «تعال، أيها المعلم. كنتَ منهمكاً في العمل منذ الفجر. أليس اليوم هو عيد ميلادك؟».

«إنه لا يحتفل»، قالت تسهولي. «إنه يحرم نفسه من الفرح الغامر. لحسن الحظ، الفرح الغامر يتسرب إلى مؤلفاته الموسيقية».

«ألم يمتلكْ أيٌّ منكما الدروس؟» قال سبارو، وهو يحاول المحافظة على وقاره.

---

1 - وردتْ في النص الإنكليزي كلمة recital: التي تعني حفلة موسيقية يحييها عازف فرد - م.

«جميع عازفي البيانو هم في الطابق الأسفل، يكتبون النقد الذاتي. أما أنا فبقيتُ في الأعلى طول الليل أقرأ الكتاب الذي أعرتني إياه، ومن ثم أتيتُ في الثانية فجراً لأعمل على كونشيرتو موزارت رقم 9. وحدي أنا والكلاب الضالة والريح. حتى أكثر الجدات العجائز عناداً لم يخرجنْ بعد كي يقفن بالطابور للحصول على اللحم.

«منذ الثانية فجراً!» قالت تسهولي، من الجلي أنه ترك فيها انطباعاً.

حاول سبارو أن يفكر في طريق للهرب. كان يريد أن يختلي مع النافذة، مع الأوراق الموضوعة على سطح مكتبه، ومع حرية آرائه وأفكاره.

«ساعة»، قالت تسهولي. «اسرقْ ساعةً من حياتك وأعطِها لنا».

ابتسمتْ له، بسمةً كبيرةً وجذلةً مثل تلك البسمة التي كانت تبتسمها له الخالة سويرل حين كان صبيّاً، وحذا حذوها.

***

في المتنزه، تسهولي وعازف البيانو سارا في كلا جانبيه، كما لو كانا يخشيان أن سبارو سوف يفرّ ناجياً بنفسه. ماذا يعرف العصفور والسنونو، فكّر ثانيةً، عن طرائق الإوزات؟ كانت ثمة إوزة، كما شاءت الأقدار، في ظلِّ البركة، تنفخ جناحيها الأبيضين - الرماديين، ساعيةً إلى أن تبدو أكبر حجماً ومهلكةً أكثر مما هي في الواقع. سمع رقة صوتها المرتعش.

«الغرفة التي أقيم فيها»، قال عازف البيانو، «بحجم رجل ونصف رجل مستلقيين. لديَّ فضاء يكفي فقط لأن أستدير وأعود إلى وضعي الأصلي ثانيةً».

كان صندوق كمان تسهولي يتمايل فيما كانت تمشي. «كيف حصل أنك لم تسكنْ في مدرسة داخلية في [المعهد العالي للموسيقى]؟ لعلك تفضل السكن في كهف».

«كان يتحتَّم عليَّ أن أسحب صنوف الأوتار كلها كي أحصل على

هذه الغرفة الرهيبة، لكنها قريبة من زوج أمي. كان مريضاً السنة الفائتة... على أية حال، الفئران أفضل رفاق لي في الغرفة».

تملصتْ تسهولي من غصن منخفض بأن انحنتْ تحته. «احترسْ وإلّا سوف تتكاثر الفئران وتحتل حيز القطط».

حين قهقه كاي، انتصب شعره عمودياً في الريح.

من دون أن ينتبه سبارو للانتقال، كانت تسهولي تحكي لعازف البيانو عن الأب لوت والمواجهة مع ضابطي الأمن العام صباح هذا اليوم. تباطأ سير عازف البيانو. «ما هو المعسكر الذي حلَّ فيه أبوك ثانيةً؟» سأل.

«لا أعرف. لكنه يقع في [محافظة غانسو]، أليس كذلك، ابن خالتي؟».

«لستُ متيقناً من ذلك، تسهولي».

كانت مشدودة الأعصاب. لمعتْ قطرات عرق باهتة على جبينها وخديها. بدتْ كأن بوسعها أن تتبنى أيَّ حملةٍ، أيَّ نقدٍ أو فردٍ من أفراد أسرةٍ ما، وتتركهم مسحوقين على الأرض.

«لا يسعكَ أن تقلق عليَّ، ابن خالتي»، قالت له، صوتها منخفض. «لا أعرف متى أبقي فمي مغلقاً. ليتك تستطيع أن تسمعني في صفنا، صف الدرس السياسي. في اعتقادي أنني حفظتُ عن ظهر قلب شعارات أكثر من تلك التي حفظها رئيس الوزراء نفسه». رفعتْ حنكها بتحدٍّ. كان تهورها، استخدامها الكلمات من دون قصد، قد أذهله. كانت ابنة خالته على هذه الحال منذ عودة سويرل.

إنما من المحتمل، فكر، هذا التظاهر بالشجاعة ليس له لكن لـ كاي.

لامست الشمس كل شيء الآن. حاولوا أن يجدوا ملاذاً على مصطبةٍ تحت شجرة كمثرى مزهرة. جلسوا كما لو كانوا وحيدين، مستقلين، السعادة الغامرة التي كانت سائدةً منذ دقائق قليلة خلتْ ها هي ذي تتلاشى وتذوب. ربما حرارة الجوّ هي التي جعلتهم يركنون إلى الصمت. ما من شخص يقف في الجوار إنما مع ذلك كان سبارو يشعر بعبء شخصٍ ما، أو حضورٍ لطيف. ثمة صياح في البُعد، أو لعله ضحك.

«هذا الصباح»، قال كاي، صوته لا يكاد يُسمع، «عميد [المعهد العالي للموسيقى] ظهر في الصحف. هل قرأت المقالات؟ كانت *[ليبيريشن ديلي]* قد خصصتْ صفحةً كاملةً له. *[وِين هوي باو]*[1]، كذلك. إنهم يقولون إن هِي لوتنغ هو مناوئ للحزب ومناوئ للفكر الاشتراكي، وإن غالبية الاتهامات المدمِّرة تأتي من داخل [الكونسرفتوار]».

«كنتُ أحسب أنكَ كنتَ تتمرن طول الصباح»، قالت تسهولي.

صمتْ كاي برهةً. «أحسب أن نصف حياتي ربما قضيتها وأنا أركض من موقع إلى آخر إلى أن أقع في الفخ وأرتكب خطأً فادحاً».

«هل سبق لك أن زرتَ ووهان؟» سأله سبارو، وهو يبغي تغيير الموضوع. كان يعرف أن هِي لوتنغ يخضع للاستجواب، بالطبع، لكن كلمات كاي لا تزال تُصيبه بالقشعريرة.

«سامحني، أيها المعلم. إنني مجرد طالب ومع ذلك أشعر أن بمستطاعي أن أكون صريحاً جدّاً معك. ماذا سألتني؟».

«هل ترغب بالذهاب إلى ووهان؟».

«معك؟» قال عازف البيانو.

«أجل. إن كان لديك متسع من الوقت خلال الاستراحة. الرحلة وبحثي يحتاجان إلى ثلاثة أو أربعة أيام، وربما مدةً أطول. إنني أفتش عن مساعد، كان [الكونسرفتوار] قد فوضني بأن أجمع -».

«نعم»، قال عازف البيانو.

«لكنني لم أخبركَ لماذا».

«سأذهب في كل الأحوال».

كانت تسهولي تضم صندوق الكمان العائد لها إلى صدرها

---

1 - وين هوي باو Wen Hue Bao: صحيفة يومية صينية بارزة، تصدر في شنغهاي. أسسها عدد من المثقفين ذوي الميول اليسارية في العام 1938 في شنغهاي، ومن أبرز هؤلاء المثقفين الكاتب والصحافي كِي لينغ. في العقد التالي أُغلقت الجريدة مرتين بسبب توجهاتها السياسية - م.

كما لو أنّه يخفيها، رفضتْ أن تكون طفلةً وتريد الذهاب برفقتهما. كانت لديها أمها كي تفكر بها، أيضاً. في يومٍ عاجل، فكرتْ، كانت ستعزف لأبيها، التي لم تعدْ تتذكر وجهه، لكّنه دأب على أن يغني: «أيتها الفتاة الصغيرة، إلى أين أنتِ ذاهبة؟ أخبري أباكِ وسوف يأخذك هو. أخبري أباكِ وسيجد لكِ خارطةً، يحضر الشاي، ويجعل الشمس ترتفع، ويربط الأشجار بالحبال ويسحلها عبر الشارع». هل كانت هذه قصيدة، قصة، أم شيئاً كان قد لحنه؟ «تسهولي»، كان يقول: «حالمة صغيرة». كانت تدع صوته وشأنه وتسمع رافِل، الأغنية عينها، وكان حذاؤها يخدش الحصى في كل مرةٍ تنقل وزنها من جهةٍ إلى أخرى. كان بمستطاعها أن ترى الضوء والمتنزه وابن خالتها وكاي، لكن هذه الصور كانت فقط مرتبطة ارتباطاً ضعيفاً بصوت الكمان في رأسها. سمعته في استيقاظها وكانت تعرف أنه استمر من دون شفقة عبر ساعات نومها؛ هي، نفسها، أتتْ وذهبتْ، لكنها لم تكنْ واقعيةً حقّاً، إلّا أن الموسيقى ليس لها بداية، لقد دامتْ، سواء كانت هي هناك أم لم تكنْ، مستيقظةً أم لا، واعيةً أم نائمةً. كانت قد تقبلتها طوال حياتها، إنما مؤخراً، بدأتْ تتساءل ما هو الغرض الذي تؤديه. بروكوفييف، باخ وأولد بي شغلوا الحيز الذي شغله الحزب، شغلته الأمة، شغله الرئيس ماو نيابةً عن الآخرين. ترى، لماذا حصل هذا الأمر؟ كيف حدث أن خُلقتْ بصورةٍ مختلفة؟ بعد أن أُخذ أبواها من بنغبي، أصبحتْ شخصاً مختلفاً تمام الاختلاف.

كان ثمة رجل يعرج عبر المتنزه، إحدى يديه تمسك بشقٍّ في قميصه، كما لو أنّ هذا القبح في مظهره يقلقه أكثر من الدم الذي يسيل على وجهه. كان الناس يحدقون إليه فيما هو يمرّ من هناك إنما لم يتفوّه أحد بكلمة. وبدلاً من ذلك، بدا كأن حلقةً باردةً من الهدوء تمتدّ من حول هذا الغريب الجريح، مثل ماء يملأ كيساً بلاستيكياً.

***

رجعتْ تسهولي مشياً إلى «المعهد العالي للموسيقى» بمفردها. كان ابن خالتها وجيانغ كاي قد ذهبا قبلها، لأن هذين الاثنين كليهما كانا خطرين مثل جاسوسين سوفييتين، يميل كل منهما نحو الآخر، كانت يد عازف البيانو على ظهر سبارو، في هذا المكان، كانت تعرف، تكبّد سبارو إصابةً. كان يعمل على مؤلفاته الموسيقية على مدى ثماني عشرة ساعة يوميّاً. في كثيرٍ من الأحيان، كانت تأتي إلى البيت من «الكونسرفتوار» كي تجده راقداً على أرض غرفته - المرحاض، وهو يكابد ألماً ممضّاً. كانت تدلّك التشنجات في ظهره وتوبخه لأنه يعمل بدأبٍ مفرط. بدا كما لو أنّ سبارو كان يخشى أن تنقطع تماماً كل تلك الموسيقى الساكنة في داخله مثلما ينقطع الماء في الحنفية. إنما، بأمانة، مَن سمع عن سبارو من دون موسيقى؟

متقدماً عليها، استدار كاي، رفع أحد حاجبيه وابتسم بسمةً عريضةً لها. كان عازف البيانو يمتلك البسمة الصريحة، الصادقة نفسها التي يمتلكها رئيس الوزراء تسهاو إينلي. تخيلت الغرفة التي بحجم النعش التي كان يقيم فيها، الأرضيات الخشنة والقوارض، وتساءلتْ كيف كان يتسنى لـ كاي أن يتعلم العزف على البيانو إذا كان قد نشأ في قريةٍ مُعدمِة خارج تشانغشا. أيَّ نوعٍ من الأوتار بإمكان صبي قرية أن يسحبها؟ كان عازف البيانو كيساً من الحيل، استنتجتْ. كان يحمل خلفيته الريفية بشكل حسن، مثل رواية رخيصة مغلّفة في داخل غلاف أنيق. حينما لا يبتسم، مع ذلك، كان له وجهٌ لا يمكن نعته إلّا بوصفه يقظاً.

كان صندوق الكمان العائد لها يتأرجح مع إيقاع خطواتها. مرَّ موكب من العربات، كل واحدة منها كان تنوء بعبء براميل نفط، وكان الحوذيون يكدحون بضراوة ويفرزون عرقاً كما لو كانوا يضغطون على دوّاسات دراجات هوائية صاعدين إلى «الجبل با» عينه. في زاوية «طريق هوايهاي»، شاهدتْ طلبة «الكونسرفتوار» يرتعدون حول يين تشاي، الذي كان يمتلك التعبير الأملس الصقيل لشخصٍ ما كان قد قاوم ساعاتٍ

من العبادة. أحلاهن، بسكويت، كانت تحمل باقة أزهار. «الإمبراطورة بسكويت» فصلتْ نفسها عن المجموعة، أقبلتْ، وغمرتْ تسهولي بالشعارات الثورية، في داخلها، وُضع، مثل لسعة بعوضة، السطر: إنني أراكِ تغادرين برفقة جيانغ كاي الوسيم! طرفتْ عينا تسهولي وانبرتْ قائلةً: «شمس ماو تسي تونغ تمنح موسيقاي توهجاً جديداً، عنفواناً جديداً!». وضمتْ كمانها إلى صدرها. نظرتْ إليها بسكويت عن دراية. الملكة الحسناء لن تكون عازفة كمان عظيمةً، فكرتْ تسهولي، وهي تتجنب شعر بسكويت المخملي الذي كانت يتكوّر بزخارف أرابيسك طويلة في مهب الريح. كانت قد أخفت القمر وجعلت الأزهار تخجل من نفسها، كما دأب الشعراء على القول، لكنها عزفتْ موسيقى بيتهوفن كما لو أنّه لم يكنْ حيّاً في أيّ وقتٍ مضى.

صممتْ على عدم التمرّن على كل حال وهرعتْ بنحوٍ مفاجئ إلى الطريق، وقفزتْ إلى جوف ترام مزخرف بشعار يقول: «احموا الرئيس ماو!». كان الترام شديد الازدحام، كان يضغط بقوة حتى على غيرتها، لذا حين دخلت الزقاق البعيد عن «طريق بكين»، أحسّتْ أنها في وضع حسن وأنها خفيفة، خالية من الهموم. ولما بلغت المنزل، اجتازت الفناء الداخلي ودخلت إلى المطبخ بنحوٍ غير جازم البتة بحيث إنّها أدركتْ أمها وهي تضع ملعقةً في جيبها. مفزوعةً، التفتتْ سويرل. كانت ثمة حفنة من البازلاء المجففة قد سقطتْ كالوابل على الأرض. مضتْ تسهولي إلى المنضدة، أمسكتْ ببعوضة بين يديها وتظاهرتْ بأنها لم تشهدْ شيئاً.

«ماما»، قالت، وهي تلتفت إلى الوراء، «إنني أكمل *[تزيغاني]*[1] رافِل. إنها صعبة بنحوٍ لا يُصدّق».

1 - تزيغاني Tzigane: لحن رابسودي للموسيقي الفرنسي موريس رافِل. تمَّ عزفه أول مرة في لندن، الرابع والعشرين نيسان «أبريل» 1924. يتألف هذا اللحن من حركة واحدة، ويستغرق نحو عشر دقائق. اسم هذا المؤلَّف الموسيقي مستقى من المصطلح الأوروبي الشامل لكلمة «غجري» - م.

«رافِل»، قالت أمها، مسرورةً.

«هل أعزفها لكِ توّاً؟».

«نعم، بُنيتي». ابتسمتْ أمها وطقطقتْ وفرقعتْ مزيدٌ من حبات البازلاء على الأرض القرميدية.

خمسة أعوامٍ من الأعمال الشاقة، كان يذكّرها سبارو دوماً، وهي تشاهد أشخاصاً لم يسبقْ لهم أن ارتكبوا أيَّ عملٍ خاطئٍ يغيبون عن الأنظار، ولا يمكن محوهم بسرعة شديدة، ومع ذلك لا زالت تسهولي ترغب بأن تهزّ أمها، تسحب ذهنها بعيداً عن المعسكرات وتجعلها تعيش في الحاضر. ما يهمّ هو هذا المكان والوقت الحاضر وليس الحياة الماضية، ما يهم هو الأشياء المتغيرة في هذا اليوم وغداً وليس الأمس الذي لا يتغير أبداً، لا يتغير مطلقاً، ولا يتغير بطريقةٍ لا تُطاق. أخذتْ مكنسةً وكنستْ بسرعة حبات البازلاء، غسلتها في «السنك»، ونشرتها على قماشٍ نظيفٍ حتى تجف.

«ماما»، قالت، لكن أمها الآن جالسة إلى طاولة المطبخ. ذهبتْ إليها تسهولي، وأرادتْ أن تطلب الصفح منها بسبب الأفكار التي لا تحترم الآخرين الماثلة في ذهنها، إنما بعد ذلك لاحظتْ حقيبتي السفر على الأرض، والأوراق، الخرائط ودفاتر الملاحظات على سطح الطاولة.

رفعتْ تسهولي أحد دفاتر الملاحظات، فتحته وشرعتْ تقرؤه. كان خط أمها قد غطى الصفحات، صفحة بعد صفحة: خط مثابر، متوازن، رشيق. تعرّفتْ تسهولي على القصة مباشرةً، محطة راديو دا - وي في الصحراء، رحلة ميّ فورث إلى المناطق الحدودية الغربية، والثورة العظيمة التي سادتْ حياتنا. «كتاب السجلات التاريخية» الملحمي، المُعذِّب.

«إنكِ تصنعين نسخةً جديدةً»، قالت تسهولي. «ماما؟».

«أخيراً أنهيتها صباح هذا اليوم».

رسمتْ أمها دائرةً واسعةً على أكبر الخرائط. «كان معسكر أبيكِ

هنا»، قالت سويرل، «لكنه لو رجع إلى [محافظة غانسو] في اعتقادي سوف يستطيع أن يتحاشى هذه المنطقة...».

لم يكنْ بمستطاع تسهولي أن تتابع مسارات أمها. كانت تتشابك ويجتاح أحدها الآخر مثل تشابك عش طائر.

«إذن يتحتَّم عليَّ أن أبدأ ببحثي هنا»، خلصتْ أمها إلى القول. واستقر طرف إصبعها على مكانٍ مفتوح.

كانت تسهولي تريد أن تأخذ يد أمها الضعيفة، وترفعها من على الخارطة، وتخفيها في داخل يدها هي. كانت تريد أن تأخذ الخارطة وتحرقها في الموقد. «كيف تفعلين ذلك؟» قالت بهدوء.

«خالتكِ وأنا سوف نمضي معاً. كنا سافرنا عبر البلاد من أقصاها إلى أقصاها حينما كنا في مقتبل العمر».

«الوضع ليس كما كان عليه قبلاً».

«صحيح. يومئذٍ، كانت ثمة حرب ضد اليابان، مجاعة، ومن ثم قصف [القوميون] [النهر الأصفر] بالقنابل وحصل فيضان رهيب...».

«هذا ليس ما عنيتُه»، قالت تسهولي. «جدات المنطقة السكنية سوف تتحدثن ورجال [الأمن العام] سوف يحطمون الباب مجدداً. سوف يقولون إنكم تقفون إلى جانب يميني مُدان. وماذا بعدُ؟» كانت تبغي القول، لكنها لم تفعلْ: كيف يمكنكِ حتى أن تفكري في أن تتركيني وحدي ثانيةً؟ ألا أهمّكِ أنا؟ ألا يوجد أيُّ شطرٍ منك مخصصٌ لي وليس له؟

«[بغ موذر] سوف تدرّس أوبرا ذات نمط جديد في [محافظة غانسو]»، قالت سويرل. طالما إنها قائدة [فريق الغناء والرقص]، هيأت الأمور لي كي أصاحبها. كانت قد أخبرت الجيران سابقاً أنها ذاهبة لتدبّر أمر إعادتي إلى الحياة، أي بمعنى عودتي إلى المجتمع. أخبرتهم أنني في يوم ما أقمتُ في كوخ من طين في غانسو على مدى أسابيع قلائل، كنتُ سأتغلّب على الأخطاء التي ارتكبتها حماقات يفاعتي البالغة.

مدّتْ أمها يدها، بتردد، كي تلمس النهايات الطويلة من شعر تسهولي.

كانت نظراتها مباشرة وهادئة. «فتاة حمقاء»، قالت برقة، وهي تضايقها بسخرية. «كنتُ قد مضيتُ إلى البحر وعدتُ من هناك. إنها مجرد رحلة صغيرة». كان قميص وسروال أمها الرماديين مغسولين ونظيفين ومكويين، لائقين وغير متغطرسين، إنما ثمة نظرة في عينيْ أمها لا صلةَ لها البتة بالاحتشام والطاعة. لم يكنْ هنالك تكيّف واستسلام، بل مجرد سكين حادة في بركة ماء. أمها، فكرت، تمتلك كل خاصيات المثل المشهور القائل: امرؤٌ ينجح في الكارثة لكنه يفنى في العيش الرغيد.

«ماما»، قالت تسهولي، «أرجوكِ دعيني أذهب معكِ». حتى حين قالتْ ذلك، كانت تعرف أنها لا تريد الذهاب. «بغ موذر يمكنها أن ترتب الأمر، أليس كذلك؟». مكتبة .. سُر مَن قرأ

لم تحرْ أمها جواباً كما لو أنّ الفكرة نفسها لا تستحق السماع.

عوضاً عن ذلك، رفعتْ سويرل النسخة التي عملتها للفصل 17 من رواية دا – وي وبدأتْ تتجول هنا وهناك مثل مذيعة تقدّم نشرة أخبار المساء. كانت تريد أن تصنع نسخاً إضافية من الفصول كلها، قالت، كل فصل من الفصول مجلّد في دفتر ملاحظات منفصل، وسوف يكون مجموعها واحداً وثلاثين دفتراً. إنما، في كل واحدٍ منها، سوف يطرأ تغيير على حاشية النص، وسيضاف تاريخ النسخ. سوف يستخدمون الشيفرة نفسها كالمؤلف الأصلي، يضمّنون المواقع والمعلومات في ثنايا اسميْ دا – وي وميّ فورث، وكانت مفاتيح الألغاز مُعدّة لوالد تسهولي على وجه الخصوص، سوف يتعرّف على التغييرات حالاً كونها لا تعود لـ «كتاب السجلات التاريخية» الأصلي.

«لكن أيّ موقع؟» سألتْ تسهولي. «إنه شيء شديد الخطورة بالنسبة له أن يأتي إلى هنا».

كانت أمها قد فكرتْ في الأشياء كلها. كان المكان يعود لطرفٍ ثالث، السيدة دويستويفسكي، التي أعادها الحزب إلى الحياة وهي الآن تقيم في «محافظة غانسو»، تعمل لصالح عيادة للنباتات والأزهار.

«كانت قد وهبت العيادة اسماً مدهشاً»، قالت أمها. «إنها تسميها [ملاحظات من تحت الأرض][1]. الفكرة واتتني على حين غرة. تذكرتُ كيف بعث دا – وي الرسائل إلى حبيبته عبر برامج الراديو الإذاعية، عبر أمواج الأثير العمومية. مختفياً في مَشهد عادي. أنا وبغ موذر سوف نستمر في عمل النسخ ونحن نمضي، وسوف نوزعها في جميع أنحاء الشمال الغربي. كانت قد استخدمتْ ماكينة [المعهد العالي للموسيقى] كي تعمل دزينة من النسخ للفصل 17، الفصل المفضل لأبيكِ. وِين قد يبقى من دون طعام على مدى خمسة أيام، لكنه لا يقوى على مقاومة [شعبة الأدب] في مخازن الكتب. لقد أضفنا التاريخ، فاهمة؟ حالما يراه أبوكِ، سوف يعرف أن الرسالة لم يتركها المؤلف. الرسالة لن تأتي إلّا منا».

طوقتْ تسهولي أمها بذراعيها. ضمتْ أمها ظهرها لكن ذراعيها كانتا هزيلتين كجناحين.

«متى تغادرين، يا أمي؟» سألتها.

«غداً صباحاً».

قبضتْ على أمها بنحوٍ أقوى. تذكرت المنزل الصغير الذي كانوا يملكونه في بنغبي، والكهف الكبير، الخفي، الواقع تحت الأرض، المليء بالكتب والآلات الموسيقية. كانت قد هبطتْ إليه كما لو أنّها تهبط إلى مملكة سحرية وفيما هي تفعل ذلك، كانت قد غيّرت حياتيْ أبويها إلى الأبد. هل ما تزال كهوف كهذه موجودةً، تساءلتْ مع نفسها. لو عثرتْ على كهف آخر، هل ستدخله مجدداً؟

شعّتْ عيناي بضوءٍ مثير للأعصاب، شطرٌ منه غضب، شطرٌ جنون، شطرٌ غرام. «تسهولي، كوني حذرةً في ما تقولينه، واحترسي ممَّن تثقين به. ما من أحد مستثنى. الجميع يظنون أنهم بإفشاء سرٍّ واحد يستطيعون أن ينقذوا أنفسهم وكل مَن يحبونهم». خفضتْ بصرها ناظرةً إلى

---

1 – ملاحظات من تحت الأرض: Notes from the Underground. كلمة note: لها معانٍ عدة، منها: ملاحظة، مذكّرة، نغمة موسيقية، إلخ – م.

الخارطة مجدداً كما لو أنّ، ليس هذه الغرفة، هذه المدينة، هي العالم الحقيقي. «فكّري في دراستكِ فحسب. لا تكتبي لي، لا تبددي وقتك باللهو والعبث. عِديني بأنكِ لن تخوضي أيَّ مغامرةٍ من المغامرات. ركزي على موسيقاكِ».

***

بينما كانت تسهولي في طريقها إلى الخارج ثانيةً، كانت بغ موذر نايف منهمكة في غربلة الثياب، الفواكه المجففة، إبر الخياطة، حصران النوم، قطع القماش المتنوعة المخصصة لغسل الوجه والجسد، قِدر الطبخ ومجموعة من السكاكين، وهي تحاول أن ترتبها في داخل حقائب ظهر الأب لوت. «إنني بالأحرى أفضّل هذا الساطور على هذا السروال»، قالت بغ موذر وهي مستغرقة في التفكير، وهي ترفع المادتين عالياً بغرض العرض.

«إنني بالأحرى أفضّل أن تأخذي السروال»، قالت سويرل. «تعالي، دسّي الساطور في داخل لحافي...».

شرعتْ بغ موذر تنشد شعراً من «كيف تهب ريح الشمال» وكانت توشّيه بكلماتٍ داعـرة، وقهقهتْ سويرل وقالت: «غطي أذنيكِ، تسهولي!».

«أو أضيفي شعركِ الخاص!» قالت خالتها، وضحكت الأختان وطويتا الأقمشة إلى مربعات أصغر فأصغر.

أقبل دا شان إلى المنزل عائداً من المدرسة وهو ذا مستلقٍ على الكنبة وعلى بطنه مقالات الرئيس ماو عن المشاركين في حرب العصابات. «خذيني معكِ»، قال. «سأكون صرة الحصان خاصتك».

«لو أعطيتكَ حبتيْ عنب»، قالت أمه بهزء، «سوف تكسران ظهرك».

تنهد دا شان. «لماذا أنتِ قاسيةٌ جدّاً، ماما؟» قال، والتفتتْ بغ موذر، السروال يتدلى من أطراف أصابعها. لان وجهها وهبَّ دا شان واقفاً،

تناول البنطلون وطواه وأعاده إليها. «سوف تحتاجين إليه، ماما»، قال، ورسم بسمةً على ثغره.

***

أمسكتْ تسهولي بكمانها واستدارتْ ناحية «الكونسرفتوار». كانت سماء الربيع ضباباً خفيفاً من اللونين الوردي والرمادي. سارتْ بتؤدة، وشرعتْ تصغي للتسجيلات الموسيقية في حقيبتها وهي تقعقع مثل كائنات محفوظة، متسائلةً ما إذا كان سيأتي كاي لزيارتها في الغرفة 103، أم إنها عوضاً عن ذلك ستجد يين تشاي و«جلالتها بسكويت»[1] وهما يتشاوران معاً من دون انقطاع. في الظاهر بسكويت وأولد وو كانا قد انفصلا. لكن ربما، إن كانت هي سعيدة الحظ، حجرات التمرّن ستكون هادئةً كلياً. مرةً أو مرتين حتى الآن، كانت قد رأتْ كوابيس تقف فيها على خشبة مسرح أمام جمهورٍ من ألف شخص، الوجوه اليقظة أبدياً للرئيس ماو، تسهاو إينلي وليو شاأوكي تنظر إليها من على الجدران، لكنها حين تبدأ بالعزف على أوتار الكمان، رفضتْ أول ألحان الـ*تزيغاني* أن تُصدر صوتاً. تململ الجمهور. قهقهوا حين حاولتْ أن تدوزن أوتار كمانها، سخروا منها حينما أعادتْ قوس كمانها إلى موضعه، أصموها بالشتائم، لكن على الرغم من مساعيها كلها لم ينطلقْ كمانها بالألحان.

«الخوف من خشبة المسرح»، قال لها سبارو. «إنه شيء طبيعي أن يشعر المرء بالقلق». كان «المعهد العالي للموسيقى» قد حدد موعداً لحفلة تسهولي المقبلة، حفلة العزف المنفرد، في منتصف تشرين الأول «أكتوبر»، بعد أيام قلائل من عيد ميلادها الخامس عشر. كانت تريد أن تعزف ألحان باخ أو محبوبها بروكوفييف، إلّا أنَّ المعلم تان لم يستمعْ إلى رغبتها. كان يريدها أن تسعى للمشاركة في «مسابقة تشايكوفسكي»،

---

1 – جلالتها Her highness: هذه الصياغة هي إشارة إلى ملكة، أو صاحبة الجلالة، بصيغة الشخص الثالث – م.

«بعد أربعة أعوام من الآن. ألحان رافِل هي استعداد أفضل، ما لم تكوني تفضلين لحن باغانيني، المعنون *«كابريجيو رقم 24»*.[1]

«أنا ابنة يميني مُدان، يا معلمي. لا يُسمح لي بالمشاركة في مسابقة خارج بلدي».

لم تُظهِرْ عيناه شيئاً. «علينا أن نضع ثقتنا بالحزب. وأنتِ، أيضاً، عليكِ أن تؤدي دوركِ».

إنما قبل ليلتين، كان كاي قد أخبرها بأن بعض، إن لم يكنْ كل، هذه الفرص - المسابقات، المُنح الدراسية - سوف تُسحب. كان «المعهد العالي للموسيقى» هادئاً بنحوٍ غير اعتيادي في تلك الليلة. لم يكن الطقس شديد الحرارة، ربما هرب الجميع. «في يوم ما في القريب العاجل»، قال كاي ضاحكاً، «سوف نصل إلى منافذ الخروج، إنما الأبواب كلها ستكون مغلقةً». كانت حفلته الموسيقية القادمة، حفلة العزف المنفرد، قد أُدرجتْ أيضاً ضمن جدول شهر تشرين الأول «أكتوبر».

«لولا الأب لوت[2]، لما كانوا قبلوني في [المعهد العالي للموسيقى] البتة»، قالت. «كنتُ أتوقع تماماً أن أُنقل إلى [الكلية الزراعية] في [محافظة شاندونغ]».

«وهذا سببٌ وجيه لأن تحاولي الذهاب إلى الخارج».

عزفتْ فواصل موسيقية قليلة من رافِل. «أبوكَ عضو في الحزب، بالطبع».

«بذرة نقية من بذور التربة. فلاح عزف على آلة العود المصنوعة من

---

1 - كابريجيو رقم 24: الـ كابريجيو: لحن موسيقي ذو طابع حرّ غير نظامي. والـ كابريجيو 24 هو آخر لحن من ألحان الـ كابريجيو الأربعة والعشرين التي وضعها نيكولو باغانيني، وهو عمل شهير يُعزف على آلة الكمان وحدها. نيكولو باغانيني (1782 - 1840): موسيقي إيطالي شهير: عازف كمان، كمان أوسط، غيتار، ومؤلف موسيقي، يُعدّ أحد أعمدة تقنية الكمان الحديثة. ألحانه الـ كابريجيو الأربعة والعشرون للكمان المنفرد هي من بين أشهر مؤلفاته الموسيقية، وأصبحتْ لاحقاً مصدرَ إلهامٍ للعديد من الموسيقيين البارزين - م.

2 - الأب لوت هو زوج خالتها بغ موذر نايف - م.

الخيزران والتحق بـ[الثورة] في وقتٍ مبكر جدّاً، وحتى [ربان سفينتنا العظيم] لم يكنْ يعرف أنه يوجد واحد من هذا الطراز».

كان يريد أن يصدمها. رفضتْ أن تضحك. «إنني لا أصدق شيئاً مما تقوله، كاي».

تناول يدها وأمسك بها. «إنني سعيد، تسهولي. لا تثقي بي». مال للأمام وضغط فمه على وجنتها ومن ثم على شفتيها. كان دفء فمه قد أشعرها بالذل والمهانة، أدارتْ وجهها لكنه ظلَّ قابضاً على يدها، كانت حرارة أنفاسه تصل إلى أذنها. في اللحظة التي أرادتْ أن تستسلم فيها، أن تقبّله بعنف، أفلتت أصابعها. «افعلي ما يقول عازف الكمان العجوز»، قال لها كاي. استطرد قائلاً كما لو أنّه لم يحصلْ شيءٌ غير اعتيادي. «اعزفي رافِل. يمكنني أن أصاحبكِ في العزف، إن شئتِ».

«رائع»، قالت. كانت ترتعش. كان قد حوّل موضوع الحديث بانسيابية أشبه بتلك التي يدور فيها طائر، بنحوٍ منقطع النظير كالمجنون. «بما أنكَ تحب ذلك كثيراً».

حين غادر، أمسكتْ بالكمان ثانيةً. كيف تجرأ على ذلك؟ إلّا أنَّ سعادةً غامرةً، مدوِّخة، فاضحةً، تفجرتْ في داخلها. لماذا سمحتْ له؟

وصلت الآن إلى بوابات «الكونسرفتوار» الحجرية حيث كان مئات من الطلبة يتحركون دائرياً من دون نظام في أنحاء الفناء، مذكّرين إياها بفرقعة النار. مضتْ تسهولي مباشرةً إلى صف «الدرس السياسي» خاصتها، كانت قد بكّرتْ في الحضور نحو ساعة لكنها على الرغم من ذلك كانت آخر الجالسين في الصف. واحدة من زميلات صفها، كانت ترتدي عصابة ذراع[1] قرمزية اللون، كانت تتظاهر بأنها تسجل اسمها. الفتاة،

---

1 - عصابة ذراع armband: طوق من مادة معينة يُلبس فوق الكُم الذي يكون عادةً من قماش مختلف. تُلبس العصابة إما بغرض الزينة، أو للإشارة إلى كون لابسها ينتمي إلى مجموعة معينة من البشر، أو كونه ذا منصب أو مرتبة معينة من مثل رئيس منتخب «كابتن» فريق كرة القدم إلخ - م.

وهي عازفة كمان أيضاً، كانت مخلصة بصدق. في الصيف المنصرم، كانت واحدة من الطلبة ممَّن أُرسلوا إلى الريف. رفض هِي لوتنغ إيقاف إعطاء الدروس، ولذلك كان عدد محدود فقط، أولاد الكوادر الحزبية، هم وحدهم كان يُسمح لهم بالذهاب. غالبيتهم، بمَن فيهم كاي، سكنوا في ملاجئ عاريةٍ جداً. ومن الجلي، أن بعضهم لم يلمس الأرض قط من قبل إنما، مع ذلك، رجعوا من هناك بوصفهم أبطالاً.

حين عادوا إلى «المعهد العالي للموسيقى»، أظهروا معرفتهم التي عثروا عليها مؤخراً من خلال توجيه الأسئلة باستمرار لأساتذتهم، لآبائهم وللموسيقى نفسها. «علينا أن نضطلع بمسؤولية عقولنا!» صرّحت الفتاة. «كي نغيّر وعينا، علينا أن نغير ظروفنا!». كان المدرّس ممنوعاً من دخول الغرفة. كتبتْ تسهولي وزميلاتها في الصف مقالات على جرائد مرمية وورق قصاب ولصقنها على الحائط الشمالي. «هل نحن موهوبات؟» تساءلت المقالات. «إن كنا كذلك، مَن يهتم بموهبتنا؟»، «ما نفع هذه الموسيقى، هذه الأشياء الساحرة الفارغة، التي تحصّن الطبقة البورجوازية وتعزل الفقراء؟»، «إن كان الأمر الجمال بإزاء القبح، اختاروا إذن القبح!»، «أيها الرفاق، أيتها الرفيقات، [الثورة] تعتمد علينا!».

الآن وجه الصف انتباههم إلى الكاتب المسرحي وو، والشاعر غيو. كلا الرجلين، اللذان كانا مشهورين في يومٍ ما، اكتشفا بكونهما عدوّين للشعب.

«يزعم غيو أنه لم يدرسْ فكر ماو تسي تونغ بشكلٍ مناسب، إنه يقول إننا يجب أن نحرق كتبه كلها، إنه يزعم أنه خضع للإصلاح لكننا نعرفه، رفاقي رفيقاتي، أليس كذلك؟ الأفعى يكذب. كم مضى عليه كعضو في الحزب؟ كم مضى عليه بوصفه خائناً سرياً؟».

«وعلى الرغم من ذلك لم تحرّك السلطات ساكناً!».

«نحن معشر النساء يتحتَّم علينا أن نكون في طليعة الصراع الطبقي العنيف، علينا أن نجعل منه طبيعتنا. ما من أحد يناضل من أجلك. ما من

أحد يستطيع أن يغسل لك وجهك! [الثورة] ليستْ فقط كتابة مقالة أو عزف [أغنية المشاركين في حرب عصابات]...».

«بالضبط، الجيل الأكبر سناً استخدموا [الثورة] كي يحموا مراكزهم الاجتماعية. لقد خانونا».

بدأ الطلبة يظهرون انتقاداتهم لأنفسهم، كل واحد منهم للآخر، والفتاة المجاورة لها، وهي متخصصة بالـ إيرهو، سخرتْ من تسهولي لأنها آثرت الموسيقى في المفتاح «السلبي» و«المتشائم» من E – flat minor [1]، واستمرتْ في عزف السوناتات التي وضعها الموسيقيون السوفييت التعديليون[2]، بمَن فيهم الشكلاني الذي ألحقوا به العار: بروكوفييف. وبَّختْ تسهولي نفسها بضراوة، تعهدتْ بأن تحتضن المفتاحين الكبيرين C و G [3]، وأنهتْ نقدها الذاتي بـ«تعيش الثورة العظيمة كي نخلق ثقافة بروليتارية، تعيش الجمهورية، يعيش الرئيس ماوا». هل كانت هي انتقادية بما يكفي، انتقاديةً جدّاً؟ وجوههم، إيماءاتهم، عيونهم: كانت باردة. كانوا يعرفون أنه، في لحظة الكلام، كانت تؤمن بما قالته، إنما ما إن ينتهي الدرس، حتى يتداعى الوضوح. كانت أفكارها تواصل تطفّلها.

بحلول نهاية جلسة الدراسة، كانت يداها تستريحان على ركبتيها كحجرين. واقفةً، كان بمستطاعها أن تحسّ بأن فستانها المشبع بالعرق قد التصق بظهرها وساقيها. مُحرجَةً، جلستْ من جديد، خفضتْ بصرها وألهتْ نفسها بكتبها.

---

1 - E – flat – minor: هي درجة من درجات السلّم الموسيقي، وهي: مِي، بحسب المصطلح الموسيقي المعروف عالمياً. ومعنى المصطلح كله: على درجة مِي بمول الصغير؛ بمول تعني ناقص نصف – م.

2 – التعديليون revisionist: المشاركون في التعديلية، وهي حركة في الاشتراكية الماركسية الثورية تؤيد الأخذ بروح التطور – م.

3 – المفتاحان الكبيران، The major keys C and G: أي المفتاحان «دو» و«صول»، الكبيران، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.

بعد أن تشتت الصف، تجولتْ في الأزقة هنا وهناك، ووصلتْ إلى الغرفة 103 كما لو أنّها في منزل صديقة حميمة. وجدتْ كاي هناك مع ابن خالتها. كان سبارو مستنداً على الجدار البعيد وحين رفع وجهه السابح في عالمٍ آخر وابتسم لها، ظنتْ أن عينيه كانتا تملكان أشد الأضواء حزناً. ابتسم لها كاي بسمةً عريضةً. أغلقت الباب وراءها وشعرتْ كأنها دلفتْ إلى الفضاء الخارجي. تنويع *غولدبيرغ* رقم 21 من ألحان باخ أفسح المجال إلى الرقم 22، وهو تنويع مبتهج، شجاع ومهيب عزفه كاي كما لو أنّه كان يقذف على طريقة المشعوذين دزينة من السكاكين الفضية، وجميع الحافات خفقتْ وشعّتْ.

كاي، فكرت، أنت ضائع حالك حالي. ليس لديك فكرة من أين يأتي هذا الجمال وإنكَ تعرف أكثر مما تعتقد بأن وضوحاً كهذا يمكن أن يأتي من فؤادكَ نفسه. ربما كان كاي، على غرار سبارو، مرعوباً من أنه في يومٍ ما قد ينقطع الصوت، وأن يصبح عقله أخرس، والأنغام كلها سوف تتلاشى. كاي العزيز. آه، فكرت، وهي تستدرك الأمر بسرعة، كانت «العزيز» كلمة حمقاء تنطوي على الوجدانية ولصقتْ بها بسبب الاستخدام المسموح به. ماذا يتعيَّن عليها أن تسميه إذن؟ كانت عيناها تهددان بالامتلاء. كان جيانغ كاي يشبهها كثيراً ومع ذلك... في اللمحات الدرامية ليديه، عزف الأنغام كلها كما لو كانت تعود له وحده. كان أداؤه مليئاً بالنزوات والجمال والتعقيد؛ فكرتْ أنه ربما يكون مناسباً بشكل أفضل لعبقري حادّ المزاج من مثل بيتهوفن أو رحمانينوف[1] أو حتى الارتفاعات العالية الحديثة الطراز لـ سترافنسكي[2]. باخ، كانت تعتقد على الدوام، هو رجل مشفر،

1 - سيرغي فاسيليفيتش رحمانينوف (1873 - 1943): عازف بيانو متذوق، مؤلف موسيقي، وقائد فرقة موسيقية، روسي الجنسية؛ ينتمي إلى أواخر العهد الرومانسي. تُعدّ بعض أعماله من بين أكثر الأعمال الموسيقية رواجاً في الذخيرة الرومانسية - م.

2 - إيغور سترافنسكي (1882 - 1971): مؤلف موسيقي، عازف بيانو وقائد فرقة موسيقية، ولد في كنف الإمبراطورية، روسي الجنسية. يُعدّ على نحو واسع واحداً من أهم المؤلفين الموسيقيين وأكثرهم تأثيراً في القرن العشرين - م.

سمكة غريبة، مؤلف موسيقي أحب الله وكرّس نفسه للنظام العددي للعالم، إلّا أنَّ فؤاده كان متشظياً. كان حاضراً خارج الزمن. في يومٍ ما، سوف يعزف باخ بكل الحماسة التي استجمعها المؤلف الموسيقي، إنما ليس الآن. كان كاي لا يزال يافعاً جدّاً، متأكداً جدّاً.

تلبيةً لإصرارها، عزف سبارو الحركة الأولى لسيمفونيته رقم 3 غير المكتملة فيما كانت هي وكاي يتكئان على الجدار. الاستهلال تسلل من مفتاح E – flat major [1] إلى B minor [2] المضيء. سمعت اللانغمية[3] التي حُفرتْ في السطح المتآلف الألحان بشكل كاذب، سمعت انفجارات زائلة والزمن يسرع مثل دولاب يدور بنحو أسرع من أيّ وقتٍ مضى. كانت تعرف أن سبارو، مقارنةً بموهبتها كلها، بموهبة كاي كلها، هو الذي امتلك أكثر المواهب واقعيةً. كانت موسيقاه تجعلها تصدّ عن المستقبل غير الممكن والحاضر تقريباً، عن المستقبل المتغيّر والذي لم يُختبر. الحاضر، بدا أن سبارو يقول، هو كل ما نملكه، مع أنّ ذلك هو الشيء الوحيد الذي لن نتعلّم كيف نقبض عليه بين أيدينا.

بينما كان الآخرون في «المعهد العالي للموسيقى» يهبون أعمالَهم أسماءً شاعرية («غبطة الجنود الشبان» أو «ثلاثون ميلاً نحو محطة كورير») سبارو، كالعادة، ألقى جزءاً من البرنامج. مع أنّ تسهولي تصورتْ أن باستطاعتها أن تسمع حضور أبيها في الموسيقى بصورةٍ جليةٍ كما لو أنّ اسم وِين الحالم مكتوب في الصفحة. هل كُتب اسمه هناك سرّاً؟ باخ، على سبيل المثال، كان يشفر الحروف الأربعة لاسمه[4] في موضوعِ

---

1 – E – flat major: وتعني على درجة مِي بمول الكبير، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.

2 – B minor: وتعني على درجة C الصغير، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.

3 – اللانغمية atonality: غياب الانسجام الوظيفي بوصفه عنصراً بنيوياً أولياً. وهو عكس مصطلح النغمية tonality الذي يعني صفة اللحن المتوقفة على سلّمه الموسيقي – م.

4 – باخ اسمه باللغة الألمانية Bach يتألف من أربعة حروف وليس ثلاثاً كما هو بالعربية – م.

واحد. هذه النوتات الأربع، كانت في النظام الألماني B هي B – flat[1] و H هي B – natural[2]، كانت بمنزلة توقيعه، يصعد إلى السطح من خلال الموسيقى. ألم يشفرْ شومان المدينة التي وُلدتْ فيها عشيقته؟ كان ذلك أشبه بابن خالتها وهو يتكلم من دون كلام. كانت يد تسهولي اليسرى تعزف على كمان غير مرئي، وحين انتبهتْ لنفسها وهي تفعل هذا، توقفتْ فجأةً. ومع ذلك، سمعتْ نمطاً متكرراً في ثنايا عمل سبارو الجديد، كما لو كانت تلك آثار أقدام وِين الحالم. ليلاً، كان أبوها يمشي مارّاً بأحلامها هي، أيضاً. منذ هربه من المعسكر، أين يُحتمل أن يكون مختفياً؟ في الشهر المنصرم، كانت تسهولي قد سمعتْ أمها بالمصادفة وهي تقول إن جثامين أولئك الذين قضوا في معسكرات الصحراء تُركتْ لتتعفن في الكثبان الرملية. العلماء والمعلمون، أعضاء الحزب المخضرَمون، أطباء، جنود، أشخاص يؤدون أعمالاً مملة وغير مهمة ومهندسون، أعدادهم أكثر من كافية كي يبنوا صين أفضل في العالم السفلي.

«كوني حذرةً. حتى الأشباح هي غير شرعية هنا»، قالت بغ موذر.

«الكذبة كبيرة جدّاً. لا يمكنني أن أتظاهر، لا أريد أن أفعل ذلك».

قالت بغ موذر نايف إن تطهيراً آخر في الطريق، كانت ثمة شائعات في وحدة العمل خاصتها.

«إنني حمقاء ومخبولة»، قالت سويرل. «كنتُ مخبولةً».

بأيّ طريقة كانت هي مخبولة، تساءلتْ تسهولي. ماذا كانت تقصد؟

بغ موذر أذابت السوداوية بتجشؤ طويل، مقعقع. «إن لم يكنْ بمستطاعكِ أن تتظاهري بكونكِ شيوعية، الحل الوحيد هو –».

بغتةً، توقف سبارو عن العزف. «إنها غير مكتملة»، قال: «لا يمكنني الاستمرار».

---

1 – B – flat: وتعني على درجة C بمول، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.
2 – B – natural: وتعني على درجة C الطبيعية، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.

«لكنها قطعة موسيقية استثنائية»، هتف كاي. «إنها تحفتك».

متخضباً بحمرة الخجل، سلّم سبارو تسهولي كمانها بيده. «إنها لاشيء»، قال.

كي تتخلص من السماجة في الغرفة، اختارتْ سوناتا يسايي[1] في مفتاح E-minor الملتبس. حسدتْ ذكاء المؤلف الموسيقي، الحنو المتقيد بالقواعد والعادات اللذين كان يمتلكهما سبارو، وودّتْ أن ترعاها في داخل نفسها، إنما لم يكنْ ذلك ممكناً. كانت عازفة، زجاجاً شفافاً يعطي الماء شكلاً، ليس أكثر من زجاج. حين انتهت السوناتا، قفز كاي وأسرع مغادراً الغرفة. «بعض الناس حقيقةً لا يحبون درجة E-minor»[2]، تمتمتْ تسهولي.

«ربما كان لديه لقاء غرامي غير شرعي».

كان الوقت متأخراً، منتصف الليل تقريباً. «لا أعتقد أن عازف البيانو صاحبنا لديه عشيقة».

بدا سبارو شاحباً.

كي تعيد اللون إلى وجهه، ذكّرته بأن أمه وأمها كانتا تحزمان حقائبهما، كانتا تغادران متجهتين نحو غانسو النائية. «إنه شيء أفضل بالنسبة للخالة سويرل. شنغهاي مضطربة الآن تحديداً»، قال.

«لماذا؟».

لم يجبْ. كانت تسهولي ترغب بأن تسأله عن الخوف لأن هذا الاضطراب والقلق في داخلها، هو أيضاً نوعٌ من التصحّر، نوع من الجوع، وأين سينتهي؟ إنه يقطع خط الصَّدْع ويهرع مباشرةً إلى يديها.

إنما في تلك اللحظة، رجع كاي. «البروفيسور[3] أحضر الطعام لنا»،

---

1 - يوجين يسايي Eugene Ysaye (1858 - 1931): عازف كمان، مؤلف موسيقي، وقائد فرقة موسيقية بلجيكي. يُعدُّ «ملك الكمان»، أو كما وصفه ناثان: «القيصر» - م.

2 - الـE-minor: وتعني على درجة مِي الصغير، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي - م.

3 - يتضح من سياق الرواية أن كلمة «بروفيسور» تُطلق على كل أستاذ جامعي أو مدرّس في «المعهد العالي للموسيقى»، وليس حصراً على الأكاديمي الذي حاز درجة الأستاذية: بروفيسور، كما هو الحال عندنا في العراق، على سبيل المثال - م.

قال كاي، وهو يحمل ثلاث حصص من المعكرونة المسطحة، ثلاث كعكات طحين محلاة قليلاً ويا للدهشة، قارورة صغيرة من الخمر. لم يكنْ لدى تسهولي أيّ فكرة عمّن يكون البروفيسور لكنها قررتْ أن ذلك ليس بالأمر المهم. كانت معدتها تقرقر. كان التجهم في عيني ابن خالتها قد اختفى كما لو أنّه لم يكنْ موجوداً من قبل.

قال كاي إن بعض الطلبة عادوا من إظهار قدراتهم ومواهبهم[1]، إلّا أنَّ الشوارع كانت هادئة. هادئة، بالنسبة لك، فكرتْ تسهولي. كاي وابن خالتها معاً كانت لهما خلفيات طبقية لا يمكن مهاجمتها، كانا «ابني التراب»، «ابني الثورة»، «ابنيْ بطلين ثوريين»، «ابني...». ضحكتْ وجرعت الخمر. كان وجه ابن خالتها غائماً من فرط الفرح.

هي وكاي تعانقا عناقاً حاراً على المصطبة. كانت الكحول قد صيّرت أفكارها خفيفةً وغير محتشمة وقررتْ أن ترتقي المصطبة وتحيي ابن خالتها. لفَّ كاي إحدى ذراعيه حول ساقيها كي يحول دون سقوطها من المصطبة، وكان ضغط يديه يجعل تسهولي ترغب بأن تدفعه بعيداً مع أنّها كذلك كانت ترغب بأن تنكمش بين ذراعيه. «ابن خالتي سبارو!» أعلنتْ. «ضعف عمري -».

«شائخاً جدّاً؟» قال محتجّاً.

«- إنما أفضل أصدقائي في العالم بأسره! سأقف بجواركَ حين يأتي الطوفان!».

«عسى أن يتجاوزنا الطوفان جميعاً، حبيبتي تسهولي»، قال سبارو.

«عسى أن يرفعنا الطوفان إلى شواطئ أحسن»، قال كاي.

---

1 - عادوا من إظهار قدراتهم ومواهبهم demonstrating: أي إنهم يعرضون مواهبهم أمام لجان الاختبار أو الفحص، كما هو الحال عند اختبار المذيعين أو المغنين والمغنيات أو الموسيقيين وما إلى ذلك. يُسمى هذا الاختبار في العراق: المشاهدة، أي إن لجنة الاختبار تشاهد المتسابق أو مَن يشاركُ في اختبارات المواهب والقدرات الأدائية كالخطابة أو الغناء أو التمثيل المسرحي وما شابه ذلك - م.

كانت تسهولي هي أول المستسلمين للإعياء. تركتهم. خارج غرفة التمرّن، وقفتْ تنصت لحظاتٍ قليلةً، تنتظر الموسيقى أو الأصوات كي تبدأ من جديد، إنما لم يكنْ هنالك شيء.

***

ومع ذلك، في ساعةٍ مبكرة من صبيحة اليوم التالي، حين كان «المعهد العالي للموسيقى» لا يزال هادئاً، هو ذا هنا كما وعد: العزيز كاي، ذلك العازف المُنهَك، نصف منثنٍ على البيانو كما لو أنّه ينثني على ذراع صديق قديم.

«لقد تأخرتِ، رفيقة تسهولي»، قال لها.

«هل نمتَ هنا؟».

«نمتُ وعيناي مفتوحتان وقلم الحبر في يدي».

«تكتب نقداً ذاتياً، إنني متيقنة من ذلك».

تبسَّم. كم بدا متعباً، مع أنّه مكهرَب، كما لو أنّه طلع توّاً من حلقة دراسية[1] أمدها عشر ساعات مع غلين غولد نفسه. «الحقيقة هي»، قال، «إنني لم أسمعْ *تزيغاني* من قبل. أتيتُ مبكراً كي أتدرب عليها. كنتُ أخشى أن تستثنيني من حفلتكِ الموسيقية وتعزفين بصحبة يين تشاي بدلاً مني».

«إذن أصبحتَ ضليعاً فيها».

هو ذا ثانيةً: الفخر يبرق في عينيه. «بالطبع».

بعد أن عزفها من البداية إلى النهاية مجدداً، جلس كل منهما في مواجهة الآخر، متقاطعي السيقان على الأرض. «هل استمعتَ إلى تسجيل أويستراخ[2]؟» سألته.

---

1 - الحلقة الدراسية seminar: مجموعة صغيرة من الطلبة الجامعيين منصرفة إلى موضوع من مواضيع الدراسة العليا أو البحث العلمي بإشراف أحد الأساتذة - م.

2 - ديفيد أويستراخ (1908 - 1974): عازف كمان وكمان أوسط كلاسيكي سوفيتي شهير. اشترك أويستراخ مع فرق موسيقية وموسيقيين في أجزاء عدة من العالم: الاتحاد السوفييتي، أوروبا، الولايات المتحدة - م.

«عشر مرات. وجدته مخيفاً ولا يتوقف عن... أصغيتُ أيضاً إلى هيفيتز[1] ونيفيو[2]».

«أخبرني البروفيسور تان بأن أفكر فيه جنباً إلى جنب مع *[فاوست]* غونود[3]»، قالت تسهولي. «كما تعرف، [كل ما ترغب فيه يمكنني أن أزودكَ به]. أن تبيع روحكَ لأرواح الشيطان. الشيء المألوف». قال تان إن قطعة الكمان الموسيقية لـ*تزيغاني* كانت صعبةً بنحو مفرط. تمام، فكرت.

أومأ كاي برأسه، وقام بإشارات مستغلقة، عائمة على قطعته الموسيقية. «كانت قطعة البيانو مبهمة، أليس كذلك؟» قلب عدداً قليلاً من الصفحات. «أولاً، إنها تدخل متأخرة. وثانياً، إنني أجدها باردة. انظر كيف أنها لا تفقد السيطرة ولا تلهث؟ ومع ذلك أشعر أن ثمةَ جوعاً كبيراً هنا. إنها تريد أن تفرض سيطرتها على الأشياء. أن تدفع الكمان وتقرّبه من الحافة، في الأرجح».

كان ذلك حقيقيّاً. في الثلث الأخير، دار الكمان أسرع فأسرع، دورات مستحيلة تقريباً. قالت بصوتٍ مرتفع، من دون تفكير: «هو ليس حبّاً إذن، إنما شيء شبيه به».

هي وكاي عزفا المقطوعة الموسيقية كرّةً أخرى وتفاقم عدم الانسجام بين الآلتين الموسيقيتين، مثل رقصة بين عاشقين مرَّ زمن طويل منذ أن حطّم كل منهما الآخر ومع ذلك سارا قُدُماً بالخطوات نفسها الباعثة

---

1 – ياشا هيفيتز (1901 – 1987): عازف كمان روسي، ولد في ليتوانيا. يعدّه كثيرون أعظم عازف كمان في الأزمنة كلها – م.

2 – جينيه نيفيو (1919 – 1949): عازف كمان كلاسيكي فرنسي. توفي في سن الثلاثين أثناء حادثة تحطم طائرة – م.

3 – تشارلس فرانسواز غونود (1818 – 1893): مؤلف موسيقي فرنسي، معروف جدّاً بعمله ***Ave Maria*** المستند على عمل بالاسم نفسه لـباخ، وكذلك بالأوبرا «فاوست». ثمة أوبرا أخرى له، لا تزال تُعزف حتى الآن، بين الحين والآخر، وهي أوبرا «روميو وجولييت» – م.

على الجنون. لم تنتهِ بشكل حسن، فكرتْ تسهولي، وهي تمدّ يدها إلى النوتات، ظهرها مفروص، عنقها يوجعها. كانت قد عاشت الخراب والفساد. جدران الغرفة 103 رقصتْ جانبياً وبدتْ كأنها تستسلم لها، كما لو أنّها أمست المطر والسيل.

انتهت الموسيقى. جلستْ إلى البيانو وتفرستْ في المفاتيح. تناول كاي يديها اللتين كانتا حارتين ونديتين. كانت تمقت تلك العادة حين يمسك الناس بيديها، كانتا حساستين وتؤلمانها على الدوام، وكانت لديها أحلام وفيها كانتا تُسحقان أو تُقطعان بشكل مكشوف. كما لو كان بمستطاعه أن يقرأ أفكارها، تركها وشأنها (أي الأفكار)، رفع قلمه الرصاص وربّت على التسجيل. «إنكِ ترين في كل فاصلة موسيقية[1] أكثر من أيّ عازف كمان في [الكونسرفتوار]».

«[الكونسرفتوار] زاوية متناهية الصغر في العالم». تناولتْ قلم الرصاص منه، حرّكته بقليلٍ من الحيوية[2] وقالت: «هنا تلعثمتُ. بنحوٍ قاتل. دعنا نعد مجدداً».

طافتْ يده في أسفل ظهرها.

تحركتْ كي تهب واقفةً، إلّا أنَّ يده كانت حول خصرها.

«تسهولي». كان صوته قريباً جدّاً منها، وضغط فمه على شعرها. «لا تخافي»، قال لها.

لم تكنْ خائفةً. فقط، فكرت، لو أنّ فمه عثر على فمها، ثمة عدد غفير من الناس، كلمات كثيرة جدّاً، أشياء كثيرة جدّاً أحبها وأتمناها. لديَّ إحساس بأن هناك وقتاً قليلاً جدّاً. تبادلا القبلات. لم تكنْ تعرف أنها لا تزال منتصبةً، أحسَّتْ كأنها مستلقية على أرض الغرفة.

ابتعدتْ عنه وهبتْ واقفةً ومضتْ إلى كمانها كما لو أنّ شيئاً لم

---

1 – الفاصلة الموسيقية: هي الـ bar الموسيقي – م.

2 – قليل من الحيوية: وردت بالإيطالية في النص الإنكليزي: meno vivo – م.

يحصلْ، مزهوةً بأن بوسعها أن تكون غير مبالية مثله، واختبرتْ أول الفواصل الموسيقية الأولى لـ*تزيغاني*. شعرتْ أن عقلها مصمم وغير مبالٍ، إلّا أنَّ قلبها كان مبتهجاً. كان كاي يبتسم لها. ماذا شعر، تساءلتْ. في أعماق ذاته، في ذلك الشطر السري منه، هل يوجد شخصٌ ما يثق به بالفعل؟ كانت قد أوصتْ نفسها بأن تغيب في رافِل. أطلقت العنان لنفسها، كي تمضي إلى داخل الجدران وإلى داخل الصوت نفسه.

-6-

من دون أن نعرف، الأسابيع التي أعقبتْ مغادرة أي – مينغ أصبحتْ شهوراً، والشهور أصبحتْ أعواماً.

في الثامن عشر من أيار «مايو» 1996، كنتُ أشاهد التلفزيون وأحاول أن أحل المسألة الصعبة («لنفترض أن D هو عدد صحيح موجب ليس مربع عدد كامل. برهنْ أن الكسر المتصل «المستمر» $\sqrt{D}$ هو دوري) حين رنَّ جرس الهاتف. كان صوت أي – مينغ واضحاً بنحوٍ عجيب، كما لو أنّ كل ما هو مطلوب مني أن أمدَّ يدي وأجرها إلى داخل الغرفة. كنتُ فرحةً بشكل مفرط. كان قد مضى شهر على رسالتها الأخيرة وكنا أنا وأمي نتوقع أنباءً سارةً: بعد خمسة أعوام طويلة، العفو العام الذي تناقلته الشائعات تحقق أخيراً وأي – مينغ، مع ما يقارب نصف مليون شخص سواها، قدّمتْ طلبها للإقامة الدائمة في الولايات المتحدة.

«ما – لي»، خاطبتني قائلةً. «اتصلتُ هاتفياً كي أبلّغك تمنياتي بعيد ميلاد سعيد».

كنتُ قد أصبحتُ توّاً في السابعة عشرة. أمطرتني أي – مينغ بوابل من الأسئلة عني – عن أمي، عن زمرة الرياضيات، خططي في ما يتعلق بالالتحاق بالجامعة، عن حياتنا – لكنني تجاهلتُ أسئلتها. «ماذا جرى لطلبكِ؟ هل حددوا لكِ موعداً بغرض المقابلة؟».

«لا... ليس بعد».

أخبرتها أن تعطيني رقمها، وأن تعلّق المكالمة الهاتفية حتى يمكنني معاودة الاتصال بها.

«أوه، لا تزعجي نفسكِ»، قالت أي - مينغ. «بطاقات الهاتف هذه رخيصة جداً. فقط بنس واحد عن كل دقيقة».

كانت لديها الآن لكنة نيويورك في إنكليزيتها لم تكنْ لديها من قبل. في الاثنتين معاً، سان فرانسيسكو ونيويورك، عملتْ في مهن عدة - نادلة، منظفة منزل، مساعِدة أم، معلمة خصوصية. في أول الأمر، خلال أيامها الأولى في نيويورك، كانت رسائلها حافلةً بنحو جلي بالمشاهدات، بالنكات والقصص. أنا وأمي قمنا بزيارتها مرتين في سان فرانسيسكو حيث، على الرغم من كل شيء، بدتْ سعيدةً. لكنها بعد أن انتقلتْ إلى نيويورك في العام 1993، لم نرها أبداً. كانت أي - مينغ تقول دوماً إنه ليس الوقت المناسب للزيارة - كانت تقيم في مهجع ولا يمكنها استقبال الزائرين؛ كانت ساعاتها غريبة؛ كانت تعمل خلال نوبات ليلية. مع ذلك، كانت رسائلها تصلنا بانتظام كعمل الساعة. لم تعدْ رسائل أي - مينغ عن حاضرها، إنما عن أشياءٍ تذكرتها من بكين أو من طفولتها وصباها.

في العام 1995، حين مرر «الكونجرس» المادة 245 (آي) من «قانون الهجرة والجنسية» كنا نعتقد أنها سوف تحصل على وضع شرعي في غضون عام واحد.

في الاتصال الهاتفي الآن، لم أكنْ أعرف ماذا يتعيَّن أن أقول. حلَّ سكون الآن، على حين غرة. «أي - مينغ، كيف أحوالك الآن، حقيقةً؟».

«ماري، إنكليزيتي تحسنت الآن كثيراً. هم لن يكونوا قادرين على أن يخيبوا أملي». بدتْ ضحكتها كأنها آتية من شخصٍ آخر. «ما إن أحصل على تصريحاتي، سأذهب إلى وطني. أمي... إنه لا شيء، فقط...». وراءها سمعتُ قعقعة ماكينة. «ستأتين إلى نيويورك توّاً، أليس كذلك؟».

«بالطبع!» لكن مع أنّني قلتُ هذه الكلمات، لم تكنْ لديَّ أيّ فكرة كيف يمكنْ أن تكون هذه الرحلة ممكنة. أنا وأمي كنا نتألم بنحوٍ لم نألفه من قبل.

«لقد أصبحتِ في السابعة عشرة. لو أنّنا اجتزنا الشارع فربما لن أتعرّف عليكِ».

«إني في الحال نفسها، أطول فقط... أي مينغ، لديَّ نكتة جديدة: ماذا

تقول بطاقة عيد ميلاد البوذي؟» كانت قد بدأتْ تقهقه: «البطاقة تقول: [لا أفكر فيك.]».

«ما – لي، كم يستغرق البوذيون كي يثبتوا بصلة المصباح؟».

«صفر! إنهم هم بصلة المصباح».

بدت الماكينات وراءها كأنها تضحك على سبيل المصاحبة. «هل يمكنكِ...». سعلتْ وأخذتْ نَفَساً. قالت: «ألا تزالين تمتلكين نسخةً مكتوبة باليد من الفصل 17؟ إنها نسخة أبيكِ...».

كان يتحتَّم عليَّ الإصرار. كان يتحتَّم عليَّ أن أسألها ماذا تريد أن تقول لي، إلّا أنَّ أي – مينغ بدتْ ضعيفةً جدّاً. بدا كما لو أنّني أصبحتُ الأخت الكبرى وهي الأخت الصغرى. قلتُ لها: «بالطبع، إنها هنا تحديداً على رف الكتب، بجانب المجموعة التي استنسخناها فوتوغرافيّاً في سان فرانسيسكو. أتذكرين؟ يمكنني أن أراها من المكان الذي أقف فيه... هذا الصيف سنأتي إلى نيويورك، هذا وعدٌ مني».

«إنني أشتاق إلى نبرات صوتكِ. في بعض الأحيان، أقضي ساعاتٍ طويلةً في محطة قطار الأنفاق، أحسُّ أنني أشبه بطفلة في العالم السفلي، وأتخيل أشياءً شتى من الصنوف كلها... الآخرة مملكة فريدة، لا نظير لها، بكل ولاياتها، قضاتها وحكومتها، من المفترض أن تكون مدينةً أخرى تماماً... *[إنني مُلتاعٌ شوقاً إلى جنةٍ مفقودةٍ / سوف أُبعث حراً وأرحل بعيداً.]*[1] أتعرفين هذه القصيدة؟».

كلماتها زرعت الخوف في نفسي. «أي – مينغ، لا تفقدي الأمل الآن، لا تفعلي ذلك وأنتِ تبذلين أقصى ما تستطيعين من جهد».

«أوه، ما – لِي، لا تحسبي أنني تعيسة. الأمر بعيدٌ جدّاً عن ذلك. إنني فقط أريد أن أتخذ خطوةً أخرى. أريد أن أعيش».

***

---

1 – «إنني ملتاعٌ شوقاً إلى جنةٍ مفقودة...»: اقتباس محوّر من جؤو تزؤو، أو *أغاني جؤو: «الرحلة البعيدة»*، ترجمة جيّ. بيتر هوبسون: *«دراسات في الدين المقارن»*، المجلد الخامس عشر، العددان 1 و 2 (شتاء – ربيع، 1983) – ك.

قبل أن تودعني، كتبتُ رقم هاتفها الجديد في الصفحة نفسها التي دونتُ فيها جوابي على الكسر المتصل «المستمر» $\sqrt{D}$. لكن حين حاولتْ أمي الاتصال بـ أي - مينغ في تلك الليلة، كان الخط مقطوعاً. خفتُ من كوني لم أسمع الرقم جيداً أو اقترفتُ خطأً في أثناء تدوينه على الورقة، مع ذلك كانت نبرة صوتها واضحةً بشكل دقيق جدّاً، وبشكل تامّ جدّاً. وعندما حاولتْ أمي الاتصال هاتفيّاً بأم أي - مينغ، رنَّ جرس التلفون، إنما لم يردَّ عليها أحد.

بعد مرور أسبوعين، وصلتنا رسالة. قالت أي - مينغ إن صحة أمها تدهورتْ على حين غرة وإنها ذهبتْ إلى وطنها. أخبرتنا ألّا نقلق عليها، وإنها في القريب العاجل ستكون قادرةً على زيارتنا في كندا. كنتُ أريد أن أعطي أي - مينغ بريدي الإلكتروني - marie.jiang1979@pegasusmail.com. كنا قد نصبنا الإنترنت في البيت وكان هذا أول عنوان لديَّ؛ كنتُ أعرف أن هذا يعني أننا لن نفقد الاتصال، وسنكون قادرين على التواصل معاً فوريّاً تقريباً. في عصر كل يوم، حين أعود إلى البيت من المدرسة، كنتُ مقتنعةً أنه ستكون هناك رسالة خطية أو رسالة إلكترونية صوتية، إنما لم يكنْ هناك سوى السكون، الذي [1] أصبح احتكاكاً في الهواء.

حين أقبل الصيف، طرنا إلى نيويورك وأخذنا قطار الأنفاق إلى آخر عنوان معروف لـ أي - مينغ. إحدى رفيقاتها في الغرفة، إيدا، وهي امرأة أكبر مني سناً، قالت إنها حذّرتْ أي - مينغ من الذهاب إلى بلادها. إذا اكتشفت الـ INS [2] أنها غادرت البلاد، سوف يُرمى طلب أي - مينغ.

---

1 - الذي: وردتْ بالفرنسية في النص الإنكليزي: qù - م.

2 - INS: الـ Immigration and Naturalization Service: وكالة الهجرة والتطبيع في الولايات المتحدة. وهذه الوكالة كما هو واضح من اسمها معنية بشؤون المهاجرين إلى الولايات المتحدة وتجنيسهم ودمجهم بالمجتمع الأميركي. كانت وكالة تابعة لوزارة العدل الأميركية من 1933 - 2003، بعد هذا التاريخ نُقلتْ أنشطتها إلى ثلاثة كيانات. حصل هذا التغير في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول «سبتمبر» 2001 - م.

والأسوأ من ذلك، إذا قبضوا عليها وهي تدخل مجدداً، سوف تُمنع من دخول الولايات المتحدة عشرة أعوام. إيدا، نفسها، كانت قد حصلتْ على عفو عام في ظلِّ البرنامج نفسه. أعطتنا الاتجاهات بغية الوصول إلى معمل الزهور البلاستيكية الذي كانت تعمل فيه أي - مينغ، لكننا حين وصلنا إلى هناك، لم يتحدثْ إلينا أحد في المكتب. في الختام، فيما كنا نهمّ بالانصراف، هرعتْ إلينا فتاة مراهقة. تكلمتْ معنا بالكانتونية - الصينية. قالت إن أي - مينغ كان من المتوقع أن ترجع قبل أسابيع لكنها لم تعدْ.

ولأننا لم نكنْ نعرف ماذا يتعيَّن علينا أن نفعل باستثناء ذلك، تجولنا أنا وأمي في «الحيّ الصيني»، ونحن نحمل صورة فوتوغرافية لـ أي - مينغ، ونتنقل من مطعم إلى مطعم. واحداً إثر الآخر، كان الأشخاص يتفحصون الصورة ويهزون رؤوسهم نفياً.

لم يسبقْ لنا، أنا وأمي، أن زرنا نيويورك من قبل، وأحسستُ أنني أشبه بنصل ورقة عشب في عالم من السمك. كل مركبة من المركبات، لاحتْ لي، كانت تتخفى، تتخذ شكل سيارة أجرة صفراء. أمي، دائخةً، بالكاد بدتْ منتبهةً للمدينة. كما لو كنا في حلم، قطعنا «جسر بروكلين»، فوق الماء المتموّج.

في تلك الليلة، استخدمتْ أمي بطاقة الائتمان العائدة لها بحيث كان باستطاعتنا الدخول إلى حفلة موسيقية في «قاعة كارنيجي»؛ في البهو والقاعة الرئيسة، تمعنتُ في الوجوه كلها، صفّاً بعد صف، حتى أعلى شرفة إلى أن توارى كل شيء في الظل. استوطنتْ إحدى قصائد «كتاب السجلات التاريخية» في ذهني، *أفراد الأسرة يطوفون هنا وهناك، مبعثرين على الطريق، ملتصقين بالظلال / يتحرقون شوقاً للوطن، خمسة مَشاهد طبيعية اندمجتْ في مدينة واحدة.*[1] الموسيقى، كونشيرتو «الإمبراطور» لـ بيتهوفن، التي كان أبي قد عزفها منذ عقود خلتْ مع «الفرقة السيمفونية

---

1 - «أفراد الأسرة يطوفون هنا وهناك...»: اقتباس محوّر من باي جيبي: «مشاعر في مراقبة القمر» http: / /www.chinese -poems.com /bo3.html - ك.

المركزية في الصين»[1]، دفعتْ أمي للبكاء. جلستُ في العتمة، أنا الآن بالغة. أحسستُ أنني بعيدةٌ جداً عن الحيز الصغير الذي سكنتُه، وطافحةٌ جدّاً بالمشاعر حياله.

في الطائرة خلال عودتنا، أخبرتُ أمي أنها مسألة وقت قبل أن تتصل بنا أي - مينغ. كل ما علينا أن نفعله هو أن ننتظر.

***

بعد أن شُخصتْ حالة أمي المَرضية في العام 1998، تبدل كل شيء. لم نعدْ نتكيف مع ساعات، أيام، أسابيع العالم الاعتيادي. بدأتْ تتحدث عن المستقبل ليس بوصفه مكاناً مفتوحاً لم يتقرّرْ بعد، بل مقياساً ثابتاً للزمن؛ سنةً واحدة، وربما سنتين، إذا ما حالفها الحظ. كانت براغماتيتها تؤذيني. لم أكنْ قد تجاوزتُ ربيعي التاسع عشر، وكنتُ أريد أن أعتقد أنها الشخص الذي يتحدى الأرقام. حين بدأتْ تخضع للعلاج الكيماوي، كنتُ في الجامعة، باختصاص علم الرياضيات أخيراً، وكان بوسعي أن أفكر في كل أنواع الأسباب الإحصائية التي تحول دون وفاتها. أمضيتُ ساعاتٍ طويلة وأنا أطيل التفكير في هذه المسألة بالأخص، كما لو أنّ حياة أمي وموتها كانت مسألة أرقام واحتمالات. ويا لدهشتي، وربما ليس لدهشة أمي، كل الغضب الذي كنتُ احتفظتُ به منذ رحيل أبي عاودني. عندما كنتُ أنظر إلى زملاء صفي في الجامعة، كنتُ أسمع في نبرات أصواتهم وأرى في حيواتهم حريةً شعرتُ أنها صودرتْ مني من دون إنصاف. كم كانوا غافلين، على ما يبدو، عن حظهم السعيد. عوّضتُ عن ذلك من خلال المواظبة بقوة على الدراسة، محاولة التغلّب على الجميع، محاولة تحدّي - أتحدى ماذا؟ لم أكنْ أعرف ماذا أتحدى؟ ليس من العجب أني غدوتُ شابةً منعزلةً، وحيدةً. كنتُ قلقةً بنحوٍ غير معقول

1 - الفرقة السيمفونية المركزية في الصين: China's Central Philharmonic. غالباً ما تُترجم كلمة فيلهارمونيك: باعتبارها: الأوركسترا - م.

على أمي وغاضبةً مرةً أخرى على رحيل أبي الفاجع. رأيتُ أنني قد أفقد أمي بصرف النظر عما تقوله الأرقام، بغضّ النظر عن الأشياء الكثيرة التي لم تجربها بعد."[1]

وكدأبها، دفعتني أمي للتفكير في ما كنتُ أبتغيه.

في الوقت المحدد، غيّرتْ طعامها وتعاملتْ مع البيروقراطية التي لا حدّ لها للإجازة المَرضية، المدفوعات المَرضية، الضمان الحياتي والصحي، شبكة العمل الورقي والتطبيب التي سرعان ما طوّقتْ حياتها، بحيث إنّ قياس الزمن أصبح منفصلاً عن شروق الشمس وغروبها، وأصبح، بدلاً من ذلك، يتعلق بفواصل زمنية بين أنظمة العلاج، فترات الرقود في المستشفى، مواعيد تناول وجبات الطعام، الراحة والتماثل للشفاء. أعدتْ وصيةً وتركتْ مبلغاً من المال لـ أي - مينغ، لم تطالبْ به أي - مينغ حتى يومنا هذا؛ لا أنا ولا محامي أمي كنا قادرين على تعيين موقع إقامتها. في تلك السنة، نشرتُ ورقةً في مجلة مرموقة متخصصة بالرياضيات وكنتُ مغتبطةً لكون أمي عاشتْ كي ترى هذا النجاح الصغير، هذا التلميح للاستقرار المستقبلي.

إبان تلك الساعات الطويلة في المستشفى، حرصتُ على أن أفهم كل ما يجب عليَّ معرفته فيما يتعلق بالهندسة الجبرية؛ بشكلٍ من الأشكال، أنقذتني استحالة مهمتي. كتبتُ أوراقي وحاولتُ أن أجد قوة أمي وحيويتها في داخل ذاتي. في السنتين الأخيرتين من حياتها، طرأ عليَّ تغيير. كان تشخيص حالة أمي المَرضية هو نهاية، إلّا أنّه كان أيضاً بدايةً، مدة زمنية عشتها بقوة وكثافة. كنا محظوظتين لأننا، في خاتمة المطاف، أصبح لدينا وقت للتحدث معاً، للعودة إلى مواضيع ربما لم نكنْ قد أثرناها خلال عمر التكتم، عمر الصمت. في تينك السنتين، كنتُ أعرف فقط شيئين ثابتين: الرياضيات وأمي. تعلمتُ قدراً كبيراً في ما يخص

---

1 - المقصود هنا: مهما كانت الأرقام الواردة في تحاليل المختبرات والفحوصات الطبية المختلفة، ومهما كانت الإجراءات التي لم تخضعْ لها أمها خلال مسيرة العلاج - م.

الحب المتماسك وكذلك الألم الرهيب الناجم عن زوال هذا الحب. كان قصر حياتيْ أبويْ قد حدّد نمط شخصيتي، وحياتي.

في العام 1999، طلبتْ مني أمي أن أفتش عن أي - مينغ. «أنتِ الوحيدة التي تعرفين»، قالت لي.

ما هو الشيء الذي أعرفه، تساءلتُ، ما هو الشيء الذي فهمته فعلياً يومذاك؟ «سأحاول، أماه».

«لم يكنْ بمستطاعي العثور عليها. بذلتُ كل ما بوسعي لكنني لم أستطعْ. لا يوجد مزيد من الوقت».

لكن ماذا لو وقعتْ حادثة؟ ماذا لو فارقتْ أي - مينغ الحياة؟ أردتُ أن أقول هذه الأشياء لكنني لم أستطعْ أن أتصور أن أنطق بهذه الكلمات بصوتٍ عالٍ.

كانت العقاقير المخفِّفة للألم تجعل كلماتها بطيئةً وثقيلةً. «رجعتْ إلى بكين. ربما شنغهاي. إنني متيقنة من ذلك».

«سأرى، ماما».

«كتبتُ رسالةً إلى أي - مينغ».

«كيف؟».

«بعثتُ الرسالة إلى أمها المقيمة في شنغهاي. لكن رسالتي أُعيدتْ إليّ، كانت أمها قد غيرتْ موقع سكناها. لم يكنْ هناك عنوان مستقبلي. اتصلتُ بذلك الرقم مراتٍ كثيرة جدّاً». تخضلّتْ عينا أمي بالدمع. «وعدتُ أمها بأن أعتني بابنتها أي - مينغ. لقد أعطيتها كلمتي. كانوا بالنسبة لنا جزءاً من أسرتنا».

«أرجوكِ، لا تقلقي»، قلتُ لها. «أرجوكِ، سوف نجدهما».

«انظري أمامكِ مباشرةً، ولا تلتفتي للوراء قط. لا تتبعي الأوهام، لا تنسي أن تأتي للبيت». بدا كما لو أنّ بوسعها أن تدرك ما يخبئه المستقبل، كانت تعرف أنني سأتبنى ندم أبي وذنبه. «إنكِ تصغين إليّ، أليس كذلك، ماري؟ لي - لينغ...».

«لا يلزمكِ أن تقلقي على كل شيء، ماما. إنني أعدكِ».

غير مرة سألتْ عن أبي، ومع ذلك أعتقد أن الأمر هو سيان بشكلٍ من الأشكال، بأن الأمل المتعلق بـ أي - مينغ هو كذلك الأمل المتعلق بعودته.

قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، أعطتني أمي صورة فوتوغرافية تركتها أي - مينغ لنا. كانت الصورة نسخة طبق الأصل من صورةٍ كانت تحملها أي - مينغ، وهي أصلاً كانت تعود لأبيها. كانت الصورة تُظهر سبارو، كاي، وتسهولي. خلف الصورة، كتبتْ أمي: *«المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي، 1966»*.

***

توفيتْ أمي قبل خمسة عشر عاماً مضى لكنني فكرتُ فيها أكثر من أيّ وقتٍ مضى، الطريقة التي كنتُ أشعر بها حين تطوّقني بذراعيها، أفكر في إخلاصها، في براغماتيتها، وسرعة ضحكها. كانت تريد أن تضرب مثلاً مختلفاً في كيف يمكنني أن أعيش حياتي وكيف أدع حياتها هي وشأنها. وهكذا، في نهاية المطاف، كانت كلماتها متناقضة. هل أنظر إلى الأمام أم إلى الوراء؟ كيف يمكنني العثور على أي - مينغ وكذلك أبتعد عن أبي؟ أم إنها كانت تظن أن الفعلين كليهما هما الشيء نفسه؟ استغرق مني الأمر سنوات عدة كي أباشر بالبحث، كي أدرك أن الأيام ليستْ خطية، وأن الزمن ببساطة لا يسير إلى الأمام إنما يلتف حلزونيّاً مقترباً رويداً رويداً من مركزٍ متحرك، يتنقل من مكانٍ إلى آخر. ما مدى معرفة أمي؟ كيف سأتمكن من معرفة متى أكفّ عن النظر؟ إنني أعتقد أنه من الممكن أن نشيِّد منزلاً من الحقائق، لكن الحقيقة الماثلة في المركز قد تكون مملكةً أخرى بكل ما في الكلمة من معنى.

من المحتمل أنني فقدتُ سلسلة التواريخ، الزمن، الفصول والتعديلات الخاصة بالقصة. وأنه فيما بعد، أعدتُ تشييد ما تمكنتُ منه فيما يتعلق بأسرة أي - مينغ وأسرتي. بعد أعوام عدة، رسختْ في بالي صورٌ معينة -

صحراء شاسعة، شاعر تغزل بـ سويرل الحسناء مع قصة ليستْ قصته هو، موسيقى لا تصدر صوتاً - وعدتُ إليها مراراً. كنتُ أريد العثور عليها مجدداً، كي أجعلها تعرف ماذا تذكرتُ، وأن أعيد شيئاً ما أعطتني إياه.

حتى الآن، لا زلتُ أبعثُ رسائل إلى جميع العناوين الأخيرة التي كنتُ أعرفها.

حينما أمشي عبر حيِّنا السكني القديم، يتناهى إليَّ صوت أي - مينغ، آتياً من وراء ضباب السنين، حاله حال صوت أمي. أودّ أن أصف الحيوات التي لم يعدْ لها نظير فيزيائي في هذا العالم؛ أو ربما بتعبير أدق، حيوات قد تستمر لو كانت لي عينان أراها بهما. حتى الآن، بعض الذكريات تغدو أوضح فأوضح. مرةً أخرى، تلا سبارو الرسالة التي تلقاها من وِين الحالم. كانت تمتاز بإيقاعها الخاص الآن، نبض كلمات أوبرا: «صديقي العزيز / إنني واثق من أن رسالتي هذه ستجدكَ في أحسن حال! / وأن تتذكرني / أنا صديقك الحالم...».

***

في الليلة الفائتة، أخبر سبارو سويرل وبغ موذر بالرسالة، وراح يتلوها عن ظهر قلب. نخستْ بغ موذر ركبتها بفرح، ومن ثم نخستْ ركبتها الأخرى. «الطائر التافه يلتقط جميع الأخبار!».

«إذن هي صحيحة»، قالت سويرل. «كنتُ أعرف أنها صحيحة». على مدى لحظة ظهرتْ هي كما تذكّرها سبارو، قبل المعسكرات بردحٍ طويل من الزمن، فتاةً مراهقة ناجية من الحرب. «إذا اتصل بكَ هاتفيّاً من جديد، قلْ له أن يمضي إلى عيادة النباتات والأزهار العائدة لـ[الليدي دويستويفسكي]: [ملاحظات من تحت الأرض]. مدينة لاندتسهاو، محافظة غانسو».

«ملاحظات من تحت الأرض»، كرر سبارو. «مدينة لاندتسهاو».

«سوف تهتم بـ تسهولي، أليس كذلك؟».

«بين الأب لوت وبيني، تسهولي لا تريد شيئاً. أعدكِ».

«كنْ محترساً وحافظ على فطنتك»، قالتْ بغ موذر. «شنغهاي مليئة بالعكازات». كانت تعني المُخبرين والجواسيس. بجانبها، حقائب الظهر، محزومة ومنتظرة، مدفوعة معاً للأمام كمتآمرين.

«سأفعل».

تسلل ضوء القمر من النافذة، وتجمع في حوض ماء بغ موذر. صفعتْ بطنها كما لو كان طبلاً، تلت:

«ضوء القمر عند قدم سريري
تخيلته صقيعاً.
أدير نظراتي المحدقة صوب القمر المشع
أدع رأسي يسقط وأفكر في المنزل».

قالت لـ سبارو بفظاظة: «اعتنِ بأبيك. هو لا يعرف كيف يعيش من دوني». احمرتْ عيناها.

«كوني يقظةً، أمي».

ضحكتْ بغ موذر، ضحكة متقطعة تسربتْ بين القمر والماء.

ربما في يومٍ ما في المستقبل، فكر سبارو الآن، وهو راقد في فراشه، أنه سوف يكتبُ أوبرا عن حياة وِين الحالم. والآن انطلق الرسول إلى محافظة هوبيي كي يجد «الرفيق العين الزجاجية» الغامض، كي يجلب نسخةً من نسخةٍ من نسخةٍ من «كتاب السجلات التاريخية». الأوبرا سوف تفتتح برونقٍ وتباهٍ، بتبجح بالشجاعة التي يتحلى بها شوستاكوفيتش، قبل الترنم نحو الجمال المتحيز، الحذر لـ كورت فيل[1]، نص من ماياكوفسكي:

1 – كورت جوليان فيل Kurt Julian Weill (1900 – 1950): مؤلف موسيقي ألماني، نشط في العشرينيات في وطنه، ولاحقاً في الولايات المتحدة. كان مؤلفاً بارزاً على خشبة المسرح، واشتهر كثيراً بمساهماته مع برتولت بريخت، وبخاصة العمل الذائع الصيت: «أوبرا القروش الثلاثة». كان هدفه من وراء كتابة الموسيقى خدمة المجتمع ومنفعته – م.

الشوارع هي فراشينا
الساحات هي لوحات مزج الألوان خاصتنا
كتاب الألف صفحة الخاص بالزمن
لا يقول شيئاً عن أيام الثورة.
أيها المستقبليون، الحالمون، الشعراء
هلمّوا إلى الشوارع.[1]

ومن لِي هِي[2]:

تربة صفراء، ماء صافٍ يسقط على الـ «الجبال الثلاثة».
آلاف الأعوام تحرز تقدّماً مثل الأحصنة الراكضة.
انظرْ كيف، في البُعد، السلالات الحاكمة هي تسع نقاط من الدخان
البحر هو كوب وحيد يجري بسرعة.

هل يمكن أن تكون أوبرا كهذه أكثر من فكرة، شيء مزيف، تقليد؟ هل بإمكانه أن يجلس ويكتب عملاً أصيلاً، قصةً عن المستقبل الممكن بدلاً من الماضي موضع النقاش؟

كم من الصعب أن يقتفي أثر «الرفيق العين الزجاجية»؟ يقيناً في «قرية القطط»، خارج ووهان، سيكون من السهل العثور عليه.

بعد مضي يومين، أخبر الأب لوت بأنه قبل تفويض «المعهد العالي للموسيقى» كي يجمع الأغاني الشعبية في «محافظة هيبيي». طالبه، طالب التأليف الموسيقي، جيانغ كاي، سوف يصاحبه خلال رحلة الأيام

1 - «الشوارع هي فراشينا»: اقتباس من فلاديمير ماياكوفسكي: «أمر إلى جيش الفن»، كانون الأول «ديسمبر» 1918، ترجمة آنا بوستوك، كما اقتبس في كتاب جون بيرغر المعنون: *«الفن والثورة: إيرنست نيزفيستني، الجَلَد، ودور الفنان»* (نيويورك: فينتاج، 2011): 44- ك.

2 - لِي هي (790 - 791 - 816 - 817 م): شاعر صيني، عاش في منتصف عهد السلالة الحاكمة تانغ. كان شاعراً مجتهداً. كانت قصائده ذات ثيمات شبحية خارقة، وغرائبية - م.

الستة، ويخدم كمساعد بحث. سبارو حتى جعل أباه يرى مسجل السلك الفولاذي وبكرات الفولاذ التي استعارها من «المعهد العالي للموسيقى». الأب لوت همَّ بالارتفاع في الهواء مزهوّاً. فكَّ الخرائط المجعدة وجداول حركة القطارات المنتهية الصلاحية؛ أرهق سبارو برسائل مبعوثة إلى رفاقٍ مفقودين منذ زمن طويل، رفاق من مقرّ القيادة العامة إلى أن ضحك الدب الطائر وقال: «إنه لا يعمل لدى [بريد الصين]، أبي!».

قال دا شان بكآبة: «مَن يدري ما إذا كان أصدقاؤك لا يزالون أحياءً؟».

فغر الأب لوت فمه حين سمع سؤاله. جمع سبارو الرسائل وانبرى قائلاً: «لا تقلقْ أبي، سوف أسلّمها كلها».

ربَّتتْ تسهولي بأصابعها على البسكويتة الرقيقة الهشة في يدها، دفعتْ شعرها الطويل بقوة فوق كتفيها وقالت: «كنْ حذراً مع الشخص الوحشي».

ابتسم واستأنف الحزم وجعلتْ تأكل بتؤدة بسكويتتها الرقيقة الهشة. همستْ له: «لن أذهب إلى أيّ مكان إلى أن ترجع أمي. هي وبغ موذر ربما هما الآن في منتصف الطريق المؤدي إلى الصحراء. أنتَ تريدني أن أذهب وجيانغ كاي... أليس كذلك؟».

واصل الحزم.

استطردتْ تسهولي قائلةً: «أحب أن أفعل لكن... ماذا لو كان هناك زائر أو رسالة من أبي؟» وتفرستْ فيه بعينيها الثاقبتين.

«أجل»، قال سبارو. «فكرة وجيهة».

ومن ثم قال لها: «تسهولي، فقط فكّري في حفلتكِ الموسيقية. تمرّني في كل لحظة، لا تدعي هذه الفرصة تفلت من يديكِ. فكّري ماذا سيعني هذا بالنسبة لوالديكِ إذا ما سمح لك الحزب بالدراسة في ما وراء البحار».

فتحتْ عينيها وأغمضتهما كي تمحو دموعاً مفاجئة. «لن أخذلهما، ابن خالتي».

***

قابل كاي في محطة الباص في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي. بجوار البنايات الخفيضة، صفوف الأشخاص الواقفين من أجل الحصول على المؤن غيرت اتجاهاتها في ازدحام يغشي البصر، ملتفةً حول الزوايا ومختفيةً في الأفق. بدت الشوارع متوترة ويقظة. حين وصلتْ حافلتهما وفُتحتْ أبوابها بعنف، تمكنا من العثور على مقعدين بالقرب من مؤخرة الحافلة، فوق الدولاب. أصرَّ كاي على حمل المسجل السلكي[1]. في غضون ذلك حمل سبارو الـ إيرهو العائد له على صدره وحاول ألّا ينسحق. مزيدٌ ومزيدٌ من الناس تدافعوا بالمناكب وبدا الباص كأنه يتوسّع ويتقلّص كالرئة، ومن ثم تقلّص فقط. سيدة عجوز بامتياز طوتْ نفسها على مقعد سبارو، وألفى الأخير نفسه مضغوطاً على كتف كاي. وحينما دخل الباص في «طريق جينتانغ»، رأى سبارو أن تغييراً طرأ على المدينة، البلوكات الإسمنتية أفسحت المجال لفضاءاتٍ مفتوحةٍ، بقع من الضوء تنسل بخفة ورشاقة نحو الأرض المسطحة لمحيط المدينة. كان شعر كاي الجامح يرتعش في النسيم. بدأ سبارو ينزّ عَرَقاً. كان الباص يسير بتثاقل.

في لحظةٍ ما، لا بدَّ أن النعاس قد داهمه. أفاق ليجد ذراع كاي حوله، يحميه ويحمي الـ إيرهو من السيدة العجوز التي كان لها الثقل المركّز لكرة «البولنغ». بوصةً بعد بوصة، كانت تستولي على المقعد، وفي الوقت نفسه تسحق بذور أزهار عباد الشمس بأسنانها. جرّب سبارو الرجوع إلى الحلم الذي أفاق منه توّاً، الذي تضمن الـ هِر باخ جالساً أمام بيانو صغير مضحك، يعزف التنويع رقم 13 من *«تنويعات غولدبيرغ»* من أجل إظهار رقةً خاصةً لمزج دقيق للألحان. كان اسم المؤلف الموسيقي قد جلب معاً الكلمتين: bā «الشوق» و hè «رعب». كان وجه باخ مهيباً

1 – المسجل السلكي wire recorder: أبكر تكنولوجيا للتسجيل المغناطيسي للصوت، وهو نوع مماثل للخزن الصوتي، وفيه يُعمل تسجيلٌ مغناطيسي على سلكٍ رفيع فولاذي. أول تسجيل مغناطيسي بسيط، وغير متقن، اخترعه المهندس الدنماركي فالديمار بولسين في العام 1898. منح اختراعه الاسم التجاري: مسجلات تليغرافون واير – م.

كالقمر. في الترنح اللزج، المتعرّق للباص، كانت الموسيقى تتموّج في ذاكرته فيما كان يسير على أحجار مدرّجة معلّمة بـ bā، hè، bā، hè. داهم النعاس سبارو من جديد.

أيقظه كاي من النوم في سوتسهون. ترجلا، كالثملين، من الحافلة. في داخل حقيبة ظهر سبارو، دفاتر الملاحظات الـ 31 العائدة لـ «كتاب السجلات التاريخية» (كلها مستنسخة آلياً باستثناء الفصل 17 المنسوخ باليد) مثنية على ظهره، كما لو أنّه يحمل دا - وي وميّ فورث على كتفيه. ركضا بأقصى سرعة كي يلحقا بالحافلة الذاهبة إلى نانجيينغ، التي بدأتْ بالتحرك توّاً. إنّ الباص متجه للأمام وأشار آخذ التذاكر لهما إلى الأعلى حيث سطح الباص كي يجدا لهما حيزاً بين الدجاج، الطلبة الجامعيين والأمتعة.

صعد كاي أولاً، ومن ثم استدار، نزل إلى الأسفل وأمسك بذراع سبارو فيما كان الباص يغذّ سريعاً. حين تطلع سبارو وهو مشوش الذهن إلى الأعلى، كل ما شاهده هو وجه عازف البيانو الجدي بإزاء السماء البيضاء، وعقب ذلك، مذعوراً وقابضاً على الحياة العزيزة، رُفع عالياً بجوار كاي. أفسح الطلبة الجالسون على السطح مجالاً لـ كاي الساحر، الذي كان احتل، بالطبع، المنصة الوسطية. كان بوسع عازف البيانو أن يتكلم مع الاثنين معاً: الخطوة السريعة لرقص[1] المدينة وبالادية[2] الريف، كان هو الرجل الوحيد لـ*«كتاب الأغاني»* و*«كتاب التاريخ»*. روى كاي نكتةً خبيثةً جعلت الفتيان ينفجرون ضاحكين والفتيات يبتسمن عن دراية. كانت مسكة يد كاي على يد سبارو قد تركتْ كدمةً على جلده وكانت تؤلمه عند تأرجح الباص. «أيها المدرّس»، قال عازف البيانو، وهو يلمس ذراعه مدةً وجيزةً، «ألن تعزف أغنية كي تنوّرنا». برقتْ عاطفةٌ مُعذِّبة في عينيْ كاي وجعلت الفتيات تقتربن منه. «هذا

---

1 - في النص الإنكليزي: quickstep: هذه الكلمة تعني الخطوة السريعة في الرقص (أو سير الجند) – م.

2 - البالادية balladry: فن كتابة وتأليف أو عزف البالاد – م.

الرفيق»، أخبرهن، «هو أشهر مؤلف موسيقي شاب في أمتنا! صدقنني، سوف تتذكرن هذا اليوم طول ما تبقى من حيواتكن».

تجاهله سبارو، دوزن الـ إيرهو العائد له وأقحمهن في «خيول رائعة تعدو بسرعة»، التي جعلت الفتيان يهتفون والفتيات تنشدن. حسناء حمراء الخدين، ذات عينين براقتين، انتهتْ بشكل من الأشكال، عند ركبته. حين انتهى طلبتْ منه أن يعزفها مجدداً من البداية إلى النهاية، الأمر الذي فعله قبل أن ينتقل إلى اللحن الموسيقي التالي: «ليل شنغهاي». وبينما كان يعزف، تذكّر وقوفه على الطاولات المستديرة للجايخانات، وهو يغني «ياسمين» بمصاحبة خشخشة قطع النقد وعطايا الشاي وحبات البطيخ، أمه وخالته سويرل تتناغمان معه، يومئذٍ كان قد تخيل أول مرة أن العالم كله أغنية، تمثيل، أو حلم، وأن الموسيقى هي البقاء على قيد الحياة ويمكنها أن تملأ المعدة الفارغة وتُبعد شبح الحرب.

أنشد الطلبة وهتفوا، ورعد السائق عليهم كي يخفضوا أصواتهم ويحافظوا على الهدوء، وهدر الركاب في الأسفل cào dàn «الشيطان» وأرسلوا نعوتاً غاضبةً أخرى عليهم، لمجرد أن تتبدد هذه من دون ضرر. اقترح كاي علي سبارو أن يعزف «منظر عين الطائر»، الذي كان مناسباً وكذلك طافحاً بالكآبة. فعل ذلك، وغنى كاي، وفي نهاية اللحن، الفتاة العاطفية الجالسة بجوار سبارو فاضتْ عيناها المخمليتان بالدمع، وفكر أن بإمكانه سماع كبار السن من الجنسين ينتحبون في جوف الحافلة.

انقضى العصر وهبط الغسق، ببطء في البداية، ومن ثم بنحوٍ أسرع من قبل. بمحاذاة طريق السيارات، اختلطت المدن في بنايات أصغر فأصغر إلى أن، أخيراً، نجحت اليابسة، شاسعةً وذهبية ولانهائية أكثر من أيّ وقتٍ مضى. بين الحين والحين، تقفز حفنة من الركاب مترجلين من الحافلة ويصعد إليها شخص منا. في الضوء الباهت، رأى كاي يراقبه، وأحسَّ أن يد عازف البيانو على كتفه، ومن ثم على قفا عنقه، وبعدها على الشطر الهزيل من عموده الفقري. كانت الفتاة مضغوطةً على ذراع

سبارو الأخرى والحلاوة النظيفة لشعرها شعثْ أريجاً متأملاً، مفعماً بالأمل مثل باقة أزهار شتوية. قال الحزب إن الرغبة، كالذكاء والمهارة، هي أداة من أدوات الكفاح. لكن الحب، إذا خدم الذات الصغرى قبل الذات الكبرى، إذا خدم الفرد قبل الشعب، عندئذٍ يكون خيانةً للمُثُل الثورية، وخيانةً للحب نفسه.

شاهد الأراضي المنبسطة وهي تغيب عن الأنظار، مخليةً السبيل لمرتفعاتٍ أعلى ورياحٍ أكثر جفافاً. بُسطت اللحف، فُتحت الترامس «جمع ترمس» وانجدلتْ معاً خيوط بخار رفيعة وتكورتْ في سماء الليل. نام سبارو في حماية النجوم ونصف قمر، مخفياً بواسطة غطاء تقاسمه مع كاي، في دفء ذراعيْ عازف البيانو.

***

اجتازا أنهاراً صغيرةً ومعابر فوقية[1] ذات ممر ضيق واحد وفي الختام هبطا إلى مدينة متوسطة الحجم لاحتْ على وجه الدقة مثل مدينتين أُخريين متوسطتي الحجم. كانت طبقات من الغبار قد كستهما معاً وحوّلتهما إلى ظلال عاكسة من الماهوغاني[2]. كان الوقت هو الصباح الباكر. وفيما كانا ينتظران جالسين على المصطبة الإسمنتية الحافلة التالية، روى له كاي قصصاً عن قريته الواقعة خارج تشانغشا. «كان مسقط رأسي يقع في مكان قريب، يبعد عنها سويعات قلائل لا غير بالدراجة الهوائية. لكنكَ إذا ما زرتها، يا مدرّسي سبارو، سوف يخطر ببالك أنكَ رجعتَ مئة سنة أو أكثر. الوجوه عينها تظهر وتعاود الظهور، إنها ترجع مع كل جيلٍ من الأجيال. ربما يولد من جديد فلاحٌ عجوز مثلما يولد طفل جاره الرضيع، مالك أرض غني قد يعود فلاحاً تمّ التعاقد معه رسمياً للعمل لأجلٍ معين. في قرى كقريتي، يموت الأفراد، لكن الأجيال والصيغ المتكررة تدور إلى الأبد».

---

1 – المعبر الفوقي overpass: جسر أو طريق فوق سكة حديد أو قناة أو طريق أخرى – م.
2 – الماهوغاني: خشب صلب ضارب إلى الحمرة يُصنع منه الأثاث الفاخر – م.

بدّل عازف البيانو موضع حقيبة الظهر العائدة له، أنعم النظر في حركة المرور المستمرة للدراجات الهوائية والشاحنات المتمايلة، وعاصفة من طيور السنونو تجمعتْ على المصطبة المقابلة.

«إنما في يومٍ ما، حين كان أبي لا يزال صبيّاً»، استطرد كاي، «فُتحتْ مدرسة جديدة في المدينة المتاخمة. كان يدير المدرسة ثلاثة من أصحاب المخازن السابقين كانوا قد اعتنقوا العقيدة المسيحية تحت تأثير مبشرين يسوعيين. كان هؤلاء الثلاثة يزيتون شعرهم ويلبسون غفارات سود طويلةً جدّاً بحيث كانت تكنس الأرض. كانوا رجالاً ورعين وملتزمين[1] أيضاً. ما إن يصلوا إلى مدينة ما، حتى يستولوا على مخزنين ويحولونهما إلى كنيسة ومدرسة. بدلاً من أجور الدروس الخصوصية، كانوا يطلبون من الفلاحين أن يدفعوا لهم مقابل ذلك الخضار والحبوب، أن يعملوا بجدّ كي يحافظوا على المباني ويحصدوا الأرض، وأن يؤمنوا بربهم، الذي يبدو أنه طفل جيد التغذية من تيانجين، محمول بين ذراعيْ إمبراطورة ومقمّط بملابس احتفالية. كان الناس يبدون إعجابهم بالطفل لأنه كان رب الازدهار المبتهج. وأسبوعياً، كان الكهان الثلاثة يجمعون المؤمنين في كنيستهم ويعزفون الموسيقى على بيانو صغير، كان، هكذا قالوا، قد جاء إلى الصين قبل مئتي سنة على سطح سفينة جلبها إيطاليون كانوا قد طفوا على صفحة «نهر يانغتسي». لكن كيف انتقلتْ هذه الآلة الموسيقية من الإيطاليين إلى الكهان الثلاثة، لا أحدَ يعرف الجواب.

«كان أبي»، أضاف كاي، «معلم مدرسة ريفية وفي الوقت نفسه كان يفلح أكرات قليلة من الأرض. أرسلني إلى الكهان حين كنتُ صغيراً جدّاً لأنه كان يريد معرفة المزيد عن هذا البيانو. في الواقع، كنا مؤمنين بشكلٍ من الأشكال. كان لدينا إيمان كامل بالأشياء التي وفرها الكهان: الطعام، القروض بفائدة، التعليم والطب.

«وهكذا مضيتُ ودرستُ من أعماق قلبي»، قال كاي. «لم أكنْ أذكى

1 – ملتزمين: وردتْ هذه الكلمة بالفرنسية: entrepreneurs – م.

طفل في صفي، إلّا أنّني كنتُ حساساً. باستماتة تامة، كنتُ أودّ الهرب من قريتي بحيث إنّني حتى أحسستُ بالأسف على العشب الذي نما في ذلك المكان التالف. افترضتُ أن كل قريةٍ من القرى على وجه البسيطة يجب أن تبدو مثل هذه القرية، وهكذا تخيلتُ الذهاب بعيداً، إلى القمر أو إلى كوكبٍ آخر. الكهان الثلاثة، في غضون ذلك، أساؤوا فهم رغبتي في تغيير حياتي نحو إيمان أصيل، أي بمعنى، الاشتياق الخالص لطفلٍ إلى المقدس. أحاطوني بالرعاية والاهتمام كما لو كنتُ طفلهم. حين كنتُ في السادسة من عمري، بدؤوا يعطونني دروساً عن البيانو. لا أدري كيف أنهم حقيقةً حصلوا على هذه الآلات الموسيقية، إنما كان لديهم ما يكفي كي يشكلوا مجموعة صغيرة من موسيقيي الغرفة. كان بحوزتهم أيضاً مكتبة، تعلمتُ أن أعزف القليل من كل شيء، الكمان والكمان الأوسط، الأرغن، العود «الفلوت»، وحتى البوق، إنما كنتُ أعود دوماً إلى البيانو. كانت المفاتيح تبدو كأنها جزء من جسمي. البيانو، فكرتُ، أقبل من ذلك العالم الخارجي، الأفضل، من السماء وليس من التراب.

«كانت ممارستي عنيدة بحيث إنّ أصابعي أصابها الخدر وحتى إن أناملي علتها التقرّحات. وعلى كل حال، غنيتُ وتعلّمتُ الصَّلفجة[1] واللحن المصاحب، وأخبرنا الكهان أن الموسيقى تحررنا من سخط حياتنا، بحيث إنّنا لن نعود بحاجة إلى أن نولد ثانيةً كفئران أو كعبيد أو حتى كأثرياء، لأننا كلنا جزء من المخطط نفسه، كلنا أولاد الكون عينه. لذا حين أقبل الرئيس ماو مع [جيش التحرير] خاصته، حين وصلتْ فرق إعادة تمليك الأراضي لأصحابها الشرعيين، حين طُوّق أصحاب الأراضي وجُرّدوا من ممتلكاتهم، حين وُئد بعضهم أحياءً، حين رُقّيَ الفلاحون ليصبحوا أمناء سرّ للحزب، كنا مهيئين وراغبين بأن نتقبل هذا الوضع الجديد. وكما قال مينشيوس: [الإنسان المُحسِن لا يمكن أن

---

1 – الصلفجة solfege: تطبيق المقاطع الصولفاوية على سلم موسيقي أو لحن. المقاطع الصولفاوية sol fa: مجموعة المقاطع الموسيقية المستخدمة في الغناء – م.

يغدو ثريّاً]. كنا قد أُخبرنا سلفاً أننا سواسية، وأن الأبواب مفتوحة لنا ولا يتعيّن علينا إلّا أنَّ نجتازها. كان الكهان الثلاثة مقتنعين بأن الشيوعية هي هدف الله». ابتسم كاي بسمةً غامضة. «مع ذلك، على الرغم من [الثورة] العظيمة التي شهدتُها، أحسستُ أن قدري هو أن أغادر هذه القرية».

«إنما بعد استصلاح الأرض، ماذا جرى للمدرسة، للكهان والبيانو؟» سأل سبارو.

هزَّ كاي كتفيه بلامبالاة. بدا معزولاً بعناد عن المَشهد الذي كان يصفه. «المدرسة لا تزال موجودة هناك ويواصل الكهان عملهم كمعلمين، [الأب أغناطيوس] أصبح أمين سرّ الحزب في [الكوميون][1]. تزعم حملة إعادة الأراضي إلى مالكيها الأصليين نيابة عن المدينة، أدان كل مالكي الأراضي مع أنّ الكنيسة هي نفسها مالكة أرض. تخلى الكهان عن ممتلكاتهم وصرّحوا قائلين إن الرئيس ماو هو المجيء الثاني لمحررِهم. لذا حتى بعد الثورة، استمرتْ حيوات الشعب بهيئة دورات وليس بهيئة خطوط مستقيمة. إنني أذهب إلى المنزل في كل مهرجان من مهرجانات الربيع، كي أعزف لهم، ويوجهون إليّ السؤال، بهدوء، ما إذا كنتُ صادقاً مع الله. في أعماق قلبي، إنني أفهم الله بأنه يعني لي الحزب، البلاد، وأسرتي، وأقول نعم.

حين بدأت المجاعة في العام 1959، أظهر الكهان على أنهم مجرد بشر في خاتمة المطاف ولم تكنْ لديهم أدنى فكرة كيف السبيل إلى مضاعفة السمك أو أرغفة الخبز. أمي، أبي، وشقيقتاي ماتوا جميعاً بسبب الجوع في شتاء ذلك العام». نقل حقيبته إلى موضع آخر ووضعها على ركبتيه، وحجبتْ وجهه جزئيّاً عن الأنظار. «شاهدتُهم وهم يتضورون جوعاً. كنتُ أصغرهم سنّاً وابنهم الوحيد، وفعلوا كل ما بوسعهم كي يوفروا لي الحماية. كانت كوادر قريتنا تمنع الرسائل المبعوثة إلى أسرة بعيدة. كل

---

1 – الكوميون commune: وهو أصغر وحدات التقسيم الإداري في بلدان عدة، من مثل إيطاليا، فرنسا، سويسرا – م.

شخص يحاول مغادرة القرية يُمسك به ويُعتقل. كانت العقوبة صارمةً وقاسية. إن لم يسبق لك أن عانيتَ من الجوع لا يمكنكَ أن تتخيل... حين قدمتُ لأول وهلة إلى شنغهاي، رأيتُ أنها قد تكون كوكباً مختلفاً. الناس لم يكونوا... لم يكونوا يعرفون شيئاً عن المجاعة التي ضربت البلد، أو الخراب الذي حلَّ به. آنَ كنتُ يافعاً، صممتُ على أن أتأقلم مع هذا العالم الجديد، وأن أنقذ نفسي، لأن شنغهاي كانت جنةً بالنسبة لي».

لزم الاثنان الصمت. وفي النهاية، قال سبارو: «أن تأتي إلى شنغهاي، بأية حال، أن تذهب من قريتك إلى المدينة، هو أشبه بعبور المحيط».

أومأ كاي برأسه. «بعد وفاة والديَّ، أنقذني أحد مدرّسي الموسيقى. بسبب قدرتي، أرسلني لأن أسكن مع أحد أصدقاء الأسرة، وهو رجل متعلّم، بروفيسور في الأدب هنا في [جامعة جياوتونغ]. كان هذا الرجل هو أول شخص من قريتي يذهب للجامعة. كان أشبه بأب بالنسبة لي منذ أن كان عمري عشرة أعوام.

«تصوّر!» كانت ضحكة كاي ثاقبةً وكئيبةً. «طفل متلعثم، نكرة، أمسى بغتةً نظيفاً ومرتباً في صالون بروفيسور. بعد مضي ستة أعوام، لا أزال أسميه [بروفيسوراً]! أودّ أن أفكر بأنه، لو كان لديه أبناء من صلبه، كانوا سيخاطبونه بالطريقة نفسها. سوف تفهم الأمر حين تقابله. جلستُ مثل اللفت فيما كان طلبته وزملاؤه يتناقشون ويتحدثون بصوتٍ عالٍ. في بعض الأحيان، أحسّني مثل حيوان أتوا به من الغابة. إنني أعرف أنني ذكّرتُ البروفيسور بنفسه، منذ أمدٍ طويل. إنما كان بوسعي أن أعزف. يمكنني أن أعزف باخ وموتسارت حتى عندما كان تعليمي بدائيّاً، ولغتي غير متطورة. كنتُ قد عقدتُ العزم على أن أرتقي وأتبوأ منصباً جديداً في الحياة، كان يتحتّم عليَّ أن أتعلّم محاكاة البروفيسور وبطانته - بكل الوسائل، بملبسهم، بعاداتهم، بلغتهم. خارجاً، في الشوارع، قد ينادي الحزب بنظامٍ جديد، نهاية النظام الإقطاعي، انتفاضة ضد الانحيازات الطبقية القديمة، إنما في صالون

البروفيسور»، انخفض صوت كاي ليغدو همساً تقريباً، «النظام القديم كان لا يزال محفوظاً».

«إنني لا أنحي عليه باللائمة. إن طفلاً من الريف، كما تعرف، لا يمجّد الريف بسهولة. إنما بسبب أصدقاء البروفيسور، تغيرتْ أفكاري وآرائي. شنغهاي، توصلتُ إلى أن أعرف، ليستْ ضخمةً بما يكفي بالنسبة لي وسوف لن تُبدد جميع الشكوك الثاوية في روحي. لقد انشطرتُ إلى أشخاصٍ كثيرين جداً. إنني ألوم الكهان، الذي غرسوا في داخلي الفكرة المتعلقة بعالم أفضل، والإيمان بأن قدري هو التوجّه نحو أشياءٍ أكبر وأعظم. إنني ألقي اللوم على البروفيسور، كذلك، الذي فتح، ذات مرة، عقلي لكنه الآن محدود بفعل الحنين المَرضي إلى الماضي. كنتُ أريد أن أجعل والديَّ وشقيقتيَّ مزهوين. كنتُ أريد أن أرفع من شأني أكثر فأكثر. أتبادلني الإحساس عينه، يا مدرّسي؟ موسيقاك تعني كل شيء بالنسبة لي، أظهرتْ لي... إنني أسائل نفسي لماذا لم تُعزف سيمفونياتكَ قط، وأنا أعتقد أن ذلك يرجع إلى كونها تجعلنا نحسّ كثيراً جداً، إنها لا تجعلنا فقط نسأل أنفسنا مَن نكون نحن، بل أيّ نوعٍ من البشر نبغي أن نكون. ففو تسوأونغ[1] تزوج بابنة يهودي مينوهين، إنه يعزف على البيانو من لندن إلى برلين، ومع ذلك يتعرض أبواه للانتقاد كونهما عنصرين بورجوازيين. نحن عازفو البيانو لا يتعيَّن علينا أن نتبع مثاله على الرغم من كل الأشياء التي أنجزها. إنما بالتأكيد سيكون من الأفضل أن نخدم الشعب إذا كنا جزءاً من العالم الأوسع. لماذا لا يُحتفى بموسيقاك في موسكو أو باريس أو نيويورك؟».

تحدث الشاب بثقةٍ تامة، إصرار طفولي بدا لـ سبارو أنه بقية من زمنٍ

---

1 - فو تسوأونغ (وُلد في العام 1934): عازف كمان صيني. وُلد في شنغهاي، لأسرةٍ من المثقفين. في أول الأمر، درس فو البيانو مع ماريو باتشي، المؤسس الإيطالي لـ «الفرقة السيمفونية في شنغهاي». في العام 1953، انتقل كي يكمل تدريبه في «مدرسة الدولة للموسيقى» في وارسو، بولندا، حيث لفت انتباه أساتذته في براعته بإيقاع المازوركا – م.

آخر. ومع ذلك، على غرار بعض الطلبة الآخرين من عمر كاي، تكلم أيضاً كما لو أنّ ليس ثمةَ فارق بين المعلم والطالب، بين الأب والابن، من دون رسميات. كانا قد وُلدا والفرق بين ولادتيهما مجرد عشرة أعوام، فكر سبارو، لكن بدا كما لو أنهما ترعرعا في قرنين مختلفين.

«موسيقاي...». قال سبارو في النهاية: «حين كنتُ في مقتبل العمر، كل ما كنتُ أبتغيه هو أن أكتب موسيقاي. لا شيءَ أكثر من ذلك. وهذا هو ما أحسُّ به حتى الآن».

«أسمع شيئاً مختلفاً في مؤلفاتك الموسيقية. أسمع فجوةً بين ما تقوله وما تصبو إليه. الموسيقى تطالب بالمزيد... إنني متأكد أننا سواء». التفت ونظر مباشرةً في عينيْ سبارو «لم أعدْ أرغب بالعيش مع القيود، يا مدرّسي. أودّ ان أتخلّص من العادي، والمألوف. أصبح البروفيسور يخشى [الثورة]. أما أنا فلا. يقظة أزمتنا أريدها أن توقظني أنا أيضاً. لا يمكننا، ببساطة، أن نتعلّم من الفن والموسيقى الغربيين، نحن نريد كذلك أن نتفحص وننتقد تجربتنا اليومية وفكرنا نحن. لا ينبغي لنا أن نخشى أصواتنا نحن.[1] لقد آن الأوان كي نفصح عما يخطر فعلًا في أذهاننا».

أقبلت الحافلة في تلك اللحظة وأُنقذ سبارو من واجب الردّ.

***

أمضيا أول يومين في القرى الواقعة خارج ووهان وهما يجمعان الموسيقى ويومين في «مدينة ووهان» نفسها، بما فيها عصر يوم ما في معمل الأجراس القرصية والصنوج. في كل مرة، كان سبارو يذكُر برقة اسم «الرفيق العين الزجاجية»، كان سؤاله يُقابل بالاضطراب أو الفضول، إنما، في أغلب الأحيان، بعدم الاكتراث. في اليوم الخامس، على أيّ حال، اقترب منهما رجل غريب وجلس في «جايخانة الأوبرا الحمراء».

1 - «لا ينبغي لنا أن نخشى أصواتنا نحن...»: اقتباس محوّر من حوار تشين - تشين باب مع أي ويوي: «*أي ويوي: أعمال - بكين، 1993 - 2003*» (هونغ كونغ: تيميزون 8، 2003): 41 - ك.

كان رجلاً مكتنز الجسم في أواخر عقده السادس برأس ضخم، مشع وعينين مخفيتين كعينيْ مقامر. «أيها الرفيقان»، قال، «كنا في الحافلة نفسها التي انطلقتْ من نانجيينغ. يا للسعادة الغامرة أن ألتقيكما مجدداً! أخبراني، كم يطول مكوثكما في ووهان؟».

«نهار آخر وليلة أخرى في الأقل»، ردّ سبارو.

«يسعدني سماع ذلك، وبالمناسبة، ليعشْ الرئيس ماو! ليعشْ الحزب الشيوعي الذي لا يُضاهى!» كانت حنجرته قد تفرقعتْ حين نطق هذه الكلمات ووجب عليه أن يتوقف ويسعل أثناء التلفظ بها. «في الليلة الفائتة، ابنة أخي الصغيرة سمعتْ موسيقيي شنغهاي وهم يعزفون في [حديقة الخوخ الصغيرة] وعرفتْ أنه لا بدّ أن تكون أنتَ هو المقصود». فتح مروحته فجأةً كما لو أنّه يفتح مطواة. «الطقس حارّ، أليس كذلك؟ ووهان، كما تعرف، هي فرن [الجنوب]». وفيما كان يلوّح بالمروحة بضربات بطيئة، موجِعة، راح يروي كيف أنه، قبل الحرب، أقام في شنغهاي ودرس الكمان مدةً وجيزةً مع تان هونغ. «بالمناسبة، اسمي أولد هوانغ، إنما أرجوكما أطلقا عليَّ اسم [جيان]، على نحو ما يفعل أصدقائي. ليست [جيان] التي تعني [السمك المفلطح] إنما [جيان] بوصفه الطائر الأسطوري ذا العين الواحدة والجناح الواحد». قرّب كرسيه منهما وهمس قائلاً، وهو مشبع بالعاطفة: «من فضلك، أخبرني بصديقك العزيز تان هونغ. أما يزال يُدرّس في [كونسرفتوار شنغهاي]؟».

قضوا نصف النهار وهم يتناولون حبوب الليمون ويناقشون وضع الموسيقى.

دعاهما جيان للبقاء معه. «إنها غرفة متواضعة»، قال، وهو يرفع ذراعه اليمنى ويهوّي قمة رأسه «إنها بالكاد تناسب موسيقيّيْن مشهوريْن مثلكما، إلّا أنّ الحديقة تمتاز بوضوح الصوت. حين سمعتكَ في الباص، أدركتُ أنه مضى زمن طويل جدّاً منذ أن سمعتُ

أحدهم يعزف على الـ إيرهو بمثل هذا الإحساس المتسق. وإذا كنتُ صريحاً معك، رفيق سبارو، أحسُّ أنني أعرفك أصلاً. في السنة الفائتة في [قصر ووهان الثقافي]، وأنا أقوم بزيارة موسيقيين كانوا يعزفون قطعتك الموسيقية «اللحن الخماسي»[1] في C major[2]. إنه تصريح مكبوح للتناسبات التي لا يمكن الصفح عنها أن نقول إن مؤلفاتك الموسيقية أبهجتني إلى أقصى حدّ. في الحقيقة، إن لحناً مصاحباً معقداً كهذا وعمق الإحساس هما شيئان غير اعتياديين في أزمتنا هذه. أرجوك، شرّفني بحضورك!».

قبل سبارو الدعوة نيابةً عنهما.

في منزل جيان، بعد وجبة غداء من شرائط المعكرونة النارية، جلسوا في ظلِّ شجرة ظليلة للوقاية من الشمس وشرعوا يدخنون. شعر سبارو أنه ممتن للشمس وهي تمسّ قمة رأسه والسطوح العلوية لركبتيه، إذ كان الشاي الشاحب الذي كان أيضاً مرّاً والكعك الإسفنجي الفوّاح الذي كان جيان قد قسّمه إلى قطعتين كبيرتين، مع شريحة صغيرة جدّاً له. كانت أفكاره قد انصرفتْ إلى الداخل واستقر على محاضرة التأليف الموسيقي التي كان يريد أن يعطيها في التعبيرية الثورية، «بحث في *الانسجام*» من تأليف شونبيرغ، ومقالة تشريبنين[3] عن الخط الأبدي للموسيقى الشعبية. «تنويع متطور»، يبدأ بالقول، مقتبساً من شونبيرغ، «يعني أننا نبدأ بوحدة رئيسة، ومن هذه الوحدة نوسّع فكرة القطعة الموسيقية. بوصفهم مؤلفين موسيقيين، آخذين بنظر الاعتبار السلاسة،

---

1 – اللحن الخماسي String Quintet: لحن يُعزف على آلة موسيقية ذات خمسة أوتار – م.

2 – C major: درجة C هي اللحن الافتتاحي المميز الأكثر شيوعاً في الموسيقى الغربية. ومعنى المصطلح كله: على درجة دو الكبير «ميجور»، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.

3 – نيكولاي نيكولايفيتش تشريبنين (1873 – 1945): مؤلف موسيقي للباليهات (من بينها [جناح أرميدا])، روسي الجنسية. وهو تلميذ ريمسكي كورساكوف، وإلى حدٍّ ما أحد أتباعه. وهو كذلك عازف بيانو وقائد فرقة موسيقية – م.

التباين، التنوع، المنطق والوحدة، هذا من ناحية، والشخصية، المزاج، التعبير من الناحية الأخرى...».

حينئذٍ فقط، صفع جيان رأسه كما لو أنّه نسي أن يطفئ المجمرة. هرع إلى الخارج، وعندما رجع، حمل كماناً قديماً جدّاً، جميلاً بصورةٍ مدهشة. أعطاه إلى كاي الذي بدوره سلّمه باليد إلى سبارو، الذي قَبِله بإجلال. تحت النظرة المحدّقة اليقظة للرجل العجوز، دوزن سبارو آلته الموسيقية. شعر برفع الأوتار وهشاشة بدن الكمان. أيّ موسيقى مناسبة جدّاً لآلة موسيقية بهذه الأصالة والأسبقية، تساءل مع نفسه. مسح الأوتار وتأمل الإمكانات. وفي الختام، رفع الآلة الموسيقية وعزف اللحن الافتتاحي لـ «*Xerxes*»[1] هاندل ومن ثم «*أغنية من دون كلمات*» لـ مندلسون[2]. كان الكمان خبيراً بالحياة والناس ومعبّراً. حدّق سبارو إلى جيان. كان مضيفهما قد جلس في الظلال وتذكّر وابتسم وبدا كأنه أصبح فتيّاً من جديد.

حين فرغ سبارو، أعاد الكمان ثانيةً إلى مالكه.

«الآن انعقدتْ بيننا الألفة كالأخوة»، قال جيان، وهو يتقبله، «هل يمكنني أن أستفهم ما الذي أتى بكَ إلى ووهان؟ في اعتقادي هذا لا يقتصر فقط على رؤية [مصطبة غوكين] الذائعة الصيت». كان جبينه العريض قد تلقى نور العصر بطريقة كئيبة.

«أنا والرفيق كاي نجمع الآن الأغاني الشعبية من [محافظة هيبي]». وبعد لحظة، أضاف قائلاً: «وإذا سمحت الظروف، أبحث عن صديق لأسرتي».

---

1 - Xerxes: أوبرا متسلسلة من ثلاثة مَشاهد من تأليف جورج فريدريك هاندل. عُزفتْ أول مرة في لندن 15 نيسان «أبريل» 1738 - م.

2 - بارتولدي مندلسون (1809 - 1847): مؤلف موسيقي ألماني، حفيد الفيلسوف اليهودي موسى مندلسون، لكنه نشأ كلوثري. وهو عازف بيانو وأرغن يُشار له بالبنان، وكذلك قائد فرقة موسيقية - م.

أومأ جيان برأسه. سمح لثقة سبارو أن تستقر في الهواء لحظةً قبل أن يجيب قائلاً: «أخبرني باسم الصديق وربما يمكنني أن أساعدكَ. كما ترى، إنني أعمل في [دائرة التخطيط] بالمدينة، وإنني أقتفي أثر جميع الرخص، الولادات، الوفيات، الترقيات، تنزيل الرتب العسكرية وحالات ردّ الاعتبار. إنني حافظ الأرقام كلها في هذه المدينة، وأعرفها أفقيّاً، عموديّاً وبالمقلوب. عالمنا مصنوع من الأرقام»، قال الرجل المسن وابتسم بحزن، «لتشتعل نيران [الثورة] طويلاً».

«إنني أعرف هذا الصديق فقط بوصفه [الرفيق العين الزجاجية]».

تناول جيان الكمان، وهو يستغرق في التفكير. عزف صدًى لـ «*Xerxes*» هاندل ومن ثم low E [2]/ sharp D [1] – حادة فيما كان يميل للأمام في كرسيه. «لي صديق يناسبه هذا الوصف لكنه لا يحمل هذا الاسم رسميّاً. تبدو مندهشاً»، قال جيان، باسماً، «لكن هذا ليس مدهشاً جدّاً لأنني، كما تعلم، أُدعى جيان، تيمناً بالطائر وحيد العين. هذه العين اليسرى، كما ترى، مصنوعة من الزجاج، ولقد لبستُ عيناً صناعية منذ أن كنتُ مراهقاً». أدار جيان وجهه نصف دورة بحيث إنّه نظر في بادئ الأمر إلى سبارو، وبعدها إلى كاي، بعينه الزجاجية. مال سبارو نحوها، مفتوناً. «اسم صديقي [المعلم أيْ دِي شينغ] وقد صنع عيني الزجاجية منذ أن فقدتُ عيني الأصلية. إنما يومئذٍ، في العام 1958، إبان [حملة المئة زهرة]، كانوا قد صنفوه باعتباره يمينيّاً وأُرسل من أجل الإصلاح من خلال معسكرٍ للأعمال الشاقة في الشمال الغربي. بعد عام من احتجازه، سُرقتْ عيني الزجاجية الوحيدة! كنتُ محطّماً. كنتُ أفضّل أن أتضور جوعاً وأن أموت على أن أُظهر حفرة عيني الفارغة في هذه المدينة. على مدى أعوام عدة، لبستُ وشاحاً كي أُخفي الضرر. لم تُترك لي عين، كما ترى».

---

1 – الـ sharp D: وتعني الـ رَي العالية، بالمصطلح الموسيقي العالمي. تُقرأ بعد low E – م.
2 – الـ low E: وتعني الـ مِي الواطئة، بالمصطلح الموسيقي العالمي. تُقرأ أولاً – م.

أمعن سبارو النظر، كانت العين تشع بضوءٍ مُربِك.

«حين بُعث[1] [المعلم أيْ دِي شينغ] وأقبل إلى البيت، أحسستُ كما لو أنني، أنا نفسي، أُطلق سراحي من حافة العالم. من دون العين الصناعية، كنتُ أعرف أن هذا المجتمع لا يتقبلني أو يراني بوصفي واحداً من أفراده. سمعتُ أن أوضاع معسكرات الأعمال الشاقة مُزرية، ولذلك أحضرتُ له سلةً تحوي ألوان الأطعمة، أفضل الأطعمة التي كان بمستطاعي العثور عليها في ظلِّ تلك الظروف، وبعض كوبونات الأطعمة التي كنتُ احتفظتُ بها. لم تكنْ كثيرةً جدّاً لكن عطايا مثل هذه كانت نادرةً بإفراط في ذلك الحين. كان يتعيَّن عليه أن يصنع عيناً جديدةً ثلاث مرات لأنه لم يكنْ يحمل أنبوبة زجاجية أو فرشاة صبغ على مدى عشرة أعوام، وكانت يداه تهتزان باستمرار. كنتُ أول مَن يقوم بزيارته، إنما في خاتمة المطاف بدأ أبواه يصلان من أنحاء المحافظة. في الحقيقة، إنه ذائع الصيت في هذه الأرجاء».

باحتراسٍ، رفع جيان الكمان الذي كان يستريح على ركبته مثل قطٍّ محببٍ إلى القلب ووضعه في صندوقه المتهرئ. وبعد لحظة، شعر سبارو أن مطراً خفيفاً بدأ يهطل.

«سوف أقوم بزيارته مساء هذا اليوم»، قال جيان. «إذا وافق، يمكننا أن نذهب ونراه غداً. إن توقيتك في محله لأنه كان في بالي مؤخراً. [المعلم أيْ] ليس شاباً وهو يقيم بمفرده».

شرع يجمع عدة الشاي. حين وقفا كي يقدما له يد العون، تبسّم وضحك من جديد، ولاح كأنه شاب، أكثر شباباً منهما، كما لو أنّ عينه لن تصبح شائخةً وكانت تحمله طوال هذا الوقت، متجددةً ببراعة.

***

---

1 - بُعِثَ resurrected: أي أُعيد إلى الحياة بعد أن تمَّ إصلاحه في معسكر الأعمال الشاقة - م.

أفاق سبارو من نومه قبل انبلاج الفجر. في الحجرة الصغيرة، سبحت الظلال في العتمة: طاولة كتابة والأوراق المغزلية لنبتة العنكبوت[1]، ورق جدران مقشّر وقبعة قماشية معلقة على كلّاب في الباب. بدتْ أنفاس كاي كأنها آتية من السرير نفسه: من الوسادة الطويلة التي تقاسماها ومن اللحاف المتغضّن حولهما. شعر سبارو أنه يعي بكل صرير يصدر من السرير وإطارات الشبابيك، يعي دنوّ الجدار ودنوّ كاي. سمع رشاش الماء الخفيض الصوت وهو يسقط في الدلو وأعقبه سكون، وتساءل ما إذا كان عازف الكمان الجنتلمان يدس في هذه اللحظة بالذات العين الزجاجية في محجرها. تذكر كيف أن العين الصناعية لم تكنْ مستقرةً في موضعها بل كانت تتحرك حركةً طفيفةً جدّاً حينما يتكلم جيان. كانت تغير موضعها ببطء أكثر من العين الأخرى كما لو أنّ لها عقلها الخاص بها. استيقظ كاي الآن. انقلب على جنبه ومسَّ فك سبارو برفق، فوق عظم ترقوته. هذا القرب، قرب أحدهما من الآخر، كان من المستحيل إخفاؤه. طوال سني حياته، كان ينام على الحصران وعلى أسرّة خفيفة نقالة بجانب أشقائه وزملاء صفه، إنما هذه أول مرة يشعر فيها ماذا تعني حميمية الاستلقاء بجوار شخص آخر. أصبحت الحرارة المباغتة في بشرة سبارو مخزيةً ومُذلةً لكن كاي لم ينقلبْ. ترك بيده حيثما هي، ومن ثم أسند راحة يده بطولها على صدر سبارو كما لو أنّه يبقيه في المكان الذي هو فيه، دوماً على بعد مسافة ومع ذلك هو قريب على الدوام. الرغبة، أو شيء صغير جدّاً كالغرام، كان تابعاً لـ «الثورة»؛ هذه الحقيقة كان يعرفها حق المعرفة، لكن الحقيقة التي شعر بها سبارو كانت تفضي إلى حياةٍ أخرى، مختلفة تمام الاختلاف. كان يعرف، أو يخشى، أنهما لا يمكن أن يتصالحا. في الخارج، سمعا الرجل العجوز يتمتم لنفسه. انسحب كاي إلى الوراء، دفع الغطاء جانباً وترجل من السرير.

***

---

1 - نبتة العنكبوت spider plant: عشب دائم الخضرة. موطنه الأصلي أفريقيا الاستوائية والجنوبية، إنما جرى تطبيعه في أجزاء أخرى من العالم من بينها غرب أستراليا - م.

كانت الشمس لا تزال منخفضةً والمدينة يغشاها الضباب حين صعد ثلاثتهم إلى عربة جيان الكثيبة، وهي عربة خصصتها له «دائرة التخطيط» في المدينة. طاروا بمحاذاة طريق مرصوف تحطم تدريجيّاً إلى حجر، ومن ثم إلى حصى، وبعدها إلى غبار أبيض، كما لو كانوا يتحركون عبر الزمن، إلى عصرٍ قبل عصر الأحجار والمدن، أو ربما إلى عصرٍ يقع في المستقبل. أو أن هذا ما أحسَّ به سبارو مع كاي الجالس بجواره، يدا عازف البيانو على خصر سبارو، متماسكين إزاء قوة سرعتهما.

في البداية، كان قلقاً من أن جيان لن يرى العربات، دواب حرث الأرض أو الدراجات الهوائية التي كانت تدنو من الجهة اليسرى، وكان قد تعهد بالاستمرار بالمشاهدة، لكن حين انكمشت المدينة وسطعت السماء، بدأ يشعر كما لو أنّ لا شيءَ سيئاً يمكن أن يحصل لهم. كان جيان يعتمر قبعةً ذات حاشية من الفرو للأذنين، كانت إحداهما مثبتة إلى الأعلى بواسطة دبوس، أما الحاشية الأخرى فكانت تخفق طليقةً في الريح، لذا بدا هو فعليّاً وحيد الجناح وفولكلوريّاً. في النهاية، انعطف جيان إلى طريق ضيق متجه شرقاً وقادهما نحو الفجر، بمحاذاة صفٍّ من المنازل، مارّين بزقاق رثّ قذر، ووصلوا في الختام إلى منزل من الطين والآجر بجملونات غير متماثلة. وصلوا إلى موقف.

رجل هزيل وقوي لا يمكن تحديد عمره، يرتدي ثياباً غير مناسبة ويحمل صفيحة سقي، كان واقفاً في داخل رقعة من الخضار المكسوة بالغبار. أنزل الصفيحة وأقبل إلى الأمام كي يقابلهم. حيّاه جيان بـ «يعيش الرئيس ماو!» وقدّم سبارو وكاي بوصفهما موسيقيَّيْن مشهورَيْن حالهما حال أولئك الذين تناقشوا حولهم الليلة المنصرمة. أومأ الرجل الهزيل والقوي برأسه. «لقد تجسدتَ بغتةً»، قال الرفيق العين الزجاجية، «على غرار الفرق الموسيقية الجوالة التي زارتهم في الأعوام الأولى من [جمهوريتنا] العظيمة». حتى صوته كان رفيعاً، كما لو أنّ حباله الصوتية كانت مصنوعةً من القصب. تأملهم بمزيجٍ من الرقة والاحتراس.

تناول سبارو حقيبته وسحب صرةً كبيرة الحجم. قدّم لمضيفهما كارتوناً من سجائر «البوابة الأمامية»، زجاجة كونياك وكيساً من حلوى «الأرنب الأبيض»، التي أعطاها له الأب لوت كي يسهّل رحلته عبر أرجاء المحافظة، وهو يسميها العملة النقدية الجديدة لـ «الجمهورية».

«هدايا لـ[الرفيق العين الزجاجية]»، قال سبارو، وهو يحاول ألّا يخفض القنينة التي كانت تنسل من بين أنامله.

تمايل رأس الرجل فيما كان يقبل الهدايا بطيب خاطر. «نفر قليل جدّاً من الناس يعرفونني بالاسم»، قال. «محليّاً، يسمونني أيْ ديْ شينغ، تيمناً بـ توماس أديسون، بالطبع: بسبب تجاربي مع التيار الكهربائي. كان القرويون يعنون بها مزحة، لكنها مزحة وديّة. في بعض الأحيان، الأطفال والسكارى يدعونني [المعلم سيورين]، مبتكر النار الخرافي. أعتقد أنهم أطلقوا عليَّ أشياء كثيرةً. ورشتي تقع هناك على وجه الدقة. ادخلوا، أرجوكم».

استدار وشرع يمشي بسرعة صوب الباب أسفل الجملون الثاني، الهدايا تخشخش على قميصه الأكبر من المعتاد. تحتَّم على سبارو أن يغذي خطاه كي يجاريه. بهدوء، قال له الرفيق العين الزجاجية: «من أعطاكَ التعليمات كي تبحث عني بذلك الاسم؟».

«زوج خالتي، المعروف باسم وِين الحالم».

لم يُظهر الرجل أيَّ تعبير لكنه تابع المشي، وهو يوازن هداياه.

فُتح باب خشبي من دون أن ينبعث منه أيّ صرير أو شكوى ومن ثم هسهس مصباحٌ مع أن الرجل لم يلمسْ شيئاً. سبارو، كاي وجيان تبعوه إلى الداخل. تحاشوا عوامة زجاجية ضخمة لصيد السمك، صعدوا ثلاث درجات، ودخلوا حجرةً ذات منضدة طويلة واحدة وجداراً من الرفوف. أسلاك من النور بدأتْ تشع، كما لو أنّها استيقظتْ إثر حركاتهم. الرفيق العين الزجاجية أنزل هداياه إلى الأسفل. أومأ نحو الغرفة الممتلئة التي، مع ذلك، لم تكنْ تفتقد إلى النظام والترتيب وانبرى قائلاً: «أنا أرحب بكم لأن تلقوا نظرةً فيما حولكم».

«[أيها المعلم]»، قال كاي، «هل إن شغفك الرئيس هو الضوء؟».

«في السابق»، أجاب الرجل. «إنما حين رجعتُ من إعادة التربية، اكتشفتُ أن ذخيرتي من أسلاك النحاس قد نفدتْ. خلال [الوثبة الكبرى للأمام]، هشّم أشخاصٌ بابي وأخذوا معهم المعدن كله. إنكَ تتذكر الشعار القائل: [النضال من أجل إنتاج عشرة ملايين وسبع مئة ألف طن من الفولاذ]. حين أعطى الرئيس ماو تعليماته بأن تصبح القرى صناعيةً، اكتشف جيراني جميع أشيائي الصغيرة، وحتى مقياس الفولتية العائد لي، مجموعتي من البطاريات، كاميرات الثقوب الصغيرة واللفات المعدنية، ناهيك عن قدور الطهي وملاعق المعدن العائدة لي، وألقموها المَصهرَ الذي سوف تراه على مبعدة خمسين خطوة إلى الشرق من هذا المكان. تمكنوا من أن ينتجوا كميةً مذهلةً من الفولاذ لكن، يا للخسارة، لم يُستخدمْ أيُّ قدر منها». هزَّ كتفيه تعبيراً عن عدم اكتراثه وخفق أحد المصابيح الكهربائية، أعتم ومن ثم شعَّ متألقاً من جديد. «عند إطلاق سراحي، أقبل جيراني جميعاً وقالوا لي: [أليس من الخزي والعار، (أيها المعلم إديسون)، أنكَ لم تكنْ هنا كي تساعدنا في إكمال حصتنا من الفولاذ؟] ومن ثم فرحتُ لأنني لم أكنْ حاضراً كي أسلّم إليهم جميع المباسط[1] والأسلاك التي بحوزتي، فضلاً عن خاتم زواج أمي والإبريق الخزفي الألماني الذي جلبه أبي من دوسلدورف قبل بضعة أعوام خلتْ، بالإضافة إلى دراجتي الهوائية. في بعض الأحيان، من الأفضل ألّا نقول وداعاً».

توقف الرجل هنيهةً كي يلتقط أنفاسه وتأمل المنضدة الطويلة التي كانت تحمل عناصر قليلة فقط. «تعالوا وانظروا إلى عينيْ»، خاطبنا قائلاً.

رفع كابينةً، ووضعها أمامهم، وبحركة انزلاقية فتح دُرجاً مقوساً إلى الجانب كجناحٍ خفي. وعلى سطح ورقي مثلّم، من صفوف متساوية كل

1 – المباسط spatulas: جمع مِبسط، وهي ملعقة (أو سكين) الصيدلي أو طبيب الأسنان التي يبسط بها المواد أو يمزجها على لوح من مادة معينة كالزجاج مثلاً، أو في طاس مطاطي «من الكاوتشوك» – م.

صف يتألف من ثمانية، كانت هناك عيون. فرقع ضوء آخر بنحو آلي. كانت العيون قد رُتبتْ بهيئة طيف من الحدقات السود إلى الحدقات البنية، كل حدقةٍ من الحدقات ذات خطوط متشابكة لطيفة، أخاديد وأعماق. كانت نصف كرات فارغة صُنعتْ كي تناسب، قال الرجل، العين التي لا تعمل، أو تناسب كرةً زُرعتْ في المحجر.

«هذه للجهة اليمنى»، قال الرجل. فتح الدُّرج الثاني الذي امتدّ في الاتجاه المعاكس. بانتْ أربعون عيناً زجاجيةً أخرى. «وهذه للجهة اليسرى. كل واحدة منها هي زوج لواحدة أخرى، لكنني أفضل أن أحفظها بشكل منفصل».

اقترب سبارو ببطء، وقد نوّمه تلاعب الألوان والشعور الكاذب، المُزعج للعينين اللتين كانتا تمران عليه.

«يبدو كما لو أنّ ذلك حصل أمس»، قال جيان، الذي كان صامتاً حتى هذه اللحظة، «ذلك أنني قابلتُ [المعلم أيْ دِيْ شينغ]، في هذه الحجرة تحديداً. كنتُ فقدتُ عيني حين لكمني أعز أصدقائي، في لحظةٍ يؤسف لها، في وجهي. كيف يمكنني أن أفقد عيني بسبب شيء غير مهم على الإطلاق؟ ولاحقاً، لم يكنْ باستطاعتي تناول الطعام أو النوم بشكلٍ مناسب، وحين نظرتُ إلى صورتي المنعكسة في المرآة كل ما شاهدته هو المحجر الخالي، كما لو أنّ كياني كله قد اتخذ شكل قمع وأضحى تلك الفتحة الصغيرة، البشعة. كنتُ أجلس، طول الليل، في غرفتي المظلمة وأعزف على كماني وصوته هو الشيء الوحيد الذي كان يُريحني ويزيل عني الغم. الموسيقى وحدها التي كان بمقدورها أن تعبر عن شعوري الخالص. كنتُ محطّماً، مطعوناً من الداخل، بسبب فقداني لعيني تلك».

«أعزّ أصدقائي، الذي ضربني بنحوٍ غير مقصود والذي أحسَّ أيضاً بالعار حين تطلع إلى وجهي، اكتشف [المعلم إديسون]. وهكذا، في يومٍ من الأيام، وجدتُ طريقي هنا. جلسنا إلى هذه المنضدة، وجهاً لوجه،

وتحدثنا عن الرؤية، التحيز[1] والطبيعة المزدَوجة للحياة. سألني ما إذا كانت العين الزجاجية هي لي أم لأعز أصدقائي؛ بمعنى آخر، هل توسلتُ من أجل الحصول على عين جديدة كنافذة على العالم الخارجي، أم إنها للعالم كي ينظر إليّ؟ حسناً، كنتُ مُحبطاً جدّاً وكلا المنظورين صدماني بوصفهما صحيحين بالقدر نفسه. على كل حال، حين أستعيد ماضي حياتي، أرى نفسي كما لو آنني أنظر إليها من الخارج، أفهم نفسي كما يُحتمل أن يفعل شخص آخر. وهكذا توصلنا إلى استنتاج مفاده أن العينين ليستا أحاديتي الجانب. أعطاني المعلم أديسون محاضرة على مدى وقتٍ طويل. قال إن العين الزجاجية لا يمكن أن تكون بديلاً عن العين المفقودة، بل هي إضافة جديدة، لا هي عين معصوبة ولا مُبصرة، إنما هي مرآةٌ مصبوغةٌ... [أرجوك]، قلتُ له، [لا يهمني ما هي... إن كان بمقدوركَ أن تساعدني فعليك أن تفعل! أشعر كأنني انشطرتُ نصفين]. وهكذا، على مدى أيام كثيرة جدّاً، صبغ عيني الصناعية الأولى. كانت بُنيّة اللون كالجوز مع نقاط باللون البرتقالي ومقدار ضئيل من اللون الذهبي، الذي قال إنه اللون الطبيعي لعيني المبصرة. وذات يوم، في صباح مشمس مثل صباحنا هذا، وضعناها في مكانها لأول مرة. بعد الانتظار الطويل ونفاد صبري، رفضتُ النظر في المرآة. كنتُ أخشى الشيطان الذي قد أشاهده! ماذا لو تبيّن أن صورتي المنعكسة في المرآة هي صورة مسخ، نفسٌ جديدةٌ حتى أبشع من تلك القديمة؟ لكنه غضّ النظر عن دموعي وثبّتَ العين الصناعية في موضعها».

أغمض جيان عينيه وبدا كأنه حبس أنفاسه، ومن ثم فتحهما، وراح ينظر مباشرةً إلى سبارو. «حين تفرستُ أخيراً في المرآة، رأيتُني، كما لو أرى نفسي أول مرة، ككائن بشري شأني شأن أيّ كائن آخر. إنها مجرد عين، شيءٌ صغير، لكن...». التفتَ نحو الرجل شديد الهزال. «إنني أعتقد أنه تقريباً الوقت المناسب لعينٍ جديدةٍ، رفيق».

---

1 - التحيّز one – sidedness: الميل إلى جانب واحد مما يمنع الحكم النزيه، غير المنحاز – م.

الرفيق العين الزجاجية قيّمَ وجه عازف البيانو. «حينما تكبر أعمارنا»، قال، «يبهت لون قزحية العين. لذا من المحتمل أن تكون على حق، واللون ربما ينخفض درجةً».

«وهكذا كما ترى»، قال جيان، «أنا وأنتَ أشبه بشقيقين».

على المنضدة الطويلة، أخذ سبارو طقماً رقيقاً من الأنابيب الزجاجية، مَضرم بينزن[1]، دوارق صغيرةً جدّاً من الصبغ وفراشي صبغٍ رفيعةً بدتْ كأنها ذات شعرة مفردة.

«لدي غرفة احتياط»، قال الرفيق العين الزجاجية، «في هذه الأنحاء، إن كنتم، أصدقائي، ترغبون البقاء بضع ليالٍ معي. إنها مكان بسيط لكنه سارّ».

تحت المصابيح الكهربائية، بدتْ كلتا عيني الرجل أشبه بشيئين مصبوغين، مميزين، تشعان بغموضٍ خاصٍّ بهما وحدهما. قبل أن يتمكن سبارو من الردّ، قال كاي: «من دواعي سرورنا، [أيها المعلم]». صفق الرجل النحيف بيديه كلتيهما، بحيث جعلهم يقفزون جميعاً. «وأنتَ، جيان العجوز؟ تعال ودعنا نتعاشر كما كنا عليه خلال تلك العشرة القديمة الحمقاء».

«أنا أحضرتُ كماني»، قال جيان. «والشاب سبارو يعزف على الـ إيرهو».

«يتعيَّن عليكَ إذن أن تأتي وترى آلاتي الموسيقية. إذا تبعتني في هذا الطريق...».

***

في تلك الليلة، هبَّتْ عاصفة. عزف سبارو لهم، كانت نقرات إبر المطر تتخلل الموسيقى، تتضارب مع الألحان، تحجب بعضها وتوسّع بعضها الآخر، كما لو أنّ هطول المطر كان لديه عقله الخاص وكان يدير حقل نشاط الصوت كله في داخل وخارج المنزل ذي الجملونين. قدّم

---

1 - مَضرم بينزن Bunsen burner: قطعة شائعة من تجهيزات المختبرات، تُنتج لهبَ غازٍ مفتوحاً مفرداً، تُستخدم بأغراض التسخين، التعقيم والاحتراق. سُمِّيتْ تيمناً باسم الكيمياوي الألماني روبرت بينزن (1811 - 1899). يستخدمه العاملون في المختبرات الطبية وسواها - م.

الرفيق العين الزجاجية قهوةً طينيةً، محلّاة بحيث إنّه قال إنها أتتْ من البلدان البوذية الواقعة عند البحار الجنوبية، وتلا ذلك خمر الرز، قال جيان إنه أتى من الحدود الغربية لـ تركمانستان. في ركن الغرفة، كان هناك بيان قديم قيثاري الشكل، رفيع جدّاً بلون التراب بحيث إنّ سبارو حتى لم يفطنْ إلى وجوده. رفع الغطاء، وأظهر كتابةً لاتينيةً منقوشة.

«الموسيقى»، ترجم الرفيق العين الزجاجية، «هي عزاء الأعمال الشاقة الكبرى. إذن، أيها الشاب»، قال، وهو يلتفت إلى كاي، «ألن تعزف لنا؟ أخبرنا المدرّس سبارو أنكَ عازف بيانو رائع جدّاً».

حاول كاي أن يقول إنه مجرد عازف بيانو عادي لكنهم لن يسمعوه. في النهاية، جلس على المنصة الخشبية الكسيحة. بدأ يعزف كانتاتا لـ باخ منقولة لتلائم لوح مفاتيح، الـ «أكتوس تراجيكوس»[1]. كان يساور سبارو شعور كأنه يهبط من على سلم مضاء بنور الشمس. كان النص يرتفع كي يلتقيه: «آه، أيها الرب! علّمنا أن نفكر بأننا ربما نموت علنا نتعلّم أن نكون حكماء. *نظّم بيتك، يا بُني، لأنك ستموت ولن تبقى بعد الآن بين صفوف الأحياء*».

كان يتعيَّن على الكهان في قرية كاي أن يمتلكوا بياناً قديماً قيثاري الشكل، لأن عازف البيانو كان يعزف عليه كما لو أنّه ملكه. كان يطوي بإخلاص الموسيقى بالنصف ومن ثم بالنصف مجدداً، ويبزغ في الحركة الثالثة مع كورس مستغرق بنحو غير متوقع في الفرح الغامر: *اليوم، اليوم، ستكون معي في الجنة*. ومن هذا العلو، المكان الذي وُصف أفضل وصف باعتباره kū lè، وهي مقاطعة تضم الاثنين معاً: السعادة والحزن، بدأت الموسيقى تتشقلب، وعلى حين غرة تلتحم مع سيمفونية سبارو

---

1 - أكتوس تراجيكوس: Actus Tragicus: واحدة من أشهر كانتاتات باخ (الكانتاتا رقم 106) «زمن الله هو أفضل الأزمنة كلها»؛ أُلِّفتْ بشكل مؤكد تقريباً لتكون عملاً جنائزيّاً. ربما من أجل مأتم خاله توبياس لاميرويرت الذي فارق الحياة في آب «أغسطس» 1807 – م.

رقم 3 غير المكتملة كان كاي قد سمعها مرةً واحدةً فحسب لكنه الآن يعزفها استناداً إلى ما علق منها في باله. كان الانتقال قد أذهل سبارو. كانت الألحان تترنح وتصعد في الوقت نفسه، تترنح وتصعد. بدت الموسيقى كأنها مسكوبة في شكلٍ مجهول، لا يمكن تخيله، بحيث إنّ سبارو شعر كما لو أنّه كان يسمع سيمفونيته هو[1] لأول مرة.

حين انتهت الحركة، هزَّ الرفيق العين الزجاجية رأسه. «لكن أيُّ موسيقى هذه، بحيث إنّها تذكّرني بأشياء كنتُ أعرفها ذات يوم؟». بدأ، كالمخمور، يستذكر معسكرات الشمال الغربي. «هل يستكثرون علينا إذا ما طلبنا»، قال، «أن يسمحوا لنا بأن يعيش كلٌّ واحد منا حياته هو، وأن يجلَّ كلٌّ منا أبويه ويربي أولاده هو بأفضل ما يقدر عليه؟ لماذا تكون الحياة البسيطة جداً هي أصعب الأشياء منالاً؟». كانت بورتريهات ماو تسي تونغ، تسهاو إينلي ولين بياو[2] تقيّمهم كأنهم جيران فضوليون. «المعلم إديسون المسكين!». هتف جيان، وهو يثب على قدميه. كان سبارو يخشى أن تسمع الجدران وكان يودُّ أن يقول إنها مجرد موسيقى لكنه لم يستطعْ أن يرغم نفسه على أن يلفظ الكلمات التي كانت غير صحيحة بنحو جليّ. توقف كاي عن الكلام برهةً كي يدع الجمهور يستقر. عبَّ عازف البيانو كأساً ممتلئاً من الخمر التركمانستاني، وأدرك عين سبارو وهي تبتسم بسمةً حزينةً، عاجزة. شرع يعزف من جديد فيما كان المطر يهطل بنحو أشد، وجرفهم جميعاً بعيداً عن ووهان، عن البلد، عن المحافظة وحتى الأرض نفسها إلى أن تمايلت الأشياء كلها بما فيها ارتعاش موسيقى كاي. كانوا قد ركزوا بشكل حصري على الزجاجتين السادسة والسابعة، وخبر سبارو حرية فكر مصحوبة بالهذيان وحرية حركة. أطلقت الأبواب تنهيدةً وانفتحتْ أغطية الأسرة كي ترحب بهم

1 – سيمفونيته هو: أي السيمفونية التي من تأليفه هو – م.

2 – لين بياو (1907 – 1971): مارشال في جمهورية الصين الشعبية، لعب دوراً حيوياً في النصر الشيوعي خلال الحرب الأهلية الصينية، وبخاصة في شمال شرق الصين – م.

وأرهف سبارو السمع للطوفان فيما كان كاي يمسك به بذراعيه بطريقةٍ غير متقنة. «كيف يمكنكَ أن تعزف سيمفونيتي بهذا الكمال الرائع؟». سأله. أجابه كاي قائلاً: «كيف يمكن أن يخطر ببالك أنني أنساها؟». شعرا بالنعاس هكذا، متماسين من دون أن يتماسا تماماً، عن قرب وعن بعد، متخَمين ومع ذلك مشبعين بالشوق والحنين.

***

كان سبارو هو أول المستيقظين من النوم. سمع قعقعة شاحنة على الطريق المحطم في الخارج وأدرك أن كاي كان يسقط ببطء من السرير الضيق. برفق، سحب عازف البيانو غير الواعي وأعاده من جديد إلى الحصير وغطاه. غمغم الشاب في أثناء نومه، قائلاً: «سبارو العزيز»، وأحسَّ سبارو، لأول مرة، إلى أيّ مدى يمكن أن تكون السعادة الخالصة جدّاً عبئاً ثقيلاً. رقد بهدوء، الخمر الآن يسبِّب له صداعاً، وكان يصيخ السمع لضوضاءٍ آتية من الخارج، اللحن الحادّ لمسحاة تقرع صخرةً. لبس ثيابه ومضى إلى الخارج. في رقعة الحديقة المغبرة، كان الرفيق العين الزجاجية جاثياً على ركبتيه، مشغولاً بشيءٍ انبثق توّاً من الأرض.

«إنه يصل»، قال الرفيق العين الزجاجية، وهو يخاطب النباتات، «ابن أخت زوجة وِين الحالم. مؤلف موسيقي شهير كما لو أنّه ينتمي إلى عالمٍ آخر وعصرٍ آخر». وفيما كان يساعده سبارو، هبَّ واقفاً على قدميه. «دعني أريك الفرن الذي أسسته قريتنا خلال [الوثبة الكبرى للأمام][1]. نموذج من نماذج البراعة والاتقان»، قال وهو يقطّب حاجبيه.

بدؤوا يبتعدون عن المنزل، هابطين تلّاً متجهين صوب صفٍّ من

---

1 - الوثبة الكبرى للأمام the Great Leap Forward: وهي حملة اقتصادية واجتماعية في جمهورية الصين الشعبية قادها «الحزب الشيوعي الصيني» بين عامَيْ 1958 و1962. قاد الحملة الرئيس ماو تسي تونغ، وكانت تسعى إلى نقل البلاد بسرعة من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الاشتراكي من خلال التصنيع السريع والعمل التعاوني «أو الجماعي» collectivitism العاجل. على أيّ حال، على نطاق واسع، تُعدّ هذه الحملة مسؤولةً عن «المجاعة الكبرى» التي ضربت الصين - م.

الأشجار تصفرّ بلطف. شاهد سبارو المصهر الذي تحدث عنه الرفيق العين الزجاجية، قبعةً سوداء مشوّهة ترتفع من سطح الأرض، مهجوراً.

«هو ذا! عسى أن يبقى أبدَ الدهر!». قال الرفيق العين الزجاجية، كان يصيح تقريباً. وبعدها انخفض صوته. «ثمة شائعة تذهب إلى القول إن وِين الحالم لم يعدْ موجوداً في المعسكر».

أومأ سبارو برأسه.

«إذا كنتَ قطعتَ كل هذا الطريق كي تستفسر عنه»، قال الرجل الأكبر سنّاً، «لا أعرف عن مكان وجوده. إنني آسف جدّاً».

لم يكونوا يمشون بسرعةٍ. آثر الرفيق العين الزجاجية الجانب الأيمن من جسده، وتألق جبينه بالمجهود الذي بذله كي يخفي وجعه الجسدي. بدا جليّاً لـ سبارو أن الاكتشاف مؤلم بشكل مميت.

«[أيها المعلم]، دعنا نتوقف هنا كي ننعم بقسطٍ من الراحة».

«ما من حاجة، ما من حاجة». وعقب ذلك، وحتى بمزيدٍ من الرقة واللطف، أضاف قائلاً: «سوف أشعر بنحوٍ أفضل وأنا بعيد عن المنزل. ثمة جواسيس في الأمكنة كلها. أخشى أنني كنتُ أحمقَ نوعاً ما فيما يتعلق بكلماتي التي نطقتُ بها البارحة».

أومأ سبارو برأسه. التفت كي ينظر وراءه، شبه متوقع بأن الأبواب والشبابيك تداعتْ خلفهم.

«وِين الحالم كان بحوزته حقيبة سفر مستطيلة ومسطحة»، قال الرفيق العين الزجاجية، بعد أن سارا مدةً معينةً. «حقيبة سفر في منتهى الأهمية. كانت تضم مجموعة نظيفة من الثياب، صورة لزوجته وابنتهما الصغيرة، ماذا كان اسمها...».

«تسهولي»، قال سبارو.

«بالطبع. تسهولي».

«تلقيتُ رسالةً منه».

بدا أن الرجل المسن لم يسمعْ. كانت عيناه شفافتين في الشمس، ومن

ثم تبللتا فجأةً. سالت الدموع واختلطتْ بعرق الرجل، وحينئذٍ فقط عرف سبارو أن الرفيق العين الزجاجية قد فهم الأمر. «صديقنا ليس مجرد ناسخ رائع»، همس الرجل، «بل فنان متهرب من أعلى المراتب. أين يختفي المرء في الصحراء؟ إن ذلك ليبدو أشبه بسمكة تسعى جاهدةً للاختباء في شجرة!». توقف كي يلتفت من حوله، رافعاً يديه إلى وجهه. قال، من وراء هذا الملجأ: «رأيتُ رجالاً يغادرون هذا العالم في منتصف الطريق عبر جملة واحدة. إذا أخبرتكَ عن معاناتنا ومصاعبنا، هل ستصدقني؟». هبطتْ يداه. «إذا أخبرتك بأننا، خلال الشتاء المرير كله، أقمنا في داخل الكهوف، ماذا ستقول؟ أولئك الرجال الأخيار، المتعلمون والنزيهون، وجب عليهم أن يقلّدوا عادات الحيوانات كي ينجوا من المناخ القاسي، لكننا لسنا حيوانات! كنا نفقد أسناناً حادة وآذاناً بارزةً وجاكتات الفراء السميكة! نحن وجميع رجالنا تضورنا جوعاً... رفيق سبارو، سوف أخبرك بالحقيقة المتعلقة بهذه المعسكرات. إنني رجل كهل وإذا ما تبيّن أنكَ جاسوس، لا أملكُ شيئاً أفقده سواي. لا يمكنني أن أخون وِين لأنني لا أملك فكرةً عن المكان الذي مضى إليه. إنني آمل فقط أنه أخذ الحقيبة معه».

«إنني أعدكَ»، قال سبارو. «سوف أحفظ أسرارنا كلها».

أومأ الرجل العجوز برأسه. كان شبه غارق في ذكرياته هو.

«في السنة التي قابلتُ فيها وِين الحالم»، قال الرفيق العين الزجاجية، «كانت هنالك مجاعة في الأرجاء كلها. في العام 1958، خلال [الوثبة الكبرى للأمام]، تكشّف الوجه الحقيقي لـ[ثورتنا]. لماذا كان زعماؤنا يحلمون أن كل مزارع من مزارعينا يُمكن أن يولد من جديد كصانع فولاذ؟ كيف تصوروا أن فتًى درس الحقول الزراعية طوال حياته كلها بمستطاعه أن يصنع الفولاذ من اللاشيء؟ إنني أعتقد أنه شيء أخطر من الأيديولوجيا، الإنتاج والاحتياجات المادية. علينا أن نغدو كما كانوا يريدون أن نكون علناً، كنا موجودين كي يصوغنا الحزب ويعيد صياغتنا. هنا في هذه القرية، كان مطبخ الكوميون مغلقاً بسبب شحّ الطعام. كانت

الأرض جرداء والأشجار عاريةً من الأوراق. ما من أحد بحوزته قدر حتى يطبخ فيه حساءه، ناهيكَ عن الحساء نفسه. في غضون ستة أشهر، نصف السكان عانوا من الجوع، في الأول عانى الأطفال ومن ثم كبار السنّ، وبعدها بقية السكان.

«إنه موتٌ جدير بالشفقة، هذا الضياع غير المجدي، وكانت مجاعة صامتة لأن نفراً قليلاً في المدينة كانوا يعرفون ماذا كان يجري في الريف. كل ما كانوا يعرفونه هو أن طعاماً كافياً يدخل عبر القنوات المناسبة. كل الحبوب صودرتْ، كما ترى، أخذوها بعيداً وتركوا الريف خاوياً». أومأ برأسه، وأدار وجهه إلى الخط المتموج للأرض والهواء، إلى الجبال الرمادية في البعيد. في الشمال الغربي، كانت مجاعتنا كارثة. لم يكنْ لدينا طقوس. ماذا يقول الحزب عند جنازة يميني مُدان؟ بالنسبة لهم، كان قد غادر العالم منذ أمدٍ بعيد.

«إلّا أنّني كنتُ محظوظاً في مواهبي. إذا كان يلزمني أن أقول هذا، الجوع ألهم أكثر إبداعاتي إخلاصاً! بمرور الوقت، زوج خالتكَ أضحى مساعدي الطويل والموثوق به. أنا ووِين الحالم عملنا بكرات وأدوات من لاشيء باستثناء ريح الصحراء. كل مستودع من المستودعات كان بالمستطاع اقتحامه - كل مأوى خاص بمدير معسكر، كل مطبخ طاهي - إذا كان لديك الأيدي المناسبة والأدوات المناسبة. وِين الحالم كان بوسعه أن يصل إلى أعلى النوافذ، كان باستطاعته أن يمتدّ مثل سلّم متمدد. كان لدينا شعار، أنا ووِين الحالم، أن لا نضيع شيئاً في الأراضي القاحلة. كنا نتناول مزيجاً من الروث وأوراق شجرٍ ميتة، علف الحيوانات، كنا نرحب بكل مادة مُغذية تحت الشمس. من الحزب إلى بطوننا! من شمس الرئيس ماو إلى شفاهنا! حرصنا على أن نفتش عن آخر كسرة خبز صالحة للأكل على هذا الطبق الفارغ وأن نجد طريقةً ما نأكل فيها الطبق نفسه، إذا دعت الضرورة. لن يكون ثمة موت بطيء لنا، بل مجرد تجدد بطيء. كنا نستيقظ يومياً ونسبُّ زعماءنا، نشتم [الثورة] والتاريخ، وكنا نعبد الحياة، التعلّم والمستقبل».

«أتدري لماذا عاقبوني بإعادة التربية من خلال الأعمال الشاقة، أيها الفتى سبارو؟». تبسّم، كما لو يهمّ بأن يروي مزحةً طويلةً ومقنعة. «دعني أستطرد وأقدّم هذه الحكاية في داخل حكاية. طيب، تبدأ جريمتي مع أمي. خلال الحرب الأهلية، تركتْ أبي وهربتْ مع جندي قومي، محارب من أجل شيانغ كاي - شيك[1]. أبي، يجدر بي أن أقول، كان رجلًا في منتهى البساطة. كان قد دأب على أن ينام مرتدياً سرواله القصير على رأسه كي يتخلص من البرد، وحين كان يفيق من النوم صباحاً، كان ينسى أنه هناك، ويمضي إلى القرية كما لو أنّه ذاهب للنوم. أمي، في غضون ذلك الوقت، كانت ألمع نجمة في القرية، ذكية، عطوفة ومحببة للقلب، وأصغر منه بعشرين عاماً. كان عشيقها القومي، في الحقيقة، صديق طفولة. فيما كانت الحرب الأهلية تتنفس آخر أنفاسها، زحف عائداً إلى القرية تحت جنح الليل. كلاهما غاب عن الأنظار. كان الرئيس ماو كل شيء عدا كونه قائداً في ذلك الحين. كان أبي يخشى أن يُلقى القبض على أمي، تُتهم بالتحريض على العصيان وتُعدم. لم يكنْ بمستطاعه النوم وبات شديد القلق بحيث إنّه هزل كثيراً، كما لو أنّ الدور سيأتي إليه هو. لكن، ذات صباح، وصلتْ رسالة من أمي. أخبرتنا أنها تبعتْ عشيقها والجنرال شيانغ - كاي - شيك إلى خارج البلاد ومن ثم إلى المنفى في تايوان. وهكذا، رحلتْ إلى الأبد».

«كنتُ أعرف أن أمي تحبني بالقدر نفسه الذي كانت تحب فيه عشيقها؛ لذا لن تكون سعيدةً إذا ما ابتعدتْ عني أو عنه. ثمة شيء واحد كنتُ فهمته، عزيزي سبارو، هو أن الضوء ليس ساكناً وصلباً وهكذا هو الحال مع الغرام. الضوء يُمكن أن يتشتت إلى اتجاهات كثيرة. طبيعته هو أن ينقسم وينشطر. كتبتْ لي أمي مرةً واحدة، لم أسمعْ منها مرةً

---

1 - شيانغ - كاي - شيك (1887 - 1975): رجل دولة، قائد سياسي وعسكري، صيني الجنسية، خدم بوصفه قائداً لجمهورية الصين. كان عضواً بارزاً في الحزب القومي الصيني - م.

ثانية. لكنني احتفظتُ بتلك الرسالة طوال سنوات مراهقتي وأحسستُ بمعاناتها وآمنتُ بأنها كانت تحس بمعاناتي أنا أيضاً. كانت تربطنا صلة وثيقة، بالتأكيد مثلما ترتبط ورقة العشب هذه بالتراب الذي تحتها».

«كان حبّ أبي لها، في غضون ذلك، قد ازداد أكثر من أيّ وقتٍ لها، بغضّ النظر عن المكان الذي تمضي إليه أو ماذا كانت تفعل، وكان هذا الحب يشعّ ساطعاً حتى نهاية حياته الموجزة والصبورة.

«على كل حال، بحلول العام 1955 كنتُ عزباً ويتيماً، واختار الرئيس هذه اللحظة كي يبدأ حملته الذكية جدّاً. [دعْ مئة زهرة تتفتح]، قال لنا. [دعْ مئة مدرسة فكرية تتنافس!] قيل لنا إنه يتعيَّن علينا أن نسأل أنفسنا، الأشخاص الأعلى منا منزلةً، وحالة أمتنا كي نجعل من بلدٍ ما موحداً وعادلاً معاً. أيها الفتى سبارو، لقد أمضيتُ زمناً طويلاً جدّاً في ورشتي، وحيداً مع أجهزة الراديو الكريستال العائدة لي، البطاريات ومكبرات الصوت المصنوعة في المنزل، في غرفة مغلقة حيث كانت هنالك أشياء غير حيوية تصغي إليّ. لذا قدّمتُ نفسي ورسالة أمي في يدي وطلبتُ أن تُغفر جرائمها وتُنسى. كنتُ أعتقد أنها إذا أُعيد إليها اعتبارها، سوف يُسمح لها بأن تخرج من المنفى وتعود إلى الصين، ويكون بوسعي أن أراها مرةً أخرى. الحب فعل ثوري، ناقشتُ. كانت أمي قد قطعتْ صلتها بـ[العادات القديمة]، بالهرميات الخانقة لـ«الكونفيشيوسية»، وكانت قد تقبلتْ مصيرها بسرور».

«يا لها من غلطة. كان من الأفضل أن أناقش بأن الإمبراطور هيروهيتو وشيانغ كاي شيك يستحقان فيللا في فرنسا، يدفع ثمنها [الحزب الشيوعي الصيني]. كان يلزمني أن ألفت الانتباه إلى المقولة الحكيمة: *[ما من زهرةٍ يمكنها أن تبقى متفتحةً على مدى مئة يوم]*. النكات كلها انتهتْ. في أول الأمر، أصغوا إليّ وكانوا متعاطفين معي. [إديسون الشجاع]، قالوا، [إنه شيء صحيح أنك أظهرتَ هذا الإخلاص لأمكَ المفقودة. إنكَ ابن وفي لـ (الثورة)!] كانت [حركة المئة زهرة] لا تزال باقة أزهار ربيعية ويمكن

أن يُقال عنها أيّ شيء. كان زمناً مثيراً، صديقي. جميعنا، شيباً وشباباً، استيقظنا على الحرية. أحسستُ بزهوٍ عميق حيال بلدي وأنا أعرف أنني لستُ الشخص الوحيد. لذا، بطبيعة الحال، لم أتوقفْ عند تلك النقطة. جعلتُ أطوف هنا وهناك وسط الفساد والخراب السائدين في القرية، البيروقراطية، المصالح والرشاوى التي أفلست الفقراء، الطبيعة المضحِكة لتربيتنا العلمية، وحتى طبيعة قطاراتنا. [بكل مواهب وطننا]، أعلنتُ جهاراً [يتحتَّم علينا أن نكون الشجرة المزهِرة للتحديث!]».

«بدأت [الحملة المضادة لليمينيين][1]. كل مَن لديه شيء ما يمكن أن يفقده، من [قائد سفينتنا العظيم] حتى الرجل الوحشي الساكن في قرية محلية، سمعوا ما يكفي. استدعوني إلى اجتماع في المدينة. كنتُ مقتنعاً بأن أمي وصلتْ أخيراً وسوف أراها ثانيةً! أنفقتُ مبلغاً طائلاً كي أشتري طقماً جديداً من الثياب وقلادة يشب لها. إنه شيء بورجوازي جدّاً أن أفعل ذلك، أسلّم بذلك. حين وصلتُ إلى القاعة، كان قد حضر هناك مئات من الأشخاص. بحثتُ عن وجه أمي بين وجوه الحاضرين والحاضرات. عشرات المرات خُيّل لي أني رأيتها هناك».

«سمعتُ اسمي يتكرر عبر مكبرات الصوت. بدا كما لو أنني تحت الماء واسمي يتداعى في التيار. اثنان من الكوادر دفعاني إلى أعلى

---

1 - الحملة المضادة لليمينيين The Anti – Rightist Campaign: حصلتْ هذه الحملة في جمهورية الصين الشعبية، واستمرتْ تقريباً بين سنتيْ 1957 و1959، وكانت في الحقيقة سلسلة من الحملات سعتْ إلى تطهير صفوف الحزب الشيوعي الصيني من «اليمينيين» المزعومين، وشملتْ كذلك أولئك الذين خارج الحزب أيضاً. وكان مصطلح «يميني» غير ثابت على الدوام، وقد شمل أشخاصاً منتقدين اتخذوا وجهة نظر يسارية من الحكومة. لكن التعبير الرسمي للمصطلح أشار إلى المثقفين والمفكرين الذين يبدو أنهم يفضّلون «الرأسمالية» ويقفون ضد الانتقال إلى الاقتصاد التعاوني أو الجماعي Collectivization. هذه الحملة حرّض على القيام بها الرئيس ماو تسي تونغ ورافقتها مضايقات سياسية لما يقارب 550 ألف شخص تقريباً. كانت هذه الحملة بمنزلة رد فعل على «حملة المئة زهرة» التي أتاحت المجال لتعددية وسائل التعبير وانتقاد الحكومة.– م.

خشبة المسرح حيث يقف هناك رجل، يحمل رسالة أمي. كان شيئاً مثيراً جدّاً. أجلتُ النظر في ما حولي، مقتنعاً بأنها كانت تنتظر وراء الكواليس. لوّح الرجل بالرسالة في وجهي كي يلفت انتباهي. حاولتُ أن أركّز. اتهمني الرجل بأن ميول أسرتي بورجوازية وبتعاطفها القوي مع العدو. [أيّ عدو؟] سألته، مضطرباً. صفعني على وجهي. غاضباً، حاولتُ أن آخذ الرسالة من بين يديه لكنها تمزقتْ. يجب عليَّ الانصراف، فكرتُ مع نفسي، كيف يمكنني العثور عليها. كانت في موضعٍ ما في هذه الغرفة. [ماما]، صحتُ [أنا هنا. أين وضعوكِ؟] ربط الكادران ذراعيَّ بالحبال كما لو كنتُ دابةً. بدأ الجمهور ينادي باسمي ويشتمني. كنتُ أحسب أنه حلم. كان ثمة شخص ما ينزف إنما بالتأكيد لا يمكن أن أكون أنا. كان ثمة شخصٌ يُضرب كي يؤدبوا الحشد، إنما بالتأكيد لم أكنْ أنا. تصوّرتُ أن الرسالة قد تمددتْ وغطتني وأخفتني وكل شيء أضحى حالكاً. استيقظتُ حين أفرغوا دلواً من الماء عليّ، وبعدها صحتُ بحنق وسميتهم خونةً، مسوخاً، وأشباح. لم تؤثرْ كلماتي في أيٍّ واحدٍ منهم؛ بدلاً من ذلك كانوا قد سجلوا ملفّاً. بهذه الطريقة عرفتُ ماذا قيل: لأن الكلمات ظلتْ تعود إليَّ مراتٍ كثيرةً جدّاً منذ ذلك الحين».

«كانوا قد نقلوني في عربة خفيفة ذات دولابين يجرها حصان إلى جيابانغو. على مدى أشهر، رفضتُ أن أصدق أنني حللتُ هناك. رجالٌ جريمتهم الوحيدة هي الانتقاد النزيه، كانوا يحفرون الخنادق ويصيبهم الهزال. خلال تلك الحقبة، هناك في ديارهم، كانت أسرهم تقيم في أمكنةٍ مخزية، كان أطفالهم يعاملون بازدراء في المدارس أو يُطردون منها بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، صُودرتْ بيوتهم، رُميتْ ممتلكاتهم في الزبالة، أُرغمتْ زوجاتهم على التسول في الشوارع، على إفراغ المراحيض العمومية والإبلاغ عن أزواجهن. كنا قادرين على الاحتجاج مطالبين بكل ما نريده إنما ذلك لا فائدة منه. أخبرنا الحراس

أننا محظوظون، ليس لأننا فقط استثنينا من الإعدام، بل لأن ثمة سقوفاً فوق رؤوسنا وأحذيةً في أقدامنا».

«كان للجوع مراحل عدة. بحلول العام 1959، كانوا قد دفنونا بالجملة. كان البرد، أيها الفتى سبارو، صلباً، مريراً، وكانت لديه ميول فطرية خاصة به هو. البرد يدبُّ في أوصالِ جسدكَ ويدمّرك من الداخل. حتى قادة المعسكر أخبرونا بأن لا نبدد أيامنا الأخيرة على وجه هذه البسيطة في حفر الخنادق. وهكذا كنا أحراراً: أحراراً بأن نتسكع في الصحراء بحثاً عن شيءٍ نسدُّ به رمقنا. دأب وِين الحالم على القول إننا أشبه بمَن يبحث عن القطع النقدية في الجيب الفارغ. ومع ذلك، بقينا أحياءً، حافظنا على ديمومتنا. مرتْ علينا أوقات حينما كان الشيء الوحيد الذي حملناه في رحلة الإياب، بعد يومٍ كامل من التنقيب والبحث، هو أحدنا للآخر. لا شيءَ في معداتنا سوى الصدى، القرقرة. وزن وِين الحالم لم يعدْ يزيد على وزن غلام في سن العاشرة. في العادة لم نكنْ نقوى على الرجوع إلى الكهوف، وهكذا كنا ننام، من دون ملاجئ، في العراء».

«حين كان ضعيفاً، كنا نجلس ورأسانا متقاربان جدّاً، وحتى يكادان يتماسان. يلتقط القصة التي كان يرويها لي كما لو أنّه خفضّها قبل لحظة، كما لو أنّه يتعيَّن عليه فقط أن يغمض عينيه كي يعثر على الصفحة الصحيحة. كان صدره قد أصبح غائراً، وأضحتْ عيناه كبيرتين بنحو مخيف، وعظامه كالسكاكين، إلّا أنّني أعتقد أن وِين كان يخاف خوفاً شديداً من الصمت. المرة تلو المرة، قال لي إن ابنته هي ضوء أيامه وزوجته هي لب عالمه وجوهره. لم يكنْ أمامي سوى أن أُغرم بها، أنا أيضاً. كل شيء محبوب في الجوّ، هو زوجته الحبيبة سويرل: السماء الفيروزية، الرمل الذي يومض كالنجوم، نور الشمس الذي كان يلامس جلودنا الخشنة. كان يكلّمها ليلاً كما لو كانت تجلس بجوارنا؛ حين يكون محموماً، كان يزحف خارجاً من الكهف مصمماً على أن يجد زاداً لها. وذات مرة، رأيته يغسل حبات رمل في قدر ماء، مقتنعاً بأنه كان

ينظف الرز لزوجته المعذَّبة: سويرل. ولكنه حتى حين كان مخبولاً، كان باستطاعته أن يسرد القصص. لعله كان قادراً على سردها بنحو أفضل مما لو كان عقله سليماً أكثر، لا أدري. أقسمنا بأن لا نترك أحدنا الآخر لأن المصير الأسوأ هو أن نشعر بأننا مهجورون، منبوذون، في هذا العالم المنجمد والجميل».

«لاحقاً، نادراً ما كان يذكر اسم زوجته. عوضاً عن ذلك، كان قد شغل نفسه بسرد قصة لا بداية لها ولا نهاية، قصة ولدتْ من رحم [الثورة]. إحدى شخصياتها، ميّ فورث، ذكّرتني كثيراً جدّاً بأمي. تغادر ميّ فورث حياتها وتتوارى في البرية؛ في أثناء ذلك، دا – وي يبحث عن أسرته عبر المحيط والصحراء. بوسع وِين أن يشطر حياتهم إلى قطع ويوزعها على مدى مئة يوم أو حتى ألف».

«في أحد الأيام، تعرفتُ على نفسي في القصة: ظهر فجأةً شاب كان يصنع عينين زجاجيتين لرجل حيّ وكان يشعر بمزيد من الارتياح، هو نفسه، بين الأشخاص ذوي الرؤية الجزئية والعميان. كما بدأتُ أتعرّف إلى شخصيات زملائنا النزلاء في جيابانغو. سمعتُ صدى حبهم الذي لم يُكتب له الحظ وأحلامهم الفتية. في النهاية، لم أعرفْ كم أنجز وِين من تلك القصة، أو كم هو حجم الجزء الذي حفظه من الكتاب الأصلي عن ظهر قلب. ربما لا أحدَ يعرف ذلك عدا المؤلف نفسه؛ حتى وِين فقد السبيل الذي يبدأ منه وأين تلتحق به القصة. كان قد أصبح أكثر بكثير من كونه نساخاً بارعاً، فريداً».

«وصلت [سنة الفأر][1]. كانت تلك سنة 1960. سحب الخيوط صديق طفولة أمي الذي سمع بحالتي وعمل بشكل حذر من أجل إطلاق

---

1 – سنة الفأر The Year of Rat: هي السنة الأولى في دائرة البروج الصينية، وتأتي كل 12 سنة. حيوانات دائرة البروج هي كما يلي: الفأر، الثور، النمر، الأرنب، التنين، الثعبان، الحصان، المعزى، الحمار، الديك، الكلب، الخنزير. من سنوات الفأر: 1924، 1936، 1948، 1960، 1972 إلخ – م.

سراحي. كنتُ قد بُعثتُ من جديد بنحوٍ غير متوقع. كنتُ حرفياً قد عُدتُ للحياة لأنه، خلال مدة أشهر قلائل، لم يبقَ هناك تقريباً أي «يمينيين». أساتذة الجامعة بمرتبة بروفيسور، المفكرون والعلماء، الزعماء الذين ساهموا في «المسيرة الطويلة»، الأجداد الذين سفحوا دماءهم من أجل [الحزب]، الأخيار، الرجال الضعفاء، الرجال النزيهون والمتواطئون مع العدو، الرجال غير المتزوجين والرجال ذوو دزينة من الأولاد اليائسين: لم يعودوا موجودين. أفراد مجتمعنا [الشيوعي] العظيم أشاحوا وجوههم فيما كان هؤلاء يُبادون تماماً».

«يتعيَّن عليَّ المغادرة، حتى إذا كان ذلك يعني أن أحنث بوعدي وأن أتجنب وِين. آخر مرة رأيت فيها زوج خالتك، قال لي إنه رسم خطةً للهرب. ضحكتُ، في الحقيقة. الخروج من المعسكر كان شيئاً مستحيلاً. لعله رسم أيضاً خطةً لتحويل ماو تسي تونغ إلى تشارلي تشابلن. قلتُ له إن ثيابه الرثة وزنها أكثر من وزنه. الأنكى من ذلك، ما من مكان آخر نمضي إليه. كان [الحزب] يحرس محطة القطار كما لو كانت مستودع ذهب».

«لكنني لستُ ذهباً»، قال.

«ماذا أنتَ إذن، صديقي؟».

«[نسخة من نسخة. روحٌ مهاجرة.]

كان مجنوناً، فكرتُ، وعما قريب سيغادر هذا العالم. هذا هو المَهرب الوحيد المفتوح أمامه. أخفيتُ حزني وقلتُ له: [في يومٍ ما (الحملة المضادة لليمينيين) وجيابانغو ستكون معرفة مشاعة، بالطريقة نفسها التي كُتبتْ بها (تمرد الملاكم)[1] و(المسيرة الطويلة) في كتبنا وذكرياتنا. أخي، لن يتخلى عنا التاريخ]».

---

1 - تمرد الملاكم: Boxer's Rebellion: انتفاضة عنيفة، مناوئة للأجانب، مناوئة للرأسمالية، مناوئة للمسيحية، حدثتْ في الصين بين عاميْ 1899 و 1901، قرب نهاية سلالة كينغ الحاكمة - م.

«قال لي وِين: [سوف لن يحصل ذلك خلال أزمنة حياتنا، ولا في زمن حياة هذا الحجر الذي تحت قدمي.] ومن ثم خفّض بصره ناظراً إلى الأرض حيث لا يوجد عليها أحجار مرئية، بل مجرد عشب يابس وأغصان متشظية. مَن الذي كان على حق؟ من المبكر جدّاً أن نجيب عن هذا السؤال».

«لم يكنْ ثمة أحد من حولنا، لا يوجد حتى نسيم. لا يوجد أحد يستمع إليّ إلّا أنّني اكتسبتُ عادة التحدث همساً. إنما كيف يمكنني القول إن ذلك كان شيئاً صادقاً وحقيقيّاً؟ ماذا تعلمتُ في هذه الأعوام الثلاثة الرهيبة؟ هل كنتُ أعرف أكثر عن العيش والموت؟ [وِين]، قلتُ له، [هذا البلد يحيا في كنف الخوف. إني رجل عقلاني وعلمي. أعتقد أن قوانين الحياة تغدو أكثر تعقيداً من أيّ وقتٍ مضى، ثمة أسلاك غير مرئية، يخفيها كل واحد منا عن الآخر، بحيث لا يمكننا أن نرى، حتى الآن. نحن هنا كي نتعلم وليس كي ننسى، نحن هنا كي نسأل، لا أن نجيب. أنتَ رجل الاستفهامات. من بين جميع مصائر العالم، هذا هو المصير البطولي، مع أنّه يحمل المعاناة المتمثلة في أنه لمن الصعب أن يعيش المرء مع هذا الكم القليل جدّاً من اليقين. لماذا أرسلونا إلى جيابانغو؟ ما هو الهدف من وراء مجيئنا إلى هنا؟ لأنني أعتقد أنه لا بدَّ أن يكون له هدف ما: نحن بناة (الثورة) وكذلك أكباش فدائها]».

[الهرب هو الحل الوحيد]، قال وِين.

[الهرب هو الموت بعينه].

«ابتسم وِين. كان قد هزل هزالاً شديداً. حين كان يستلقي كي يريح رأسه، كنتُ أخشى أنه قد لا ينهض ثانيةً. قال لي: [لن أمشي متعمداً إلى حتفي]».

«أراني حقيبة السفر العائدة له. كُتب في داخل بطانتها أسماء جميع الرجال الذين فارقوا الحياة، وتواريخ سقوطهم صرعى. إنه، في اعتقادي، التسجيل الدقيق الوحيد الموجود حالياً. أخبرني أن لديه خطة بأن يقوم

بأشياء أخرى. كان يأخذ أسماء الأموات ويخبئها، اسماً بعد اسم، في [كتاب السجلات التاريخية]، بالإضافة إلى اسميْ ميّ فورث ودا – وِي. كان يريد أن يجعل هذا العالم المتخيَّل مأهولاً بأسماءٍ حقيقيةٍ وأفعالٍ حقيقيةٍ. سوف تخلد، خطيرةً خطورة الثوريين إلّا أنّها غير ملموسة حالها حال الأشباح. ما هي الحركة الجديدة التي بوسع [الحزب] أن يعلنها التي من شأنها أن تقنع هذه الأرواح الميتة بالتعاون؟ ما هي الإجراءات الصارمة التي يمكنها أن تمحو شيئاً كان مخفياً في وضح النهار؟».

«[هذا قدري]، قال لي وِين الحالم. [أن أهرب وأكمل هذه القصة، كي أصنع نسخاً لامحدودة، كي أجعل هذه القصص تنضح بالتراب، التراب غير المرئي والذي لا يمكن نكرانه]».

«وهكذا هرب»، قال الرفيق العين الزجاجية. «مع حقيبة السفر المستطيلة والمسطحة، أنا متيقن، ومقتنع بقدره». مسح عينيه. «إنني مغتبط لأن وِين الحالم أرسلكَ إليّ، لكنني أتساءل أيَّ قصةٍ هذه التي يريدكَ أن تسمعها. إنكَ تعرف كيف هي: تسحب خيطاً واحداً، وتنحل الستارة بأكملها».

«كان يريدني أن أسمع القصة عينها التي رويتَها لي»، قال سبارو. «إنني متأكد من ذلك».

«هناك المهندس الذي نسميه غيغر، وهناك أيضاً الجندي السابق: البندقية الورقية». لوّح للهواء كما لو أنّ الرجلين كانا واقفين بجواره. «كانوا قد سموني الرفيق العين الزجاجية. ربما هذا هو الدرس الذي يريد [الحزب] أن يعلّمنا إياه: في حاجاتنا الرئيسة – الهواء، الماء، الطعام، والمأوى – لا شيءَ يفصل الطبيب عن البرغوث، المتعلم عن الجاهل. لذا، في الحقيقة، كنتُ قد خضعتُ لإعادة التربية على كل حال. تعلمتُ هذا الدرس بشكلٍ جيد جدّاً».

عبر الصباح الصافي، كان بمستطاع سبارو أن يرى كاي وهو يجلب الماء إلى الحديقة، يغرفه بواسطة وعاء صغير.

«إذا تعيَّن عليكَ أن تخمن، إلى أيّ مكان تعتقد أن زوج خالتي ربما ذهب إليه؟».

«وِين الحالم ليس لديه أوراق ثبوتية وكان لديه، لهذا السبب، حيز صغير للمناورة». هزَّ الرجل العجوز رأسه. «إنه لاجئ في بلده. ثمة طريقان يمكنني أن أراهما: إما الرحلة الشمالية لـ ميّ فورث صوب الصحراء، أو الرحلة عبر المحيط على غرار دا - وِي. أيهما يختار زوج خالتك؟».

«لا هذا الطريق ولا ذاك. لن يترك خالتي سويرل أو تسهولي».

«هذا شيء متفق عليه. بصرف النظر عن مساره المنحني، سوف تسمع منه».

«نعم»، قال سبارو. «لا يمكنه أن يمنع نفسه من أن يضع قلم الحبر على الورق».

قهقه الرجل العجوز. بدا كأنه يبعث ضوءاً على مدى لحظة ومن ثم خفق الضوء وضعف.

«تعال»، قال الرفيق العين الزجاجية. «أعتقد أن صديقك صحا من عربدات ليلة أمس. إنه مستعد للاستمرار في عزف الموسيقى لنا وأنا مستعد لأن أريح قدميْ وأغمض عينيْ، أحني رأسي، وأصغي بانتباه. إنني أتذكر الآن أن وِين الحالم كان يبدأ قصصه دوماً بالتحية القائلة: [Kàn guān، عزيزي المستمع]».

***

في ذلك اليوم نفسه، تسهولي فيما كانت تتمرن على سوناتا الكمان رقم 2 من تأليف بروكوفييف لم تستطعْ أن تمنع نفسها من التفكير في أبويها. هل وصلتْ سويرل وبِغ موذر نايف إلى [محافظة غانسو]؟ ما هو احتمال أن أباها صادف نسخةً معدّلةً من [كتاب السجلات التاريخية]؟ على الأرجح، فكرتْ تسهولي، بما أنها دُعيتْ لعزف بروكوفييف أمام الرئيس ماو والقرويين المقيمين في بنغبي.

كانت مجرد طفلة في ذلك الحين، لا يتجاوز عمرها ستة أعوام، حين اكتشفت المكتبة الواقعة تحت الأرض. جالسةً وحدها، وقد جمّدتها شمس الشتاء، رأتْ غريباً يظهر من التراب. بدا رأسه كأنه يرتفع من الأرض كما لو أنّه يزحف خارجاً من قبره هو. الغريب انعطف شمالاً، جسمه الطويل، المتفخ كالكيس يذوب في الأشجار. وقفتْ تسهولي، وهي تشيعه بنظراتها الفاحصة. هل كان متهماً هارباً أم إنه مجرد غريب يمرّ من هناك؟ ربما هو شبح والد جدها: أولد ويست.

مضتْ تسهولي بغرض التحري. بعد أن أُنجز استصلاح الأراضي، بعد أن خُصص لهم البيت الطيني - القرميدي، طُـردتْ تسهولي من مدرسة القرية. طفلة مالك أرض لحق به العار، قررتْ [جمعية الفلاحين] يجب أن تدرس الكتاب المدرسي الخاص بالحقول الزراعية والمعادلات السماوية. فضلاً عن ذلك، كانت تعرف مسبقاً كيف تقرأ ويجب ألّا تشغل بعد الآن مكاناً نفيساً. ولأنها لا تملك مكاناً تمضي إليه ولا أحداً تلعب معه أو معها، حاولتْ تسهولي البقاء مع أبويها في الحقول، لكنها اعترضتْ طريق المحراث وجرحتْ قدميها وهي تسير على سويقات رز حادة. أمها، ساخطةً، صاحتْ عليها كي تذهب إلى البيت. أطاعتها إنما في داخل الكوخ، أمست الوحدة لا تُطاق.

قررتْ تسهولي أن تتحرى عن البقعة التي بزغ منها الرجل العجوز. مقرفصةً في ظلِّ شجرةٍ كثيرة العُقد، شاهدتْ حجراً نظيفاً، داكناً وتحته، عشب مسطح وغصن مبريّ وناعم: كان مقبضاً. رفعت الباب المسحور[1]. كان هناك حبل مزوّد بعُقد. كانت ضئيلة البدن وحتى وهي بسترتها الكبيرة الحجم، المبطنة، تمكنتْ من الانزلاق إلى الأسفل بسهولة.

بشكلٍ من الأشكال، هذا المكان الخفي كان مريحاً أكثر من الحجرة العارية التي سكنتْ فيها مع أبويها. كانت مجرد أرضٍ سفلية، كما لو أنّها صندوق خشبيّ كبير جدّاً، متقن الصنع، حاوية شحن، مدفونة مع غرفة

1 - الباب المسحور a trap door: بابٌ أفقي في أرضية أو سقف - م.

حية في داخلها، أشبه بـ «حياة سفلية» مخصصة لـ أولد ويست. كان ثمة كرسي منجّد كبير بما يكفي لستة أشخاص من حجم تسهولي، مصباح كيروسين مستورد وعلبة نفط ممتلئة وأكداس من الكتب، وحصير محاك، ناعم على الأرض. أشعلتْ أحد المصابيح وغالقةً الباب المسحور بأن سحبته إلى الأسفل، لمحتْ آلتين موسيقيتين، كِن[1] وإيرهو، على الرغم من أنها لم تكنْ تعرف اسميهما في ذلك الحين. حين وضعتْ الـ كِن في حضنها، كان ثقيلاً وبارداً. كان يمتاز بخشونة مقعقعة وفي أول الأمر، جلستْ ببساطة معه وراحتْ تنعم النظر في الغرفة التي بدتْ، بالمقارنة مع بيت الطين، حديثةً وغريبة الأطوار. كانت الكتب المجعدة تنتمي إلى عصرٍ آخر، كانت حرفياً من قارة أخرى، إلّا أنَّ الـ كِن بدا مفعماً بالحيوية. في حضنها بدتْ هذه الآلة الموسيقية كأنها تستنشق الهواء وتزفره، على غرار والد الجد الذي كانت عائدة إليه حتماً.

كانت تسهولي تهبط إلى الأسفل كل يوم تقريباً، حتى ولو ساعة واحدة فقط. طوال موسم بأكمله، اختبرتْ مجال أوتار الـ كِن الخمسة[2]، المتهرئة. لم تكنْ تعرف كيف تدوزن هذه الآلة الموسيقية، لكنها سرعان ما استقرت على تآلفٍ «هارموني» بدا أنه يناسبها ويناسب الأوتار كذلك. في ما بعد، أدركتْ أن الـ غوكين الكلاسيكي كان يصاحب العلماء الكبار السن والكتب الواسعة المعرفة («يصاحب الأفاعي، والأشخاص المحافظين والرجعيين»، قالت زميلتها في الصف المدرسي) وكان هذا شيئاً صحيحاً. كان كِن أولد ويست قد جعلها تحس أنها جزءٌ من عتمة عائمة. كانت الأصوات التي تصنعها هذه الآلة الموسيقية أُخروية،

---

1 – كِن qin: آلة قانون صينية، مصنوعة من لوح خشبيّ، ذات سبعة أوتار، من دون نقوش نافرة على بدن الآلة. تُسمى أيضاً guqin. يُنقر عليها فتصدر أنغاماً. تنتمي إلى عائلة القانون. يُعزف عليها منذ الأزمنة الغابرة، وتمتاز ألحانها بالرقة والصفاء البالغين، كما ترافقتْ مع الفيلسوف الصيني الغابر كونفوشيوس، وتُسمى: «آلة الحكماء» – م.

2 – عدد الأوتار هنا يتعارض مع ما ورد أعلاه، وهي معلومة استقيناها من الشبكة المعلوماتية – م.

ولديها أكثر من قاسم مشترك مع الترقيم[1] أكثر من الكلمات. ليلاً، كانت تسهولي تنام مكوّرةً بجانب أمها، يتأجج في داخلها الشوق لأن تكون مع المكتبة الواقعة تحت الأرض. كانت تريد أن تتأكد من أن الآلة الموسيقية لا تزال تتنفس. في الواقع، بدا كما لو أنّ آلة الـ كِن العتيقة هي توأمها الأقوى، توأمها التي تبزها شجاعةً.

جاء الربيع متأخراً في ذلك العام وجميع الفلاحين والناس الجياع كانوا يراقبون الأرض بقلق. غلام لطيف من نوعٍ مختلف، اسمه «لو» رآها تخرج من تحت الأرض، في اللحظة نفسها التي لمحتْ فيها الرجل العجوز. في ذلك اليوم تحديداً، كانت الحاوية قد استخرجتْ بالحفر ووُضعتْ جميع الأشياء في عربة خشبية يجرها حصان. الكتب، السجاجيد الناعمة والكرسي المنجّد صودرتْ كلها، وهذا دليل على أن الأشخاص المتحدرين من أولد ويست كانوا ينتظرون فرصتهم المناسبة واستمروا في إخفاء ثروتهم. جيران كانت تعرفهم تسهولي، كانوا يلقون عليها السلام على الدروب وغالباً يعطونها شيئاً صغيراً لتأكله، جاؤوا وكسوا بالكلس بيت الطين - الآجر باتهاماتٍ مكتوبة على عجالة، كانت الكلمات كبيرة جدّاً بحيث كان بوسعهم أن يقرؤوها من الطريق. كانت تعرف فقط حفنةً من الحروف الأبجدية، لكنها تعرفتْ على الفتاة / الابنة 女 والسماء 天، هذان الحرفان اللذان كانا متحدين معاً كي يكوّنا كلمةً واحدة: 妖 ساحرة (yào).

في مساء ذلك اليوم، كان الكوخ الصغير هادئاً جدّاً. سألتْ تسهولي أمها لماذا كُتبتْ كلمة «ياو yào» على بيتهم. أمها مشطتْ شعرها وقالت لها إنها لا تعني شيئاً، خصام بسيط مع الجيران وعلى كل حال، يا لها من كلمة غريبة بحيث يصعب فهمها. فعلتْ سويرل شيئاً لم يسبقْ لها أن فعلته من قبل، مزجتْ عجينةً من الأعشاب الطبية وزيت اليوكالبتوس ودعكتْ ذراعيْ تسهولي وساقيها بالمزيج، وجعلتْ تدلك ذراعيها،

1 - الترقيم punctuation: استخدام النقط والفواصل، إلخ... لتوضيح المعنى - م.

ساقيها، قدميها، أصابعها وحتى أصابع قدميها. مع كل حركة دائرية من أصابع أمها، كانت تسهولي تختفي قطعةً بعد قطعة. تذكرت الدفء المهدئ لـلـ كانغ وحقيبة سفر أبيها المستطيلة المسطحة بقماشها الحائل اللون وكلاباتها من النحاس الأصفر وثقب المفتاح الذي بحجم خنصرها. ذات مرة، طلبت المفتاح فقيل لها إنه غير موجود.

أرخى الليل سدوله. في خضم السكون أقبل عفريت حقيقي. صاح واستشاط غضباً كما لو أنّه ينوي أن يقلب الكوخ. وعلى حين غرة، تجمع الناس من كل حدبٍ وصوب، بعضهم يحملون الحبال وحتى إنهم كانوا يرفعون عقيرتهم بالغناء، ومن ثم دفعتها أيدي معينة جانباً بينما كانت تحاول الوصول إلى أمها، التي أُجبرتْ بأن تركع على ركبتيها. كانت سويرل تقول: «أسف... أسف». كان ثمة تصفيق حارّ وصرختْ أمها. ارتعش صوت وِين الحالم كما لو أنّه آتٍ من أساسات المنزل الصغير نفسه. بكتْ تسهولي واستمرتْ في البكاء. هل كان صراخها هو الذي أدخل الخوف إلى أفئدة العفاريت كافة وجعلها تفرّ مبتعدةً؟ كانت تتصور أن الابنة والسماء مجدولان معاً، روح متلَبِّسة، وجميع الجيران باتوا يخافونها الآن. غادر الرجال، نصف حاملين، نصف ساحبين أبويْها معهم، كما لو أنّهما، هما أيضاً، كانا شيئين مسترجعيْن من تحت الأرض. وبعدها، الغرفة، وقد أضحتْ خرائب، حلَّ فيها السكون. صعدتْ فوق الـ كانغ مع أنّ دفئها كان قد ضعف. كانت خائفة من أن تلقم فمَه الفحم النباتي وتسخن السرير مجدداً، لذلك سحبتْ جميع اللحف حول جسمها، استلقتْ وأغمضتْ عينيها. سألتْ نفسها كيف تؤذي الحجرة الواقعة تحت الأرض المرء، أيّ امرئٍ، ولماذا كانت معرفة وجودها كافيةً لأن تولّد العفاريت. لم تتلقَّ الأجوبة. كانت الأحداث شبيهةً بالأحلام، استنتجتْ، ومن هنا لا يمكن أن تكون حقيقية. حين أفاقتْ من هذا الحلم، أخبرتْ نفسها، أن السرير سيكون دافئاً وأن أبويها سيكونان هنا وسيكون الوقت صباحاً. هذه المرة ستكون حذرةً جدّاً حين تهبط إلى

مكتبة أولد ويست المدفونة تحت الأرض، سوف تهرّب آلة الـ كِن إلى الخارج وتخبئها هنا. هل ما زالت الآلة تتنفس؟ مرَّ يومٌ ومن ثم مرَّ يومٌ آخر. لم يكنْ هنالك شيء يؤكل لكنها سرقتْ أوراقاً قليلةً من النباتات الفتية في حديقة الكوميون، وأمستْ أحلامها متطاولةً ودافئة ومرنةً. هل رأتْ وقتذاك الحفر والثقوب في الأرض؟ ربما حصلتْ أحداث أخرى فضلاً عن ذلك لكنها لم تعدْ تتذكرها. نقرتْ بأصابعها بنحو إيقاعي على الفراش البارد وتمتمتْ مع نفسها، وأدخلت الموسيقى الراحة والاطمئنان إلى نفسها.

***

حين استيقظتْ بعد الليلة الثالثة، كانت ثمة شابة تجلس على كرسي أبيها وفي حضنها كيس من حلويات «الأرنب الأبيض». أنعمتْ تسهولي النظر في المرأة لكنها لم تستطعْ أن تتذكر مَن تكون. على الرغم من ذلك، قالت لها بأدب: «طاب صباحك، شقيقتي الكبرى».

«احزمي أمتعتكِ»، خاطبتها المرأة بصرامة. كانت كلماتها ذات لهجة غريبة لأن الحلوى جعلتْ أسنانها دبقةً. تناولتْ تسهولي الأشياء الخمسة التي كانت قريبةً جدّاً منها، والتي تشتمل على فستان، منشفة للوجه والجسد، وأسطوانتين من أسطوانات أبيها.

سارتا تحت أبواب القرية متجهتين نحو المدينة التالية. كانت تسهولي تعرف أنها زارتْ هذه المدينة من قبل إلّا أنّها لا تتذكر سبب زيارتها تلك. ما من شيء بدا اعتياديّاً. وصلتا إلى طريق ملتوية ذات نصف دزينة من حافلات صغيرة مكسوة بالسخام. «الأرنب الأبيض». غمغمتْ قائلةً إن أبويها كانا محظوظين لأنهما لم يُقطع رأساهما، كانا محظوظين لأن أسوأ التجاوزات أضحتْ شيئاً من الماضي. «كانا قد أُرسلا كي تُعاد تربيتهما، هذا هو كل ما في الأمر»، قالت. «طالما أنكِ لم تتربي على الإطلاق، فمن الحماقة أن يرسلوكِ معهما».

في داخل الحافلة الصغيرة، كان إطار عتبة النافذة يفيض بقشور بذور

عباد الشمس. في كل مرةٍ تتحرك فيها تسهولي، كان الكيس البلاستيكي مع أمتعتها الأخرى يفرقع كأنه ساحرة تقهقه.

بدا الريف كأنه تشظى متحولاً إلى كسرٍ من الأشكال، الأكواخ المائلة، الإسمنت المكسوّ بالبقع وبلوكات الرماد. ظهر الناس من الطرقات كلها، يتحركون ويركضون كي يجاروا شيئاً لم يكنْ بوسعها أن تراه. تكلمت الأرنب الأبيض كثيراً إلّا أنَّ صوتها بدا كأنه مرَّ فوق رأس تسهولي وخرج من الشباك. خفضتْ بصرها ناظرةً إلى قدميها وشاهدتْ فردتيْ حذائها القماشيتين قد تلطختا بالطين وأن لديها كدمة بنفسجية على ركبتها اليسرى. كلما أنعمت النظر فيها أكثر، بدتْ كأنها تزداد زرقةً وعمقاً. لا بدَّ أنها هوتْ وهي نائمة لأنها حين استيقظتْ كان ثمة قمر كبير في خارج الحافلة الصغيرة، وكذلك طقطقة منبعثة من المصابيح الكهربائية، إنما كل شيء آخر كان غارقاً في الظلام الدامس. بدا أن الباص الصغير انعطف في دوائر عديدة قبل أن يتوقف أخيراً ويقفز الجميع ويبدؤون بالتحرك، ساحبين إلى الأسفل: الحقائب والطيور والدجاج. هرع كلب إلى الباص الصغير ودخل إليه وفرَّ الناس مذعورين. المرأة التي تفوح منها رائحة الحلوى، كانت تأكل طوال المساء. سارتا معاً. كان هناك عدد غفير من الناس على أرصفة المشاة وكانت حقيبة تسهولي تحتك بساقيهما. «*الأرنب الأبيض تأخذني إلى أمي*»، فكرتْ مع نفسها. حثتْ تسهولي خطواتها، وفيما كانت المرأة تسرع، بدورها هي أيضاً، خافتْ تسهولي من أنها قد تنهار، ترفعها السعادة الغامرة عالياً وتتشظى حالما تأخذها أمها بين أحضانها. كانت الحقيبة تقوقي وتضحك ضحكة نصف مكبوتة بجوارها، *إلى أمي، إلى أمي! إلى ماما، إلى ماما!*

وصلتا إلى قنطرة، ممرّ ضيق ومن ثم إلى زقاق. تبعت المرأة مارتين بمحاذاة صفوفٍ من الأبواب، المتشابهة كثيراً بحيث إنّها بدتْ كأنها أطفال. اختارت الأرنب الأبيض أحد الأبواب وتوقفتْ عنده. «هؤلاء هم أقاربك. اطرقي هذا الباب واسألي عن خالتك». جثت السيدة ووهبتها

القطعة الأخيرة من الحلوى ومظروفاً يحمل اسم مؤسسة وعنوانها مطبوعين بالأحمر. لمستْ ركبة تسهولي والكدمة الكبيرة، المستديرة، التي كانت تسهولي قد نسيتها، وجعلت الألم يصعد إلى أعلى ساقها حتى وصل إلى عينيها. «حظاً سعيداً، تسهولي»، قالت المرأة ومن ثم هي، كذلك، توارتْ عن الأنظار. وقفتْ تسهولي في مواجهة الباب، وجعلتْ تستمع لصدى وقع أقدام المرأة التي غادرتها. انتظرتْ ريثما يخف الوجع في ركبتها، دستْ قطعة الحلوى في المظروف. بعد انتظار بدا كأنه وقت طويل، رفعتْ يدها وقرعت الباب.

كان الصرير المخيف للباب جعلها ترتعد. ظهر صبي مراهق. كان ذا شعر غير مُمشَّط وحاجبين جميلين.

«إنني أبحث عن خالتي»، هتفتْ تسهولي.

ارتفع حاجباه. رأى الأسطوانتين البارزتين من كيسها البلاستيكي.

«Bā Hè» قالت. باخ. اتسعتْ عينا المراهق والباب انفتح أوسع. «عليكَ أن تخبر خالتي أنني هنا»، قالت بحزم. دفعت المظروف ذا العنوان والاسم المطبوعين بالأحمر على معدته.

في الهزيع الأخير من تلك الليلة، أفاقتْ من نومها، يقظةً، وشاهدتْ ضوء القمر على قدميها المكشوفتين. كانت هنالك مسوخٌ بجوارها على السرير - أبناء خالتها، أدركتْ لاحقاً: الدب الطائر ودا شان. زحفتْ مبتعدةً عنهما وخرجتْ من الغرفة، متجهةً صوب ضوء يلوّح لها في البُعد. *إلى أمي، إلى أمي.* كانت تسهولي قد سُحبتْ إلى الأمام إلى أن وصلتْ إلى تلك الحجرة. كانت هنالك شمعتان مشتعلتان وكانت نارهما تتأرجح مثل قدمين غير ثابتتين. شاهدتْ كوب شاي سبارو أولاً، وبعدها يده، ومن ثم ذراعه المتصلة بكتفه، وهلم جرّاً، إلى أن بلغتْ عينيه. لم يندهش حينما شاهدها.

كانت تريد أن تبكي لكنها صعدتْ على الكرسي وجلستْ عليه بجانبه كما لو كانت تنتظر أن يقرأ لها طالعها.

كان ابن خالتها يؤدي واجبه المدرسي فالتقطتْ قلم رصاص منه وهي تفكر بأنها قادرة على أن تفعل شيئاً ما له. هبَّ سبارو واقفاً وناولها كوباً من الشاي. طلبتْ منه مهمةً ما وفكر الأخير لحظةً، ومن ثم ناولها بعض الأوراق ولائحة من الكلمات وأمرها بأن تنسخها. لم يكنْ بمستطاعها أن تقرأ جميع الكلمات لكن قراءتها بدتْ شيئاً ثانوياً؛ كان أبوها قد علّمها كيف تنسخ ببراعة وإتقان. كل ما كانت تبتغيه هو الورق وقلم الرصاص وشيئاً ما تقوم به. لا بدَّ أن قائمة الكلمات أتتْ من واجب الدب الطائر المدرسي، نوع من درس المفردات القريبة من 书 shū (كتاب). على مدى أعوام عدة، احتفظتْ بهذه الورقة مكتوبة بخط يدها الطفولي:

Qin shū (قصة مُغنّاة)، jìn shū (كتاب محظور)، tīng shū (أن تصغي لأداء روي القصة)، shī shū *(كتاب الأغاني وكتاب التاريخ)*، mò shū (أن تكتب من الذاكرة)، chuan shū gē (الحمام الزاجل)، huǐ guò shū (توبة مكتوبة)، niǎo chóng shū (كتابة طائر، أسلوب في الخط)، jiǎn tǎo shū (النقد الذاتي).

بعد أن أصبح قلمها الرصاص كليلاً وفرغ كوب الشاي العائد لها مرتين، رفعها سبارو وأعادها إلى السرير المشترك. سألته أين ذهب الكيس البلاستيكي. لم يقلْ شيئاً. أخبرته أنها تريد أن تحتفظ بالـ كِن العتيق إنما فات الأوان. ماذا فعلوا به؟ هل إن إخلاصها لـ qin «الكِن» هو الذي سببَّ العذاب لأبويها؟ ربما لم تكنْ تتحدث بصوتٍ مرتفع لأن حتى الآن لم يردَّ على سؤالها. أنا فعلتُ هذا، فكرتْ تسهولي. كيف فعلتُ هذا؟ بسببي أنا، صودرتْ أشياء أولد ويستْ الثمينة كلها. رجع أبواها إليها في صخبٍ من الصور. هل كانت عديمة النشاط أم مفعمة بالنشاط؟ هل فتحت تسهولي، نفسها، الباب للعفاريت التي أقحمتْ نفسها ودخلتْ؟ كان أبواها قد قُيّدا بالحبال معاً كما لو كانا زوجاً من الثيران. لماذا انتحبتْ أمها طالبةً الشفقة؟ كيف عرف الرجال، فكرتْ تسهولي، أنها نصف فتاة ونصف سماء، yāo أغواها الخشب والأوتار

التي لم تكنْ مفعمةً بالحيوية. إلّا أنَّ الـ كِن *كان* نابضاً بالحيوية، فكرتْ، وهو يحارب النوم. هي والآلة الموسيقية كانتا الشيء نفسه تماماً.

في اليوم التالي، جعلها سبارو تجلس أمام جهاز مشغل الأسطوانات وجعله ينطلق بكل الموسيقى التي تمكن من العثور عليها. كان ابن خالتها يرهف السمع فيما كانت عيناه مغمضتين وتسهولي تقلّده وتحذو حذوه. في داخل رأسها، كانت الموسيقى قد شيدتْ أعمدة وأقواساً، أفسحتْ فضاءً في الداخل والخارج، وعياً جديداً. لذلك كانت *هنالك* عوالم مدفونة في داخل عوالم أخرى لكن أولاً يتعيَّن عليكَ أن تجد الفتحة وطريق الدخول. أراها سبارو كيف تُزال الأسطوانة من غلافها الورقي، كيف توضع على القرص الدوار[1]، كيف تضع الإبرة في أخدودها. كل شيء في منزل بغ موذر نايف كان دقيقاً ومأخوذاً بالحسبان؛ عالم بعيد عن التنمر كانت قد تحملته مؤخراً. كل شيء في منزل الأب لوت يصنع الموسيقى. شاهدتهم تسهولي كلهم من دون استثناء وهم يعزفون على أدواتهم الموسيقية، شاهدتْ أيديهم وأجسادهم، جعلت الموسيقى تكتب نفسها في ذاكرتها. شعرتْ، مثلما حصل لها مع آلة الـ كِن، بأنها كانت تعرف الموسيقى على الدوام. إنهما كانتا تعرفان بعضهما.

كان ثمة كمان صغير يعود لـ الدب الطائر، كان قد تجنبه. في يومٍ ما، جلستْ بجواره على مدى ساعات عدة وفي النهاية، وضعته في حضنها مثل الـ كِن العتيق وراحتْ تنقر أوتاره بتردد. فعلتْ هذا يوماً بعد يوم إلى أن قال لها ابن خالتها: «إنه ليس آلة القانون وعلى كل حال، أنتِ أصغر سنّاً من أن تتعلمي العزف على الكمان». استمرتْ على هذه الحال نحو أسبوع وفي خاتمة المطاف أخذ سبارو الكمان منها ورفع قوس كمان الدب الطائر وشرع يعزف. كان صغيراً جدّاً بالنسبة له، وانطوى جسده حول الآلة الموسيقية كما لو أنّه يمنع صوتها من الهرب. تسهولي تعرّفتْ على ذلك الصوت، أحسَّتْ أنها كانت تعرفه مدةً أطول من تلك التي

---

1 - القرص الدوار turntable: قرص الحاكي المستدير الحامل للأسطوانة – م.

عرفتْ فيها الحياة. أصبح سبارو أول معلم كمان لها. لاحقاً، حين أمستْ في سن الثامنة، مررها إلى البروفيسور تان في «المعهد العالي للموسيقى». تقبلتْ كل كلمة، كل إيماءة وكل انتقاد؛ كان معلمها فظّاً وخلال نوبات غضبه، كانت تسهولي تخشى من أن يهشم كمانها على الأرض أو يكسره على رأسها. غير أن هذا كله كان دراما. أدرك البروفيسور تان أنه، في كل قطعةٍ موسيقية تعزفها، كانت تسمع مزيداً ومزيداً من الموسيقى. لكن أيّ موسيقى؟ كل لحن لا يُمكن فهمه إلّا من خلال صلته بما حوله. متحدين معاً، صنعا أصواتاً جديدةً، ألواناً جديدةً، رنيناً جديداً أو تنافر أصوات جديداً، استقراراً أو حرباً. في داخل النغمة الخالصة لـ C يوجد سلّم من النغمات التوافقية الغنية بالإضافة إلى أصداء الـ Cs[1] الأخرى، مثل رجل يرتدي بزات عدة من الثياب، أو جدة تحمل كل ذكرياتها في داخلها. هل كانت هذه هي الموسيقى، هل كان هو الزمن نفسه الذي يحتوي أجزاء الثواني، الدقائق، الساعات، والعصور كلها، الأجيال كلها؟ ماذا كان التسلسل الزمني للأحداث وكيف تكيفتْ في داخله؟ كيف تمكن أبوها وأمها من الإفلات من الزمن، وكيف يتسنى لهما أن يعودا؟

حين رجعتْ أمها أخيراً إلى البيت بعد أن قضتْ ستة أعوام في المعسكرات الصحراوية، تساءلتْ تسهولي أيّ كلماتٍ يمكن أن تقولها لها. لم تكنْ ثمة كلمات تكفي الشعور المتبادل بينهما. ذات ليلة، عزفتْ تسهولي افتتاحية سيرسي هاندل لأمها. كانت تلك أبسط الأغاني، أغنية رومانسية، لعلها أغنية مُهلكة بسبب عاطفتها البورجوازية، بالطبع، لم تكنْ تلك من أغنيات سترافنسكي، ومع ذلك في وسط اللحن، أحسّتْ تسهولي كما لو أنّ ذراعيها وجسدها تختفي تماماً. شعرتْ أن الحقيقة الوحيدة هو هذا السلك من التوتر بينها وبين أمها: إنها الحركة الحقيقية، غير المنتهية لحياتها. في هذه الحجرة، يوجد فقط فعل الاستماع، توجد

---

1 - الـ C هي الـ دو، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي، والـ Cs هو جمع الـ دو، أو الـ دوات، إن صح التعبير - م.

فقط سويرل، عدّ الأرقام بصوتٍ عالٍ بشكل تنازلي وبشكل تصاعدي، البداية التي لا يمكن أن تكون بدايةً حقيقية. أمها أنعمتْ فيها النظر كما لو أنّها لم تتعرفْ على ابنتها.

«ماما»، كانت تسهولي تريد القول، «كانت تلك غلطتي. وجدتُ تلك الفتحة في الأرض... كان يجب أن يبعدوني أنا، ولستِ أنتِ. لكن ألا ترين كم طال انتظاري لك، ألا ترين كم حاولتُ أن أحسّن نفسي. إنني فقط حاضرة الآن، إنني فقط...». لو أنّها نحّت الكمان جانباً، هل ستظهر تسهولي الحقيقية، تلك التي تركاها وراءهما، بشكلٍ مؤكد مثلما يظهر الليل عقب النهار؟ لولاي، فكرتْ، ما كانت لتُكتشفَ حاوية والد الجد: ويست. ما كان ليُدان أبواها. هذه الألحان ما كانت لتُعزف. إن روحاً غير مهمة من مثل روحها يمكن أن تحطم العالم إنما لا تصنعه مجدداً. ماذا سيصبح العالم؟ كانت أمها شاحبة شحوب امرأة مريضة والتجاويف في وجهها ذكّرتْ تسهولي بالقبر نفسه. حركة فظة واحدة وستنطوي سويرل. ومع ذلك، فكرتْ تسهولي، لا زلنا أحياءً الآن. أنا حية. أمي حية. إنه عمر جديد، بداية جديدة، وها نحن هنا.

-7-

في ربيع العام 2000، بعد أن فارقتْ أمي الحياة، كرّستُ طاقاتي كلها لدراستي. منطق الرياضيات - طرائقها في الاستمالة والاستنتاج، قدرتها على وصف الأشكال النظرية التي ليس لها نسخة مطابقة في العالم الواقعي - دعمني وأطال بقائي. انتقلتُ من الشقة التي كانت قد استأجرتها أمي منذ أن جاءتْ هي وأبي أول مرة إلى كندا، وهي الشقة التي نشأتُ فيها. يائسةً من أن أتركها ورائي، لملمتُ كل قرش بحوزتي واشتريتُ شقةً خَرِبةً في «ألكسندر ستريت». كانت النوافذ تطل مباشرةً على ميناء فانكوفر وليلاً، القادمون والمغادرون الذين لا حصر لهم، لصهاريج السفن المتعددة الألوان، ما كانوا يحملونه من حقائب وأمتعة، ما كانوا يفشونه من أسرار، كان ذلك كله يدخل الراحة والسلام إلى نفسي.

حفظتُ أوراق أبويَّ الثبوتية في خزانة ثياب غرفة النوم واقتباساً من كانتور[1] مثبتاً على الحائط بواسطة شريط لاصق يقول: «يكمن جوهر علم الرياضيات في حريته»، ومثل طفلةٍ، ألهيتُ نفسي بأن تصورتُ الأرقام عميقةً جدّاً، لامحدودة جدّاً، وكانت تتجاوز كثيراً جميع الذرات الموجودة في الكون. الأرقام، الحقيقية منها والمتخيَّلة، كانت لغةً في داخلي، كانت المعادلات هي تفرعات المادة والظل، العلاقات والعلاقات المتبادَلة، العشوائية والنمط، العالم الجزئي، غير المكتمل، ومع ذلك المنظم بنحوٍ

1 - جورج كانتور (1845 - 1918): عالم رياضيات ألماني، اخترع نظرية المجاميع set theory، التي أصبحتْ نظريةً رئيسة في علم الرياضيات - م.

متماسك، الذي نحيا فيه. أرهفتُ السمع لأسطوانات أبي إلّا أنّني كنتُ أفكر فقط في فواصل، تواتر، والحساسية البالغة، لتعابير الأرقام في عالمٍ مسموع.

في الوقت الذي أصبح فيه عمري خمسة وعشرين عاماً كنتُ قد أنهيتُ دراستي لنيل شهادة الدكتوراه وبفضل ورقة نالتْ ترحيباً وإطراءً كنتُ نشرتُها في *Inventiones Mathematicae*، حصلتُ على وظائف تدريسيةٍ في كندا، الولايات المتحدة، كوريا وألمانيا. ويا لدهشة أساتذتي الجامعيين بمنزلة بروفيسور، اخترتُ البقاء في فانكوفر. وبعد انقضاء سنة، كنتُ أدرّسُ نظرية غلاو[1]، حساب التفاضل والتكامل ونظرية الأرقام، بالإضافة إلى حلقة دراسية «سمينار» في التماثل والبنية التوافقية لـ *تنويعات غولدبيرغ* من تأليف باخ. كانت لديَّ حلقة صغيرة، إنما حميمة، من الأصدقاء والصديقات. خلال مدة بحثي وخارجها، تابعتُ الانشغال بموت أمي واللااحتمالية الإحصائية المتعلقة بالعثور على أي – مينغ. كان ذهني ممتلئاً بالأرقام، ولم أكنْ وحيدةً، منعزلةً.

ومع ذلك فهمتُ، حتى في ذلك الحين، أن حياتي كانت غريبةً، شكّلتْها الأسئلة التي بدتْ أنها تمتلك أجوبةً متعددة ومتضاربة.

***

في العام 2006، العام الذي بلغ فيه عمري سبعة وعشرين عاماً، قمتُ بزيارتي الأولى إلى هونغ كونغ.

طول الأيام العشرة التالية، اختفيتُ في الحشود، في نوادي مونغ كوك[2] الليلية وحاناتها، وكنتُ أعود إلى غرفتي المستأجرة في السابعة

---

1 – إيفيرست غلاو (1811 – 1832): متخصص بالرياضيات، فرنسي الجنسية. خلال سنوات مراهقته، وضع الأساسات لـ نظرية غلاو Glaois theory ونظرية المجموعة، وهما فرعان رئيسان من الجبر التجريدي – م.

2 – مونغ كوك Mong Kok: منطقة في مقاطعة ياو تسي مونغ، في الشطر الغربي من شبه جزيرة كوولون في هونغ كولون. منطقة الأمير إدوارد تحتل الشطر الشمالي من مونغ كوك. وهي من أبرز مراكز التسوق في هونغ كونغ، والمنطقة مزيج من مباني عتيقة وأخرى حديثة متعددة الطوابق؛ تتميز بكثافة سكانية عالية – م.

صباحاً، وأبقى نائمةً حتى منتصف العصر. منذ رحيل أمي أضحى العمل هو وجودي كله؛ وقد غدوتُ، من دون أن أعرف كاريكاتوراً مثالياً لبروفيسورة منعزلةٍ عن العالم، أو كما وصف جِي. أج. هاردي[1] علماء الرياضيات: «أكثر البشر قاطبةً صرامةً وأكثرهم انعزالاً». في العمل المركز في محاولة برهنة نظرية ما، تفشل الحياة الاجتماعية في الاستمرار. إنما، هنا، في أضواء النيون والضوضاء المستمرة في هونغ كونغ، سمحتُ لنفسي بأن أكون فرداً آخر، فرداً مختلفاً تماماً. وأنا أمشي على قدميّ باتجاه المنزل في الوقت الذي تستيقظ فيه المدينة من نومها، أمشي أميالاً عن الصحو، شعرتُ بالسعادة لأول مرة منذ سنوات طويلة.

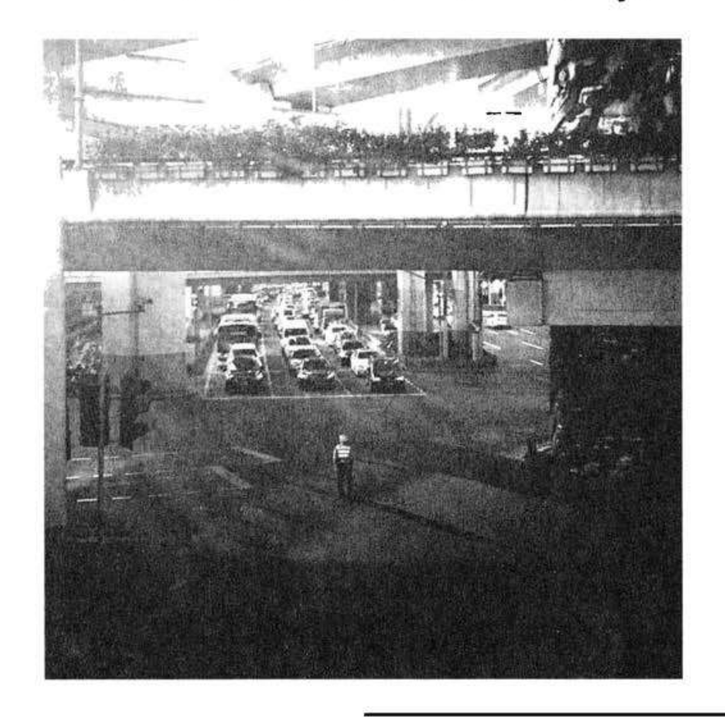
في النهاية، في اليوم الذي سبق الموعد الذي من المقرر أن أطير عائدةً فيه إلى الوطن، حرصتُ على أن أجد المسكن الذي أقام فيه أبي سابقاً - المسكن الأخير، طالما أنه تنقل مراراً من مسكنٍ إلى آخر خلال الأشهر الأخيرة من حياته. العنوان: 9 أف. بناية الحمرا، 202 سان تِن ديي، كان معروفاً لي من تقارير البوليس والمحقق في أسباب وفاة أبي، التي خلصتْ إلى القول: «المتوفى: جيانغ كاي، كان مثقلاً بديون القمار، يعاني من الكآبة الحادة، انتحر بأن قفز من نافذة شقته الواقعة في الطابق التاسع».

بعد مرور ستة عشر عاماً، كان المبنى لا يزال هناك، وتساءلتُ إلى أيّ مدى تغيّر، هذا إذا كان قد تغير، منذ العام 1989. لم تكنْ هنالك ردهة انتظار، ولا يوجد حتى باب، بل مجرد سلّم كئيب كان يؤدي بك إلى الأعلى من الشارع. صعدتُ، وجعلتُ أجتاز غرفةً إثر أخرى؛ نوافذ معدنية مشبّكة ذوات قضبان متصالبة أو مذابح كنيسة صغيرة، تقدّم ثمار البرتقال للأسلاف، هي كل ما كان يفصل كل مسكن عن المساكن عن بيت السلم. كانت الشقق صغيرةً جداً بالكاد يوجد فيها حيز كافٍ لسرير واحد. شاهدتُ نوافذ بحجم ورقة. صعدتُ أعلى فأعلى. كان باب الشقة

---

1 - غودفري هاردي G. H. Hardy (1877 - 1947): عالم رياضيات إنكليزي. معروف بإنجازاته في نظرية الأرقام والتحليل الرياضي - م.

9 أف مغلقاً ومع أنني وقفتُ أمامه نصف ساعة بالتمام والكمال، لم أجرؤْ على أن أقرعه. كان يعصف بي خوف غير منطقي من أن يفتح أبي الباب، وأن أكون بمواجهة النافذة التي تسلقها ورمى نفسه منها. استدرتُ على عقبيَّ وهبطتُ الدرج. بعد أن غادرتُ المبنى، أخذتُ سيارة أجرة إلى مكتب المقاطعة التابع لـ «شرطة هونغ كونغ» حيث طلبتُ نسخةً من ملف أبي. ساعدني ضابط في ملء الطلب بغرض الحصول على المعلومات، وهو يخبرني أنني سأتلقى الردّ، بالبريد، في غضون ثلاثين يوماً. غادرتُ مخفر الشرطة وتسكعتُ من دون هدف معين. وأنا واقفة على معبر فوقي[1] يجتاز شارعاً ذا ستة ممرات، وعلى الرغم من جلبة حركة المرور واهتزاز الهيكل بأسرته، لم يكنْ بوسعي سماع أيّ شيء. كانت حياتي قد بدتْ مشوّشةَ كليّاً، غير مرتبة على الإطلاق.



1 - معبر فوقي over pass: جسر أو طريق فوق سكة حديدية أو قناة أو طريق أخرى - م.

أخذتُ ميترو مباشرةً تقريباً إلى الحدود الصينية، ومن ثم تحولتُ إلى حافلة ومن ثم رحتُ أتمشى على طريق مرصوف. كان طلب أبي الوحيد هو أن يُدفن في هذه المقبرة، وهي مكان يجمع معاً الحرفين الأبجديين 和 (تناغم) و合 (أن يقارب، أن يكون موحّداً ثانيةً). لكنني لم أعرفْ، ولن أعرف، على وجه الدقة أين يوجد رماده. في مكتب المقبرة، دُهشتُ لأنه لا تتوافر قط أيّ معلومات مسجلة عنه. سألني الشاب الجالس إلى المكتب، ضجراً إنما معتذراً، ما إذا من المحتمل أن تكون أمي قد نثرتْ رماده في «متنزه إحياء ذكرى الأموات». «ربما»، أجبته. «هي لم تخبرني بذلك». عاد الرجل إلى عمله الورقي ومضيتُ إلى الخارج. كانت القبور كلها موضوعة على دكات ضيقة، مرتفعةً إلى الأعلى على طول درجات إسمنتية. بعد أن مشيتُ ساعاتٍ عدة في الحَرّ، كنتُ أنضح عرقاً وبالكاد يمكنني أن أبصر شيئاً. كانت الصراصير تصيح من دون انقطاع وكانت الفراشات رقيقة مع أنّها كبيرة كالمناديل. فوقي كرات قطن بدتْ كأنها آتية من اللامكان متسللةً بخفة عبر الهواء.

وصلتُ بالمصادفة إلى كولومباريوم[1] صغير حيث كانت تنتظر هناك، في الداخل، أكواب شاي صغيرة جدّاً وأربعة أزواج من عيدان تناول الطعام الحمر، على ورقة جريدة. كوى مربعة، كي تحمل الجرار والرماد، كانت مثبتةً في الجدران. غير أن بعض المربعات كانت خالية: كانت هذه مزودة فقط بأغطية من الكارتون ذات حرفين أبجديين مكتوبين بمؤشّر أحمر[2]، 吉 (محظوظ) و(jade) 玉 [3]. ما معنى هذا، لم أتمكنْ من سبر أغواره. كانت الحجرة لينة ومزودة بنسيج العناكب، وبدتْ أكواب الشاي وعيدان تناول الطعام متروكة من الأشباح. مستميتةً من أجل العثور عليه، إنما خائفة، أيضاً، أمعنتُ النظر في جميع الصور

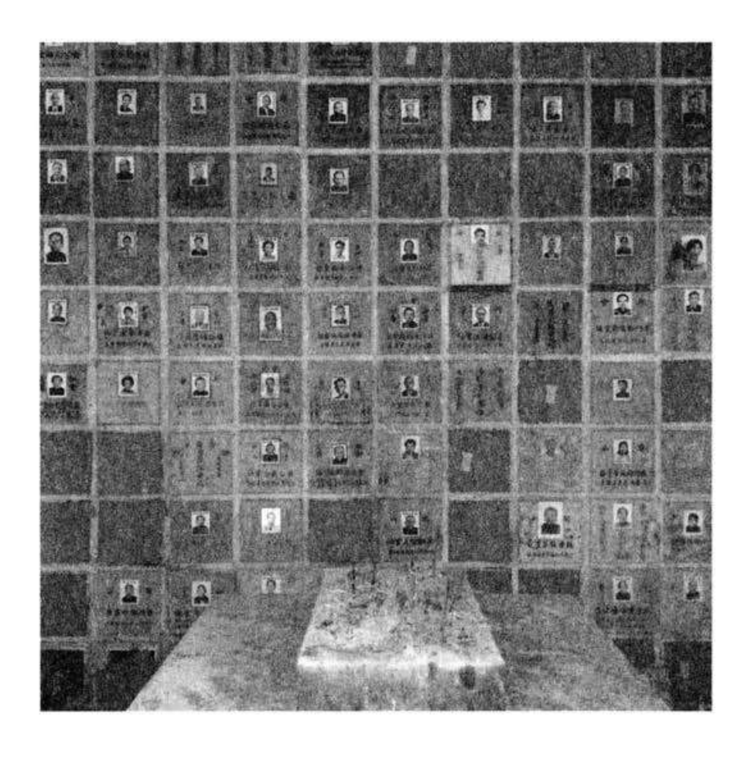
---

1 – كولومباريوم columbarium: مبنى يضم كوّى لجرار حفظ رماد الموتى – م.

2 – مؤشّر marker: المقصود هنا قلم يؤشّر بعلامةٍ واضحة؛ يُسمى في العراق: قلم ماجك – م.

3 – وردتْ في النص كلمة jade: من بين معانيها: يشب، امرأة سيئة السمعة – م.

واحدةً بعد الأخرى. لم تكنْ صورته هناك. غادرتُ الكولومباريوم وسرتُ بين الأجداث، ومع ذلك لم أتمكنْ من العثور على قبر أبي. في نهاية الأمر، جلستُ على درجات ممشى طويل. عامل، بملابس زرق، مرَّ بقربي، كان قد دسَّ منشفةً بيضاء في ياقة بزته. كان يودُّ أن يقدم لي العون لكنني لم أستطع التواصل معه كي أخبره بما أبتغيه، وفي الختام تركني في المكان الذي وجدني فيه، تحت الشمس، وأنا أطيل التفكير في أبويَّ.



بعد مرور أربعة أسابيع، وصل صندوق صغير إلى غرفة مكتبي في الجامعة. في داخله، كان هناك عدد من الوثائق، تقارير البوليس وتقارير

تشريح جثة أبي بغرض تحديد سبب وفاته، بعض تلك التقارير كانت قد تلقتها أمي من قبل. كانت هناك دزينة من الصور الفوتوغرافية لجثة أبي، ملابسه وبعض ممتلكاته. كانت هنالك كذلك رسائل لم أرها من قبل، ثماني رسائل بعثتها أمي إليه، وخمس أخرى من سبارو. كانت إحدى رسائل سبارو تحتوي على قطعة موسيقية، بطول 31 صفحة، كانت الصفحات مثبتة معاً بشريط لاصق: سوناتا للبيانو والكمان تُدعى *«الشمس تشرق على ساحة الشعب»*. في الأعلى، كتب سبارو: «إلى جيانغ كاي». كانت الصفحات، وهي منسوخة باليد، مؤرخة في 27 أيار «مايو» 1989. تقرير من صفحة واحدة مفروز معها استغرقتُ دقائقَ كثيرةً كي أفكّ مغالقه. في الختام، فهمتُ أن هذه الصفحات كانت قد سقطتْ سهواً من ملفٍّ ما وقد ظهر هذا الخطأ غير المتعمَّد في العام 1997 خلال عملية تحويل جميع ملفات البوليس الورقية إلى ملفات رقمية. ولأن سنوات طويلة كانت قد مرّتْ وكان الملف قد أُغلق الآن، كانوا قد أرسلوا إليّ الوثائق الأصلية، كوني العضو الحي الوحيد المتبقي من الأسرة. كنتُ أنظر إلى رسائل حتى أمي الراحلة لم تكنْ قد رأتها – لم ترها حتى حين ذهبتْ إلى هونغ كونغ كي تدفن أبي وحتى بعد ذلك، حين طلبتْ ملفه.

أخذتُ كل شيء إلى منزلي. في تلك الليلة، شرعتُ أقرأ الصفحات ببطء، مرةً، مرتين، ثلاثاً. استيقظتُ آناء الليل وعاودتُ مطالعتها. في الصور الفوتوغرافية لجثمان أبي، التجرّد البارد للتقرير وتفاصيل التحقيق فتح عواطفَ لم أتحمل الإحساس بها.

في الختام، أعدتُ الأوراق إلى العلبة، وأعدتُ العلبة إلى مكانها تحت طاولة الكتابة خاصتي. تابعتُ حياتي، وعدتُ إلى عالم الأرقام. احتمالاتها، لغتها وبنيتها، شغلتني تماماً. كانت محببةً إلى القلب، نابضةً بالحيوية وكونيةً حالها حال الموسيقى.

***

بعد مدةٍ ليستْ بالطويلة، قابلتُ زميلاً كان موسيقياً محترفاً، عازف كمان. كان اسمه ياسوناري، وأصبح أعز أصدقائي. ذات ليلة، أعطيته مخطوطة سبارو، وائتمنته على نسختها الأصلية. قال لي ياسوناري إنه سوف يرتب الأمور كلها.

بعد ذلك بأسابيع قليلة، مضيتُ إلى شقته. فتحنا زجاجة شمبانيا، شربنا نخب المؤلف الموسيقي، ومن ثم جلسنا على الكنبة ورحنا نصغي للألحان المنسابة. لم أكنْ قد سمعتُ موسيقى سبارو قبلاً، ولكن ما إن بدأ الكمان والبيانو، حتى أحسستُ بهمهمةٍ غريبةٍ، كما لو أنني سمعتُ هذه الموسيقى إبان طفولتي. ربما كانت صدًى لـ سوناتا باخ رقم 4، صدًى لتسجيل غلين غولد ويهودي مينوهين ذاك الذي حالفني الحظ لاحقاً بأن استمعتُ إليه في «الحي الصيني»: بدا لي كما لو أنني عرفتُ هذا الشخص، وكنتُ أعرفه طوال هذه الأعوام كلها. في تلك القطعة الموسيقية، تراءى لي أنني سمعتُ ثلاثة أصوات - صوت البيانو، صوت الكمان وصوت المؤلف الموسيقي - وفي انفصال كل واحد منها عن الآخر، كانت كلها تنطوي على الحزن، نعم، لكن أيضاً... كيف يمكنني أن أصف ذلك؟ في داخل *«الشمس تشرق على ساحة الشعب»*، سمعتُ فضاءً كاملاً، غير متقطّع يحمي الثلاثة جميعاً، وكذلك غرفةً غير محدودة، تتمدد أبداً كالصحراء. بدتْ جميع أسئلتي التي ظلتْ بلا أجوبة كأنها تدور في نطاق النوتات الموسيقية، في نقطة تقاطع البيانو والكمان، بين الموسيقى والفواصل، فترات الاستراحة. كيف عاش المؤلف الموسيقي حياته وما من أحد أنصتَ إلى موسيقاه؟ هل تسجل الموسيقى زمناً لولاها لن يخلّف أثراً؟

سرتُ صوب البيت. كانت الأضواء على تلال التزلج ترسل وميضاً ضعيفاً وراء الغيوم، تاركةً طبقةً خفيفة زرقاء في سماءٍ كانت لولاها معتمةً. فكرتُ بأبي، بحبه لـ سبارو وتسهولي. كم يبلغ عدد النغمات الموسيقية في *تنويعات غولدبيرغ* التي وضعها باخ؟ في السيمفونية

الخامسة لـ شوستاكوفيتش؟ كم عدد الكلمات التي امتلكها كل واحد منا طوال مسار سنوات حياته؟ في تلك الليلة، بدأتُ أدوّن ذكرياتي عن أي - مينغ. كنتُ أكتب ببطء في أول الأمر، وعقب ذلك تسارعت القصة. كنتُ آمل أن تتيح لي الكتابة، في النهاية، بأن أحافظ على الوعد الذي قطعته لأمي. كنتُ أريد، كما فعلتْ أي - مينغ، أن أمضي قُدُماً، أن أتخذ خطوةً أخرى.

بعد بضعة أشهر أخرى، طلب ياسوناري يدي للزواج فوافقتُ. كنتُ في الثامنة والعشرين من عمري، إنما لا أزال يافعةً جدّاً وغير مستقرة ذاتياً. في الحقيقة، ربما أتمادى فأقول بأنني كنتُ عدائية مع نفسي؛ كنتُ، في نواحٍ كثيرة، ابنة أبي. كسرتُ فؤاد ياسوناري حين، بعد مضي وقتٍ قصير لا غير، تخليتُ عن زواجنا، وأحسستُ كما لو أنني مزقتُ مستقبلي إرباً إرباً. كان موت أبي قد أعياني واستهلكني، وانفتح شرخٌ بين أفكاري وعواطفي، وفي يومٍ من الأيام أفقتُ من نومي يراودني الشعور بأنني أسقط عبر هذا الشرخ وأستمر في السقوط إلى الأبد. كنتُ أحسُّ بأنني أميل للانتحار.

مرَّ الزمن. كانت حياتي العاطفية، كما درجتْ بغ موذر نايف على القول، مستقرةً ككدسٍ من البيض.

ومع ذلك، خلال هذه الحقبة الزمنية، ازدهر بحثي. بنحوٍ أعمى، لاحقتُ القاعدة الأولى للرياضيات الخالصة، التعطش للجمال؛ في نظرية الأرقام نحن نقول إن الجمال يكمن في الآلية.[1] بنحوٍ غير متوقع، نال عملي على المنحدرات البيضوية الشكل جائزةً فرنسيةً في نظرية الأرقام، ومجلةٌ موقرة تحمل اسم «*حوليات الرياضيات*»، نشرتْ واحدة من دراساتي. كان اسمي قد وضع في طليعة الأسماء المرشحة لنيل

---

1 - «الجمال يكمن في الآلية»: اقتباس من البروفيسور هنريك إيوانيك، من أليك ويلكنسون: «السعي وراء الجمال: يتانغ تسهانغ يحل لغز الرياضيات - الخالصة»، جريدة «*ذه نيويوركر*»، 2 شباط «فبراير» 2015 - ك.

جائزة ميدوز «ميدوز برايز». تعجبتُ من سخافة الأشياء. لم يكنْ لديَّ أيّ تفسير، ربما باستثناء أنني أنام كفردٍ معين وأستيقظ فرداً آخر. كان سطح حياتي يُذهلني ويُربكني. مع ذلك، في عالم الأرقام، كل شيء يبدو ممكناً ومحتمَلاً: الأرقام ليس لها مادة وهي مصنوعة كليّاً من الفكر.

رجع إليّ صوت أمي: *«إذا وقعتِ في فخّ وأنتِ في غرفة ولم يكنْ هناك شخص كي يهب لنجدتكِ، ماذا يمكنكِ أن تفعلي؟ يلزمكِ أن تضربي الجدران بقوة وتكسري النوافذ. لي - لينغ، عليك أن تتسلقي خارجاً بمفردكِ»*. شهراً إثر شهر، كانت نسخة أمي من سوناتا سبارو ظلتْ قابعةً في أحد الأدراج، تنتظر. استيقظتُ ذات صباح غير قادرة على أن أنكر هذه الحقيقة، أن الحب الذي كنتُ أضمره لأبي ظلَّ حيّاً، متأججاً، من دون أن يذوي أو يضعف أواره.

***

في العام 2010، سافرتُ، لأول مرة، إلى الجزء الرئيس من الصين.[1]

كنتُ أحضر مؤتمراً في نظرية الأرقام ينعقد في هانغ تسهو، إلّا أنَّ Weibo وQQ، وهما موقعان صينيان للتواصل الاجتماعي، هما اللذان أمتعاني. عدد غفير من الصينين يبلغ عددهم 700 مليون نسمة، أكثر من 50 بالمئة من السكان، كانوا يدخلون بانتظام إلى الإنترنت؛ حتى وقتٍ متأخر، 60 بالمئة من مستخدمي الإنترنت لم يكونوا يستخدمون أسماءهم الحقيقية (بما أنه في العام 2013، أصبح عدم استخدام الأسماء شيئاً غير شرعي). كان «جدار النار العظيم»، كما كان يُسمى عموماً، قد ألغى بشكل روتيني 16 بالمئة من محاورات الإنترنت الصينية.[2] البحث

---

1 - الجزء الرئيس من الصين mainland China: الجزء الرئيس من الصين تميزاً له عن الجزر الواقعة على سواحله - م.

2 - «... ألغى 16 بالمئة من محاورات الإنترنت الصينية»: اقتباس من ديفيد بامام، بريندان أوكونور ونوح أي. سينغ: «الرقابة وممارسات الشطب في وسائل التواصل الاجتماعي الصينية»، الاثنين الأول، 3. 17 (آذار «مارس» 2012) - ك.

عن أي – مينغ في الفضاء الرقمي أشبه بالتقاط إبرة من البحر، لكنني رأيتُ، أيضاً، بأن الإنترنت هو سلسلة من الأبواب: كل ما يتعيَّن عليه أن أفعله هو أن أبتكر الباب الذي بوسعها أن تفتحه. بدأتُ أنشر «بوستات» لنسخ مُسحتْ بالماسح الضوئي للفصل 17 من «كتاب السجلات التاريخية»؛ أنا بدوري نشرتُ على الإنترنت نكات كنتُ أعرف أن أي – مينغ سوف تحبها. في سبيل المثال: س: كيف يمكنكَ أن تميز عالم الرياضيات الانبساطي من عالم الرياضيات الانطوائي؟ ج: عالم الرياضيات الانبساطي ينعم النظر في فردتيْ حذائك حين يتحدَّث إليك. كل منشور «بوست» هو رسالة إلى المحتمَل.

من هانغ تسهو أخذتُ القطار إلى شنغهاي، حيث زرتُ «المعهد العالي للموسيقى». لم أجدْ شيئاً عن كاي، تسهولي أو سبارو؛ بدا كما لو أنّهم لم يكونوا موجودين في العالم.

في تلك الليلة في شنغهاي، دهمني النعاس على صخب أجهزة الراديو، غزارة الأوبرا، الديسكو، بيتهوفن، الصياح والكلام. حين أفقتُ من النوم، لم يتحركْ أيّ شيء قيد أنملة. بدا كما لو أنّ سريري هوى في الفضاء الخارجي. في الإنكليزية، الوعي واللاوعي هما جزء من مستوّى عمودي، لذا نحن نستفيق ↑ ونسقط ↓ في عالم النوم ونغطس ↓ في الغيبوبة. اللغة الصينية تستخدم الخط الأفقي، لذا كي نستفيق علينا أن نجتاز الحدود نحو الوعي ← وكي نغيب عن الوعي علينا أن نرجع →. في غضون ذلك، الزمن نفسه عمودي لذا السنة الفائتة هي «السنة أعلاه» ↑ والسنة القادمة هي «السنة أدناه» ↓. اليوم الذي يسبق أمس (前 天) هو اليوم «في الأمام» ↑ واليوم بعد الغد (後 天) هو اليوم «في الخلف» ↓. هذا يعني أن أجيال المستقبل هي ليست الأجيال القادمة، بل الأجيال الواقعة في الخلف (後 代). وهكذا، كي ننعم النظر في المستقبل يتعيَّن على المرء أن يستدير على عقبيه، صدى يعكس استغاثة والتر بينجامين الشهيرة المتعلقة بمَلاك التاريخ: «العاصفة تدفعه بنحوٍ لا

يقاوَم نحو المستقبل الذي كان يدير له ظهره، بينما كدس الأنقاض أمامه ينمو باتجاه السماء». كيف يمكننا أن نرسم خارطةً للزمن، كيف يصبح معيشاً وثلاثي الأبعاد بالنسبة لنا، كيف وشى الزمن وهو منحنٍ ومرن ومكرر، بكل بحوثي، براهيني ومعادلاتي.

حين كنتُ طفلةً، كنتُ أضايق أي - مينغ باستمرار: «لا تتوقفي!»، «ماذا جرى لـ سويرل وبغ موذر نايف؟» أو: «ماذا حصل لـ تسهولي؟ لا تدعيها تنتهي!» كانت قد دخلتْ في حياتي في النقطة الحاسمة من حياتها هي. كانت أختاً بالنسبة لي؛ من البداية اندمجنا، نصفان من العالم تركهما سبارو وكاي وراءهما. بعد وقتٍ طويل من رحيلها، كان صوت أي - مينغ يتشبث بأفكاري، ويعيدني المرة تلو المرة إلى القطعة الموسيقية نفسها الممتدة أبداً، المُعدية أبداً. هل يمكنني أن أستفيق الآن وأقطع المسافات والحدود إليها؟[1] قرب النهاية، بدتْ كأنها شارفتْ على نسيان أنني كنتُ هناك وبدا كما لو أنّ القصة أتتْ من الغرفة ذاتها: حوار مسموع بالمصادفة، قطعة موسيقية لا تزال تدور في الهواء.

***

كانت تسهولي في الحجرة 103، تتعقب بروكوفييف الجليل صاعدةً نحو سلالمه الخزفية، حين دخل كاي من دون أن يطرق الباب. تجاهلته: كان بروكوفييف يتطلب كل تركيزها. كل فاصلة موسيقية كانت تقرّبها من الروسي الذي لحق به العار، الذي اتهمه ستالين بـ «الشكلانية»، مؤلفاته الموسيقية الرئيسة مُنعتْ؛ مع ذلك في هذه الحجرة، كان قد تجسد بدمه

1 - «هل يمكنني أن أستفيق الآن وأقطع المسافات والحدود إليها؟» اقتباس مستوحى من «هكذا، في الإغماء نحن يونغوكو 去 過 暈 [مغمى علينا وماضين بعيداً]، وفي اليقظة نحن كسينغيولاي來 過 醒 [يقظين وقطعنا المسافات والحدود وأتينا إلى هنا]»، بيري لنك: «*تشريح الإيقاع الصيني، الاستعارة، السياسة الصينية*» (كامبرج: مطبعة جامعة هارفارد، 2013): 9 - ك. ورد آنفاً أن اللغة الصينية تستخدم الخط الأفقي في ما يتعلق بالوعي «أي أن يكون المرء واعياً» صاحياً أو غائباً عن الوعي. حيث كتبتْ في صفحةٍ سابقة: إننا حين نستفيق... وحين نغيب عن الوعي... إلخ - م.

ولحمه فيما كانت تسهولي نفسها تختفي تماماً. من الثمانيات حتى الست عشرات ومن ثم تبلغ سرعتها ثلاثة أضعاف، النغمات الموسيقية تتكسر إحداها في الأخرى، كل نغمة موسيقية يجب أن تلامس الهواء، تقوم بإيماءتها الشخصية، وأن تتقن هذا اللحن الذي بلا نهاية.

وبعدها، توقفت الموسيقى. توقف قوس كمانها. بدا كما لو أنّه ليس بوسعها أن تسمع شيئاً، أو لعلها نسيتْ كل شيء، أو غطستْ تحت الماء. مرتجفةً، خفضتْ كمانها. كاي وسبارو عادا توّاً من ووهان أمس. سمعتْ سبارو وهو يدخل بعد منتصف الليل.

كان كاي لا يزال يراقبها.

«ماذا تريد؟» لم تكنْ تقصد أن تقولها بفظاظة شديدة، إلّا أنَّ التعبير البادي على وجهه، الندم، جعلها تستشيط غضباً. «كنتُ حجزتُ هذه الحجرة حتى الساعة الحادية عشرة! وكما تعرف، البيانو في حالةٍ يُرثى لها، على كل حال».

«هل ستأتي معي إلى الطابق العلوي؟».

آه، فكرتْ في نفسها، وهي تنظر مجدداً إلى كمانها، لمحتْ صورتها المنعكسة. مَن الحقيقي ومَن المزيف؟

«رفيقة تسهولي»، خاطبها قائلاً. «حصل شيءٌ ما».

مسحتْ أوتار قوس كمانها، أمسكتْ بصندوق كمانها وتبعته إلى خارج الحجرة. عند السلّم، قبض على يدها مدةً وجيزةً. طوال الطريق المفضي إلى الطابق الرابع، كانت الحرارة وعدم الارتياح يخزان يدها. سمعتْ صراخاً آتياً من الأعلى. عمَّت الفوضى في السلّم. كانت تسهولي قد افترقتْ عن كاي ودُفعتْ إلى داخل الرواق. في كلا الجانبين، كانت الجدران مكسوة بـ dà zì bào، ملصقات «بوسترات» بحروف أبجدية ضخمة، تلك نفسها التي ظهرتْ في بنغبي منذ أمدٍ طويل. لمحتْ كلمة yào التي بدتْ كأنها تزحف من صفحة إلى صفحة. شخص ما، أو شيء

ما، تمَّ التبليغ عنه. كانت لغة هذه الهجمات منسوخةً من المقالات الافتتاحية للجرائد، كانت هذه الكلمات عينها تلك التي تدلقها بلا نهاية كوادر الحزب ومكبرات الصوت الزاعقة:

يتعيَّن علينا أن نكنس حشد الشياطين
الذين حصّنوا أنفسهم
في المؤسسات الثقافية

توقفتْ وشقَّ الطلبة طريقهم مارين بها بفظاظة، وهم يضحكون.

اسحقوا «الاختصاصيين»، «العلماء»،
«الأساتذة المبجلين»، «البورجوازيين»، و«السلطات».
البورجوازية
ودوسوا بأقدامكم كلَّ ذرةٍ من هيبتهم
وأحيلوها غباراً.

من دون أن تعرف، كانت قد وصلتْ إلى مكتب هِي لوتنغ، عميد «المعهد العالي للموسيقى»، وسمعتْ بنحوٍ مضحك، الموسيقى. هل يستطيع البروفيسور هِي حقّاً أن يتمرّن في مقر إقامته؟ مع أنّه لا يوجد بيانو في مكتبه ولهذا فإن الموسيقى، «*اللحن الأوركستري الصغير*»[1]

1 – اللحن الأوركستري الصغير Petite Suite: المفردتان فرنسيتان. Suite تعني: لحن أوركستري مؤلف من ثلاث حركات أو أكثر. Petite: تعني صغير. هذا اللحن ألفه كلود ديبوسي بين عامَيْ 1886 و1889. عزفه ديبوسي أول مرة في 2 شباط (فبراير) 1889 في باريس. كلود ديبوسي (1862 – 1918): مؤلف موسيقي فرنسي. هو وموريس رافِل أبرز الشخصيات التي رافقت الموسيقى الانطباعية، مع أنّ ديبوسي كان يكره أن يُطبق هذا النعت على مؤلفاته الموسيقية – م.

من تأليف ديبوسي، بمزيجها الصعب من التفاهة والحزن، لا بدَّ أنها كانت منبعثة من تسجيل. قاومتْ تسهولي موجةً هيستيرية من الضحك. لم تستمعْ إلى ديبوسي منذ بضعة أشهر، آخر مرة سمعته حين استهدف المؤلف الموسيقى في *«وين هوي باو»* والصحف الصادرة في بكين، موسيقاه التي صنّفوها على أنها منحطةٌ، والفرنسي الذي مضى على وفاته زمن طويل، باعتباره الموسيقي ذا «المطبخ الانطباعي المتقن»؛ هذا النعت كان بمنزلة استخفاف بالمصاعب التي واجهها المسكين. كان سبارو قد صادر جميع أسطوانات ديبوسي التي بحوزتها ووضعها في مكانٍ لا أحد يعرف عنه شيئاً.

«لكن [La plus que lente][1] لا تزال في ذهني»، قالت، وهي تتخلى عن الموسيقى. «هل يمكنك أن تمسح المطبخ [الانطباعي] الراسخ في رأسي؟».

أطول الملصقات، وأكثر واحد منها تضمن نقداً قاسياً كان قد أُلصق على باب البروفيسور هِي. كانت الصفحة، المنتزعة من ورقة جزار، بطول قامتها نفسه وكتابة اليد، المتقنة جدّاً، كانت جميلةً بنحوٍ غريب. كان هذا الملصق محاطاً بملصقاتٍ أخرى أصغر حجماً منها. اقتربتْ تسهولي منها، الكلمات ترتنح. كان الحبر يبدو أسودَ حديثاً جدّاً، وحسبتْ أن بمستطاعها أن تمسح الكلمات الماكرة من على الملصق بيديها هي.

كانت تهمّ بلمس كلمة yāo حين دنا منها كاي. التفتتْ إليه، يدها ممدودة وتعبيراً عن توترها العصبي، ابتسمتْ. كانت قد استرعى انتباهها عشرات الملصقات المستمرة في داخل الرواق. كانت

1 - La plus que lent (بالفرنسية): أكثر من بطيء: فالس لبيانو أحادي، كتبه كلود ديبوسي في العام 1910. هذه المقطوعة الموسيقية ظهرتْ أول مرة في «فندق كارلتون الجديد» بباريس، حيث كُيِّفتْ لتُعزف على الآلات الوترية، وعُزفتْ من فرقة «روماني» الشعبية - م.

الكلمات تسخر وبدتْ كأنها تتحرك، تأتي مرتخيةً وتجري بخفةٍ ورشاقةٍ على طول الجدران. رأتْ مقالةً طويلةً، مدوّنةً بكتابة يد بشعة، مليئة بالأسماء، ولائحة «العلماء»، «الاختصاصيين» هذه ضمت اسم سبارو، الأب لوت، البروفيسور تان ودزينة أخرى من المدرّسين والموسيقيين. مصعوقةً، دنتْ أكثر. *اللحن الأوركستري الصغير*، قطّرَ وجعل يتسرب عبر الجدران. كان ذاك هو البيانو، وليس الأسماء الذي جعلها ترتعد. أتتْ إليها الموسيقى كما لو أنّها كانت تشاهد دزينةً من شظايا الزجاج المدببة تهوي نحوها.

«توجد ملصقات أخرى»، قال كاي. «في الفناء وعلى الأبواب».

«لكنْ مَن الذي يسخر منهم بهذه القساوة؟» سألته. كان يتحتّم عليها أن تخفض صوتها لكنها لم تفعلْ. «لماذا يتهمون زوج خالتي؟».

كان كاي قد تراجع للوراء مصطدماً بالحشد، بعضهم كانوا يغنون، وبعضهم يبتسمون ابتسامات عريضة مثل مرتادي الأوبرا. كانت هنا بسكويت ومقلّبي صفحتها، كما كانت تدعوهم تسهولي، وهنا كان صف الآلات الوترية كما لو كانوا يسافرون دوماً كمجموعة.

قالت تسهولي: «الأب لوت عزف للرئيس ماو».

بدا كأن لا أحدَ سمع ما قالته باستثناء بسكويت، التي تطلعتْ إلى تسهولي بلطفٍ غير متوقع.

«كان زوج خالتي بطلاً في [مقر القيادة العامة]»، قالت لها. «كان يتزعم كتيبةً من كتائب [جيش المسلك الرابع الجديد]».

طرفتْ عينا بسكويت بعصبية وأشاحتْ وجهها.

أخذ كاي يدها وجرّها وراءه. في نهاية المجاز، تضاءلت الجلبة. كم كان الطقس حارّاً، كم كان رطباً بنحوٍ باعثٍ على اليأس، ومع ذلك كانت يد كاي باردةً وجافةً. أمسكتْ بمقبض صندوق كمانها،

وقفتْ جامدةً من دون حراك وأرهفت السمع بكل ما أوتيت من قوة، إنما في ظلِّ نوبات الضحك الراشح بالازدراء لم تعدْ تسمع ديبوسي.

***

في الخارج، كانت الملصقات أدق وإرشاديةً. حين وصلتْ تسهولي صبيحة هذا اليوم، قبل السادسة صباحاً بوقتٍ قصير، كانت الجدران عاريةً، إذن الملصقات حتماً أُلصقتْ في وضح النهار، بموافقة لجان الصف أو حتى... أمستْ أفكار تسهولي مشوشةً ومضطربةً. بغ موذر نايف كانت محقة. كانت ثمة حملة جديدة يجري التحضير لها في السر.

اصمدْ وتمرّد!

اقتلْ أولئك الذين يريدون تخريب ثورتنا.

اصمدْ وكنْ حرّاً.

«ليس هنا فقط»، قال كاي فيما هو يرشدها عبر الباب الشرقي. «في صباح هذا اليوم كانت هناك اتهامات في [جامعة جياوتونغ]، وحتى في [جامعات بكين]، في تسينغهوا وبيدا. كانوا جميعاً يقولون الشيء عينه».

في «طريق فينيانغ»، تدفق الناس كي يعملوا، متحدثين، معذّبين، جارّين الأطفال، مُرهَقين من حمل الحقائب، براميل الماء، الأدوات، الطيور، الكراسي، أشياء معدنية لا يمكن تحديدها، يواصلون عملهم بسبب الجوع، الروتين، الضرورة، وحتى الفرح الغامر. كان الهواء لزجاً. كانت تسهولي ترغب بأن تقرفص ويداها النابضتان على أذنيها كي تحجب عنها الشمس والضجيج. كلا، كانت قد صممتْ على حين غرة، أفكارها صاحية. تلك الاتهامات، تلك الملصقات، لا يمكن أن تكون صحيحة.

«كيف كانت رحلتكَ إلى ووهان؟». نطقت الكلمات من غير قصد، كما لو أنّهما تقابلا الآن توّاً في الشارع بدا سبارو منهكاً حين نهض من النوم هذا الصباح. «ومع ذلك هو ذا أنت، تعمل بنحوٍ لا يعرف الكلل!».

نظر إليها بثبات، كما لو أنّه يحاول سماع ما بين الكلمات. «نمتُ في الحافلة».

«وهل جئتَ أنتَ وابن خالتي إلى البيت والتسجيلات المليئة بالموسيقى؟».

لم يقلْ كاي شيئاً هذه المرة أيضاً. ذكّرها بقطٍّ ذي ساقٍ واحدة مرفوعة، يهمّ بلمس الأرض، مرتبكاً لحظةً.

«كانت تلك هي مَهمتك، أليس كذلك؟». ذكّرته. «أن تقطع الريف، كي تسجل وتحفظ الأغاني الشعبية لوطننا الأم». كلمات مَن تلك التي كنت تستخدمها، تساءلتْ. أرغمتْ نفسها على أن تنظر إلى عينيه مباشرةً.

«أوه»، قال، وهو يظلل إحدى عينيه من أشعة الشمس. «رجعنا ومعنا ثلاث بكرات من التسجيلات».

كانت ترغب بأن تتوسل إليه كي يرافقها، كي يأتي ويعزف بضع ساعات. أو يمضي معها إلى المكتبة الموسيقية ويتصفح التسجيلات القديمة، كانت هناك رباعية على الآلات الوترية من تأليف شوستاكوفيتش كانت تشتاق لسماعها. بدلاً من ذلك، قالت من دون اكتراث. «يتعيَّن عليَّ الذهاب. تركتُ أسطواناتي في الغرفة 103».

«انسيها. اذهبي إلى البيت، تسهولي».

«لستُ طفلةً عبقريةً مثلكَ»، قالت. «لن يتحسن أدائي بالتمني حصراً».

«هذه بداية حملة جديدة. ألا تفهمين؟».

الصدق في عينيه جلب إليها الأمل والغضب الشديد معاً.

قال: «[الحرس الأحمر][1] يمكنهم أن يحيلوا حياتكِ رماداً. سوف يفعلون».

قبل أن أقابلك، فكرتْ تسهولي، لم يكنْ لي أحد كي أُرضيه سواي. جيانغ كاي، أنتَ واقعي وغير واقعي مثل ظلّ الطائرة. كانت ترغب بأن تسأل كاي ما إذا كان يحب سبارو كائناً مَن يكون، أم إن موهبته هي التي كانت مصدر جاذبيته الحقيقية. ألا يفهم أن موهبةً مثل سبارو لا يمكن شراؤها أو استدانتها، لا يمكن سرقتها؟ هل كان كاي يحب الشخص، أم إنه كان يحب الشعور الذي تُحدثه موسيقى سبارو لديه؟ كانت أفكارها تذهلها وتقلقها. أومأتْ برأسها بابتهاج. «إلى أن يفعلوا ذلك، يمكنني أن أتمرّن فقط».

ابتسم لها، بالطريقة التي كان يبتسم فيها الأب لوت غالباً بسمةً خفيفةً لـ الدب الطائر. كان كاي قد وصل إلى حقيبته المدرسية وسحب حزمةً من ورق الموسيقى. «لا تكوني عنيدةً»، قال لها. «خذي هذه». خفضتْ بصرها ناظرةً إليها. كان قد وضع بين يديها مقطوعات موسيقية مألوفةً وضعها المؤلف الموسيقي الراحل كسيان كسينغهاي[2]، بطل الثورة.

في خضم حيرتها وترددها، أحسَّتْ أنها وحيدةً، منعزلةً تماماً عن العالم. المباني الكونكريتية، الطرقات المزدحمة وجميع عابري السبيل بدوا كأنهم يتحركون في داخل ضوء لا يصل إليها. «جيانغ كاي»، قالت بحقد، «الآن فهمتُ. سوف أنسى بروكوفييف. سأعزف [مسيرة

---

1 – الحرس الأحمر The Red Guards: حركة اجتماعية شبه عسكرية تتألف من الجماهير الطلابية، حشّدها ماو تسي تونغ في عاميْ 1966 و1967 إبان «الثورة الثقافية». بحسب قائد هذه الحركة، أهداف «الحرس الأحمر» هي ما يلي: حدَّد الرئيس ماو مستقبلنا بوصفنا حركة شبابية ثورية مسلحة. لئن كان الزعيم ماو هو رئيسنا الأحمر فنحن إذن حرسه الأحمر، مَن الذي يقدر أن يوقفنا ؟ في البداية سنجعل من الصين ماويةً قلباً وقالباً ومن ثم سنساعد الشغيلة في البلدان الأخرى على أن يجعلوا العالم أحمر، وبعدها الكون بأسره – م.

2 – كسيان كسينغهاي (1905 – 1945): مؤلف من الجيل الأبكر من المؤلفين الموسيقيين الصينيين الذين تأثروا بالموسيقى الكلاسيكية الغربية وأثّروا في أجيالٍ من الموسيقيين الصينيين. لحّن نحو 300 أغنية واشتهر بكانتاتا «النهر الأصفر» للبيانو – م.

المتطوعين][1] و [النشيد الأممي][2] طوال الأبدية كلها. *العالم القديم يجب أن يُدمَّر. أفيقوا، أيها العبيد، أفيقوا! لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً.* هذا من شأنه أن يجعلني أفوز بـ[مسابقة تشايكوفسكي]، وأن يُسِر الجميع، وأن يُسركَ أنتَ أكثر من سائر الناس قاطبةً».

كانت هنالك ثانيةً نصف ابتسامته المتفضّلة. «رفيقة تسهولي، لا ترتكبي الخطأ السخيف وهو الاعتقاد أن موهبتك وحدها كافية».

«موهبتي لا تهمني»، قالت. «ما أريد معرفته هو، هل إن موهبة سبارو ستحميه؟ هذا هو الموضوع الذي نهتمّ به أنا وأنتَ أكثر من الأشياء كلها، أليس كذلك؟».

عوضاً عن الكلام، بشق النَّفَس ربط حقيبته، التي كانت قد رُممتْ على عجل في كلتا الزاويتين وفي الحزام. عليه أن يقود فرقةً موسيقية، فكرتْ تسهولي، حركاته كلها تملك الوهم المتمثل بالتمادي في التعبير. كانت تريد أن تسأله كيف يمكنه أن يذعن ظاهريّاً ولا يتوصل إلى

---

1 – مسيرة المتطوعين March of the Voulnteers: النشيد الوطني لجمهورية الصين الشعبية، ولـهونغ كونغ، ومكاو اللتين تتمتعان بإدارة خاصة. ألفه الشاعر والكاتب المسرحي الصيني ذو التعليم الياباني تيان هان، في العام 1934. وهو بالأصل مقطعان من قصيدته المعنونة «السور العظيم». وضع له الموسيقى ني إر وعُرض في الفيلم الياباني «أولاد أزمنة العناء». على خلاف معظم الأناشيد الوطنية الصينية كُتب بالكامل بالعامية الصينية وليس بالصينية الفصحى. تبنّت الصين هذا النشيد أول مرة في نيسان «أبريل» 1949، خلال «مهرجان السلم العالمي» المنعقد في باريس. سُجن تيان هان إبان «الثورة الثقافية» – م.

2 – النشيد الأممي Internationale (بالفرنسية): نشيد ثوري أَلّفه الشاعر الفرنسي التقدّمي يوجين بوتييه، تخليداً لكومونة باريس التي أُسستْ في فرنسا في العام 1871. تبنى الاشتراكيون الفرنسيون هذا النشيد ومن ثم الاشتراكيون والشيوعيون حول العالم. تُرجم إلى الروسية وأصبح النشيد الوطني للاتحاد السوفيتي من العام 1917 «انطلاق الثورية البلشفية بقيادة لينين» حتى العام 1944. تُرجم النشيد إلى مئة لغة حول العالم ليربط قوميات وثقافات وأديان مختلفة تحت راية وحدة مصير الشعوب جميعاً، بحسب الفلسفة السياسية اليسارية. يُمكن الاستماع للنشيد على اليوتيوب، بترجمة عربية – م.

تسوية في الداخل. لا يمكنكَ أن تعزف موسيقى ثورية، موسيقى ثورية حقيقية، لو كنتَ جباناً في أعماقك. لا يمكنكَ أن تعزف إن لم تكن يداك حرّتين؛ إن لم يكنْ رسغاكَ، ذراعاكَ طليقين. كل نغمة موسيقية ستكون مُقنِطةً، ضعيفةً، كاذبة. كل نغمة من النغمات سوف تظهرك على حقيقتك. ربما هي مخطئة وكاي محق. ربما، بغضّ النظر عن قناعاته أو قناعاتها، الموسيقي العظيم، العبقري الحقيقي، بوسعه أن يعزف أيَّ مقطوعةٍ موسيقية وأن يصدّقه الجمهور.

كانت تروم أن تضع هذه الأفكار كلها في أسئلة إنما في الوقت الذي صحتْ فيه هي نفسها، كان كاي قد استدار ومضى لا يلوي على شيء.

كانت الحركة في الشارع مندفعةً بحزم وجعلتها تشعر بالخزي؛ ما من أحدٍ سواها لديه لحظة لأن يرتاح، لأن يفكر، لأن يخاف. مع ذلك هي ذي الآن، حيث الزمن في يديها. نظرتْ بازدراء إلى الموسيقى التي أعطاها إليها، التي رأتها الآن مكيّفة للكمان ومنسوخة باليد. في منتصف الطريق مع ذلك، كانت النغمات الموسيقية تتذبذب وتتمايل، كما لو أنّها تعدو في مواجهة الريح. لا بدَّ أن ذلك أخذ منه ساعاتٍ طويلةً. لكن لماذا يفعل جيانغ كاي شيئاً كهذا من أجلها؟ متى كان لديه الوقت كي ينجز ذلك؟

بدأتْ تسير، من دون اتجاه معين، خائفةً من أن البوسترات تقتفي أثرها مثل كتلة طين علقتْ بفردتي حذائها. كانت الكلمات هي: المناوئ للثورة، المسوخ «جمع مسخ»، الشعور الأعمى، الحب الكاذب، *الساحرة*. في داخل رأسها، *تزيغاني* من تأليف رافِل أبتْ أن تهدأ. كانت تتلاطم كالموج وتكشف نفسها بوصفها لحناً موسيقياً وضعه مجنون. كي تفلت، أسرعتْ بين الدراجات الهوائية متجهةً صوب «متنزه كسيانغيانغ». كان الأشخاص المصطفون بغرض الحصول على الحبوب والنفط يشقون طريقهم بنحو ثعباني مارين بها، وثمة صفٌ من الجدات وقفن بصمتٍ مدروس، ممسكات بكوبونات المؤن الخاصة بهن. كانت الشمس عالية الآن والحرارة لا تُطاق، إنما بدا الجميع مشدوهين،

ساهمين، ولا ينضح منهم العرق. بطبيعة الحال، سوف أعود أدراجي وأجد كاي وأعتذر منه، فكرت تسهولي، مع أنّها واصلت المسير. كم عدد الانتقادات الذاتية التي كتبتها؟ ألف صفحة، ألفين؟ أجل، كانت أنانية واستحوذتْ عليها رغبات متطرفة ونعم، كان حبها للموسيقى نقطة ضعفها. كانت قد أقرتْ بهذه العيوب منذ أن كانت في سن الثامنة، إلّا أنّها رفضتْ بعناد أن تنقي فؤادها، قال الزعيم ماو: «أن يكون المرء واعياً بأخطائه ومع ذلك لا يقوم بأيٍّ محاولة بغرض تصحيحها يعني أنه يتخذ موقفاً ليبرالياً من نفسه. هؤلاء الأشخاص يتحدثون بالماركسية لكنهم يمارسون الليبرالية. نعم، هذه هي الطريقة التي تعمل فيها عقول بعض الأشخاص وهم ضارون جدّاً بالجماعة الثورية». جاء المتنزه مثل رشفة ماء. كانت ثمة مصطبة تظللها شجرة بامبو وجلستْ عليها، ووضعتْ صندوق كمانها في حضنها.

على الحشائش، صبي، لا يتعدى عمره خمسة أو ستة أعوام، يتكوّر على الأرض فيما كانت أمه تقف على مبعدة أقدام عنه. كانت ترتدي بدلةً رمادية وقبعة صوف رمادية، فرن في هذه الرطوبة الخانقة. كان بحوزة الأم كرة كانت تدفعها برفق نحو ابنها، إلّا أنَّ الصبي تجاهلها. حتى الكرة كانت رمادية اللون. استعادتها، استدارتْ وركلتها من جديد إليه. على الرغم من ذلك لم يتحرك ابنها. كان يرقد من دون حراك على النجيل مثل حيوان جريح. مرتْ لحظات قلائل. قفز الغلام كما لو أنّه استيقظ بغتةً.

مضى الغلام إلى الكرة وواجه أمه. إنما، بنحوٍ غير متوقع، استدار على عقبيه وركل الكرة في الاتجاه المعاكس. تردد صوت مكتوم في البستان.

انتظر الغلام.

هرعت الأم برشاقةٍ بمحاذاة ابنها وقبضتْ على الكرة. من دون أن يثنيها شيء، أعادتها إليه. ومن جديد، تصرفتْ كأنها تردها بنجاح إليه، لكنها بعدئذٍ، في آخر لحظة، ركلها بقوة في الاتجاه المعاكس. ومرةً

أخرى، لحقتْ بها الأم. المرة تلو المرة كرر هذا المشهد نفسه، كان الصبي يركل الكرة بعيداً بطريقةٍ مؤذية، وكانت أمه تردها بصبر، والصبي يقف متكاسلاً.

أغمضتْ تسهولي عينيها.

حين فتحتهما مجدداً، رأتْ أن العذاب قد انتهى وأن الصبي وأمه كانا يلعبان. كانا يراوغان بعضهما، ويخدعان بعضهما، ويدحرجان الكرة بخفة صوب شبكة متخيَّلة.

انزلقتْ تسهولي جانباً على المصطبة، فتحتْ صندوق كمانها وأنعمت النظر في آلتها الموسيقية. تملكتها رغبة مجنونة بأن تهشمها على الأرض. ما وراء المتنزه، سمعتْ ما بدا أنه بحر يكتسح ممتلكات الآخرين إنما لم يكنْ ذلك سوى «الحرس الأحمر». «ليسقط وو بي!» هتف الطلبة. «اقتلوا الخائن، دمروا الزمرة المجرمة، يسقط وو بي، يسقط وو بي!».

الصبي، الذي كان يضحك مبتهجاً قبل هنيهة، بات مكتئباً بصورةٍ غير متوقعة. مررتْ أمه الكرة إليه وبنحو مفاجئ استدار الغلام ومضى مبتعداً. تدحرجت الكرة بمحاذاته، واصطدمتْ بالأشجار. جلس. ركضتْ أمه وراء الكرة، ضربتها ضربةً خفيفةً مرسلةً إياها إلى ابنها وانتظرتْ. حينما لم يحصلْ شيء، التقطتها مجدداً إلّا أنَّ الغلام كان منبطحاً الآن على النجيل. لا تزال أمه تطوّقه، زحفت الكرة أمامها. بدا أنهما كانا غافلين عن صياح «الحرس الأحمر» في أطراف المتنزه. لم يسبقْ لها أن شاهدتْ طفلاً وأمّاً يتصرفان بهذه الطريقة؛ بدا كما لو أنَّ العالم قد هوى على جانبه والطفل قد رُجَّ وأصبح في أرذل العمر. كانت الأم ترفرف في بدلتها الرمادية البشعة. ما هو الحب في نظر هذا الغلام؟ من السهل أن يُلغى بوصفه أمراً.

«كلما كنا عديمي الشفقة مع خصومنا، أحببنا شعبنا أكثر فأكثر!»، «بماذا ستضحي؟ بماذا ستضحي؟»، «انهضْ واخدمْ الثورة!».

شيءٌ ما يأتي إليّ، فكرتْ تسهولي. «كلما كنا عديمي الشفقة...» لكن المحيط، فكرت، تغلب عليها فجأةً ضحكٌ غير مناسب، المحيط وحده الذي بوسعه أن يحطمها. أغلقتْ صندوق الكمان ووضعته بعنايةٍ على الحشائش. انزلقتْ *تزيغاني* رافِل بخفة على الصياح وغطتْ على أفكارها، نغمةً إثر نغمة، بدأت الموسيقى ثانيةً، بدتْ قويةً جدّاً بحيث إنّ ذراعيها تشنجتا من أثر الإجهاد الهيستيري، أوجعتا كتفيها، ومع ذلك ظلت الموسيقى تعزف في بالها بسخاء وغزارة. كانت الموسيقى تنسكب على الأرض. في مكانٍ قصي، لاحتْ أصوات الطلبة أشبه بالنحيب، «علينا أن نعيد صنع أنفسنا ونغيّر العالم! يلزمنا أن نخدم الشعب من كل قلوبنا وعقولنا! من [الشرق الأحمر] هناك تشرق شمسٌ، في الصين هناك يظهر ماو تسي تونغ!».

الزمن، المتنزه، الشعارات، الأم والطفل: أبعدتْها تسهولي كلها من دون استثناء.

الزمن، ضغط الأوتار على أصابعها، لا أهمية قوس الكمان، هذه كلها: لا تفارقها قط.

حين انتهتْ آخر نغمة موسيقية، استيقظت فوجدتْ نفسها في السكون. كانت التظاهرة قد انتقلتْ إلى مكانٍ آخر. كان البستان خالياً وتوارت الأم وابنها عن الأنظار كما لو أنّهما لم يكونا هنا قبلاً. حتى رقعة الظلِّ التي وقفا فيها اختفتْ هي الأخرى.

كان ثمة شخصٌ ما يراقبها. كان السديم في الهواء ولهوها قد جعلاها عديمة الاكتراث، ولم تنتبهْ إلى هذا الشخص الآخر. هبَّ واقفاً على قدميه الآن وأقبل إليها. أخيراً عرفته تسهولي. توفو ليو، كان زملاؤها في الفصل المدرسي يطلقون عليه هذا الاسم تندراً. كان عازف بيانو لين القلب، معسول الكلام. كان يتخذ مظهراً خادعاً تقريباً؛ كان سرواله وقميصه كلاهما بدرجة اللون الأخضر نفسها الخاص بأفراد الجيش.

«يعيش الرئيس ماو»، انبرى قائلاً، «تعيش ثورتنا المجيدة!»،

«ليدمْ نجاحها وازدهارها. يعيش الحزب الشيوعي الصيني العظيم».

«رفيقة تسهولي»، قال لها. «لم أكنْ أعني أن أتعقبكِ. في الواقع، كما يحصل دوماً، أريد أن أسألكِ... إنه ليس كذلك في حقيقة الأمر». ظلّ واقفاً، كما لو أنّه يأمل أن حملةً ما سوف تمحوه تماماً. وعندما لم يحصلْ ذلك، نقل صندوق كمانه إلى اليد الأخرى واستطرد قائلاً: «حسناً، يقول البروفيسور تان إن *تزيغاني* هي واحدة من المقطوعات الموسيقية التي من المستحيل جدّاً أن يتعلمها المرء، ومع ذلك إنكِ تعزفينها بعفوية تامة». البسمة التي لامستْ شفتيه كانت خاطفةً وحزينةً. «هناك لحن لـ بروكوفييف لكمانين أنا متلهف جدّاً لتعلّمه والبروفيسور تان لديه فكرة تذهب إلى القول إنكِ... بالطبع، لديكِ حفلتكِ الموسيقية التي يلزمكِ التحضير لها. إنني أعتقد أن هذه المقطوعة الموسيقية ربما تناسبكِ تماماً. في الحقيقة، إنها غير مملة على الإطلاق. لحن بروكوفييف لكمانين، أعني. ليستْ مضجرةً. قولي نعم إن كان هذا يثير اهتمامكِ. أو إذا كان من الجائز أن تُسرك... حسناً، هل تريدين؟».

كيف سيبقى على قيد الحياة؟ تساءلتْ تسهولي في سرّها. كان ثابتاً كبيضة مخفوقة. «إنني أحب بروكوفييف».

تبسم ليو. كانت عيناه ساطعتين جدّاً، لطيفتين جدّاً. «سوف أنسخ الأسطوانة وأجلبها إليك في الغد».

«حسناً»، ردّتْ عليه. ويا لدهشتها، سألته: «ليو الصغير، ماذا يجري الآن؟ ماذا يجري لنا؟».

لم يتحركْ إلّا أنّه شعر كما لو أنّه اقترب منها خطوةً. «ما يجري لكل جيلٍ من الأجيال».

لم تفقهْ قوله. الأشجار بحدّ ذاتها بدتْ كأنها تنحني وتحملهما.

«ألمْ تفهمي ما قصدتُه، تسهولي؟» سألها. «في اعتقادي، التاريخ لا يختلف كثيراً عن الموسيقى، الحقب الزمنية وحدها التي تختلف،

مثلما حصل حين انتهى عصر الباروك وبدأ العصر الكلاسيكي، حين ينتقل نوعٌ معين من الفهم إلى نوعٍ آخر... تعوَّد آباؤنا أن يحمّلوا القدر مسؤولية معاناة امرئٍ ما، لكن حين تتلاشى المعتقدات التقليدية، نبدأ بفهم المبررات الأعمق للمَظالم الاجتماعية». كان يتكلم بعصبية، كما لو أنّه يفك ظهوراً حابساً للأنفاس لـ تشايكوفسكي. «يقول الرئيس ماو إنه يتحتَّم علينا أن ندافع عن الثورة من خلال تمييز كل فرد وكل شيء مناوئ للثورة. نحن الطلبة لدينا معارك كثيرة جدّاً ومناقشات لأننا لا نزال ننمّي فهمنا السياسي. نحن نلقن أنفسنا أن نفكر بطريقةٍ جديدةٍ تماماً، لم يُفسدها الوعي القديم. لكن الشبيبة قادرون على فعل لك، أليس كذلك؟ في الواقع، أعتقد أننا أقل أنانيةً من الجيل الذي سبقنا. كان أبي يمينيّاً حاله حال أبيك... ربما بوسعنا أن نصبح... إنما هذا شيء صعب لأنه يجب علينا أن نقاوم *أنفسنا*، وأن نرتاب حقيقةً في تحريضاتنا ونسأل أنفسنا لمصلحة مَن نحن نبني مجتمعاً أكثر عدالةً». كان خجولاً إنما لا يوجد حياء في عينيه. «إذا كان بعض الناس يقولون ما تكنّه أفئدتهم وأشخاص آخرون يقولون ما تزلّ به ألسنتهم، كيف يسعنا أن نتكلّم مع بعضنا؟ لن يتسنى لنا أبداً أن نجد هدفاً مشتركاً. إنني أؤمن بالحزب، بطبيعة الحال، ولا أريد أن أفقد إيماني به. لن أفقد إيماني...».

«نعم»، أجابتْ تسهولي. «إنني أؤيـدكَ». هو ذا ثانيةً، يتفجر في داخلها، الضحك والخوف.

«كنتُ أعرف على الدوام أن باستطاعتي التحدث إليكِ بصراحة، تسهولي. إنكِ لستِ مثل سائر الناس. لقد رأينا أن أبوينا خاضا التجارب وكابدا. لذا...» تطلع إليها وأومأ برأسه. «أراكِ غداً».

كان ليو قد شرع يمشي للوراء، وصندوق كمانه يرتطم بركبته اليمنى. استدار وبهتتْ ثيابه الخضر في نور الشمس. راقبته تسهولي وهو يمضي مبتعداً وأحسَّتْ بخفقان موجِع في فؤادها. لماذا وضع ثقته فيها؟ مَن هو الشخص الذي يتعيَّن عليها أن تثق به؟ يداها كانتا خاليتين من الإحساس،

كما لو كانتا مصنوعتين من الخشب. إلّا أنَّ الأنغام الموسيقية ملأتْ بالها كما لو أنّها لا تزال في الحجرة 103، كما لو أنّ عقلها لم ينتبهْ إلى أن يديها لم تعودا تتحركان.

***

حتى اللحظة التي دلف فيها إلى حجرة كاي، كان سبارو قد أقنع نفسه بأنه غير ذاهب. اللقاء، أو كما سماه كاي، مجموعة الدراسة، لم تكنْ تعني شيئاً لشخصٍ ما مثلما كانت تعني له. على الرغم من ذلك، على مدى أربعين دقيقة تقريباً، قاد سبارو دراجته الهوائية متجهاً إلى الشرق، ومن ثم انعطف يساراً عند «طريق هِنان الأوسط»، واتجه إلى هاينينغ وختاماً دخل في مشكالٍ من الشوارع الصغيرة. ترجل من الدراجة الهوائية ومشى في دوائر إلى أن اكتشف الزقاق والسلّم المفضي إلى مبنى البلوك الإسمنتي.

في الطابق الثالث، قرع على الباب رقم 32. ظهر كاي، شعره مذروّ بالرياح مع أنّه على الأرجح لم يغادرْ حجرته. كانت السعادة قد غمرتْ وجهه لحظةَ شاهد سبارو. «كنتُ أخشى أن لا تجد المكان». ابتسم سبارو كما لو أنّه، هو نفسه، لم يراوده الشك البتة.

كم كانت الغرفة صغيرةً، ومظلمةً. كان ثمة راديو موضوع بإزاء الباب، صوته أُصيب بالصمم. ثمة ظلال ربما تعود لأشخاص أو لأشياء، إنما لا توجد مروحة والغرفة كانت محتبسة الهواء. ثمة امرأة في مقتبل العمر، مع أنّها تحركتْ جانباً كي تفسح مجالاً لـ سبارو، كانت لا تزال قريبةً جداً بحيث غمرته رائحة اللوز التي تفوح من شعرها. شخص ما طلب بطاقة سبارو التعريفية، ضحك آخرون، وقال شابٌّ: «أصغر سنّاً من أن يتصدى للريح. بالتأكيد ليس الأمن العام. هل لوحقتَ؟». ومن ثم صوت واخز لإحدى الجدات: «لعله تبعكَ *أنتَ*، سان لِي». ضحك. كان سبارو يرتجف، كان بمستطاعه أن يشم عرقه هو. «فقط استرخي»، قالت الفتاة برائحة اللوز بنفاد صبر. «هل أنتَ حقاً المؤلف الموسيقي العظيم

الذي يطوف حولك كاي مراراً وتكراراً؟». وقبل أن يردّ على سؤالها، بدؤوا يتحدثون عن الكتاب الذي لم يكنْ قد طالعه بعد: هو حتى لم يسمعْ به. ذكروا كتاباً لم يكنْ يعرفه، كتاب كانغ يوويوي[1] المعنون «*كتاب المجتمع العظيم*»، لكن في اللحظة التي هنأ فيها نفسه، لعلعت المحاورة.

في الزاوية، لم يتكلمْ كاي. كان في الأقل أصغر سناً من الرجال والنساء في هذه الغرفة بعقدٍ من الأعوام.

«أولد كات، ماذا جلبتِ؟ أين أنتِ؟». «في حضنكَ». كانت هذه الجدة التي تتكلم الآن. «سان لِي، اهتمَّ بما موجود في حضنكَ مرةً واحدة فقط!».

كانت الجدة قد تناولتْ حقيبةً قماشية وسحبتْ كدسة صغيرة من الكتب. «قليل من النثريات. *[مقالات في الشكوكية]* –».

«شيءٌ مُبهج»، قالت الفتاة برائحة اللوز التي يسمونها لينغ بصوت خفيض كصوت الهرة.

«وكسي لِي، *في التربية الجمالية للإنسان*»، شين كونغوين وماذا بعد...».

أُشعلتْ شمعةٌ أخرى. التقطتْ لينغ كتاب وكسي لي، أو فريدريك شيللر، وهي تفتش عن المكان الذي تركوه في الأسبوع المنصرم. كان سبارو يعرف شيللر بوصفه كاتباً ألمانياً يحبه فيردي حبّاً جمّاً، استخدم برامز قصيدته في أغنية جنائزية:

حتى الجميل يجب أن يموت!
انظروا! الآلهة تبكي، كل الآلهات تنشج

---

1 – كانغ يوويوي Kang Youwei (1858 – 1927): عالِم، وخطاط مشهور ومفكر سياسي بارز ومصلح صيني في أواخر عصر سلالة كينغ الحاكمة. قاد الحركات الساعية إلى تأسيس حكومة مَلَكية دستورية. فضلاً عن ذلك، كان صينياً قومياً وعالمياً متحمساً – م.

لأن الجميل يفنى، لأن الكمال يموت
حتى لو كان أغنية نواح على شفاه الأحبة فهو شيء رائع...[1]

قال سان لِي: «أسرع، الجاسوس يغلبه النعاس!».

«شجرة بتولا، الراتينجية، حور جميلة»[2]، بدأت لينغ، «حين ترتفع بنحافةٍ إلى الأعلى؛ شجرة سنديان، حين تنمو وتصبح معقوفة؛ السبب هو، لأن الأخيرة، تُترك لها الحرية، تحب المسار المعقوف، السابقة على العكس، تحب المسار المباشر... أيّ شجرة يودُّ الرسام أكثر أن يفتش عنها، من أجل أن يوظفها في منظر طبيعي؟ يقيناً تلك الشجرة، التي تستفيد من الحرية، مع أنّها، بشيءٍ من الجرأة، تغامر بشيءٍ ما، تتخطى النظام، حتى إذا كان يجب أن تسبب هنا ثغرةً، وهناك تفسد نظام شيء ما عبر تصادمها العاصف».

قرأتْ طول ثلاثين، أربعين دقيقة، وكل كلمة من الكلمات كانت مميزةً. حين أغلقت الكتاب، سألتْها الجدة ما إذا كانت ترغب بأن تأخذ الكتاب معها وتعمل نسخةً جديدة منه.

«لقد نسختُ سابقاً *[تربيتي]* والقسم ارتاب في الأمر. أعطه إلى سان لِي».

أعقب ذلك مرح عام. «في المرة الأخيرة، لصق الصفحات كلها بعصير فاكهة -»، «عثرت لينغ على عظم سمكة، أليس كذلك؟»، «عظم دجاجة». «أودّ أن أترك شيئاً ما لكم جميعاً». «إنها [الثورة المستديمة] لعشاء سان لِي».

---

1 - «حتى الجميل يجب أن يموت...»: اقتباس من فريدريك شيللر، كما أورده جان سوافورد في *«يوهانس برامز: سيرة ذاتية»* (نيويورك: كنوبف، 2012): 463 - ك.

2 - «شجرة بتولا، الراتينجية، حور جميلة...»: اقتباس من مقطع رسالة شيللر إلى كونر المؤرخة في 23 شباط «فبراير»، 1793، المعنونة: «حرية المظهر متوحدة ومنسجمة مع الجمال». هذه الترجمة مأخوذة من فريدريك شيللر، شاعر الحرية، المجلد الثاني: معهد شيللر، واشنطن دي. سي.، 1988 الصفحات 512 - 519. انظر: http: / /www.schillerinstitute.org /transl /trans_schil_essay.html - ك.

حين خفّتْ موجة الضحك ولم يتكلمْ أحدٌ مع شيللر، رفع سبارو صوته قائلاً: «سأقوم أنا بذلك».

«حسناً، حسناً»، قالت لينغ. «جاسوس مولع بالكتب والمطالعة! كان من حق كاي أن يُخدع».

«جهزه الأسبوع القادم»، أخبرته أولد كات عبر الضحكات المبعثرة. «ولا تأكلْ في أثناء مطالعته».

«خذْ هذا الكتاب، أيضاً»، قال سان لِي. «*[دميتري شوستاكوفيتش]*. مُترجَم عن الروسية. إنه كتاب تقني جدّاً بالنسبة لنا».

وافق سبارو.

في العتمة، كان مذيع الراديو يكرر الكلمات المألوفة: «*أولئك الذين يمثلون البورجوازية*[1] *ممَّن تسللوا خفيةً إلى الحزب، الحكومة، الجيش، والميادين الثقافية المتنوعة هم مجموعةٌ من التعديليين المناوئين للثورة...*»[2].

***

طاسات من الجوز ودورق من الرز مُرِّرتْ من يدٍ إلى يد. كان الجنتلمان الأكبر سنّاً قد اقترح شرب نخب «بحيرات من الخمر وغابات من اللحم!» وحين رفع الجميع كؤوسهم، انطفأت الشمعة الوحيدة. بدأتْ لينغ تتمتم بأغنية لم يستطعْ أن يدرك ماهيتها.

«ابني»[3]، قال الرجل الأكبر سنّاً، وهو يلتفت إلى كاي، «مرتْ أسابيع

---

1 – «أولئك الذين يمثلون البورجوازية ممَّن تسللوا خفيةً إلى الحزب...»: اقتباس من ماو تسي تونغ: «دوّار 16 أيار [مايو]»، كما ورد في كتاب ميخائيل لينج المعنون «ماو» (لندن: روتليج، 2004): 181 – ك.

2 – التعديليين revisionists: أصحاب التعديلية. وهي حركة في الاشتراكية الماركسية الثورية تؤيد الأخذ بالتطور – م.

3 – استخدمت الكاتبة تعبير: my boy؛ آثرنا أن نترجمه كما في أعلاه، لأن ترجمته الحرفية غير مألوفة في لغتنا – م.

منذ أن رأيتكَ آخر مرة. البيانو في بيتي كساه الغبار، ولينغ تقول إنكَ لم تعدْ تزورها».

«لماذا، شاهدتُها أمس»، قال كاي ضاحكاً، «لكنني سآتي في الغد، بروفيسور».

كان الخمر قد نفذ إلى كل ثنايا أطراف سبارو، وبدا البروفيسور بديناً مثل بالون عائم فيما هو ينحرف جانباً في جلسته. *«بعضهم كنا قد ساعدناهم في محنتهم»*، هتف الراديو، *«في حين إن البعض الآخر لم يسبقْ لنا أن ساعدناهم! بعضهم لا يزالون ينالون ثقتنا ويجري تدريبهم كونهم اللاحقين خاصتنا...»*.

بقلق، التفت البروفيسور إلى سبارو. «سمعتُ كثيراً جداً عنكَ، رفيق. إذا جاز لي القول، *[اللحن الثماني الوتري]* من تأليفك هي مقطوعتي الموسيقية الأثيرة. إنه لشرف كبير أن أتعرّف عليك أخيراً». من حولهما، كان الحوار قد تشظى إلى قطع أصغر. غمغم البروفيسور بأغنية: «ياسمين»، وهذه الأغنية أعادتْ سبارو إلى جايخانات أعوام يفاعته. أفضى سبارو بسرِّه قائلاً له إنه سافر في طول البلاد وعرضها وهو ينشد هذه الأغنية بحدّ ذاتها.

«في عز شبابي»، قال البروفيسور، «أنا، بدوري، سافرتُ كثيراً. كنتُ مجنداً إلزامياً من [كيومنتانغ][1]. لحسن الحظ، تمكنتُ من الهرب والعبور إلى [الجيش الشيوعي]. كان ذلك شيئاً مروِّعاً. القتال، أعني. لكننا صنعنا هذا البلد». توقف هنيهةً عن الكلام، ضرب ركبته برقة مرتين محدثاً صوتاً مكتوماً وقال: «في ما بعد، وصلتُ إلى احتفال النصر في مسقط رأسي، لمجرد أن يخبروني... حين دخل اليابانيون مدينتي، توارتْ زوجتي عن الأنظار. حدثتُ نفسي قائلاً، عدد غفير من الناس يجري نقلهم إلى أمكنة أخرى خلال العدوان. إذا كانت الآلهة تشاهد،

1 - الكيومنتانغ Kuomintang: الحزب القومي الصيني. وهو حزب سياسي رئيس في جمهورية الصين. هو الآن أكبر حزب معارض في الصين - م.

يقيناً سأعثر عليها من جديد». كان البروفيسور قد ذهب إلى شنغهاي كي يعطي الدروس في التاريخ والفلسفة الغربية في «جامعة جياوتونغ». كتبنا مليئة بالقصص المتعلقة بالهوية، التي أُسيء فهمها، بالحب المنحوس، بسنوات الهجر والفراق. هل تعرف الأغنية الكلاسيكية، [القصر البعيد] جيداً، عليك، بالطبع. لا يمكنني أن أسمعها من دون أن يخطر ببالي أن محبوبتي رجعتْ إليّ أخيراً. مرّتْ عشرون سنة منذ أن رأيتها آخر مرة، إنما في ذهني لا تزال هي كما عهدتُها بالضبط».

«قلْ له كيف أتيتُ لأقيم معكَ»، قال كاي. كان صوته ناعماً. في العتمة، كان المكان قريباً جداً بنحوٍ غير متوقع.

«آه»، قال البروفيسور. «حسناً في العام 1960، عرفتُ أن ابن أخ زوجتي لديه موهبة موسيقية. رتبتُ قبولاً له في المدرسة التمهيدية التابعة لـ [المعهد العالي للموسيقى] في شنغهاي –».

«أنتَ حرّكتَ السماء والأرض معاً»، قال كاي.

«طيب. حاربتُ بجرأة في الحرب. كما قلتُ آنفاً، كان الناس يحدثونني بإسهاب إلى درجة الإملال في ذلك الحين. على كل حال، هكذا وصل جيانغ كاي إلى شنغهاي. كان عمره آنئذٍ أحد عشر عاماً، كان ذلك غبَّ [ثلاثة أعوام من الكارثة][1]... إنني أخبرك، كانت تلك أول إشارة لي للكارثة التي كانت تجري هناك. كان لدينا شحّ في أشياء كثيرة في شنغهاي، بالطبع، إنما لا شيءَ مثل الريف...». تحرّكَ البروفيسور باتجاه النافذة. «أقبل كاي كي يقيم معي وفي منزلي، كانت هناك موسيقى على حين غرة. كنتُ أعطي دروساً خصوصية لـ لينغ يومئذٍ، وكان من دأبه أن يلاحقها حيثما مضتْ. كانا لا يفترقان».

---

1 – ثلاثة أعوام من الكارثة Three Years of Catastrophe: تُسمى أيضاً: المجاعة الصينية الكبرى. وقد حصلتْ هذه المجاعة خلال الأعوام 1959، 1960، 1961 بسبب الجفاف والطقس السيّئ وسياسة الحاكم ماو تسي تونغ. يُقدر عدد الأموات خلال هذه المجاعة بعشرات الملايين من البشر – م.

تناول الـ إيرهو وحملها كما لو أنّ هذه الآلة الموسيقية يمكنها أن تحل ارتباكاً ما في عقله. عزف البروفيسور الأنغام الافتتاحية لـ «القصر البعيد»، ومن ثم ابتسم بندم لـ سبارو. وضع قوس الكمان على الأرض.

في الغرفة، بات الحوار داخليّاً. كانتْ لينغ تقول: «لكن مَن يحب الثورة أكثر منا نحن؟ مَن يموت من أجلها؟ أنا أموت من أجلها. لماذا لا يتسنى لي أن أنتقد السياسات طالما أنهم لا يزالون يعتبرونني مُصلِحةً في إطار الحزب؟ لماذا يصرّ الحزب على الاعتقاد بأن النقد يأتي فقط من الأعداء الطبقيين؟».

«لكن [الثورة الثقافية]، الحملة الجديدة، تتعلق باستجواب الطرائق القديمة في إنجاز الأشياء»، قال كاي. «كي نجدد أنفسنا».

كان ردّ سان لِي قاطعاً وحاسماً، حين قال: «لا تكنْ ساذجاً. إن انتقادها مقبول على طول الخط ويصحح المسارات».

قاطعته لينغ قائلةً: «كل وحدة عمل كان يجب أن تسلّم نسبةً مئويةً معينةً من اليمينيين، إلّا أنَّ هذا ضربٌ من الجنون، أليس كذلك؟ أم إنه، ربما، نوعٌ من العبقرية. في كلتا الحالتين، إنه شيء منظم تماماً».

استمر الكلام بصوت خفيض، ولم يجدوا لهم منفذاً أو فكرةً يمكن أن يؤيدها الجميع.

أفكار سبارو حرَّرها الخمر من القيود فانحرفتْ. في ظلّ صوت الراديو والأصوات الأخرى، أحس بأنه مخفيّ، كما لو أنّه كان جاسوساً بالفعل. في الغد سوف يصل إلى مكتبه في «المعهد العالي للموسيقى» ويواصل سيمفونيته. الجدران الأربعة البيض، طاولة المكتب الصقيلة والفضاء المفتوح في ذهنه، هل يمكنها هكذا أن توفر له حياةً تُسمى: الحرية؟ كان يرهف السمع لـ باخ مجدداً. كيف قُيِّض لمؤلفٍ موسيقي من [الغرب] أن يبتعد عمّا هو خطيّ ويجد صوته في ما هو حَلَقي، في

الـ canons [1] وفي الـ fugues [2]، التي كان باخ يشير إليها باعتبارها زمن الله وفي ما رآه علماء «سونغ» و«تانغ» الغابرتين بوصفها تكرارات مستمرة للماضي، دوران عجلة تاريخه؟ الحملات، الثورات بحدّ ذاتها، وصلتْ بهيئة موجات، تنتهي لتعاود البدء من جديد. هل كان بمقدور قيود باخ أن تخلق ضرباً آخر من الحرية؟ هل بمستطاع غياب الحرية أن يكشف حدود حيواتهم، موتهم، مصيرهم؟ ماذا لو تبيّن أن الحياة والمصير هما الشيء عينه؟ صرف هذه الفكرة عن باله. كان الخمر قد جعله ليناً. يتعيَّن عليه أن ينهض حالاً، يجد دراجته ويقودها في اتجاه البيت، ويتحتَّم على قدميه وساقيه أن تدور حتى وصوله إلى المنزل. هذه الحجرة، حدّث نفسه، شيء شاذّ، لعلها واحدة من أشياء شاذّة كثيرة: زوايا المدينة التي لم تُشذبْ وتُصقلْ بعد. كان يجب على تسهولي أن تفهم، غريزيّاً، ما كان يزعجه، كان يتحتَّم عليها أن ترى كيف كان البروفيسور وأصدقاؤه يرغبون بمغادرة فضائهم المخصص لهم وأن يسيروا نحو وسط خشبة المسرح.[3] إلاّ أنَّ جلَّ ما يبتغيه سبارو هو الوقت الكافي لأن يجلس في حجرته ويكتب، كان يرغب بأن يدوّن موسيقاه التي كانت تنداح، من دون توقف، بلا نهاية، من فكره.

التقطتْ ذه أولد كات الكتاب المتبقي، فتحته حتى النصف تقريباً

---

1 - الـ canons جمع canon: التأليف الموسيقي الطباقي، أو جزء من مؤلّف موسيقي وفيه اللحن الذي يعطيه صوتٌ واحد (أو آلة واحدة) يكرره صوت واحد أو أصوات أخرى (أو آلات موسيقية أخرى)، كل واحد منها يدخل قبل أن ينتهي الصوت السابق، وهكذا تتداخل النتائج. تكون طبقات الأصوات فيها متشابهة - م.

2 - الـ fugues جمع fugue: نوع من التأليف الموسيقي الطباقي «مزج الألحان»، لعددٍ معيَّن من الأدوار أو «الأصوات» (سواء كانت أصوات أشخاص أم أصوات آلات موسيقية). إن السمة الرئيسة لـ الـ fugue هو الدخول المتعاقب للأصوات كلها وتقليد كل واحد منها الآخر. تكون طبقات الأصوات فيها غير متشابهة - م.

3 - «مغادرة فضائهم المخصص لهم وأن يسيروا نحو وسط خشبة المسرح»: اقتباس محوّر من جوناثان دي. سبنس: *«بوابة السُّلَم السماوي»* (لندن: فير وفير، 1982): 22 - ك.

وشرعتْ تقرأ بنكد. كانت نبرة صوتها قد ذكّرته، بألم مفاجئ، بأمّه. كانت القصة مألوفةً بالنسبة لـ سبارو مع أنّه لم يحدثْ أن صادف هذا الكتاب من قبل.

شرعتْ تقرأ: «ابتسم الجدّ بتعاطف، لكنه لم يخبرْ كيوكيوي Cuicui بما حصل في ليلة أمس. فكر في نفسه: [ليتكَ تستمر بالحلم إلى الأبد. بعض الأشخاص يصبحون بمنصب رئيس وزراء في أحلامهم.]».

***

أُفرغتْ زجاجات الخمر وجُمعت الكتب ووضعتْ جانباً. كي لا يثيروا الانتباه، غادروا المكان في أوقات متفاوتة: ذه أولد كات ولينغ، أعقبهما سان لِي وسبارو وفي النهاية البروفيسور. كاي، الذي كان يستند على الحائط القريب من الباب، مسَّ ذراع سبارو بخفة فيما كان يمرّ متجهاً إلى الخارج. في الرواق، وقف سبارو يصغي، إنما بدلاً من البروفيسور أو كاي، كل ما سمعه هو المطالبات الصاخبة المحاربة الآتية من الراديو، من سائر الراديوات الموجودة في المبنى. المدينة بأسرها، أدرك سبارو، سوف تغدو صماء حالاً، وسوف تكون هذه هي نهاية مسيرته الموسيقية.

كان يودُّ لو أنّ أسبوعاً مرَّ، وأنه، في هذه اللحظة تحديداً، يرجع إلى درجات السلّم الإسمنتية المؤدية إلى غرفة كاي. ليته الآن يرفع يده كي يقرع الباب، ينتظر ريثما يُسمح له بالدخول. عوضاً عن المغادرة ربما، في هذه اللحظة، يكون قد وصل.

***

في ساعةٍ مبكرة من صباح اليوم التالي، حين دخلتْ تسهولي الغرفة 103، *تزيغاني* أصبحتْ تنتمي لـ شنغهاي وحدها، أصبحتْ *تزيغاني* كلَّ عالَمِها، باتت تطوّقها. بعد ساعاتٍ عدة، ظهرتْ مقهورةً ومكهرَبةً. كانت السماء زرقاء – رمادية كما لو أنّها ابتلعتْ ستر «جمع سترة» ماو الموجودة في المدينة. سمعتْ رافِل «*تزيغاني*»، بروكوفيف «سوناتا

للكمان الأحادي رقم 4» وباخ «Partita [1] لكمان أحادي رقم 2»، كل واحد من هذه المقطوعات الموسيقية على قناة تلفزيونية منفصلة كما لو أنها واقفة بين ثلاث قاعات موسيقية. في «طريق جولو»، بدا راكبو الدراجات الهوائية كأنهم تفرّعوا من الموسيقى نفسها؛ اختفوا في ضباب أشعة شمس تموز «يوليو». سارتْ شرقاً في اتجاه «طريق تشانغ دي» واتجهتْ غرباً من جديد. كان هناك رتل من عربات تجرها أحصنة بثلاثة دواليب، محمّلة ببراميل النفط، تصدر صريراً متجهةً شمالاً وكان آخذو الرحلات اليومية بين المدينة والضواحي يتوزعون حولها مثل مياه ضحلة تحوي سمكاً، سراويلهم ترفرف. تباطأ الزمن.

صاحتْ عليها امرأة كي تتنحى عن طريقها وشاحنة ذات صندوق مسطح، مغطاة بالوحل، كادتْ تصرعها فيما كانت الشاحنة تندفع مسرعةً بمحاذاتها. «هل أنتِ صماء؟» هتف غلام صغير. كان يحمل عصا من دون سبب. ركض مع سلاحه. «آنسة رأسمالية!» بصقتْ عليها امرأة، لكن حين التفتتْ تسهولي كي تنظر، كانت المرأة قد اختفتْ. مشتْ ومشتْ إلى أن وجدتْ نفسها قد رجعتْ مجدداً إلى «المعهد العالي للموسيقى». كان الفناء والمبنى مهجورين، كما لو أنّ «مهرجان الربيع» والموسيقيين كافةً مضوا إلى منازلهم كي يستمتعوا بعطلهم.

كان وقع أقدامها يتردد صداه بعصبية في الأروقة الخالية. صعدتْ إلى مكتب سبارو، لكنها حين طرقت الباب، لم يردّ أحد.

في الطابق الثالث، صفها، صف الأوركسترا، بدا كأنه أُلغي. من بين خمسين طالباً وطالبة، ستة فقط كانوا حاضرين هناك. لم يرفعْ أحد عينيه حين دخلتْ. البروفيسور، المعروف باسم «غو سلو»[2] لم يكنْ هناك.

---

1 - Partita: في القرنين السادس عشر والسابع عشر استخدم هذا الاسم للإشارة إلى مقطوعة موسيقية تُعزف على آلة موسيقية واحدة. إلّا أنَّ يوهان كوهنو وخلفه باخ استخدما الاسم للإشارة إلى مجموعة من المقطوعات الموسيقية - م.

2 - غو سلو Go Slow: وتعني: سِرْ ببطء - م.

في النهاية خرج الطلبة الخمسة الآخرون وراحوا يتسكعون. الحجرة الخالية الآن بدتْ كأنها تضايقها وتطوّقها. تفتيش من دون هدف معيَّن لحقيبتها المدرسية كشف عن نسخة من كونشيرتو «الإمبراطور» لـ بيتهوفن، كانت قد استعارتها من المكتبة قبل بضعة أيام خلتْ وكانت تحملها في حقيبتها المدرسية من دون أن تعرف ذلك. فتحتها تسهولي قبالة ست طاولات كتابة. كانت النسخة وسخةً، ملطخة بعلامات قلم رصاص وغبار ممّاحة. كانت تعرف أن بيتهوفن لم يكنْ ينوي أن يمنح هذا الكونشيرتو اسماً إقطاعيّاً جدّاً مثل اسم «الإمبراطور». كان الاسم قد ألصق نفسه بعد وفاته بزمنٍ طويل. تابعت البيانو الوحيد عبر ارتفاعاته وانحداراته السريعة، وفي حركته الثانية، حلم B major [1] وحزن ممتد مثل أكورديون ورقي.

إذا كان هناك فعلاً إمبراطور في الكونشيرتو، استنتجتْ، فهو ليس ملكاً على الإطلاق، إنما رجلٌ يحمل أمنيات بالعظمة، إمبراطور في ذهنه هو، طفل تخيل ذات مرة حياةً مختلفةً لكنه جاء ليرى الفصل بين ما كان يطمح إليه وما كان قادراً على أن يكونه. في العام 1811، حين كان بيتهوفن أصمّ تماماً تقريباً، عزف كونشيرتو البيانو هذا، إلّا أنَّ الموسيقى التي سمعها المؤلف الموسيقي في رأسه عجزتْ عن هزّ مشاعر مستمعيه. كان الأداء كارثة وحتى وفاته، لم يعزفْ بيتهوفن من جديد إلّا لماماً. إنما ما هو الأهم في تلك اللحظة، تساءلتْ تسهولي: أهو الكونشيرتو الذي في ذهنه أم ذاك الذي عزفه لمستمعيه؟ ما هو الأهم في تلك اللحظة: هل هي الكلمات الموجودة على الملصقات أم حيوات - أبويها، حياة الأب لوت وسبارو - في خضم الحرمان المؤقت، الوعد الكامن في فكر ماو تسي تونغ أم الواقع اليومي لـ «الصين الجديدة»؟ مَن الذي سيفوز في نهاية الأمر: شنغهاي اليوتوبيا، أم مدينة الواقع؟

سمعتْ صياحاً. «يسقط! يسقط! يسقط!» كانوا ينشدون. وقع أقدام

---

1 - الـ B major: وتعني على درجة الـ سي ميجور، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي - م.

رعدتْ في حجرات الدراسة وبيوت السلالم. تحطمتْ قطع أثاث فوق رأسها. سمعتْ تسهولي التشوش الغريب لأنغام البيانو، سمعتْ طرقاً وضحكاً ومن ثم، بنحوٍ جلي، رائحة نار. دست الأسطوانة في حقيبتها، مضتْ من الباب الجانبي وبلغت الفناء، وغذتْ خطواتها صوب المنزل.

***

في تلك الليلة، أخبرها الأب لوت أنه يلزمها أن تقص شعرها، ذلك أن الضفيرة الطويلة التي كانت تنزلق على أسفل ظهرها هي رمز الغرور. «قصيه عند ذقنكِ بالضبط»، قال زوج خالتها. «لماذا لا تجعلين تسريحة شعركِ كشعر الفتيات الأخريات؟». أحسَّتْ تسهولي برعدة خوف، لكنها وافقتْ. «ها أنا ذا أقصه لكِ»، قال بلهفة. مقص علاه الصدأ، كان يُستعمل عادةً لقص الدجاج، كان موضوعاً أصلاً على المنضدة. «لا، زوج خالتي»، قالت. «إنها مشكلة كبيرة جدّاً. سأطلب من أمي أن تقصه لي».

«أملِ! لكن أين هي؟ ليس لديَّ أيّ فكرة أين ذهبتا هاتان الاثنتان! ليس هناك رسالة خطية أو نصية».

«سأنتظر إذن».

«اليوم، تسهولي الصغيرة. علينا أن نفعل ذلك اليوم».

كان قد فقد من وزنه وبدا واقفاً بشكلٍ معقوف. كان حذاؤه المصنوع من القش يُحدث ضجة كشط ضعيفةً على البلاط.

«سأفعل، زوج خالتي».

حين تقهقر، رأتْ نسخة أمها من «كتاب السجلات التاريخية» على كرسي بجانب الضرم، كما لو أنّ الأب لوت كان يروم حرقها. التقطتْ تسهولي الصندوق الكارتوني وحملته إلى حجرتها. على الفراش، رفعت الغطاء. لم يكنْ بوسعها أن تمنع نفسها من سحب دفتر ملاحظات بنحوٍ عشوائي وأن تفتحه. كان خط وِين الحالم المُتقن والمتقد أيضاً قد هزَّ مشاعرها من جديد. بدا كما لو أنّ أبويها استراحا بين يديها، كأن

الرواية لم تكنْ قط مرآةً للماضي، بل مرآة للحاضر. ماذا لو أنّ دا – وِي وميّ فورث، اللذين افترقا سنواتٍ طويلةً جدّاً، لا يزالان يهيمان على وجهيهما كمنفيين، ولهذا السبب لا يمكن أن تنتهي الرواية؟ مفتقدةً أبويها، تابعتْ كتابة يد أبيها حتى أسفل الصفحة. في القصة، كان دا – وِي يرقد يقظاً في مهجعه في نيويورك فيما كان الجاز والتهويدات الألمانية تندفع إلى الأمام عبر الحجرات، كان الرجال يتناقشون والنساء يؤدين الأعمال الشاقة، بكى طفل بإنكليزيته المكتشفة حديثاً، الجديدة على دا – وِي أيضاً، وكان يتعجب من كل شيء ربما يفهمه في يومٍ ما. شهراً بعد شهر، عمل في مهنٍ غريبة. كان يصلح باستمرار قبعته وسترته المبطنة، معتقداً أنه حالاً، غداً، سوف تُكتشف حياته من جديد. وحيداً، ضجراً، نسخ صفحات من «رحلات لاو كان»[1]، الكتاب الوحيد الذي حمله من الصين حتى الآن، في يومٍ ربيعي كئيب، نفد ما لديه من ورق. جلس ينعم النظر في الجمال المكينَ لـ «نهر هدسون»[2]، متذكراً فقرةً من مقالةٍ ذائعة الصيت لـ لو كسون[3]:

«ما فائدة نسخ تلك؟». سأله صديق لو كسون.

«ما من فائدة».

«في هذه الحالة، ما سبب نسخك لها؟».

«ما من سبب».

---

1 – رحلات لاو كان: رواية من تأليف ليو إي،(1857 – 1909) Liu E، كتبها في العام 1903 – 1904، ونُشرتْ في العام 1907. تُعتبر الرواية هجاءً اجتماعياً، وتُظهر حدود النخبة القديمة وطبقة الموظفين، حققتْ نجاحاً فورياً حال صدورها. تُعدّ نظرةً عميقة في الحياة اليومية للمجتمع الريفي في أواخر عهد سلالة كينغ الحاكمة – م.

2 – نهر هدسون: نهر بطول 507 كم، يجري من الشمال إلى الجنوب بشكل رئيس في شرق نيويورك، الولايات المتحدة – م.

3 – لو كسون Lu Xun (1881 – 1936): شخصية بارزة في الأدب الصيني الحديث. وهو كاتب قصة قصيرة، محرر، مترجم، ناقد أدبي، كاتب مقالات، شاعر ومصمم. في ثلاثينيات القرن العشرين أصبح الرئيس الشرفي لـ «عصبة كتاب الجناح اليساري في شنغهاي» – م.

ما الهدف، دا - وِي سأل نفسه أخيراً، وراء نسخ حياةٍ ما بينما هو يمسح نفسه؟

حين استيقظتْ تسهولي من نومها، كانت وحيدةً وفي شنغهاي مرةً أخرى. كان الوقت صباحاً لكن العتمة لا تزال سائدة وأحسَّتْ براحة استثنائية، بإرادةٍ هادئة كي تستسلم لقدر حياتها. رنَّتْ في رأسها «*سوناتا الكمان رقم 2*» لـ بروكوفييف كما لو أنّها كانت تتمرن عليها في نومها. أعادت الفصل 16 إلى «كتاب السجلات التاريخية»، وخبأت الصندوق الكارتوني تحت سريرها. في المطبخ، شاهدتْ مقص الدجاج على المنضدة ووضعته في حقيبتها. في الخارج، كان الهواء بارداً بنحوٍ مذهل. شعرتْ أن الجميع صاحون إنما لم يتكلمْ أحد؛ كانت مصاريع النوافذ مغلقةً، لكن الجيران جميعاً كانوا يراقبون. المقص جعلها تشعر بالقوة وأن تتأهب لكل الاحتمالات. مرتْ بحائطٍ مكسوّ بكتابة يد متدفقة بنحوٍ دقيقٍ جدّاً:

> **إذا كان الأب بطلاً، سيكون الابن هكذا! إذا كان الأب مناهضاً للثورة، لا بدَّ أن يكون الابن لقيطاً! من تحت الأرض أخرجوا أولاد اليمينيين، ممثلي الطبقة الرأسمالية في كنف المجتمع الشيوعي والذين يتظاهرون بتبني الاشتراكية، والمناهضين للثورة، من تحت الأرض أخرجوا أفاعي النظام القديم! يعيش الرئيس ماو، تعيش دكتاتورية البروليتاريا، تعيش الثورة الثقافية البروليتارية العظيمة!**

استمر بروكوفييف، الحركة الثالثة الآن، بمداها الشاعري، الكمان يتأرجح على أنغام متنافرة بينما كانت الأوركسترا مستمرة في عزفها، غافلةً. كان بروكوفيف ضجراً من الحياة، جَدّاً[1] مشاكساً يمشي متثاقلاً أمامها، عازف بيانو موهوباً، كانت سوناتاته تُغنى كما لو كانت مكتوبةً للكمان. بعد عودته من جولةٍ قام بها في العام 1938، صودر جواز سفره. في الحملات التالية، كانت موسيقاه أُدينتْ من المكتب السياسي

---

1 - الجدّ: والد الأب، أو الأم: بالإنكليزية: grandfather - م.

«Politburo»[1] التابع للحزب الشيوعي السوفييتي باعتبارها شكلانية، بورجوازية ومناهضة للثورة ولم يؤلفْ أبداً أيّ مقطوعة موسيقية ثانيةً. أخبرها سبارو أنه حين توفي بروكوفييف، في العام 1953، لم تكنْ هنالك زهور لأن جميع زهور المدينة وُضعتْ في باقات لمناسبة وفاة ستالين، التي حصلتْ قبل وفاة بروكوفييف بأيام قلائل. تعيَّن على الناس أن يصنعوا أزهاراً ورقية بدلاً من الزهور الطبيعية. سمع سبارو من قائد الفرقة الموسيقية، لِي ديلون، الذي كان يدرس في موسكو في ذلك الحين. بسبب جلال وفخامة جنازة ستالين، لم يكنْ هنالك موسيقيون كي يعزفوا لمناسبة رحيل بروكوفييف، ولهذا عزفتْ أسرته تسجيلاً لمارش الجنازة من *«روميو وجولييت»*. الصفحات الـ 115 الأولى من الجريدة كانت تحمل تقديراً وإجلالاً لـ ستالين؛ في الصفحة 116، كانت هنالك إشارة صغيرة تتعلق بوفاة المؤلف الموسيقي العظيم.

كانت ضفيرتها الطويلة تلامس أسفل ظهرها، ضغطٌ كما لو أنّ يد أمها ترشدها عبر الجموع غير المرئية، التي لا تني تراقبها.

***

قبيل الفجر، رفع سبارو عينيه كي يرى شخصاً يقف في مدخل مكتبه. أنزل قلمه الرصاص. دلف كاي إلى الضوء وفضلاً عن ذلك، في اللحظة ذاتها، بدا كأنه يختفي. في بحر أسبوعين فقط، منذ عودتهما إلى المدينة، كان قد فقد شيئاً من وزنه. كان ثمة حيرة وارتباك في عينيه، وظهر أكبر بكثير من أعوامه السبعة عشر. «هل أضايقك، يا مدرّسي».

«ادخلْ».

التفت كاي ونظر من فوق كتفه. تراجع إلى الوراء، وصل إلى الباب وأغلقه، وأرسلتْ قرقعة القفل قشعريرةً في جذع سبارو. هبَّ واقفاً وأشغل نفسه بالترمس. كانت أكواب الشاي قد قعقعتْ باعتدال على

1 - الـ Politburo: هو المكتب السياسي أو اللجنة التنفيذية التابعة للأحزاب الشيوعية - م.

المنضدة وجلس كاي على كرسي أولد وو. لم يظهرْ أولد وو في المكتب منذ شهر في الأقل وطاولة الكتابة خاصته كانت مكسوةً بطبقةٍ من الغبار.

«أنتَ لم تحضرْ إلى الصف أمس؟» قال سبارو.

«هل حضر أحد من الطلبة؟».

رفع الأكواب والتفت إلى كاي. «حضر طالبان».

«دعني أخمن»، قال كاي، وهو يبتسم بطريقةٍ بغيضة. «هل كان -».

«لا، لا تخمنْ. هذا ليس مهمّاً. قلْ لي كيف حالك. لم أركَ منذ... طيب، منذ ليال قليلة خلت».

«إنني على ما يرام»، قال كاي. «ألا أبدو كذلك؟» تبسّم مجدداً، إنما بسمته هذه المرة أكثر دفئاً، وكانت موجهة إلى سبارو. «مدرّسي»، قال. بعدها، وهو يبدأ كلامه ثانيةً، «رفيق، يجب أن تكون أنتَ الوحيد في المبنى. أنتَ لا تنعم بالراحة، صحيح؟».

«تسهولي ليستْ هنا، صحيح؟».

«كم الوقت الآن؟» قال بذهول، وهو ينهض ويأتي إلى الموضع الذي وُجد فيه سبارو. «ما يقارب الرابعة، على ما أعتقد».

«أحسن وقت لتأليف الموسيقى. إنه أشبه بعالم آخر».

أخذ كاي الشاي وحدّق عبر النافذة.

حين لاحقه سبارو بنظراته، لم يرَ سوى الظلام. أنا مدرّس، الابن الأكبر لبطل ثوري، كلّم سبارو نفسه، وما من سبب يجعلني أخاف. «هل ثمة شيء يقلقكَ؟» سأله.

«كلا»، أجاب كاي، ومن ثم، أضاف قائلاً بمزيدٍ من الثقة بالنفس: «لا، لا أعتقد هذا. هذي الليلة هادئة». تزحزح من مكانه وانتبه سبارو إلى عصابة الذراع على كُم عازف البيانو.

«هل انضممتَ إلى [الحرس الأحمر] إذن»، قال له وهو يمسّ قطعة القماش الحمراء.

«انضممتُ؟» قال كاي، ويده تستريح على قفا يد سبارو. كان صوته الرقة بحدّ ذاتها. «إن أشخاصاً من مثلي لن ينخرطوا بعد الآن. نحن [الحرس الأحمر]، هذا هو كل ما في الأمر».

نحن، قصد كاي، كما هو الحال في خلفيات الطبقة الثورية. ولأنه خائف وقلق من الموضوع، فتّش عن موضوعٍ آخر لكنه لم يستطعْ أن يفكر إلّا بـوالد كاي بالتبني وحلمه بجمعية موسيقية عظيمة. «كيف حال البروفيسور فين؟» قال، وهو يسحب يده.

«الحال نفسه»، أجاب كاي. «متفوق وغفور كما هو شأنه دوماً، مع أنّ طلبته في [جياوتونغ] شرعوا يكيلون له التهم. إنه مقتنع بأن هذه الحملة هي صدمة صغيرة، لا أكثر. اتهامات قليلة وبعدها سوف تذهب كلها أدراج الرياح. إنه يستحسن حماستهم الثورية». احتسى كاي شايه وأنزل كوبه من دون ضوضاء. «لعله على حق. هو محقٌّ دوماً».

«هذه الحملة الجديدة بدأتْ توّاً»، قال سبارو.

«يتصور البروفيسور أننا لا نزال في العام 1919 وفي عهد [الثقافة الجديدة]»، قال كاي بمرارة، كما لو أنّه لم يسمعْ ما قاله. «في الحقيقة، يعتقد هو أن بوسعه أن يعقد هذه الحوارات الصريحة كما كانوا يفعلون في ذلك الزمن، بأن كل شيء وأيّ شيء قابل للنقاش. إن منزلته جعلته ساذجاً! أسوأ ما في الأمر أنه جرجر معه سان لي ولينغ. إنهما تابعان مخلصان. إنهما يظنان بنحوٍ خاطئٍ أنه يمتلك إذن الحزب. إذا ما حصل أيّ شيء لـ لينغ لن أغفر له قط».

كان الضوء الوحيد في الغرفة هو ضوء شمعة تخفق بنحوٍ متقطع. لا بدَّ أن هناك تياراً هوائياً، فكر سبارو، وهو يرفع عينيه وينعم النظر في الزوايا المظلمة.

«إنني تقريباً أمتلك تأشيرة خروج»، قال كاي، «لكن أمس... تداعى كل شيء. رتّب لي البروفيسور الأمور كي أدرس في ليبزيغ، كان قد رتّب الأمور من خلال اتصال مع مكتب رئيس الوزراء. إنما تلاشى كل شيء.

لم أخبركَ بذلك لأنه... المسألة لا تكمن في أنني لا أودّ البقاء وخدمة [الثورة]... كنتُ أنتظر إلى أن تكون تأشيرة الخروج في جيبي. إنها مسألة أيام لا غير. تمّت الموافقة على الفيزا في وقتٍ سابق، الخطوات الأخيرة هي محض إجراءات رسمية. لكن الآن... صباح هذا اليوم، الكادر الحزبي الذي وقع أوراقي بُلِّغ عنه. إنهم يقولون إنه سوف يُطرد من الحزب... مدرّسي، ماذا لو أنّ الشك يترشح إلى الأسفل ليصل إلى البروفيسور وإليّ؟ يقول لي البروفيسور أن لا أقلق. إنه يقول إن أشقاءه وزوجته لقوا مصرعهم على أيدي [الكيومنتانغ] واليابانيين. ماتوا بوصفهم أبطالاً ثوريين ولهذا لم يمسسه أحد. إن من حقّه، حقّه، يقول، أن ينتقد الحزب وسياساته بسبب موقف أسرته البطولي. إنه لا يرى شيئاً، لا يسمع شيئاً! حياتي بقضّها وقضيضها هو أن يتمّ نقلي لكن الآن... إن لم يتسنَّ لي الخروج من البلاد، ماذا سيحصل لي؟».

أحجم عازف البيانو عن قول المزيد. وضع يده حول مرفقيه وظلّ جامداً بلا حراك. «يلزمني أن أغادر»، قال، بنحو أهدأ هذه المرة. «أودّ الحصول على بطاقة ما وراء البحار نفسها التي حصل عليها فو تسوأونغ[1] من خلال الإرادة والموهبة فقط. *إنه الشيء الوحيد الذي كنتُ ولا أزال أريد الحصول عليه*».

كم يبدو عازف البيانو الشاب هذا شبيهاً بـتسهولي، فكر سبارو بلامبالاة. كم هو غريب أنه لم ينتبهْ إلى ذلك قط. كانوا يحسبون أن بمستطاعهم بلوغ الأشياء التي وضعها الحزب بعيداً عن متناولهم، أي بمعنى أن يسعوا ويسعوا وأن يمضوا قُدُماً من دون أن تتم معاقبتهم على رغباتهم الجامحة. من أين أتى هذا الطموح الأعمى؟

1 – فو تسوأونغ (من مواليد 1934): عازف بيانو صيني. ولد في شنغهاي. ولد لأسرة من المثقفين (والده المترجم فو لي). في العام 1953 انتقل فو تسوأونغ إلى أوروبا ليكمل تدريبه في «المدرسة الحكومية العالية للموسيقى في وارسو، بولندا». يقيم حالياً في لندن. تعرض والداه للمضايقة إبان «الثورة الثقافية» في الصين، وانتحرا معاً في أيلول (سبتمبر) 1966 – م.

«يلزمكَ أن تتخذ الإجراءات الاحترازية»، قال سبارو. كلماته هو، أذهلته. تساءل: هل أصبح من الطبيعي أن ينطق بكلماتٍ لم تكنْ تناسبه؟

«نعم»، أومأ كاي برأسه، شاعراً بالارتياح. «عليَّ أن أحترس».

«ربما»، استطرد سبارو، «عليكَ أن تذهب إلى قريتك – مسقط رأسك أياماً معدودات. على كل حال، الدروس معلقة. ألم تقلْ إنه يوجد بيانو هناك؟ يمكنك مواصلة التمرّن على العزف. ستكون لك حفلة موسيقية، في غضون بضعة أشهر لا غير».

«أجل»، قال كاي ثانيةً. ومن ثم أضاف قائلاً، بشرود ذهن: «سوف أعزف بيتهوفن، بطبيعة الحال. الكونشيرتو رقم 1 أو، حسناً، لا أدري، رقم 5. كنتُ أفضّل دوماً أعماله الموسيقية المتأخرة. لكن هل تعتقد أن رقم 5 طافحةً جدّاً بالعواطف المشبوبة؟ الحركة الثانية تقلقني». تمتم بفواصل موسيقية قليلة وتوقف، مستغرقاً في التأمل. كان كاي قد قص شعره، كان قصيراً جدّاً الآن، مُبرزاً الخط الجميل لعنقه. تطلع سبارو من الشباك ثانيةً، خائفاً من أن يكون ثمة شخصٌ ما يراقبهما. لم يكنْ هنالك شيء.

«لقد قاطعتكَ»، قال كاي، وهو يدنو منه. بدتْ عيناه متقدتين بنحو يشي بالخطر. «أقبلتُ بكل مشاكلي كالعادة وها أنت ذا، تعمل دوماً، من دون كلل. أنتَ الشخص الوحيد الذي أعرف حبه للموسيقى وشغفه بها خالصان لا تشوبهما شائبة. أنتَ الشخص الوحيد الذي يستحق الذهاب إلى الخارج».

«كلا»، قال سبارو. لم يكنْ يعرف كيف يردّ عليه. «هي ليستْ مقاطعة. في الحقيقة، كنتُ أفكر فيك». كانت سيمفونيته رقم 3 موضوعة على طاولة مكتبه، الحركات الثلاث الأولى مثبتة بلاصقٍ بشكل فظّ تقريباً، بجانب نسخةٍ من الفصل 17 من «كتاب الأسطوانات». كان قلمه الرصاص قد تدحرج من على الطاولة وهو الآن يرقد على البلاط. التقطه سبارو ووضعه بعناية على الصفحات.

«مدرّسي سبارو، نحن نعتمد على بعضنا بعضاً، أليس كذلك؟ مع أنّنا

لا نحكم على الأشياء بالطريقة ذاتها، نحن نفهم بعضنا بعضاً. لا أدري متى بدأتُ أثق بكَ. إنني أعرف أننا متشابهان إلى حدّ التطابق».

تحرك سبارو جانباً، فاتحاً مسافةً بينهما. ظلّ يدور من حوله مرات عدة، انطلاقاً من حيائه وارتباكه.

«إنني أعرف أنني حتماً بدوتُ أنانياً في نظرك»، قال كاي. «إنني أقول بصدق إنني قلِقٌ على البروفيسور. أناس كثيرون جدّاً يحضرون ويخرجون من مكتبه من مجاميع الطلبة الذين يدرّسهم وجميعهم يعرفون وجهات نظره، هو لا يكلّف نفسه عناء إخفائها، إنه يقول أشياء ربما يُساء فهمها وهو يجهل العواقب المترتبة على...».

على سطح طاولة المكتب، كان قلم الرصاص يتدحرج من جانب إلى جانب كما لو في بالوعة رصيف المشاة. وضع سبارو يده كي يمنعه من الحركة. «أودّ أن أسمع تلك المقطوعات الموسيقية التي ذكرتَها»، قال. «مضى زمنٌ طويل جدّاً منذ أن أصغيتُ إليها بشكلٍ مناسب». مضى إلى مسجلة أولد وو وانتقى كونشيرتو البيانو رقم 5 من تأليف بيتهوفن.

ركع، رفع الغطاء البلاستك، وأزاح الأسطوانة عن غطائها. القرص، وهو تسجيل صنعه غلين غولد، بقيادة ليوبولد ستوكويسكي، كان بحالة نموذجية تقريباً. لم ينصتْ إليه منذ مدةٍ معيَّنة.

التقط كاي الفصل 17 وأخذ يطالع الصفحة الأولى.

أنزل سبارو الإبرة بعنايةٍ فائقة كما لو أنّه يضعها على راحة طفل. في مرحلةٍ مبكرةٍ جدّاً، فكر سبارو، كان عقله غير منظم، كان يعرف أنه لن يصبح عازفاً، لم يكنْ يمتلك موهبة التفسير، حتى إذا كان يعزف جيداً بما يكفي. كانت مواهب سبارو ذات مزاج مختلف. كان ثمة موسيقى تثوي في أعماقه، كانت بمثل هذه البساطة، عصيةً على التفسير ومبهجةً. كانت الموسيقى تفيض من كل شيءٍ تقع عليه عيناه. إذا انتهتْ، لن تكون لديه أيّ فكرة كيف سيفهم العالم. بدأت الأسطوانة تدور وكان أول صوت سمعه هو صوت الهواء. كانت هذه حجرة في أميركا، فكر، ربما استديو أو قاعة

موسيقية. ربما، فكر، التكنولوجيا هي التي جعلتْ تسهولي وكاي ساذجين وطموحين، فقد نشآ وهما راكعان أمام آلات التسجيل والراديوات، كانا قد طُمئنا بالاعتقاد القائل إن ليس ثمة حواجز بينهما وبين الصوت نفسه. إن وجود التسجيل في الأمكنة كلها وفي الأوقات كلها جعلهما متماثلين: كانا يسمعان التسجيل نفسه الذي كان يصغي إليه غولد نفسه حين وضع الأسطوانة على مائدة مستديرة، كانا يسمعان ما كان يسمعه الأميركي أو الفرنسي أو الألماني. الجغرافيا، الإثنية أو الشعور القومي لم تكنْ عوامل فاصلة؛ إن درجة استماعك هي التي تجعل تجربتك مستقلةً، إن صلتك الحميمة مع الموسيقى هي الشيء الأهم، يقظتك ورغبتك. لكن ألم يكنْ ذلك صحيحاً؟ ماذا لو كان الفهم الصحيح شيئاً متأصلاً، شيئاً لا يمكنهما أن يبلغاه أبداً؟ بدأت الموسيقى، النغمات المتآلفة البطولية الأولى.

مرتْ عليَّ أيامٌ في حياتي، فكر، تجاوزتها كما لو أنّها لا شيء وثمة لحظات، ثوانٍ، حين يأتي كل شيء إلى بؤرة الضوء.

كان كاي يجلس بجواره الآن، لا يزال ممسكاً بدفتر الملاحظات. كان سبارو قد ألهى نفسه بالتفكير بـباخ. من بين آلاف المقطوعات الموسيقية التي خلفها وراءه، هل سبق لـباخ أن عرف الصمت؟ يقيناً لا. كيف كان بالإمكان بالنسبة لـباخ أن يحسّ بهذا القدر من العواطف ولا يتحاشاها؟ إنما في حياتي، فكر سبارو، أظن أن هدوءاً يحلّ الآن. شعر أنه متأكد من أن ألماً شديداً ينتشر عبر صدره. سكون عميق يهمُّ بالوصول. كيف سيتعايش معه؟

«الرئيس ماو محق»، يقول كاي. «في مكانٍ ما عبر الطريق، آراء الجيل الأقدم سناً باتتْ فاسدةً. إن أناساً من مثل البروفيسور بدؤوا يرغبون بأن يبنوا مجتمعاً عادلاً لكنهم بعدئذٍ أصبحوا مرتاحين. أصبحوا منحطين وشعروا أنهم يئسوا بما يكفي، وأن القواعد تنطبق على الجميع عداهم. ماذا يفترض بنا أن نفعل إذن؟ كل شيء علّموني إياه يناقض نفسه. ربما كانوا يروون الأكاذيب أكثر من الحقيقة».

«ما يريده الحزب يتغير باستمرار»، قال سبارو بهدوء.

«لا أوافق على هذا الرأي. إما أن نتقبل العالم القديم حيث نحن كأمة ضعفاء ومهانون أو نحاول مجدداً ونصنع بلداً أفضل. إني أعرف كيف كان بلداً ظالماً. في بعض الأحيان، أعتقد أنه ليس من حقي أن أكون هنا. إنني أسأل نفسي لماذا أنا وحدي من بين أفراد أسرتي بقيتُ حيّاً... ماذا بشأن شقيقاتي، أبويَّ؟ ألم يكونوا مواطنين عادلين؟... حين يهتز ميزان العدالة، لا يُمكن أن يُترك أيّ فرد في موقعه. أليس الأمر كذلك؟ ألم يكنْ الرئيس ماو قادراً دوماً على أن يرى أبعد مما نقدر على رؤيته؟».

كانا جالسين أقرب ما يمكن من بعضهما من دون أن يتماسّا. الموسيقى ملأت الفضاء الواقع بينهما، أفكارها الرئيسة كانت تتقلّب كما لو أنّ المؤلف الموسيقي ليس لديه خاتمة، لديه فحسب حركات تدور في حلزون، ترتفع في كل مرةٍ إلى مصاف بدايةٍ جديدةٍ لكنها موقع قديم.

«هل هذه رواية؟» سأل كاي، وهو يعيد الفصل 17 إليه.

«إنها قصة كانت موجودة بحوزة أسرتي على مدى أعوام طويلة». كان دفتر الملاحظات متهرئاً جدّاً، وكان وزنه مألوفاً تماماً في يد سبارو.

«أتعتقد أنني أستطيع قراءتها في يومٍ ما؟».

أومأ سبارو برأسه.

استطرد كاي كما لو أنّه يحدّث نفسه. «ليس الآن إنما في يومٍ ما. هذا ما أتمناه. لم أكنْ أحاول مدحكَ، سبارو. إن موهبةً من مثل موهبتك تأتي مرةً واحدةً في جيل واحد. يلزمكَ أن تكمل سيمفونيتك رقم 3، مهما يجري».

في لحظةٍ ما، غلبهما النعاس وناما على البلاط. استيقظ على ثقل ذراع كاي فوقه. كان الطقس حارّاً، وفي وقتٍ ما في أثناء الليل، كان كاي قد خلع قميصه والآن يرقد، نصف عارٍ، بجواره. كم أصبح نحيفاً. كان كاي يمسك به بقوة، فمه على عنق سبارو، أنفاسه هادئة وغير مضطربة، إلّا

أنّه لم يكنْ نائماً. كان سبارو مضطجعاً على ظهره وترك يده تتحرك إلى الأسفل كي تغطي يد كاي. عانقه عازف البيانو، بترددٍ في أول الأمر وفيما بعد بثقةٍ أعظم. لاحقتْ يد سبارو يد كاي واستوطنتْ حرارةٌ لا تُطاق في أعماق بدنه. كانا مضطجعين معاً، خائفين، شبه راغبين بأن يأتي النوم ويأخذهما، ويحررهما من هذا الوجع، من هذا التوق الذي لا يستطيعان أن يطيقاه. تحركا من موقعيهما وأفاقا من النوم وأمسك كل واحد منهما بالآخر، وفي تشنج لمسة كاي، أحسَّ بأنه محبوب مثلما لم يُحب من قبل. كان أول اغتسال بنور الفجر قد وصل من دون أن ينتبه إليه أحد.

***

في مساء ذلك اليوم، كانت مجموعة الدراسة قد اجتمعتْ في شقة ذه أولد كات، الواقعة في زقاق متعرج في الجانب الشمالي الغربي من المدينة. شعر سبارو بالسرور عندما أقبل كاي، عصراً، إلى المنزل الواقع في الزقاق كي يذكّره بالاجتماع. كان قد تعجب حين دعا كاي تسهولي أيضاً، مع أنّه لم يتعجبْ بقدر ما تعجبت ابنة خالته. تسهولي، مخضبة بحمرة الخجل، وافقتْ على حضور الاجتماع.

كانوا آخر الواصلين. كما هو الحال من قبل، كانت المجموعة قد خمنتْ ثيابه («هل زلتْ قدمكَ وسقطتَ في [نهر هوانغبو]؟») وسلوكه («متوتر الأعصاب. كما لو أنّ ثمة أشواكاً في حذائه».) بالنسبة لـ تسهولي، من الناحية الأخرى، كانوا ودودين معها وحتى عائليين. «أهلاً وسهلاً!» صاحتْ ذه أولد كات. «لا حاجةَ لأن تكوني رسميةً جدّاً. فقط سميني أولد كات، الجميع ينادونني بهذا الاسم». حياهما كاي معاً، إلّا أنَّ عينيه ظلتا مثبتتين على تسهولي، التي بدتْ غافلةً عنه. كان قد رفع عصابة الذراع الخاصة بـ «الحرس الأحمر».

«اعتدتُ أن أمتلك مخزن كتب [المرتفعات الخطرة] في [سوتسهو كريك رود]»، قالت ذه أولد كات وهي ترش الشاي في طاسٍ وتنزله بقوة أمام تسهولي. «إنما خلال [الحملة المضادة لليمينيين]، كانت الحكومة

تمنع استخدام العنوانين: اليسار واليمين. كان هنالك شيءٌ كثيرٌ من الإطاحات التي تتواصل باستمرار، لم يكنْ بمستطاعي أن أتحمل ذلك. اللعنة، إنني أبلغ الخمسين من العمر. ذكرى! أطاحوا بي بقوة ولم يكنْ بمقدوري النهوض كرّةً أخرى. وهكذا في العام 1955 أغلقتُ المخزن ونقلتُ كل شيء إلى هنا».

«لكن أن تحتفظي بكتبٍ كثيرةٍ جدّاً...» قالت تسهولي. «ألستِ قلقةً فيما يتصل بالفضوليين؟».

«ماذا يمكنني أن أفعل؟ الصفحات ممتعة. إنني أحتاج إليها كي أجعل الجدران عازلةً للصوت».

صينية من السجائر مُررتْ على الجميع. وبينما كان الدخان يطفو عبر الهواء، توقف الحوار. بدؤوا يركزون.

البروفيسور يقرأ بصوتٍ مرتفع من أكثر الكتب تهرؤاً التي رآها سبارو في حياته كلها. تبيَّن أن الكتاب هو مسرحية، الجزء الأول من ترجمة جيو مورو لـ«*فاوست*». ذاب الزمن. سبارو، الذي كان يعرف فقط أوبرا غونود[1]، شعر في البداية أنه في أرضٍ أليفة، لكنه أدرك لاحقاً أنه لم يقابلْ فاوست هذا البتة. فاوست الألماني يحتك بحالته ويترك فيها التقرحات. فاوست هذا كان يفتش عن الحرية في إطار العقل التي بوسعها أن تمدد روحه بالإضافة إلى ذكائه، بحيث إنّ كليهما يمكنهما أن يبلغا حالتيهما الأكثر سماويةً. لكن ماذا لو كانت حقائق الفكر والروح مختلفةً حصريّاً، بل متنافرةً أيضاً؟ «في داخلي روحان، واحسرتاه، وإن / انقسامهما يمزق حياتي إلى شطرين».

مالتْ تسهولي نحو صوت البروفيسور كما لو أنّها تميل نحو صوت فلوت.

---

1 - تشارلس - فرانسوا غونود (1818 - 1893) Gounod: مؤلف موسيقي فرنسي، اشتهر بعمله Ave Maria المستندة على موسيقى من تأليف باخ، وأوبراه «فاوست»، وأوبرا أخرى تُعزف غالباً؛ هي: «روميو وجولييت» - م.

حين انتهت القراءة، مدّتْ لينغ ذراعيها المحبوبتين عالياً في الهواء وانبرتْ قائلةً: «إنني أفضّل *[آلام الشاب فيرتر]*».

«هذا لأنك شابة رومانسية يائسة»، قالت أولد كات.

«أو لأن الشاب فيرتر يشبه سان لِي ألماني الجنسية»، قال سان لِي.

«في هذه الحالة، أسحب كلامي». حملقتْ فيه لينغ مغضبةً وبعدها حملقتْ في كاي الذي ابتسم لـ سبارو بسمةً عريضةً الذي تورّد خجلاً ونظر إلى غلاية الشاي. من زاوية عينه، رأى سبارو تسهولي تحني رأسها وتبتسم بتهور وهي تدفن نظراتها في برجٍ من الكتب.

ضربتْ ذه أولد كات برفق مخطوطةً موضوعةً بجانب قدم البروفيسور التي انتعلتْ صندلاً. «حين ظهرتْ هذه الترجمة أول مرة، حتى الرئيس ماو مدحها. لكن الحزب انقلب على غيو...».

«إنني أتساءل ما إذا كانت تسهولي على صواب»، قال كاي، مخاطباً ذه أولد كات. «ربما حان الوقت كي نتخلص من هذه الكتب. إنهم يقولون إن [الحملة المضادة لليمينيين] تبدأ من جديد كرّةً أخرى».

«ماذا تعرف عن العام 1955؟ كنتَ في ذلك الحين مجرد عتبة باب خارجي».

«فيما يتصل بهذا الشهر»، قالت لينغ، «خروشوف [شيوعي مُدّعٍ]، السوفييت [أشقاء كبار يؤمنون بروح التطور] وكل المؤلفين الموسيقيين الروس هم في الخارج. هل تخلصتَ من كل سيمفونياتك الخاصة وأصحابك ممَن تنتهي أسماءهم بـ أوفسكي؟».

احمرَّ وجه كاي. «أنا لا أحتفظ بالموسيقى. أنا أحفظ الأسطوانات عن ظهر قلب وأتخلّص منها».

«اللعنة»، قال سان لِي. «إنني حتى لا أقدر أن أتذكّر كيف يمكنني الرجوع إلى المنزل».

ضحك سبارو وشقلب كدسة من الكتب في حضن تسهولي. حاول

أن يقبض على الكتلة الضخمة من الكتب لكنه تسبب بسقوط كدسة أخرى.

أنعمتْ ذه أولد كات النظر في الحطام. «انظروا إلى هذا!» قالت. «ديوان أي – فان [*يبكي على ابنته على مقربة من البحر*]! كنتُ أبحث عن هذه القصائد طوال ثلاثين عاماً»، التقطته تسهولي من الكدسة وسلّمته إليها.

«وماذا عنكَ»، قالت لينغ، وهي تنظر إلى سبارو. «لا تقلْ لي إنك تحفظ كل شيء عن ظهر قلب، أيضاً».

«لا أحفظ... إنني أفضّل، حسناً، إنني أدوّن العمل غير الصحيح في الـ جيانبو». كان قد فعل هذا فيما يتعلق بأعمال ديبوسي، شوينبرغ، بارتوك التي لحق بها العار. المخطوطات المكتوبة بتنويت الـ جيانبو، بأرقامها السهلة القراءة، كانت تُعتبر رجعيةً وبدائيةً. لم تُثر الريبة.

قاطعته تسهولي. «لكن فيما بعد، إنه يدمرها فعلاً. إنه يحرقها ويترك الرماد في دلوٍ صغير».

«هذه مهارة نحن نتقنها في عمرٍ مبكر»، قال البروفيسور باستخفاف. «كيف نطحن الأفكار ونحيلها غيمةً ناعمةً من الغبار».

قاطعه سان لِي. «على مدار أشهر عدة مجموعة الدراسة هذه كانت تقرأ شيللر، غوته، وشين كونغوين[1]. إنني لا أشكو. الحقيقة، بروفيسور، أنني ممتنّ لأن التسلية الأخرى المتعلقة بالعرض تنافي الذوق السليم. لكن ربما آن الأوان كي نبدأ قراءة ما موجود أمامنا حصراً».

سعلتْ ذه أولد كات. «يقيناً لا!».

«ثمة حملة جديدة»، استطرد قائلاً. «أم إننا مفتونون تماماً بجميع الألمان الذين قضوا قبل مئة عام مضى بحيث لا ينتبه أحد؟» رفع نسخة من «*بكين ريفيو*». «على سبيل المثال، لماذا لا ندرس دلو الفضلات هذا الذي كتبه طلبة الفلسفة في [جامعة بكين]؟».

---

1 – شين كونغوين (1902 – 1988): واحد من أكبر الكتاب الصينيين الحديثين – م.

«سان لِي»، قاطعه البروفيسور، «كفى».

رأى سبارو تسهولي وهي تمسك بصندوق كمانها. لاحتْ كأنها ترغب بالمغادرة لكن الكتب التي سقطتْ في حضنها منعتها من ذلك.

«لا، دعنا نحلل هذا»، أصرَّ سان لي. شرع يقرأ:

> أيها المثقفون الثوريون كافة: الآن حان الوقت كي ندخل أتون المعركة! نمحو الأشباح والمسوخ بعزم وتصميم، بشكل شامل، وتام وكامل. قادة «جامعة بكين» يهتفون بشأن «تقوية القيادة» إلّا أنَّ هذا يكشف فقط مَن هم في حقيقة الأمر: إنهم مخربو «الثورة الثقافية». علينا أن نخبركم، إن العنكبوت لا يستطيع إيقاف دولاب عربة يجرها حصان! سوف نظل ندعم الثورة الاشتراكية حتى النهاية![1]

«سوف أخذل هذه الطفلة. *بشكل شامل، وتام وكامل*؟ هل تكتب هي موسوعة؟ لكن بدلاً من أن تُرسل هذه الطالبة إلى صف دراسي بغرض تحسين مهاراتها في التأليف الموسيقي، أُشبع رئيس الجامعة ضرباً. إنني أعني، أنه رجل عجوز وهؤلاء الأطفال كانوا يمسحون البلاط معه بالفعل. الآن الجامعة كلها تحت جزمة [الحرس الأحمر]، وهذا البيان هو [صوت الثورة]».

«ما من حاجة لقراءته بصوتٍ عالٍ»، قالت ذه أولد كات. «يمكننا أن نسمعه في أيّ وقت نشاء عبر مكبرات الصوت».

«والآن طلبة [المعهد العالي للموسيقى] يمضون هنا وهناك مهشمين الكمانات». ضحك سان لِي. «أيّ نوعٍ من البشر هذا الذي يحطم *الكمان*؟».

---

1 – «أيها المثقفون الثوريون كافة... الآن حان الوقت كي ندخل أتون المعركة»: اقتباس من ناي يوانزي: «ماذا فعل سونغ شيو، لو بينغ وبنغبيوين في الثورة الثقافية ؟»، بكين ريفيو – ك. (لم تذكر عدد المجلة [أو الجريدة] وتاريخه ولا رقم الصفحة) – م.

«الشبيبة ليسوا على خطأ»، قال كاي. كان ثمة يأس عدواني وغير مألوف في عينيه. «إنهم يقولون إننا نريد أن نغيّر، أن نزيل العقبات ونطهِّر أنفسنا. استصلاح الأراضي جلب العدالة لكن بعد مضي عشرة أعوام، بدأت العدالة تنسل بهدوء. إنه أمر جليّ، الأشياء ليستْ على ما يرام في المجتمع».

«نطهّر أنفسنا ممَّ؟» سأل البروفيسور.

«من الفردانية، من الامتياز. الطمع الذي يفسد ثورتنا».

«قادة الـ بوليتبورو [المكتب السياسي] لم يتمكنوا من أن يصبحوا اشتراكيين»، قال سان لِي. «لماذا يتعيَّن علينا أن نكون كذلك؟».

كانت ثمة دمدمة من الضحك العصبي الذي بدا، بالنسبة لـ سبارو، كأنه يتصاعد من الكتب نفسها.

تورّد كاي خجلاً وهبَّ واقفاً. «رفيق»، قال لـ ذه أولد كات، «شكراً لحسن ضيافتكِ. لا يمكنني أن أحتمل الاستماع إلى هذه المناقشة أكثر. من فضلكِ، اعذريني».

كانت ذه أولد كات ولينغ تتحدثان، والآن توقفتا عن الكلام، مرتبكتين. أنعم البروفيسور النظر، مندهشاً. «كاي، يا فتاي! اجلس! اجلس! ماذا جرى لك؟ سان لِي، ألم أقلْ لك أن تحفظ لسانك؟».

«إنني أقول ما يخطر في بالي».

كان صوت كاي هادئاً. «إنكِ لم تحاربْ من أجل شيء، سان لِي. ليس لديَّ أدنى فكرة عن وضع الحياة خارج شنغهاي، ومع ذلك أنتَ تجرأتَ بأن أعطيتنا محاضرة».

«في [المعهد العالي للموسيقى]، إنكَ تعرف أكثر؟».

قاطعته لينغ. «اهدأْ، سان لِي. كاي، اجلسْ. لا حاجةَ لأن تأخذ هذا كله مأخذاً جديّاً. على كل حال، نحن فقط نأتي معاً كي نفكر بنحوٍ مختلف، أليس كذلك؟ إنكَ بمنزلة أخي، إنني أعرف أنكَ قلق لكن تعال».

إلّا أنَّ كاي كان قد استدار نحو البروفيسور. «لقد دمرتني مسبقاً، والآن أنت تعرّض جميع الحاضرين في هذه الغرفة للخطر. بالنسبة لك، النضال السياسي هو مجرد لعبة. لقد سلختُ أعواماً طويلةً كي أفهمكَ بوضوح».

كان الهدوء يخيم على الغرفة.

تكلم البروفيسور أخيراً. «منذ متى أصبحت الرغبة بمعرفة الذات، بتحسين الذات، فعلاً غادراً في هذا البلد؟ ألا يخيفكَ هذا الأمر، كاي؟ بُني، لقد نسيتَ أنني، أنا بدوري، فقدتُ أسرتي كلها في [الثورة]؟».

تخضّب كاي بحمرة الخجل. علّقَ حقيبته على كتفه وخرج من الغرفة.

«سبارو»، قال البروفيسور. «اذهبْ معه. إنه مُحبَط جدّاً. إنه لا يعني ما يقوله...».

لم يتزحزحْ سبارو من مكانه.

«سآخذ تسهولي إلى البيت»، قالت لينغ. «إنكِ تسكنين بالقرب من [طريق بكين]، صحيح؟ أنا أيضاً أسكن هناك».

كم بدتْ تسهولي هادئةً، فكر سبارو، كما لو أنّها هي التي أحضرته إلى هنا. هل فعلتْ هي ذلك؟ ماذا فعلا؟.

«ألا يمكنكِ أن تستعجلي؟» سألتها لينغ. في صوتها رعشة خوف.

هبَّ سبارو واقفاً، تمنى الخير والسعادة للجميع وغادر.

***

غادر البروفيسور وسان لِي معاً، وهما يتمتمان بالاعتذارات، وهكذا بقيتْ فقط تسهولي، ذه أولد كات ولينغ. لم يذكرْ أحد كاي أو ما حصل؛ بدا كما لو أنّ النقاش قد ذاب وانتهى تماماً، كأنه لم يحدثْ مطلقاً. الطبقة المثقفة إذن لا تختلف كثيراً على أية حال، فكرتْ تسهولي. في هذه الأوقات، نحن جميعاً نعتمد على الصمت.

أخبرتْ لينغ تسهولي أنها كانت طالبة في [جامعة جياوتونغ]. «في الحقيقة»، قالت، «درستُ مذهب المنفعة، مينشيوس وفن الدوبيت[1]، لذا فأنا مؤهلة لأن أكون واحدة من طلبة الفلسفة العائدين لـ«دلو الفضلات» الخاص بـ سان لِي».

كانت ذه أولد كات تعيد ترتيب الكتب التي من حولها. «ربما تحتاجين إلى نسخةٍ من هذا»، قالت وهي ترمي كتاباً خفيفاً إلى تسهولي. «ترجمة فو لي لـ*[جان - كريستوف]*[2]. إنكِ تعرفينها بالطبع؟».

«إنني محرجة من القول بأنني لم أقرأها حتى الآن».

«ها، لماذا تعتذرين؟» رفعتْ ذه أولد كات كتفيها اللينين ومن ثم، من هذا الارتفاع الشاهق، جعلت الكتب تسقط مثل صخور تنهار من مرتفع. «إنني فقط أقترحها لأنهم يقولون إن رومان رولان صنع بطل روايته على وفق نموذج بيتهوفن. بيتهوفن للأزمنة التي نعيشها الآن. على كل حال، ليستْ جميع صفحات الرواية مثيرة. هي ذي بحوزتكِ. وهذه أيضاً، مقالة هو شيه[3] عن وو داو - زي[4]. كتاب خارج عن القانون، شتمته الحكومة وبالنتيجة، أمسى كتاباً رائجاً جدّاً». حين جلستْ ذه أولد كات بجانبها، كان بمستطاع تسهولي أن تشم الورق المجعد، هاون طحن الحبر واحتوائه ونفحة من قصب السكر.

«آنسة تسهولي»، قال لينغ، «هل تحملين كمانكِ أينما تمضين؟».

---

1 - الدوبيت: مقطع شعري مؤلف من بيتين - م.

2 - جان كريستوف (1904 - 1912): رواية من عشرة أجزاء للكاتب الفرنسي رومان رولان. نال عنها جائزة prix - Femina في العام 1905 وجائزة نوبل للآداب في العام 1915 - م.

3 - هو شيه (1891 - 1962): فيلسوف وكاتب مقالات ودبلوماسي صيني. عُرف بوصفه مساهماً رئيساً في الليبرالية الصينية وإصلاح اللغة في دفاعه عن العامية المكتوبة. لعب دوراً مؤثراً في حركة الرابع من أيار (مايو) - م.

4 - وو داو - زي (680 - 760م): فنان صيني خلال سلالة تانغ الحاكمة. يعتبره ميخائيل سوليفان واحداً من أفضل فناني القرن السابع الميلادي - م.

كان الصندوق في حضنها بارداً كالصخر في ليلةٍ خريفية. أومأتْ تسهولي برأسها.

«شيء غريب نوعاً ما، أتعتقدين ذلك؟» قالت لينغ.

تنشقتْ ذه أولد كات. «شيء غريب مثل غرابة أن تحملي الورق وقلم الحبر في جيبكِ! أنتِ طالبة جامعية على كل حال، وهي عازفة كمان».

«إذن ربما يتعيَّن على سان لِي أيضاً أن يحمل سيف الفرسان. يبدو أنه متخصص بالاستفزاز».

«إذا قلتِ له أن يكف عن الاستمرار في استفزازه، ربما يصغي»، قالت ذه أولد كات.

«من فضلكِ! سان لِي لن يعزف لجمهورٍ يتألف من شخص واحد».

كانت تسهولي تريد أن تسألهما عن كاي. بدلاً من ذلك فتحتْ مقالة هو شيه وشرعتْ تقرأ السطور الأولى. قلبت المقالة إلى الأمام، وقرأتْ أكثر. كان النص قد نُسخ باليد، بخط غامق متقن وجميل أيضاً. قلبتْ صفحات أخرى. كانت هذه اليد نفسها التي نسختْ «كتاب السجلات التاريخية». كانت هذه كتابة يد أبيها وسوف تعرف ذلك في أيّ مكان.

حدقتْ إليها ذه أولد كات. «مقالة ذكية تماماً، أليس كذلك؟» قالت.

هل كان ذلك خيال تسهولي، أم يوجد سؤال مطوي بانتباه في داخل هذا السؤال؟ «إنني متيقنة أنها لا بدّ أن تكون كذلك، لكنني أجد نفسي مهتمةً بالخطاط». كي تجعل ذه أولد كات تضلُّ السبيل عند تعقبها الأثر، قالت: «هل أنجزتِ هذه النسخة بنفسكِ؟».

«أي!» ضربتْ ذه أولد كات ركبتيها الكرويتين برفق بيديها المكتنزتين. «لديَّ هدية مرغوبٌ فيها جداً لكنها ليستْ مقدسةً جداً هكذا. لا، الخطاط هو عالِم من شنغهاي، هو شاعر في حقيقة الأمر. لكن واحسرتاه، لم يعدْ شاعراً. لقد تهاوى تحت دواليب الحزب وأرسلوه إلى إعادة التربية. لم أرَه من سنوات عدة، في الواقع، توارى عن الأنظار. لأنكِ موسيقية، أنتِ تحسنين النظر إلى الخط».

«هذا يرجع إلى كون خطي سيّئ جدّاً»، قالت تسهولي. حين تأتي أمي إلى البيت، فكرت، أول شيء سأفعله هو أن أحضرها إلى هنا. هذه هي الطريقة المناسبة لعمل الأشياء».

«في ما يتعلق بتلك الملاحظة، لديَّ شيء لكِ حتى تسبري أغوارها». صرّتْ مفاصل ذه أولد كات وهي تقف منتصبة القامة، تمايلتْ وهي تمرّ بـ لينغ وتوقفتْ عند طاولة الكتابة. تسهولي حتى لم تدركْ أن الطاولة كانت موجودة هناك، إذ كانت قد توارتْ وراء الأوراق المكدسة فوقها. مشتْ ذه أولد كات بتثاقل عبر كدسٍ من الملفات قبل أن تنتقي ورقةً واحدة. سلّمتها إلى تسهولي.

«حسناً، جدتي!» قالت تسهولي، بعد لحظةٍ. في يدها كان هناك اللحن الخاص بـ*«تنويعات غولدبيرغ»*، وهي مكتوبة بهيئة أرقام، نقاط، وخطوط تنويت الـ جيانبو. «لقد مضيتِ وأسقطتِ كيساً من الكتب عليَّ! لم أكنْ أعرف أنكِ درستِ الموسيقى الكلاسيكية الغربية».

«لم أفعلْ. شخصٌ ما ترك هذا عند باب غرفتي، متى، قبل شهر؟» نظرتْ إلى مينغ، التي أومأتْ برأسها مؤكدةً صحة قولها. «من المؤكد، إنني قادرة على قراءة الـ جيانبو لكنني لا أملك مفتاحاً لحل لغز هذه الموسيقى».

أخبرتها تسهولي أنها من تأليف باخ.

«أوه، هو». بدتْ ذه أولد كات محبَطةً. «كنتُ أتمنى أن تكون تلك المفرقعة النارية البارعة، أولد بي. أنا وابنة أختي كنا أدخلنا هذه المقطوعة الموسيقية في كتب الأغاني التقليدية». ابتسمتْ لينغ بعبث. الخالة وابنة أختها، فكرت تسهولي، لهذا السبب إذن شعرتُ أنني مرتاحة جدّاً معهما. «لقد رميناها بشكلٍ عشوائي لمجرد أن نُحدث قشعريرةً صغيرةً[1]». أضفتُ كلمات الرئيس ماو كنص للقطعة الموسيقية:

1 – استخدمت الكاتبة كلمة frisson الفرنسية: التي تعني قشعريرة اهتياجاً أو خوفاً – م.

[على سطح ورقة بيضاء خالية من أيّ علامة، يمكننا أن نرسم أكثر الصور طراوةً وجمالاً]».

«لكن مَن هو المُرسِل الغامض؟» استفهمتْ تسهولي.

«مَن يدري؟» توجد لافتة تقول إنه حتى الموسيقى المحظورة يجب أن تُقيّم بحسب استحقاقاتها، وإن الأغاني بالإضافة إلى الروايات يمكن أن تلعب دور الكتب السرية والممنوعة المنسوخة باليد، وتُمرر من شخصٍ إلى شخص. إنه شخصٌ مثالي سخيف. إنه واحد من طرازنا، إنني متيقنة من ذلك».

«شخصٌ ما من [المعهد العالي للموسيقى]؟» سألتْ تسهولي.

«في البداية كنا نحسب أنه البروفيسور أو كاي»، قالت لينغ. «لكن الاثنين أقسما أنهما لم يفعلا ذلك. في الحقيقة، أخبرنا كاي بأن نحيل الأمر إلى السلطات. إنني أقسم، الفتى يخاف من قدميه هو».

«لكنْ أليس لـ كاي الحق بأن يكون محترساً؟» سألتْ تسهولي. كانت تظن أن لينغ وخالتها[1] كانتا جاهلتين بنحوٍ عنيد، كما لو أنّهما لم تحضرا دورة دراسة سياسية أو لم تصادفا جريدة مكتوبة على سبورة.

«ها، إنني أعرف ما تفكرين فيه»، قالت ذه أولد كات. «لكن، طفلتي، حين تكونين قد رأيتِ بقدر ما رأيتُ أنا، سوف تدركين أنه سَبَق السيف العَذَل. إن مَن يُدعَون بـ[أعداء الشعب] هم أولئك الأشخاص الذين غادرهم حظهم، لا أكثر. في يومٍ ما يكون الخائن شين كونغوين، وفي اليوم التالي غيو مورو[2]. لئن كانوا يريدون أن يأتوا إليكِ، سيأتون، ولا يهم ماذا طالعتِ أو ما لم تقدري أن تطالعيه. الكتب على رفوفنا، الموسيقى التي تتعلقين بها، الحيوات الماضية التي عشتِها، هذه التفاصيل كلها هي محض عذر. في الأيام الماضيات، كان الحقد والحسد هو الذي يحرّك

1 – خالتها: أي خالة لينغ: ذه أولد كات – م.

2 – غيو مورو (1892 – 1978): مؤلف، شاعر، مؤرخ، عالم آثار، وموظف حكومي من سيشوان، الصين – م.

المخصيين في كفاحاتهم كلها من أجل السلطة. لعلنا نعيش في عصرٍ جديد، لكن الشعب لا يتغير بين عشيةٍ وضحاها».

«لكن لماذا تعطين السلطات مبرراً؟» سألتْ تسهولي. «لئن كان بمقدور الحيّ السكني أن يبلّغ عن أسرةٍ تنتمي إلى المناوئين للثورة، البلوك السكني بأسره ربما يُنقذ. الشعب فقط يريد أن يتفادى الكارثة». ثمة صوتٌ في رأسها كان يؤنبها: *لماذا تصرّين على عزف موسيقى هي موسيقى شكلانية بشكلٍ مفرط. لماذا كان ردّ فعلكِ مشوباً بالازدراء حين أحضر كاي إليكِ الموسيقى الصحيحة؟ هل أنتِ بلهاء جدّاً بحيث لم تدركي أن وجود عازف الكمان المنفرد هو بحدّ ذاته معاكس لأزمتنا؟*

«لأن، تسهولي»، قالت ذه أولد كات، «هذه الكتب كنتُ ورثتها من أبي المحبوب. في لحظةٍ ما، يتعيَّن على المرء أن يبتّ ما إذا كانت تعود للأشخاص الذين يحبهم، أم إنها تعود للأباطرة. الحقيقة هي، إن سلسلة نسبي طويلة وماضيي معقد وشائك لأن هذا البلد قديم. آه، بلدنا قديم! كيف يستطيع الحزب أن يقنعني بخلاف ذلك؟ إنني أعرف مَن أكون وأعرف ماذا يعني [قديم]. لئن كان الحزب يعرف هذا أيضاً، حسناً، فهذا شيء حسن لهم. يتحتَّم عليَّ أن أواجه قدري الذي كتبه لي نسبي. لئن كانوا يريدون أن يأخذوني سريعاً إلى الحياة الأخرى، لا بأس. إنني مسنة، سوف أمضي. سوف أفتقد فقط صغيرتي لينغ».

«الأشياء التي خبرتِها»، تابعتْ كلامها، «مكتوبة على زنزاناتكِ بوصفها مذكراتكِ وأنماطكِ، والتي سوف يُعاد طبعها ثانيةً في الجيل القادم. وحتى إذا لم ترفعي جاروفاً أو لم تزرعي نبتة الكرنب، كل يوم من حياتكِ هو شيءٌ مكتوب عليكِ. وحين تموتين، وتمام ذلك التسجيل المكتوب يعود إلى الأرض. كل ما نملكه على وجه البسيطة، كل ما نحن عليه، هو تسجيل. ربما الأشياء الوحيدة التي تدوم ليس الأشرار والشياطين [مع أنّهم، بنحوٍ لا يمكن نكرانه، يملكون أقدمية[1] معيَّنة] بل

1 – استخدمت الكاتبة كلمة longevity التي تعني أسبقية، تعميراً، أو طول العمر – م.

نسخُ الأشياء. الشيء الأصلي امّحى منذ أمدٍ طويل. لقد كرّستُ حياتي الصغيرة لفعل النسخ».

«لا تصغي إليها»، قالت لينغ. «حين تأتي السلطات، تكون لينة كالعصيدة. إنها تعرف كيف تمطرهم بكلمات امرأة مسنة».

نخرتْ ذه أولد كات. «مؤكد. ذلك، أيضاً».

«مع ذلك»، قالت تسهولي، «في هذه الأزمنة يتحتَّم علينا أن نتخذ التدابير الوقائية».

«آه، طفلتي. في بعض الأحيان، المرأة العجوز ببساطة تستمر في وتيرتها اليومية من دون أن ترغب بتغييرها. إنها أشبه بألمٍ لا يمكنكِ أن تزيحيه».

لينغ، سان لِي، ذه أولد كات، لا بدَّ أنهم جميعاً أقبلوا من خلفيات طبقية نموذجية، فهمتْ تسهولي. لم يتمّ استهدافهم وما إلى ذلك، بنحوٍ عميق ومؤثر، ولم يكونوا يعتقدون أنه بالمستطاع أن يُستهدفوا. كانوا أحراراً لأنه، في اعتقادهم، أنهم ظلوا يعتقدون أنهم كانوا كذلك بالفعل. ربما كانوا على حق لكن تسهولي شعرتْ كما لو أنها كانت تشاهد برميل نفط يهمّ بالانفجار.

بدأتْ تبعد الكتب من حضنها كي تتمكن من الوقوف على قدميها.

وبينما هي لا تزال جالسة، مدتْ لينغ ذراعها كي تجمع الأكواب الفارغة. كانت ذه أولد كات تهمهم مع نفسها، الشبه بين ذه أولد كات ولينغ جعل تسهولي تحس كما لو أنها واقفة بين لحنين. ربما هذه المجلدات من الكتب كانت بمنزلة نوع من إسفنجة، تحجب ذه أولد كات عن أوساخ المدينة خارج باب شقتها.

كان صندوق الكمان يقرع ركبة تسهولي. كانت مغتبطة لأنهما لم تطلبا منها أن تعزف الموسيقى. في كل مرةٍ كانت ترفع فيها قوس كمانها كي تبدأ بالعزف، كانت تشعر كما لو أنّ أجزاءً من ذاتها كانت تنسلخ منها.

«القدر وحده الذي جعلكِ تعثرين علينا»، قالت ذه أولد كات. «أو، بعبارةٍ أخرى، القدر هو الذي جعلني أعثر عليك ثانيةً».

«ماذا تقصدين؟» سألتها تسهولي. كانت تحمل كتاب أبيها بيديها.

«أوه»، قالت ذه أولد كات. حاولت البسمة المرتسمة على شفتيها أن تخفي ألماً مستديماً. «تجاهلي حديثي غير المترابط. أفكاري تتيه هنا وهناك بين حينٍ وآخر. لقد ضعتُ في الأشياء التي كانت موجودة سابقاً».

***

قاد سبارو دراجته الهوائية وراء كاي. لم يكنْ هناك قمر، بل ضوء صناعي عابر، مصباح ذو قوة كهربائية واطئة في إحدى النوافذ، الضوء المنبعث من مصباح زيتي في مطبخ خارج المبنى. في النهاية قلل عازف البيانو سرعته كي يتوقف. «سامحني، سبارو»، قال، وهو يلتفت. كان يرتجف كما لو أنّه عليل. «يلزمني أن أفعلها، أن أرسم خطّاً واضحاً. من فضلك، دعني أذهب. عليَّ أن... ما من خيار. أتفهم؟ عليَّ أن أقوم بذلك من أجل والديّ، شقيقاتي. إنني وحدي مَن بقي. إنني آسف، إنني آسف حقّاً...» كانا قد احتميا تحت شجرة صفصاف مثقلةٍ بأوراقٍ كثيرةٍ جدّاً، أغصانها تكنس الأرض. تطلع كاي إليه بسيماء متضرعة. «دعني أذهبْ. ليس ثمة شيء آخر أفعله. علينا أن نثق بالحزب في كل شيء. كل شيء». استدار وشرع يقود دراجته مبتعداً. بعد مضي لحظة، سبارو، بدوره، بدأ يقود دراجته ثانيةً، إنما ببطء الآن. كان ركابٌ آخرون يتنقلون بينهما متجهين إلى الأمام، ذاب كاي في العتمة وغاب عن الأنظار رويداً رويداً. قاد سبارو دراجته على مدى زمنٍ بدا طويلاً، لكن الجادة استمرتْ، من دون نهاية. نشطت الريح وسمع دويّاً مكتوماً في الهواء. بدأ الجميع يقودون دراجاتهم بنحوٍ أسرع، يحدوهم الأمل بأن يصلوا إلى منازلهم قبل هطول المطر الغزير، لكن الوقت تأخر كثيراً. شق البرقُ السماءَ. المطر الذي قبّل الكونكريت بقوةٍ شديدة ارتد بعد أن لامس سطحه، قويّاً مثل القنابل. كان قد تبلل في الحال بماء المطر. في لحظةٍ

واحدة، كان المطر قد كنس الجميع من على الطريق، فاتجهوا إلى أمكنةٍ يحتمون تحتها، ولم تمرّ من هناك سوى سيارة واحدة، من دون أن تبالي بهم. انعطف سبارو نحو زقاق ما وترجل من على دراجته الهوائية. كل ما كان قادراً على التفكير فيه هو رغبته بأن يكون برفقة كاي، كي يقضي ليلةً أخرى معه، كانت الرغبة شديدة ولا يمكن نكرانها. *إنني أعتني به، نعم، ما هو الفرق، كيف وإلى أيّ درجة؟ مَن تعنيه هذه المسألة؟* وقف ممسكاً بقضبان مقود الدراجة، حائراً من أثر خداع ذاته هو. أن يحب بالطريقة التي كان يفعلها، إن لم يكنْ جريمةً مضادة للثورة، فهو جريمة متهورة وخطيرة. إن حبّاً من هذا الطراز لن يفضي إلّا إلى الدمار. وراءه كانت ثمة أصوات تنادي، غير أن الكلمات لم تكنْ سوى عصف هواء. مدَّ طفل ذراعه وجرّه جانباً، إلى شجرةٍ كي يحتمي تحتها. كل ما شاهده سبارو هو الاختفاء المباغت لمدينةٍ مكتظة بالسكان.

في نهاية الأمر، انحسر المطر. بات الطريق فضيّاً من أثر الماء. أقبل الناس إلى الطريق في جميع الأحوال، كانت أرجلهم تختفي، غالباً إلى مستوى ركبهم.

امتطى دراجته الهوائية ثانيةً. في الحال تقريباً غطس عميقاً حين انهار الدولاب الأمامي. لا بدَّ أنه داس على مسمار أو قطعة من الزجاج. كان سبارو يعي، فجأةً، بالثقل البارد لثيابه المبللة وبالماء الذي يقطّر من شعره، ويسيل على عنقه وظهره. بدأ يدفع دراجته الهوائية بجواره. كان ماء المطر النظيف يعبق برائحة الطين، رأى دجاجةً نافقةً تطفو متجهةً إليه بجانب رأس كرنب. جاءتْ دوامة، ابتلعت الدجاجة وقذفتها من جديد. أقبلتْ فتاة صغيرة نحوها، كان شعرها الطويل ملتصقاً بنحوٍ مرعب بوجهها.

وبينما كان يمشي، كان الماء يجف ببطء. رأى سبارو ثنيات ساقيْ بنطلونه، ومن ثم رأى كاحليه وفردتيْ حذائه. كان يراوده الخوف المُخدِّر المتعلق بـ شنغهاي التي كانت موجودة قبل لحظاتٍ قلائل لا غير والتي زالت الآن من الوجود، كانت قد انمحتْ واستبدلتْ.

واصل سبارو دفع دراجته الهوائية. أمامه تماماً، في التقاطع، كان الناس قد احتشدوا حول سديم من الأضواء. سبارو بالكاد انتبه إليها، صار الهواء رطباً كرّةً أخرى. برقتْ فكرة موسيقية في باله، إسفين من الأنغام الموسيقية. يلزمه أن يذهب إلى البيت بسرعة كي يدوّن المقاطع الموسيقية. انفتحت النغمات المتآلفة، أحدثتْ قلقاً ذكيّاً في أذنيه. على حين غرة، ابتلعه الحشد الكائن في التقاطع وحاول، بعناد، أن يسمع فقط الموسيقى التي كانت تتجلى له تدريجيّاً. أمسى البشر سلسلةً من الصور: فتيات يرتدين أوشحة حمر، صوتٌ بشري يوبخ بطريقةٍ ساخرة، انفجارات ضحك متنافرة. دويّ الحشد بحدّ ذاته بدا كأنه يجعله صامتاً. هل هو غضب، أدرك ببطء، ذلك الذي كان يتدفق إلى الأمام والخلف، من مجموعة من البشر إلى مجموعة أخرى؟ كانت هنالك نار، أدرك سبارو الآن، رؤيته تصبح أكثر حدةً. حاول أن يمرّ عبر جمهرة البشر إلّا أنَّ دراجته الهوائية جعلت الأمر مستحيلاً.

في الوسط، كان ثمة رجل مُسنّ يقف على كرسي. كان الحشد يتمايل من حوله، ويضغطون مقتربين منه. رأى سبارو امرأةً في مقتبل العمر، في سن تسهولي، تحمل مكنسةً من مقبضها، ملوّحةً بها أمام الرجل المُسن. اعتقد سبارو أن الرجل المنتصب على الكرسي سوف يأخذ زمام المبادرة ويبدأ بالتحدث إلى الحشد الجماهيري، لكنه أدرك أن الرجل العجوز، الذي كان مبللاً بماء المطر، كان يرتجف من البرد، كان ينتحب ويحاول أن يحوّل عينيه من المرأة الشابة وإيماءاتها الموبِّخة. «يسقط وو بِي!» ضراوة الترانيم تسللتْ أخيراً إلى ذهن سبارو. كان الرجل العجوز يتوسل طلباً للرحمة إنما لم تُسمعْ أيّ كلمة من كلماته. على مدى لحظةٍ هاربةٍ، فكر سبارو أنه يتعيَّن عليه أن يتقدم للأمام ويدفع هؤلاء الأطفال إلى الوراء، بعضهم لم يتجاوزْ سن التاسعة أو العاشرة، إنما كان هنالك كثير من المتفرجين، أشخاص من الأعمار كلها، يضغطون ويضايقون بنشاطٍ وخفةٍ متزايدين. حاول أن يرجع للوراء

إنما تعذر عليه ذلك، إذ كان الحشد يندفع للأمام كرّةً أخرى. كلمات مبعثرة كانت قد قُذفتْ بقوة: رجعي، *مناوئ للثورة*، *خائن*، *شيطان*، إلى أن بدأ الهتاف من جديد. «يسقط وو بِي!» كانت الشابة المزودة بمقبض المكنسة تتهمه بتدريس أعمال أدبية تسخر من واقع كل الرجال والنساء الواقفين أمامه. «إنكَ تعتقد أن بمستطاعك أن تدوس على أولئك الذين تحتك»، قالت. كانت تمتاز بصوتٍ لحني مُربك. «إنكَ تحسب أن منزلتكَ العالية يجب أن تجعلك تنظر إلينا باستصغار، لكننا أشخاص ذوو أفئدة مفتوحة وعقول صافية. المسخ يستيقظ، أيها المدرّس! لقد دستَ على رأسه مراتٍ لا حصر لها لكن المسخ الآن يزحف على يديه ورجليه خارجاً من الوحل. إنه قبيح وفظّ، خالٍ من احتقاركَ وشعوركَ بالتعالي. أجل، المسخ هو بذرة الحقيقة التي سعيتَ إلى أن تضعها في صندوق أو درج وتغلق عليها. نحن أحرار، مع أنّك حاولتَ أن تشوّه عقولنا! مع أنّكَ أفسدتَ رغباتنا». بدأتْ تضربه، ضربات بطيئة بطول المكنسة، على ظهره، فخذيه وصدره كما لو أنّه حيوان وكانت تعاقبه. ترنح الرجل العجوز وهوى. التقطوه وأجبروه بفظاظة أن يقف ثانيةً على الكرسي، مع أنّه لا يكاد يقوى على الوقوف. «لئن هويتَ إلى الأسفل سوف نكيل لك صفعاتٍ أقوى»، قالت الشابة بصوتٍ عذب. «أيّ عقوبة بسيطة بحق جرائمكَ الشنيعة، إنما لا تخفْ! كل ضعف سوف نتدبر أمره. هذه البداية فقط».

أقبل شخصٌ ما وسحب كرسيّاً آخر، ودفع غلام قبعةً ورقيةً بيضاء، طويلةً، مدببة على رأس الرجل العجوز. انفجر الحشد في ضحكٍ ساخر، وراحوا يؤشرون بأصابعهم ويقهقهون. أمسى الرجل العجوز شاحباً جدّاً، وبدا كما لو أنّه يوشك بأن يلفظ أنفاسه الأخيرة. كُتبتْ بعجالة على قبعة المغفل الكلمات الآتية: «إنني عدوّ الشعب، ناشر أكاذيب! إنني شيطان!».

رُفعت الأذرع، بدأت الهتافات المحمومة، وغطتْ على صوت

الشابة التي كانت لا تزال تتحدث. لم يكنْ بمستطاع سبارو أن يتحرك. بدا كل هتاف كأنه يضرب بدن الرجل مثل ضربة جسدية. أقبل شخصٌ آخر وألصق ورقةً على صدر الرجل العجوز. كانت الكلمات المكتوبة عليها تقول: «إنني أدرّس البراز، آكل البراز، أنا براز». رنّتْ ضحكات ساخرة، والشاب الذي ألصق البوستر تغلب عليه المرح الصاخب. «وو بِي»، صرخ، «يمكننا أن نشم برازكَ في أنحاء شنغهاي كلها! أيها الغلام السخيف! لماذا لا تنظف نفسك جيداً؟» الرجل العجوز، الذي وقف في يومٍ ما أمام منضدة لتلاوة الكتاب المقدس وحاول أن يفك شيفرات الأدب، على غراره هو، سبارو، حاول أن يفهم شكل الموسيقى، بكى تعبيراً عن خوفه وشعوره بالإذلال والإهانة. ستكون معاناته أقل، فكر سبارو، لو أنهم شدوا وثاقه وضربوه ضرباً مبرّحاً إلى أن يفقد وعيه. لكن الحشد لم يفعلْ شيئاً بل استمر في توبيخه توبيخاً ساخراً.

«إنني عدوّ الشعب»، كان يقول الآن.

أرغموه على أن يكرر السطور واحداً إثر الآخر.

«لقد أفسدتُ عقول الطلبة الذين وضعوا ثقتهم فيَّ».

«لقد غذيتُ عقولهم الذكية والجميلة بالبراز الأجنبي».

«إنني خائن لوطني».

«إنني أستحق الموت».

ومن ثم شرع يتشكى، قائلاً: «ارحموني، ارحموني».

انفتحتْ ثغرة بجانب سبارو وتسلل بخفةٍ من خلالها، وسرعان ما انغلقتْ عقدة الحشد وراءه. ثغرةً بعد ثغرة، شق طريقه إلى الأمام. «بسرعة؟»، طلب منه أحد الأشخاص. كان يُدفع بقوةٍ باتجاه جهةٍ ما لكنه لا يستطيع الرجوع إلى موضعه الأصلي. «ما اسمك واسم وحدة عملك؟» سأل الصوت نفسه. «إنني أحاول فقط الاقتراب»، أجاب سبارو، مصعوقاً. قهقه الشخص، غير مصدّق. «انظرْ إلى المسخ،

المسخ!» قال شخص آخر. «قريباً سنكون عند النوافذ كلها، في داخل البيوت كلها!». كان قد حمي الوطيس والضحك أصبح أعلى فأعلى. كانت أوراق الرجل العجوز الشخصية قد عُرضتْ مثل غنائم معركة. كان ثمة شخص ما يقرأ عناوين الكتب وكل عنوان منها يُستقبل بالقهقهات والإهانات. كانوا يرشقونه بالكلمات الآتية: *بورجوازي*، *رأسمالي*، *إمبريالي*، *ذئب*، وواصلت الشابة تناوبها الإيقاعي بين ضربه بعنف وتوبيخه بقسوة. وعندما بدا أنها تعبتْ في الأرجح، حلّ محلّها شاب، وتصاعدت الهتافات مجدداً. «لا يوجد ملوك»، قال الشاب، «لا يوجد أرستقراطيون، لا يوجد ملاكو أراضي، لا يوجد *معلمون ومدرّسون*، لا توجد طبقة حاكمة غير شرعية. يوجد فقط جراد من مثلك، لصوص وطاعون!»، «ألقوه في النار»، توسلت الجموع. «أطعموا الأفعى سمّاً!» رموا مزيداً من الكتب والأوراق في النار، وحتى قطع الأثاث والثياب. عُثر على فستان طفلة حريري وعُرض بتباهٍ على الحشد. رجعت الشابة ومعها قنينة كبيرة من الحبر. صعدتْ على الكرسي بجانب الرجل العجوز، جرت القبعة الورقية، أفرغتْ قنينة الحبر على رأسه. حاول الرجل أن ينسحب جانباً لكن الحبر انسكب في عينيه، وسال على أنفه وفمه وتسرب إلى السطوح الخفية في أنحاء جسده. بينما كان الرجل العجوز يحاول يائساً أن يمسح السائل الثخين من على عينيه وفمه، صرخ الحشد بضحكٍ هيستيري. «اكتبْ شيئاً ما!» هتفوا. «وو بِي، نوّرنا بأفكارك المعقدة، الشائكة! ألّفْ مقالةً عميقة المحتوى!»، «نرجوك، نحن نتوسل إليك! أخبرنا بما يتعيَّن علينا أن نفكر به!» قالت الشابة: «وو بِي، لقد أحدثتَ الفوضى من جديد!»، «طفل مجنون، قذر»، قال الشاب، وهو يرفع العصا مهدداً. انكمش الرجل العجوز مرتعداً من الخوف وشرع ينشج. «لا تتحركْ، لا تتحركْ!» صرخت الشابة. «إنكَ تدمّر خطي الأنيق!».

تحرّك سبارو إلى الخلف، خطوة بعد خطوة صغيرة جداً، الإطار

المعدني للدولاب الأمامي يحتكّ بالأرض. كان إذلال وو بِي لعبة تشتد شيئاً فشيئاً. كان الجميع يودون أن يفكروا في العاصفة المقبلة. كان الحشد مصاباً بالدوار، وحتى القمر الذي في الأعالي وأشجار الصيف المهمَلة بدت كأنها ترتعد ابتهاجاً. كان وو بِي وحيداً تماماً، متوازناً بطريقة المهرج على كرسيه الخشبي. تقدّم شاب آخر إلى الأمام وبيده موسى حلاقة وكان يقترح أن يحلق رأس الرجل العجوز. «إنه يحسب أن شعره الأبيض يجعل منه رجلاً محترماً»، قال الشاب. «هل نقوم بقص أجنحة الفراشة؟»، «ذوّبْ جليد الخريف»، صاح صوت بشري آخر. «مزّقْ أجنحته! قصَّ شعره!» تملكتْ سبارو موجة من الغثيان. لم يكنْ هنالك مزيد من الأوكسجين كي يتنفس. «لماذا نتوقف عند شعره؟» قال الرجل ذو موسى الحلاقة غير الحادة. «لماذا نسمح لـ [سعادته] أن يقلل من شأننا؟».

أجبر سبارو نفسه على الابتعاد عشوائيّاً عن الحشد، انحنى للأمام كما لو أنّه يتفحص دولاب دراجته الهوائية. نظر إلى حافة الطريق حيث كانت هناك دزينة من أشجار السهل تقف مصطفةً. هناك، في أسفل أقرب شجرة، شاهد تسهولي، تقف بمفردها، مستغرقةً في أفكارها. كانت واقفة في الخارج لأنها الشخص الوحيد العديم الحراك في هذا الحشد. كانت تسهولي تمسك بكمانها بذراعيها وكانت تستمع إلى الهتافات كما لو أنّها تستمع إلى مقطوعةٍ موسيقية غاية في التعقيد. كانوا قد أخذوا موسى الحلاقة إلى وو بِي. «ألا يمكنكَ حتى أن تجد حلاقاً مناسباً، وو بِي؟»، «أنتَ الآن جاهز للرقص! البسْ بدلتك ذات القطع الثلاث وانتظرْ الأوركسترا!»، «تعال وارقص الفالس معي، وو بِي! لا تستحي...». مُحَطماً، أطلق الرجل العجوز ولولةَ حزن وانفجر الحشد بنصرٍ ساخر.

سار سبارو بهدوء إلى ابنة خالته. غاب وو بِي عن وعيه. لا ينبغي أن تكون تسهولي هنا مع كمانها. لا بدَّ له أن يأخذها إلى البيت.

سار إليها، مطوّلاً خطواته كي يظهر واثقاً من نفسه وطويل القامة.

«ابنة خالتي»، قال حين وصل إليها. التفتتْ ونظرتْ إليه بعينين قويتين. وعلى مدى لحظة، تلعثم ومن ثم كرر، بمزيد من التوكيد: «ابنة خالتي». بدتْ كأنها بالكاد تستطيع أن تتنفس. انطلق يقود تسهولي سيراً على الأقدام، دراجته الهوائية بجانبهما. أقبل مزيد من الناس لينضموا إلى نوبة الجنون. كانوا يحملون قناني حبر ولفات ورق ويلبسون عصابات الأذرع الحُمر التي كانت تشع على أذرعهم في الضوء الخافت.

«كلا»، قالت تسهولي، وهي تدير ظهرها إلى الجلبة. «ليس في هذا الاتجاه. لستُ ذاهبةً إلى [المعهد العالي للموسيقى]».

«من المفترض أن تراكِ لينغ في المنزل»، قال لها. كان عليه أن يحارب كي يُبقي صوته هادئاً. «ما كنتُ لأتركك لو لا ذلك».

«لقد أخذتني بالفعل إلى المنزل، لكنني خرجتُ من جديد، بعد هطول المطر. لقد حجزتُ غرفة التمرين، كما تعرف»، قالت. «يتعيَّن عليَّ الذهاب. الغرفة 103. إنها أحسن غرفة، للعلم. لأن البيانو عتيق جداً، لا أحدَ يعزف عليه. لكنني أخبرتكَ بذلك ذات مرة، أليس كذلك؟ ولديَّ حفلتي الموسيقية بعد ثلاثة أشهر. لا أدري ماذا جرى لي. يبدو أنني لا أستطيع أن أحفظ موسيقى رافِل عن ظهر قلب».

«تعالي، تسهولي»، خاطبها. «لنمضِ إلى البيت معاً. سأساعدكِ، إنني أعدكِ بذلك».

حدقتْ إليه. تنهدتْ وتبعته سائرةً وراءه. «إلى أين أنتَ ذاهب، ابن خالتي؟».

لم يحرْ جواباً.

بعد مضيّ لحظة، قالت ثانيةً: «لكن إلى أين نحن ذاهبون؟».

«صوب المنزل. أعطني كمانكِ».

لم تحصلْ على كمانها. سارا في الظلال.

كان «الحرس الأحمر» يسيرون مائلين بطيش على طول الدرب من

دون أن ينتبهوا إليهما. حين تفرس واحدٌ منهم أو اثنان، صاح عليهم سبارو قائلاً: «إنهم يطيحون بذلك الخائن وو بِي! الجبان تبوّل على نفسه». انهار الحرس الحمر من الضحك. صرخوا: «لتعش الثورة!» وأسرعوا، خائفين من أن يفوتهم المَشهد.

وراءهما، كان الحشد قد وصل إلى الصوت المرتفع من قصيدة من تأليف الرئيس ماو، كانت أصواتهم تنشد: «نحن نمحو الحشرات، ونحن أقوياء».[1]

سبارو وتسهولي وصلا إلى البيت، الكائن في الزقاق. كان أشقاؤه في السرير لكن الأب لوت جالس بجوار النافذة، في العتمة؟ جفل حين دخلا.

«أبي»، قال سبارو.

«باباً إثر باب»، قال الأب لوت برقة. «إنهم يذهبون إلى المنازل كلها».

كانت تسهولي قد وصلتْ إلى منتصف المسافة المؤدية إلى الغرفة الباردة. «لكن زوج خالتي، أنتَ عضو في الحزب...».

كاد سبارو يقول: «وكذلك الحال مع وو بِي»، لكن حين رأى وجه أبيه لم يقلْ شيئاً.

«فيما يتصل بالثورة اللامنتهية»، قال الأب لوت، «حتى أعضاء الحزب والأبطال يتعيَّن عليهم أن يتبادلوا الأدوار». ابتسم وبدا كأنه يقهقه وشعر سبارو بأن الخوف يسيل هزيلاً نازلاً على عموده الفقري.

«أبي، لماذا لا تأوي إلى الفراش؟ أنا سأبقى صاحياً».

«في السرير أو هنا أو في الطريق. لن يغمضْ لي جفن».

«يتحتَّم عليك أن تنام»، قال سبارو بثبات.

«وأين أمك!» قال الأب لوت بيأس. «مضتْ بعيداً كي تعرّض حياتها

---

1 – «نحن نمحو الحشرات، ونحن أقوياء»: اقتباس من ماو تسي تونغ، «إلى غيو مورو»، في *«كتاب مذيع نشرة الأخبار الخاص بالشعر الصيني»*: 360 – ك.

وحياتنا نحن جميعاً للخطر. إنها تتظاهر بأن مستطاعها أن تنقذ وِين المسكين! مَن تحسب نفسها؟ هل لديها إذن [قائدنا العظيم]؟ هل هي منيعة جدّاً، ومن المتعذر إيذاؤها؟».

«إنني متأكد أنها كتبتْ لنا. فقط البريد أصبح مليئاً بالفوضى في هذه الأسابيع القليلة المنصرمة».

«لا، لا»، قال الأب لوت، وهو يكلّم نفسه. «ليس من المفترض أن يكون الأمر هكذا. لقد انتقدتُ الآخرين في [مركز القيادة]. [تخلّوا عن ولاءاتكم الإقطاعية]، قلتُ لهم. [تخلّوا عن كل شيء من أجل الحزب] معاملة لينينية مع أولئك الذين يعترفون، عقوبة رادعة لأولئك الذين يرفضون! لكن المكافأة، أجل، مكافأة أولئك الذين يرغبون بتسليم الآخرين.] إنهم يصدقونني وأنا أصدّق نفسي. أن تصدّق أسهل بكثير من أن لا تصدّق».

«أبي»، قال سبارو، لكن الأب لوت لم يكنْ ينصت إليه.

«على أية حال، ما الفائدة المرجوّة من عدم التصديق؟ ما الذي ينمو، ما الذي يتغير، ما الذي يتحسن؟ أليس من الأفضل دوماً لبلدكَ، لأسرتكَ، لنفسكَ، أن تؤمن بشيءٍ ما؟ الشك لا يمكن أن يؤدي إلّا إلى التشوش وكثير من التعقيدات، وعلى كل حال، حيواتنا كانت أفضل. نحن نقصد أن نغدو راضين عن أنفسنا، مؤكد نحن لم نكنْ راضين عن أنفسنا، النضال لا ينتهي، ومع ذلك...».

نهض الأب لوت. كانت بنيته الضخمة قد بدتْ صغيرةً بنحو مضحك. سار ببطء من الغرفة، هازّاً رأسه وهو يقول: «في كل شيء، أنا أثق بالحزب. إنني أثق بالرئيس ماو. لكن لا، لا. لم أكنْ أرغب بذلك».

***

بعد أن غادر الأب لوت الحجرة، جلس سبارو مع تسهولي في هدوء قلق. كانت الستائر مسدلة إنما كان بوسعهما أن يسمعا الاهتزاز في الشوارع، موجات الهتافات والأغاني المتهللة.

«هذه الحملة تبدأ بضراوةٍ شديدة»، قالت تسهولي. قالتْ ذلك بلامبالاة كما لو كانت تناقش مقطوعة موسيقية جديدة. «في حقيقة الأمر، أحدهم بلّغ عنكَ. رأيتُ ذلك بنفسي».

«مدرّسو المعهد كلهم بُلِّغ عنهم. لا يمكنهم أن يرمونا بالرصاص كلنا».

وعندما لم تردّ عليه، قال مازحاً إنه سوف يرحّب بالتغيير. وقت في الصحراء، بعيداً عن طلبته الطموحين، سيكون ذلك بمنزلة حُكم مؤجل بالإعدام. في نهاية المطاف سيكون لديه بعض الوقت كي يركز على عمله هو.

تسهولي لم تكنْ تستمع إليه. «بالكاد كنتُ أراكَ في الأيام القليلة الفائتة. أين كنتَ، وماذا كنتَ تفعل؟».

«أفكر».

«هل انتهيتَ من السيمفونية الجديدة؟».

«آه»، قال سبارو. «هي بالكاد سيمفونية».

ابتسمتْ تسهولي، إلّا أنَّ وجهها في الظلام بدا شديد الشحوب ورفيعاً. في غضون شهرين آخرين، سوف يبلغ سنّها خمسة عشر عاماً لكنها لا تبدو كذلك؛ لاحتْ ضعيفةً، رقيقة الصحة، كما لو أنّ ثبات طفولتها قد تخلى عنها وتركها من دون أن يعوّضها ببديل عنه. «لئن كنتَ تفتش عن الإطراء، لا أجبرك. إنني أعرف إلى أيّ مدى أنتَ تكرههم. لكن سبارو، سيمفونيتكَ هذه، إنها تساعدني على تذكّر ما هي الموسيقى. هذه السيمفونية هي أصدق شيء كتبتَه حتى الآن وهي تجعلني أخاف عليك».

«ابنة خالتي، لا بدَّ أنكِ مرهقة. لماذا لا ترتاحين؟».

ابتسمتْ. «لستُ مرهقةً. في الواقع، إنني أحسُّ كأنني كنتُ نائمة طول سنوات حياتي لكن الآن... في النهاية، إنني أصحو وأعود إلى رشدي».

«بأيّ طريقةٍ كنتِ نائمة؟».

«إنني أرى الآن»، قالت، «إن كل ساعات التمرين، كل الالتزام، الطموح والتخييل، هذه كلها تصل إلى ذروةٍ ما». سكتتْ لحظةً. «إنني أتحركُ ببطء شديد. ماذا علّمنا البروفيسور تان ذاك؟ بشأن *تزيغاني*. الشخص الذي يعزف ببطء شديد سوف يبتلعه الزمن».

«كلام فارغ».

«أمس»، تابعت القول، «حين غادرتُ [المعهد العالي للموسيقى]، دخلتُ إلى الفناء ومن اللامكان، أحاط بي زملائي في الصف. قالوا لي إنه يتحتّم عليَّ أن أنزل إلى مستواهم. حاولوا الإمساك بكماني. كنتُ أكرر قولي: [أنا شابة محبة لوطني، أريد أن أخدم وطني]، لكنهم ضحكوا فقط وقالوا لي: [الفراشة لا وطنَ لها.] [العاهرة اليمينية تحتاج إلى درس.]». توقفتْ هنيهةً عن الكلام، وثنتْ يديها معاً بجدٍّ بدا كأنه يستحوذ على جسمها كله. «أقبل نفر آخر راكضين من الداخل ودارتْ مناقشة. تحولتْ إلى شجار لكن توفو ليو وأنا تمكّنا من الإفلات. لئن لم يكنْ توفو هناك، ربما كنتُ سأقع في مشكلة حقيقية». كانت تضحك. «لذنا بالفرار! وفكرتُ، كم من الغرابة أنا التي كنتُ أركض، لأنهم كانوا خائفين من عالمٍ لا يستطيعون السيطرة عليه. البارحة مضوا إلى منزل توفو ليو. أنتَ تعرفه، صحيح؟ إنه لطيف جداً بالكاد يستطيع أن يقلب صفحةً. اقتحموا منزله، أشبعوا أبويه ضرباً، هشّموا قطع الأثاث. جميع الآلات الموسيقية... أبوه يميني. اتهم في العام 1958، في السنة نفسها التي اتهم فيها أبي».

«لماذا وافقتِ على الذهاب إلى مجموعة الدراسة؟» سمع سبارو التغير في نبرة صوته، كأنه يتهمها، وكان يؤلّه نفسه. «لماذا لم تخبريني؟».

«لأنه حين جاء كاي في هذا الصباح، رأيتُ أنك كنتَ سعيداً. شعرتُ بالغبطة حين رأيتك فرحاً. وكاي هو صديقنا، أليس كذلك؟ لأنني *أعرف*، بالطبع أنا أرى الأشياء أيضاً. في اعتقادي... ما من شيء يمكنني أن أقوله».

«ليس من المفترض بكِ أن تتمرّني في [المعهد العالي للموسيقى]. إنني متيقن أن المياه ستعود إلى مجاريها لكن... عليكِ ألّا تفعلي شيئاً يلفت انتباههم».

«أفعل؟» قالت. «ماذا يلزمني أن أفعل؟ سبارو، هل تعلم أن كاي هو حرس أحمر الآن؟ سمعتُ... هو الذي قاد الهجوم على أبويْ توفو ليو-».

«لقد تخيلتِ ذلك».

تفرستْ فيه، مصعوقةً. «كيف يمكنني أن أتخيل شيئاً كهذا؟».

«كان كاي برفقتي البارحة»، قال سبارو.

«هل كان بصحبتك طول المساء؟».

كذب عليها، فعل ذلك من دون تفكير. «أجل».

هزّتْ رأسها. «توفو ليو *رآه*. وكان كاي هناك في [المعهد]، حين أحاط بي زملائي في الصف».

«كلا، هذا شيء مستحيل».

«طيب»، قالت. بانتْ خيبة الأمل في عينيها ومن ثم أُبعدتْ. «لئن كان هذا مستحيلاً، إذن لا بدَّ أن أكون مخطئة».

هل يعتقد سبارو أنها كانت تختلق الأشياء؟ هل سبق لها أن فعلتْ ذلك من قبل؟ كانت أفكار تسهولي تنحرف بصورةٍ لامجدية. عصر أمس، كان زملاء صفها قد تفرسوا فيها بازدراء، كما لو كانت خائنة. بدا أن التغيير قد حصل في ظرف لحظة. أو ربما، فكرتْ، كان الإحساس مستوطناً في داخلهم طوال الوقت، لكنها لم تفهمه إلى أن رأته في تعابير وجه كاي.

بجانبها، لم يقلْ سبارو شيئاً.

أولاد الأعداء الطبقيين هم أعداء الشعب! ابنة رجل يميني هذه هي مومس قذرة! قبل شهرين كانت تعرف أنهم ربما حاولوا أن يحملوها على تغيير رأيها كي تتهم أمها، ربما كانت ستفعل كل شيء كي تصون

منزلتها في [المعهد العالي للموسيقى]. لو أخذوا منها الموسيقى، سوف تموت. نعم، هكذا كانوا غادرين بطبعهم أولاد الأعداء الطبقيين! أبواها، في غضون ذلك، الخائنان المتهمان، لم يورّطا أو يتّهما أيَّ شخص. ما معنى هذا؟ الشعب يأتي في الطليعة، فوق الأسرة والذات، فوق الشؤون الصغيرة من مثل الارتباط والموسيقى والحب. لم يعدْ هنالك بروكوفييف، لم يعدْ هنالك رافِل، لم يعدْ هنالك العالم الذي غرسه فيها باخ، لم تعدْ هناك الموسيقى الغربية التي قُصد منها أن يتمّ تلقيها بخمول وبلادة. ما هي الكلمات التي وضعها بروكوفييف للموسيقى؟ آمنوا، رفاق، وسوف تحصل الأشياء بعد مدة. علينا أن نناضل، قال الرئيس ماو. نحن مَن سيرث عالماً أفضل. المساواة سوف تحمينا. العدالة سوف تجعلنا أقوياء.

كَسَرت الصمت. «لستُ على ما يرام، سبارو. شيء ما خاطئ في رأسي. لا بدَّ أنني تخيلتُ كل شيء».

«عزيزتي تسهولي، اذهبي وارتاحي. سوف أوقظكِ من النوم إذا ما حصل شيءٌ ما».

عزيزتي، فكرت. كم هو شجاع، إذ يستخدم هذه اللغة الطافحة بالحنين. لئن كانت تريد حقيقةً أن تحمي أسرتها، ألا يتعيَّن عليها أن تسلّم نفسها للشرطة؟ لكن عن أيّ جريمة؟ كانت أفكارها تثير مخاوفها، إنها عديمة المعنى.

تضاءلتْ حدّة الصراخ. كان الطلبة قد انعطفوا إلى شارع آخر.

«هذه مساكن الأساتذة الجامعيين»، قالت تسهولي. «حتى إذا لم يأتوا إلى هنا الليلة، نحن أشبه ببيض في عش».

لم يكنْ بمقدور سبارو سوى أن ينتبه إلى الطريقة التي كانت تمسك بها تسهولي بكمانها. كانت بحوزته صورة لـ وِين الحالم، وهو يمسك بحقيبة السفر المستطيلة المسطحة البالية العائدة له، كانت النعوت المهينة تنزلق بسهولة مثل قطع صغيرة من القماش. حاول أن ينقي

أفكاره. كانت تسهولي مجرد طفلة ولا ينبغي إيذاء الأطفال. الأطفال، قال الرئيس، يحملون بذور الثورة.

***

في الظلام الذي يسبق بزوغ الفجر، ذهبتْ تسهولي إلى [المعهد العالي للموسيقى] كي تعيد أسطوانة بيتهوفن «الإمبراطور». كانت المكتبة موصدة ووجدتْ نفسها في داخل الغرفة 103، وهي غرفة لم تدخلها من قبل من دون كمانها. لم يكنْ ثمة أحد في الجوار. أغلقت الباب، جلستْ على الأرض واستراحتْ مدةً طويلةً. كانت لديها رغبة في إيقاف الزمن من أن يتحرك بهذه السرعة الشديدة. في الليلة الماضية، كانت تسهولي قد ظلتْ مستيقظةً تعيد قراءة حديث الرئيس ماو في ما يتعلق بالفن والأدب، لكنها في كل مرة كانت تحسّ أن حقيقةً ما ربما تظهر إلى السطح، كانت هذه الحقيقة تتشوش وتفلت. كانت كلمات الرئيس أنيقةً، حادةً بشكل كامل، إنما حين لامستْ أفكارها، أصبحتْ معقوفةً. ولأنها لم تكنْ قادرةً على النوم، كتبتْ نقداً ذاتياً طويلاً، لكنه ليس من النوع الذي يطالب به الحزب. بدلاً من ذلك، كانت الكلمات الرجعية نفسها هي التي دأبتْ على الظهور على السطح وجعلتْ توسخ الصفحة.

«مَن أكون أنا بالأساس؟».

«هل أمتلك القدرة على التغيير؟».

«قُلْ كل ما تعرفُهُ»، كتب الرئيس ماو، *«وقُلْهُ من دون تحفظ»*.

«إنما ثمة كثيرٌ وكثيرٌ مما أرتاب فيه! إنني أخشى من سماع ما أفكر فيه. إنني أعرف أن الحزب محقّ في كل شيء. إنني أقول إنه محقّ لكن حتى أبسط الحقائق لا تبدو كالحقائق على الإطلاق».

«يمكننا أن نتعلّم ما لا نعرفه. نحن لا نُحسن فقط تدمير العالم القديم، نحن أيضاً نُحسن بناء العالم الجديد».

«ماذا لو كان الجديد لا شيءَ سوى فيروس المرض نفسه؟ وماذا عن

التفاني، ماذا عن الواجب والحب البَنوِي. هل يتعيَّن علينا أن نحتقر كل الأشياء القديمة؟ ألم نكنْ نحن أيضاً شيئاً ما قبلاً؟

«لماذا تدافعون عن ثقافةٍ موسيقية هي ليستْ ثقافتكم؟».

قرصتْ يديها وانطلق الوجع بسرعة حتى وصل إلى رقبتها. «تكفينا هذه الأفكار! إنها كلها عديمة المنفعة لأنني بالأساس في موضعٍ ما أعرف أن ما يقوله الحزب صحيح. مجرد أنني أنانية جدّاً، أنانية جدّاً...».

سمعتْ شجاراً في مكانٍ قريب. وقفتْ تسهولي. كان ثمة أنين ضعيف يأتي من السراديب الواقعة في أسفل المبنى. هل يوجد أحد هناك في الأسفل طوال هذا الوقت؟ بدأ جسمها يرتعش. لا، حدثتْ نفسها، كان ذهنها مضطرباً، بالكاد نامت ليلتها المنصرمة. ومع ذلك، سمعتْ شخصاً ما ينوح من فرط الألم. الغرفة 103 أذهلتها، لأول وهلة، بوصفها صدًى للمكتبة الواقعة تحت الأرض. غادرتْ تسهولي الغرفة، صعدت السلالم بعجالة وسرعان ما أصبحتْ في الهواء الساخن. كان الوقت لا يزال مبكراً، لا يزال الظلام سائداً في الخارج، كما لو أنّ إحصاء الوقت قد توقف قليلاً وقد بدئ به الآن من جديد.

كانت تحتفظ بكوبونات النفط والحبوب العائدة لأسرتها في جيبها وكانت تمشي وهي مصابة بالدوار، يدها على فتحة الجيب، تخفي الكوبونات وتصونها. منذ مغادرة بغ موذر وسويرل، كان من مسؤوليتها أن تحصل على الحصص التموينية.

كان طابور النفط قد وصل إلى «طريق جولو». حين رأتْ كم سيستغرق هذا الطابور، كان ذهنها قد انصرف إلى الإثم. كان يجب عليها أن تأتي إلى هنا أولاً. كانت غلطةً منها أن تذهب إلى [الكونسرفتوار]، كانت تعرف بنحوٍ أفضل ومع ذلك، كرّةً أخرى، كانت قد اتبعت الحماقة والأنانية. اتخذتْ موقعها في الطابور، وراء فتاة لم تلبسْ شيئاً في قدميها وكانت عيناها مغمضتين بقوة. كانت قَصّة شعرها غير حادة مثل سندان الحداد. لم يقلْ أحد كلمة. كانت المباني كلها مغطاة برايات حمر. ثمة كرسي

مكسور ملقًى في قارعة الطريق إلى جانب قطعة من حبلٍ مكسوّ بما يبدو أنه حبر. ثلاثة مقاطع تأرجحتْ سويةً في بالها: النزوع للحزب، النزوع للشعب، المحتوى الأيديولوجي. إنه فكري، فكرتْ تسهولي. كل شيء صحيح يصبح شيئاً مسموماً. ليتني أستطيع أن أهدئ الأفكار الساكنة في عقلي. أحسَّتْ كما لو أنّها لم تغمضْ عينيها على مدى أيام معدودات.

لن يبدأ توزيع المؤن إلّا بعد مضي ساعة من الآن. أغلب الظن، لو حالفها الحظ سوف تصل إلى مقدمة الطابور بحلول الظهر. لو نفد ما لديهم من النفط، سيتعيَّن عليها أن تأتي ثانيةً في اليوم التالي. سوف تستسلم، سوف تنسى [الكونسرفتوار] وتمضي بعيداً. رُفع العبء الذي يثقل كاهلها حينما خطرتْ ببالها هذه الفكرة. «نعم»، قالت، وهي تُجفل الفتاة الواقفة بجوارها. كانت توجه هذه الأفكار إلى كاي، لكن الأفكار لم تعدْ تبدو كأفكارها هي. «يوجد دوماً الغد واليوم الذي يليه واليوم الذي يليه. لم يفت الأوان بعدُ على إجراء الإصلاحات، والتطوّر، والتزوّد بالحكمة».

من حولها، الناس، المباني، الأشياء ظهرتْ كلها ضخمةً بنحوٍ غير متناسب، ليس فقط جوهرها بل ظلالها أيضاً. هل كان هنالك تموز «يوليو» مليء بالنور كهذا؟ رأت الآن أنها كانت واقفة بجانب جدار مغطى بالبوسترات. «بلّغ عن...». «دمرْ الـ...». «استيقظْ و... اجتثَّ... الخزي والعار». كانت الكلمات المكتوبة بحروف أبجدية هائلة بالحبر الأحمر، تطن في بالها. «أقذفوا مقر القيادة بالقنابل!» بدا ذلك أشبه بلعبةٍ ابتكرها الدب الطائر ودا شان. يا للغرابة التي لا بدَّ أن يشعر بها المرء حين يكتب كلماتٍ عنيفةً بخطٍّ مرتب. نحّتْ تسهولي هذه الفكرة عن بالها. التنافر يتطلب تقنيةً دقيقةً حالها حال الجمال. في ذهنها، كان نص أوبرا بروكوفييف لا يزال يتكرر: «*حاول الفلاسفة بطرائق شتى أن يفسّروا العالم؛ النقطة الجوهرية هي تغييره*». اقتبس بروكوفييف هذه المقولة من ماركس، «الحرس الأحمر» اقتبسوا من الرئيس ماو،

الجميع ينادون بأفكار مستعارَة، زملاؤها في الصف كانوا يحفظون عن ظهر قلب شعارات الرئيس وتبنوا أشعاره كما لو كانوا هم الذين كتبوها بأقلامهم. إذن نحن لا يختلف أحدنا عن الآخر كثيراً على كل حال، فكرتْ تسهولي، عدا أنني أتكلم بلغة باخ وآراء بروكوفييف الموسيقية لكن مع ذلك، لا أحدَ منا يعرف الطبيعة الحقيقية لأصواتنا، بصرف النظر عن السبب، لا أحدَ منا يتكلّم بكلماته هو. في الجوهر، هل توجد الرغبة فقط، أما العدالة فلا وجودَ لها؟ كل ما تعلمناه منذ سقوط السلالات الحاكمة القديمة هو كيف نضخم الضجيج.

كانت الضجة تتصدّع في داخلها الآن. سمعتْ سمفونية سبارو رقم 3، كما لو أنّها تسمعها من الهواء نفسه. كان صوتها هي ينتحب قائلاً: «ثمة دائماً الغد واليوم الذي يليه. يجب أن لا يكون الأوان قد فات».

كان الطابور قد دفعها برفق إلى الأمام.

***

كانت تسهولي قد وصلتْ تقريباً إلى رأس الطابور. كل مرةٍ ترى فيها شخصاً آخر يغادر، حصته الكاملة من المؤن في يديه المبتهجتين، كانت تحسّ بأنها دائخة أكثر. حرصتْ على أن تحصي عدد الأشخاص الواقفين أمامها في الطابور. ثمانية عشر. كان الوقت ظهراً، كان الظلّ قد تراجع منذ أمدٍ طويل وفي الضوء الساطع، كانت المباني تذوب في صور مائية. مشتْ جانباً وأنعمت النظر أمامها. سبعة عشر. كان رصيف المشاة قد أعتم وتحوّل إلى بياضٍ مُحبَّب. كان ثمة اضطراب متصاعد في الخلف لكن تسهولي، التي كانت تركز انتباهها فقط على نيل الحصص التموينية، لم تلتفتْ للوراء. غضبت الأصوات البشرية، وأعقب ذلك جواب مخيف صدر من امرأةٍ ما، بنبرة ضعيفةٍ من E minor [1]. كان من السهل أن تغرقها التوبيخات الساخرة. على الرغم من ذلك، لم تلتفتْ تسهولي. أمامها، كان الطابور قد بدأ يغير مكانه وببالها المتعب، شاهدت الطابور كأنها تراه من

---

1 - E minor: وتعني على درجة مِي مينور، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.

الأعلى، دودة ألفية الأرجل تمط رأسها المتناهي الصغر إلى الأمام. كانت تسهولي لصق الفتاة الحافية القدمين الواقفة أمامها، وحين التفتت الفتاة، التفتتْ تسهولي أيضاً، كما لو أنهما مندمجتان معاً. رأت امرأةً تُسحب من الطابور. كانت المرأة في سن أمها. فتاة نحيفة، طويلة القامة، حرس أحمر، دفعتْ مؤخرة عنق المرأة إلى الأسفل كما لو كانت المرأة ثوراً.

كانت المرأة تلبس بلوزةً شاحبة وتنورة زرقاء داكنة كانت تنسدل إلى ما تحت ركبتيها. لا بدَّ أن زيّها هذا، فكرتْ تسهولي بنحوٍ غير واضح، هو الذي استدعى غضب [الحرس الأحمر]. «رفاق، انظروا إلى هذه الزبالة!» صاحت الفتاة الطويلة، وهي تجر المرأة على طول الطابور. كانت الفتاة تهدر بصوتٍ عالٍ جداً بحيث إنّ فمها الوردي بدا كأنه يبتلع وجهها. قاومتْ تسهولي حافزاً يحثّها على الضحك، على الذوبان في الفزع، على الانصراف وإخفاء صدمتها، لكن في تلك اللحظة تحديداً كانت الفتاة قد دفعت المرأة أمامها مباشرةً. «اصفعي وجهها الوقح!» جأرت الفتاة. تجمدتْ تسهولي. «اصفعيها!» صاحت الفتاة. شخصٌ ما كان واقفاً بجانب تسهولي مدَّ يده وصفع المرأةَ صفعةً مؤلمةً جدّاً. الصوت، أم كان ذلك الصدى، كان رفيعاً ومتطاولاً. كان وجه المرأة قد توارى وراء شعرها الداكن الذي ارتخى من مشدّه المطاطي، ومن ثم جُذب رأسها للوراء ورأتْ تسهولي الدم على فم المرأة، الذي كان مكتنزاً ورقيقاً معاً. كانت المرأة، فكرتْ بنحوٍ غير واضح، قد عوقبتْ بسبب الرغبة، بسبب التفسخ الأخلاقي، الساكنين في داخلها. «أنتِ، رفيقة!» صاحت الفتاة. رفعتْ تسهولي عينيها. «لقِّني هذه البغي درساً!» شخصٌ ما قريب جداً منها، رجلٌ، كان يتكلم في أذنها، «هيا، لا تخافي. نحن جميعاً لدينا دروس نريد أن نلقّنها للمارقين، لا ترددي!» كانت المرأة قريبةً جدّاً من تسهولي بحيث كان بمستطاعها أن ترى ارتجاف جفنيها وقطرات الدم الصغيرة الجديدة التي بدأتْ تتشكل. كانت الفتاة تهدر بكلماتٍ لا معنى لها. «أين وضعتُ كوبونات الحصص التموينية»

فكرتْ تسهولي، بحيرة. «هل تحرك الطابور؟ لا أريد أن أفقد موضعي فيه. لقد انتظرتُ زمناً طويلاً جدّاً، جدّاً». رفعت يدها اليمنى إلّا أنَّه لم يحدثْ شيء. «هيا»، حثّها الرجل. برقةٍ، برقةٍ شديدة: «ما الخطب؟ لا ترددي!» ضغط عليهم مزيدٌ ومزيدٌ من الناس. كانت المرأة قد جُذبتْ بعنف على حين غرة. ظلتْ يد تسهولي مفتوحةً، كأنها تنتظر أن تمسك شيئاً ما في الهواء. «الجاسوسة الرأسمالية الصغيرة»، كانت الفتاة تقول، «العاهرة النتنة!» كان الطابور قد مضى للأمام. ظهر شخصٌ ما في زاوية عينها معه كيس طحين كبير بصورةٍ لا تُصدّق. كان ثمة شبيبة قد نهبوا مستودع توزيع الحصص التموينية، وحتى جرجروا العمال وعاملوهم بقسوة. أغمضتْ تسهولي عينيها. «افضحوهم!»، «جرذان بورجوازية!»، «جرّوهم إلى الخارج!». كان للصياح طبيعة مبهجة، راقصة، رقصة «ذات الخطوتين»[1] يؤديها مُهرّج فرنسي[2]. «بصورةٍ نظيفة، بسرعة، اقطعوا رؤوسهم!» من أين ظهر هذا الحشد؟ سمعت انفجاراً مثل طائرة تحطّ على الأرض، إنما لا يوجد سوى هذا الجمهور المكهرَب، اللاهث. كان الزمن يضيع. عما قريب سيكون قد فات الأوان.

«فقط اصرخي بالشعارات»، همست الفتاة الواقفة بجوارها. «بسرعة! إنهم يراقبونكِ. أوه، لماذا أنتِ خائفةٌ جدّاً؟».

هل هي الفتاة الصغيرة من دون حذاء؟ لكنها حين التفتتْ، لم ترَ سوى ازدحام من الأجساد ولا وجود لوجه متعاطف. لم يعدْ هنالك طابور وكان قد تشوّه بفعل الحشد. أين هي كوبونات المؤن العائدة لها؟ هل سحبها شخصٌ ما من يدها؟ كلا، كانت لا تزال هنا، مدسوسة في جيب قميصها. شعرتْ بالغثيان وعرفتْ أنها سوف تتقيأ. أينَ هي المرأة؟ ما هو العيب الشنيع الذي رأوه في داخلها؟ بدا الحشد كأنه

---

1 – ذات الخطوتين two – step: ضرب من الرقص – م.

2 – مهرج فرنسي: وردت في النص كلمتا French pierrot: كلمة pierrot تعني: رجل متنكر بلباس مهرج في المسرحيات الإيمائية الفرنسية – م.

يتورم ويخفيها، فاصلاً إياها عن أعضاء «الحرس الأحمر» المصابين بالهيستيريا، كان الغوغاء بمنزلة رعب وأمان معاً. في جنونها المؤقت تنشأ من مئات المتفرجين لتتشكل في كيان واحد، أفعى بألف عين تدور في هذا الاتجاه وذاك، باحثةً بقوة أكبر من أيّ وقتٍ مضى، مضخمةً كلّ ذرةٍ من التراب التي في داخلها. كانت الأفعى تدوّر عنقها الطويل المرة تلو المرة. حين عثرتْ عليها، رفعتها عالياً وأقحمتها بين الحشد. «لا تخافي»، فكرتْ، «إنها ليستْ حقيقية». وجدتْ نفسها واقفةً في طابور آخر. هل كان ذاك صوتها الذي يصرخ؟ كان هنالك دزينة من الأشخاص معها، المرأة المسنة، الأمهات وحتى الفتيات، وهن يتفرسن مصدومات. كان أعضاء «الحرس الأحمر» يمشون متباهين من حولهن، يجبرونهن على أن يركعن على ركبهن. أحسَّتْ تسهولي بصدمة ألم حين ضربت الكونكريت. أصابها انفصام مؤقت، كانت تراقب من على بعد خطوات قلائل، كانت جزءاً من الحشد وكان بوسعها أن ترى الأهداف وكذلك نفسها. فتاة، فتاة مختلفة، كانت آتية وبحوزتها مقص. كانت تجذب الرؤوس بعنف إلى الوراء واحداً بعد الآخر وتقص خصلاً كبيرةً من الشعر. «بغايا مثيرات للاشمئزاز»، كررت الفتاة. أقحمتْ تسهولي نفسها مجدداً وشعرتْ بالفرقعة العمياء للمقص ومن ثم بخفةٍ غريبةٍ حين سقطتْ خصلةٌ مجزوزةٌ من شعرها. «هذا لا شيء»، فكرتْ، «فقط يتعيَّن عليَّ أن لا أفقد كوبونات المؤن. سيغضب الأب لوت لو أنني جعلتها تسقط من جيبي». أشياء أخرى بدأتْ تحصل. قال أحدهم: «أوه، هذه هي عازفة الكمان. العاهرة المغرورة التي والدها مناوئ للثورة». سحبوا حقيبتها منها، جعلوا عاليها سافلها وانزلقتْ أسطوانة بيتهوفن في ارتعاشٍ عاصفٍ من الأوراق. سمعتْ صراخاً وتوسلاً، التمزيق الفظ لقماشٍ ما، لكن تسهولي ركزتْ نظراتها على الأوراق. «إنني أعرف هذه القذرة. أمها كلبة يمينية!» كانوا يضحكون عليها، يدوسون عليها، يتظاهرون بأنهم ينشدون منها. وصل أشخاصٌ بحوزتهم دلاء تقطر ورأتْ أشرطةً من السواد تشق الهواء. قذفوا الحبر، أم كان ذاك طلاء، على جميع

الأبدان الجاثية. خفضتْ تسهولي رأسها وبدا كما لو أنّ الملاحظات الساخرة والبصاق قد كسرت السطح، كل شيء قد تسلل إلى الداخل. الصفعات الثلاث، الخمس، السبع الأولى جعلتها تبكي بسبب الألم والغضب لكن فيما بعد، كان ثمة خدر حين بدأتْ تفقد الإحساس. تمدد الوقت، كما كان عليه الحال في بنغبي، آنَ كانت طفلةً، وكان أبوها يركع في وسط الحجرة. كانتْ تتساءل، في حينها، لماذا لم يكنْ أبوها ينتصب واقفاً. لماذا لم يسمحوا له بالنهوض؟ فكرتْ بأمها وبالشيء الذي ينتقل من الأم إلى الابنة، من الزوج إلى الزوجة، من محبوب إلى آخر، سلالة، لمسة، فيروس. «أنا التي فتحتْ مكتبة أولد ويست»، فكرت تسهولي، وقد بدأتْ تفقد وعيها. «كانت تلك هي غلطتي وهي التي تدمر حياتيْ والدي. كل صفعة، كل رفسة وكل إهانة أنالها كان من الأجدر أن تنالها أمي. مَنْ أكون من الداخل؟ ما هو الشيء الذي يرونه أخيراً؟».

«إنني أتحدث إليكِ، أيتها المومس الصغيرة!» كانوا يصيحون عليها باستمرار. كان رأسها مسحوباً للوراء كرّةً أخرى. «كيف تسللتْ هذه المومس القذرة؟»، «اعترفي مَن تكونين!» كانوا يزعقون عبر مكبرات الصوت العائدة لهم في أذنيها مباشرةً كما لو أنّهم يريدون أن يُصيبوها بالصمم... صفعوا جانب رأسها المرة تلو المرة. إنها جريمة أن أكون أنا نفسي؟ إنها جريمة أن أنكر؟ كانت تريد أن تبكي على غبائها، على سذاجتها. الحبر الذي جف على وجهها جعل بشرتها مشدودةً وموجعة. جميع النسوة الأخريات كن يعترفن بشيءٍ ما. بدتْ تسهولي كأنها الوحيدة التي لا تزال راكعةً. كانت تعرف أنها مذنبة لكنها لا تستطيع أن تعترف. من حولها، كان الحشد يعطي الانطباع بالتوسع والنهوض بجذل. «افتحي فمكِ، أيتها الشيطانة!» صفعات أخرى، والآن شرعوا يرفسونها، يجرونها عمودياً من جديد، وأوثقوا الآن ذراعيها وراء ظهرها بحيث كان رسغاها في الأعلى، فوق كتفيها، ورأسها يكاد يلامس الأرض. «ساعات من التمرين»، فكرتْ تسهولي باهتياج. «لقد تمرنتُ

وتمرنتُ. لقد حفظتُ عن ظهر قلب آلاف الساعات من الموسيقى وماذا سيكون هذا؟ لؤلؤة متناهية الصغر من الزمن سوف تتبدد حالاً». لم يكنْ بمستطاع تسهولي أن تسمع. شاهدتْ وجوهاً كثيرةً في كل الجهات المحيطة بها، كانت تعي حركةً من دون ضوضاء. بدا أنهم كانوا يظنون أنها عديمة النفع، معتوهة، وحوّلوا انتباههم إلى المرأة التي بجوارها التي كانت تبكي بكاء شديداً جدّاً بحيث إنّها لم تعدْ قادرةً على أن تصمد. الشفقة غمرتْ تسهولي وشاهدتْ ظلاماً خلف المرأة. هذا هو المكان الذي يتعيَّن عليَّ أن أصل إليه، فكرتْ. إلّا أنَّ الطلاء، أم كان ذاك حبراً، والعرق كانا قد تغلغلا إلى داخل عينيها ولم تكنْ تقوى على إزالتهما. كان الطقس حارّاً بنحوٍ لا يُطاق. سوف يرجعون إليها لكنها لا تستطيع أن تسمع إلّا الهمهمة، الهدوء، وكان هذا يحميها. «إنني جاهزة الآن»، فكرتْ، «لأن أجلب كل هذه الأزهار إلى... سوف أجد الزهور كلها، حتى إذا تحتَّم عليَّ أن أسرقها من يدي [القائد العظيم]، سوف أضعها عند قدميْ بروكوفييف». كانت قد وهبتْ كل ذرة من ذرات روحها للموسيقى. عادت عليها كلمات *«فاوست»* التي أبدعها غوته: *يا له من مَشهد عظيم! يا له من مَشهد... لكنني، أخشى / هل هذا هو كل شيء.* الهدوء سوف يريها الطريق إلى الخارج. الصمت سوف يتوسّع ليصبح صحراءً، حريةً، بدايةً جديدة.

***

أصبحتْ تعي بحركةٍ ما وشعرتْ أن ثمةَ قدراً كبيراً من الفراغ من حولها، السواد الذي تصوّرته إسفلت، الطريق، أو الليل. أين هما ذراعاها؟ بدا أنهما انفصلتا عن بدنها وسقطتا بعيداً. «ذهبتْ أصابعي كي تلملم شعري»، فكرتْ، وهي ترغب بالابتسام، «كانت قد مضتْ كي تلتقط شعري الجميل». لا جدوى من أن تحاول أن تفتح عينيها. كانتا مغمضتين ومكسوتين بالقشرة ولم يكنْ لديها شيء تحتفظ به سوى ألم طاعن بدا كأنه آتٍ من أعماق رئتيها. جاءتْ موسيقى البيانو، موسيقى

لا يمكن تعيين هويتها. كم كانت قريبةً لكن لا، كانت الموسيقى مزحةً. مَن هذا الذي يعزف على البيانو في هذا الوقت؟ «أوه»، فكرتْ بينما كانت قطرات الماء تلامس عينيها ومن ثم شفتيها، «يداي الصالحتان جلبتا لي الماء». سمعتْ صدًى وبعده بدا كما لو أنّ الهواء قد تحوّل إلى زفت، الضباب أفسح المجال للمطر، المطر أصبح قاتماً وتحوّل إلى نبرة، والنبرة تحوّلتْ إلى أصوات بشرية. وعقب ذلك صوت بشري واحد بالأخص، عرفته على الفور ومن المستحيل أن يكون صوت كاي. «لا»، فكرت، الألم في رئتيها يتفاقم، «إنه شيء غير حسن أن تقع بين يديه». مرةً ثانية الإحساس بالحركة. ومن ثم انفصل الطريق عن جلدها بالمصادفة. كان كاي برفقتها. في أعماق هذه الانطباعات المتشابكة كلها لمحتْ فكرةً متغيرة، طريقةً أخرى في أن تُحب شخصاً ما لم تجربها من قبل، ارتباطاً مثل الارتباط بأخٍ، الارتباط بصديقٍ، بحبيبٍ من المستحيل أن يكون حبيبها، الارتباط بخليلٍ موسيقي، برفيق ربما كان متعاوناً معها على مدى حياتها. «إنه شيء يدعو للأسف الشديد»، فكرتْ، «بأن لا تُتاح لنا الفرصة بأن نعزف *[تزيغاني]* معاً لأننا جلبنا شيئاً ما إليها لم يُسمع من قبل. ديفيد أويستراخ[1] نفسه، كان سيتعرّف علينا؛ إنها الصادقية[2] والحياء، لا، العزلة، التي تأتي حينما يكون المرء في خصامٍ مع نفسه. إنها الوحدة. فقط هذه، كاي»، فكرتْ. نعم، ليتني كنتُ كاي.

«نعم، تسهولي»، قال. «[الحرس الأحمر] كلهم انصرفوا الآن».

لم يكنْ هناك متسع من الوقت. كانت تتحرك ومع ذلك كانت ما تزال على الطريق. كانت جاثيةً ومع ذلك كانت مستلقيةً في غرفةٍ مظلمةٍ، رطبة. سمعت الأب لوت، سمعت الدب الطائر يبكي، وكاي يقول إن

---

1 – ديفيد فيودوروفيتش أويستراخ (1908 – 1974): عازف كمان وكمان أوسط كلاسيكي شهير، سوفيتي الجنسية. تعاون أويستراخ مع موسيقيين وفرق موسيقية عديدة عبر العالم: الاتحاد السوفيتي، أوروبا، والولايات المتحدة. يُعدّ واحداً من عازفي الكمان المتفوقين في القرن العشرين – م.

2 – الصادقية truthfulness: كون المرء أو الشيء صادقاً – م.

المرأتين اللتين استهدفتا في جلسة النزاع كانتا لا تزالان في الطريق، كانتا قد فارقتا الحياة. شخص واحد، وهو بروفيسور في الرياضيات في جياوتونغ، سحبوه على طول رصيف المشاة مسافة كيلومتر واحد. دفعتْ تسهولي الضوضاء إلى الخارج، لم تكنْ تأتي إليها عبر أُذنيها، بل عبر نسيم يهب على ذراعيها، على يديها. شخصٌ ما غسلها بالماء، كانت تعرف أن سبارو وحده هو الذي فعل ذلك. كانت تعرف أنها في مأمن ويمكنها الآن أن تفتح عينيها إذا شاءتْ ذلك، لكنها لم تشأ. كان قد خيّم عليها السكون. لم يحاول السكون أن يلملم قطعه كلها، كي يتظاهر بأنها كانت جزءاً من الشيء ذاته. لا حاجةَ للتظاهر. الصمت رأى كل شيء، حاز كل شيء، وفي النهاية أخذ كل شيء.

أقبل «الحرس الأحمر» إلى المنزل. سمعتهم يقتربون أكثر فأكثر، دخلوا وتهاوت الأشياء، مزيد من الصراخ، رأوها وقالوا إنهم سيرجعون لاحقاً. كان أحدهم يصرخ قائلاً: إنها الجارة، السيدة «ما»، صرختْ: «الخجل! الخجل!» لكن على مَن صرختْ؟ لم تكنْ تسهولي تعرف، كانت تخشى أن تخمن. كان الخجل هو نازع السدادات الفلينية في داخلها، يلفّ سويةً أنانية، طيش، فراغ ما كانت عليه، إلى أن لم تعدْ هنالك إمكانية بإحداث تغيير.

في الحياة القادمة، قررتْ تسهولي، سيكون هنالك مزيدٌ من الألوان مقارنةً بما هو موجود في عالم البشر، ستكون هناك بنيات وأنواع شتى من الزمن. سيكون هذا عالم بيتهوفن فيما هو يجلس وظهره للجمهور، حين فهم أن الصوت شيء غير مادي، إنه ليس سوى صدًى، الموسيقى الحقيقية كانت تسكن دوماً في باطنه. لكن خذ الموسيقى بعيداً، خذ الكلمات بعيداً، وماذا سيدوم؟ كانت إحدى أذنيها قد تضررتْ. اشتاقتْ إلى أمها وأبيها. يا للإشراق الذي يخفق به جوهر ذاتها أمامها، يخفق بعيداً عن متناولها. ماذا تكونين، سألتْ. أين أنتِ؟

جلستْ في السرير وأدركتْ أن الوقت ليل. جلستْ في السرير المرة

تلو المرة، وهي تتصور نفسها تنحّي جانباً ملاءة السرير، وتسير إلى المدخل، إلى الغرفة الخارجية، إلى الهواء العليل في الخارج.

***

سمع سبارو ابنة خالته تستيقظ من النوم. كان قد دهمه النعاس وهو جالس على كرسي بجوار سريرها. كانت قد غادرت الغرفة في وقتٍ سابق وانعطفتْ نحو الرواق قبل أن يفتح عينيه تماماً. لم يكنْ بمستطاعه أن يتحرك. سوف ترى البوسترات التي كانت تجف على طاولة المطبخ. دا شان والدب الطائر أُرغما على أن ينتقدا تسهولي، سويرل ووِين الحالم، وهذه الاتهامات سوف تُلصق صباحاً. «سمِّها ابنة البذاءة اليمينية»، وجّه الأب لوت. «عليك أن تفعل. فقط دوّنْ ذلك. لا تنظرْ إليَّ هكذا. إنه لا شيء، مجرد كلمات».

لطخ دا شان الحبر، ورمى أبوه البوستر وجعله يعيده من جديد.

«دا شان»، قال له، «إن لم تتهمْ تسهولي، سيكون الحال أسوأ بالنسبة لها. سوف يغيرون رأيهم ويقولون إنها شيطان، كونها تسربتْ إلى حيواتنا. دعوهم يذلونا، إن كان هذا هو مبتغاهم. أليس من الأفضل أن يذلونا؟ هل تريد أن يفقد أبوك المسكين، وأشقاؤك حيواتهم؟».

مرتعشاً، غطس المراهق فرشاته. بعنايةٍ، كتب اسم تسهولي.

استدعي الأب لوت إلى [المعهد العالي للموسيقى] مرتين حتى الآن، حيث استمرتْ جلسات النزاع اثنتي عشرة ساعة كاملة. جارهم السيد «ما» توارى عن الأنظار، وكذلك مدرّس تسهولي: تان هونغ. «النقد الذي تلقيته خفيف جدّاً، مقارنةً بالآخرين»، قال الأب لوت، حين عاد. كانت ثمة كدمات في أنحاء جسده كلها. إحدى عينيه متورمة ومغمضة وكان وجهه ينزف ومائلاً إلى الجانب، غير أن متهميه، طلبته هو في [الكونسرفتوار]، تركوا يديه وشأنهما. الأشخاص الذين صُنّفوا باعتبارهم يمينيين في الحملات الأبكر، حتى أولئك الذين، على غرار سويرل، أُعيد تأهيلهم، كانوا أقل منهم حظّاً بكثير.

مرتين، أخذ أعضاء «الحرس الأحمر» سبارو. كانوا قد حبسوه في حجرة مخزن في «الكونسرفتوار» إنما لم يأتِ أحدٌ كي ينتقده أو يتهمه. في الختام، فُتح الباب وأبعدوه. بدا كما لو أنّه طفا تحت الماء، في داخل فقاعة هواء. في الشوارع، كان الطلبة ينشدون ويبكون وينادون بمحبتهم. كان المستهدفون الذين سبق أن أُذلوا مرةً واحدة كانوا يتعرّضون للإذلال مراراً، كأن وجهاً مألوفاً قد أظهر للعيان الأشخاص الأكثر كراهيةً، كان هؤلاء هم الأشخاص الذين يجب لومهم بسبب تخليهم عن وعدهم بتحقيق الحداثة، التضحيات العنيفة للثورة، هذا الحقد الذي بدا كأنه ينقل عدواه إلى الأشخاص اليافعين جدّاً. ومع ذلك لم يكنْ حقداً، كان شجاعةً وكانوا جنوداً أوفياء يدافعون عن الرئيس. يتعيّن على سبارو أن يحمي تسهولي، عليه أن يجد مخبأً، لكن أين؟ كان أبوه قد قال إن العنف يكون في أقصى درجاته في الجامعات. أعلن الراديو جهاراً أنه، في بكين، الكاتب فو لِي[1]، الذي ذاع صيته في يوم ما على ترجماته لـ بلزاك وفولتير، كان يخضع إلى جلسات نزاع جنباً إلى جنب مع زوجته. أُحرقتْ جميع كتب الأسرة ودُمر البيانو. ابنهما، عازف البيانو فو تسوأونغ كان قد ملأ نموذجاً وحصل على حق اللجوء السياسي في الغرب. الأب، فو لِي، الخائن الهادئ، الإبرة المسمومة الملفوفة بغطاء حريري، كان قد وُبِّخ أخيراً.

بات الصباح أحرّ. حين أفاق سبارو من نومه مجدداً، كانت تسهولي جالسةً في السرير، تحت النافذة. كانت قد تركتْ حيزاً لأمها، كما لو أنّ سويرل من الجائز أن تصل إلى البيت في أيّ لحظة. بشعرها المقصوص، بدتْ أصغر سناً مما هي عليه.

---

1 – فو لِي (1908 – 1966): مترجم وناقد فني صيني شهير. درس الفن ونظرية الفن في فرنسا بين سنتي 1928 و 1932. لدى عودته درّس في شنغهاي وعمل صحافياً وناقداً فنياً إلى أن تبنى الترجمة. ترجم عن الفرنسية أعمالاً أدبية لـ فولتير، بلزاك، رومان رولان ومالارميه. أنشأ أسلوبه الخاص في الكتابة ونظريته الخاصة بالترجمة التي تؤكد على روح النص. في 1957 وُضع ضمن زمرة اليمينيين. في العام 1966، في بداية «الثورة الثقافية»، انتحر هو وزوجته – م.

«لا بأس»، قالت. «يمكنكَ أن تعود إلى النوم».

«لم أكنْ نائماً». جلس في كرسيه، دعك وجهه، وطرد أحلامه القلقة. «لا، كنتُ أفكر فحسب».

«إنني بخير الآن، وأنا أعرف متى تروي الأكاذيب».

ابتسم. كانت إحدى يديها قد انتقلتْ إلى الذراع المعاكسة، مرتفعةً إلى كتفها، لتجد نهايات شعرها.

«ستة أشهر»، قالت تسهولي بصوتٍ منخفض، «وكل شيء ينبت من جديد». تطلّع إليها، وإلى اللطخات الداكنة على وجهها، الكدمات التي أمستْ شاحبةً بنحو سقيم، ما جعلها تبدو قاتمة على الرغم من نور الشمس في الحجرة. «سبارو، هل رأيتَ كماني؟».

«كمانكِ»، قال بغباء.

انتظرتْ جوابه، وراحتْ تراقبه.

«تسهولي»، أجابها. احتقر التهدج في صوته فخفضه. «كان محطماً». أومأتْ برأسها، كما لو أنّها كانت تنتظر النصف الثاني من الجملة. نظر إليها بعجز. «كان محطماً».

«كان»، قالت. «لكن في حينها...».

«أقبل [الحرس الأحمر] أمس، لا، قبل يومين. جاؤوا وهشموا جميع الآلات الموسيقية. لكنهم حتى أتوا إلى هنا لكن الأب... طلبنا منهم أن يغادروا المنزل. كان الأب لوت قد اتهم، كان يتعيَّن عليه الذهاب إلى اجتماع ما لكنه انتهى الآن. الكونسرفتوار مغلق. ربما إلى الأبد».

أومأتْ تسهولي برأسها. بدتْ، في نظر سبارو، واضحةً بصورة لا تُطاق تقريباً.

«أين دا شان والدب الطائر؟» سألته.

«في تسهيجيانغ مع ابن عم أبي. السيدة [ما] أخذتهم بالقطار. يلزمكِ أن تذهبي أنتِ أيضاً».

«أجل»، قالت، ومن ثم بطريقةٍ وقحةٍ جدّاً تنمّ عن عدم الاحترام لم

يصدقْ تماماً أنها تكلمتْ. «كان يلزمني أن أدرس الزراعة على كل حال. ابن خالتي، ألم تستمعْ إلى المذياع؟ الحملة في كل مكان. تسهيجيانغ لا تختلف عن هذا المكان».

لم يخبرها أن أربعة أساتذة جامعيين في «المعهد العالي للموسيقى» انتحروا في الأسبوع المنصرم وأن البروفيسور المدعو تان قد حُبس في حجرة من دون طعامٍ أو ضوء كافيين. لم تذكرْ تسهولي الاتهامات التي كتبها دا شان. موجة من الهتافات اجتاحت الشوارع لكنهم تصرفوا كأنهم لم يسمعوها. تحركوا على طول «شارع بكين»، وطوّقوهم. سألته تسهولي ما إذا رأى كاي.

«رأيته قبل يومين. لا يمكنني أن أجزم كيف حاله».

«لكنه سيكون مصاناً، أليس كذلك؟ لا أحدَ يلحق به الأذى. إنهم لن يؤذوك».

كان الشعور في نبرة صوتها قد أتى من زمنٍ آخر، اشتياق قديم لا يعرف كيف يخبو. لم يكنْ يعرف ماذا يلزمه أن يفعل عدا الإيماء برأسه.

أغمضتْ عينيها. «إنني سعيدة، ابن خالتي».

حين تحدثتْ ثانيةً، كانت نبرة صوتها هادئةً جدّاً. «إنني سعيدة»، قالت. لمستْ شعرها من جديد ومن ثم تركته وشأنه. «إنه كالصباح حينما تصطبغ النجوم بضوء النهار، سبارو. إنكَ تعتقد أنه بعيد جداً هذا النور كله، وعلى أية حال ثمة كون شاسع من النجوم وأشياء أخرى وهكذا فأنتَ لا تصدق أنها سوف تختفي... سبارو، من بين الأشياء كلها يقولون إنني، - إنهم محقون - متكبرة. كنتُ متكبرةً كي أكون أنا نفسي. إنني أعتقد بالفعل أنني ذات يوم سوف أعزف أمام الرئيس نفسه، بأنني سأذهب إلى لندن وموسكو وبرلين!». قهقهتْ، مثل طفلٍ يقهقه على التصرفات الغريبة لطفل مدلل صغير. «إنني أعرف الآن. تلك الأمكنة سوف تكون بالنسبة لي كلمات على الدوام. إن زهوي عظيم جداً بحيث إنّني أتصوّر بأنني سأقف في الغرفة التي أقام فيها باخ، سأرى خط يده،

حجراته وسريره الصغير، وسأُظهر للناس ماذا يعني ذلك بالنسبة لي. سوف يسمعونها. سوف يسمعون باخ الساكن فيَّ، سوف يعرفون أنه ملكي، أيضاً. لا أدري كيف، لا أدري لماذا...».

كانت الشفافية في عينيْ تسهولي قد زرعت الخوف في نفسه.

«كانت ثمة مزحة في داخلها»، قالت تسهولي، «لهذا السبب كان الجميع يضحكون عليَّ. أتفهم؟ هذه الأشياء كلها التي لا نملكها هي لا شيء *بالمقارنة مع الأشياء التي نملكها فعليّاً*. الحياة قد تكون طويلةً أو قصيرةً إنما في داخلها، إن كنا محظوظين، هي هذه الفتحة الواحدة... إنني أحدّق عبر هذه النافذة وأكوّن رأيي الخاص بالكون ولعله رأي خاطئ، لا أعرف أيَّ شيء إضافي. لم أنقطعْ عن حبي لبلدي إلّا أنّني أريد أن أكون وفيةً لشيءٍ آخر، كذلك. لقد رأيتُ الأشياء... لا أريد النوع الآخر من الحياة».

وقف سبارو ومضى ليغلق الباب الذي كان مغلقاً أصلاً. مضى إلى الشباك، الذي كان مغلقاً بالمزلاج بإحكام، سحب الستائر وحاول أن يفكر بما يجب عليه أن يفعله. «غداً»، قال، «سوف آخذكِ إلى تسهيجيانغ. لن تكوني وحدكِ. الدب الطائر ودا شان -».

«لا»، قالت. «سيسبب ذلك مشكلةً لهما».

لكن ما هو الخيار هناك؟ إنه شيء لا يُطاق بأنه يجب أن لا يكون هناك مهرَب. فكّر، حدّث نفسه، عليكَ أن تفكر بوضوح. دفتر الملاحظات، قلم الحبر والكوب بجانب السرير لفتت انتباهه، وزحلق قلم الحبر جانباً والتقط دفتر الملاحظات. كان يرتجف. كان مَشهد خط يد وِين الحالم قد أقلقه. أين هي بغ موذر، أين سويرل؟ هما وحدهما، وليس هو أو أبوه، يعرفان كيف يحميانها؟ احتقر ضعفه هو. «تسهولي»، قال. «هذه الفوضى سوف تنتهي. لا بدَّ لها أن تنتهي».

«أبي المسكين. ماذا سيشعر حين يأتي إلى البيت ويرى ماذا جرى لنا كلنا؟».

لم يجبْ وتسهولي مدتْ يدها إليه، إلى دفتر الملاحظات. «لقد أكملتُ هذا. دعينا نستمر. الفصل 17، إنه فصلكِ الأثير، صحيح؟ هو ذا الصندوق، في أسفل السرير. عليَّ أن أخفيه عن الأب لوت».

أخرج الصندوق ورفعه. مشطتْ تسهولي شعرها بيديها، كما لو أنها تستعد لاستقبال زائر. أردفتْ قائلةً: «لديَّ الفكرة القائلة... ربما، منذ أمدٍ بعيد، [كتاب السجلات التاريخية] تجري وقائعه في المستقبل الذي لم نصلْ إليه بعدُ. لهذا السبب يبدو مألوفاً جدّاً بالنسبة لنا الآن. المستقبل يصل الآن. لقد قطعنا هذه المسافة كلها كي نلتقيه».

«أو ربما»، قال، «نحن الذين دأبنا على الرجوع إلى اللحظة نفسها».

«في المرة القادمة، سوف نلتقي في مكانٍ آخر، أليس كذلك، سبارو؟».

«نعم، تسهولي».

قرأ سبارو الفصل بصوتٍ مرتفع بينما كان العصر يغدو مساءً، كما لو أنّ القراءة من [كتاب السجلات التاريخية] هي غلق الباب الخارجي نفسه وتثبيته بالرتاج. في داخل الغرفة، سوف يغادر دا – وِي أميركا حالاً ويؤوب إلى الوطن، إنما قبل مغادرته، مؤلف موسيقي يحمل اسم تشاو يأتي به للتدريب في «قاعة كارنيجي للحفلات الموسيقية». مئة موسيقي يتشعبون من الشخصية الرئيسة لقائد الأوركسترا، إدغار فاريسي[1]، وفي غضون ذلك، أوركسترا ثانية، أصغر تعزف من غرفةٍ متاخمة. متناوبتين ومتطابقتين، مسموعتين إنما غير مرئيتين إحداهما للأخرى، كانت الفرقتان الموسيقيتان تعزفان سيمفونية واحدة مستخدمتين الطبول، المنبهات، شذراتٍ من الأغاني، صفارات الإنذار، فلوت يطلق صياحاً، الضربة المدوية وقعقعة الأبواق العاصمية «نسبة إلى العاصمة». كان صخب السمفونية هو أجمل شيء سمعه دا – وِي في حياته كلها حتى الآن. يبدو أنه في الوقت نفسه يحتويه ويُدخله في طريقه.

---

1 – إدغار فاريسي Edgard Varèse (1883 – 1965): مؤلف موسيقي مولود في فرنسا، أمضى معظم أعوام مسيرته الإبداعية في الولايات المتحدة الأميركية – م.

«دا - وِي ينبغي ألّا يعود»، يقول تشو فيما بعد. «فات الأوان على العودة».

دا - وِي لا يعرف كيف يجيب. أمامه، كانت الأوركسترا قد أخلتْ خشبة المسرح إلّا أنَّ مشاجب موسيقاهم[1] ظلتْ تنتظر مثل سربٍ من الغرانيق.

«أنا»، يقول تشو، «غادرتُ شنغهاي خلال أسوأ مراحل القتال. كان اليابانيون يطاردوننا، لكننا استطعنا أن نختفي في الزحام...». وجهه، المفعم جدّاً بالحيوية في قصته، انقلب كئيباً. «الجيش يخاف مجموعةً أخرى، توهَّم أنهم نحن. طوقوهم وأطلقوا عليهم النيران. ذُبحوا... رأيتَ كيف كان الوضع. الحياة مقابل حياة. لا يمكنني الرجوع».

في حجرة الاجتماع، يبدو كما لو أنّ مئات الكراسي كلها كانت مائلة نحوهم، تصغي.

«إنني أقول لك: بلدنا لا يريدنا. أنا وأنت، نحن كلنا /m/n y، أشخاصٌ مخصيون، أي بمعنى آخر، سوف نكون عما قريب أكثر الأشخاص ابتذالاً في الوجود».

حين انتهى الفصل، أخذتْ تسهولي دفتر الملاحظات بين يديها. قالت: «لم يسبقْ لي أن سمعتُ [فاريسي]. سمعتُ نزراً يسيراً جدّاً من الموسيقى الحديثة في القرن العشرين. أودّ، في يومٍ ما، أن يكون بمستطاعي الذهاب إلى الخارج والاستماع إلى ما يسمعونه هم». قالت، كما لو أنّها لم تدركْ حتى هذه اللحظة: «دا - وِي هو ظلّ أبي. طوال هذه الأعوام كلها، بسبب خط اليد، تصورتُ أنه كان يكتب لنا مباشرةً. يكتب لي. إنه ليس كتاباً فقط، هل هو كتاب؟... سبارو، عِدني. لا تدع الأب لوت يحرق دفاتر الملاحظات».

«نعم، تسهولي. أعدكِ».

***

---

1 - مشاجب موسيقاهم: بالإنكليزية: their music stands: الحوامل التي تُوضع عليها النوتات الموسيقية «المكتوبة على الورق» - م.

تقريباً على مبعدة ثلاثة آلاف كيلومتر، وصل وِين الحالم إلى «مدينة يومين»، محافظة غانسو. منذ هربه من جيابانغو، كان قد عبر وعبر ثانيةً الشمال الغربي طوال ما يقارب عامين، لم يعدْ ذاك الشاب المولع بالكتب والمطالعة ذو القصائد المطوية في جيبه. في منتصف عقده الرابع، هو الذي لفحته أشعة الشمس وأحرقته الريح، شاخ قبل أوانه، كان رشيقاً، يقظاً وقوي البنية. سرق الهويات التعريفية للمسافرين العابرين، ومن هنا شرع يبدل اسمه شهريّاً؛ كان يتوقف عند الضرورة، كي يكسب المال أو يحصل على كوبونات الحصص التموينية من خلال العمل في حقول القمح أو الدخن، أو معمل إسمنت. بحقيبة سفره المتهرئة، اجتاز واجتاز مجدداً الصحراء، وتعلّم كيف يقيم في سطح القمر[1] الجاف لـ «محافظة غانسو»، كيف يتملص من الاعتقال وكيف يحضر في الهواء وحيداً. في أحد الأيام، وجد في ركامٍ من الكتب في كسينجيانغ، نسخةً من الفصل السادس من «كتاب الأسطوانات». تفرّس في الصفحات، خائفاً من أن يكون قد ضاع. هلوس بأن دا – وِي، ميّ فورث و«كتاب السجلات التاريخية» هم مجرد أسطورة، قصبة رمزية أو نظام كانت حياتهم كلها معقودةً حوله. وهي ترى محنته، انبرت الطفلة التي تعتني بأكداس الكتب قائلةً: أبي قرأ الكتاب من أوله إلى آخره، حصل عليه من ابن عمنا. إنه لا يملك الكتاب كله، بل عدداً قليلاً من فصوله. هذا الفصل إضافي. لن يبيع بقية الفصول».

«أين يقيم ابن عمكِ؟».

رفعت الطفلة حاجبيها الشاحبين. «جين تشانغ. إنه يعمل في منجم النيكل».

في تلك الليلة، طالع وِين دفتر الملاحظات من دون توقف قصير، التهمه كما لو كان طبق طعام، مقتنعاً مع كل صفحة يقلبها أنه كان يعرف الخط وسوف يعرفه على الدوام. في هذه النسخة،

---

1 – سطح القمر moonscape: استخدمت الكاتبة هذا التعبير المجازي دلالة على المنطقة التي دمرتها الحرب أو ساوتها مع الأرض، وبخاصة بواسطة القنابل أو الصواريخ البالستية – م.

غُيّر اسم شخصية ثانوية: الناسخ استخدم الحرف الأبجدي 谓 الذي كان الـوِي من «نهر وِي»، الذي كان ينبع من «محافظة غانسو».

سافر إلى جين تشانغ، وهي مدينة مثيرة للفضول بمبانيها المبعثرة ذات التصميم الغريب، قيل إنها كانت بقايا منازل ذات طراز روماني تركها ألف جندي منفي استقروا هناك قبل ألفيْ عام مضى. كان الأشخاص المنحدرون منهم يولدون غالباً بعيون خضر وشعر أحمر مُرعب. في أيامنا هذه، باتت المدينة أشهر بسبب نيكلها ومعادنها الثمينة. في جين تشانغ، وجد فصلاً آخر، منسوخاً بآلةٍ أيضاً، يرجع تاريخه إلى ستة أسابيع ماضية فقط، واستخدم فيه الشيفرة ذاتها. كان مالك أكداس الكتب متكتماً، لكنه في الختام وثق به وقال له إنه تلقى الفصل من فلاح بطيخ في لاندتسهو. تعقب وِين الحالم أثره، نزل نصف دزينة من الطرقات والفصول إلى أن، في أحد الأيام، طرق باب «ملاحظات من تحت الأرض»، عيادة النباتات والأزهار للسيدة دويستويفسكي.

«عزيزي أيها الرجل»، قالت السيدة. «إنه الوقت المناسب تقريباً. كنتُ متيقنةً من أنني سأكون في عِداد الأموات في الوقت الذي تصل فيه أخيراً إلى هنا».

أخبرته أن سويرل كانت في «مدينة يومين» مع شقيقتها، حيث كانت المرأتان تعملان في فرقة الغناء والرقص المحلية. حين غادر، دستْ في يده نسخةً من «*المطر على الجبل با*»، التي كانت تعود في يومٍ ما لابنته وكانت لا تزال هناك كتابة يد تسهولي في حواشيه.

بعد مضي أسبوع، ظهر وِين الحالم في نيومين، نحيفاً كورقة عشب. كان قد جاء إلى المسكن البسيط الذي وصفته «السيدة دويستويفسكي»، حيث أقامتْ سويرل مع بغ موذر نايف. خفق ضوء مصباح وراء الستارة. وقف في الخارج مع حقيبة السفر العائدة له زمناً طويلاً، خائفاً من أن يدعها تراه، خائفاً من تصور انقطاع عزلته، خائفاً من المستقبل ومن الماضي

أيضاً. تذكّر كيف اعتاد أن يراقب شباك سويرل في شنغهاي، منتظراً أن يُطفأ المصباح كي يستطيع أن يُسلّم فصلاً جديداً من «كتاب السجلات التاريخية». في عمرٍ سابق. في عمرين. الآن جميع النسخ تحمل تسجيلاً للأمكنة التي كانوا موجودين فيها، الأمكنة التي أُجبروا على مغادرتها. حاول أن يقص شعره، أن ينظف نفسه ويرفو ملابسه، إنما لا يزال يحس بالبحر العصي على العبور بين ما كان عليه وما يُمكن أن يكون عليه.

حين ربّتَ برفق على إطار النافذة، أقبلتْ سويرل إلى الباب وفتحته. تفرستْ فيه كما لو أنها تتفرس في شبح.

حين تلا وِين الحالم البيت الشعري الشهير لـلِي بي[1]: «انظرْ إلى مياه [النهر الأصفر] تقفز نازلةً من السماء، تتدحرج إلى البحر، ولا ترجع ثانيةً».

«كتبَ عليها القدر»، أجابتْ سويرل، «أن تعود في دوّامةٍ من الغبار».[2]

بغ موذر، التي كانت واقفةً خلف سويرل عند الباب، تبدّتْ للعيان. بهدوء، كما لو أنّه كان يأتي كل مساء، حضنته. ومن ثم لفّتْ نفسها بكنزة صوفية سميكة وتركتهما وحدهما. سارتْ زمناً طويلاً على طول قمة التل القريبة. مصابيح من مصفاة النفط أضاءتْ شبكةً من العمال الليليين. كانت السماء أرجوانية داكنة، مليئة بنذير شؤم. حين رجعتْ بغ موذر، رأتْ أن شقيقتها ووِين واقفين جنباً إلى جنب في ظلال المنزل. كانت النجوم خافتة الضوء وراودها الإحساس بأن سماء الليل كانت تتحرر من الأرض وترتفع عالياً. غير مرة شاهدتهما بغ موذر منحنيين أو متحركين، إن لم نقل يلمس أحدهما الآخر. بعد أن انفصلا نحو عقد من الزمن، وقفا بخفةٍ شديدةٍ، كما لو أنّ الأرض نفسها لا يمكن الوثوق بها. لعلهما كانا يتكلمان عن كيف أن ابنتهما، في منزلٍ من مثل منزل

---

1 - لِي بي (701 – 762): شاعر صيني نال الاستحسان بدءاً من زمنه حتى الآن بوصفه شخصية عبقريةً ورومانسيةً، أخذ الأشكال الشعرية التقليدية إلى مصافات جديدة. هو وصديقه دو فو (712 – 770) كانا أبرز شخصيتين في ازدهار الشعر الصيني إبان سلالة تانغ الحاكمة الذي يُسمى عادة «العصر الذهبي للشعر الصيني» – م.

2 - نرجو من القارئ اللبيب الانتباه إلى أن اسم «سويرل Swirl»: يعني: دوّامة – م.

الأب لوت، في منزل بطلٍ من أبطال الحزب، ربما تُتاح لها الفرصة بأن تنجح. ربما لم يتحدثا عن تسهولي، بل عن شيءٍ آخر مختلف تماماً، عن علاقاتٍ حميمةٍ وحيواتٍ غير مكتوبة. كان ذلك كي تسمع الريح، بغ موذر أخبرتْ سبارو فيما بعد، وليس لأنها كانت تحب ذلك.

حين غادر وِين الحالم وسويرل ليلاً، في محاولةٍ منهما للهرب إلى المناطق الحدودية. منغوليا، كان بالمستطاع الوصول إليها في بحر يومين، وكان لـ وين اتصالات بأشخاصٍ بوسعهم أن يُقدموا لهما المساعدة في الجانب الآخر.

في صبيحة اليوم التالي، بدأتْ بغ موذر بكتابة رسالة إلى تسهولي، تركز عينها السليمة على الصفحة. ستجد طريقةً ما لإرسالها، بالتوافق مع الرسائل الآتية من سويرل ووِين، ما إن تشعر أن ذلك عملٌ لا ينطوي على أيّ خطورة. *كان قلبي مثقلاً بالهم طوال ساعات اليوم*، فكرتْ، وهي تتذكر القصيدة التي تلتها بمناسبة زفاف شقيقتها. *شقيقتك الكبرى، اعتنتْ بكِ. وها أنتما الآن تبكيان ولا يمكنكما أن تنفصلا، مع ذلك إنه شيء صحيح أن عليكما أن تستمرا...*

في الرسالة التي بعثتها إلى تسهولي، كتبتْ: «شاهدتهما وهما يغادران على مهر. هل يمكنكِ أن تتخيلي؟ كما لو كانا قد رجعا إلى أيام شبابهما». كانت عبراتها تجعّد الصفحة. طوت الرسالة وأخفتْ كلماتها. في مساء ذلك اليوم، مضتْ إلى «سكرتارية الحزب» المحلية وأخبرتهم أن شقيقتها كانت قد هربتْ وغرقتْ في «نهر وِي». حاولتْ أن تنقذ سويرل، إلّا أنّ التيار كان جارفاً جدّاً، الماء النتن، الملوّث بفضلات المعامل، حملها بعيداً. استدعى «سكرتير الحزب» فرقةً للبحث. بعد مرور خمسة أيام، من دون أن تظهر علامة تدل على الجثمان وقلقاً بشأن ارتفاع حصص الإنتاج والحملة السياسية الجديدة، أعلن جهاراً أن سويرل باتتْ في عِداد الأموات، وقّع أوراقها وأغلق ملفّها.

***

في شنغهاي، كان «الحرس الأحمر» قد أخذوا سبارو ومرَّ أسبوع كامل من دون أن يتكلموا عنه كلمةً واحدة. جاءتْ مجموعة أخرى إلى تسهولي في يومي الثلاثاء والأربعاء، ومن ثم تركوها وحدها حتى الأحد. كان يوم الأحد هو الأسوأ و«الحرس الأحمر» أقبلوا ثانيةً يوم الاثنين. في يوم الثلاثاء، أتى سبارو إلى البيت، جائعاً ومستنزَفاً، إنما لم يلحقْ به أذى. كانوا قد عزلوه في غرفةٍ اتخذتْ مخزناً ومن ثم أخلوا سبيله. كان ذلك شيئاً عصيّاً على التفسير. في الشوارع، كانت مكبرات الصوت تدوّي من كل حدب وصوب. أعلن برنامج الأخبار الرسمية أن لاو شي[1]، الذي كان وِين الحالم مغرماً بمسرحياته، والذي احتفي به باعتباره «فنان الشعب»، قد غرق منتحراً. كي يحتفوا بموته، كانت موسيقى مارش بهيج[2] تأتي راقصةً من مكبرات الصوت. في منتصف البرنامج الإذاعي دخل «الحرس الأحمر» إلى المنزل. على الرغم من توسل سبارو، على الرغم من قبضه على تسهولي، أخذوها. كانت يدها قد أفلتتْ يده. في الواقع، كان الخوف في نبرة صوت سبارو قد أفزعتها كثيراً، أغمضتْ تسهولي عينيها وحررتْ يدها.

في بداية الأمر، زملاء تسهولي في الصف كانوا خلّاقين. كانت لديهم شعارات وطرائق جديدة، كانت لديهم وسائل جديدة من مثل دلاء القمامة، عصي قادة الفرق الموسيقية وأمواس الحلاقة. كانت ثمة صفة كوميدية في هذه الوسائل كلها، كل ضحكة تصطدم بالضحكة التي تليها، ضحك متفجر، ضحك شائك، ضحك أشبه بسلك ممدود على الأرض يحتوي على مادة متفجرة لإيقاع عدوّ أو حيوان في الفخ، أسئلة ليستْ كالأسئلة، الاعترافات التي يريدونها لا صلة لها بالاعتراف.

---

1 - لاو شي (1899 – 1966): روائي وكاتب دراما صيني. يُعدُّ واحداً من أهم الشخصيات في الأدب الصيني إبان القرن العشرين، اشتهر بروايته «صبي الجنركشة»، ومسرحيته «الجايخانة». حاله حال الكثيرين من المثقفين والأدباء والفنانين، خبر سوء المعاملة إبان «الثورة الثقافية» في عهد ماو تسي تونغ. انتحر غرقاً في العام 1966، في بحيرة تايبنغ، بكين – م.

2 – موسيقى مارش بهيج: في النص الإنكليزي joyful marching music – م.

كانوا ينشدون مراراً وتكراراً:

ماء الاشتراكية غذّاني، نشأتُ في ظلّ [العلم الأحمر]
إنني أُقسم،
أن أجرؤ على التفكير، أن أتكلم بوضوح، أن أفعل،
أن أكرّس نفسي للثورة.[1]

كان يطيب لهم أن ينشدوا. كانت تلك هي الطريقة التي نظروا بها إليها، الحقد التام، الازدراء، لا يمكنها أن تطيقهما. الثوريون فقدوا حالاً شغفهم بوسائلهم هم، وهم الآن يضربونها بأيديهم المجردة. قال كاي إنها كانت على الدوام تهتم بالموسيقى وبرغباتها أكثر من اهتمامها بالحزب. قال إنه حاول أن يرشدها في ما يتعلق بالأعمال الصائبة، وحتى وصل به الحدّ بأن ينسخها بيده لها، لكنها رفضتها. كان أبواها عدوَّين للشعب ورفضتْ تسهولي أن تبلّغ عنهما. كانت خليعةً وليس لها معايير أخلاقية، كانت فاسدة الأخلاق. كل الأهواء والنزوات يجب أن تُصنّف في ظلِّ الثورة، قال. تكلم بإسهاب ولم يتوقفْ عن الكلام، لكنه لم يأتِ على ذكر اسم سبارو ولم يخُنه. وحين نضبتْ كلماته، غادر ولم يرجعْ ثانيةً. عقب ذلك، شعرتْ أنها فهمتْ كل شيء. بدأت الموسيقى بفعل التأليف الموسيقي إلّا أنّها هي نفسها كانت مجرد آلة موسيقية، مجرد كأس تحتوي الماء. لو أنّها ردّتْ على الاتهام أو دافعتْ عن نفسها، لن تعود قادرةً على سماع العالم الذي تسرّب إليها أخيراً. موسيقى عالية، غريبة. استمرت في الالتفات كي تحاول أن تضع هذه الأوركسترا الثانية، هذه الحجرة الخارجية، وفي غضون ذلك الشبيبة الثورية استمروا في أن يجعلوا وجهها إلى الأمام

1 – «ماء الاشتراكية غذّاني...». كلمات أغنية شعبية من أغنية «الاشتياق لـ ماو تسي تونغ»، رتبها لي جيفو. هونغ وينغ جيشنغ [صوت الحرس الأحمر] (بكين: هودو داتسهوان كـيكسياو هونغ وينغ دياي بياو داهوي، 1969): 99 – ك.

وأن تنظر إلى الأرض. رأتْ أيديهم تصيح وأفواههم تبتسم. بصمتٍ، وبَّختْ نفسها. الحيوانات، فكرت، لا تبكي. بدلاً من ذلك هم لم يشيحوا أبصارهم قط.

في ذلك اليوم، جلبها سبارو إلى المنزل. لم يستطع الكف عن البكاء وأدركتْ هي أنه لم يسبقْ لها أن رأته يتداعى وقد أدخل هذا الرعب إلى نفسها. لكنه في مأمن، فكرتْ. «الحرس الأحمر» لم يؤذوه. فكرتْ أن كاي هو الذي حماه. على الدوام، كان عازف البيانو وراء سبارو مباشرةً، يقظاً، لكن ربما كان ذلك كله في بالها. مع ذلك، ثمة صلةٌ ما بين هؤلاء الثلاثة لا يمكن أن تنفصم عراها، إنه المستقبل الذي يجب أن يكون، لو أنّ البلد اختار نهجاً آخر. كانت تريد أن تطرح على كاي أسئلةً كثيرةً جدّاً. كانت تريد أن تخبره أنه مهما جرى، مهما اختاروا، في يوم ما عليهم أن يستيقظوا، الجميع عليهم أن يقفوا ويواجهوا أنفسهم وأنْ يفهموا أن الحزب ليس هو الذي دفعهم لأن يفعلوا ذلك. في يوم ما، سيكونون وحدهم مع أفعالهم. كان تنوي أن تقول له: «لا تدعهم يؤذوا يديك. يديك الموهوبتين». كانت تروم أن تقول لـ سبارو: «مهما يحصل، عليكَ أن تكمل سيمفونيتك. أرجوك، لا تدعها تختفي». أيهما أهم: أن تُحب أم أن تكون محبوباً؟ لئن أجابها أيّ شخص عن سؤالها، هي لم تفهم الكلام. إنني في مكانٍ قصيّ الآن، فكرت تسهولي، ذلك أن الكلمات كانت تتلاشى قبل أن تصل إليّ.

كم يبعد عنا ذاك، فكرتْ. شعرتْ بأنها وحيدةٌ بنحو رهيب. كم هي المسافة الفاصلة؟

***

حين كان دا شان والدب الطائر بعيدين في تسهيجيانغ، كان المنزل الواقع في الزقاق هادئاً. في يوم الخميس، أفاقتْ من نومها مبكراً جدّاً على جاري عادتها. كان الظلام الحبري لليل يحميها حين ترتدي فستانها الأزرق الأثير، ثبتت الحافات الخشنة من شعرها جانبياً بواسطة

دبوس، جمعتْ ما كانت تحتاجه وانسلّتْ بخفة عبر الباب الأمامي. آلهة الصمت حموها لا سبارو ولا زوج خالتها استيقظا من النوم؛ وإذا ما كانا مستيقظين، فقد اختارا ألّا يمنعاها من المغادرة. كان الليل حلماً، احتواها دفء خالص وبدا كأنه يهدئها ويبقيها يقظةً. كانت بالكاد قادرة على المشي وفضلاً عن ذلك لا شيءَ يؤذيها. سَلَكت الشوارع الفرعية والأزقة المؤدية إلى الكونسرفتوار واستغرقت الرحلة زمناً طويلاً. نيران صغيرة كانت تشتعل. وصلتْ إلى تقاطع كانت تتكدس فيه الكتب عالياً. بدتْ كأنها سقطتْ من شاحنة، كانت قد اتخذتْ شكل كثيب من الرمل. هنا وهناك، ثمة مجاميع من الطلبة ينامون في العراء. استيقظتْ طالبةٌ جامعيةٌ من نومها وشاهدتها تمرّ من هناك إنما بدا كأنها تعتقد أن تسهولي كانت جزءاً من حلمها؛ تطلع إليها أفراد «الحرس الأحمر» ولم يفعلوا شيئاً. كانت هناك ملصقات في الأمكنة كلها، صياح أخرس كان يطوّق تسهولي لكنه لم يعدْ يخيفها. لم تكنْ تعرف كيف أو لماذا، لكنها الآن فهمتْ، توصلت الآن إلى قرار، المخاوف القديمة كانت قد تلاشتْ تماماً. وهم نيام، الثوريون يبدون بريئين، يبدون كما لو أنّهم نكرات. سارتْ تسهولي ورأتْ بناياتٍ، شوارعَ مكسوةً بأشياءٍ مبعثرةٍ، مصابيح متضررة، فضلات من الملابس، قطع أثاث محطّمة. أحسّتْ بصلادة الرصيف، الهواء الأزرق – الأسود وحتى انعدام وزن فستانها. مهما كانت الجهة التي كانت تنعطف إليها، كانت الطرقات تلتوي وتقودها إلى «المعهد العالي للموسيقى»، كان هذا على الدوام مسار حياتها. وراء البوابة، كان الفناء زاخراً بالحيوية بفعل الظلال، أكداس صغيرة وكبيرة من النفايات تحركتْ بينها كما لو كانت صفّاً من المقاعد الخالية. كان باب «المعهد العالي للموسيقى» مسنوداً ومفتوحاً بفردة حذاء، لم تكنْ تعرف لماذا، لكنها تركتْ فردة الحذاء في موضعها، دفعت الباب برفق كي توسّع فتحة الباب ودلفتْ إلى الداخل. ظنتْ أنها شاهدتْ برامج مهجورة، حقائب يدوية مفقودة، سترات منسية ومن ثم، بعد لحظةٍ، انتهى الهذيان ووصلتْ إلى السلّم الذي صعدته

أول مرة آنَ كانت طفلةً، حين أحضرها سبارو، وهو يمسك بيدها، كي تدرس مع البروفيسور تان.

كان الكونسرفتوار يعبق برائحة الرطوبة والنار معاً، رائحة بدتْ، حين تنقلتْ عبر البناية، كأنها آتية من الورشة حيث كان البروفيسور تان قد صنع الكمانات مستخدماً ألواحاً خفيفةً من خشب شجر الباراسول. توقفتْ تسهولي وحدّقتْ في الباب، وهي تفكر أنه ربما يكون هناك كمان يمكنها أن تأخذه معها وتعزف عليه، كمان يمكنها أن تجعله كمانها. لكنها لم تجدْ شيئاً. قطع صغيرة من الخشب بدتْ كما لو أنّها رُميتْ في حفل بهيج على النوافذ. مضتْ إلى الداخل. في الطابق الرابع، انعطفتْ إلى داخل الرواق وشاهدت الملصقات نفسها التي أظهرها لها قبل أسابيع كثيرة خلتْ. بدأتْ تسهولي تجرها. ساحرة. كان ذلك عملاً بطيئاً ومفعماً بالضجيج. كانت الأوراق قد أحدثتْ جلبةً مروِّعةً إنما لم تعدْ تهمها. كان هناك كمّ كبير من البوسترات التي بدتْ كأنها تتكاثر بينما كانت تنزعها من الجدران. تناولت قلم التأشير الأحمر الذي كانت قد دسَّته في جيبها ووقفتْ أمام البوستر الأخير، وهي تتأهب لإزالته من على الحائط، إلّا أنَّ الرواق كان خالياً من الحياة بصورةٍ قاسيةٍ بحيث إنّها لم تكنْ قادرةً على التفكير بأيِّ كلمة على الإطلاق. ذات مرة، كان ديبوسي يقطر عبر الجدران. إنها تسمعه الآن من جديد، وكانت ممتنةً، بدا كأن جميع الآلهة قد تجمعوا، كانوا قد أقبلوا كي يلتقوا بها هنا. ما الذي جرى لـ هِي لوتنغ وبقية الأشخاص كلهم؟ كان والدا فو تسوأونغ قد تجرعا السمَّ الزعاف وانتحرا. كان يتم الاحتفاء بانتحارهما. بقية الأشخاص حتماً مضوا إلى وجهةٍ ما. هل رأى الجيل الأقدم كل شيء يأتي إليهم وبهدوءٍ تلاشوا قبل أن يهوي الفأس على الرأس؟ كانت تتمنى ذلك. رفعتْ قلم التأشير مجدداً وكتبت الكلمات الوحيدة التي خطرتْ ببالها. لم تدوّن اسم الكاتب: شين كونغوين، أو اسم الرواية: «*مدينة حدودية*». تحرك قلم التأشير كما لو أنّه يتحرك من تلقاء نفسه. هذا ما جال في ذهني، فكرت، وهي كلمات شخص آخر:

قائد العبارة العجوز لم يكنْ بمستطاعه أن يخمن ما هو العائق[1]، أو كيف يعالجه. يستلقي في السرير، يفكر ملياً فيه، إلى أن أخيراً خطر بباله أنه ربما زقزقة العصافير كانت تحب الأخ الأصغر، وليس الأكبر. هذا الأمر جعله يبتسم، بسمة غير طبيعية ناجمة عن الخوف. في الحقيقة كان قلقاً نوعاً ما، لأنه على حين غرة خطر بباله أن زقزقة العصافير كانت شبيهةً بأمها من النواحي كلها. كان قد راوده شعور غامض بأن الأم وابنتها سوف تتقاسمان المصير نفسه. وقائع الماضي كانت تحتشد في ذهنه ولم يعدْ بمستطاعه النوم. هرع خارج الباب بمفرده، وأوغل في الجروف الشاهقة الواقعة بالقرب من الجدول. رفع بصره إلى الأعلى ناظراً إلى النجوم وأرهف السمع للجنادب الأميركية وأصوات الحشرات الأخرى، الثابتة كالمطر. لم يغمضْ له جفن على مدى زمن طويل.

كتبتْ مباشرةً فوق الاتهامات المدوّنة على الملصق، بحيث ظهرتْ كلمة «الأخ» فوق كلمة «القائد»، و«غامض» فوق «رجعي» وكلمتا «الجروف الشاهقة» استقرتا فوق «المرآة التي تكشف الشيطان». كلمات مستعارة على كلمات مستعارة، كانت كل واحدة منها مرتبطة بالأخرى الآن. التفتتْ ورأت السطوح اللينة للورق على الأرض. كانت قد تثلمتْ بسبب السقوط والكلمات التي بدتْ شبيهةً بالعُقد تبيّن أن ليس لها وزن على الإطلاق. كانت قد أسقطتْ قلم التأشير الأحمر على الأرض وأحسّتْ بالسلوى بسبب فعقعته الحادة وواصلتْ دخولها إلى الرواق إلى أن وصلتْ إلى غرفة المكتب التي تقاسمها سبارو مع أولد وو. كان الباب موارباً. لم ينهبْ أحد غرفة المكتب. كانت الأسطوانات والكتب، على الرغم من قلة عددها، بورتريهات الرئيس ماو، رئيس الوزراء تسهاو إينلي ونائب رئيس

---

1 – «قائد العبارة العجوز لم يكن بمستطاعه أن يخمن ما هو العائق...»: اقتباس من شين كونغوين: «مدينة حدودية» (نيويورك: هارولد كولنز، 2009): 96 – ك .

الوزراء ليو شاووكي، كل شيء بقي نظيفاً ومرتباً، كما لو أنّها تعود لزمان ومكانٍ آخرين. تفرستْ في البورتريهات وشاهدتْ ظلها هي في الزجاج. هي ذي تظهر أخيراً، مرئيةً تماماً، الفتاة والسماء والقدر مضفورة كلها معاً.

«سبارو سوف يفهم الأمر»، حدّثتْ نفسها، وهي تعرف أن ذلك شيء غير صحيح. لكن ربما سيفهم، أن هنالك شيطاناً في داخلها وليس أمام تسهولي خيار آخر. يلزمها أن تحميه. لا يمكن أن تدعهم يقيدونه.

وضعتْ بعض أسطوانات ابن خالتها على الأرض وتفحصتها. *كانت جملتي الأولى «اعمل ثورةً»*. السيمفونية الخامسة لـ ماهلر، تنويعات غولدبيرغ لـ باخ، السيمفونية الخامسة لـ بروكوفييف، «الإمبراطور» لـ بيتهوفن. *أقسمتُ، أن أجرؤ على التفكير، أن أتكلم بوضوح، أن أفعل.* لم تشأ أن تسمع كماناً ولذا فإن الأسطوانة التي وضعتها كانت لـ باخ. كانت تريد أن تمشي بتؤدة، لم تعدْ ثمة حاجة إلى الاستعجال. الزمن تمدد في داخل باخ، كانت هنالك تكرارات وcanons، كانت هنالك دوائر ولوالب، كانت هنالك أصوات كثيرة وإذلال صادق كما لو أنّه كان يعرف أن التجسد الجديد والفقدان لا ينفصلان. لم تعد الموسيقى تبدو آتيةً من جهاز التسجيل، بل من حجرةٍ ما في ذاكرتها. فكرتْ في كاي ومن ثم قررتْ أن لا تفكر فيه أبداً. في بالها، كانت تخشى أكثر ما تخشى على سبارو، لأنها كانت تعرفه جيداً بقدر ما تعرف نفسها. سوف يدع موهبته تذوي، لم يكنْ يجرؤُ على الاعتراف بأن موهبته شيء نفيس. كانت تريد أن تخبر أمها وأباها أنها وصلتْ إلى نجدٍ عالٍ حيث تستطيع أن ترى منه الاتجاهات كلها، ولم تكنْ خائفةً. لم يكنِ الخوف هو الذي هربتْ منه، بل الانقطاع. لم يكنْ بوسعها أن تطيق الوحدة. في هذه النافذة الموجزة حينما كانت لا تزال تعرف مَن تكون هي، قبل أن يحطموها ثانيةً، كانت تتمنى أن تختار مستقبلاً وأن تغادر. كيف يمكنها أن تضع هذه الأفكار في مذكرة؟ كانت تودّ أن تحافظ على جوهر ذاتها. لئن أخذوا المذكرة، لو كسروا يديها، مَن ستكون هي عندئذٍ؟ المذكرة سوف يأخذها أفراد «الحرس الأحمر»، المذكرة لن تسبب سوى المزيد من

الإذلال. كان يراودها شعورٌ قويٌّ بأن وِين الحالم لا يزال حيّاً، بأن سويرل وبغ موذر نايف في مأمن، تراودها رغبةٌ محمومةٌ بأنهم يفهمون خيارها. حين قلبت الأسطوانة وانتهى كلا الجانبين من العزف، أخذت الحبل من جيب سترتها، نزعتْ فردتيْ حذائها، صعدتْ على طاولة مكتب سبارو، متوخيةً الحذر بأن لا تبعثر أوراقه. ربطت الحبل بأنبوب طويل، كان يمتد على طول الجدار. هبطتْ ودفعت الطاولة بعيداً، تاركةً الكرسي في موضعه. لفَّت الحبل وربطته بدقةٍ وعناية. كان السكون يخيم على المكان وتساءلتْ ما إذا كان يتعيَّن عليها أن تقول شيئاً ما، ما إذا كان يتحتَّم عليها أن تتكلم وتُحدِث ضجةً. تسهولي لم تكنْ تعني أن تبكي إنما لم يكنْ ذلك بإرادتها، هذا الجسد واستجاباته، هذا الجسد ورغباته. فكرتْ في المكتبة المخفية. فتحت الغطاء وتفرستْ في الداخل، رأت الآلة الموسيقية الموغلة في القِدم التي عليها تعلمتْ أول مرة أن تسمع. فكرتْ في سبارو، كم كان يافعاً حين فتح الباب الذي سمح لها أن تدخل من خلاله إلى هذه الحياة. هل كان بمستطاعها أن تتركه وتمضي بعيداً، أن تهجره وفي الوقت نفسه، تحميه؟ كان أول لحن لـ*تنويعات غولدبيرغ* هو آخر لحن فيها؟ هل من المحتمل أن كل شيء في هذه الحياة كُتب من البداية؟ لم يكنْ بوسعها أن تتقبل هذا. إنني آخذ هذه الأسطوانة المكتوبة معي، فكرتْ. إنها ملكي وأنا الشخص الوحيد الذي بوسعه أن يحافظ عليها. صرفتْ كل شيء من ذهنها.

***

استيقظ سبارو في الظلام، وانتبه إلى أن الباب الأمامي مفتوح. بدا أنه ظلّ مفتوحاً لحظةً طويلة قبل أن يُغلق، أخيراً، بصورةٍ غير محسوسةٍ تقريباً. أحسَّ سبارو كما لو أنّه كان يتلمس طريقه في حلم لا يزال متواصلاً، كان يتعيَّن عليه أن يشق طريقه وسطه، كان يتحتَّم عليه أن يجعله يذوب كالشمعة. كان الحلم يضم رجالاً يسيرون على نهر متجمد ومدية طويلة تقطع الثلج إرباً إرباً. في الختام، انقطع الحلم. فتح عينيه والسطح الذي كان بجواره أصبح الخط المحيطي لنافذة. هيئة طويلة

اتسعتْ وتحولتْ إلى رفّ كتب. مدَّ يده إلى الغطاء الخفيف إلّا أنّه كان قد هوى أصلاً. بعد مضيّ لحظة نهض ومحترساً بأن لا يجعل ألواح الأرضية تُحدِث صريراً، مضى إلى الغرفة التي كانت تتقاسمها تسهولي مع خالته سويرل. لمس السرير الخالي.

مضتْ تسهولي لزيارة ذه أولد كات.

لم يعرفْ كيف عرف بهذا الأمر؛ لم يكنْ بوسعه أن يفكر في سبب آخر يدعو تسهولي لكسر حظر التجوال. الفراش لا يزال يبدو دافئاً من جسد ابنة خالته.

في لزوجة الليل الحار، كان قميصه قد التصق بظهره. سكب سبارو الماء في حوض تسهولي وغسل وجهه. حين لمح انعكاس صورته في المرآة، دُهش من نحافته. هل هو مريض، تساءل. هل أضاع أسابيع أو أشهر من الزمن؟ في الزجاج، بدا كأنه لا يزال رجلاً في مقتبل العمر، طالباً تقريباً. تأمَّل صورته المنعكسة في المرآة، شبه متوقع بأنها سوف تختفي. حينما رجع إلى غرفته، بدّل ثيابه؛ لبس واحدةً من عصبات ذراع دا شان الحمر على كمه الأيسر. عصابة الذراع ستجعله غير مرئي. مرةً أخرى، مرَّر يده على وجهه وتطلع في الزجاج. كانت ثمة أصوات بشرية تدخل عبر الشباك المغلق. شبان، أفراد «الحرس الأحمر» على ما يبدو، في الزقاق. كان بمستطاع سبارو أن يسمع حطام نارٍ تُرفس وتُسوّى مع الأرض. كان بمقدوره أن يشمّ الاحتراق. كانوا ينشدون، برقةٍ، كما لو أنّهم باتوا مهتمين بغتةً بالمقيمين في الزقاق ولا يريدون أن يوقظوهم من نومهم. نقرات موسيقى مُبطأة، أشذاء حالمة لأغنية. صوت صادح «تينور» صافي، قويّ لشاب، يتسلل بخفة عبر جدران الزقاق. *هذا هو الوطن – الأم الجميل*[1]*/ هذا هو المكان الذي نشأتُ فيه.*

***

---

1 – «هذا هو الوطن – الأم الجميل...»: اقتباس من الأغنية الوطنية الذائعة الصيت «وطني الأم»، كلمات الأغنية من تأليف كياو يو، موسيقى: ليو تشي – ك.

لاحقاً، استطاع سبارو أن يعرف أنه أخذ الحبل من حول عنق ابنة خالته. كان قد تمكّن نوعاً ما من أن يأخذ تسهولي بين ذراعيه، ينزل ويبارح الغرفة. خارج «المعهد العالي للموسيقى»، كان الوقت لا يزال مبكراً. سلك طرقاً جانبيةً وإذا ما أقبل أشخاص إليه أو تحدثوا إليه، فهو لم يسجلْ حضورهم. بعد أن سار بلوكات عدة، اتضح لـ سبارو بأن صوت المدينة كان غير واضح. ست شاحنات محمّلة ببراميل ماء اجتازت الزقاق الضيق، إلّا أنّه الوحيد الذي لم يع بحضورها إلّا حين لمحها. اهتز الرصيف، وكانت ثمة نساء عند حنفية الماء العمومية، وكان ثمة طابور من الناس ممَّن يرومون الحصول على حصة الطحين، لكنه مرَّ من خلال هذا الطابور كما لو أنّه يمرّ عبر صور أو أجزاء نائتة. واصل المشي ووعى بأن بـ لينغ كانت تركض إليه، وبأن تسهولي بين ذراعيه كما لو أنّها نائمة. كان عليه أن يركز ذهنه كله، طاقته كلها، كي لا يدعها تسقط من بين ذراعيه. كان رأسها يستند على كتفه ومدفوناً فيه. أقبل أفراد «الحرس الأحمر» وقرّبوا وجوههم من وجهه، إلّا أنَّه لم يستطعْ أن يسمعهم. وبعدها، لم يعرفْ كيف أو لماذا، إذ لم يعدْ يشاهدهم. كان ثمة حشدٌ منهم. وصل إلى «طريق بكين»، إلى البوابة، إلى الزقاق الضيق ومتاهة الأزقة التي كان يعرفها طوال حياته كلها تقريباً. كانت لينغ لا تزال بجواره، يا تُرى لماذا جاءتْ؟ كان الأب لوت هناك. كان قد رآهم بشكلٍ من الأشكال أو أنه كان قد تلقى تحذيراً. حصل الأمر بسرعةٍ شديدةٍ، اقتراب الأب لوت، أُخذتْ تسهولي بين ذراعي الأب لوت، وسبارو يقف وحيداً في منزله هو. كان يعرف أن أباه ينادي باسم تسهولي، كان يعرف لأنه الآن يستطيع أن يسمع. أصبحت الغرفة على حين غرة صاخبةً جدّاً. كانت لينغ تنشج. تجمع الناس في الزقاق، إنما لم يجسرْ أحد على العبور والمجيء إلى الفناء الداخلي، كان قد تلوّث بالجرائم والأرواح. الأب لوت، الذي كان جسمه الضخم قد أمسى هزيلاً وشائخاً جدّاً، كان يصرخ، كما لو أنّ بوسعه أن يوقظها. «ما هي الأخطاء التي ارتكبناها؟ نحن مسنون، نحن مسنون الآن. لو أنّني جلستُ الآن ودوّنتُ جميع

أخطائنا، هل سيكون هذا كافياً؟ أجيبوني! ما هي الذنوب الأبدية التي اقترفناها؟ ألم نربح هذا البلد؟ ألم نضحي بأنفسنا من أجل الثورة؟». ظلّ يهز تسهولي كما لو أنّه قادر على أن يعيدها إلى هذا المكان؟ جلس سبارو على كرسي. تذكر الآن كيف أن الدموع على وجه ابنة خالته لا تزال رطبةً. كم تستغرق الدموع كي تجف؟ كم كان مجيئه قريباً كي يصل في الزمن المناسب؟ فكر في وِين الحالم وخالته سويرل وأمه؟ أغمض عينيه وحاول أن يحجب صوت الأب لوت. ظهرتْ لينغ مجدداً. وضعتْ بطانية حوله وعزلته عن العالم. تذكر البطانية التي غطته في الحافلة برفقة كاي، الموسيقى التي كانت ترن، الكواكب فوقهما. ضحك واستخف ببكائه، الذي بدا كما لو أنّه آتٍ من شخصٍ آخر. ضحك وبكى حتى حلول وقت الظهر، ومعه حرارة آب «أغسطس» الحقيقية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

-8-

منذ أمدٍ بعيد، رقدتْ أي - مينغ بجواري على سريري، وهي تمسك بالفصل 17 من «كتاب السجلات التاريخية» بيديها. كانت القصة قد استمرتْ مع أنّها منذ وقتٍ طويل توقفتْ عن قراءة صفحاتها. في السكون، كانت تسهولي حاضرةً بيننا، أكبر مني سناً، أصغر سناً من أي - مينغ، واقعيةً مثلما كنا نحن الاثنين. في كل مرة نركن دفتر الملاحظات جانباً، كان ينتابني الإحساس بأنها لا تزال تمكث معنا. نحن الاثنين، أنا وأي - مينغ، ونحن نصغي، هما اللتان غابتا عن العالم.

***

منذ أمدٍ بعيد، حين كانوا يقيمون في بكين، أخذتْ بغ موذر نايف سبارو إلى «ساحة تيانانمين». كان سبارو مجرد طفل إلّا أنّه تذكر، لا يزال يتذكر، كيف بدا الإسمنت غير منفصل عن السماء الرمادية، كيف أنه هو نفسه كان صغيراً بنحوٍ لا يُطاق، مثل بذرة في طاس. «القصر المحظور» و«تيانانمين»، قالت له بغ موذر، شُيدا على محورٍ شمال - جنوب عَكَس الجسم البشري. «رأس!» صاحتْ، وهي تشير إلى شيء لم يتمكنْ من رؤيته. «الرئتان! القدمان!» [بوابة تيانانمين]، المزينة بحيوانات متخيّلة، كانت النسيج الوقائي المحيط بالقلب. الحيوانات التي تحدق شمالاً كانت تراقب سلوك المواطنين، بينما الحيوانات التي تحدق جنوباً كانت تحكم كيف تعاملت السلطة مع الضعفاء، تخيل سبارو نفسه بوصفه كائناً من حجر على البوابة، جناحاه مبسوطان، منقاره يلمعُ في المطر.

يوماً بعد يوم، كان سبارو يطالع الجرائد الرائجة المثبتة بدبابيس على مكتب البريد. صور فوتوغرافية في *«بيبلز ديلي»* لفتت الانتباه إلى الابتهاج السائد في داخل «ساحة تيانانمين»، بينما كان مئات الآلاف من أفراد «الحرس الأحمر» يرفعون «الكتب الحمر الصغيرة» للرئيس ماو، الذي كانت هيئته الصغيرة جدّاً تردّ على تلويحاتهم من فوق البوابة. وصل الطلبة بواسطة القطارات التي لم يكونوا بحاجة إلى تذاكر كي يركبوها. سارعوا وتوغلوا في «الساحة» كماء ينسكب في صهريج واحد. «عشرة آلاف سنة، عشرة آلاف سنة!» هتفوا تحت النظرات المحدّقة لتلك الحيوانات المتخيَّلة. «مئة مليون سنة للرئيس ماو!».

أعلن أيلول «سبتمبر» عن قدومه، نديّاً ولزجاً. كانت تشيع في الجوّ رائحةٌ، رائحةٌ حلوةٌ مقرفة للأبدان التي تُركتْ كي تتفسخ في السراديب أو في الشوارع. حين رجع طلبة شنغهاي من بكين، باتوا ضيقي الأفق حتى أكثر مما كانوا عليه قبلاً.

على مدار أسبوع، الأب لوت كان قد اختلى بنفسه في سقيفةٍ مع ستة من ستة أعضاء آخرين من شعبة الموسيقى الكلاسيكية. بعد إطلاق سراحه، قلَّما كان قادراً على الوقوف على رجليه. رسالة من سويرل، مُرسلة عبر بغ موذر نايف، وصلتْ إليه: سويرل ووين الحالم، أشارتْ إليهما بوصفهما كيسين من الأشرطة، تمَّ استقبالهما بأمان في منغوليا. كانا يتوسلان من أجل تلقي الأنباء. كان جواب الأب لوت يتكوّن من ثلاث جمل فقط: *الجميع على ما يرام. لا حاجةَ لأن تبكّري في العودة. يعيش الرئيس ماو وتعيش الثورة الثقافية البروليتارية العظيمة!*[1]

---

1 – الثورة الثقافية The Cultural Revolution: وهي حركة اجتماعية – سياسية في الصين بين سنتيْ 1966 و1976، بدأها الرئيس الصيني ماو تسي تونغ، وزعيم الحزب الشيوعي الصيني، كان هدفها المعلن هو الحفاظ على الفكر الشيوعي «الحقيقي» في البلاد من خلال تطهير بقايا العناصر الرأسمالية والتقليدية في المجتمع الصيني، وفرض الفكر الماوي بالقوة بوصفه الفكر السائد في إطار الحزب. هذه الحملة أعادتْ ماو إلى موقع السلطة بعد حملة «القفزة الكبرى للأمام». شلّت «الثورة الثقافية» الصين

في كل لحظة، كان سبارو يتوقع أن يُستدعى إلّا أنَّ أفراد «الحرس الأحمر» لم يأتوا إليه؛ بدا كأن الجميع نسوا أنه كان موجوداً. ظلَّ يرى «المعهد العالي للموسيقى»، الأسطوانة، الحبل. خلال ساعات النهار، كان يحاول النوم وفي الليل ظلّ يراقب السرير الذي نامتْ فيه بغ موذر، سويرل، تسهولي، وأشقاؤه، في أوقاتٍ مختلفة. في العتمة، كان يفتش عن الخطوط المحيطية ليديه وقدميه إلّا أنَّ الظلام كان قد واراها. ليلةً بعد ليلة، كان يعتوره شعور كما لو أنّه يدنو ببطء من تسهولي إلّا أنّه حين يأتي الصباح كان يرى أنه انسل مبتعداً أكثر، والمسافة الفاصلة بينهما كانت تكبر. سيمفونيته غير المكتملة كان تعزف في ذهنه، من دون توقف. كل ما تفتقد إليه هو الحركة الرابعة والأخيرة، لكن ماذا لو كانت الحركة الرابعة هي الصمت نفسه؟ ربما تكون السمفونية مكتملة على كل حال. كان متبلد الإحساس جدّاً ولا يستطيع البكاء، غير قادر على أن ينعتْ بالكلمات ما كان يخشاه أكثر، كان قد رزم الصفحات ناوياً أن يضرم النار فيها، لكنه في النهاية خبأها تحت جملونات السقف.

***

بعد مضيّ شهرين على وفاة تسهولي، رافق سبارو كاي إلى منزل موظفٍ رفيع المستوى كان يسكن في «طريق تشانغل». في الشوارع، كان ثمة هَرْج ومَرْج، صراع بين زمرتين من «الحرس الأحمر» بسبب المنطقة والنفوذ. بدا منزل الموظف الحكومي، على كل حال، بلداً منفصلاً، مطموساً بواسطة جدران من لفيفات الرّق والأصبغة. كان

سياسيّاً وكان لها تأثير سلبي كبير على الاقتصاد والمجتمع الصينيين. زعم ماو أن العناصر البرجوازية تخللت الحكومة والمجتمع ساعيةً إلى إعادة الرأسمالية، وكي يزيل منافسيه في الحزب الشيوعي الصيني، أصر ماو على إزالة هؤلاء «التعديليين» من خلال الصراع الطبقي العنيف. استجاب الشبيبة الصينيون لدعوته تلك فشكّلوا «الحرس الأحمر» في أنحاء البلاد. تسببتْ «الثورة الثقافية» في مضايقات واسعة النطاق وإذلال علني وحجز عشوائي لملايين الأشخاص في أنحاء البلاد، وتسببتْ أيضاً بنزوح السكان تحت تهديد القوة وكذلك نقل شبيبة المدن إلى الأرياف – م.

الضوء الذي يسقط عبر النوافذ ذات الزجاج المطلي هو اللون الأزرق البغيض للصفير[1].

«استعدنا هذا البيانو منذ عهدٍ قريب»، قال الموظف الحكومي، فيما هو يرشدهما إلى غرفةٍ مرتفعة السقف. استعادوه من أين، أو ممَّن، لم يشرْ إلى ذلك». بما أن هذه الآلة الموسيقية نفيسةٌ جدّاً وليس من المناسب أن تبقى هنا، الحزب يشحنها إلى بكين».

أحضرتْ فتاة صغيرة بفستان مزهر ما لذَّ وطاب من الأطعمة والأشربة. تطلع سبارو إلى الحافات النظيفة من طبق العشاء بينما كان الموظف الحكومي يتحدث بتفصيلٍ تام عن الـ مدام ماو، الفرق الموسيقية الجديدة و«الفرقة السيمفونية المركزية في بكين» التي أُعيد تأسيسها. «رفيق سبارو»، قال الموظف، وهو يمس شفتيه برفق بمنديل مائدة أبيض نظيف. «مؤلفاتك الموسيقية لقيت استحساناً من [عميد المعهد العالي للموسيقى]، صحيح؟ العميد السابق، أقصد». ابتسم بودّ. «هِي لوتنغ كان متشبثاً بموقعه بطريقته الخاصة، ألا تظن ذلك؟ لحسن الحظ، تبدلت الأمور. الآن آن أوان الموسيقى الجديدة، الواقعية الثورية ملائمة لـ[ثورتنا الثقافية البروليتارية العظيمة]».

قال كاي: «عمل الرفيق سبارو هو نموذج لما يمكن أن تكون عليه هذه الموسيقى».

أومأ الموظف برأسه. خاطب سبارو قائلاً: «أنتَ محظوظ كونك تملك مثل هذا المعجب، أليس كذلك؟».

فوقهم، كانت تدور المروحة السقفية، وهي تُحدِث صوتاً رتيباً ومُخدِّراً معاً.

عدد كبير من سجائر «البوابة الأمامية»، «هاتامين»، و«ستيت إكسبريس 555»، بالإضافة إلى علامات تجارية أجنبية لم يرها سبارو من قبل، كانت مرتبةً على طبق فخاري كبير. أخذ عينةً من الـ«دافيدوف»

---

1 - الصفير sapphire: الياقوت الأزرق. لونه أزرق ضارب إلى الخضرة - م.

والـ «مارلبورو»، وتركتْ هاتان السيجارتان طعماً حلواً أو لاذعاً غير متوقع، على شفتيه.

أخذ الموظف الحكومي كاي إلى البيانو. جلس كاي، فكر لحظةً ومن ثم بدأ يعزف، من الذاكرة، لحناً مُكيّفاً للبيانو لـ «إيرويكا» بيتهوفن. القطع الموسيقية التي عزفها كانتْ قد أُعيد تنظيمها ودُمجتْ معاً بطرائق جعلتْ سبارو يحس كما لو أنّ الموسيقى قد أُلّفتْ في هذه اللحظة تحديداً أو، بصورةٍ أدق، فُككتْ. كلمة «إيرويكا»، قال سبارو، وهو يلتفت إلى الموظف الحكومي، تعني «بطولي». رفع الرجل نظارته. «إلى الرفيق بيتهوفن، شقيقنا الثوري!».

«إلى ثورتنا المجيدة»، ردَّ عليه سبارو.

خلال الإشارة البطيئة للحركة الثانية، مسيرة الجنازة، امتلأتْ عينا الموظف بالدمع.

كيف فاته أن ينتبه، فكر سبارو وهو يترنح سكراً، إلى أيِّ عمقٍ يمكن أن تكمن الموسيقى؟ رقة الواجهات كلها - ليس فقط واجهة الشقة، بل رقة كل فردٍ في الغرفة وربما بيتهوفن نفسه - قد سحرته.

«قائد الأوركسترا لِي ديلون سأل عنك شخصياً»، قال الموظف. كان يتحدث إلى كاي بنظرةٍ مدروسةٍ في عينيه. «إنه يقول إنكَ عازف البيانو الأكثر موهبةً في [كونسرفتوار شنغهاي]. خلفيتكَ الطبقية نموذجية».

كانت المروحة السقفية تطلق صريراً، صفيراً عالي الصوت. كانت الأصوات تُحدث طعناتٍ صغيرةً جداً في الهواء. «دعِ الحجرات تمتلئ بالضيوف»[1]، تلا الموظف الحكومي بسُكر، «والأقداح تمتلئ بالنبيذ. هذا هو ما أصبو إليه».

---

1 - «دعِ الحجرات تمتلئ بالضيوف...»: إنه يقتبس من الموظف الحكومي رفيع المستوى كونغ رونغ في الفصل الحادي عشر من كتاب ليو غوانسهونغ في القرن الثالث العشر المعنون: *«رومانس الممالك الثلاث»*، ترجمة سي. أج. برويت - تايلور. طبعة على الإنترنيت من: / eBooks@Adelaide,https: / /ebooks.edu.au /literature / Chinese /romance –of –the –three –kingdoms /index.html - ك.

بعد العشاء، حين صرفهما الموظف الحكومي، مضى سبارو مع كاي إلى حجرته، الحجرة نفسها التي قابلا فيها، في يوم من الأيام، البروفيسور، ذه أولد كات، سان لِي ولينغ.

«ثمة فرص، سبارو»، قال كاي. كانا مستلقيين جنباً إلى جنب، فقط أطراف أصابع أيديهما كانت متلامسةً. «[الكونسرفتوار] مغلق إلّا أنَّ [الأوركسترا المركزية] مُصانة من الـمدام ماو. دعهمْ يحموننا. في بكين، ستكونِ الأشياء مختلفةً... هل تكتب؟» هزَّ سبارو رأسه. «لا يمكننا الكفُّ عن أن نعيش حيواتنا»، قال كاي. بدت الكلمات أنها تتحطم حالَ ملامستها الهواء. «لا نستطيع».

نحن، فكر سبارو. لم يكنْ بوسعه حتى أن ينطق الكلمة بصوتٍ مرتفع.

«أتذكر ما قلته لك؟» قال كاي. «والداي وشقيقتاي ليس لديهم أحد يلتفتون إليه. أنهم يتحدرون من قريةٍ لا تُعدُّ شيئاً. لن أتطرق إلى ذلك مجدداً. لن أختفي. إنني أرفض».مكتبة .. سُر مَن قرأ

في تلك الليلة، ظلَّ سبارو مستيقظاً على درزة ساطعة من الضوء أسفل باب كاي. كانت يد كاي على بطنه ثقيلةً، نديةً، وقد غطاها بيده هو. الأشياء التي أحسَّها لم يعدْ من الممكن التبرؤ منها. ومع ذلك لم يكونا متشابهين تماماً. كانا قد أقبلا من عالمين متباينين جدّاً وينشدان حالاتٍ مختلفةً، والخوف الذي دفع كاي لم يدفعه هو. تفجر الرعب في داخله. حاول أن يتحكم بأنفاسه، كي يجعلها هادئةً. هو وأبوه لم يكونا قادرين على أن يقيما لـ تسهولي مأتماً مناسباً. بروكوفييف، في الأقل، كان قد حصل على تسجيل وعلى أزهار مزيفة. كانت السلطات قد أخذتْ جثمان تسهولي بينما كان سبارو وأبوه واقفين في موضعٍ قريب. لا، لم يقفا في موضع قريب. كان هو وأبوه قد مدحا الرئيس، الحزب والأمة. لم يكنْ أمامهما خيار آخر لكن، مع ذلك، كانا قد عزفا جيداً بصورةٍ غير نظامية، كما لو أنّ الكلمات والموسيقى كانتا دوماً عن

التكرار، كما لو أنّ بوسع المرء أن يعزف باخ بسهولةٍ مثلما يكرر كلمات الرئيس ماو. الكبرياء والبراعة الفائقة، النصر والحزن، لغة الأوركسترا قد وهبتْ سبارو ذخيرةً عميقةً من الإحساس. لكن الاحتقار، الانحلال، القرف، الاشمئزاز، ماذا بشأن هذه العواطف؟ أيُّ مؤلفٍ موسيقي هذا الذي كتب لغةً لها؟ أيُّ مستمعٍ هذا الذي كان يهمه الاستماع إليها؟

كانت تسهولي جالسةً على طرف الحصير، بدتْ في منتهى الحيوية كما لو كان هو وكاي هما الوهم. «ألم تفهم حتى الآن، سبارو؟» قالت له. سألها ما هو الشيء الموجود في هذا العالم الذي يستطيع مجرد صوت أن ينجزه؟ قالت: «الحياة الوحيدة المهمة هي تلك الماثلة في ذهنك. الحقيقة الوحيدة هي تلك التي تسكن غير مرئية، تلك التي تنتظر حتى بعد أن تسد الكتاب. الصمت، أيضاً، هو ضربٌ من الموسيقى. الصمت سوف يدوم». في الغرب، في الريح الجافة لـ «صحراء غانسو»، بغ موذر وسويرل أنقذتا وِين الحالم أخيراً. تطلع إلى الوهم الماثل أمامه وشرع يبكي.

كانت الكلمات (上西天) shàng xī tiān [1] تعني «أن تذهب إلى السماء الغربية» أو «أن تصعد إلى السماء الغربية»، أي بمعنى، أن تجتاز الحدود الغربية لـ «السور العظيم»، أن تغادر هذا البلد، أن تدع هذه الحياة وشأنها، أن تموت وتزول. لم تكنْ تسهولي قادرةً على انتظاره. كانت قد ذهبتْ قُدُماً كي تجد بدايةً أخرى. كانت فكرة الصمت قد روّعته تماماً. كان سبارو يودُّ أن يتبعها، لكن على الرغم من الوعد بنهايةٍ ما، بالحرية، كانت هذه هي الحياة التي لا يقوى على مغادرتها.

***

في تشرين الثاني «نوفمبر»، غادر كاي شنغهاي وعُيّن بوظيفة عازف منفرد في «الأوركسترا المركزية في بكين». بقي مكان وجود البروفيسور مجهولاً ولم يجرؤ سبارو على زيارة ذه أولد كات، لينغ أو سان لِي. كان قد سمع أنه في وسط جلسة الصراع، كان قائد أوركسترا «المعهد

---

1 - هذه الكلمات تُقرأ من اليسار إلى اليمين، بحسب ما وردتْ في النص الإنكليزي - م.

العالي للموسيقى» المقيم، لو هونغوين، قد أخذ نسخةً من *«اقتباسات من الرئيس ماو»* ومزق الكتاب إرباً إرباً. وفي الحال وضع شابٌّ من «الحرس الأحمر» مسدساً على وجهه وأطلق عليه النار. بدءاً من آب «أغسطس»، مات عشرة أكاديميين وثمانية طلاب.

وصل العام 1967، وبقي «المعهد العالي للموسيقى» مغلقاً. مع ذلك، استدعي سبارو إلى أحد الاجتماعات. تبيَّن لاحقاً أن الاجتماع كان مخصصاً له حصريّاً. يو هوي، الرئيس الجديد لوحدة عمل سبارو قد استحوذ على مكتب هي لوتنغ وغيّر زخرفته بدزينةٍ من ملصقات ماو تسي تونغ ونصف دزينة من الـ مدام ماو بأزياء متنوِّعة. يو، وهو مؤلف موسيقي كذلك، له وجه طويل ذكّر سبارو بنبات الهليون. بدا أنه شعر باللذة وهو يخبر سبارو أنه أُعيد تعيينه في معملٍ يقع في الضواحي الجنوبية.

«هل يمكنني أن أسألكَ أيَّ نوعٍ من المعامل؟».

«أعتقد أنكَ سوف تصنع الصناديق الخشبية».

وقف يو هوي بعد أن كان جالساً وراء طاولة مكتبه. بدا وجهه كأنه أصبح أطول.

أحسَّ سبارو أن عيون ماو في دزينة الملصقات تتفحصه. «متى يتمّ نقلي؟».

«إنني أهيئ ملفَّك بينما نحن نتكلم الآن. كنْ صبوراً، سوف نبلّغكَ في الوقت المحدد».

«هل سيكون مسموحاً لي أن أؤلف الموسيقى ثانيةً؟».

لاحتْ بسمةٌ على محيا يو هوي، كما لو أنّه أحسَّ بالحَرَج نيابةً عن سبارو، كونه طرح سؤالاً ساذجاً كهذا. «إنكَ تعرف القول المأثور: *[آن الأوان كي تزوّد قوسَ كمانكَ بأوتار جديدة]*». ضحك على مزحته هوي. «إنكَ لستَ الوحيد الذي يتعيَّن عليه أن يتحسن ويباشر من جديد. إنما قلْ لي، هل إنك حقّاً وفعلاً رفضتَ وظيفةً في [الفرقة السيمفونية المركزية]؟».

«لم أكنْ أستحق هذا العرض».

ابتسم يو هوي كرّةً أخرى. جعل يده ترتعش ببطء، وهو يصرفه.

سار سبارو إلى خارج «الكونسرفتوار» وأوغل في «طريق فينيانغ». كانت قوة أشعة الشمس قد نزعت اللون من الشارع، بحيث إنّ الدراجات الهوائية والشاحنات التي كانت تمرّ بين الحين والآخر بدتْ كأنها تختفي في الستارة البيضاء للأفق.

في المنزل، وصل دا شان بنحوٍ غير متوقع من تسهيجيانغ وكان جالساً إلى منضدة المطبخ، يدوّن اتهامات على صفحات طويلة من ورق جزار. حين دخل سبارو، رفع شقيقه عينيه، الفرشاة في يده ظلتْ معلّقةً، قبل أن يخفض بصره ويتابع الكتابة: *«إن المَهمة الرئيسة للثورة الثقافية هي إزالة الأيديولوجيا القديمة والفن القديم، اللذين قوّتهما وعززتهما الطبقة المستغِلة على مدى آلاف الأعوام. إن أشخاصاً مناوئين للثورة من مثل وِين الحالم سوف يشوّهون، يقاومون، يهاجمون ويعارضون حتماً فكر ماو تسي تونغ. إنهم يظهرون بوصفهم بشراً لكنهم في جوهرهم حيوانات، إنهم يتكلمون بلغة إنسانية أمامك ووراء ظهرك...»*. تراجع سبارو إلى الشرفة الصغيرة جدّاً في الطابق الثاني. في الزقاق، كانت هناك جدة تحمم حفيدها في حوض استحمام معدني، وكان الطفل يهدل بسعادة. الصوت رفع سبارو من أفكاره، كان لا يزال بحوزته ثلاث كارتونات من سجائر «هاتامين»، بعثها إليه كاي من بكين. كانت السجائر، التي من العسير جدّاً الحصول عليها، ثمينةً جدّاً مثل حفنة من كوبونات الحصص التموينية، ولعلها أثمن منها. دخن واحدةً الآن، بوقار؛ سجائر الـ «هاتامين» هذه منحته أكبر لذةٍ في حياته.

في المطبخ، كان الأب لوت يعيد قراءة أحدث رسالة بعثتها بغ موذر نايف. *هل تحسبني امرأةً بلهاء؟ قل لي ماذا جرى.*

كان المظروف يحتوي على رسالتين أخريين، موجهتين إلى تسهولي من أبويها. لقد عثروا إذن على وِين، فكر الأب لوت. لكن هل تبقى المعجزة

معجزةً حتى إذا وصلتْ متأخرةً جدّاً؟ كان قد أخرج قداحته، أضرم النار في الصفحات وأسقطها في المَجْمَرة. «تسعة أحياء، ميت واحد»، قال، وهو يتلو قولاً مأثوراً قديماً، بينما كان يراقب الورق يتكوّر في الوقت نفسه بعيداً عن ألسنة اللهب وفي داخلها. «تسعة أحياء، ميت واحد».

وضع دا شان فرشاته جانباً. كان الملصق أصلاً بطول أربع أقدام. وبينما هو يرنو ببصره إلى السلّم، التقتْ عيناه بعينيْ سبارو، وومض محيا الغلام بالعاطفة. أدرك سبارو الحزن، الخوف، الندم. كان الفتى مراهقاً ويطمح لأن يكون مهندساً معماريّاً، إلّا أنَّ الوشاح الأحمر الخاص بـ«المتطوعين اليافعين» كان معقوداً بقوةٍ حول عنقه وكانتْ يداه قد اخشوشنتا من أثر الحبر. *«لئن كنتَ ترغب بأن تكون مهندساً معماريّاً، يلزمكَ أن تمضي إلى ساحة تيانانمين»*، فكر سبارو. *«يتعيَّن عليكَ أن ترى الرأس، القدمين، القلب، الرئتين. عليك أن تقف في وسط [الساحة] وترهف السمع»*. بدا أن ظلَّ تسهولي يلتوي في بيت السلّم كما لو أنّ روحها كانت مربوطةً بفكره، وهو غير قادر على التحرر من أسرها.

انتظر دا شان سبارو كي يقول شيئاً ما. حين أتى إلى البيت، كان يتمنى فقط أن يقدّم له شقيقه الأكبر العون، وألّا يسمح له سبارو بأن يُعاد مجدداً إلى تسهيجيانغ حيث، كي يعوّض عن العناصر القذرة في أسرتهما، يجب أن يتولّى دا شان القيادة في الهجوم على المعلمين وزملاء صفّه الآخرين. يتحتّم عليه أن يدمرهم. قال الدب الطائر إن تسهولي يجب أن تكون مذنبةً لأن المجرم وحده هو الذي ينتحر. الدب الطائر كان قد أقسم بأن لا يؤوب إلى المنزل ثانيةً.

«الخونة وحدهم هم الذين ينتحرون»، قال دا شان الآن، وهو يرفع بصره ناظراً إلى شقيقه.

ارتفع الدخان من أصابع سبارو.

«المذنبون وحدهم الذين ينتحرون. هل هذا صحيح؟».

صمت.

«هل هذا صحيح؟» سأل دا شان ثانيةً. كان غاضباً من الليونة والبكاء في نبرة صوته. «هل صحيح أنها انتحرتْ؟ لئن كانت تسهولي خائنةً، فهي تستحق كل ما جرى».

نزل سبارو الدرجات وانتظره دا شان كي يقوم بفعلٍ ما، كي يصرعه أخيراً. إنه هذا الهدوء المهول، فكر دا شان، هو الذي حلَّ بينهما والذي ليس لديه فكرة عن كيفية تعطيله.

حين أصبحا وجهاً لوجه، مسَّ سبارو كتفه. كانت يد شقيقه عديمة الوزن. «في تسهيجيانغ، احرصْ على أن تكون جديراً بـ[الحرس الأحمر]. إنهم أفراد أسرتك الوحيدون حالياً، أليس كذلك؟».

انفجر دا شان بالبكاء. غاضباً، كانت كلماته قد خرجتْ كضربات. «أنتَ أسوأ من خائن. مَن الذي يحميك؟ إنكَ لم تفعل شيئاً كي تنقذ تسهولي، الشيء الوحيد الذي تهتم به هو مسيرتكَ الموسيقية!».

خفّض سبارو يده. نظر إلى دا شان وقال في سرِّه، لقد اعتدتَ أن تكون صغيراً جدّاً بحيث يمكنني أن أرميكَ على كتفي كما لو كنتَ كيساً من الفاصوليا.

كان أبوهما قد خرج من المطبخ. «كفى نقاشاً»، همس الأب لوت. كان ينقر قداحته بأصبعه، يشعلها ويطفئها. «إنني لا أحب أن أسمع اسم ابنة خالتكَ. هل تسمعني؟ لقد انتهى الأمر الآن. انتهى».

تجاهل دا شان أباه. «أنتَ جبان حقيقي، سبارو. ربما كانت تسهولي خائنةً لكنها في الأقل كانت تعرف مَن تكون. هل تظن بالفعل أنكَ غير مرئي؟ هل تعتقد أن لا أحدَ يمكنه أن يرى مَن تكون؟». كلما ارتفع صوته أضحى أكثر غضباً. «كنتَ على الدوام الشخص الأكثر موهبةً، الجميع يقولون هذا، لكن ما نفع الموهبة إن لم يكنْ لديك شيء في داخلك؟ سوف يأتون إليكَ لاحقاً، أعدكَ. لن يقدر أحدٌ أن ينقذكَ. سوف أحرص على هذا الأمر».

في غمرة الدَّوَخان، التفت سبارو نحو البوستر الذي كتبه دا شان. كان هو شخصياً قد علّم شقيقه أن يكتب كلماته الأولى والآن أخذ راحته في الحقيقة التي مفادها أن حروف الأبجدية كانت رديئةً، معقوفةً وعصيةً على القراءة. دار على عقبيه وخرج من الحجرة، عبر البوابة الأمامية، ووَلجَ الزقاق.

«أخي، المنحط!» تبعه دا شان إلى الزقاق وكان يصيح وراءه، «وجوهٌ يقظةٌ ترددتْ على النوافذ الكائنة في الأعلى، مخمنةً، مُطلقةً الأحكام. ألا تملك حياءً؟».

مضى سبارو في اتجاه «شارع بكين». كان قد أهمل أن يأخذ سترته وكانت الريح تخترقه بقسوة. كانت ريحاً باردةً، لم تكنْ تتناسب مع الموسم. دوّتْ مكبرات الصوت، وهي تتكلم أسرع فأسرع. مفزوعاً، كانت أفكاره قد اتخذتْ صفةً حالمةً بحيث إنّ كل الوجوه التي مرَّ بها بدتْ أليفةً: صديق، طالب جامعي كان قد درّسه، طفل عرفه سابقاً. كانت مكبرة الصوت تكرر شعاراتها: «*يعيش الرئيس ماو!*».

«عشرة آلاف عام»، قال سبارو. في الحقيقة، كان يودُّ أن يصدّق. لن يشعر بأنه وحيد بكل ما في الكلمة من معنى لو أنّه كان قادراً على الاستسلام ويضع ثقته فحسب في شخصٍ ما أو في فكرةٍ ما.

تعيش ثورتنا المجيدة! يعيش الشعب!

عشرة آلاف عام.

جيلنا سوف يحقق الخلود!

في تقاطع «طريق شآنكسي»، كان الأطفال يرمون الآجر على مخزنٍ يبيع ثياباً نسائية. مال سبارو إلى الأسفل وبتهورٍ تناول آجرةً. في يده، بدت الآجرة نظيفةً تماماً، بوزن طفل حديث الولادة. كان الأطفال ينشدون أغنية أطفال مألوفةً. «العشب في المرج يبدو نضراً وأخضرَ! إنما انتظرْ عشرة أيام، لن ترى نصلاً واحداً!»[1]

---

1 – «العشب في المرج يبدو...»: أغنية أطفال من «*رومانس الممالك الثلاث*»، الفصل التاسع – ك.

كانت مكبرات الصوت تقعقع. «ما من طريق وسطي».[1]

ثمة طلاء على الجدران يتهم الشاغلة[2] بوصفها شابةً فاسقةً عديمة الأخلاق. الشبق والرغبة، التي تضع المنفعة الشخصية فوق المنفعة العامة، هي ترف بورجوازي وجريمة سياسية. أرجح غلام ذراعه للوراء. الآجرة هشمتْ نافذةً في الطابق الثاني. في داخل البناية، كانت ثمة فتاة تنتحب. لم يكنْ يعرف من أيّ غرفة كان يأتي البكاء. *انحلال رأسك، قلبك، يديك، قدميك، رئتيك*. كل شيء انتهى. ظنَّ أن الصوت كان يصرخ: «كنتُ سأُغرم بكَ عشرة آلاف سنة».

وقف والآجرة بين يديه إلى أن أخذها الصبي منه. بقوةٍ، قذفها في الهواء، وجعلها تهشم بابَ الهدف.

***

كان «معمل شنغهاي للمنتوجات الخشبية رقم 1» يعبق برائحة الأرض. صباح كل يوم آنَ يصحو من نومِه، كان سبارو ينفض غبار الخشب عن وسادته وشعره. في الحمام العمومي، كان غبارُ بدنه يغير الماء إلى اللون البرتقالي. قلّما كان قادراً على التعرّف على نفسه، كانت يداه قد اخشوشنتا وكذلك صدره، تشوهتْ بفعل ساعات طويلة من التكديس، الرفع، والطَّرْق. ومع ذلك لأول وهلة في حياته يستطيع سبارو أن يتذكر، كانت يداه مستثنيتين من الوجع؛ صلبتين، كانتا قد اكتستا بطبقةٍ سميكةٍ، بصَدَفةً جديدةٍ كل الجدة. بعد مناوباته، تلاشى المعمل مثل حلم متطاول، لكنه حين نام ظلَّ يسمع القرع المفكك - الضرب بصوت مكتوم، التهشيم والدويّ المختصر، الذي تتخلله صفارت الإنذار،

---

1 - «ما من طريق وسطي»: افتتاحية جريدة *«ديلي جيش التحرير»* (جيفانغ جون باو): فكر ماو تسي تونغ هو تلسكوب وميكروسكوب قضيتنا الثورية»، السابع من حزيران «يونيو» 1966. *«الثورة الثقافية الاشتراكية الكبرى في الصين»* (بكين: مطبعة اللغات الأجنبية، 1966): الجزء الثالث: ص 11 - 17 - ك.

2 - الشاغلة: أي شاغلة المنزل أو المرأة الساكنة فيه - م.

الأجهزة التي تصدر طنيناً والأجراس العائدة للمعمل - التي لا تختلف كثيراً عن الموسيقى الإسمنتية لمقطوعة فاريسي الموسيقية «أميركية»[1]. لم يستطعْ أن يكفَّ عن الاستماع إلى هذه الموسيقى اليومية، وكانت استمراريتها قد شقتْ طريقها بحذر عبر حياته الماضية وحاضره معاً.

ذات صباح، حين كان قد مضى عليه وهو في المعمل عامٌ كامل، كانت وحدة عمل سبارو قد دُعيتْ إلى قاعة الاجتماعات. كان الحضور إلزامياً وهكذا، بعد أن اكتظت الغرفة بوقتٍ طويل، استمر العمال في حشر أنفسهم وهو يدخلون.

كانت ستة أجهزة تلفزيون منصوبة في القاعة. على حين غرة، بدأتْ إذاعة حية، أول جلسة نزاع متلفزة خاصة بـ «الثورة الثقافية». مجموعة من «الحرس الأحمر» كانوا يسحبون رجلاً عجوزاً إلى وسط خشبة المسرح. ويا لصدمته، كان يعرف عناصر «الحرس الأحمر»؛ كانوا موسيقيين سابقين في الكونسرفتوار تمَّتْ ترقيتهم إلى مواقع قيادية. الخشبة، بيضاء بفعل مصابيح كليغل[2]، بدتْ كأنها تقص شاشة التلفزيون إلى نصفين. شاهد سبارو، مصعوقاً. كان كاي يقف في الطليعة بين مجموعةٍ من الأشخاص. بدا أكثر ثباتاً، وأهدأ. في أول الأمر، لم يتعرفْ سبارو على الرجل العجوز، كان أفراد «الحرس الحمر» قد أرغموه بوحشيةٍ على أن يخفض رأسه إلى الأسفل بحيث لم يكنْ وجهه مرئياً. تكشّف الجحيم ببطء. حين رفع الرجل العجوز عينيه، رأى سبارو أنه هِي لوتنغ، العميد السابق لـ «المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي».

---

1 - في النص الأصلي: musique concrète of Varèse's :Amériques وهي مؤَلف أوركسترالي دُوِّن من أجل أوركسترا «رومانسية» كبيرة جدّاً، مع آلات نقر إضافية «أي يُعزف عليها بالنقر» (لأحدَ عشرَ عازفاً موسيقياً) من بينها صفارات الإنذار، ألّفها إدغار فاريسي بين عامَيْ 1918 و1921، ونقّحها في العام 1927. وهي أول عمل موسيقي يؤلفه بعد رحيله إلى الولايات المتحدة - م.

2 - مصباح كليغل: مصباح ينبعث فيه النور القوي من قوس كهربائي (ويُستعمل في تصوير المشاهد التلفزيونية في الاستديو) - م.

«اقتلوا الخائن! اقتلوا الخائن!» كانت الهتافات في الاجتماع تصمّ الآذان. ولأنه غير قادر على الالتفات أو الحركة، شعر كما لو أنّ المصابيح كانتْ قد تدربتْ عليه، إذ كانت تغدو أكثر سطوعاً لحظةً بعد أخرى.

بدأ الاستجواب. استمر واستمر إلّا أنَّ هِي لوتنغ أنكر بعنادٍ الذنبَ الموجه إليه.

تقدّم يو هوي إلى الأمام، كان مجللاً بزيٍّ أخضر زيتوني كما لو أنّه انخرط في الجيش أو في كشكٍ لبيع الخضار. «هل بلغ بك الغباءَ حدّاً بحيث إنّكَ لا تفهم أن باستطاعتهم أن يردوكَ قتيلاً؟» سأله. «أتعتقد أننا سنحزن على خائنٍ آخر يُقطع رأسه أمام أبصارنا؟».

أطيحوا به!

«قبل أن أموت»[1]، قال هِي لوتنغ، «لديَّ أمنيتان. الأولى، أودّ أن أكمل مقطوعتي الموسيقية الحالية، وهي عمل أوركسترالي بسبعة أجزاء. الثانية، إنني أنوي أن أوضح كل تهمةٍ من التهم الموجهة ضدي».

ولأن أفراد «الحرس الأحمر» غير قادرين على الردّ، تناوبوا على ضربه ضرباً مبرِّحاً.

«لستُ مذنباً»، هتف هِي لوتنغ. بدا ضعيفاً، أكبر بكثير من عمره الحقيقي. إن ضربةً عنيفةً أخرى من أفراد «الحرس الأحمر» سوف تُصيبه بالإعاقة بكل تأكيد. زوجة هِي لوتنغ، أولاده، أحفاده كانوا قد تجمعوا على خشبة المسرح خلفه، رؤوسهم هي الأخرى مُنكّسة، الضوء ينعكس من على شعرهم. الكلمات التي تحدّث بها هِي لوتنغ إلى سبارو، منذ أعوام طويلة خلتْ، عادتْ إلى ذهن الأخير. «الموسيقى التي تُفهم حالاً تماماً لن تصمد أكثر من جيلها».

---

1 - «قبل أن أموت»: قال هِي لوتنغ، «لديَّ أمنيتان». استناداً إلى حياة هِي لوتنغ، كما وصفتها شيلا ميلفين وجيندونغ كاي في «*رابسودي بالأحمر: كيف أصبحت الموسيقى الغربية الكلاسيكية صينية*» (نيويورك: دار نشر ألغورا، 2004): 238 واتخذه أليكس روكس مرجعاً في كتابه «*البقية هي ضجيج: الاستماع إلى القرن العشرين*» (نيويورك: ماكميليان، 2007): 264 – ك.

«أنتَ معارض للرئيس ماو!» قال يو.

«لستُ مذنباً».

«خائن مثير للقرف! إنك لستَ سوى حيوانٍ يتحتَّم علينا أن نجزّ عنقه».

«اتهاماتك باطلة، لا أساس لها من الصحة! عارٌ عليك أن تكذب!».

من حول سبارو، في قاعة الاجتماعات، كان الناس ينعمون النظر، حائرين مرتبكين، إلى تهوّر هِي لوتنغ وعناده.

على شاشة التلفزيون، لم يصدّق أفراد «الحرس الأحمر» أن بوسع هذا الرجل العجوز، هذا الخائن، هذا المناوئ للثورة، هذا الموسيقي المثير للضحك، أن يتحدّاهم. انتزع أحدهم الميكروفون.

كان ردّ فعل هِي لوتنغ سريعاً، قبض على الميكرفون واسترجعه. «عارٌ عليك»، تقطّع صوته إلّا أنّه استطرد قائلاً: «عارٌ عليك أن تكذب! عارٌ عليك أن تكذب!».

في لحظةٍ، كانوا قد لووا ذراعيه بقسوة بحيث إنّه هوى على الأرض. اشتدتْ سخرية الحشد. كان هِي لوتنغ يعاني ألماً مهولاً. كان وجه كاي يغدو غير واضح في داخل الشاشة وخارجها. في غمرة الضحك العالي، أطلق أفراد «الحرس الأحمر» سراحه. كان بمقدور سبارو أن يرى أنهم، أيضاً، كانوا يريدون أن يضحكوا ساخرين منه، أن ينفخوا أنفسهم[1] كرّةً أخرى، إلّا أنَّ هِي لوتنغ تهاوى على قدميه بغتةً.

«عارٌ!» جأر. كانت الكلمات قد ارتدتْ كالقذيفة عبر مكبرات الصوت. «عارٌ عليك، عارٌ عليك!».

خيّم صمت صادم على الحجرة.

«عارٌ عليك لأنك تكذب!» كان صوته أجش ومتقطع إنما اخترق السكون، وحتى الآن كان هذا الصوت هو أعلى صوتٍ آتٍ من التلفزيون. *«عار!»*.

---

1 – ينفخوا أنفسهم: تعبير مجازي يعني: أنهم كانوا يتبجحون أو يتكبرون غروراً – م.

اختفت الصورة من على شاشة التلفزيون.

انتظر سبارو. بدت الغرفة كأنها تميل به، لكنه ظلَّ منتصب القامة بفعل ضغط الأبدان المحيطة به. لم تستأنف الإذاعة الحية بثّ برامجها. ظهر مذيع نشرة الأخبار على الشاشة، إلّا أنَّ الإرسال انشق إلى خطوط رمادية ساكنة.

أعطى جهاز طنين إشارةً وعاد العمال، محافظين على النظام وخاضعين للأمر، إلى مواقعهم في طابور التجمّع.

مسجلاً موعد حضوره إلى العمل في قارئ البطاقة ودُهش لدى معرفته بأن عيد ميلاده غاب عن باله. أصبح أمس في سن الثامنة والعشرين.

***

بعد مضيّ ثمانية أشهر، أصدر الرئيس ماو مرسوماً يقضي بأن المدن خَربةٌ، مُدمّرةٌ والأشخاص المتعلمين ينبغي إرسالهم «إلى أعالي الجبال وإلى أبعد القرى»، كي يخبروا الفقر السائد في الريف. كل الجامعات والمدارس الثانوية التي لا تزال مفتوحةً سوف تُغلق الآن، كل الصفوف التي لم تُلغَ حتى الآن انتهتْ رسمياً الآن. هذا الجيل الجديد سيكون جيل zhī qī [1] البطولية، الشبيبة المطرودون من جامعاتهم ومدارسهم. في مطلع العام 1969، كان سبارو قد استدعي من قائد وحدة عمله الذي أخبره، بأنه بالفعل وفي الحال، عُين في معمل يقع على بعد 1400 كم جنوباً، في «محافظة غوانغكسي».

«هل سبقَ لك أن كنتَ في الجنوب؟» سأله الكادر.

«لا، لم يسبقْ لي».

«يلزمك أن تشكر الحزب. لقد منحوكَ هذه الفرصة كي تخدم الشعب بإخلاص».

---

1 – zhī qī: كلمة صينية، تعني: الروح. المقصود في المتن أعلاه: أن الجيل الجديد يتحلّى بروحٍ بطولية – م.

«إنني أشكر الحزب و [قائد سفينتنا العظيم]، الرئيس ماو».

هذه المرة لم يكنْ ساذجاً جدّاً بحيث يسأل ما إذا يُسمح له بأن يؤلف الموسيقى كرّةً أخرى.

بعد مضيّ ثلاثة أيام، في «محطة قطار شنغهاي»، طوّقه بحرٌ من الشبيبة، سمع صوت امرأة تهتف باسمه. كانت تلك لينغ.

كانت رقة التعبير البادي على وجهها وفرحها الطاغي الجلي لدى رؤيته قد أذهلا سبارو، وأثارا ألماً غير مألوف؛ كان وحيداً على مدى زمنٍ طويل.

«سبارو، قلْ لي أين كنتَ طول هذا الوقت. هل كنتَ في تماسٍّ مع شخصٍ ما».

كانت غريزته الأولى هي أن يخفي الحقيقة. «لا مكان، لا أحد».

«كاي في بكين الآن، أتعرف ذلك؟ لقد تدخّل وحرص على أن يتمّ تعييننا نحن الاثنين معاً في الجنوب، وليس في مناجم الفحم الواقعة على الحدود الروسية». خفضتْ صوتها. «حسناً فعل، إنه يعزف باستمرار للسيدة ماو». عندما لم يحرْ سبارو جواباً، تابعتْ قائلةً: «طلب مني كاي أن أعتني بكَ. قال لي إنكَ ربما تتبوأ موقعاً ما في [الفرقة السيمفونية المركزية]...».

«لكنني لم أعدْ أكتب الموسيقى».

تفحصته لينغ. حدّقتْ إليه بحميميةٍ أليفة، كما لو أنّهما لا يزالان الشخصين نفسيهما، كما لو أنّ لا شيءَ يقف حائلاً بين حاضرهما وماضيهما. «مضى شهر حتى الآن منذ أن حصلتُ على شهادتي، الدكتوراه»، همستْ. «ومن ثم جاء الاتهام، أُغلقت الجامعة وانتهى كل شيء. لماذا لم تعدْ تكتب الموسيقى؟ اسمعْ، لا أزال أتذكر...». همهمتْ في أذنه، بصوتٍ منخفض جدّاً بحيث ما من أحد بوسعه أن يسترق السمع، مقطعاً من *«كونشيرتو لكمانين»* لـ باخ، وكان يودُّ أن يضع يده على شفتيها، كي يُسكتها ويحميها.

في اليوم السابق، كان سبارو قد بعث بالبريد ثلاث رسائل مكتوبة باستعجال: رسالة إلى بغ موذر نايف التي أُجبرتْ على البقاء في «مدينة يومين» ولم تحصلْ حتى الآن على موافقة على طلبها بأن ينقلوها مجدداً إلى شنغهاي؛ رسالة إلى الأب لوت، الذي اعتقلوه في معسكر في «محافظة أنهوي»؛ ورسالة إلى كاي في بكين. في تلك الليلة، منفذون من «لجنة شنغهاي الثورية» أذهلوا الحيّ السكني. كانوا قد جرّوا الجميع من حجراتهم وأمروا بإجراء تفتيش جديد عن المواد المناهضة للثورة. بلامبالاة أطعم المشاعل كتبه وموسيقاه، حتى الأسطوانات الثلاث، التي أعطاها له وِين الحالم قبل عشرين سنة مضتْ. وحتى إن سبارو أحرق الأوراق التي كان قد خبأها في جملونات السقف. كانت سيمفونيته رقم 2 الجميلة، سيمفونيته رقم 3 التي لا تزال غير مكتملة - باتتْ طُعماً لألسنة اللهب. لم يبقَ شيء قط. كان قد راقب، مفتوناً، تغلب عليه ارتياح مقزز للنفس، حين كانت الألبومات والأوراق، الموسيقى والموسيقى المتخيَّلة، تلتوي معاً متحولةً إلى نوعٍ من الوحل الجلاتيني.

كل ما كان سبارو يحمله في حقيبة الظهر العائدة له هو سترة خفيفة، مجموعة من الملابس تصلحان للاستبدال مرتين، قطعة قماش لغسل الوجه والجسد، حصير للنوم، قدر طهي ولأنه قطع عهداً لـ تسهولي، «كتاب السجلات التاريخية».

«هل لديكِ أيّ أخبار عن البروفيسور؟» سألَ سبارو لينغ.

هزّتْ رأسها نفياً. «حتى خالتي لا تعرف شيئاً. كانوا قد احتجزوه وبعدها ضاعتْ أخباره. وكاي قطع جميع ارتباطاته به... هل سمعتَ ما جرى لـ سان لِي؟».

كان ثمة قطار يندفع مسرعاً إلى داخل المحطة. «أجل»، قال. «سانْ لِي فارق الحياة، قفز من نافذة أو دُفع منها». وعقب ذلك، قال محدثاً نفسه أكثر منها: «لكن طالما أن لا أحدَ مسؤول عن ذلك، إذن ما من أحدٍ نصفح عنه».

تكلمتْ مباشرةً في أذنه. «ليس ثمة داعٍ للصفح. نحن نريد أن نزدهر».
لم يكنْ بوسعه أن يتصوّر ماذا يُحتمل أن تعني بكلمتها «نزدهر».
«قال كاي إننا أُرسلنا إلى مكانٍ يُدعى [قناة الماء البارد]»، قالت لينغ.
«أقرب المدن إلينا هي هيتسهو. لم أسمعْ بها من قبل».
«[قناة الماء البارد]»، أجاب، وهو يتمنى أن يجعلها تبتسم. «أوج الازدهار».
«رفيق سبارو، كيف تعرّف الازدهار؟ في اعتقادي لا يوجد ازدهار بل حرية».
فُتحتْ أبواب القطار بواسطة كرنك. تزاحم الركاب إلى الأمام. قبضتْ لينغ على ذراعه كي لا يفترقا في الازدحام.
كلما ابتعدا أكثر عن شنغهاي، يشعر بأنه يتشظى أكثر. في كل محطةٍ من المحطات كان يهمس، مثلما يُحتمل أن يفعل الجيل الأكبر سناً، إلى شبح ابنة خالته: «لا تغادري تسهولي. لم تعدْ لدينا أسرة في هذه المدينة بعد الآن. امكثي معي».
«إنها هنا، سبارو»، قالت لينغ. «تسهولي لن تغادرنا».
وهكذا حين وصلنا، بعد رحلة استغرقتْ أياماً عدة، إلى «قناة الماء البارد»، بدا كما لو أنّ تسهولي، بطريقةٍ غير مرئية، كانت قد أرفقتْ نفسها مجدداً بحياة سبارو، بوعيه، وبكيانه. بعد مرور عام، تلقى هو ولينغ سماحاً بأن يتزوجا. وبعد مضيّ عام على ذلك، كانا قد أنجبا ابنتهما الأولى والوحيدة، وهي: أي – مينغ.

***

في ربيع العام 1970، رجعتْ بغ موذر نايف أخيراً إلى منزل الزقاق الواقع في «طريق بكين». هناك، وجدتْ أن جميع أفراد أسرتها مفقودين. وحتى السيد والسيدة «ما» قد رحلا؛ شجيرات الدفلى العائدة لهما أمستْ غليظةً، وغطتْ كلا جناحي المنزل. هشمتْ جميع الأواني الفخارية. فعلتْ ذلك بحرصٍ وعناية، تخلّصتْ من جميع آنيتها المفضلة في

الحال، بينما هي تغني خلال قيامها بذلك: «رفاق، ابتروا الأغصان ومزقوا ورق الشجر...». ظن الجيران أنها فقدتْ صوابها وتراجعوا إلى مداخل منازلهم حين شاهدوها قادمةً. وفي خاتمة المطاف، بينما كانت تهشم زهريةً تافهةً كان قد أعطاها الأب لوت إليها، تملكها اليأس. حين سحقتها تحت فردة حذائها، أصغر القطع ذكّرتها بالأسنان اللبنية.

«قومي بثورة»، فكرتْ مع نفسها بمرارة. «سأقوم بأكبر ثورة مقارنة بثورات الجميع».

في غرفة النوم، وجدتْ فستان تسهولي وواحدة من فردتيْ حذاء الأب لوت المصنوع من القش، وجلستْ معهما، من دون أن تفهم شيئاً البتة. جميع الآلات الموسيقية والأسطوانات اختفتْ. في تلك الليلة، أخذت القطار غرباً قاصدة «محافظة أنهوي» التي تعاني من العوز والحرمان، حيث كان الأب لوت قد أُودع معسكراً من معسكرات إعادة التربية. استغرقتْ ثلاثة أيام بغية الوصول إليه وحين وصلتْ أخيراً، بكى كلاهما وتناقشا وتشاجرا بصورةٍ حمقاء، لا معنى لها. لم يكنْ بوسع الأب لوت حتى أن ينطق باسم تسهولي؛ على مدار الأعوام الأربعة المنصرمة كان قد أخفى عنها انتحار تسهولي، وحتى إنه مضى شوطاً بعيداً جيداً واختلق قصصاً تتعلق بمكان وجودها وبمنجزاتها: *في هذا الظرف، لا تُنصح تسهولي بالكتابة لك. كانت قد مُنحتْ فرصةً كي تدرس في باريس.* بصقتْ بغ موذر الكلمات عليه من جديد. الآن أخبرها الأب لوت بأنه كتب شخصياً رسالةً إلى الرئيس ماو، الذي من الجائز ألّا يكون عارفاً بكل ما يُنجز باسمه. إن المجتمع يعيش حالةً من الفوضى.

«أنتَ كتبتَ إلى الرئيس ماو؟ أنتَ الرجل الأحمق المثير للضحك».

«ابنانا اللذان من صلبنا بلّغا عني»، قال الأب لوت، مُحطَّماً. «دا شان والدب الطائر يقولان إن لا شأن لهما بنا. إنما لديَّ إيمان بأن الرئيس ماو، [قائدنا العظيم]، [نجمتنا المنقِذة]، سوف يخلّصنا».

كان ذلك، وسيكون دوماً، الشيء الوحيد الذي قاله والذي جعلها

تنفجر بالبكاء. «كيف يقدر أن يخلّصنا؟ هل يمكنه أن يعيد الزمن الذي انقضى؟ هل بوسعه أن يعيد للطفلة حياتها؟ إنكَ حتى لم تملك الشجاعة كي تقيم مراسمَ دفنٍ مناسبة لها!».

«بغ موذر، كان ذلك شيئاً مستحيلاً. ألا تفهمين؟ إنه التحوّل الذي طرأ على العالم».

«تلك الطفلة المسكينة»، قالت، وهي تشيح وجهها.

على مدى أيام ومن ثم أشهر، لم تفكرْ إلّا بـ تسهولي. سويرل ووِين الحالم غادرا منغوليا وعبرا الحدود حتى وصلا إلى قرغيزستان حيث انتظرا هناك كلمةً من ابنتهما، إلّا أنَّ بغ موذر لم يكنْ بوسعها أن تتصور أن تخبرهما أنها كانت ميتة وكانت ميتة منذ العام 1966، وأنها أنهتْ حياتها بنفسها. كيف ستتقبل سويرل هذا الخبر؟ شقيقتها، كانت قد فقدتْ أحد أبنائها، الصبي الصغير الذي هوى من الترام منذ أمدٍ بعيد جدّاً. عدم التصديق سوف يدفع سويرل كي تأتي إلى البيت، سوف تعود إلى شنغهاي على حساب حياتها. لئن تمَّ اعتقال سويرل كرّة أخرى... بغ موذر لم تستطعْ أن تكمل هذه الفكرة. لا يمكنها أن تفعل ذلك.

حين رجعتْ بغ موذر إلى شنغهاي، قدمتْ طلباً بأن تُنقل إلى مدينة سبارو، [قناة الماء البارد]. أخيراً، بعد مضيّ سنة على مضايقتها المستمرة لمَن هم أعلى منها منزلةً، توزيعها الهدايا، إلقائها لأكثر أشعار الرئيس ماو غموضاً، وإرباكها الجميع بالترهيب والترغيب معاً، لُبِّي طلبها. غادرتْ شنغهاي بالقطار وفي يدها أوراق السماح بالسفر والتسجيل. أخبرها هاجس بأنها لن ترى المدينة مجدداً: في الوقت الذي تتشقلب فيه عجلة التاريخ إلى الأمام وهذا البلد يصحو مرةً أخرى، ستكون هي عمياء كالحجر. منزعجةً، حملقتْ مغضبةً في المقصورة المكتظة بالمسافرين ولعنتْ كلَّ وجهٍ من الوجوه الضبابية، كلَّ يد، كلَّ بطن، كل كادر، كل طفل صغير مزعج «أحمر»[1]. ومن ثم، وهي تشعر بالإثم، أغمضتْ عينيها ولعنتْ نفسها.

1 – هنا إشارة خفية إلى عناصر «الحرس الأحمر»، صغار السن – م.

كان القطار المتهالك يعرج، في الجنوب الرطب. شخص قذر[1] صغير رسم بيضةً مائلةً إلى الجانب على النافذة المغبرة، أو ربما كانت البيضة صفراً تركه وراءه شخصٌ ما بخطّ سيّئ. ما الصفر على كل حال؟ الصفر يعني لا شيء، كل ما يفعله هو أنه لا يخبركَ بشيءٍ عن أيّ شيء. مع ذلك، أليس الصفر أيضاً شيئاً ذا معنى، رقماً بحدّ ذاته؟ في تنويت جيانبو، يشير الصفر إلى الانقطاع، توقف قصير أو استراحة ذات طول متوسط. هل إن الزمن الذي يمضي من دون أن يُحصى، من دون أن يُسجل، لا يزال مؤهلاً لأن يكون زمناً؟ إذا كان الصفر كل شيء ولاشيء، هل إن الحياة الفارغة تملك الوزن نفسه حالها حال الحياة الممتلئة؟ هل إن الصفر شبيه بالصحراء، متناهٍ ولامتناهٍ؟ بفضل البطء الموجِع للقطار، كان بحوزتها خمسين ساعةً أخرى كي تفكر في هذا الأمر ملياً. تنهدتْ بغ موذر وصفعتْ ركبتها بعنفٍ شديد بحيث إنّها نخرتْ ألماً. لم يأبهْ أيُّ مسافر من المسافرين الآخرين. «هذا القطار مثل بطيخة سخيفة!». هتفتْ. «إنه يتوقف عند كل مجموعةٍ من الأشجار! في الوقت الذي وصلنا إلى هناك أنتم الأولاد ستكونون قد أصبحتم أجداداً وسأكون أنا في عِداد الأموات! نحن نمضي ببطء شديد بحيث إنّنا من الجائز أيضاً أن نمضي إلى الوراء!». همهمة اتفاق تسللتْ على طول المقصورة، مريحةً ومطمئِنةً مثل نسيم منتصف الليل.

1 - استخدمت الكاتبة كلمة turd، وهي كلمة فاحشة؛ آثرنا ترجمتها كما في المتن أعلاه - م.

الجزء صفر

الموسيقى العزيزة عليّ، والتي من دونها، في الأرجح،
لا يمكنني أن أعيش يوماً واحداً.

• دميتري شوستاكوفيتش[1]

قد تقول إن هذا ليس حبّاً، وأنا أضحكُ عليكَ لأنكَ تفترض أنكَ تعرف ما هي الصفات التي لا يمتاز بها حبُّ شخصٍ آخر ويمتاز بها حُبكَ أنت.

• ضياء حيدر رحمن، رواية *«على ضوء ما نعرفه»*.

1 - رسالة شوستاكوفيتش إلى إديسون دينيسوف، كما اقتبسها لوريل في: «شوستاكوفيتش: حياة» (لندن: مطبعة جامعة أوكسفورد، 2005): 199 - ك.

-7-

حين غادر أبي، جيانغ كاي، الصين في العام 1978، كانت إحدى حقائب سفره ممتلئةً بما يزيد على خمسين دفتر ملاحظات متهرّئ. كانت دفاتر الملاحظات تحتوي على مسوّدات انتقادات ذاتية لا بدَّ أن صفحاتها الأخيرة سُلّمتْ، قبل بضعة أعوام، إلى شخصٍ أعلى منزلةً أو إلى شخصيةٍ حكومية. النقد الذاتي، ساموكرتيكا، بالروسية، (jiǎn tǎo) 检讨 بالصينية، يستلزم أن تعترف الشخصية بأخطائه أو أخطائها، يكرر الفكر الصحيح للحزب ويعترف بفضل سلطة الحزب عليه أو عليها. الاعتراف، على وفق الحزب، هو «شكل من أشكال التوبة التي تعيد الفرد إلى الجماعة».[1] فحسب من خلال الندم الأصيل والنقد الذاتي يستطيع المرء الواقع في الخطيئة أن يستحق إعادة التأهيل وأمنية «البعث»، أمنية العودة مجدداً إلى الحياة.

وصلتُ إلى شنغهاي في الأول من حزيران «يونيو» 2016. من غرفتي في الفندق، خفضتُ بصري ناظرةً إلى مدينةٍ مكلّلةٍ بالسديم. ناطحات السحاب والملكيات المشتركة تتدافع معاً بالمناكب في الاتجاهات كلها، وهي تمحو حتى الأفق نفسه.

كيف فتنتني المدينة. بدتْ شنغهاي، أشبه بمكتبة أو حتى أشبه بكتاب

---

1 – «شكل من أشكال التوبة التي تعيد الفرد إلى الجماعة...»: كانغ شينغ، مُعذِّب وعضو رفيع المستوى في الاستخبارت العسكرية التابعة للرئيس ماو، كما اقتبسها ديفيد إرنست أبتر وتوني سيج في كتابهما الموسوم بـ«*الخطاب الثوري في جمهورية ماو*» (كامبردج: مطبعة جامعة هارفرد، 1994): 288. كان كانغ مؤثراً في حشد الدعم الصيني لـبول بوت والخمير الحُمُر في كمبوديا – ك.

واحد، يحمل كوناً في داخل متنه. وصل أبي إلى هنا في أواخر عقد الخمسينيات من القرن العشرين، طفلاً ريفياً، في أعقاب «الوثبة الكبرى للأمام» والمجاعة التي من صنع بني البشر التي قضتْ على حيوات 36 مليوناً من البشر، وربما أكثر من ذلك. كان قد أتقن موسيقاه، حلم بعالم أرحب وأفضل، ووقع في الحب. يوماً إثر آخر، كان كاي ينحني على طاولة مكتبه، وبحميّةٍ يكتب وينسخ الصفحات، ينقح ويتخيّل حياته ومبادئه الأخلاقية مجدداً. لم نكنْ مختلفين، أنا وأبي؛ كنا نريد أن نحفظ أسطوانةً. تخيلنا أن ثمةَ حقائقَ في انتظارنا – حقائق تتعلق بذواتنا وتلك التي كنا مغرمين بها، حقائق عن الأزمنة التي عشنا فيها – في متناولنا، ليتنا نملك عيوناً حتى نراها.

ضباب الصيف محا شنغهاي من المَشهد. ابتعدتُ عن النافذة. استحممتُ، بدّلتُ ملابسي ونزلتُ إلى نفق القطارات.

تحت الأرض، كان الناس يتطلعون إلى الشاشات أو يربتون على الهواتف، إلّا أنَّ كثيرين منهم كانت تجرفهم أفكارهم حالهم حالي. على مقربةٍ مني، كانت ثمة امرأة عجوز تلتهم الكعك بحذر، الهواتف ترن وتصدر أصواتاً شبيهة بصوت الإوز، أم وابنتها كانتا تكرران جدول الضرب وكان ثمة طفل يرفض الترجل.

بنحوٍ غير متوقع، فرمل القطار. تعثرت المرأة العجوز، تطاير كعكها، ووقعتْ في حضني.

على مدى لحظة، ظلتْ معلّقةً بين ذراعيَّ، المسافة الفاصلة بين وجهينا لا تزيد على بوصات معدودة. تصاعد هتاف كبير من الناس المحيطين بنا، أعقبه تصفيق جذل. أنّبها طفل بقسوةٍ على تناولها الطعام في الميترو، وودّ طفل آخر أن يعرف أيَّ نوعٍ من الكعك كانت تأكله. فهقهت العجوز، لم يكنْ صوتها متوقعاً، كدتُ أسقطها. كانت في أواخر الستينيات من عمرها، في العمر نفسه الذي يمكن أن تكون فيه أمي الآن. بلغتي الـ «مندرين» الناقصة حاولتُ أن أعطيها مقعدي، لكنَ المرأة المسنّة لوّحتْ بيدها رافضةً ذلك كما لو أنّني أعطيتها تذكرةً إلى القمر.

«احتفظي بمعقدكِ لنفسك، صغيرتي». قالتْ شيئاً آخر، كلمات بدتْ شبيهةً بـ «كِسر خبز كافية، لا؟ كافية».

«نعم»، قلتُ، «كافية».

رسمتْ بسمةً على محياها. أسرعَ الميترو.

كان باستطاعتي أن أشعر بعنفواني يضعف تدريجيّاً الآن؛ العالم المحيط بي بدا بعيداً كما لو أنني كنتُ محمولةً في جرة ماء. فتح رجلٌ جريدةً على وسعها، غطتْ زوجته وابنته. وراءهم، في النوافذ، تغيرتْ مواقع صورهم المنعكسة، صورةً بعد أخرى.

***

في انتقاداته الذاتية، كتب أبي عن حبه للموسيقى وشغفه بها وعن الخوف من أنه «لا يستطيع أن يتغلّب على رغبته في نيل السعادة الشخصية». كان قد اتهم تسهولي، تخلى عن سبارو وقطع كل ارتباطاته بالبروفيسور، أفراد أسرته الوحيدين. كتب عن كيف أنه كان يقف عاجزاً فيما كانت أمه تموت، ومن ثم شقيقتاه اللتان تصغرانه سناً، وفي الختام أبوه؛ قال إنه مدين بكل شيء لأفراد عائلته، ولديه واجب حيال الحياة. على مدى أعوام عدة، حاول أبي أن يهجر الموسيقى. حين قرأتُ أول مرة انتقاداته الذاتية، لمحتُ أبي عبر الذوات الكثيرة التي سعى لأن يكونها؛ ذوات مهجورة ومكتشَفة من جديد، ذوات تريد أن تختفي لكنها لا تستطيع ذلك. هكذا أراه، غالباً، حين يخمد - نيابةً عني، عن أمي، تسهولي - غضبي ويتحوّل إلى أسف. كان يعرف أن ترك هذه الانتقادات الذاتية وراءه سوف يعرّض الآخرين للخطر، على الرغم من أن تدميرهم شيء مستحيل، لذا حملها معه أولاً إلى هونغ كونغ ومن ثم إلى كندا. حتى هنا، سوف يبدأ بدفاتر ملاحظات جديدة، يتهم نفسه ورغباته، مع أنه لا يستطيع أن يجد طريقةً ما يكتشف بها ذاته مجدداً أو يبدّلها.

في الأسبوع المنصرم، وفيما هو يستعد لهذه الرحلة، صادفتُ تفصيلاً ما: في العام 1949، كانت «ساحة تيانانمين» قد احتفظتْ بموقعها بوصفها مركز السلطة السياسية في الصين بسبب علم الهندسة التحليلية.

ثبّتَ مهندس معماري، اسمه تشان غانغ، «الساحة» باعتبارها «نقطة الصفر». استشهد بقول فريدريك إنجلز الذي مفاده: «الصفر هو نقطة محددة تبدأ منها[1] القياسات المستقيمة، في أحد الاتجاهين إيجابياً، وفي الاتجاه الآخر سلباً. واستناداً إلى هذا فإن نقطة الصفر هي الموقع الذي تعتمد عليه كل المواقع الأخرى، وكلها ذات صلة بها، *وبواسطتها يتقرر كل شيء*». حين نصل إلى الصفر، فهو يمثل شيئاً محدداً جداً: الحد. ومن هنا فإنه ذو أهمية عظمى تفوق أهمية جميع المقادير الحقيقية التي تكون مطوّقة بها.

صيف ذلك العام 1966، العام الذي توفيتْ فيه تسهولي، هو نقطة الصفر بالنسبة لأبي. وحاله حال مئات الآلاف من البشر الآخرين، مضى إلى «ساحة تيانانمين» كي يعبّر عن ولائه للرئيس ماو ويسلّم نفسه إلى fānshēn: أي بمعنى أن يسلّم جسده، أن يحرر نفسه. بعد مضيّ عقود عدة، شاهد على التلفزيون ثلاثة طلبة جامعيين يقفون أمام «قاعة الشعب الكبرى» يحملون رسالةً للحكومة. كان الوقت هو الثاني والعشرين من نيسان «أبريل» 1989. كان الطلبة الثلاثة يرفعون أذرعهم عالياً، رافعين الالتماس وجاثين على ركبهم، كما لو أنهم ينشدون الرحمة. خلفهم في «ساحة تيانانمين»، ما يزيد على 200 ألف طالب جامعي من كلا الجنسين، كانوا يقاومون بصدمة عصبية ومن ثم بحزن.[2]

لماذا أنتم جاثون على ركبكم؟

---

1 - «الصفر هو نقطة محددة تبدأ منها...»: اقتباس محوَّر من فريدريك إنجلز: ***«ديالكتيك الطبيعة»***، مثلما أورده وو هونغ في كتابه المعنون: ***«ملاحظة بكين: ساحة تيانانمين وصنع فضاء سياسي»*** (لندن: رياكشن بوكس، 2005): 8 - ك.

2 - الطلبة الثلاثة: تسهانغ تسيونغ، غيو هيفينغ وتسهاو يونغ جون ركعوا على درجات «قاعة الشعب الكبرى» في الثاني والعشرين من نيسان «أبريل» 1989. بين 1989 و2002، تسهاو، كونه طالباً جامعياً في «جامعة الصين للسياسة والقانون»، أمضى خمسة أعوام في السجن. في العام 2008، بينما كان يحاول الدخول ثانيةً إلى الصين كي يزور أباه العليل، اعتقل مجدداً من بوليس هونغ كونغ وسلّموه إلى الصين. في بادئ الأمر اتهموه باقتراف جرائم سياسية، وحُكم عليه بالسجن تسع سنوات بسبب خداع مالي. لم يُسمع عنه أيّ خبر منذ العام 2014 - ك.

انهضوا، انهضوا!

هذه ساحة الشعب! لماذا يتعيَّن علينا أن نخاطب الحكومة ونحن راكعون؟

كيف يتسنى لنا أن نركع بأسمائنا؟ كيف؟

كان الطلبة، المتحدرون من جميع الخلفيات السياسية والاقتصادية، مهتاجين. لكن الطلبة الجامعيين الثلاثة لبثوا في مكانهم، هيئات متناهية الصغر، الالتماس ثقيل في الهواء، يتنظرون شخصيةً حكومية كي تتسلّمه منهم. عشرة، عشرون، ثلاثون دقيقة مرّتْ، وظلّوا جاثين على ركبهم. وراءهم، تزايد الهَرْج والمَرْج. حين أخفق الزعماء الصينيون في الاستجابة، بدأتْ تظاهرات الـ «تيانانمين» تكتسب صفة الجد.



خرجتُ من نفق القطارات عند «طريق تيانتونغ»، وبزغتُ في تقاطعٍ حيث كانت هنالك ملكيات عامة، نصف مشيّدة، مفتوحة مثل سلالمِ ضخمة على السماء. كنتُ قد قصدتُ هذا الحيّ من قبل: هونغ كاو

حيث ترعرعتْ سويرل وبغ موذر نايف قبل الحرب، وحيث يقيم الآن ليو فينغ، عازف الكمان، الذي سُمي في وقتٍ من الأوقات توفو ليو.

في أزمنةٍ مختلفةٍ، كانت هونغ كاو مقاطعة الثياب، حقٌّ ممنوح لليابان وأميركا، وخلال صعود هتلر والحرب الكونية الثانية، غيتو شنغهاي. في عقد الثلاثينيات من القرن العشرين، كان بالمستطاع أن يدخل المرء شرعيّاً ميناء شنغهاي من دون جواز سفر أو تأشيرة دخول؛ أربعون ألف ونيف يهودي ولاجئون آخرون من ألمانيا، النمسا، روسيا، العراق، الهند، ليتوانيا، بولندا، أوكرانيا ومن أمكنة أخرى وصلوا إلى هنا، لم يجلبوا فحسب لغاتهم وصدماتهم النفسية، بل جلبوا كذلك موسيقاهم.

واصلتُ طريقي جنوباً، مررتُ بنقاش رصيف المشاة، حول الرجال الثلاثة، كانت أبدانهم متمددة تماماً على دراجاتهم البخارية الصغيرة، وهم يلعبون الورق.

عند «خليج سوتسهو الصغير»، وصلتُ إلى «مبنى السد». عالياً في الطابق العاشر، كان السيد ليو في انتظاري. كنتُ اتصلتُ به هاتفيّاً على الـ «وي جات» وفي بادئ الأمر، حين قلتُ له إنني ابنة جيانغ كاي، كان محترساً. لكنني حين أخبرته أنني أفتش عن أي – مينغ، ابنة سبارو، تغيّر بشكل تام. الآن، وهي أول مرة نلتقي فيها شخصيّاً، رحّب بي كما لو كان يعرفني طوال سني حياته. «ما – لِي!». قال لي. «ادخلي، ادخلي! هل أكلتِ؟ ابنتي التقطتْ مكعبات السكر هذه...».

الكتب، موسيقى صحائفية[1]، أقراص مدمجة، كاسيتات وأسطوانات شغلتْ كل بوصة من الفضاء. بعد مسيرة مهنية في التعليم دامتْ ثلاثة عقود من الزمن في «كونسرفتوار شنغهاي»، أُحيل على التقاعد الشهر الفائت ونقل مكتبه إلى منزله. «لا تزلي»، قال لي. «ليس لديَّ تأمين على الحياة».

مضينا جانباً عبر المطبخ ودلفنا إلى غرفة المعيشة. عبر النهر، طفتْ

---

1 – الموسيقى الصحائفية: موسيقى مطبوعة على صحائف عريضة غير مجلّدة – م.

ناطحات سحاب شنغهاي المثيرة، سورياليةً. كل منا بعيد عن الآخر بمسافة عالَم، إنما نبعد جيلاً واحداً فقط، عن المدينة التي عرفها أبي.

أخبرني السيد ليو أنه، منذ تسعينيات القرن العشرين، كان يراقب هذه السلسلة المتصلة من ناطحات السحاب وهي تظهر للوجود. «حين وُلدت ابنتي، أيٌّ ناطحة من ناطحات السحاب هذه لم تكنْ حتى خربشةً على ورق. هذه الثلاث»، قال، وهو يشير بأصبعه إلى أعلى ناطحات السحاب، «كان القصد من وراء إنشائها هو أن ترمز للماضي، الحاضر والمستقبل. إلّا أنَّ كلام الحكومة كان مملاً. بدلاً من ذلك، يسميها الشعب [طقم[1] المطبخ ذو القطع الثلاث]. أترين؟ توجد فتّاحة قناني. المخفقة. و... ماذا تقولين بالإنكليزية؟ زبدة مائعة لتطرية لحم الديك الرومي في أثناء طهيه».

ضحكتُ. «في اعتقادي، المخفقة هي الأجمل، سيد ليو». كانت حلزوناً أسطوانياً يشبه شريطاً متحركاً.

«أنا أؤيدكِ. لكن شنغهاي لا تزال تشبه حزام أداة. بالمناسبة، لا تكوني رسميةً جدّاً! أرجوكِ سمّيني توفو ليو. جميعهم يسمونني بهذا الاسم، حتى أحفادي».

أمامنا، بدأتْ تتوهج مصابيح البنايات.

أدار توفو ليو ظهره للمدينة. جلسنا إلى منضدة صغيرة حيث كان شخصٌ ما قد فرز أقلامَ رصاصٍ ملوّنةً. أخبرني أنه دخل «المعهد العالي للموسيقى» في العام عينه الذي دخلتْ فيه تسهولي. «كلانا تتلمذ على يد مدرّس كمان واحد، وهو تان هونغ. كان أبي يمينياً مُداناً، مناهضاً للثورة، على غرار والد تسهولي. كنتُ أحبها حبّاً قليلاً، مع أنّني كنتُ أغبطها على موهبتها». إبان [الثورة الثقافية]، أُغلق [المعهد العالي للموسيقى]. «لم ينجُ بيانو واحد. ولا واحد». هو نفسه أُرسل إلى معسكرٍ في «محافظة

1 - طقم: مجموعة من الأدوات تُستخدم في المطبخ؛ يستخدم العراقيون كلمة: سيت الإنكليزية set، إذ يقولون سيت المطبخ - م.

هيلونغجيانغ» في الأراضي الحدودية المنجمدة الواقعة في الشمال الشرقي. «كان يتحتّم علينا أن نرتدي إما اللون الأزرق، الرمادي أو الأسود. كان يجب أن يكون شعرنا قصيراً. يتعيّن علينا أن نعتمر النوع نفسه من القبعات. كانت تلك هي البداية فقط. كانت الرياح باردةً إلى أقصى حدٍّ. كنا نجاور أحد الأنهار، وفي الضفة الأخرى من النهر روسيا. كنا نعمل في مناجم الفحم. لم تكنْ لدينا مهارات في هذه المهنة وفي كل أسبوع تقريباً، كان يُصاب واحد منا إصابةً خطيرة أو يُقتل. كان الحزب يقوم بتعويضهم. كانت الكتب الوحيدة المتوافرة هناك هي كتابات الرئيس ماو. كان لدينا يومياً نقد ذاتي وجلسات اتهامات. استمر هذا الحال طول ستة أعوام».

في العام 1977، حين انتهت «الثورة الثقافية»، فرَّ ليو من المعسكر ورجع إلى شنغهاي، حيث بحث عن مدرّسه السابق، تان هونغ.

تكلمنا عن تسهولي زمناً طويلاً وعن آخرين كنا نعرفهم. وبعدها سألني البروفيسور تان قائلاً: [توفو ليو، أتريد العودة إلى (الكونسرفتوار) وتكمل دراستك؟]

قلتُ له «نعم أريد».

«[بعد كل ما جرى، لماذا؟]».

كان سؤاله قد دمرني. كيف يمكنني أن أتظاهر بأن الموسيقى هي الخلاص؟ كيف يمكنني أن أسلّم نفسي إلى شيءٍ ضعيفٍ جدّاً؟ «اشتغلتُ بالتعدين طوال ستة أعوام، كان ثمة غبار فحم في رئتي، كنتُ كسرتُ جميع أصابع يدي اليمنى، كيف يمكنني أن أحمل كماناً؟». قلتُ له: [لا أدري.] لكنه ظلَّ يجبرني على الإجابة. لم يكنْ يكفيه أن يسمع مني أنني مغرم بالموسيقى، وأنها كانت تريحني على الدوام، وكنتُ وعدتُ نفسي إذا ما نجوتُ سأكرّس حياتي كلها لها. كان هناك آلاف الأشخاص ممَن تقدموا بطلبات الحصول على وظيفة من بين حفنة من الوظائف في [المعهد العالي للموسيقى]. كان هؤلاء جميعاً مغرمين بالموسيقى

بالقدر نفسه الذي كنتُ مغرماً بها. في النهاية أخبرته بالحقيقة. قلتُ له: [لأن الموسيقى لاشيء. إنها لاشيء ومع ذلك هي تعود لي. على الرغم من كل ما جرى، إنني أؤمن بنفسي.]

«صافح تان هونغ يدي. حدثني قائلاً: [أيها الشاب ليو، مرحباً بكَ وأنت تؤوب إلى (المعهد العالي للموسيقى). مرحباً بك. العَوْدُ أحمد.]».

أراني توفو ليو ذكرياته. كانت تضمّ صوراً فوتوغرافيةً لـ تسهولي وهي تعزف مع الرباعي الوتري التاسع لـ «المعهد العالي للموسيقى» حين كانت في التاسعة من عمرها وتسجيلاً سلكيّاً لـ تسهولي وكاي وهما يعزفان سيمفونية سميتانا[1] المعنونة «من بلادي»، التي خبأها ليو حتى نهاية «الثورة الثقافية».

«لكن، سيد ليو، كيف تمكنتَ من إخفاءِ أشياءٍ كهذه؟».

رفع كتفيه من دون اكتراث، مبتسماً. «قبل أن يرسلوني إلى الحدود الروسية، حفرتُ ثقباً صغيراً في الأرضية الخشبية لغرفة نومي في شنغهاي. أنتَ تعرف كم هي صلدة الأرضية الخشبية! كل ما كان بحوزتي هو سكين مطبخ. استغرقتُ أسبوعين مروِّعين لإنجاز هذه العملية. كنتُ مقتنعاً بأن عناصر [الحرس الأحمر] سوف يقتحمون الحجرة وستحل نهايتي عندئذٍ. دفنتُ دزينةً من التسجيلات السلكية، بعض الصور الفوتوغرافية والأسطوانات، وكماني. بعد انقضاء عشرة أعوام، حين سحبته إلى الأعلى وجدتُ مأوًى للفئران في داخل الكمان... لكن انظرْ إلى هذا السلك». رفع المسلَكة[2] وأراني إياها. كانتْ محتفظةً بنقائها الأصلي. «أتريد أن تسمعه؟».

---

1 - بدريك سميتانا (1824 - 1884): مؤلف موسيقي تشيكي، تطوّع من أجل إنشاء طراز موسيقي أصبح مماثلاً لطموحات بلاده من أجل تأسيس دولة مستقلة. ومن هنا يُعدُّ بشكل واسع في وطنه أبا الموسيقى التشيكية. اشتهر بسلسلته السمفونية «من بلادي» التي تصور تاريخ وأساطير بلاده ومَشهدها الطبيعي - م.

2 - مسلَكة spool: مكب أو ملف للخيوط - م.

أومأتُ برأسي، عاجزاً عن التحدث.

برقةٍ، حمّل المسلَكة بسلك مسجل عتيق جدّاً. حين أصبح جاهزاً، أدار مقبضاً.

بلغتني الألحان. أدرتُ نفسي إلى المنتصف.

ظننتُ أنني شاهدتُ الستائر ترتفع وأبي يخفض بصره ناظراً إليَّ من نافذةٍ علوية. في الطابق التاسع، مال بجذعه إلى الخارج. هل رآه أحدٌ سواي؟ هل كنتُ أنا الوحيدة؟ كان أبي قد عصب عينيه، شدَّ قطعةً من القماش على وجهه قبل أن ينتحر. لم أعرف بهذا الأمر إلّا بعد حصولي على نسخٍ من ملفات بوليس هونغ كونغ، والتفصيل الذي حطمني.[1]

هذه هي أول مرة أسمع فيها أبي وهو يعزف على البيانو. جيانغ كاي بدا غريباً بالنسبة لي، كان على الدوام فرداً أكثر حيويةً، ممتلئاً أكثر بالذكرى، مما يمكنني أن أعرف. ومع ذلك، وأنا أستمع إلى كمان تسهولي، صوتها المدروس، الصريح، لماذا أشعر كما لو أنني كنتُ أعرفها طوال سنوات عمري كلها؟

أصغينا إلى الأسطوانة ثلاث، أربع، خمس مرات. في كل مرة، كنتُ أسمع شيئاً مختلفاً، انفصالاً ووحدةً، أستمع إلى الموسيقيين، إلى الغبار، الماكينة، أنفاسنا. الموسيقى. في كل مرة، في النهاية، كنتُ أسمع صوت أبي وهو يتكلّم. لم أسمعه منذ أن كنتُ في العاشرة من عمري. كان صوته لا يشبه أيَّ صوتٍ آخر عاش في أيّ زمن مضى.

بكيتُ. وهو يراني قلقةً، مضطربةً، أحضر لي السيد ليو كوباً من الشاي. «يشق عليَّ أن أفهم»، قال لي. «كان الضغط الذي مورس علينا لا يمكن تخيّله. لا تنسي، في ذلك الحين، كان أبوكِ شاباً في ربيعه التاسع عشر لا غير... كنا جميعاً يافعين جدّاً».

---

1 - طريقة توفو ليو في إخفاء صنائع البشر، استندتْ على كتاب الصحفي الفوتوغرافي لي تسهينشينغ الموسوم بـ«*جندي أخبار اللون الأحمر*» (لندن، فيدون، 2003) - ك. (لم تذكر الكاتبة رقم الصفحة - م.)

عدنا إلى المنضدة. أريته نسختي من الفصل 17 من «كتاب السجلات التاريخية».

«أيها المدرّس ليو»، خاطبتُه، «عملتُ عشرات الآلاف من النسخ من دفاتر الملاحظات كلها. بنقراتٍ قليلة على لوح المفاتيح «الكيبورد» يمكنكَ أن ترسل الملفات إلى أيّ مكانٍ في العالم، حالاً. أريدها أن تكون حاضرةً، كي تستمر في التطوّر والتبدّل». من حقيبتي، استللتُ مقطوعة سبارو الموسيقية الموسومة بـ*[الشمس تشرق على ساحة الشعب]*. «هذه هي المقطوعة الموسيقية التي ذكرتُها لك. يبدو أنه من المناسب أن نعزفها هنا في شنغهاي. كي نسجلها. إنما... إنني فعلاً أعجب من سلامة عقلي».

تناول ليو الصفحات. شرع يقرؤها من البداية إلى النهاية.

شاهدتُ الستائر وهي تتحرك والريح تتبدل؛ أبي وأمي غادرا هذا العالم، مع ذلك لا أزال أنا هنا في شنغهاي. لا زلتُ أتنفس وأتغيّر وأحلم.

بعد مضيّ زمن طويل، رفع ليو عينيه عن القطعة الموسيقية. «ما - لِي»، قال لي، «إنني متأكد من أنك تعرفين، من دون هاجس، أنه لا يوجد عمل حياتي. لكن من أين أتتْ هذه اليقظة؟ هل سبقَ لكِ أن سألتِ نفسكِ؟ من المؤكد أنه الشيء الذي يحمله كل واحد منا، بمقادير أكبر فأكبر فيما نحن نشيخ، التذكر». استخدم كلمة ji yi، التي لها معنيان 记忆 (تذكّر، تسجيل) و技艺 (الفن). سكتَ لحظةً، وهو يخفض بصره ناظراً إلى الصفحات. «الموسيقى تذكّرني بشيءٍ قالته تسهولي حين كنا نتدّرب على بروكوفييف. قالت إن الموسيقى تجعلها تتساءل: [هل تغيّرنا أكثر إذا ما سمعتنا أم إذا سمعناها؟ هل من الأفضل أن نكون محبوبين، أم أن نقع في الحب؟] من بين جميع مؤلفاته الموسيقية، هذه هي المقطوعة الموسيقية الاستثنائية جدّاً للمدرس سبارو».

فتح صندوق كمانه وأخرج الآلة الموسيقية. ملأتْ قطعة موسيقية الغرفة، بدتْ كأنها تتحرك إلى الخلف والأمام معاً، كما لو أنّ سبارو

كان يريد أن يعيد كتابة الزمن نفسه. نغمةً إثر نغمة، أحسستُ كما لو أنني أُرتِّب أو أُصمِّم من جديد.

حين نحى المدرس ليو الكمان جانباً، سألني قائلاً: «هل تعزفين على البيانو؟».

«لم يسبقْ لي أن تعلمتُ العزف عليها».

«إذن سأرتب للكِ كل شيء. كان المدرس سبارو قد عنى أن تُسمع هذه الموسيقى هنا».

«شكري الجزيل، أيها البروفيسور».

قبل أن أنصرف، أريته صورةً فوتوغرافيةً لـ أي - مينغ.

«يا للهول، إنها تسهولي، أليس كذلك؟» قال مندهشاً، وهو يتفرس في الصورة. «لا بدَّ أن تكون هي. لا؟ إنها ابنة المدرس سبارو؟ *أي - مينغ*. آه، حسناً. يا له من شيء لافت. إنها تملك الوجه نفسه الذي تملكه الآنسة تسهولي».

أعطاني توفو ليو التسجيل كي أحتفظ به وأعطيته نسخةً من موسيقى سبارو. تذكرتُ، آنئذٍ، شيئاً قالته أي - مينغ: *إنني أتخيل أنه حين تنتهي القصة تواصل الحياة دورتها وأعود لأكون أنا نفسي. إلّا أنّ هذا شيء غير صحيح. القصص تصبح أطول فأطول، وحجمي يغدو أصغر فأصغر. حين قلتُ لـ بغ موذر هذا، ضحكتْ هازةً رأسها. «لكن هذا هو حال العالم، أليس كذلك؟»*.

-6-

كان سبارو يقود دراجته الهوائية ببطء متجهاً صوب البيت قادماً من «معمل هويتسهو لصناعة الصناديق الخشبية»، يدفعه نسيم مستمر إلى الأمام. كان ذلك في أواخر آب «أغسطس»، بعد هطول المطر مباشرةً. على طول الطريق، كانت مكبرات الصوت تعلن عن برنامج خاص: «أوركسترا فيلادلفيا، بقيادة المايسترو يوجين أورماندي[1]، سوف تعزف هذه الليلة في بكين للسيدة ماو. هذه هي حفلتهم الموسيقية الثالثة في المدينة، وهي واحدة من مجموع ست حفلات في الصين».

قال قارئ نشرة الأخبار إن التاريخ هو الرابع عشر من أيلول «سبتمبر» 1973.

لكن ذلك حصل في 1976. كانت الحفلة قد أُقيمتْ قبل ثلاثة أعوام تقريباً.

كان ثمة أشخاص آخرون يتطلعون إلى مكبرات الصوت، كما لو أنهم مرتبكون. كان قد انقضى نحو عقد من الزمن منذ أن أذاع الراديو الموسيقى، مهما كان نوعها، بالإضافة إلى الأوبرات الثورية الثماني عشرة التي حصلت الموافقة على عرضها. الآن، انفجرت الموسيقى

---

1 – يوجين أورماندي (1985 – 1899): مؤلف موسيقي وعازف كمان هنغاري، اشتهر بمرافقته لأوركسترا فيلادلفيا، بوصفه مديرها الموسيقي. عمل مع هذه الأوركسترا 44 عاماً، وهي أطول مدة يستمتع فيها مؤلف موسيقي بالعمل مع فرقة موسيقية واحدة. تحت قيادته نالت أوركسترا فيلادلفيا ثلاث مرات جائزة «الأسطوانة الذهبية» ومرتين «جائزة غراني» – م.

فوقهم، التصعيد الاستهلالي المحموم لـ«*صنوبرات روما*»، تأليف ريسبيغي[1]، هبط سبارو نحو محطة وقوف، مرتبكاً بسبب تفصيله، المبهج، بيانو مضحك تقريباً وآلات النفخ الموسيقية النحاسية التي ترن.

في وقت وصوله إلى البيت، كان الشطر الثاني من البرنامج قد بدأ. هرعت ابنته كي تقابله. «إنه عمل جديد للسيدة ماو!».

ابتسم سبارو على مضض. «لا، أي - مينغ. إنه بيتهوفن وهو آتٍ من بلد آخر». هذه شذرة، فكّر، من شيء كان موجوداً في يومٍ ما إلّا أنّه لم يعدْ ينمو هنا، مثل حقل تمَّ تجريفه.

مضى إلى الداخل. السمفونية السادسة، *الرعوية*، تأليف بيتهوفن، تهرول بمرح عبر الحجرات. حتى بغ موذر كانت مستغرقةً في أفكارها. كان يحسب أن الجدران كانت تزحف مقتربةً منه، مسّتْ يديه مسّاً خفيفاً وقشطتْ مؤخرة عنقه. يمكنكَ أن تغلقَ كتاباً وتنسى ما يتعلق به، عارفاً بأن محتوياته لن تضيع إذا ما توقفتَ عن القراءة، إلّا أنَّ الموسيقى ليستْ على غرار الكتاب، ليس بالنسبة له، إنها تكون في أقصى درجات حيويتها حين تُسمع. عاماً بعد عام، كان يودُّ أن يعزف ويعاود العزف، أن يشظيها إلى مكوّناتها ويعيد بناءها كرّةً أخرى. ومن ثم، أخيراً، بعد مضيّ ستة أعوام، بعد سبعة أعوام، وبعد عقد من الزمن، أضحتْ ذاكرته هادئةً. من دون أن يحاول، كفَّ عن التذكّر. لكن هذه الإذاعة، ماذا كانت؟ هل كانوا يسمعون المستقبل أم إنه الانفجار الأخير للماضي؟ منذ أمدٍ بعيد، هتف هِي لوتنغ قائلاً: «العار، العار. يتعيَّن عليكم أن تخجلوا»، وقالت تسهولي: «سأجعل بروكوفييف نفسه مزهوّاً». لئن كانت الحفلة الموسيقية قد جرتْ حقيقةً في بكين، فلا بدَّ أن كاي حضرها. صوتٌ في داخل صوت. لكن ماذا لو أنّ هذا كله يقتصر على ذهنه فقط؟

---

1 - أوتورينو ريسبيغي (1879 - 1936): عازف كمان ومؤلف موسيقي وعالِم موسيقي إيطالي الجنسية. انصب ولعه كعالِم على موسيقى القرن السادس عشر، السابع عشر، الثامن عشر، الأمر الذي مهّد له الطريق لأن يؤلف قطعاً موسيقية مستندة إلى الموسيقى في هذه الحقب الثلاث. كما كتب أوبرات عدة، من أشهرها أوبرا ***La fiamma*** - م.

جاء التصفيق قوياً جداً، وخشي من أن يتشقلب الراديو. موجات عنيفة من التصفيق الإيقاعي، استمرتْ طويلاً.

من الجهة المقابلة من الغرفة، قالت بغ موذر: «أيّ تغيير دموي يحلّ الآن؟».

لم تكن الموسيقى شيئاً أكثر من إذاعة، برنامج بسيط، لكنه التفت ورأى الابتهاج على محيّا ابنته. كانت الصغيرة أي - مينغ تضغط جبينها على جهاز الراديو، كانت ابنته ممتلئة بالغبطة، كانت قد نُقلتْ، بدا كما لو أنّ كل أعصابها مضطرمة. بدتْ شبيهةً بـ تسهولي. على مدى لحظة، لم تكنْ لديه فكرة عن موقع وجوده. كان يريد أن يجرّها للوراء، أن يبعد الماكينة ويدفنها من دون ضوضاء في الأرض. مرتعشاً من أثر البرد، تمشى في أنحاء الغرفة وأغلق المذياع.

***

لأن أباها كان هادئاً جدّاً، كانت أي - مينغ، منذ عمر مبكر، قد مالتْ إلى بغ موذر نايف؛ كانت جدتها هي مؤتمنتها على أسرارها، معلمتها، ووسادتها أيضاً. ما من أحدٍ في هذه الحياة يأبه بها مثلما كانت تفعل بغ موذر، وهكذا وجدتْ لذةً كبرى في الصعود عليها، النوم عليها وتزغّب خصلات بغ موذر. لينغ، أمها الحقيقية، كان قد أُعيد تعيينها في شنغهاي قبل خمسة أعوام تقريباً، وكانت تزورها مرةً واحدةً فقط في السنة، خلال «مهرجان الربيع». أما أبوها، سبارو، فكان «طائر الهدوء».

«لا تكوني مغفلةً»، قالت لها بغ موذر، ذات مرة. «إنه لا يتحرك، كالعادة، وهو حتى لا يفكر، بحزن. أبوكِ فارغ كغلاف جوزة». كانت قد دنتْ منها وهمستْ في أذن أي - مينغ قائلةً: «العالم أشبه بالموزة، من السهل أن تتأثر بأيِّ رضّة أو ضربة. الآن حان الوقت كي نشاهد ونلاحظ، لا أن نطلق الأحكام. أي - مينغ، الاعتقاد بأن كل شيء موجود في الكتب هو أسوأ من عدم امتلاك الكتب على الإطلاق».

على مدار أسابيع لاحقة، ارتابتْ أي - مينغ في هذه الكلمات. في ليلةٍ

من ليالي آب «أغسطس»، حين كانت تُذاع حفلة «أوركسترا فيلادلفيا»، كانت قد تجسستْ على أبيها بينما كان يرهف السمع إلى بيتهوفن هذا، ولاحظتْ كيف أن الراديو، على مدى سنة بعد ذلك، عاد إلى موسيقاه المألوفة، وراح يعزف فقط *«شاجابانغ»* و«صيد النمر الجبلي بواسطة خطة استراتيجية». ذات مرة، على الرغم من ذلك، كان هنالك بثّ إذاعي لموسيقى ألبانية، وجعلتْ سبارو يكفّ عما كان يفعله ويلتفت إلى الراديو، كما لو أنّه متطفل. في المدرسة، كونها ابنة عدوّ طبقي، مُنعتْ من الانخراط في منظمة «الشبيبة المتطوعون»، من بين مَظالم أخرى. كانت هذه كلمة جديدة بالنسبة لها: المظلمة، وكانت تريد أن تدحرجها على لسانها بسبب الصدمة التي سببتها لها. في المدرسة، كانوا يتلون المقالات المتعلقة بمواصفات الثوري الجيد. بدأتْ تتساءل ما هي مواصفات الأب الصالح، الجدة الصالحة، العدو الجيد، الشخص الصالح. هل أنتِ شخصية صالحة، فكرتْ مع نفسها، وهي تنظر إلى معلمتها، أم أنتِ ثورية جيدة؟ هل أنتِ ثورية جيدة، فكرتْ، وهي تتطلع إلى بغ موذر نايف، أم أنتِ جدة صالحة؟ هل من الجائز أن تكون الاثنتين معاً؟

كانت اللعبة قد أسرتها. كم هو شيء لذيذ أن تدفن الكلمات في داخل تربة أفكارها. كانت تقلّد التعبير البادي على وجه أبيها، وهو خواء مدروس. إنما، غالباً، كان تعبيره يخذله. في بعض الأحيان، كان سبارو ينظر إليها بقلقٍ شديد، بحيث كانت تشعر أنها مرعوبةٌ تماماً. «بابا»، فكرتْ، «هل أنت شخص صالح أم أنت عامل جيد؟ هل إن الرئيس ماو شخص صالح أم إنه قائد جيد؟».

في صباح يومٍ ما، فتحتْ بغ موذر حقيبة السفر البالية التي كانت تستخدمها بشكلٍ رئيس كطاولة طعام خاصة بهم. في داخل الحقيبة توجد فردة حذاء قشية واحدة، فستان أزرق جميل المنظر، حزمة من الموسيقى مكتوبة بتنويت الـ جيانبو، وصندوق كارتوني ممتلئ بدفاتر الملاحظات. كانت ملاحظتها الأولى هي أن الكتب قذرة.

«فمكِ مفتوح على وسعه»، قالت بغ موذر.

نفختْ جدتها على دفاتر الملاحظات، استخرجتْ ثلاثاً منها وأخبرتْ أي – مينغ أن تغلق حقيبة السفر. حين أغلقتها، وضعتْ بغ موذر دفاتر الملاحظات على الأرض وفتحت الدفتر الأول: بدت الصفحات حتى أكبر سناً من جدتها. انقضّ وجه بغ موذر إلى الأسفل كما لو أنه يهمُّ بتذوق طعم الورق. من هذا الموقع، أدارتْ رأسها وتطلعتْ إلى أي – مينغ. «هكذا»، همستْ بصوتٍ أجش، «تبدو كتابة اليد الممتازة».

اقتربتْ أي – مينغ كي تنظر عن كثب. بدتْ حروف الأبجدية كأنها ترفرف فوق سطح الورق، مثل حبر على صفحة اليمّ. كانت تمتاز بنظافة أصلية كأزهار الشتاء.

«واااا! أليستْ قوية؟» قالت بغ موذر.

عصرت البهجة فؤاد أي – مينغ. *«وااا!»* همستْ.

قوّمتْ بغ موذر جذعها، وأعربتْ عن استحسانها بصوتٍ أشبه بالقباع. «بالطبع، كتابة اليد ليستْ غليظةً ككتابة يد الرئيس ماو إنما مع ذلك، هي جيدة إلى حدٍّ ما. مصقولة وإضافة إلى ذلك تتحلى بعمق الحركة. ربما... تودين أن تقرئي شيئاً منها لي. الفصل الأول، لا أكثر من ذلك. أنتِ لا تزالين في ميعة الصبا».

كان ذلك في الصباح الباكر. كان أبوها في المعمل الذي تجدد في العام المنصرم. الآن أصبح «معمل هويتسهو شبه الموصِّل رقم واحد»، وكان قد تحوّل من صناعة الصناديق الخشبية إلى صناعة أجهزة الراديو. كان بمستطاع «طائر الهدوء» أن يجمّع أجزاء مذياع الموجة القصيرة ذي المصباح الأحمر 711 الجديد بهزة ريشة.

في الخارج، كانت مكبرات الصوت توبخ العالم. هطل المطر بصحائف متصلة، وراح يقرع سقف الصفيح مثل فوج من الأحصنة، لذلك اختبؤوا تحت البطانيات. كانت التجاعيد الكثيرة الظاهرة على

وجه بغ موذر قد أعادتْ إلى ذاكرة أي - مينغ التربة الجافة، الصامدة في شباط «فبراير»، المتعطشة للربيع.

كيف يمكنكَ أن تتجاهل هذا المخرز الحاد الذي يخترق قلبكَ؟ لئن اشتقتَ إلى أشياءٍ خارج ذاتك، لن تحصل أبداً على ما تبحث عنه.

وهكذا بدأتْ رواية دا - وي وميّ فورث مرةً أخرى.

***

سرَّ بغ موذر نايف أن أي - مينغ لم يبدُ عليها أنها انتبهتْ للانتقال من الكتاب الأصلي لـ«كتاب السجلات التاريخية» إلى الفصول الجديدة التي كتبها وِين الحالم. لأنه عاجز عن استعادة بقية الكتاب، ببساطة استمر في الكتابة بدءاً من الفصل 31. هو، على غرار شخصية ميّ فورث، سوف يمضي الشطر الأعظم من حياته في صحارى غانسو، كسينجيانغ وقرغيزستان، حيث تقبع، هكذا قيل، أكثر من ثلاث مئة قرية صغيرة غابرة تحت الرمال. كانت آثارها - وثائق على الخشب والورق، الأقمشة الحريرية والأشياء المنزلية - قد أبقاها، حفظها الهواء الجاف. في الفصول الجديدة، واصل وِين الشيفرة القديمة، مخفياً أمكنتها في داخل أسماء الشخصيات. غالباً ما كانت الشيفرة وصفية wěi 暐 (نور الشمس الساطع)، wiē 溦 (مطر ناعم)، أو wiē 渨 (خليج صغير، أو منعطف في التلال). في بعض الأحيان تفطر القلب wèi 未 (ليس) أو wéi 湋 (أن يجري للوراء).

إبان سنوات صباها، كانت الصغيرة أي - مينغ تطلب الفصل 23 كي تقرأه مراراً وتكراراً، أو لا بدَّ أن الكلمات تراءتْ لها في أحلامها. ماذا تصورت الصبية، أو كيف فهمته، لا تستطيع بغ موذر البتّ في هذا الأمر. «هذا البعث الأدبي العائد لكَ»، كتبتْ إلى وِين الحالم، «نال معجبةً جديدةً». كانت تعني أي - مينغ لكن وِين الحالم تصورها تسهولي، التي كانت قد كبرت الآن. كان ذلك في العام 1976، وكان يمكن أن تكون تسهولي بعمر خمسة وعشرين عاماً. كانت بغ موذر تباشر بكتابة

رسالة بعد رسالة، مخبرةً سويرل بأن ابنتها قضتْ، إنما لم تواتيها الجرأة كي تبعث رسالةً واحدةً. في أيلول «سبتمبر» من ذلك العام، كتبتْ أن تسهولي حصلتْ على رخصة للدراسة في «المعهد العالي للموسيقى في باريس»: طفلتهما المحبوبة عبرتْ إلى «الغرب». بغ موذر شبه مصدّقة ما دبجته في خطاباتها هي. كانت تلك أول مرة منذ بداية «الثورة الثقافية البروليتارية العظمى» بأن كذبةً كهذه كانت حتى جديرةً بالثقة إلى حدّ بعيد. سويرل المحبوبة، فكرتْ، «أخشى أنكِ لن تصفحي عني أبداً». ختمت الرسالة بالشمع وأودعتها لدى رسولهم، بانغ عارض الأفلام السينمائية، الذي كان يسافر عبر الأراضي النائية يعرض الأفلام السينمائية في القرى، وكان صديقاً حميماً موثوقاً به لـ وِين الحالم.

في أيلول سبتمبر» ذاك نفسه، حلتْ نهاية البداية.

صباحاً، صدحتْ مكبرات الصوت بالأغنية الهائجة: «القائد المحترم والعظيم لحزبنا، لجيشنا وشعبنا، الرفيق ماو تسي تونغ، قائد البروليتاريا العالمية، فارق الحياة...». اجتازتْ بغ موذر الشوارع المحجوبة عن النظر. وقفتْ قبالة ألواح الجرائد ونظرتْ شزراً إلى النص المكتوب. النظر شزراً لم يسفرْ عن شيء مختلف؛ كانت هذه صحف الأمس. فكرتْ بشقيقتها وبـ وين، بأبنائها المفقودين وبالأب لوت، بالموسيقى غير المكتوبة، بالأشخاص اليائسين ذكوراً وإناثاً، الأكاذيب المُرة التي رووها لأنفسهم ومرروها إلى أبنائهم. كيف كانت جميع أيام حياة سبارو في المعمل زاخرةً بشتى ضروب الذل والهوان. كان كادر الحزب قد منع حصصه التموينية، طالبوه بالانتقادات الذاتية، ازدروا الطريقة التي يحتفظ فيها برأسه، بقلمه الرصاص، بيديه، بصمته. وابنها لم يكنْ لديه خيار سوى أن يتقبل هذه الأشياء كلها. جعلهم يسكبون جميع كلماتهم في داخله، يكيلون له شتى النعوت والألقاب، كما لو أنّ الحياة في داخله قد شبتْ فيها النيران، كما لو أنّ يديه نفسيهما هما اللتان عقدتا الأنشوطة حول رقبة تسهولي. فضلاً عن ذلك حسبتْ

بغ موذر أنها فهمت القضية. في هذا البلد، لا مكانَ للغضب كي يوجد فيه عدا أغوار النفس، وينقلب ضد المرء. هذا ما آل إليه ابنها، إذ تعوّد أن يجعل الغضب يمزقه إرباً إرباً.

نعم، كم من السهل أن يبكي المرء، فكرتْ، وهي تتطلع إلى نوبة الحزن والشك السائدة في ما حولها. حاولتْ ألّا تفكر بـ دا شان والدب الطائر، بـ تسهولي، بكل الأسماء التي سوف تختفي كليّاً، التي نفاها التاريخ كي لا تزعج الأحياء. أزهار ورقية بيض، الرمز التقليدي للحِداد، غمرت الأشجار كلها. انتحبتْ بغضب وعجز إزاء جميع الجرائم التي لا يستطيع أن يجيب عنها قط موت رجل عجوز خائن.

***

كانت أي - مينغ في سن السادسة ولم يسبقْ لها أن رأتْ غريباً، لكنها ظنتْ أن الصيني طويل القامة بفردتي الحذاء اللامعتين والقميص المحتفظ بنقائه الأصلي المزوّد بالأزرار لا بدَّ أن يكون من محافظةٍ أخرى، إن لم يكنْ من عصر آخر، ربما المستقبل. كان ذا شعر متموج، حاجبين خاليين من العيوب، عينين مستديرتين، وجه حليق وفي جيبه، ساطعاً كنور الشمس، قلم حبر ذهبي. لم تكنْ تعرف، في أول الأمر، أن ثمة غريباً في المنزل. حين بدأت الموسيقى تعزف، تبدّلتْ، كما لو في حلم، وهرعتْ إليها. كان النظر عبر الباب المفتوح أشبه بالتحديق في داخل كهف. كانا يواجهانها: «القميص الجديد» وأبوها، إلّا أنّهما كانا مشغولين جدّاً بحيث لم يتطلعا إلى أيّ شيء آخر، ذلك أنها تسللتْ بخفة إلى الداخل والتصقتْ بالحائط. لئن لم يكنْ والدها يعرف أنها موجودة هناك، كيف يمكنه أن يجعلها تنصرف؟

آنَ تعوّدتْ عيناها على العتمة، اتضحتْ صورتا الرجلين. كانت «القميص الجديد» تصغي بوضوح إلى الموسيقى، أما أبوها فكان يبدو مستغرقاً استغراقاً تامّاً في التفكير. كان كوعاه وركبتاه مثنية بقوة، كان مطوياً كما لو أنّه يريد أن يحمي يديه. كانت الموسيقى قد أبقت الرجلين في خضم انهمارها. أغمضتْ أي - مينغ عينيها بقوة وفتحتهما فجأةً بحيث جحظتا.

كلا، كانا لا يزالان هناك. كان أبوها يحدّق إلى لاشيء. الموسيقى، رقصة مبهجة، جعلتها تفكر في القصيدة المعنونة «قطع شهيرة وكلمات رفيعة»، وفي هياكل الراديوهات الهامدة التي غالباً ما كان سبارو يحملها معه إلى المنزل، يشغل نفسه بها على غير طائل في وقت فراغه. الموسيقى، الآن، التفتْ في إحساسٍ جديد، بدتْ كأنها تبدأ من جديد لكنها انتهتْ بغتةً. تناولت «القميص الجديد» صندوقاً مربعاً له شارب كبير[1]. رفع حلقةً من المربع، كانت سوداء لامعة جداً بحيث ظهرتْ زرقاء تقريباً، وقلب الحلقة رأساً على عقب. نقر بالإصبع مفتاحاً كهربائيّاً «سويج» ودفع الحافة إلى الأسفل. قال أبوها: «لا، هذا يكفي. لا تعبثْ بالجانب الثاني».

أُدير مفتاح كهربائي ثانٍ. شعرتْ أي - مينغ كما لو أنّ بقايا الموسيقى تمشي بهدوء قادمةً من الحجرة. عبر المدخل، كان الضوء قد انحرف متجهاً إلى الداخل، رمادياً ضارباً إلى الوردي.

«كاي، حفلتك غداً... في أيّ وقت سيكون موعدها على وجه الدقة؟» حتى كلمات أبي لاحتْ أصغر حجماً.

«يلزمكَ أن تأتي». مدَّ كاي يده في الجيب الذي حمل فيه قلمه الحبر الذهبي. استعاد قطعة ورق مربعة وناولها إلى أبيها. «إنها في مباني المعمل. سوف نقدّم [الإمبراطور]، تأليف بيتهوفن، السمفونية التاسعة لـ دفوراك[2] ومؤلفاً موسيقيّاً أميركيّاً». تلفظ بكلمات أجنبيةٍ كثيرة جدّاً، كانت أي - مينغ تودّ أن تجأر بسبب غرابتها». لِي ديلون[3] هو الذي سيكون قائد الفرقة الموسيقية».

---

1 - الشارب الكبير a big whisker: هو وصف الطفلة «القميص الجديد» لذراع مشغِّلة أو مستنطِقة الأسطوانات الفونوغرافية record player، لأنها لم ترَ مثل هذه المستنطِقة من قبل. والمقصود هنا هو ذراع القرص الدوار التي تهبط على الأسطوانة - م.

2 - أنطونين دفوراك (1841 - 1904): مؤلف موسيقي. بعد بديريك سميتانا، هو المؤلف الموسيقي التشيكي الثاني الذي حقق مكانةً مرموقة على المستوى العالمي - م.

3 - لي ديلون (1917 - 2001): قائد فرقة موسيقية، كرّس حياته لترقية وتعزيز الموسيقى الكلاسيكية في الصين - م.

حمل أبوها الورقة وأنعم النظر فيها كما لو أنّه لا يستطيع قراءتها.

«طوال أعوام [الثورة الثقافية]، كنا قادرين على العزف»، قال كاي. «سيجي أوزاوا[1] زار [الفرقة السيمفونية المركزية] في السنة الفائتة. أتعرف أنه وُلد في منشوريا؟ لا تختفي الأشياء كلها، إنها فقط تُنحى جانباً».

«ماذا حصل لـ هِي لوتنغ؟ آخر مرة رأيته فيها كانت على شاشة التلفاز... منذ أعوام طويلة، في العام 1968».

«سمعتُ أن الرئيس ماو نفسه هو الذي أمر بإطلاق سراح هِي لوتنغ من السجن». كان صوت الرجل ناعماً، مثل ورقة غير معلّمة. «قبل بضعة أعوام خلتْ، أُسقطت التُّهم الموجهة إليه وبرّئ اسمه».

اختار كاي قطعةً مربعةً من الورق الكارتوني وتفرّس في صورته. «هذه التسجيلات نادرة جدّاً الآن، سبارو. في تشرين الأول الماضي، بدأ الناس في بكين بإخراج الأسطوانات من الأرض بعد أن أخفوها هناك. بعد إلقاء القبض على السيدة ماو، حسبنا أن كل شيء سيعود إلى ما كان عليه لكن... الشعب يعرف أن [الثورة الثقافية] سوف تنتهي أخيراً، كان ذلك كله من صنيع السيدة ماو، [عصابة الأربعة][2]، وهلم جرّاً، هذا ما تقوله الحكومة، لكنهم لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من أن يكونوا محترسين. أسطوانات ليستْ كثيرةً تلك التي أخرجوها من تحت الأرض. قابلتُ أستاذاً جامعيّاً في [جامعة بكين] كان بحوزته كنزٌ صغير

1 - سيجي أوزاوا (وُلد العام 1935): مؤلف موسيقي ياباني، عُرف بدفاعه عن المؤلفين الموسيقيين الحديثين وعن عمله مع «سيمفونية سان فرنسيسكو»، «سيمفونية تورونتو»، و«سيمفونية بوسطن». حاز جوائز عالمية عدة - م.

2 - عصابة الأربعة: زمرة سياسية تتألف من أربعة موظفين في «الحزب الشيوعي الصيني». برزوا خلال «الثورة الثقافية» (1966 - 1976)، وفيما بعد وُجهتْ إليهم سلسلة من جرائم الخيانة والغدر. تزعمت الزمرة زوجة الرئيس ماو تسي تونغ الثالثة الراحلة: جيانغ كينغ. فرض هؤلاء سيطرتهم على أربع مناطق: التربية الفكرية، النظريات الرئيسة في العلوم الاجتماعية، العلاقات بين المعلمين والطلبة والانضباط في المدرسة، وسياسات الحزب فيما يتعلق بالمثقفين - م.

من الأسطوانات، إنما هذا هو كل شيء. إسحاق شتيرن[1]، سيزور بكين وشنغهاي، هل سمعتَ باسمه قبلاً؟ السنة المقبلة». لم يقلْ سبارو شيئاً، عدّل ساقيه الطويلتين واستطرد قائلاً: «حين جاء أوزاوا، قال إن قدرتنا على تفسير الموسيقى قد شهدتْ تغيراً جوهرياً...». مدَّ يديه كما لو أنه يحمل بيضتين. «كما لو أنّ مدًى عاطفيّاً كاملاً كان مفقوداً بالنسبة لنا، لكننا نحن أنفسنا لم نستطعْ سماعها. جميع الموسيقيين في الأوركسترا كانوا يعرفون بأنهم خُدعوا. إنما حتى تلك اللحظة، ما كان يتعيَّن علينا أن نواجه الأمر بشكل مباشر».

«ربما كان بعض الأشخاص يعرفون ذلك على الدوام»، قال سبارو. «لعلهم لم يكفّوا عن معرفة ما هو الزائف».

مسَّ كاي فمه مسّاً خفيفاً بأصابعه، كما لو أنه يخلّص نفسه من الغبار.

الآن خاطب سبارو الرجل الآخر كما لو كان طالباً جامعيّاً، أو شقيقه الأصغر. «الآن وقد تبدّلت الأشياء، ماذا ستفعل، يا رفيق؟ أما زلتَ تصبو للدراسة في الغرب؟».

«سبارو، من فضلك لا تُسئْ فهمي».

بدّل أبوها سرواله القطني، وجرّه إلى الأعلى قليلاً كما لو أنه جالس في الخارج والشمس تدفئ كاحليه.

«كنا بدأنا تجارب الأداء في [المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي]»، قال كاي. «يوجد ما يزيد على ألف شخص قدّموا طلباتهم لشغل حفنة من المراكز الوظيفية. سوف يُعاد تعيين هِي لوتنغ عميداً للمعهد. المدرّسون السابقون سوف يتمّ استدعاؤهم للعودة إلى التدريس في المعهد. أبوكَ، أيضاً. وأنتَ. طلب مني هِي لوتنغ شخصياً أن أزوركَ».

«أبي في [محافظة أنهوي]. سأدوّن لك اسم معسكر الأشغال الشاقة».

---

1 – إسحاق شتيرن (1920 – 2001): عازف كمان وقائد فرقة موسيقية، أميركي، مولود في أوكرانيا – م.

«سبارو، بعض ممَّن قدموا الطلبات هم من طلبتكم الجامعيين السابقين. أتتذكر أولد وو؟ إنهم لا ينسون. بعضهم كانوا يظنون أنهم ربما لن يمسّوا كماناً أو بيانو كرّةً أخرى».

تحدثوا عن أسماءٍ وأمكنةٍ كانت تجهلها أي - مينغ. في الواقع، لم يسبقْ لها أن سمعتْ أباها يجمع جملاً كثيرة جدّاً من دون انقطاع. بدا كما لو أنّ [طائر الهدوء] خلع سترةً من الريش، أو لبس سترةً من هذا الطراز، وأصبح كائناً آخر. في الخارج، كانت جدتها تناديها، إلّا أنَّ أي - مينغ اختبأتْ في مكانٍ أبعد في الظلال. في النهاية، هتفتْ بغ موذر بشيءٍ ما يتصل بتناول الأناناس المجمّد على عود، وانصرفتْ.

«... لكن شوستاكوفيش مات».

«متى؟».

«قبل سنتين. تمكن لِي ديلون من القبض على سيمفونيته الأخيرة، التي لم يسمع بها أيٌّ واحد منا. والسيمفونية رقم 4، التي سحبها، أتذكر؟ وسلسلة من الرباعيات الوترية... أين هما شقيقاك؟».

«في الشمال الغربي. الدب الطائر في التبت. دا شان انخرط في [جيش تحرير الشعب]».

«هل يأتون لزيارتكَ؟».

«لا، هم لا يملكون الإذن».

قال كاي: «هذه الإصلاحات سوف تُعيد إلينا ما أخذوه منا. إنني أؤمن بذلك بصدق. يتحتّم عليك أن تؤمن، سبارو».

كان هنالك مزيدٌ من الموسيقى. بينما كانوا ينصتون، جلس سبارو والرجل قريبين جدّاً أحدهما من الآخر، بحيث لاحا كأنهما شكل مضطرب واحد.

«سبارو، كنتُ أفكر في تسهولي».

«لا أستطيع... قل لي شيئاً بدلاً من ذلك، أيّ أسطوانة هذه؟».

«هذه؟ ألا تتذكر، إنها لحن لـ باخ كيّفه شوستاكوفيتش كي يُعزف

على آلة موسيقية أخرى. استهلالات لحن ترتيلي. [الكل حركة جوهرية في العالم المحيط بنا، توجد حركة مماثلة في داخلنا، شعور]».[1]

استخدما كلمات أجنبية كي يصفا الصوت، الأمر الذي جعلها تشعر كأن سماء الليل قد اندستْ في جيبها.

«منذ الإصلاح والانفتاح، حاولتُ - إنه شيء عسير جدّاً - لم أستطعْ أن أمنع نفسي من التفكير فيها، في تسهولي. هل تجد هذا الأمر غريباً؟».

«لا، سبارو. لكن... ما من أحد مسؤول عمّا حدث».

«هذا ليس صحيحاً».

عُدْ ودرّس في [المعهد العالي للموسيقى]. ستكون قادراً على الكتابة من جديد، في الاستمرار من حيث انتهيتْ. ماذا حصل لسمفونياتك؟».

ضحك أبوها وصوته أثلج صدرها. «سمفونياتي...».

لا بدَّ أن أي - مينغ غفتْ لأنها حين فتحتْ عينيها ثانيةً، كان كاي قد ذهب. كان هنالك فقط سبارو جالساً أمام الصندوق المربع، مائلاً نحوه كما لو أنّه مائل نحو صبية أخرى، محبوبة أكثر. حين أوقدتْ بغ موذر المصباح ووجدتْ أي - مينغ مكوّرةً على الأرض، أعطتها عين الإبرة.

«كنتُ أستمع للموسيقى»، قالت أي - مينغ. «وكان لديَّ وجع البطن». رسمتْ بسمةً على فمها لأن كلماتها بدتْ منافيةً للعقل.

«مَن سمح لكِ كي يكون لديكِ كذا - البطن!».[2]

طائر الهدوء، لم يعر اهتماماً.

في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، وجدته جالساً في الخارج، يدخن براحةٍ واطمئنان، متجاهلاً الفطور الذي أعدته بغ موذر. واحدةً بعد أخرى، أكلتْ أي - مينغ جميع خياراته المتبلة.

---

1 - «لكل حركة جوهرية في العالم المحيط بنا، توجد حركة مماثلة في داخلنا...»: اقتباس من فيليب سبيتا: *«يوهان سباستيان باخ: عمله وتأثيره في الموسيقى الألمانية، 1685 - 1750»*، المجلد الثاني (لندن: نوفيللو، إيور آند كومبني، 1884): 602 - ك.

2 - ورد في النص الإنكليزي: a stomach – anything؛ آثرنا ترجمتها كما في المتن أعلاه - م.

كان «طائر الهدوء» مخلوقاً خجولاً. يتعيَّن على المرء أن يقترب منه برقةٍ ولين، كما لو كان معزى. «مَن الذي صنع صندوق الغناء ذاك؟». همستْ قائلةً.

جفل. كانت تخشى أن كل ما فعلته يقلقه ويثيره، وجعلتها أفعالها مجنونةً جداً بحيث إنّها كانت تريد أن تصيح عليه وتهين نفسها.

قال سبارو إنه ليس صندوق غناء، كان «ماكينة غناء كهربائية»، مسجّل.

«أريد أن أشاهده».

أحضر الصندوق مرةً أخرى. حين رفعه ونزع عنه شاربه الثابت لم يكنْ بمستطاعها أن تجزم ما إذا كان أبوها منزعجاً، متعباً، أم إنه ضائع فقط. المقطوعة الموسيقية ذات النوتات البطيئة، الضعيفة تبيّن أنها التنويع رقم 25 من *«تنويعات غولدبيرغ»*، تأليف باخ. أخبرتْ أباها أن الاستماع للموسيقى يشبه النظر في داخل مذياع. ما عنته هو، حتى النظر إلى الأجزاء الداخلية للأجهزة التي جلبها أبوها للبيت، حتى النظر في داخل بطن الماكينة، *في داخل الشيء نفسه*، الكهرباء والصوت يبقيان شيئين غامضين بشكل متقن مثل سماء الليل.

تطلّع إليها بحزنٍ شديد، كما لو كانت شخصاً آخر بكل معنى الكلمة. علّمها أول الأسماء الغربية التي لم تتعلمها من قبل: الاسم الأول Bā Hè (باخ)، الثاني Gù Ěr Dé (غلين غولد).

***

في داخل سبارو، تراكمت الأصوات. أجراس، طيور، وطقطقة غير منتظمة للأشجار، حشرات صاخبة وهادئة، أغانٍ تندلق من أشخاص حتى لو لم يكونوا يقصدون أن يثيروا ضجةً. كان يشك بأنه يقوم بالشيء عينه. هل كان، بنحوٍ غير واعٍ، يهمهم بأغنية شعبية أم بلحن أوركستري لـ باخ، لو أنّه فعلها حين سارَ برفقة أي – مينغ ليلاً، آملاً أن تدير عينيها إلى شيءٍ أكبر؟ كانت هسهسة أجهزة اللحام الصغيرة تطقطق في أذنيه، النكات «البايخة نفسها»، الخشخشة والمكثفات نفسها، المقاومات

والمحولات الصغيرة جداً، الألم الحاد في يديه، الاجتماعات المتكتمة وجلسات النقد الذاتي، الشعارات المكررة مثل سكين مشحوذة بحيث باتتْ غير مستدقة: كان الصوت نابضاً بالحيوية ومزعجاً وخارجاً عن سيطرة أيّ فرد. للصوت حرية لا يمكن أن يعادلها أيّ فكر لأن الصوت، أيّ صوت، لا يطالب بأيّ معنى. أيّ كلمة، من الناحية الثانية، يُمكن أن تُرغم كي تدل على عكسها. ذات ليلة رأى في حلمه أنه جالس في قاعة للحفلات الموسيقية. من حوله رفرفت البرامج، هممهت الأصوات، فُتحت الحقائب وغُلقتْ، الأوركسترا اشتاقتْ للانسجام. مصاباً بالدوار من جراء الفرح، طافحاً بالحدس العصبي، انتظر أداء سيمفونيته هو رقم 3. مجموعة أجراس استدعتْ بقية أفراد الجمهور. خفتت المصابيح. خيّم الهدوء. شاهد، عاجزاً عن الحركة، بينما كانت تسهولي تمشي على خشبة المسرح بفستان أزرق طويل. بحثتْ في قاعة الاستماع عنه. كانت يداها فارغتين. أفاق من حلمه.

***

في «قصر الشعب الثقافي»، على الأرض المخصصة لـ«معمل بطاريات هويتسهو»، عرض سبارو تذكرته، متوقعاً أن يرفضوا دخوله. بدلاً من ذلك دلّوه على صفٍّ من المقاعد المحجوزة. ثمة حركة في الأمكنة كلها. في الأعلى آلاف الأشخاص يكتظون في داخل القاعة، كوادر الحزب (بالزيّ الرمادي)، عمال المكتب (بالزيّ الأبيض)، عمال نظام التجميع[1] (بالزيّ الأزرق)، يسيرون أرتالاً تحت شعار منهمر كالشلال يقول: *عرّوا تماماً واشجبوا الخيانة العظمى التي ارتكبتها [عصابة الأربعة]!.*

وجد سبارو مقعده. بجانبه، امرأة في منتصف عشرينياتها، ترتدي تنورةً خضراء باهتة وبلوزةً مزهرة، جذبت الانتباه إليها. قبل بضعة

1 - نظام التجميع: تجميع الماكينات والأدوات والعمال بحيث ينجز كل عامل عمليةً خاصةً على سلعة ناقصة - م.

أشهر، كانت البلوزة المزهرة يُنظر إليها باعتبارها غير مقبولة، وحتى إجرامية؛ إنما اليوم إنها شاذة فحسب. الشابة، مألوفة بنحو مُربك، تركتْ شعرها محلولاً. لم تجمعْ شعرها في ضفائر، وكان مكوّراً في زخارف أرابيسكية. كانت ثمة علامة في أسفل ذقنها، تتخذ شكل إبهام، علامة عازفة كمان. التفتتْ والتقتْ بعينيه. طرف سبارو بعينيه، وشعر بالحَرَج لأنها أدركته وهو يتفرّس فيها. أدار ظهره وراح يتطلع إلى خشبة المسرح. في النهاية تقدّم إلى الأمام لِي ديلون: قائد «الفرقة السيمفونية المركزية». من المنصة العالية التي يقف عليها، تطلع لي بهدوء مرتعش. قلما الحبر في جيب صدره شعّا بإفراط. قدّم لِي برنامج الحفلة الموسيقية (ماهلر، بيتهوفن وكوبلاند[1]) ومن ثم شرع يتحدث، بإسهاب، عن خَلَف الرئيس ماو: دينغ تسياوبنغ. كان شيئاً استثنائيّاً أن يأتي دينغ هذا إلى سدة الحكم. هو، بدوره، أطاحتْ به «الثورة الثقافية»، كانت مسيرته السياسية قد دُمرتْ واستهدفتْ أسرته. ابنه البكر كان قد عذبه أفراد «الحرس الأحمر» وفي العام 1966، هوى، أو دُفع، من نافذةٍ في الطابق الثالث، مثلما جرى لـ سان لاي. إلّا أنَّ الأب وابنه صمدا بوجه المخاض العظيم، بات الابن الآن ذائع الصيت، يجلس على كرسيٍ ذي عجلات. أحبط دينغ مناورات الـ مدام ماو ومعجبيها، ذكوراً وإناثاً، الذين يقبعون الآن في السجون، فاتري الهمة. حاليّاً، بدعم من المكتب السياسي[2] للحزب، كان ينشر سلسلةً من الإصلاحات الاقتصادية والسياسية. في قاعة الاستماع، كان حديث لاي نوعاً من الأغنية بحدّ ذاته، صرخ فيها الشعب بصورةٍ متقطعة: «احرقوا الرماد مرةً أخرى!». و«جاهدوا من أجل تنفيذ التحديثات الأربعة للرفيق دينغ!». اسم «القائد العظيم» xiăo píng، معناه: «الزجاجة الصغيرة»، وهكذا على الأشجار الموجودة خارج القاعة تماماً، كان أحد

---

1 - هارون كوبلاند (1900 – 1990): مؤلف موسيقي، مدرس تأليف موسيقي وكاتب، ولاحقاً قائداً لموسيقاه هو وللموسيقى الأميركية الأخرى. يُشير إليه نظراؤه والنقاد بوصفه« عميداً للموسيقين الأميركين» – م.

2 - المكتب السياسي: هو اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي الصيني – م.

الأشخاص قد علّق مجموعة من الزجاجات الخضر الصغيرة، جنباً إلى جنب مع رايات ملونة كُتب عليها: «دينغ السماوات الزرق». كان الزجاج يرنّ في النسيم، أملاً بحلول أيام أفضل.

وهو يواجه موجاتٍ من التصفيق، هتف لِي قائلاً: «دعونا نؤسس مجتمعاً عادلاً، صين ثوريةً مناسبة لشعبٍ موسيقي!».

بجوار سبارو، كانت الشابة تتنهد كما لو أنّها تصبو لأن تدفع نفسها على خشبة المسرح حيث كان الموسيقيون ينتظمون الآن في أرتال مهيبة.

كان أعضاء «الأوركسترا المركزية» يرتدون زيّهم اليومي، سراويلهم الفضفاضة الرمادية أو الزرق وقمصانهم القصيرة الأكمام، المزررة إلى الأسفل. كان قلب سبارو يخفق بنحوٍ غريب جدّاً، أحسَّ أنه منفصل عن بدنه. صوت أنغام الأوركسترا أصابته بالقشعريرة؛ الأوتار، آلات النفخ والآلات النحاسية صعدتا أو هبطتا في الوقت نفسه نحو A[1] ثابتة، ورفرف مزمار على الميزان الموسيقي مثل فكرة تتحرر. لم يشاهدْ حفلةً موسيقيةً منذ العام 1968، وتلك القطع التي استخدمتها «الفرقة السيمفونية» بدتْ مستنسخةً باليد. كانت أكشاك الموسيقى، أيضاً، بديلاً مؤقتاً، وحّدتها الأشرطة، الأوتار الموسيقية والشرائح الخشبية. شعر بالقرع المقعقع لعصا لِي ديلون على المشجب الموسيقي كما لو أنّ قائد الفرقة الموسيقية قد طرق على عمود سبارو الفقري.

تصاعدت السيمفونية التاسعة لـ ماهلر بهمهمة مترددة.

كانت مصابيح المسرح قد ظلتْ عاليةً وكل الوجوه في قاعة الاستماع، كل ردّ فعل صغير، كانت مرئيةً. لم يتململْ أحد. على خشبة المسرح، كان الموسيقيون يقوسون ظهورهم ماثلين للأمام، كما لو أنّهم كانوا ينزلقون عبر الزورق المائل نفسه. راية حمراء تتدلى في أحد

1 - A: وتعني على درجة «لا»، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي - م.

الأركان: «رئيس الوزراء تسهو إينلي يعيش إلى الأبد في أفئدتنا». كانت الراية مطويةً بنحوٍ منحرف لكنها لم تنزلْ للأسفل.

بدا الخطر كما لو أنّه يأتي من الجوانب كلها. كانت يدا الشابة تغطيان وجهها وكان يريد باستماتة أن يأخذهما ويضعهما في حضنها. *يجب أن لا تجعلهم يرون*، فكر. *إذا ما رأوا أنك مخلص لها، سيأخذونها منك.*

كان حلم اليقظة الخاص بالحركة الأولى قد أصبح حاداً وبلغ حافة الهذيان. أسكتْ سبارو الموسيقى بأن فكّر في ماهلر نفسه. في أواخر سني حياته، اكتشف المؤلف الموسيقي، من خلال ترجمة ألمانية، الشاعرين لي بيّ ووانغ وِي، وقصائدهما الشعرية وقرتْ نصّاً لأغنية سمفونية ماهلر المعنونة: «Das Lied von der Erde» (أغنية الأرض). كانت الأشعار قد تُرجمتْ إلى الفرنسية، ومن ثم إلى الألمانية، وعبر هذه الترجمة عمل ماهلر إضافاته هو بحيث إنّ الأشعار، وهي نسخ من نسخٍ تُرجمتْ بشكلٍ سيّئ، بدتْ تقريباً كما لو أنّه من الصعب تتبع آثارها في بداياتها. إلّا أنَّ بعضاً منها كانت معروفة، من بينها قصيدة وانغ وِي المعنونة «وداعاً»، وهي مألوفة لجيله هو وجيل أمه، حتى إذا لم يعودا يرتلان الآن الأبيات الشعرية. «في خصامٍ مع العالم، يعود كي يرتاح عند الهضبة الجنوبية...».

خلال الساعة التالية، أفلح سبارو في أن يبعد صوت الأوركسترا. كان جوّ القاعة الموسيقية دافئاً وكان قميصه مبللاً، الرطوبة تصلبتْ وتحولتْ إلى برودة ثلجية.

لم تكنْ هنالك فترة استراحة. بينما كان البيانو يقدّم كونشيرتو «الإمبراطور» لـ بيتهوفن، اقترب لاي ديلون من الميكروفون ثانيةً. «نحن نهدي الكونشيرتو رقم 5 لرفيقنا العائد للحياة: هِي لوتنغ، عميد [المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي]»، قال، «يعيش الرئيس دينغ! يعيش الحزب الشيوعي الصيني! يعيش بلدنا!» في القاعة الموسيقية، الدهشة والذعر ولكن أيضاً التصفيق المستديم وحتى، فكر سبارو، ابتهاج شديد

حذر. وسط الضوضاء تقدّم كاي وجلس إلى البيانو. كان البيانو صغير الحجم، من النوع الذي ربما احتفظتْ به عائلة ثرية في منزلها قبل «الثورة الثقافية». كان ذاك أول بيانو يشاهده سبارو منذ العام 1966.

جلس كاي وظهره منتصب باستقامة. لم تكنْ أمامه قطعة موسيقية. كان بمستطاع سبارو أن يرى سرواله، مطويّاً بصورةٍ غير متساوية، مرفوعاً بحيث ظهر كاحلاه. انتظر عازف البيانو، كلتا يديه على فخذيه، إذ انفتح الكونشيرتو بهتافاتٍ مسيطر عليها، وراحتْ تهتز عبر قاعة الاستماع. بدأ كاي، عابراً السلالم الموسيقية بوضوحٍ مألوف، فقط الأجزاء الصغيرة من جسده - رأسه، أصابعه وقدماه - تتحرك. في رأس سبارو، عزفتْ نسخاً متعددة؛ في وقتٍ واحد رأى الأداء وسمع ذكرى، تسجيلاً. أصغى إلى الفراغ العميق بين ذلك الحين والآن. حين بدأت القطعة السريعة جدّاً، أغمض سبارو عينيه. في أعلى وأسفل السلالم الموسيقية ثانيةً، كما لو أنّ كاي يقول له إنه ما من طريق للخروج، بل يوجد فقط الطريق المؤدي للوراء مجدداً، وحتى حين نحسب أننا أحرار، نحن فقط نعود بصورةٍ لانهائية. كان جمال الكونشيرتو حتى مشبوب العاطفة أكثر مما تذكّر، وكذلك جديراً بالرثاء وهادئاً ومكبوتاً أكثر، وشبك كلتا يديه كي يتشربا معاً الحزن والفرح في بدنه. تذكّر، منذ أمدٍ بعيد، وهو يعزف على كمان الدب الطائر لـ تسهولي. بجواره، كانت عينا الشابة شفافتين من أثر الدموع التي لم تنهمرْ. لم يتصورْ سبارو أن بوسعه أن يبكي علناً. استنشق الهواء وألفى نفسه، على عكس مشيئته، يرهف السمع. قريباً من نهاية الحركة الأولى، تكررت الألحان المتآلفة شديدة الابتهاج، إلّا أنَّ النوتات لم تعدْ تنقل الشعور الأصلي. في الأسفل توجد نهاية، حركة سرية، صوتُ شخصٍ ما يأسره شخص آخر. الكونشيرتو تواصل اندفاعها بقوة، من دون أن تتوقف قليلاً كي تمعن النظر في معانيها المذهلة.

على خشبة المسرح، عزف أول عازف كمان بكل جسده ومن ثم، فجأةً، كما لو أنّه تذكّر الجمهور، توقف عن العزف مجدداً. حاول سبارو أن يضع

تسهولي أمامه. تحت الكمان، ذراعها التي تسند الكمان كانت تظهر شاحبةً جدّاً على الدوام. تذكّر تواضعها أمام الموسيقى، حتى في طفولتها كانت تحس أنها مسؤولة عن الموسيقى. استمرت النوتات، كما لو أنّها تعيش حياةً أخرى. كان بمستطاعه أن يتبع كاي إلى بكين. إلّا أنّه لم يكنْ يعرف كيف يكتب الموسيقى، أن يعزف الموسيقى، وفضلاً عن ذلك هو صامت.

اكتسحه تصفيق صاخب، وقف كاي، وقف الموسيقيون كافةً، قمصانهم البيض، مبللةٌ بالعرق، ريشيةٌ على أجسادهم. جاءت الاستعادات.

رأى سبارو المرأة الشابة وهي تنعم النظر إلى الأمام وأدرك أنها تملك طموحاً، رغبةً، كان متيقناً من أنه لم يعدْ يمتلكهما. هل بوسعه أن يحتوي ذلك التعطش، ذلك التكامل، مرةً أخرى؟

***

في الهزيع الأخير من تلك الليلة، عزف سلسلةً من الأشياء عديمة القيمة على إيرهو كان كاي قد أعطاه له. توقفت الأغاني فجأةً وأصبحتْ أغاني أخرى، *شاجيابانغ*[1] تحولتْ تدريجياً إلى «جرس ليلي من معبد قديم»، تكسرتْ إلى شذرةٍ من *لحن أوركستري رقم 6* من تأليف باخ كما لو أنّ الموسيقى هبتْ عبر ذهنه مثل صفحات مبعثرة. استمر في هذا المنحى، يعزف بداية كل مقطوعة موسيقية ونهاية مقطوعة أخرى، وكاي يتكئ ويحدق إلى السقف القريب. كان بحيازة كاي مفتاح هذه الغرفة حيث تمَّ تخزين الآلات الموسيقية الخاصة بـ «الفرقة السيمفونية» والمسجلات، ولكن من المحتمل أن تكون محفوظةً في الغرفة 103، في شنغهاي، في الشمال الغربي البعيد أو في أقصى الجنوب، في أيّ مكان ذي أربعة جدران ووحدهما، هما الاثنان. سمح سبارو لنفسه أن

---

1 – شاجيابانغ: قرية سياحية صينية تقع بالقرب من بحيرة يانغ تشينغ بمحافظة جيانغسو. ثمة منطقة في القرية ذات مَشاهد طبيعية خلابة تُدعى منتجع شاجيابانغ. حققتْ هذه القرية شهرتها كونها أمستْ موضوعاً للأوبرا الصينية: «شاجيابانغ»، التي كانت معروفةً على مستوى البلد خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. كما يوجد مسلسل تلفزيوني بالاسم نفسه – م.

يعتقد أنهما عثرا على طريقهما الذي يعود بهما إلى زمنٍ أبكر. طلب منه كاي أن يعزف «القمر منعكساً على ينبوعٍ ثانٍ»، وعزف سبارو المقطوعة الموسيقية مرةً، ومرةً أخرى، مدركاً بأن ليس باستطاعته أن يتذكر آخر مرة سمعها فيها. ربما سمعها على الراديو في العام 1964. بعدها، ببساطة، اختفتْ. أحسَّ بنشاطٍ بالغٍ في يديه وبلذةٍ متجددةٍ، لا تُطاق تقريباً. في الوقت الذي اكتشف فيه الأساتذة الجامعيون من «المعهد الموسيقي المركزي» أن المؤلف الموسيقي لـ «القمر منعكساً»، عازف الـ إيرهو الأعمى، [آه بنغ]، في سبعينياته. «ليتكَ أتيتَ قبل عشرة أعوام»، قالت أي - مينغ بمبالغة، «كنتُ سأعزف بصورةٍ أحسن». استولى الأساتذة الجامعيون على ستّ أغانٍ على مسجل قبل أن ينفد ما لديهم من سلك. حين وصلت الأغاني إلى العاصمة، نال آه بينغ الثناء كونه واحداً من الملحنين الضليعين على مستوى الأمة. كان قد مات بعد مضيّ أشهر قليلة، وتلك الأغاني الست المسجلة أضحتْ كل ما نجا من إرثه الموسيقي. كانت «القمر منعكساً على ينبوعٍ ثانٍ» مقطوعةً موسيقيةً تأمليةً قصيرةً، حلزوناً من البهاء والحزن معاً.

كان بحيازة كاي أسطوانات أخرى. سبارو، وقد استولى عليه الفضول، نحّى الـ إيرهو جانباً. وهو يفحص المجموعة بدقة، أحسَّ كأنه طفل يقف أمام حائط من الألوان. انتقى «*السيمفونية رقم 5*» لـ شوستاكوفيتش، دفع كاي البطانيات تحت الباب كي يخمد الصوت وفتح قنينةً أخرى من باجيو[1]. رقدا جنباً إلى جنب على الحصير الخفيف، يافوخا رأسيهما يمسان المسجل مسّاً عابراً رفيقاً.

«انتقد شوستاكوفيتش على الحركة الرابعة»، قال كاي. «أتذكر؟ قال [اتحاد المؤلفين الموسيقيين] إنها ابتهاج غير أصيل».

---

1 - باجيو: مشروب كحولي، يعني حرفياً: «الكحول الأبيض». هذا الشراب يُستخدم على نطاق واسع، بيع منه خمسة بلايين لتر في العام 2016. وهو يُصنع في الصين منذ خمسة آلاف سنة، ويُصنَع عادةً من الحبوب، كالسرغوم - م.

«لكن الابتهاج غير الأصيل عاطفة أيضاً، خبرناها نحن جميعاً».

«المراقبون[1] هم دوماً أول مَن يميزها، أليس كذلك؟» ابتسم كاي وركض الزمن إلى الوراء. بسكويت. أقبل الاسم بصورةٍ غير متوقعة إلى سبارو. كان يعرف الشابة بالتنورة الخضراء الباهتة والبلوزة المزهرة. كانت عازفة كمان. كانت في سن تسهولي نفسها.

كان كاي لا يزال يتكلم. «فيما بعد، شوستاكوفيتش استخدم ثانيةً أجزاءً من الحركة الرابعة في عمله الوطني، [كانتاتات لـ ستالين] وما شاكل. أتعرف؟ كل تلك الشذرات ذات ابتهاج غير أصيل. في العام 1948، حين مُنعتْ موسيقاه، تقبل جهاراً حكمة الحزب. لكن، في كل ليلةٍ من الليالي، بعد اللقاءات الطويلة، كان يمضي إلى البيت ويؤلف. كان يعمل على *[كونشيرتو الكمان رقم 1]* ولأول مرة، أخفى اسمه في داخل العمل».

كان سبارو يعرف لكنه لم يفكرْ في ذلك على مدى أعوام طويلة. كان التوقيع D,E - flat, C and B[2]، التي تُقرأ بحسب التنويت الألماني D, Es, C, H[3]، مكورةً كتنافر أصوات، أو سؤال، في موسيقى شوستاكوفيتش.

كانت السيمفونية الخامسة هي كل ما تذكره سبارو: معذبةٌ، متناقضةٌ، فظيعةٌ، مرحةٌ. لم تعد الغرفة موجودةً، المسجل نفسه أضحى غير ضروري، السيمفونية أتتْ من بنات أفكاره هو، كما لو أنّها كانت حاضرةً هناك على الدوام، تدور بلا نهاية.

رشفة إثر رشفة، الخمر أرخى تحفظهما. قال كاي إنه في بكين، في العام 1968، كانت جلسات النزاع قد بدأتْ كرّةً أخرى. كانت الاتهامات

---

1 – المراقبون: مراقبو المطبوعات أو الأفلام أو البرامج الإذاعية والتلفزيونية وكذلك الحفلات الموسيقية – م.

2 – هذه الدرجات من السلم الموسيقي تعني بحسب المصطلح الموسيقي العالمي، كما يلي: D تعني: ري؛ E – flat: مِي بمول؛ C: دو؛ B: سي.

3 – هذه الدرجات من السلم الموسيقي تعني بحسب المصطلح الموسيقي العالمي، كما يلي: D تعني: ري؛ Es: «دوات» تكرار لدرجة دو؛ C: تعني: دو؛ H: هو الـ B: سي – م.

الجماعية قد انتقلتْ إلى الملاعب الرياضية. شاهد طالباً جامعيّاً يُذل ويُهان ويُعذب أمام آلافٍ من «الحرس الأحمر».

«عن أيّ جريمة؟».

«قال إنه ينبغي عدم مضايقة أولاد المجرمين السياسيين. ذلك الموقف الطبقي يجب عدم تمريره من جيلٍ إلى جيل».

أولاد الأعداء الطبقيين. من طينة تسهولي. من طينة أي – مينغ. «ماذا كانت عقوبته؟».

التفت كاي، وقد أدهشه السؤال. «توفي».

حين سأل سبارو كيف، أجاب، ببساطة: «أطلقوا الرصاص عليه».

مسح كاي فمه بيده. «وعد أوزاوا بأن يجتذب قلةً منا إلى أميركا. يحدوني هذا الأمل...».

آخر مرة كانا فيها وحدهما، كانت شنغهاي على شفا تغييرٍ ما. بدتْ هذه الحجرة الصغيرة لـ سبارو مثل مكانٍ مخفيّ في داخل «المعهد العالي للموسيقى». حين غادر هذه الغرفة، ربما يعيده الباب إلى قاعة الطابق الرابع، حيث كانت الجدران مكسوةً بالبوسترات. سوف يصل إلى غرفة مكتبه قبل أن يفوت الأوان كثيراً، سوف يخبر ابنة خالته بأن الأشياء كلها، حتى الشجاعة، قد اختفتْ من عالمنا. كل شيء اختفى. إلّا أنّه لم يستطع الوصول إلى هناك في الزمن المحدد. حين دخل إلى الغرفة، رآها مجدداً، مثلما كانت عليه. سنويّاً، بينما كان يكبر، بينما كانت الـ تسهولي في ذاكرته تغدو أصغر سنّاً، بينما كان دا شان والدب الطائر يبتعدان كثيراً، عرف هو أنه يتعيَّن عليه أن يدعهما وشأنهما. إنما كيف يتسنى له أن يفسر هذا الأمر؟ كان الشخص الساكن في داخله، المؤلف الموسيقي الذي كان حاضراً في يوم ما، لن يسمحَ بذلك. وسبارو، هو نفسه، لا يستطيع أن يمحو المؤلف الموسيقي. كان المؤلف الموسيقي يريد أن يخبر كاي بأن لا أحدَ، حتى دينغ تسياوبينغ، ولا شيء، لا الإصلاح أو التغيير أو التنصل من المسؤولية، يمكن أن يُعيد تلك الأعوام إليهما.

«في بعض الأحيان يخطر ببالي أن أغادر. إذا أُتيحتْ لك الفرصة في الذهاب إلى ما وراء البحار، سبارو، هل ستشد الرحال؟».

ابتسم، محاولاً أن يجعل من نفسه خفيف الظلّ. «حتى أخذ القطار المتجه إلى شنغهاي خلال [مهرجان الربيع] يبدو أشبه بعبور المحيط. لم يدرْ بخلدي أنني سأتعوّد على [الجنوب] لكن، بعد هذا الزمن كله، أحسُّ أنني في منزلي هنا». حين سمع هذه الكلمات تُنطق بصوتٍ عالٍ، بدتْ حقيقيةً له.

أومأ كاي إلى السقف كما لو أنّه [منغوليا الداخلية][1]. «جميع الشبيبة المتعلمين أصابهم الجنون، محاولين الرجوع إلى المدينة. وفي شنغهاي، كانوا يثيرون القلاقل، لم تكنْ هناك مهن وأعمال. سبارو، نظر إلى ذلك من وجهة نظرهم. بدا لهم شيئاً لا يمكن أن يتصوّره العقل أن يرفض شخصٌ ما موقعاً وظيفياً في [المعهد العالي للموسيقى]».

«إنني أفضّل أن أسلّك لوح دائرة كهربائية على تأليف سيمفونية». في داخل المعمل، كانت يدا سبارو قد تدرّبتا على لغةٍ مختلفةٍ تمام الاختلاف. كان جسده قد تغيّر. لم يكن الرئيس ماو مخطئاً، أنه كي نغيّر فكر المرء، أيّ امرئ، يتحتّم على المرء أن يغيّر ظروفه.

أشعل كاي سيجارةً، وسلّمها إليه. كانت تحمل ماركة «العنقاء» المترفة، التي حتى لم يسبقْ لـ سبارو أن رآها من قبل. أشعل كاي سيجارةً أخرى له، وحملها إلى أحد الجانبين. سقط الرماد من دون أذى على الأرض الكونكريتية. توارى السقف وراء الدخان.

«تعوّدتُ أن أسمع الموسيقى في الأشياء كلها»، قال سبارو، إلّا أنَّ الجملة ظلتْ معلقةً بينهما. لم يعرفْ كيف ينهيها.

«عزيزي سبارو...». حين زفر كاي، غيّر موقعه بحيث إنّ الجزء الأعقف من ذراعه اليسرى غطّت وجهه. «إنني آسف على كل شيء،

---

1 – منغوليا الداخلية: منطقة ذات حكم ذاتي تقع في شمال الصين، تضم معظم حدودها مع منغوليا وجزءاً صغيراً من حدودها مع روسيا – م.

إنني آسف حقاً... كنا وحيدين تماماً غير أن وضع تسهولي كان الأكثر تهوراً بسبب اليأس. نحن جميعاً خدعنا أنفسنا بشكلٍ من الأشكال. لستَ أنتَ... لكنني استجبتُ بالطريقة الوحيدة التي أعرفها. كل ما كنتُ أصبو إليه هو أن أحمي سنوات المجهود تلك، أن أصون ما أحببتُه. إنني أعرف أنني كنتُ على خطأ». لاحت الكلمات كأنها أقبلتْ من ركنٍ بعيدٍ في الغرفة، منفصلةً عن كاي، لا صلة لها به. «نحن جميعاً ارتكبنا الأخطاء... لكن ألا ترى أن الأمر انتهى راهناً. مرَّ حتى الآن ما يزيد على عقد من الأعوام... كانت تقول على الدوام إن موهبتكَ هي الشيء المهم والجوهري وكانت محقةً. ماذا جرى لسيمفونيتكَ رقم 3؟ كانت تحفتكَ الموسيقية. كانت تضج بالتناقضات، عميقةً جدّاً ونابضةً بالحيوية. لم أسمعها منذ عشرة أعوام، لكنني لا أزال قادراً على عزفها... لا بدَّ أنكَ أكملتها الآن».

«إنني حتى لا أعرف كيف كانت بدايتها»، قال. كان يريد أن يسأل كاي ما إذا كان قد بلّغ عن تسهولي، لكنه لم يمتلك الجرأة على نطق تلك الكلمات. وكان شيئاً حقيقياً أن كل شخص بلّغ عن الآخر كي ينقذ نفسه، حتى الأب لوت، حتى أولاده. جواب كاي لن يعيدها إلى الحياة. «كنتَ مغرماً بها، أيضاً، أليس كذلك؟».

«تسهولي قضتْ»، ردَّ بهدوء. «أشخاص كثيرون قضوا، ألا ترى؟».

«لا أرى».

استدار كاي جانباً ونظر إليه، نظرةً متضرِّعةً. سحق سيجارته ومن دون تفكير أشعل سيجارةً أخرى، غير قادر على تحمّل الصمت.

«في جنازة رئيس الوزراء تسهاو إينلي»، قال، «قصدتُ [ساحة تيانانمين]، قرأتُ الملصقات والرسائل التي تركها الناس وراءهم. لقد حفظتها عن ظهر قلب. *دعني أخبركَ، أيها العالم / أنا لا أصدّق.*[1] قرأها

---

1 – «دعني أخبركَ، أيها العالم / أنا لا أصدّق...»: اقتباس محوّر من بي داو: «الجواب»: *«السائر في نومه في آب»*، ترجمة بوني أس. مكدوغال (نيويورك: دار نشر نيو

الجميع وقد تساءلتُ: ماذا يحدث حين يحفظ مئة ألف شخص القصيدة ذاتها عن ظهر قلب؟ هل يتغيّر شيءٌ ما؟ حول [ساحة تيانانمين]، كان هنالك عدد كبير جدّاً من النادبين... مئات الآلاف من العمال. يبكون علناً لأنه بوسعهم أن يحزنوا عامةً على مدى يومٍ أو يومين. أقبل البوليس وجمعوا كل أكاليل الجنازة. كان الناس في منتهى الغضب. كانوا قد احتشدوا في [الساحة]، وراحوا يصيحون. «أرجعوا إلينا زهورنا! أرجعوها إلينا!». هتفوا قائلين: «يعيش رئيس الوزراء تسهاو إينلي!».

كان سبارو يريد أن يسمع «*السمفونية رقم 5*» مجدداً، يسمع اللحن البطيء جدّاً التأملي والعاكس. كان شوستاكوفيتش مؤلفاً موسيقيّاً كتب أخيراً عن الازدراء والحط من شأن الآخرين وإهانتهم، واستخدم التناغم ضد التناغم، وعرّى كل الصرير وتنافر الأصوات في داخله. على مدى أعوامٍ عدة كانت ذاته العلنية قد أخبرت العالم بأنه كان يعمل على سيمفونية مُهداةٍ إلى لينين، إنما لم يُعثرْ حتى الآن على أيِّ أثر من تلك المخطوطة. حين بُلِّغ عنه في العام 1936 وثانيةً في العام 1948، أجاب شوستاكوفيتش قائلاً: «سأحاول المرة تلو المرة». هل كان المؤلف الموسيقي الساكن في داخل سبارو لديه الإرادة على أن يفعل هذا؟ لكنه لو عرف أن الإرادة والموهبة كانتا قد ذهبتا، ما هي الفائدة التي يعود بها حين يبدأ من جديد؟

«سبارو، أتتذكّر الأعمال الكلاسيكية التي حفظناها عن ظهر قلب؟ الكلمات لا تزال حقيقيةً. [ليس لدينا صلات نسب[1] أو حتى أصل، لكنني مرتبط به ارتباطاً عاطفيّاً وأشاطره أحزانه وبلاياه.] انتظرنا طوال سني حيواتنا والآن، أخيراً، أضحى البلد منفتحاً. كنتُ أفكر... توجد طرائق شتى لأن نبدأ من جديد. يمكننا أن نرحل».

دايركشنز [الاتجاهات الجديدة]، 1990): 33 – ك.

1 – «ليس لدينا صلات نسب...»: «*رومانس الممالك الثلاث*»، الفصل الحادي عشر، مصدر سابق – ك. (لم تذكر الكاتبة رقم الصفحة – م.)

كانت الإمكانات أمام سبارو، الإمكانات التي بوسعها أن تمنحه البهجة، بدلاً من أن تكسر قلبه. لم يعد الشخص نفسه، الشخص الذي دأب أن يكون عليه.

تعوّدتُ أن أكون متواضعاً أمام الموسيقى، فكر. أحببتُ الموسيقى حبّاً جمّاً بحيث إنّها أعمتني عن العالم. ما الحقّ الذي أملكُهُ، هل يملك أيٌّ منا هذا الحق، بالرجوع؟ التكرار كان وهماً. إن فكرة الرجوع، فكرة البدء من جديد، فكرة خلق بلدٍ جديد، كانت على الدوام محض وهم، محض خدعة، حلماً جميلاً كانا قد استيقظا منه. ربما أحب أحدهما الآخر، لكن سبارو الآن لديه أبواه كي يعتني بهما. كانا يعتمدان عليه، وحياته ليستْ ملكه، إنها ملك لزوجته ولـ أي - مينغ أيضاً. وكان شيئاً صحيحاً، عمل المعمل جلب له راحةً وطمأنينةً لم يعرفهما من قبل. كان الروتين قد حرره.

كان فم كاي على كتفه، على بشرة عنقه. استلقيا هكذا، غير قادرين على أن يتحركا إلى الأمام، غير قادرين على الاستمرار.

انبرى كاي قائلاً: «ما قلته صحيحٌ. أنا أحببتها. أنا أحببتكما أنتما الاثنين».

«ما من عار في ذلك».

«كلا»، أجاب بهدوء. «لكنني شعرتُ بالخجل».

«كنا يافعين».

«كان نوعاً من الحب، فقط أنا لم أستوعبِ الأمر».

«لئن واتتكَ الفرصة لأن تذهب إلى أميركا، عليك أن تذهب من دون تردد. لا تدعِ الفرصة تفوتك. بعد كل ما رأيتَه، بعد كل ما جرى، لا تلتفتْ إلى الوراء، لا ترجع القهقرى. أفراد أسرتك، وتسهولي، أيضاً، سيقولون الشيء عينه».

أومأ كاي برأسه.

هل كان ينشج، فكر سبارو. الكحول والسجائر كلاهما صفيّا رأسه

وقوّيا رغبته. ما من حاجةٍ إلى البكاء، كان يعرف ذلك. كانا محظوظين، كانا قد أدركا ما يقبع ما وراء الوهم. حتى إذا استمر البلد في نهجه، لا يمكن أن يرغمهما أحد أو شيء على النسيان. إنني أحبكما معاً، فكر سبارو. إنني أحبكما معاً.

«إنني آسف، سبارو»، قال له. «إنني أضحي بكل شيء كي أكون شخصاً مختلفاً. من فضلك، دعني أقدّم لك العون كي ترحل».

«لا»، قال سبارو. تسهولي هنا، فكّر. والمؤلف الموسيقي مضى عليه وقتٌ طويل منذ أن مضى بعيداً، فقط سبارو نفسه الذي أخفق في إدراك هذا الأمر. لكنه يريد فقط أن يخفض بصره ناظراً إلى يديه المنهكتين، الصلبتين، القاسيتين كي يعرف، «حياتي هنا، في هذا البلد».

***

بعد مضيّ عشرة أعوام، في «كونسرفتوار شنغهاي»، كانت قد اعترضتْ سبيل أي - مينغ شتى ضروب الموسيقى: الرعشات وتنافر الأصوات، كمان يسرد أسطولاً صغيراً من النوتات. سار «طائر الهدوء» أمامها. بالبنطلون الجديد، القميص الأزرق الولّادي، الحذاء الجلدي الذي أعطته إياه لينغ لمناسبة «مهرجان الربيع» العام 1988، بدا أبوها أطول قامةً. أو ربما بدا بهذا الشكل لأنه، حين لبس ثيابه الاعتيادية، الزيّ الرسمي لـ «معمل شبه الموصّلات في هويتسهو رقم 1»، لم يقف سبارو منتصب القامة.

حثَّ أبوها خطاه في الطريق المؤدي إلى «المعهد العالي للموسيقى» كما لو أنّ شخصاً ما أمامه كان يناديه.

بجوارها، ناح الأب لوت قائلاً: «أيْ يو! عازفو الكمان الشبيبة هؤلاء لا يفهمون شيئاً في الطباق الموسيقي. اللحن المرتفع والسريع، ذلك هو الشيء الوحيد الذي يعرفونه».

«لكنه يبدو جيداً، جدي».

«لأنه يتعيَّن عليكِ أن تسمعي. لم يسبقْ لكِ أن خبرتِ واحداً، أيتها الصبية المسكينة».

وكان هذا صحيحاً. في إحدى الليالي، عندما حاول أن يعطيها درساً في الـ إيرهو، صرخ عليها. «كيف تستطيع عالِمة ناشئة أن تكون عاجزةً عن حفظ ناتج ضرب 4 في 4؟ حتى الجاموس بوسعه أن يحل هذه المسألة الحسابية!».

تناولتْ أي - مينغ الآن يده الورقية. كان الأب لوت قد أصبح مكتنزاً في منطقة البطن إنما ليس في الساقين وكان أشبه بإجاصة على عودَيْن لنبش الأسنان. كانت تخشى أن يترنح وتدوسه الأقدام.

«هِي، أنتَ! سبارو الصغير! قلل سرعتكَ»، صاح عليه.

حين التفت أبوها، تخيلتْ أي - مينغ الـ سبارو الذي ربما كان عليه في عهد صباه، انفجار أغنية وهجوم ريش. أخبرتها بغ موذر أنه في مطلع ستينيات القرن العشرين، كان طلبة «المعهد العالي للموسيقى» قد أُرسلوا إلى المزارع حتى يشنوا حرباً. كانوا يعزفون على آلاتهم الموسيقية بصوتٍ عالٍ ومتنافر من الصباح حتى الليل بحيث إنّه ما من طائر صغير كان بمستطاعه أن يحطّ على أرض الحقل ويأكل الحبوب. يوماً بعد يوم، آلاف العصافير الدورية، نفقتْ بسبب الإعياء، هوتْ ميتةً من السماء. «هي أيضاً فكرة موسوِسة أخرى من الرئيس ماو»، قالت بغ موذر بوقار. «مَن الذي قال إن الموسيقى الغربية لم تقتلْ أحداً؟».

إن شيئاً بربريّاً جدّاً لن يحصل الآن. كي تؤشر بداية العام 1988، أعطتها بغ موذر تقويم السنة الجديدة مرفقاً بالكلمتين الآتيتين: «السعادة تصل»، مكتوبتين بحروفٍ رشيقةٍ فوق الوجوه الريانة لـ «آلهة الاتحاد المتآلف الألحان». تانك الكلمتان رفعتا فكرها بينما كانت تشد يد الأب لوت بقوة. *السعادة تصل*. عازفات كمان جميلات، يلبسن فساتين زاهية الألوان، تفرقْنَ حولهم. كانت تودّ أن تصبح موسيقية، فكرتْ أي - مينغ، ببساطة كي تبدو مثلهن، من طينتهن. لكن لا، كانت تفضل دوماً أن تفكك مسجلاً على أن ترهف السمع لأيّ سوناتا قديمة.

«أوه، أوه»، قال الأب لوت. «هذه الادعاء الفارغ القديم نفد هواؤه».

«لا تسرغ. لسنا ذاهبين إلى أيّ مكان».

«يا له من شيء صحيح، يا له من شيء صحيح».

ظلَّ «طائر الهدوء» في مكانه، ينتظر بصبر، كما لو أنّه موجود في بُعد مختلف عن ماضي الطلبة الجامعيين الذي ينغلق وينفتح بسرعةٍ ونشاط. كان هنالك تيار كهربائي، فكرتْ أي - مينغ بفرح، إلكترونات حارة، وكان أبوها بوابة الإلكترون. أو كانوا هم الزمان وكان هو المكان. تذكرتْ أي - مينغ كيف أنها، حين كان الرئيس ماو حيّاً يُرزق، كانت تكتب بانتظام انتقادات ذاتية عن أبيها. («إنني أسفحُ دموعاً مريرةً لأنني أعرف أنني ابنة عنصر سيّئ، عضو في الحزب ذي نزعة رأسمالية...». «في هذه الحرب، لا يوجد مدنيون!») كانت مجرد صبية في ذلك الحين، لذلك تعيَّن على أبيها أن يساعدها في كتابة الحروف الدقيقة، التي تتطلب براعةً. حين جاء الرئيس دينغ إلى السلطة، انتقادات كهذه لم تعدْ شائعةً جدّاً. لم تتكلمْ هي وأبوها عن تلك الانتقادات. الآن، بدا الأمر مضحكاً تقريباً أن تتذكر أنها كانت سمّته أفعى أو شيطاناً، لا بل حتى أفعى - شيطاناً، وأنها بلّغتْ عنه بصورةٍ طبيعيةٍ جدّاً. كان قد علّمها كيف تحمي نفسها بأن تخفي نفسها في داخل الضجيج.

«لماذا جئنا على أية حال؟» سألتْ أي - مينغ. «[المعهد العالي للموسيقى] يجعله يشعر بالندم لا غير».

«إيه، إنها ليستْ غلطتي. أبوكِ كان يريد المجيء. له أصدقاء قدامى هنا، كما تعرفين».

لكن لم يكنْ هناك أصدقاء قدامى، أو لم يأتِ أحد لرؤيته. دخل إلى أحد المباني وخرج من آخر، مفتشاً عن شخصٍ ما، وهي والأب لوت انتظرا تحت أشجار مزهرة متنوعة. وقبل أن يغادرا، دخل أبوها إلى واحدة من غرف التمرين. جلستْ أي - مينغ على كرسي في الزاوية فيما كان أبوها يعزف على البيانو، لم تسمعه يفعل ذلك من قبل على

الإطلاق، ولم تدركْ تماماً أنه ضليع حتى. جسده كله، الطريقة التي كان يتحرك بها، تغيّرتْ. معظم المقطوعات الموسيقية التي تعرفتْ عليها من الأسطوانات (اللحن الأوركستري رقم 6 من تأليف باخ، كوبيرين، شوستاكوفيتش)، إنما كانت هناك مقطوعة موسيقية أخرى، شخصية معقدة بدتْ كأنها تتفكك فيما هو يصغي، حبل من الموسيقى، مسلَكة. بدتْ كأنها تتصاعد حتى وهي تسقط، كي يرتفع حجم صوتها حتى وهو يتضاءل، بوليفونية جميلة، جمالها لا يُسبر غوره، بحيث جعل شعرات مؤخرة عنقها تنتصب واقفةً. حين توقفت الموسيقى، اغرورقتْ عيناها بالدموع بغتةً.

بعد لحظة، دفع أبوها المصطبة إلى الوراء. أغلق الغطاء من دون صوت.

«أيّ موسيقى هذه؟» سألته.

التفتَ إليها وابتسم. ابتسمتْ أي - مينغ بسمةً عريضةً، أيضاً، غير متيقنة. شعرتْ بحزنٍ لا يوصف يتفجر في الحجرة.

«إنها لا شيء»، قال سبارو.

«لا شيء؟».

هبَّ واقفاً ومضى إلى الجدار. «إنها موسيقاي»، قال. كانت المصابيح مطفأة لذلك حين ضرب مفتاح الكهرباء اشتعلتْ، وتطلع إليها، مرتبكاً، ونقر مفتاح الكهرباء بأصبعه مرةً أخرى. كان الرقم 103 مستنسخاً بحبر أسود نظيف على الجدار.

«ماذا تعني بقولك إنها موسيقاك؟».

«إنها لي»، قال، موجهاً كلامه إلى مفتاح الكهرباء أكثر مما هو إليها. «موسيقى كتبتُها منذ زمن طويل جداً، وهي جزء من سيمفونية لم أكملها أبداً». مضى إلى الخارج. في الفناء، كان سطوع الشمس قد جعل الألوان كلها باهتة. «لم أكنْ أتوقع أن أتذكّر، كنتُ متيقناً أنها بعد هذا الزمن كله قد اختفتْ تماماً».

تبعته إلى الخارج، الموسيقى تدور في ذهنها.

تساءلتْ كم عدد الأشياء التي يعرفها المرء التي من المستحسن أن ينساها. نظر أبوها إلى البيانو كما لو أنّه الشيء الصلب الوحيد في الحجرة، كما لو أنّ كل شيء وكل واحد آخر، بمَن فيهم هو، ليسوا أكثر من وهم، من حلم.

***

من أول لحظةٍ نظرتْ فيها أي - مينغ إلى داخل بطن الراديو، عرفتْ مهمتها: أن تدرس علم الكومبيوتر في «جامعة بكين» وأن تكون جزءاً من الطليعة التكنولوجية. ألم يكنْ هذا الأمر جلياً للجميع؟ ذات يوم، سوف ترفع الحواسيب نصف السماء.

حين أبلغتْ أي - مينغ أسرتها بهذا الإعلان العظيم، كانت يومذاك في سن السادسة من عمرها. استمر أبوها في تناول الطعام إلّا أنَّ بغ موذر استحسنتْ كلامها، وانبرتْ قائلةً: «إذن ليس جميع أفراد هذا المنزل أنصاف أموات في نهاية الأمر». في ذلك العام، 1977، كان التنافس ملحمياً: أدى خمسة ملايين طالب وطالبة امتحان القبول في الجامعة، يتنافسون على 200 ألف مقعد دراسي عزيز. الرئيس دينغ تسياوبنغ فتح مجدداً القبولات العامة، وكانت هذه أول مرة منذ العام 1966 بأن لا يتمّ اختيار الطلبة المقبولين في الجامعة من الحزب. في المدينة، خلال استعراضات الطلبة الجامعين، أي - مينغ حتى لوّحتْ بشعارٍ («الشعب يحب الطلبة!»). كم كانوا مبتهجين، نشاوى! مرهقين بسبب الدراسة مع أنّهم يقظون بتحدٍّ وجرأة. في يوم الامتحان، أول الأجراس التي تقرع معلنةً بدء أداء الاختبار جعلتْ كل شيء يتوقف، توقفتْ حركة المرور، انقطعت الضوضاء، لم يعدْ هنالك شجار، وحتى بغ موذر كفّتْ عن الصياح على عابري السبيل. بعد مضيّ أسابيع عدة، حين أُعلنت النتائج، أصبح المقبولون في الجامعة هم الأبطال الجدد، شبان وشابات نضحوا عرقاً على الكتب بدلاً من المحاريث، أولئك الذين لم يحملوا حتى

نسخة واحدة من «الكتاب الأحمر الصغير»، إلّا أنّهم كانوا يحملون كيساً ضخماً من الإمكانات، من الطاقات، التي تمايلتْ نحو السماوات. كانت عقولهم معاملَ متمددةً أبداً تطحن بجلبة موادَّ خام وتبصق حلولاً. أن تحصل على تعليمٍ، فكرتْ أي - مينغ، شيء رائع. أن تشد الرحال إلى» جامعة بكين» سوف يعني لها الحرية بعينها.

في العام 1988، بعد أن درستْ ست عشرة ساعة يوميّاً على مدى عام كامل؛ جاء دور أي - مينغ بأن تتحمل ثلاثة أيام من الاختبار في تسع مواد دراسية. *السعادة تصل*، حدّثتْ نفسها. كان أول سؤال في الاختبار: «الضوء والظلّ - [الأنواع كلها، السحر كله، جمال الحياة كله يتألف من الضوء والظل.] - ليو تولستوي. ناقش / ناقشي هذه العبارة». أما السؤال فكان: «خذِ الإلهام من الفلسفة التي عبّرت عنها «قصيدة عن الـ ووكسنغ»[1]، وهي من تأليف روان يوان[2]. كتبتْ أي - مينغ أكثر من تسع مئة حرف عن كلٍّ من السؤالين، وفي نهاية اليوم الأول، أصابها الصداع من أثر الإعياء العصبي. كانت المصابيح الكائنة فوق رأسها مشعةً بنحوٍ يشتت الانتباه، وأحدثتْ إشارات تحذيرية في داخل عينيها. تلا الامتحان انتظار لامتناهٍ، من خلال الدموع والأرق ونوبات الغضب. كان مجموع درجاتها المثيرة للإعجاب جعلتْ آمالها تتصاعد إنما في نهاية الأمر، مع أنّها كانت قد عقدت العزم على الالتحاق بـ«معهد التكنولوجيا في جنوب الصين»، كان مجموع علاماتها غير جيد بنحو كافٍ كي تنتظم في «جامعة بكين» أو «جامعة تسنغهوا»، أو خيارها

---

1 - الـ ووكسنغ Wuxing: أو الأطوار الخمسة، تُترجم عادةً إلى العناصر الخمسة أو الخطوات الخمس، وهي خمس صفات ديناميكية أو طاقات يُمكن إدراكها في جميع الظواهر الطبيعية. هذه العناصر هي: المعدن «الذهب»، الخشب، الماء، النار، التراب - م.

2 - روان يوان (1764 - 1849): عالِم رسمي صيني لسلالة كينغ الحاكمة، كان أبرز عالِم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. نال شهادة جينشي في الامتحانات الإمبراطورية 1789 وعُيّن لاحقاً في أكاديمية هانلين - م.

الثالث «جامعة فودان». لم يكنْ بوسعها مغادرة المحافظة. طوال ذاك الأسبوع كله، الجيران الرفاق أسرعوا بلهفةٍ لتهنئة أبيها وجدّها وجدتها لأن أي - مينغ كانت الوحيدة من «قناة الماء البارد» تلتحق بالجامعة. لم يتمكن الجيران من أن يفهموا لماذا لا سبيل إلى مواساة أي - مينغ، فقد اعتكفتْ في غرفتها، وراحتْ تبكي بحرقة.

***

أعطاها «طائر الهدوء» قطعتين من النصائح خاصتين بها. *ادرسي بجدّ*. و: *من المفيد أن تكوني محترسة*.

كانا يتناولان طعام العشاء وأي - مينغ لا تزال تبكي، فبادرتْ قائلةً: «أوه، بابا! ما جدوى أن يكون المرء حيّاً؟».

مضغ سبارو باذنجانه البربري وأحجم عن إعطائها جواب جدتها بغ موذر: («أوه، أنتم الجيل الجديد! إنكم تحسبون أنكم خبراء جدّاً بالحياة والناس. ليس لديكم أدنى فكرة بأن الأرز قد طُبخ أصلاً!») أو أيّ جواب على الإطلاق. في مرحلةٍ ما خلال حياة أي - مينغ بدا هدوء أبيها أشبه بشخصٍ آخر وسطهما. كان الهدوء مفعماً بالحيوية، مثل لعبة لا يمكنكَ سوى أن تواصل ضربها. ذات مرة، حين كانت في الثانية عشرة من عمرها، سألته: «الموسيقى التي دأبتَ على كتابتها، بابا، هل هي موسيقى إجرامية؟». لم يكنْ بوسعه سوى أن يردّ عليها قائلاً: «لا أدري». في تلك الليلة ذاتها، كتب شعاراً جديداً للباب الأمامي يقول: «*عسى أن تواصل الشمس الحمراء شروقها على مدى عشرة آلاف عام*»، بكتابة يد أُنجزتْ ببسمةٍ فارغةٍ، ثابتة. ربما كان يتعيَّن عليه أيضاً أن يكتب «البهجة»! على دلو بلاستيكي.

هتفتْ بغ موذر: «سؤال وجيه!».

همس الأب لوت قائلاً: «السيمفونية رقم 7 في F Minor [1]، [حية]»،

---

1 - F Minor: تعني: على درجة فا الصغير، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي - م.

وضحك على مزحته الشائخة. مال على المنضدة التي تكدستْ عليها أشياء كثيرة من دون نظام، يريد أن يمسح عبراتها، وبدلاً من ذلك مسحها على طول خدها.

في تقاعده، كان الأب لوت الأكثر قناعةً من بينهم جميعاً. كان يقرع أبداً على أيِّ شيءٍ ويصنع موسيقى عتيقةً، وجعل سبارو يعزف الموسيقى، أيضاً، على الرغم من أن سبارو قال إن يديه عديمتا الفائدة. كان الأب لوت رجلاً مسنّاً ذا مظهر مضحك، ضخماً جدّاً بالنسبة لساقيه الهزيلتين. كانت بغ موذر تشتمه برقةٍ ووداعةٍ، قائلةً: «إنني أحبك الآن أكثر مما لو كنتُ أراكَ أقل». في الصباحات المشمسة، كانا يجلسان في الخارج مثل تنين وعنقاء يحميان البوابة، أو مثل بورتريهين مُزهرين لـ ماركس وإنجلز، بغ موذر بسروالها المطوي للأعلى كي تلامس أشعة الشمس ركبتيها، والأب لوت بصدريته المطوية للأعلى كي تتدفأ بطنه.

نهضتْ أي - مينغ كي تُخلي المائدة من الأطباق. حتى وصول نتائج الجامعة، كانت 1988 سنة نجاح وازدهار، كان هناك لحم على المائدة مرتين في الأسبوع وكان بحوزتهم ماكينة خياطة، كنبة، راديو عمودي، آخر طراز، من ماركة «المصباح الأحمر»، ودراجات هوائية من نوع ممتاز لكل فرد من أفراد الأسرة. كانت الأم لها جهاز التلفزيون الخاص بها. كانت قد رُقّيتْ منذ عهدٍ قريب لتصبح محررة نشرة الأخبار في «راديو بكين»، ونُقلتْ إلى العاصمة. حين وصلتْ نتائج الامتحانات الجامعية إلى «قناة الماء البارد»، أدركتْ أي - مينغ أن الحظ وصل بالفعل، لكنه وجدها لم تبلغ المستوى المطلوب.

في الوقت الذي فرغتْ فيه من غسل الأطباق بعد رفعها عن المائدة، كانت عينها اليسرى مغمضة ومنتفخة من جراء البكاء.

انضمتْ مجدداً إلى سبارو في الفناء حيث كان ينتظر مع المسجل. كان هنالك قلة من صبيان الجيران هناك أيضاً، يلعبون الورق، أفواههم ملطخة بنحوٍ مثير للسخرية، بنوعٍ من صلصة اللحم المشوي. كانوا يتشاجرون

وكانت تريد أن ترفس التراب في وجوهم. كان مساء أحد، الليلة الوحيدة التي يُسمح لها فيها بالاستماع إلى الموسيقى الغربية مع أنّه، في الواقع، هذه الأعوام كلها، كانت تحافظ على أن تبقى برفقة أبيها. هل كان أبوها يؤمن بإخلاص أنها كانت تريد أن تقضي ساعاتٍ تصغي إلى الدمدمات المعذَّبة لـ شوستاكوفيتش؟ كانت «السيمفونية العاشرة» التي وضعها قد أوضحتْ أن الحياة بلا رجاء.

«أنتَ تختار، بابا». كانت تأمل فقط أن لا يختار باخ، الذي كانت مقطوعاته الموسيقية ذات الطباقات التقليدية الصارمة تجعلها تشعر كأنها وقعتْ في فخٍّ وهي ذي في داخل برميل يتدحرج نازلاً من أحد السفوح.

«ممم»، قال سبارو، وهو يملّس سجائره. كان تبغه الخاص، تبغ كسيانجانغ، له رائحة تربة رطبة. «بروكوفييف؟» اقترح عليها.

«سوف أحصل عليها».

وجدتْ مقطوعته الموسيقية الأثيرة، *«كونشيرتو الكمان رقم 1»*، لـ بروكوفييف في داخل علبة كارتونية لها صورة ديفيد أويستراخ، ذي الفك الأسفل البارز والخدين الغائرين. وضعت الأسطوانة. تسللت الموسيقى إلى الهواء وأصغى سبارو بمرفق واحد على ركبته، كان بدنه كله معقوفاً مثل زناد مسدس.

ألّف بروكوفييف موسيقاه الجميلة، كما لو أنّ ليس لديه أيّ هموم في هذا العالم.

نتيجةً للهدايا السنوية من لينغ وبغ موذر نايف، كان أبوها قد كدّس أكبر مجموعة من الأسطوانات في «محافظة غوانغكسي»، إلّا أنّه لا يزال يصرّ على إخفائها. أول شيء يفعلونه حين يصلون إلى البيت في كل «مهرجان» من «مهرجانات الربيع» هو أن يستخرجوا بالحفر جزءاً آخر من التراب ويدفنوا كدساً آخر من الأسطوانات. كان أبوها مصاباً بداء العظمة.

أيَّ نوعٍ من الحياة هذه التي نعيشها؟ الأسطوانة هي نوع من المخزن

تبقى الموسيقى تنتظر فيه، رسائل حب من كندا حفظ كلماتٍ جعلتْ سبارو يقضي لياليه مسهداً، يتقلّب في فراشه ذات اليمين وذات الشمال. كانت قد عرفتْ بأمر تلك الرسائل لأنها فتحتها وقرأتها كلها خلسةً. لكن كي يبقى كل شيء نابضاً بالحيوية، يحتاج إلى الحركة: التيار يجب أن يجري، الأسطوانة يجب أن تدور، الفرد، أيّ فرد، يجب أن يغادر أو يجد له درباً آخر. من دون حركة أو تغيير، يغدو العالم ليس أكثر من نسخة مبتذلة، «بايخة»، وهذه هي المشكلة مع كتابة يد بابا الأنيقة، حياته الطويلة الأناة. كانت متجمدة الزمن. غده على الدوام يكون، بشكلٍ من الأشكال، أمسه. كانت أي – مينغ تعرف أنها بطبيعتها متهورة، قليلةَ الصبر.

في فناء المنزل الآن، رفع سبارو الذراع الرفيعة للمسجل ووضع ألبوماً آخر. كان يتحتّم على أي – مينغ أن تقاتل بكل ما أُوتيتْ من قوة كي لا تدفع المسجل وتهشمه على الأرض. كانت هذه قطعة سميتانا المعنونة «من وطني»، وأورثتْ أي – مينغ الحزن والأسى بنحوٍ لا يمكن معالجته أبداً بحيث راحتْ دموعها تجري مجدداً. لم يعزْ «طائر الصمت» انتباهاً. سحبتْ بقوةٍ الجلد الكائن بين إبهامها وسبابتها كي تطفئ الألم الساكن في فؤادها.

«أي – مينغ»، قال لها.

رفعتْ رأسها. كانت الموسيقى قد انتهتْ من دون أن تنتبه لذلك.

«لئن كانت [جامعة بكين] هي المكان الذي ترغبين بالذهاب إليه، ادرسي إذن سنةً أخرى وامتحني من جديد».

كما لو أنّها لم تُقبلْ أبداً في بيدا! أحسَّتْ بمرارةٍ شديدةٍ بحيث إنّها همّتْ بالضحك.

«قدّمتُ طلب نقل إلى [معمل أسلاك بكين رقم 3] وحصلتُ على الموافقة. أنتِ تعرفين المعمل، إنهم يصنعون الراديوات وكذلك الحاسبات المصغرة. سوف ننتقل كلانا إلى العاصمة ونحصل على تصاريح بكين. أمكِ استخدمتْ كل ارتباطاتها... على كل حال، انتهى الأمر الآن. كان

من المفترض أن تتصل هاتفياً الليلة، لهذا لم أقلْ شيئاً... حين تتصل أمكِ، جربي وتظاهري بأنكِ مندهشة».

أنعمت النظر.

فسّر سبارو. «الجامعة تخفض الحدّ الأدنى لمجموع الدرجات للطلبة المتقدمين إليها ممَّن يحملون بطاقة إقامة في بكين».

كانت أي - مينغ تعرف ذلك قبلاً، بطبيعة الحال. كان الحدّ الأدنى هو درجات مئة كاملة، وسوف تجتاز الامتحان بسهولةٍ هذا العام، لو كان بحوزتها تصريحات بكين. الأنكى من ذلك، محافظتهم كانت قد خصصتْ خمسين مقعداً في بيدا. كان الظلم العميق في العالم قد تفجر بداخلها كرّةً أخرى ودفعها لأن ترغب بالبكاء.

«يمكننا أن ننتقل إلى شقة أمكِ في بكين أو نبقى هنا. الأمر متروك لكِ».

قلَّما استطاعتْ أي - مينغ أن تومئ برأسها. أحسَّتْ بالعار يدب في أنحاء جسمها مثل نقد ذاتي قديم. «أريد الذهاب، بابا»، ردّتْ عليه.

ابتسم سبارو، مغتبطاً.

شرعتْ تنشج من جديد، أحسَّتْ بمزيجٍ مُوهِنٍ من البهجة والرعب.

«لم أزرْ بكين منذ عهد المراهقة»، قال سبارو. «لا تقلقي، أي - مينغ. ليس ثمة شيء كامل تماماً، أو مثالي، إنه مجرد أن يدير المرء رأسه، أن يركز بصره على مكانٍ جديد... وأنا لا أبالي بمسألة أن تواتيني الفرصة بأن أسمع شيئاً جديداً. [الفرقة السيمفونية المركزية] هي في بكين...».

لم تكنْ تعرف عمَّا كان يتحدث. كان أبوها قد لفت انتباهها وذكّرها بالمسجل. أسطوانة بعد أخرى كان يرفعها بيديه ومن ثم يضعها جانباً من جديد. تدخّلتْ. اختارتْ ألحاناً أوركسترية جاز لـ شوستاكوفيتش، وكان الألبوم قد افتتح بفالس رقم 2 الذي كان رائعاً ويعوزه الانسجام وغير تبريري على الإطلاق. رجع سبارو إلى كرسيه، رنا ببصره إلى السماء الملبدة بالسحب. أغمض عينيه.

***

حين قال سبارو: «من المستحسن أن يكون المرء حذراً»، بالطريقة الواثقة نفسها ربما كان قد اقتبس من قول الرئيس دينغ: «أن تغدو غنياً فهو شيء رائع»، كان قد تأرجح قليلاً لأنه، في أيامنا هذه، كان يشرب الخمر كثيراً. كانت يداه تقلقانه، ألم وهمي، كاذب، لم يستطعْ أن يسكّنه.

ذات مساء، قبل الموعد المقرر لانتقالهما إلى بكين بأيامٍ قلائل، سألته بغ موذر قائلةً: «ماذا تنتظر؟ ماذا تحتاج، بُني؟».

«إنني مقتنع».

«يقول الأب لوت إن [المعهد العالي للموسيقى في غوانغتسهو] عَرَض عليكَ منصباً لكنك رفضتْ. هل هذا صحيح؟ إنكَ عنيد جدّاً. لا أدري مَن التي أنجبتكَ؟».

ابتسم. بعد لحظةٍ أجابها قائلاً: «ماذا يمكنني أن أدرّس؟ لم أكتبْ شيئاً على مدى عشرين عاماً. يوجد حالياً جيلٌ جديد من المؤلفين الموسيقيين، هم أنسب مني لشغل هذا المنصب». غيّر الموضوع. «عليكِ أن تأتي إلى بكين معنا».

«بكين! هي محاطة بالكوادر الحزبية والبيروقراطيين. آكل الغبار. إنني أفضّل الإقامة في تابوت ماو تسي تونغ».

«أخشى أن توقظيه من رقدته الأبدية».

تجشأتْ بغ موذر. بعنايةٍ وحذر، وضعتْ نسختها من [كتاب السجلات التاريخية]، التي لا تزال محفوظةً في علبة حذائها، على الكرسي بجانب سبارو. دفعته برفق باتجاهه. «لا تنتظر وقتاً أطول»، قالتْ في الختام، وهي تهب واقفةً. «سويرل ووين لن يأتوا إلى البيت. إنني حتى لا أعرف ماذا جرى لـ بانغ، عارض الأفلام السينمائية. وماذا جرى لشقيقيكَ. لعلهما أصبحا الآن أميركيين على حدّ علمي». تنهدتْ ببطء في داخل المنزل. «طويلة الأجل، طويلة الأجل، طويلة الأجل»، قالت. «طويلة الأجل جدّاً هي الثورة».

ظلَّ سبارو في الخارج. في النهاية، فتح علبة الحذاء.

أخرج الفصل 42 من كدس دفاتر الملاحظات، كانت صفحاته محتفظةً تقريباً بنقائها الأصلي، كما لو أنّها لم تُقرأْ من قبل. في الفصل، كان دا – وِي قد رجع إلى شمال غرب الصين. هو وزوجته كانا يفتشان عن ابنتهما التي كانت مفقودة منذ أعوام عدة. وفي يومٍ من الأيام، كانا قد وصلا إلى قريةٍ جبلية حيث كان جميع القرويين، الكوادر الحزبية والشبيبة المتعلّمة منهمكين جدّاً وليس لديهم وقت للتكلّم، كانوا مستغرقين في مَهمة تذكارية: كانوا قد أُمروا بأن يبنوا خزاناً ضخماً، وحتى يفعلوا ذلك، يتعيَّن عليهم أن يأتوا على قريتهم الجبلية الصغيرة شيئاً فشيئاً. دا – وِي وزوجته يستطيعان فقط أن يقفا ويتفرجا بذهول. كان الهواء مشبعاً بغبار الأرض وغبار السماء. كان القرويون ينشدون ترنيمةً للرئيس ماو، وحين تسألهم زوجة دا – وِي ما إذا شاهدوا هذه الفتاة، رفض القرويون حتى أن ينظروا إلى الصورة الفوتوغرافية.

«ابنتي كبرت الآن، أضحتْ شابةً»، تتطوع قائلةً، إلّا أنَّ القرويين يهزّون رؤوسهم نفياً ويواصلون نقل سلالهم بالعربات.

يجيب أحد الأشخاص: «كل شيء يستقر أخيراً في قاع النهر»، لكن دا – وِي وزوجته كانا متأكدين من أنها ليستْ هناك.

كانا قد سافرا إلّا أنَّ «صحراء تَكلامَكان»، عاماً بعد عام، أنهكتهما، أنهكتْ ثيابهما، أحذيتهما، إيمانهما، إلى أن تلفت الصورة الفوتوغرافية. حتى دموعهما رفضتْ أن تدوم. كانت الشمس الحارة قد جففتهما في الحال، تاركةً فقط رقائقَ من الملح. يخبر دا – وِي زوجته بأنه آن الأوان كي يؤوبا إلى البيت وتجيبه قائلةً: «قلْ لي أين هو بيتنا، وسأمضي إليه». كانا يريدان أن يقدما قرباناً روحيّاً لابنتهما المفقودة، لكنهما لا يملكان شيئاً، لا مال ولا بضائع. كان ذاك في العام 1988، في «طريق الحرير» السابق، ولم يعدْ هنالك أيّ تجار أو قوافل جِمال، والقرى التي لا تُعدّ ولا تُحصى هجرها ساكنوها.

وصلا إلى واحةٍ زرقاء في القفر، يحجبها السديم، حيث تتلوى بينهما

أغنية طائر. بدتْ كأنها حافة العالم، لكن في الحقيقة هي مدينة «كهوتان» الغابرة، ذلك أنهما وصلا إلى الحافة الجنوبية الغربية من «صحراء تاكلامكان». يفكر دا - وِي في شقيقيه الضائعين، يفكر بـ ميّ فورث والآن بات يفكر بابنته هو، فتاة اسمها تسهولي، وإنه يتساءل ما إذا كان هو وزوجته هما آخر مَن يجتاز هذه البوابة. أين يقع المستقبل؟ إذا ما واصلا طريقهما باتجاه الغرب، سوف يصلان إلى أراضي كشمير المتنازَع عليها. هل يتعيَّن عليهما أن يدورا على أعقابهما ويرجعا أم يتعيَّن عليهما أن يستمرّا في طريقهما؟ إلى أيّ جانب ينتميان؟ على جدران مدرسةٍ ما، كان شخصٌ ما قد نسخ بيده رسالةً أو قصيدةً وكانت الكلمات تقول:

أتيتُ إلى هذا العالم
لم أجلبْ معي إلّا ورقاً، حبلاً، وظلّاً
دعني أقول لك، عالماً
لا أصدّق...[1]

لم تعدْ زوجته تملك صورةً فوتوغرافية كي تُريها للغرباء، وكانت ببساطة تقرفص مستندةً إلى الحائط، منهكة القوى. كان الشلال المبروم لشعرها قد سقط من مسكته.

يلمس دا - وِي الكلمات المكتوبة على الحائط. *أجرام سماوية جديدة متحدة تعبد السماء الآن / إنها الحروف الهيروغليفية التي تمثل أفكاراً، تحدثتْ إلينا من خمسة آلاف عام / إنها العيون الحارسة لأجيال المستقبل...*

«إنني أعرف أنها ماتتْ»، تقول زوجته. «إنني أعرف هذا، إنما كيف يمكنني أن أدعها تموت؟».

ثمة شاب يعزف الموسيقى في فناء المدرسة. إنه يعزف على الكمان،

1 - «أتيتُ إلى هذا العالم لم أجلبْ معي إلّا ورقاً...»: *«السائر في نومه في آب»*، مصدر سابق: 33 - ك.

ما يسمونه xiăo tí qin، قانون صغير، مرفوع، ودا – وِي، يتعرّف على الأغنية. كونشيرتو باخ في D Minor [1]، مكتوب لكمانين، لكن الرجل يعزف وحيداً، انتهى الطباق، أو أنه غير موجود بالأساس. يفكر دا – وِي بواجبات أب: يجب أن تكون هنالك هدايا بهيئة نقود كي يرى ابنته عبر العالم السفلي، برتقال من أجل الحلاوة، حرير كي يغطيها. كانت جيوبه خاليةً وكان خجلاً من كونه لا يملك شيئاً كي يعطيها إياه، في هذه الحياة أو في الحياة القادمة. هذه الموسيقى، والمسافة الطويلة التي قطعتها، تُربكه. كان يرغب أن يقول لابنته أن ترجع إلى البيت، لكن الطرقات تغيّرتْ ولا شيءَ في هذا البلد مألوفاً، إذا ما عادتْ صوب المدن الساحلية، ربما تضيّع دربها. كيف يمكنه أن يساعدها؟ لماذا كان عاجزاً جدّاً؟ دا – وِي يسمع الطباق كما لو كان حقيقيّاً، خطّاً لحنيّاً يعرفه بصورةٍ حميمة، كان قد عزفه مجدداً مراراً وتكراراً من محطة الإذاعة إلى صيانة الهواء. *أتيتُ إلى هذا العالم ولم أجلبْ معي إلّا ورقاً، حبلاً، وظلّاً*... خلال بقائهما أحياءً في الحاضر، هل ضحّوا بالماضي؟ العالَم الذي آمن به في يومٍ ما غيّر شكله مرةً أخرى.

غادرت ابنته منذ أمدٍ بعيد جدّاً. أما هو نفسه فلم يكنْ يعرف كيف يكون حرّاً، طليقاً.

«ساعدني»، تقول زوجته. «ساعدني كي أدعها وشأنها».

سدَّ سبارو دفتر الملاحظات. سمع الموسيقى تأتي شيئاً فشيئاً من مكانٍ ما، من مذياع متروك، من ذكرى معينة. تسهولي، قال. كان يصيخ السمع فيما كان الهواء يجيب.

***

جلستْ أي – مينغ في سريرها. كان بمستطاعها أن تسمع تسجيلاً لـ«*كونشيرتو لكمانين*»، تأليف باخ، يدور في أنحاء المنزل، يبدأ وبعدها

---

1 – D Minor تعني بحسب المصطلح الموسيقي العالمي: ري الصغير – م.

يتوقف. حين زحفتْ إلى خارج غرفتها، رأتْ أباها جالساً على الأرض، ظهره إليها. رفع الإبرة ووضعها هناك، كما لو أنّ شيئاً ما في عقله لا يمكن البتّ به، ومن ثم أعادها من جديد. كان أول شدّ صوتي، الهواء الذي أتى قبل الموسيقى، بدا كأنه يمور من الأرض نفسها. عزف أويستراخ المقطوعة الموسيقية مع ابنه، والكمانان كلاهما دارا أحدهما حول الآخر، تارةً باحتراس، وطوراً بقسوةٍ ممزوجةٍ بالاتهام، كاشفين عن اشتهاءٍ لشيء هو ملك للغير، لكنه شعور عميق أيضاً لا يمكنها أن تعبّر عنه بالكلام. راقبتْ والدها، وهي تفكر في بكين وفي المستقبل. ماذا لو لم تكن الأشياء كلها عصيةً على الوصف، تساءلتْ. أيُّ عالمٍ سيكون هذا؟ ماذا لو أنّ كل شيء، أو أيّ شيء على الإطلاق، يملكُ القدرة على التغيير أو البدء من جديد؟



-5-

كانت «ساحة تيانانمين» لا تبعد أكثر من خمس عشرة دقيقة عن شقتهما ذات الغرفتين الواقعة بجوار «جسر موكسيدي»، في واحدٍ من أزقة بكين التقليدية - متاهة من مساكن الأزقة. لم تكنْ تبعد أكثر من خمس عشرة دقيقة إنما مع ذلك، فيما كانت أي - مينغ تقود دراجتها الهوائية عبر الجادة الرحبة، أحسَّتْ كما لو أنّها مرفوعة في الفضاء الخارجي. كونها كبرتْ واشتد ساعدها، لا بدَّ أنها شاهدتْ آلاف الصور للساحة، لكن الواقع كان حديثاً بجرأة: ثنائيات مبهمة من الذكور والإناث، منجرفات طويلات الشعر، مراهقون ومراهقات يصغون إلى موسيقى الروك، ينشدون: «العالم محض مستودعٍ للنفايات!» أطفال صغار يتهادون بستراتهم المبطنة، يتحركون بالخطى الرزينة نفسها، شأنهم شأن أجدادهم، كأنهم يملكون الوقت كله في العالم. اليوم، ريح ما بعد الظهر لها لسعة غير رحيمة، نيسان «أبريل» لا يستطيع أن يدع الشتاء وشأنه.

مالتْ دراجتها الهوائية على مسندها[1]. جلستْ أي - مينغ على أحجار الرصيف وشرعتْ تنظر، بصورةٍ امتلاكية، إلى داخل الساحة. بقدر ما تسعفها الذاكرة، كان الصواب والخطأ قد مثّلهما الحزب من خلال اللون. الحقيقة والجمال، على سبيل المثال، كانا *بلون* **hóng** (أحمر)، في إن حين الإجرام والكذب أو الباطل كانا بلون **hēi** (أسود).

---

1 - المسند kickstand: جهاز يسمح للدراجة الهوائية بأن تبقى في وضع عمودي من دون الحاجة لأن تستند على شيء أو بمساعدة شخص - م.

كانت أمها حمراء، وكان أبوها أسود. لكن بكين، مكان استراحة الرئيس ماو، تحوّلتْ إلى لون المُغرة الفاتح وحتى الجادات الواسعة كان لها لون بعير. الأحمر موجود فقط في العَلَم الوطني ورايات الحزب، إلّا أنَّ كل ذلك اللون الأحمر لا يمكنه أن يقلل من كمية هذا اللون الأصفر كله. في بعض الأحيان جلبت الريحُ الرمالَ من «صحراء غوبي» والغبار نفذَ إلى كل شيء، ليس فقط إلى مدركاتها الحسية بل كذلك إلى طعامها، بحيث إنّ الـ توفو[1] الحريري بات يُحدث صوتاً طاحناً حين يتناوله المرء.

«تعالي»، همس غلام، «لا تكوني مثل تلك»، والفتاة التي كانت تستند على كتفه قالت: «لئن كنتَ تحبها، أخبرني بصراحة. أنا لستُ عتيقة الطراز. لن أقوم بشيءٍ أحمق...».

أغمضتْ أي - مينغ عينيها وتظاهرتْ بأنها لا تسترق السمع. الناس في بكين مختلفون، فكرتْ. إنهم مبجلون بنحوٍ مدهش، إنهم مخلوقات لطيفة أكثر وإضافةً إلى ذلك مفعمة أكثر بالأمل.

اليوم هو عيد ميلاد أي - مينغ الثامن عشر. كانت قد حلَّتْ ضفائرها، محاكيةً فتيات المدينة. وهي تقود دراجتها عبر الطريق العام ذي الممرات الثمانية التابع لـ «جادة تشانغآن»، كانت قد شعرتْ بثقله الرقيق يطفو وراءها. أمس، بدلاً من أن تدرس، كانت قد غيّرتْ خط أفضل فساتينها، والآن القطن مشدود بقوة على نهديها وردفيها، الأمر الذي منحها شعوراً بالسيطرة المتعاظمة على كل ما هو معادٍ أو خطير أو غير مُستحسن. في وسط «الساحة»، رفعتْ بصرها إلى الأعلى ناظرةً إلى السماء التي بلون المغرة وشرعتْ تفكر: «دعني أقول لك أيها العالم، إنني أرغب بأن أصدّق».

وحيدةً، لم تشعرْ بالوحدة البتة. بدا كما لو أنّها تمشي على لوح دائرة كهربائية عجيب جعلها مفعمةً أكثر بالحيوية. إنما لاحقاً، في الغسق، حين

---

1 - الـ توفو tofu: طعام يُعد بواسطة تخثير حليب فول الصويا ومن ثم رصّ الخثرات الناتجة في كتل بيض لينة. وهو طعام شائع في مطابخ شرق آسيا، وجنوب - شرق آسيا - م.

قابلتْ والديها في الطرف الشمالي من «الساحة» وساروا معاً إلى مطعم أي - مينغ الأثير: «الرفيق البربري»، بدأتْ تحسّ كأن رئتيها مسحوقتان. كانت أمها تشعّ قلقاً، أو ربما ندماً فحسب. بعد العشاء، حين دفعتْ لينغ ثمن الصورة التي أُخذتْ لهم أمام «بوابة تيانانمين»، كان لدى أي - مينغ صورة مباغتة لما كانوا يبدون عليه حتماً: سبارو، عامل المصنع، لينغ، الكادر المجتهد وأي - مينغ نفسها، الطالبة الجيدة. وحتى إنهم كانوا يرتدون الألوان اللطيفة، غير المؤذية لأسرةٍ نموذجية.

«حتى لا تتنفسوا!» قال المصور الفوتوغرافي. «احبسوا أنفاسكم! احبسوا أنفاسكم...».

ثبتتْ نظراتها على نقطةً ما وراء أذنه اليمنى، حيث كان هنالك ثلاثة صبيان هزيلون بسترات متشابهة خفيفة مقاومة للريحِ الباردة والمطر الخفيف[1] يقفون تحت شعار هائل يقول: «ادرسْ بجدٍ ومثابرةٍ وأحرزْ التقدّم يومياً». فكرتْ في نفسها: *عليّ أن أجعل من نفسي محظوظةً*. لكن ماذا يعني «محظوظة؟» كانت قد توصلتْ إلى الإيمان بأنه سيكون الأمر سيان بالضبط في الداخل كما هو في الخارج. ماذا يعني أن تكون سيئة الحظ سوى أن نوع الوجود مثل شيء ما، أو شخص آخر، في الداخل؟ منذ سنوات طفولتها، كانت تقرأ يوميات سبارو، التي تعوّد أن يكتبها أبوها ويسلّمها أسبوعياً إلى الأعلى منه منزلةً. حتى العام 1978، كان أبوها قد صُنّف باعتباره عنصراً إجرامياً، إنما مع يومياتٍ مملّةٍ كهذه، لا بدَّ أن يكون سفاحاً. الآن فقط أدركتْ أي - مينغ أنها كانت قد قللتْ من شأن «طائر الهدوء».

حتى بغ موذر لم تكنْ تعرف بشأن حزمة الرسائل الأجنبية المخبأة في علبة ألبوم غلين غولد. في أول الأمر، كانت الطوابع هي التي جذبتها إليها: تلك الصور الرائعة جدّاً للجبال والبحار المتجمدة الكندية، ذلك الورق الغربي السميك. *هل تكتب؟ هل ترسل إليّ مؤلفاتك الموسيقية*

---

1 - هذا النوع من السترات يُسمى بالدارجة العراقية: قماصل «جمع قمصلة» - م.

الحديثة؟ حبيبي سبارو، *إنني أفكر بكَ باستمرار، ومن دون انقطاع*؟ مَن تكون جيانغ كاي هذه وكيف هو شكلها؟ كيف يمكن أن يكون لـ «طائر الهدوء» حبّ طيِّ الكتمان؟

مصراع كاميرا المصور الفوتوغرافي أحدث صفعةً كبيرةً.

«حسناً»، قال سبارو. «انتهى!». التفت إلى أي - مينغ. كانت هنالك قطعة صغيرة جداً من زغب على قميص المعمل العائد له. أزالتها.

أحصتْ لينغ القطع النقدية في محفظتها اليدوية وأعطتها إلى المصور الفوتوغرافي. أحدثت القطع النقدية قرقعةً كما لو كانت حفنةً من الفاصوليا.

أشار سبارو إلى طائرة ورقية بهيئة تنين في الهواء. بدا أنه لم يعرفْ أنها لم تعدْ طفلةً صغيرةً، وليس من السهل جدّاً أن يسليها. «كم هي جميلة».

***

في المنزل، في الغرفة المتناهية الصغر التي كانت بمنزلة مكتبها، كانت المجلات قد احتلتها. ليست المجلات النسائية بألوان الحلوى التي بدأتْ بالظهور في أكشاك بكين، بل المجلات الجادة من مثل «*دع العلوم الطبيعية تتبارى*». كان لديها ميل إلى نظرية الاحتمالات والفضاءات المتناظرة الريامينية[1]، التي كانت تواصل دراستها، هاملةً علم السياسة واللغة الإنكليزية، التي كانت سبب رسوبها في المحاولة الأولى. إحدى جاراتهم لو بيوين، وهي طالبة جامعية رائعة في المرحلة الأولى في «جامعة بكين لإعداد معلمي المدارس الابتدائية»[2]. كانت قد

1 - الريامينية: نسبةً إلى برينهارد ريامين (1826 - 1866) وهو عالم رياضيات ألماني، له إسهامات في التحليل، نظرية الأرقام، وهندسة التفاضل - م.

2 - جامعة بكين لإعداد معلمي المدارس الابتدائية Beijing Normal University: جامعة مختصة بالبحوث العامة تقع في بكين، ذات تركيز شديد على الأنظمة الرئيسة للإنسانيات والعلوم. وهي واحدة من أعرق وأفخم الجامعات في الصين. استقت اسمها من «دار المعلمين الابتدائية»، وهو معهد معني بتدريب معلمي ومعلمات المدارس الابتدائية، وفي العراق توجد معاهد بالاسم نفسه - م.

أعطتْ أي – مينغ نسخةً من كتاب ميازاكي[1] المعنون: «جحيم الامتحان الصيني: امتحان الخدمة العامة للصين الإمبراطورية». كان كتاباً سميكاً. ضحكتْ ييوين وقالت إنها لم تعدْ تحتاجه بعد الآن. راهناً، حملقتْ أي – مينغ مغضبةً في طاولة الكتابة العائدة لها وأحسَّتْ كم هو شيء مثير للسخرية هذا الأمر كله. هذه الأبراج الشاهقة من الكتب صنعتْ مدينةً مستقبليةً من حولها. اختفتْ في الداخل وغلبها النعاس، أحلامها تتقاطع كالطائرات المحلّقة في السماء. ثمة صوتٌ في رأسها يردّد المرة تلو المرة، بنحو هُرائي: «ييوين شاهقة كغيمة». «تعلن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بحزنٍ عميق...». التفتتْ وفيما هي تفعل ذلك، تجعدتْ صفحة من مجلة *«دع العلوم الطبيعية تتبارى»* تحت وجنتها، ومدتْ يدها كي تزيلها، «– المحارب الشيوعي الوفي، الذي اختبر طويلاً: هو ياوبانغ، ثوري بروليتاري –».

بغ موذر نايف، فكرتْ بصورةٍ مشوّشة، دأبتْ على التمتمة: «yào bāng»[2]، حين كانت تدعك قِدْرهم، قِدْر الرز الوحيد. كانت الكلمتان تعنيان «بلد مثير للإعجاب»، وكذلك حدث أن يكون اسم السكرتير العام للحزب. السكرتير العام السابق، المجلل بالعار.

«بُذلتْ أقصى الجهود من أجل إنقاذه...».

فتحتْ أي – مينغ عينيها.

«في الساعة السابعة و35 دقيقة صباحاً، 15 نيسان «أبريل»، 1989، توفي عن عمر ناهز الثالثة والسبعين».

---

1 – إيتشيسادا ميازاكي (1901 – 1995): إحدى الشخصيات البارزة في القرن العشرين، التي تخصصتْ بدراسة اللغة والأدب والتاريخ والثقافة الصينية، الذائع الصيت في الصين واليابان والغرب بسبب معرفته الواسعة والعميقة – م.

2 – هو ياوبانغ (1915 – 1989): موظف رفيع المستوى في جمهورية الصين الشعبية. شغل مركزاً عالياً في الحزب الشيوعي الصيني بين 1981 – 1987، إذ كان السكرتير العام للحزب بين عامي 1982 و 1987. فُصل من الحزب خلال «الثورة الثقافية» (1966 – 1976)، ثم أعيد ثانيةً، وفُصل من جديد – م.

تغيَّر موقع كرسيها. بدا احتكاك الخشب بالخشب كأنه ناجم من عظامها هي. كانت تشعر أن أحد كتفيها يحترق ألماً والكتف الآخر بدا مرتخياً وطويلاً. فكرتْ أن بمستطاعها أن تسمع الناس وهم ينتحبون. بات النحيب أقرب، دخل مع المطر الذي كان يقطر إلى الأسفل ويعتّم الممشى الإسمنتي خارج الباب. اليوم هو السبت، إلّا أنَّ كلا أبويها في موقعي عمليهما. سارتْ عبر الغرفة وتمددتْ على سريرهما، باسطةً ذراعيها وقدميها، قلقةً جدّاً بحيث لا يمكنها أن تدرس، وجعلتْ تراقب المطر زمناً طويلاً.

***

حين وصل سبارو إلى المنزل قادماً من المعمل فتح الراديو العائد لهم على الفور، مع أنّه كان بوسعه أن يسمع راديوات الجيران بصورةٍ جيدة وواضحة. كان قد أدركه المطر وكان شعره المبلّل يبدو حزيناً على جبهته. تناولتْ أي - مينغ منشفةً ودعكتْ بها رأسه بعنف.

«ماذا درستِ اليوم؟» سألها، وهو يتلفع بالمنشفة.

«كل شيء. هل تجلب الأزهار إلى [ساحة تيانانمين]؟».

أبعد إحدى حافات المنشفة عن وجهه. «أزهار؟».

«انظر، جيراننا كلهم يصنعون الأزهار». كان بمستطاعها أن ترى ما في داخل الحجرات عبر الزقاق وكذلك الغرف المتاخمة لمطبخهم، حيث كانت أسرة غوا تطوي أزهار الأقحوان البيض، رمز الحِداد. «من أجل الرفيق هو ياوبانغ! توفي اليوم، كما تعرف».

«ممم»، قال سبارو. كان قد مال الآن، محاولاً طرد الماء من أذنه. بات شعره الآن منتصباً وبدا كالدلفين.

قالت بعدم اكتراث: «كما تعرف، حين سُئل أيٌّ من سياسات الرئيس ماو ربما لا تزال مناسبةً في الصين، أجاب هو ياوبانغ قائلاً: [أعتقد لا واحدة منها]».

«إنكِ تعرفين أفضل مما تكررين من أشياءٍ كهذه».

«لئن كان السكرتير العام يقول ذلك، فلماذا لا أستطيع قول ذلك؟».

قوّم أبوها جذعه. «منذ متى أصبحتِ أنتِ السكرتير العام؟ ولماذا لم يطردوه من الحزب؟».

على الراديو، كان أفراد «الحرس الأحمر» يهتفون بشعارات مثيرة للسخرية على هو ياوبانغ المجلل بالعار. كان ذلك في ستينيات القرن العشرين، قبل ولادة أي - مينغ، واستمر الصوت المسعور ثواني قلائل قبل أن يصبح مجرد ذكرى رثة. إنه هنا في المناطق الاقتصادية، كان هنا مع الكوادر في المناطق الشمالية الغربية. بعد *[الثورة الثقافية] وسقوط [عصابة الأربعة]، عمل الرفيق [هو] من أجل ردّ الاعتبار لأولئك الذين كانوا قد اتهموا بطريق الخطأ... سافر إلى ألف وخمس مئة مقاطعة وقرية، حتى وصل إلى تسينجيانغ ومنغوليا الداخلية البعيدتين جدّاً، كي يرى كيف ظهرتْ سياسات الحزب في حيوات الشعب...*

أصبح المطر ينهمر بقوة. كانت أي - مينغ تقشر برتقالةً ببطء.

في الزقاق، كانت ييوين تشق طريقها مرتدية فستاناً ورديّاً جديداً، كانت تتمايل على وركيها بينما هي تمشي، طافيةً على ساقيها الطويلتين الشاحبتين. أحسّتْ أي - مينغ بأنها حساسة حالها حال البرتقالة التي في يدها. كانتا في سن واحدة إلّا أنّها كانت طفلةً بالمقارنة مع ييوين، التي كانت طالبةً جامعية حقيقية. كان بحوزة ييوين مسجل كاسيت متنقل وكانت على الدوام تصغي للموسيقى فيما هي تمشي. كان سلوكاً حديثاً جدّاً و«غربيّاً» بكل معنى الكلمة، أن تصغي للموسيقى التي ليس بمستطاع أحد آخر أن يسمعها. الموسيقى الخاصة تفضي إلى فكر خاص. الفكر الخاص يفضي إلى رغبات وأهواء خاصة، وإلى إكمال متطلبات خاصة أو إشباع رغبات متأججة خاصة، إلى كونٍ كامل خاص بعيداً عن الأبوين، عن أفراد الأسرة، وعن المجتمع.

كان صرير خفَيْ سبارو البلاستيكيين يقطع سلسلة أفكارها. كانت أي - مينغ قد أعطته البرتقالة المقشّرة وابتسم كما لو أنّها أعطته الشمس.

مضى إلى المسجل ونقرت أي - مينغ الراديو بأصبعها، وأسكتتْ هو ياوبانغ في منتصف جملة.

أوتْ إلى السرير مع أنّ الوقت كان لا يزال مبكراً. كان الطباق في «عرض موسيقي»، تأليف باخ، يدور في العتمة مثل كلب يتعقب ذيله. سمعتْ أي - مينغ أمها وهي تأتي إلى البيت، وتبادل أبواها الكلمات الروتينية، المألوفة. *السرير نفسه، أحلام مختلفة.* كان المَثل القديم قد نعت سبارو ولينغ بشكل مضبوط. كيف يمكن أن تكون أمها مثل هذا الكائن المستقل، الحديث؟ لماذا كان أبوها مغرماً بشخصٍ ما بعيدٍ جدّاً عن واقعه الحالي؟ كيف يتسنى لـ أي - مينغ أن تعيش حياةً أفضل من حياتيهما؟ بالنسبة لها، المسألة الوحيدة التي تتطلب تفسيراً هي: كيف يتمكن شخص ما من أن يكتب مستقبلها هي؟

***

في يوم الاثنين، صادفتْ أي - مينغ جارتها ييوين عند حنفية الماء العمومية. «أنت تذهبين إلى [ساحة تيانانمين] صباح هذا اليوم، أليس كذلك؟». سألتها الفتاة الأكبر سنّاً.

مصدومةً، لم تستطعْ أي - مينغ أن تقول سوى: «لماذا؟».

قهقهت الفتاة. رفعتْ دلو الماء الممتلئ العائد لها، وراحتْ تتهادى عائدةً إلى منزلها. «نعم، لماذا؟» قالت ييوين، وهي لا تزال تقهقه. «إنني أكاد أصدقكِ! أي - مينغ، لقد خدعتِني فعليّاً. يا له من وجه مستقيم! إذا حصل وأن احتجتُ إلى أيّ شخص كي يقدّم لي عذراً عن جريمةٍ لم أرتكبها، سآتي إليكِ أولاً».

ابتسمتْ أي - مينغ. تأملتْ فستان ييوين الوردي يطفو في الزقاق.

بعد أن عادتْ إلى غرفتها، وقفتْ لحظةً تنظر إلى كوم الكتب على سطح طاولة الكتابة. كانت امتحانات الجامعة لا تزال بعيدةً ثلاثة أشهر. سحبت الستارة على النافذة، بدّلتْ فستانها وغادرت الشقة.

شرعتْ تقود دراجتها الهوائية ببطء وكانت الريح في مواجهتها. قبل أن يتبدل اسم «جادة جيانغ يومين» إلى «جادة تشانغآن» بوقتٍ طويل، رأتْ نتفاً من الأزهار، الورق، الأشرطة في جميع أنحاء الطريق، كانت تتجمع كالسُّحب إلى أن وصلت، في «الساحة»، إلى مشهدٍ غير واقعي. آلاف من أكاليل الجنازة، بأشرطتها البيض، كانت تخفق في النسيم. في مكانٍ يبعد قليلاً عن «الجادة»، كان عمال المصنع يعقدون اجتماعاً علنياً، بعض الفتيات كنَّ يتلون القصائد الشعرية، ومجموعة من الطلبة الجامعيين جاثمون على الأرض مع الحبر، الفراشي «جمع فرشاة» والورق، يكتبون ملصقات بطول مقالة. مشتْ متوغلةً في عمق «الساحة»، وراحتْ تبحث بصورةٍ مضحكة عن ييوين. بدا لها أن الكونكريت يتمدد من قدميها هي مثل طبعة قدم رمادية لانهائية.

عند «نُصب أبطال الشعب»، كانت هنالك ثلاث جدات يتمتمن بصورةٍ مدمِّرة. «نوبة قلبية». «هكذا بالضبط! في منتصف اجتماع [المكتب السياسي] تماماً». «أولئك الثعالب أهانوه وأذلوه، تنمروا عليه إلى أن توقف قلبه عن الخفقان...». صورة عملاقة بالأبيض والأسود لـ هو ياوبانغ علتْ فوقهن، كانت الصورة مكبرةً تكبيراً هائلاً بحيث إنّ أنف الرفيق [هو] كان بطول قامة رجل. كانت البوسترات في الأرجاء كلها، على الأرض، مثبتة بـ «النُّصب»، على الألواح التي كانت بمنزلة بدائل مؤقتة. *أولئك الذين يجب أن يسقطوا قتلى لا يزالون أحياءً. أولئك الذين يجب أن يعيشوا فارقوا الحياة.* إن مجرد قراءة البوستر جعل أي – مينغ تحسّ كما لو أنها سبّت الحكومة أو أنكرتْ أباها.

كانت قد رفعتْ بالفعل يدها لتغطي عينيها. مع ذلك كانت الكلمات المكتوبة على الملصقات تتسلل من بين يديها. *لماذا لا يتسنى لنا أن نختار وظائفنا؟ ما هو الحق الذي تملكه الحكومة حتى تحتفظ بملفٍّ خاصٍّ عني؟*

التفتتْ من حولها لمجرد أن تجد نفسها في مواجهة جدارٍ من الورق.

ألم يحنِ الوقت بعدُ حتى نعيش كبشر؟
أتذكرين؟
أنا وحيد.

اقتربتْ، وشرعتْ تنظر شزراً إلى الحروف. *أتذكرين؟*

يا لها من أفكار غير قانونية. *أولئك الذين يجب أن يموتوا*... إنما في الواقع، لماذا يجب أن تكون أفكار المرء، أيّ امرئٍ، غير قانونية؟ في البُعد، كان الكونكريت يتنقل من مكانٍ إلى آخر، كان قد مُسخ إلى جمهرة صغيرة من البشر. بدا كأن الجمهرة الصغيرة تضاعف نفسها، لاح عدد أكثر فأكثر من المتظاهرين يحملون معهم شعارات متطاولة أشبه بقوارب فوق رؤوسهم. «*انهضوا، أيها العبيد، انهضوا!* سوف نسترجع *ثمار أعمالنا الشاقة*...». علم «جامعة تسنغهوا» غطس وانحرف جانباً، وكانت هنالك أعلام أخرى، أيضاً، أعلام تعلن عن حضور «معهد علوم الطيران» و«جامعة الشعب». التقى طلبة الجامعة طابوراً من الشرطة. من مكانٍ قصي، بدا كأن موجة رمادية تبتلع خيطاً لصيد السمك. توارى رجال البوليس وأصبح الحشد أضخم عدداً. كان ثمة شعار يطفو، رقيقاً كالإصبع، صوبها «تعيش التربية!».

لم تملكْ سوى أن تتعجب كيف أن طلبة الأعوام الأولى بينهم كانوا قد أجابوا عن سؤال الامتحان: «ليو تولستوي. ناقش». وهي تلتفت بنحوٍ أخرق، زلّتْ بحقيبة مدرسية. اعتذر صاحب الحقيبة ورفس حقيبته بلامبالاة وأبعدها عنهما، كانت تعتقد أنها سمعتْ شيئاً يُصدر طقطقة. حين ابتسم تمددت الظلال الواقعة تحت عينيه. سألها الفتى عن القسم الذي انتظمتْ فيه وحين تفرّستْ فيه أي - مينغ، أشار إلى شيءٍ متدلٍّ فوق رأسه («قسم التربية») ومن ثم، وهو يجيب عن سؤالٍ لم تطرحه عليه، أردف قائلاً: «ردّ اعتبار رسمي لحياة هو ياوبانغ ومسيرته. إنها نهاية حملة التلوث الروحي. هذان الرقم واحد واثنان. وكذلك... نحن نطلب من الحكومة أن تطلق سراح أولئك الذين اعتقلتهم في العام

1977 لأنهم قالوا الحقيقة. أبطال [جدار الديمقراطية][1]، كما تعلم. بعد اثنتي عشرة سنة، لا يزالون قابعين في السجن!» تبيَّن أنه كان يتحدث إلى شخصٍ ما خلفها. وهي تشعر بالذل والهوان، خطتْ جانباً وخارج مجال رؤيته. كانت عويناته بلا مسندين على الأنف وكانت الإطارات تنزلق إلى الأسفل. كانت تريد، برقةٍ، أن تدفعهما إلى الأعلى. بدأ الطلبة الجامعيون يصرخون: «ياوبانغ إلى الأبد!».

كانت حلاوة قطعة الكعك التي تناولتها في وقتٍ سابق أثناء النهار قد علقتْ في فمها. نتفٌ من أزهار القرنفل الورقية لصقتْ بفردتيْ حذائها وجرّبتْ أي - مينغ أن تزيلها بدعك حذائها بالكونكريت الرصاصي، من دون أن ترغب بأن تجرجرها معها، كالدليل، إلى منزلها. وجدتْ دراجتها الهوائية وراحتْ تقودها بتؤدة في طريق أوبتها إلى البيت، عكس التيار المستمر من أهل بكين المتجهين نحو «الساحة».

***

في مساء ذلك اليوم، قرفصتْ مع ييوين في ساحة الدار وغسلتا الأطباق معاً. «حسناً، أخبريني»، همستْ ييوين، «ما الثورة على وجه الدقة؟» سعلتْ أي - مينغ برفق وانبرتْ قائلةً: «ماذا؟».

«حسناً، حسناً»، قالت ييوين، «إنني أمزح لا غير. ظننتُ أنني أقدّم لكِ المساعدة كي تدرسي! لكن، بجد، ألا تعتقدين أن المواطنين يجب أن يملكوا ذواتهم، أن يكونوا شعبهم نفسه؟ أليست الذات هي مجرد جسد متّحد بمنظومة فكرية؟».

«الذات؟».

---

1 - جدار الديمقراطية Democracy Wall: بين تشرين الثاني «نوفمبر» 1978 وكانون الأول «ديسمبر» 1979، رفع آلاف الأشخاص «ملصقاً شخصياً هائلاً» على الجدار القرميدي الطويل لشارع كسيدان، بمقاطعة كسيدان في بكين، احتجاجاً على قضايا سياسية واجتماعية في الصين. تُعدُّ هذه الحركة بداية الحركة الديمقراطية الصينية، كما تُسمى أيضاً: حركة جدار الديمقراطية - م.

تزحلق طبق بلاستيكي من بين أصابع ييوين المكسوة بالصابون وبقبق عائداً إلى الماء. كانت تنتعل حذاءً خفيفاً من قماشٍ غليظ ونعل مطاطي، قميصاً قطنيّاً «تي شيرت» أبيضَ استخدمته بوصفه ثوباً، ومنديلاً كبيراً ورديّاً مزداناً بالرسوم. كانت قد قصّتْ شعرها قصّاً قصيراً عنيفاً. انتبهتْ أي - مينغ أنها كانت تحمل زجاجة رشاش وبين الحين والحين كانت تبخ غيمةً كبيرةً من طارد الحشرات المصنوع في المنزل على ساقيها العاريتين. حين تلسعها حشرة، كانت تربتْ بخشونةٍ على ربلتيْ ساقيها وفخذيها كما لو أنّها عائدة لشخصٍ آخر.

«صديقي من جامعة بيدا»، قالت ييوين، كما لو أنّ لديها أصدقاء ذكور في جامعات أخرى، «يقول إن آلاف الملصقات الجدارية التي تطالب بالإصلاح رُفعتْ في الأربع وعشرين ساعة المنصرمة. كان أعز أصدقائه يحمل شعاراً إلى [الساحة] البارحة. أتعرفين ماذا تقول الراية؟ تقول: [روح الصين.]». تنهدتْ ودعكتْ قدر الأرز الخاص بأسرتها. «تعيينات الوظائف مثيرة للشفقة في أيامنا هذه... مَن يدري أين سيحررونا من أعبائنا آن تخرجنا؟ لديَّ ابنة عم تعمل بمفردها في مصنعٍ متوقف عن الإنتاج في [محافظة شآنتسي]. بمفردها بكل معنى الكلِمة! كان من المفترض أن تعمل محاسبةً، أيّ مهنةٍ هذه؟».

«إن تدرسي في [جامعة بكين] سوف ينتهي بك المطاف بمهنةٍ جيدة. ألا تدرسين فيها؟».

«بكين!» بدا الوجوم على محيا ييوين. «يلزمنا جميعاً أن نذهب إلى [الغرب]. أميركا تملك ماضياً والأميركيون يملكون مستقبلاً، أيضاً. أما نحن، فماذا نملك؟». صفعت الماء. «هِي، أيَّ نوعٍ من موسيقى الروك تحبين؟». كان قميصها القطني - ثوبها قد تبلل بالماء في منطقة الفخذين وتزحلقتْ فقاعات الصابون حتى بلغتْ ركبتها.

«هل ثمة أنواع مختلفة؟».

قهقهتْ ييوين. «من مثل [طراز الريح الشمالية الغربية]. هل تحبين

هذا الطراز؟ دعينا نغني شيئاً ما. هل تعرفين شيئاً ما يغنيه [الملاك الأبيض]؟ أو [عيد العمال]».

طوال وقت ما بعد الظهر، كانت أي - مينغ تقرأ مجلة «*دع العلوم الطبيعية تتبارى*» وكان رأسها مكتظاً بالاضطرابات الجيولوجية. «لستُ جيدةً في تذكّر الأغاني».

«أي - مينغ، فتاة الريف الصغيرة. أخبرني أبي أن أباكِ اعتاد أن يكون موسيقيّاً! هل هذا صحيح؟ مثل موسيقي الروك؟ هِي، هيا، إنكِ لستِ، حقيقةً، خجولةً إلى هذه الدرجة؟ صحيح؟».

كان هذا أسوأ من الامتحانات القومية. لم يكنْ لدى أي - مينغ أدنى فكرة ماذا يُحتمل أن يكون الجواب الصحيح. لحسن الحظ لا يهمّ الأمر لأن يبوين لديها مونولوجها الخاص الحيّ. بدأتْ تغني الآن بمفردها: «*لم أتوقفْ قط عن سؤالكِ: متى تأتين معي؟ لكنكِ دوماً تضحكين عليَّ لأنني لا أملك شيئاً! إنني أعطيكِ طموحاتي وحريتي، أيضاً*».

أحد أفراد الجيران، وهو غلام يُدعى «البطيخ الأحمر»، بدأ يغني معها. كان صغير السن لكنه ذو صوت قوي، طازج. «*أودّ أن أمسك بيديكِ. تعالي معي...*».

هبتْ يبوين واقفةً، كان ثوبها الصغير صغيراً جدّاً لأيّ شيء.

«أتريدين المجيء معي إلى [الساحة]، أي - مينغ؟».

«لا أستطيع».

«إذن، تعالي معي غداً». قلبتْ يبوين دلو الماء المكسو بالصابون، أفرغته، ومن ثم وضعت الأطباق النظيفة في الداخل.

«كيف هو شكل صديقكِ؟» سألتها أي - مينغ.

نهضتْ يبوين على قدميها، تمايلتْ ببطء، فعقعقت الأطباق مثل طيور مجلجلة. ابتسمتْ بسخرية. «إنني أحب أن تتركي شعركِ ينسدل».

غطستْ أي - مينغ يديها في طبق الماء العائد لها وقالت: «يبوين، من أين حصلتِ على المسجل كاسيت العائد لك؟».

«من [الشفاه المكتنزة] في ناصية الشارع. أتريدين واحداً؟ صاحب المتجر يبيعني بسعرٍ جيد فعلاً».

«أريد واحداً. لأبي».

«مؤكد، في أيّ وقت تشائين. اقرعي على نافذتي. سنذهب معاً».

***

«لسنا من [الحرس الأحمر]! نحن البقايا الناجين من جيل [ميّ فورث]. ألا تعرفين الاختلاف؟». ساعة أي - مينغ المنبهة لم تُصدر صوتاً حتى الآن، لا بدَّ أن الوقت لا يزال مبكراً. أو ربما فات الأوان، منتصف الليل، إلّا أنّها تعرّفتْ على صوت يوين فوراً.

«[الملكة - الأم للغرب]! لقد نحينا جانباً كل الأحلام لكِ وانظري إلى أيّ رعبٍ وصلتِ». جلستْ أي - مينغ في سريرها. بدا والد يوين مُنهكاً. بدا صوته كأنه ينشطر إلى ثلاثة أقسام فيما هو يصرخ بصوتٍ أعلى. «الاحتجاج على الحكومة في تسهونغ نانهي في منتصف الليل! يلقون القبض عليكِ! أنتِ لستِ ابنتي فعلاً، صحيح؟».

أم يوين دأبتْ على أن تكرر الكلمات عينها المرة تلو المرة: «مخاطبة الزعماء بأسمائهم الأولى!».

«إذن ماذا لو خاطبتُ لِي بينغ[1] باسمه؟ إنهم مجرد بشر»، صاحتْ يوين. «للبشر أسماء! لماذا لا تفهمين هذا الأمر؟ أنتِ لديكِ [الثورة] كي تؤمني بها، لكن ماذا لدينا؟».

صُفق بابٌ. شخصٌ ما كان يبكي، لا بدَّ أنها يوين. لكن، ربما، والد يوين.

جلستْ أي - مينغ. لم يتكلمْ أحد بمثل هذه الطريقة، لذا فإن الفصل الإضافي كله لا بدَّ أنه كان حلماً. بأناةٍ، انتظرتْ أن تثوب إلى رشدها. الأطياف سقطتْ بهيئة أمواج على ملابس السرير ولا شيءَ في الحجرة بدا

---

1 - لي بينغ (ولد العام 1928): سياسي صيني، رابع رئيس وزراء لجمهورية الصين الشعبية للمدة بين 1987 - 1998 - م.

ساكناً. تشبثتْ بملاءة السرير وتذكرتْ ثوب يوين الوردي الذي تمدد، مغطياً إياها، عابقاً بالياسمين، حتى مع استمرار المناقشة، بصورةٍ متقطعة، سمعتها بالمصادفة جزئيّاً فقط، وراحتْ تهدهدها كي تعود إلى النوم.

***

«لئن كان بمقدوركِ حل مسألة في الفيزياء، يمكنكِ إذن أن تحلي هذه». كان «طائر الهدوء» ينظر من فوق كتفها، في وقتٍ لاحق من صباح ذلك اليوم، وهو يتفحص أسئلة الدراسة الموضوعة على طاولة كتابة أي - مينغ. «كل ما يتعيَّن عليكِ أن تفعليه في هذا السؤال الذي يتطلب تحليلاً أو تفسيراً هو أن تُظهري فهماً سياسيّاً صائباً. في اعتقادي عليكِ أن تقومي بدراسةٍ أكثر دقةً وتمحيصاً لفكر ماو تسي تونغ الماركسي - اللينيني، بخاصةٍ هذا الفصل المتعلق بعلم المنهج، والمادة أو المادية باعتبارها واقعاً موضوعيّاً...».[1]

كانت بذرتا شمّام قد علقتا بيده، ولاحظتْ هي بذرتين أخريين على يدها اليسرى أيضاً. كانت هذه البذرات الأربع قد اعترضتْ سبيل كل الأشياء التي كان يقولها سبارو.

بعد أن أغلق أبوها الباب ثانيةً، عادتْ للنظر عبر الشباك. بطبيعة الحال، الناس في الخارج، خالات وعمات الجيران، يوين والبطيخ الأحمر، يمكنهم أن يروها مثلما تستطيع هي أن تراهم. كانوا يأخذون الغسيل إلى الأسفل قبل أن يستأنف المطر هطوله، وما من أحد أعار انتباهاً لها هي الجالسة بنحوٍ مزرٍ بين أكداس الكتب خاصتها. كانت عينا يوين منتفختين. كانت تغني بنحوٍ فاجعٍ لنفسها:

نشأتُ تحت العلَم الأحمر.
أقسمتُ.
أن أجرؤ على التفكير، أن أفصح عن رأيي بحرية،

1 - في الفكر الماركسي - اللينيني يُطلق على المادية: المادية التاريخية - م.

ومن دون تردّد أو خوف، أن أؤدي عملاً.
أن أكرّس نفسي لـ «الثورة».

كان للهواء القبلة المثلجة للشتاء، الذي كان مثاليّاً، لجنازة. هو ياوبانغ كان سيبرهن ذلك. مضى أسبوع منذ الإعلان عن وفاته، واليوم، السبت، سكان المدينة بأسرها كانوا ذاهبين إلى «جادة تشانغآن» كي يعربوا عن تقديرهم واحترامهم. سبارو، على أية حال، قال إنهم ليسوا ذاهبين، «ساحة تيانانمين» كانت قد وضعتْ حولها المتاريس، لذلك سوف يراقبون المَشهد على تلفزيون المنطقة السكنية. «التلفزيون أفضل»، قال. كان أبوها قد سمح لأحد زملائه في العمل أن يقص شعره، وهي لم تعرفْ كم احتسى الرفيق من شراب الـ باجيو الكحولي، إنما بدا كل شيء غير مناسب نوعاً ما. وجدتْ أنه من الصعب أن تتجادل معه، قَصّة الشّعر القصيرة السيئة تلك أثارتْ قدراً كبيراً من الشفقة. في غضون ذلك كانت ماما قد أعلنتْ بنحوٍ غير متوقع أنها ذاهبة إلى موكب الجنازة لأن ذلك هو الشيء الصائب الذي يجب القيام به. «يمكنكِ أن تأتي معي، أي – مينغ. إن شئتِ».

أتذهب أم لا تذهب؟ في النهاية، قَصّة الشعر السيئة هي التي فازتْ.

«حسناً. سأبقى مع بابا».

لئن كانت لينغ قد أصابها الأذى فهي لم تُظهر ذلك. كانت قد انتعلتْ فردتيْ حذائها الجديد ومشتْ بخطى واسعة أنيقة. كانت أمها أنيقةً بنحوٍ لا ينضب، كما لو كانتْ غريبةً في منزلها هي، وكانت هي كذلك. لم تسكنْ أي – مينغ معها منذ أن كان عمرها ثلاثة أعوام، ومع ذلك لم تكنْ تلك غلطة لينغ، كانت ما فتئتْ تشعر كما لو أنّ لينغ تمثل فقط دور أم. كانت أي – مينغ تحس على الدوام أنها ترتاح أكثر مع خالة أمها، ذه أولد كات، وهي جامعة الكتب النادرة التي كانت تدير مكتبةً متنقلةً، كانت تتنقل بها من مكانٍ إلى آخر في مؤخرة شاحنة خضار. كانت أولد كات

تقيم وحدها في شنغهاي - «إنني امرأة حديثة وحيدة» - وكان عمرها يناهز السبعين عاماً.

كان من المزمع أن تبدأ مراسم الجنازة في الساعة العاشرة صباحاً، لذا تناولت أي - مينغ وسبارو الفطور على مهل. قرأ سبارو الصحيفة وطالعتْ أي - مينغ بالتناوب *«مجموعة رسائل تشايكوفسكي»* و*«فن الحرب»* لـ سون تسو، وكان الصوت الوحيد المسموع هو قرقعة الصفحات وصوت أبيها وهو ينخر برفق ردّاً على مقالةٍ ما أو ربما مجرد إعلان. كانت [إذاعة بكين] تعلن عن أشياء يعرفها الجميع، ومن ثم تكررها مجدداً. حفاظاً على الأمن والسلامة، أُغلقتْ «ساحة تيانانمين» بوجه الملأ، وتعيَّن على الناس أن يحتشدوا في الجادات المحيطة بـ«الساحة»، إلخ... إلخ. أدركتْ أي - مينغ أنها كانت تتطلّع إلى الثواني القليلة من الصمت خلال مراسم الجنازة لأنه، أخيراً، سوف تكفّ «الإذاعة» عن إعطاء المحاضرات.

صبَّ لها سبارو كأس عصير الإجاص. «إنه لشيء غريب أن تغلق الحكومة [الساحة]. أعتقد أن الرفيق هو ياوبانغ يتمتع بشعبيةٍ واسعة...».

أوه، يا لـ«هو» المسكين! فكرتْ. كانت قد شاهدتْ صوراً فوتوغرافية لـ هو ياوبانغ طوال حياتها كلها، رأسه الشبيه بالبيضة، الرجل الذي دار بخلده أن بوسعه أن يغيّر الصين من الداخل، أن يُدخل الحرية الاقتصادية خطوةً خطوةً، أن يخدم الرخاء الاقتصادي من خلال رشفةٍ واحدة بين الحين والحين. تساءلتْ أي - مينغ: هل يمكن أن تنفع طريقةٌ كهذه؟ هل يوجد شخصٌ في هذا العالم يمكنه أن يتذوّق شيئاً لذيذاً - الحرية الاقتصادية والإصلاح السياسي - وهو طعم مالح ومسمِن وحلو المذاق وواعد، ويكون قانعاً فقط بلقمة واحدة؟ مَن يقدر أن ينتظر بصبر ما يقرب من *بليون فرد آخرين* كي يذوقوا الطعم أيضاً؟ لا، كل فرد يحاول أن يحصل على لقمةٍ ثانية، ثالثة، طاس كامل لهم جميعاً. بالطبع، أخفق هو ياوبانغ، وبالطبع كان هو قد طُرد من الحزب! أفكارها

شوشتها. كل أنواع الأفكار الخاصة كانت قد تفتحتْ لدى رؤيتها فستان بيوين الوردي. حتى في هذه الأزمنة الحديثة، قلة من الناس يلبسون اللون الوردي وافترضتْ أي - مينغ أن بيوين قد صبغتْ فستانها بنفسها. ماذا بشأن ذلك الغلام صاحب العوينات الطبية التي تتزحلق على أنفه؟ كانت تريد أن تصل إليه وتلمس خصره النحيل وتسأله... تسأله ماذا؟ *ألا يبدو كل شيء منافياً للعقل بالنسبة لك؟ لماذا لا نملك كلمات لما نشعر به حقيقةً؟ ماذا جرى لآبائنا؟*

دخلتْ إلى غرفة نومها ولأن الطقس بارد، لبستْ ثياباً تحت الثياب الخارجية، قدمها اليسرى، ومن ثم اليمنى، كافحتا كي تجدا طريقهما عبر سروالها الجينز. استلقتْ في فراشها وهي ترتدي سروالها الجينز فقط ومن دون ملابس أخرى، يدها تتحرك بين الجلد العاري لبطنها وسُمك قماش الدنيم القطني المتين. كانت تتصوّر أن العالم كله موجود بين هذين الإحساسين، العري والكساء، بين اللين والخشونة، بين الداخل والخارج. كيف سيكون الحال إذا ما غادر المرء البلد تماماً؟ الآن، لئن حصل، هذا التغيّر في سياسة الحزب يمكن أن ينفيكَ بنحو مفاجئ إلى مجاهل الصحراء. لبستْ قميصاً ومن ثم كنزةً صوفيةً سميكةً. كان جلدها العاري يبدو كما لو أنّه في انتظار شيءٍ لن يحدث أبداً. لا شيءَ ينسجم بشكل مناسب، يتعيَّن عليها أن تغيّر ثيابها كلها وتفصّل مجدداً كل شيء بنحوٍ مختلف. أريد أن أعيش، فكرتْ، إنما لا أحدَ هنا يعرف كيف.

***

أعلن أبوها على حين غرة أنه، هو أيضاً، يريد الذهاب إلى «ساحة تيانانمين» كي يعرب عن احترامه وتقديره لـ هو ياوبانغ، وأنه من الأفضل أن يمضي الآن لأن الشوارع لن تكون مزدحمةً بالبشر بعد الآن. بدا كما لو أنّه قد صحا تواً من نومه وعرف مَن هو الذي فارق الحياة.

«طيب»، قالت أي - مينغ. «سآتي معك».

جلس «طائر الهدوء» على الفور كي يطوي قرنفلتين ورقيتين. حين

فرغ من ذلك، بعنايةٍ ثبّت الأولى بدبوس في سترة أي - مينغ وثبّت الأخرى في سترته.

انتعلا حذاءيهما، فكّا دراجتيهما الهوائيتين المربوطتين وراحا يقودانهما ببطء إلى خارج الزقاق. كم كان أبوها طويلاً وهزيلاً. ربما هو شيء لا يمكن اجتنابه أن رجلاً يعمل بالتسليك طوال سني حياته سوف يبدأ بأن يغدو شبيهاً بالسلك هو نفسه. لم تكنِ الشوارع الخارجية مزدحمةً. قلة من المراهقات يجلسن على أصص أزهار في «جسر موكسيدي»، أيّ واحدة منهن لم تكنْ تملك جاذبية يبوين، التي كانتْ بشرتها شاحبة عطِرة مثل لب إجاصة. ركبتْ أي - مينغ بجانب سبارو، الذي أخذ يتمتم بسيمفونية بيتهوفن الخامسة، كما لو أنه يريد تسليتها.

«بابا، دعني أضبط لك تسريحة شعرك».

ابتسم، وهو يهبط بفعل الجاذبية. «[أولد بي] قال لي إن هذه التسريحة ستجعلني أبدو شاباً».

«إنها عقفاء قليلاً، هذا هو كل ما في الأمر». كل حرب تعتمد على الخداع، فكرتْ، وتعتمد على عنصر المباغتة.[1] «على أية حال، ما رأيكَ لو أنني قدمتُ طلباً للدراسة في الجامعات الكندية؟».

لم تلاحظْ تغييراً في سرعة سيره، فقط ثمة انحراف بسيط في دراجته الهوائية نحو رصيف المشاة الذي صححه في الحال. ألحتْ عليه. «قالت يبوين إن جميع معارفها في «جامعة بكين لإعداد معلمي المدارس الابتدائية» أرسلوا طلبات للدراسة في أميركا. مع أنّ كندا أقل غلاءً. تصوّر إذا ما فزتُ ببعثة دراسية! يمكنكَ أن تصاحبني. لأنه... أنا لا أريد الذهاب بمفردي». بدا أن تهوّرها قد أتى من الشوارع نفسها. هذا ما يحصل حين يموت السياسيون على حين غرة، فكرتْ. إنه أشبه برِجل منضدة تنهار وتتزحلق الأشياء الموضوعة عليها.

---

1 - كل حرب تعتمد على الخداع...»: اقتباس من سون تسهو: «*فن الحرب*» (ستوكهولم: مطبعة تشيرون أكاديمك، 2015): 33 - ك.

«الجميع يقولون إن المناخ بارد جدّاً في كندا»، قال سبارو. أسرع قُدُماً. «أليس الإنكليزية هي أسوأ مادة دراسية بالنسبة لكِ؟».

«ابنتكَ بوسعها أن تكون جيدة في أيّ شيء إذا ما قدمتْ طلباً هي بنفسها».

لم يكنْ لدى سبارو أيّ جواب جاهز عن ذلك. لحسن الحظ، بالنسبة له، كان الطريق قد أصبح مزدحماً. جنح جنوباً، وأوغل في الأزقة الأصغر في داخل «الطريق المستدير الثاني». وهو يدور حول زاويةٍ ما، كاد يصطدم برتلٍ من عمال المدينة كانوا يكتسحون الشارع، لكنهم واصلوا العمل كما لو أنّه غير موجود ولن يكون. كان بعضهم يبدو أكبر بخمسين سنةً من بغ موذر نايف.

«أي – مينغ»، قال حين لحقتْ به. «في الأول بكين. والآن كندا. ما إن نصل إلى كندا، ربما سيكون مبتغاك القمر».

«لقد فعل ذلك أشخاص آخرون. حتى الدراسة في القمر».

«تعوّدتُ أن أتخيّل أني أذهب إلى [الغرب]، أيضاً، وأني أجلب أفراد أسرتي معي».

انتظرته حتى يكمل، إلّا أنَّ فكرة أبيها ظلتْ نصف فكرة. كان الشارع محصوراً، إنما مع ذلك واصل قيادة دراجته الهوائية بطيش إلى داخل المتفجعين، مندسّاً بين الناس مثل زلابية بين شرائط المعكرونة. كانت السماء شديدة البياض، كما لو أنّ الألوان كلها قد أُزيلتْ، كانت هنالك أزهار ورقية في الأشجار وعلى الأرض، على ستر» جمع سترة» جميع الأشخاص الذين من حولهما، وكان الهواء لا يعبق برائحة الغبار بل برائحة مرق دسم، يسيل له اللعاب. على طول الطريق، كانت العوائل تجلس كي تتناول غداءها. وهو يواجه هذا الازدحام الثابت، ترجل سبارو من دراجته الهوائية أخيراً وشرعا يمشيان، بطريقةٍ منافيةٍ للذوق السليم، عكس تدفق الحشد. كانت هي وأبوها غير منسجمين على الإطلاق مع اللحظة. سارتْ أي – مينغ

ورأسها مطأطأ؛ لياقة بكين الرمادية، الطيبة التي بلون المغرة الخاصة بها، تنتميان إلى أناسٍ كانوا يعرفون متى يصلون إلى الجنائز ومتى يتناولون غداءهم.

أصبحتْ واعيةً بحشدٍ جديدٍ الذي كان يدنو منهم. كانوا ينشدون وفي أول الأمر لم تفهم الكلمات التي كانوا يردّدونها، كانت مكبرة الصوت التي يستخدمونها ضعيفةً ورخيصةً. وفي النهاية رأتْ شابين، كل واحد منهما يلبس عصابة ذراع حمراء اللون، ويحمل شعاراً يقول: «نحن شباب. بلدنا بحاجة إلينا». كان الاثنان فارعي القامة بصورةٍ غير طبيعية، وكان شعارهما يتمايل عالياً في الهواء. خلفهما، كان الطلبة الجامعيون ينضحون عرقاً، أزياؤهم الرسمية أمستْ غير مثبتة في مواضعها، بعضهم بدوا كما لو أنّهم خاضوا قتالاً. وكانوا يبكون. كان حبهم الشديد لـ هو ياوبانغ مخلصاً، فكرتْ أي - مينغ فجأةً، في حين كان حبها الشديد على الدوام لاشخصي.

«هل نحن نحب بلدنا؟».

«نعم!».

«هل نرغب بالتضحية بمستقبلنا من أجل الشعب الصيني؟».

«أجل!».

«هل ارتكبنا شيئاً خاطئاً؟».

باكياً، أجاب: «لا! لا!».

كانا يمرّان الآن، كل منهما ملتصق بالآخر، مثل دميتين ورقيتين.

كانت الأسر التي تتناول غداءها ترفع بصرها ناظرةً إليهما من موائدها. بعضهم وقفوا على أقدامهم. سبارو، بدوره، توقف عن المشي وكان ينعم النظر إلى موكب الطلبة. *ماذا حصل، ماذا حصل*، كانت الكلمات تتردّد من فردٍ إلى فرد. انفصل غلام عن الرتل الطويل وعلى الفور طوّقوه. قال إن ممثلي الطلبة من الجامعات حاولوا تقديم التماس للحكومة. ثلاثة شبان جثوا على درجات «قاعة الشعب الكبرى»، وظلوا

راكعين على ركبهم على مدى خمس وأربعين دقيقةً بينما حولهم من الجهات كلها كان الطلبة ومواطنو بكين صاحوا عليهم كي ينهضوا، أن يكفّوا عن الركوع. مع ذلك، ظلّوا على حالهم، حاملين الالتماس عالياً في الهواء كما لو أنّهم أطفال أمام آبائهم، أو عبيد أمام إمبراطور. لكن ما ممثل من الحكومة تبدّى للعيان. طوابير من رجال الشرطة، بعمق عشرين رجلاً، وقفوا بين الحشد و«القاعة الكبرى». البارحة، مئة ألف طالب جامعي ساروا نحو «ساحة تيانانمين» وباتوا هناك، بحيث إنّه حين أُغلقت «الساحة» صباحاً، كانوا قد أصبحوا في الداخل أصلاً. «نحن نريد فحسب أن نعبّر عن تقدير واحترامنا لـ هو ياوبانغ، على غرار أولئك الذين قبلنا ممن عبّروا عن إجلالهم في أوقات الحِداد». حتى رجال البوليس نادوا على الطلبة أن ينهضوا. سألونا لماذا يتحتّم علينا أن نخاطب الحكومة ونحن راكعون على ركبنا، إنما لم يستطعْ أحد الإجابة. كان الموظفون الحكوميون ينظرون إليهم من داخل الأبواب الزجاجية وفقط موظف واحد، وهو بروفيسور من بيدا، تبدّى للعيان أخيراً وحاول أن يجرَّ الشبان إلى الأعلى.

«إنما لم يكنْ هنالك عنف»، قال الغلام. «لم يكنْ هنالك عنف. البوليس اتفقوا معنا. كان بعضهم يبكون، كذلك. نحن كلنا أشقاء».

بدا مصدوماً. استدار على عقبيه وانضم مجدداً إلى الموكب، ولوى ذراعه وشبكها مع الأذرع المتشابكة.

«صفوف متخصصة بالمقاطعة!».

«يجب أن نتحلى بالجرأة كي نقف!».

طفا إعلان: «على وفق الدستور الصيني، المادة 35، للمواطنين الحق في التكلّم بحرية وفي التجمع». اجتاحت الجادة موجة من التصفيق. كان الغبار قد تسلل إلى عينيْ أي - مينغ، حاولت أن تفركهما إلّا أنَّ الفرك زاد الطين بلةً. بدا الطلبة مسحوقين، كانت أزهارهم الورقية قد تسطحتْ على صدورهم. في الحقيقة، فكرت، لقد ظهروا كأنهم قادمون

من بلدٍ آخر، مع أنّهم لم يأتوا إلّا من منطقةٍ لا تبعد سوى بلوكات قليلة. في ذهولها، تزحلقت الدراجة الهوائية من بين يديها وضربتْ بقوة ركبةَ شخصٍ آخر مُحدِثةً دوياً. خفضتْ رأسها وبدأتْ تعتذر له، متوقعةً أن يسميها شخصٌ ما مغفلة ريفية بلهاء، لكن بدلاً من ذلك قوّمت الدراجة الهوائية نفسها وعادتْ لتطفو بين يديها. «الخير لكم أيها الطلبة»، قالت امرأةٌ ما. كانت نبرة صوتها واخزةً، كانت تدعك ركبتها. «أنتم أشجع منا. أشجع بكثير. حين تجمع أبناء جيلي في [ساحة تيانانمين]، كان العالم مختلفاً». رفعتْ أي – مينغ عينيها، لكن إما غابت المرأة عن الأنظار أو أن أي – مينغ لم يكنْ باستطاعها أن تلصق الصوت على الوجه. في كل الجهات المحيطة بها، كان أشخاصٌ أكبر منها سناً يتطلعون إليها كما لو أنّها وهبتهم فلس الحظ[1]. لم يكنْ بوسعها أن ترى بشكلٍ مناسب. أحسَّتْ كما لو أنّ أرصفة المشاة، المناضد والكراسي كانت كلها تغيّر أمكنتها، إلّا أنّها كانت جامدةً بلا حراك. «إنني آسفة»، همستْ. كل شيء تدفق أمامها، أصبح الحشد أكثر كثافةً ومن ثم ارتخى ببطء. ولم تتمكنْ من الإحساس بثقلها مجدداً، بساقيها، بصلابة الدراجة الهوائية إلى أن وصلوا تقريباً إلى «الساحة».

سبارو، بدوره، كان هادئاً. كان قد فقد زهرته الورقية وبدتْ سترته عاريةً. كانت دراجته قد صرّتْ. فكّتْ زهرتها هي، سحبته إلى موقفٍ ما، وثبتتها بدبوس له. وراءه، كانت فلول موكب الطلبة قد انعطفوا يميناً، شمالاً صوب «منطقة الجامعة». من أيّ عالمٍ أقبلوا وإلى أيّ عالمٍ يرجعون الآن؟.

«أي – مينغ، بماذا تفكرين؟».

كيف كان شكل «الساحة» صباح هذا اليوم آنَ بزغت الشمس على مئة ألف شاب وشابة تكوّروا معاً على الكونكريت؟ شعرتْ بالحَرَج لأنها،

1 – فلس الحظ lucky money: مبلغ صغير (استجلاباً للحظ) يُعاد إلى المشتري، وذلك من متلقي المال بموجب بيع أو عقد – م.

رداً على سؤال أبيها، هي، التلميذة الشابة الموهوبة، لا يمكنها سوى أن تفكر في أغنية ييوين الأثيرة: *«ليس السبب أنني لا أفهم. السبب هو أن الأشياء تتغير بسرعةٍ فائقة»*.

أعاد سبارو صياغة سؤاله: «بماذا يفكر هؤلاء الطلبة؟».

كانوا قد دخلوا «الساحة» الآن. ظلّتْ فرق الشرطة، تحرس «قاعة الشعب الكبرى»، مع أنّها ربما تكون خاليةً. كان النهار يتقدم بسرعة. قلة من الطلبة أحياء الضمير كانوا يلملمون القمامة بدقةٍ شديدة، لكنهم تركوا الأزهار الورقية، التي كانت تتشقلب مثل غبار الطّلْع كلما هبَّ نسيمٌ. كانت صورة هو ياوبانغ المكبرة تكبيراً هائلاً تخفّض بصرها ناظرةً بحزنٍ شديد من «النصب».

«أتيتُ إلى هنا آنَ كنتُ طفلاً صغيراً»، قال سبارو. «بغ موذر هي التي أحضرتني. قالتْ لي إن [الساحة] كونٌ صغيرٌ لجسم الإنسان. الرأس، القلب، الرئتان... قالتْ لي ألّا أضيع».

«هل ضعتَ؟» سألته أي - مينغ.

«بالطبع. الفضاء واسع جدّاً. إنه يستوعب أكثر من مليون نسمة حتى يمتلأ. حتى في العام 1966، لم يكنْ بوسع» الحرس الأحمر» أن يفعلوا ذلك».

«بابا»، قالت أي - مينغ. «أودّ الذهاب إلى خارج البلاد». بقي جزءٌ معينٌ منها لم تُنزعْ منه السدادة، فكرتْ، لن يأتي إلى الحياة ما لم يُمنح فضاءً.

«يحتاج المرء إلى المال كي يذهب إلى خارج البلاد. أملكِ وأنا ليس بحوزتنا هذا النوع من المال».

«الأشخاص الذين لا يملكون مالاً يسعون إلى العثور على مؤسساتٍ تتولى رعايتهم في الخارج».

لزم سبارو الصمت.

«*فن الحرب*»، فكرت أي – مينغ، وهي تشعر بالخجل. كوني مهذبة ولطيفة! كوني مهذبةً ولطيفةً! واستخدمي جواسيسكِ في كل ضروب المهن. «إن كنتَ تعرف شخصاً ما في كندا يتمكن من رعايتي، يمكنني الذهاب».

نظر أبوها إليها كأنه ينظر إليها من مسافةٍ كبيرة. هل كانت صريحةً جدّاً؟ أكان جلياً أنها غزتْ خصوصيته؟

«قالت لي ييوين»، قالت باستعجال، وهي تكذب بنحوٍ سيّئ. «قالت لي إن لها عمّاً في أميركا. لهذا السبب قدّمتُ طلباً للدراسة في ما وراء البحار. كنتُ أعتقد أننا ربما نعرف شخصاً ما هناك».

«لكن لماذا أعرف شخصاً ما في كندا؟» سألني أبي. كان صوته رقيقاً بنحوٍ ثاقب، يخزها مثل عود نبش الأسنان.

«لا أدري... لا بدَّ أنك تعرف موسيقيين ممَّن ذهبوا إلى الخارج»، قالت بطريقةٍ هزيلة. «بدرجاتي. إذا ما درستُ بجدٍّ ومثابرة، يمكنني أن...».

«بيدا هي أفضل الجامعات في البلد. أمكِ وأنا لا نريدكِ أن تدرسي في كندا، إنها في أصقاع الدنيا».

«لكن بوسعكما أن تأتيا معي!».

هزَّ سبارو رأسه، لكن ليس بطريقةٍ يُفهم منها: لا.

قالت: «ذات مرة قلتَ لي إنكَ آنَ كنتَ شاباً، كنتَ تريد أن تشد الرحال إلى الخارج. حتى تكتب موسيقاك. كي تستمع إلى تأثيرات أخرى. لماذا فات الأوان؟ بابا، كنتَ تعمل في المصنع على مدى عشرين عاماً وهذا وقت طويل في حياة المرء، أيّ امرئ. في اعتقادي... لديَّ إحساس أن الأشياء آخذة في التغيّر. المسألة الجوهرية في إصلاحات هو ياوبانغ تكمن في منح الفرص لأشخاصٍ من طينتكَ، أشخاص عوملوا بطريقةٍ غير عادلة».

«هل هذا هو ما تعتقدينه، أي - مينغ، أي إنني عوملتُ بطريقة غير منصِفة؟» لمس الزهرة التي كانت قد ثبتتها بدبوس في سترته، كما لو أنّه انتبه إليها توّاً.

كانت تودّ أن تتكوّر وتستحيل كرّةً. مع أنّ نيتها سليمة، كانت صراحة كلماتها تجعلها تشعر كما لو أنّها تخزه المرة تلو المرة بعصا مستدقة الطرف.

بعد مضيّ دقيقة، قال سبارو: «وماذا بشأن أمكِ؟».

«أمي عاشتْ ما يقرب من عشرين عاماً بمنأى عنا. ما هو الاختلاف بالنسبة لها؟».

«لقد عاشتْ بعيدةً عنا لأن الحكومة هي التي تحدد مواقع وظائفنا وسكننا».

«لكن لماذا؟ لماذا لا نختار المواقع التي نريدها نحن؟». قبالتهما، في فراغ [الساحة]، كانت هنالك بوسترات تطرح هذا السؤال نفسه. لم تكنْ وحيدةً في فكرتها هذه، ليس لديها شيء تخشاه. بابا لا يعرف حتى إلى أيّ مدى هو خائف، فكرتْ. تعوّد جيلها على هذا الأمر، إنهم حتى لا يعرفون أن الخوف هو العاطفة الأولية التي يحسّونها.

«إنني اخترتُ حياتي، أي - مينغ»، قال. «إنني اخترتُ الحياة التي يمكنني أن أعيش بها. ربما لا تبدو بتلك الطريقة آنَ ينظر إليها المرء من الخارج».

تساءلتْ ما إذا كان يصدّق كلماته. قالت: «إنني أعرف هذا، بابا».

وقفا معاً في «الساحة» حيث أكاليل الجنازة قد خففتْ من وطأة الفراغ. كان المعمار يُقصد به أن يصنع فرداً يشعر بأنه غير مهم، إلّا أنَّ أي - مينغ شعرتْ بأنها كبيرة الحجم بنحوٍ مشوَّش، ثمة حيزٌ كافٍ هنا، الطفل، أيّ طفل، بمستطاعه أن يركض بأيٍّ طريقةٍ كانت، يتخذ أيّ شكل، لن يصادف أحداً أو شيئاً.

«أودّ أن أعرف كيف سيكون الحال في بلدٍ فتيّ توجد فيه فضاءات كثيرة»، قالت. «إن قلتَ شيئاً بصوتٍ عالٍ، تسمع صوتكَ أنتَ بشكلٍ مختلف».

أومأ سبارو برأسه.

قالت: «كندا».

***

في ذهن سبارو، رجعتْ أبيات الرئيس ماو من تلقاء نفسها:

لدينا أشياء كثيرة يلزمنا أن نفعلها
وبسرعة.
السماء – الأرض تدور
والزمن قصير.
عشرة آلاف سنة فترةٌ طويلة
وهكذا يُعدُّ الصباح والمساء.

بالقرب منهما، أمام «قاعة الشعب الكبرى» الطابور الأول من البوليس، أيضاً، بدا كأنه يذوب. ربما، فكّر سبارو، أن المرء لا يعرف حتى بأنهم أصبحوا هادئين. ربما تكون Qù مادةً تبدأ بوصفها قوةً وتتحوّل، بنحوٍ غير محسوس، إلى فقدان.

كانا قد وصلا إلى الطرف الجنوبي من «الساحة».

سألته أي – مينغ الآن: «لماذا ركع الطلبة على ركبهم؟».

«إنني أتصوّر... أنهم كانوا يريدون أن يُظهروا احترامهم. لقد اتبعوا الطرائق التي يسلكها دوماً المتوسلون مع الحكومة».

«لكن لماذا لم يظهرْ للعيان أيّ موظف حكومي؟».

«لأنه... مع أنّهم كانوا جاثين، لو أنّ عضواً من الحكومة جاء وانكب على طلباتهم، سيكون الطلبة في موقع قوة».

كانت الشمس حسنة الإضاءة لكن الريح باردة. عانقت ابنته نفسها بقوة[1]. أزهار ورقية اختلطتْ من دون نظام على الأرض، قرنفلات ورقية نمتْ من الأشجار، مع أنّ بعضها سقط وهرسها التيار الأبدي للدراجات الهوائية. سمع أجراسها ذات الرنين وكذلك موسيقى في رأسه، تهتز بارتخاء، *تنويع غولدبيرغ* الثاني عشر، صوتان اشتركا في canon مقطوع الأنفاس، مثل عقدة لا يمكن ربطها. لا يزال قادراً على كتابة الموسيقى. هذه الفكرة أربكته. ربما يستطيع الحصول على بيانو، وبوسعه أن يزور «الفرقة السيمفونية المركزية» ويطلب منهم أن يستخدم غرفة التدريب. لكن سبارو وقتئذٍ لديه صورة عن نفسه، ينتظر تحت مراوحهم التي تدور، وابتسم لأنه تصوّر نفسه يظهر في زي «معمل بكين لصناعة الأسلاك رقم 3» وقبعة العمال الزرقاء العائدة له. إن سخف تلك الصورة تركتْ فيه انطباعاً عميقاً. عمره ضربه بقوةٍ، كما لو أنّ عصابة للعينين ارتختْ بصورةٍ مؤقتة وسمحتْ له برؤية الأشياء كعهده بها.

كان يريد أن يأخذ يد أي – مينغ. في بعض الأحيان، حين ترضّ أي – مينغ ركبتها بالطاولة أو تعاني من كآبة نفسية معينة، كانت تبدو كما لو أنّها تستوطن في داخله هو أيضاً. أين وُجد الخط الفاصل بين الأب والابن أو الابنة؟ كان قد حاول دوماً أن يحجم عن دفعها في اتجاهٍ واحد، وكان خائفاً أكثر من أيّ وقتٍ مضى في أن يدفعها بقوةٍ صوب الحزب، لكن ماذا لو أنّ صمته خذلها أو خانها بطريقةٍ حاسمة؟ لكن أغلب الظن، فكّر، أن الأب يتحتّم عليه دوماً أن يملك العيوب، مكاناً ما تستطيع ابنته أن تغطس أسنانها فيه، لأنه حينذاك فقط تستطيع الابنة أن تعرف نفسها. فكّر في أولئك الطلبة اليافعين الجاثين مع التماسهم. في النهاية، سوف يُلقى القبض عليهم. إنه شيء محتوم.

---

1 – أي بمعنى أنها ضمتْ ذراعيها إلى جذعها، مثلما يفعل المرء حين يشعر بالبرد القارس – م.

«ما الذي حصل لكل تلك الموسيقى، بابا؟ ماذا لو... أتمنى لو كان بمستطاعكَ أن تذهب إلى الخارج، إلى الغرب أو إلى أيّ مكان آخر. أعتقد، لولاي، ربما كنتَ ستحاول أن تعيش حياةً أصدق؟».

هل كان كاذباً، غير أمين، تساءل سبارو. مع مَن كان غير أمين؟ ألم يقلْ ما كان يجب أن يقوله؟

«سامحني على كوني أتحدث بصراحةٍ شديدة، بابا. فقط... لقد ربيتني كي أفكّر بأفكاري أنا، حتى إذا لم يكنْ باستطاعتي أن أعلن عنها جهاراً، أليس الأمر كذلك؟ أعتقد أنه آن الأوان كي أعبّر، بإخلاص، عمّا أحسُّ به».

فظاظة الأطفال لم تكفَّ عن إثارة دهشتي.

كان يتعيَّن عليه أن يتوقف ويستريح. كان فؤاده يخفق بنحوٍ غريب وكانت يداه تبدوان مليئتين بالجروح الورقية، مع أنّه ليس ثمة جرح واضح. قبضتْ أي - مينغ على ذراعه. لاحتْ على حين غرة مرعوبةً وكان يريد أن يهدئ الرعب البادي على وجهها. بغ موذر نايف والخالة سويرل تعودتا أن ترسما أصابعهما على جبينه، على حاجبيه؛ حين كان طفلاً، فذلك من شأنه أن يساعده على أن ينعس. غير أن ذلك جرى قبل ما يقرب من خمسين عاماً، حين كانت شنغهاي محتلةً. كم هو مضحك، فكر سبارو، أن يفكر بأنه كان طفلاً ينتمي لعالم سابق. متى كفَّ أن يكون ذلك الشخص؟ سحبته أي - مينغ إلى مصطبةٍ في رصيف المشاة ومن ثم هرعتْ حتى تملأ ترمس الشاي العائد لها. عادتْ أيضاً بكرات سمك على عود. بدتْ تلك الكرات غير مستساغة على الإطلاق بحيث إنّه لوى فمه تعبيراً عن اشمئزازه. مرتاحةً، ضحكتْ أي - مينغ. احتسى شايه وتناولتْ هي كرات السمك، ملتهمةً ملوحتها وهو شيء لا يستطيع أن يفعله إلّا شخص في مقتبل العمر. قاتل رغبةً ملحةً كي يطوقها بذراعه. هل كان يريد أن يمسك بها كي يبقيها في مأمن، ساءل نفسه، أم إنه فعل ذلك لمجرد أن

لا يبقى وحيداً؟ كانت أي - مينغ في ربيعها الثامن عشر وكانت جاهزة لأن تجد بدايةً جديدةً، مختلفةً تمام الاختلاف عن بدايته هو. معرفة هذه المسألة صدمته: كانت أي - مينغ لا تزال يافعةً جدّاً، وكانت قد حكمتْ عليه في وقتٍ سابق.

***

طوال نهاية الأسبوع، كانت «الساحة» تأتي إلى ذهن سبارو مثل صوت مستمر. كان قد سمع من زملائه في المعمل أن مئات الآلاف من الأشخاص دأبوا على التجمع هناك، كانوا يكتبون رسائل علنية، مستخدمين جنازة هو ياوبانغ كحجة كي يندبوا أشخاصاً آخرين، أولئك الذين لم يُدفنوا بشكل لائق.

في يوم الثلاثاء، آنَ وصل سبارو إلى البيت قادماً من عمله، كانت أي - مينغ ولينغ مستغرقتين بالمشمشات اللائي تتناولنها وقلما انتبهتا له. كان قد بدّل ثيابه، ثياب المعمل. في الليلة المنصرمة، فيما كانت زوجته وابنته نائمتين، كان قد كتب ملصقاً جداريّاً كي يأتي به إلى «الساحة». الآن دسَّ لفة الورق الضيقة في سترته.

في الوقت الذي وصل فيه سبارو إلى «ساحة تيانانمين» كان قد حلَّ الغسق؛ آلاف من الآخرين مثله أقبلوا كي يشعروا بأنسام الهواء الطلق. وهو يقطع الكآبة اللانهائية لـ «الساحة»، شعر كما لو أنّه كان منفيّاً إلى قمرٍ بعيد. كان الاحتفاء الاستذكاري المخصص لـهو ياوبانغ قد بقي، وصلتْ أزهار جديدة وملصقات جديدة. في العام 1976، بعد رحيل رئيس الوزراء تسهاو إينلي، وقعتْ أحداث مشابهة. كان سكان بكين قد أقبلوا إلى «الساحة» وتفجعوا جهاراً، وبنحوٍ استفزازي؛ كان موته قد سمح للناس بأن يُظهروا ولاءهم لمَن غابوا عن العالم، لأشخاصٍ من طينة تسهولي. لا بدَّ أن الحكومة تعرف بأن الولاء للأموات كان إخلاصاً عنيداً لا تستطيع أيُّ سياسةٍ أن تجتث جذوره.

تناول الملصق من سترته. في موقعٍ قريب، كانت هنالك فتاتان

تمزجان الصمغ، وطلب مساعدتهما. «ما من مشكلة، أيها الجد!». قالت إحداهما. كانت لديها لكنة شنغهاي. «سألصق لكَ هذا البوستر». قرأت الكلمات المدوّنة على ملصقه، أومأتْ برأسها بنوعٍ من الاستحسان البيروقراطي، ولصقته عالياً في موقعٍ بارز. كان سبارو قد نسخ اقتباساً من الطالب الموهوب كانغ يووي، الذي كانت بحوثه التي قرأها في غرفة كاي، مع البروفيسور، سان لِي، لينغ وذه أولد كات، ولا تزال عالقةً بباله: «ومع ذلك في أنحاء العالم، الماضي والحاضر، على مدى آلاف الأعوام، أولئك الذين نسميهم رجالاً أخياراً، رجالاً صالحين، كانوا قد تعوّدوا على رؤية أشياءٍ كهذه، جلسوا ونظروا وعدّوها أشياءً متوقعة، لم يطالبوا بالعدالة من أجل الضحايا أو قدّموا العون لهم. هذا شيء مرعب جدّاً، غير مُنصف، غير عادل، النظرية الأكثر استعصاءً على التفسير، تحت السماء».

كانت الخطوط المحيطية لبورتريه هو ياوبانغ تختفي رويداً رويداً. في انفتاح «الساحة»، سمح لنفسه، لأول مرة منذ أعوام عدة، أن يتذكر. كانت تسهولي في الحجرة 103 تعزف بروكوفييف. سمفونيته رقم 3 كانت قد انتهتْ في رأسه ألف مرة، إلّا أنّه لا يقدر أن يسمع الانتهاء. أغلب الظن، الأمكنة في أنفسنا التي تبدو خاليةً كانت فقط هاجعةً، بعيدة المنال.

تسهولي، فكّر. إنني آسف لأنني أتيتُ متأخراً جدّاً. بطبيعة الحال، كان يعرف أنها صفحتْ عنه منذ أمدٍ بعيد، لماذا إذن يتمسك بذنبه؟ ما هو الشيء الذي كان يخافه أيّما خوف؟

***

في عصر اليوم التالي، تفرّس سبارو كرّةً أخرى في هيكل الراديو طراز 3812. في محطة العمل التالية، كان أولد بي والآنسة لو يتجادلان حول التظاهرات الجارية حاليّاً، التي انتشرتْ إلى درجة مقاطعة الدروس والمحاضرات من ستين ألف طالب وطالبة في تسع وثلاثين جامعة. على

الرغم من الحقيقة القائلة إن الطلبة الجامعين مُنعوا الآن من الدخول إلى الأراضي المخصصة للمعامل والمصانع، تمكن أحدهم من تهريب بعض الكراسات إلى الكافيتيريا: «تسعة أسئلة مهذبة موجهة إلى الحزب الشيوعي الصيني».

كانت قدم بي ترفس رجل الطاولة باستمرار كي يؤكد كلماته، التي لم تكنْ موجهةً إلى شخصٍ بعينه. «حمير، حمير، حمير!».

«في الشهر المنصرم تحديداً، خمسون شخصاً هنا أُعيدتْ إليهم الأسبقية»، قالت الآنسة لو بهدوء. «لم يكنْ لديهم مهن ولا حصص تموينية. التحديث تسوء سمعته».

«لكننا نريد أن نكون عمليين». رفس بي رفسةً ثلاثيةً. «نحن لا نريد مليون طفل وطفلة في [الساحة]. نحن نريد رؤساء أذكياء قليلين يعرفون كيف يديرون المتجر».

صاحت الشابة الجالسة بجوار سبارو: «اللعنة على هذا السلك! هذه الراديوات الحديثة من طراز 1432 ما هي إلّا براز». كان اسمها «مروحة»[1] وكانت حادة المزاج. «أولد بي، إن رفستَ الطاولة مرةً أخرى، سوف أطعن عينيكَ كلتيهما».

«أعطيني إياه»، قال سبارو. أخذ هيكل المذياع، أعاد صف مكثف فلتر أعقف، ربطه بالهيكل مباشرةً، لحمه بفولاذه الحار، تفحص أرضية الدائرة الكهربائية والاصطفاف، وأعاده من جديد. جعله ذلك يشعر بكمان مكهرَب.

«الرفيق سبارو له أصابع فتاة صغيرة»، قال داو – رين ضاحكاً.

كان راديو بكين يعزف «*كونشيرتو الكمان في D major*[2]»، تأليف تشايكوفسكي. منذ الإعلان عن زيارة ميخائيل غورباتشوف لبكين

---

1 – مروحة: في النص الإنكليزي: Fan – م.

2 – D major: وتعني: على درجة ري الكبير «ميجور»، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.

في أيار «مايو»، كانوا يُمطرون بوابل من تشايكوفسكي وألكسندر غلازونوف.[1]

«الحقيقة هي»، قالت مروحة، وهي تشير إلى مسدس اللحام لدى أولدبي، «أولاد بكين هؤلاء ألقوا نظرةً واحدةً على حيواتنا وقرروا أنها لا تصلح لهم. كنتُ أحسب أنني سأدرس في [جامعة فودان] وأصبح طبيبةً، لكن انظر إلى أين أتى بي الدهر الآن، ليس لأنني لا أحسّ بصحبتكم، أيها الرفاق، بمباهج يومية! لم أرَ أبويَّ أو أخوتي وأخواتي منذ خمسين عاماً! كنتُ أعرف حقيقةً أن الرفيق سبارو هنا لم يرَ شقيقيه منذ أن كانا صغيرين. في أيامنا هذه، إن أنتَ شتمتَ الشخص الخاطئ ربما تطلق النار على نفسكَ أيضاً! ابن شقيقتي يشكو من رئيسه الفاسد. براز صغير مسكين أُعيد درج اسمه في لائحة الأسبقية ولم يُعيّن في وظيفةٍ ما على مدى ثلاثة أعوام. إنه الآن يؤم [الساحة] يومياً!».

أدار سبارو هيكل الراديو على محور وانطلق يعمل عليه من الزاوية المقابلة.

فيما كان يتناقش الآخرون، الأوضاع الثلاثية لـ تشايكوفسكي والوقفتين التي أمطرت من المتكلمين مثل اصطفاق ألف جناح. آن انتهت النوبة أخيراً وانطلقوا جميعاً يمشون بتثاقل متجهين صوب باب الخروج، أحسَّ سبارو كما لو أنّ قرناً من الزمن قد مضى. في طريق أوبته إلى البيت، نعس تقريباً في الترام المكتظ، مسمّراً بين النافذة وفاصوليا يابسة تعود لشخصٍ ما. كانت أصابعه قد فقدت الحسّ تماماً. حين تشقلب أخيراً عند «محطة سكك الحديد الغربية في بكين»، كان ثمة حشد كبير يتدافعون بالمناكب أمام دائرة البريد.

---

1 – ألكسندر غلازونوف (1865 – 1936): عازف ومدرّس موسيقى وقائد فرقة موسيقية، روسي الجنسية، في أواخر الحقبة الروسية الرومانسية. عمل مديراً لـ «المعهد العالي للموسيقى في سان بطرسبورغ» للمدة من 1905 – 1928، ولعب دوراً مؤثراً في إعادة تنظيم المعهد إلى «المعهد العالي للموسيقى في بيتروغراد» ومن ثم «المعهد العالي للموسيقى في لينينغراد» بعد الثورة البلشفية في العام 1917 – م.

قرقعتْ علب صفيح الغداء بإزاء مرفقيه. حاول سبارو أن يشق طريقه عبر الحشد إلّا أنَّ عربة خفيفة تعود لصانع حلوى اعترضتْ سبيله. *لو سمحنا لهذا الحيص بيص العظيم أن يمرّ من دون تمحيص، صينٌ ذات مستقبل مشرق سوف تغدو صيناً مليئةً بالهرج والمرج بلا مستقبل.* كانت مكبرات الصوت تذيع أخبار الساعة السابعة، الأمر الذي يعني أنه وصل إلى البيت متأخراً عن الوقت المعتاد. «هؤلاء الأولاد يُحدِثون مخاضاً سياسيّاً؟» كان الناس من حوله يتمتمون قائلين: «مناهضون للثورة؟ هل هذا هو الحُكم؟» استطردت الإذاعة: «*في أيّ ظرفٍ من الظروف، يجب ألّا يُسمح بتشكيل أيّ منظمة من المنظمات غير القانونية*. كان يتعيَّن عليه أن... نشط الألم على طول ذراعيه، كما لو أنّ خيوطاً شُدتْ حول أصابعه وكانت تُرخى ببطء. أليس هذا هو هو ما فعله «الحرس الأحمر» لـ... لم يكنْ بمستطاعه أن يفكر. كان المتفرجون من حوله ينظرون بحقد إلى المتكلمين. «هل هم يمزحون؟» سأل أحدهم. «هل هم يخططون لاستخدام الدبابات على حفنة من طلبة جامعيين يدرسون علوم الرياضيات؟» انتقال قلق. «هذا إرهاص؟ هذا أشبه بـ[الثورة الثقافية]؟ لقد رأيتُ مزيداً من الإرهاص السياسي في قِدر الحساء خاصتي؟».

شقَّ سبارو طريقه من حول رجل الحلوى. حاول البائع المتجول أن يثير اهتمام الناس بالأشكال الغرائبية التي كان يصنعها من خلال سحب عصير السكر، كان يصنع كلمات وحتى رؤوس شخصيات ذائعة الصيت. كان سبارو يحب هذه الحلويات حين كان صبيّاً. ابتاع ثلاث قطع، إحداهما بشكل الرئيس ماو، وأخرى كانت بيتهوفن بشكل واضح، وثالثة لا يمكن التعرّف عليها. شقّ طريقه عبر الجموع.

آنَ وصل إلى البيت أخيراً، كان بمستطاعه أن يشمّ الحلاوة المُنشاة للرز الذي أعدّته أي – مينغ. كانت ابنته قد نشرتْ أوراق لفت مقطوفة وباذنجاناً متبلاً. على الراديوات والحاكيات في أعلى وأسفل الزقاق،

كان قرار الحكومة بشأن تظاهرات الطلبة يكرر ما يلي: *هذا صراع سياسي خطير يتحدى الحزب كله والشعب*... كان المذيع يُعلن بأن الافتتاحية سوف تظهر في *«بيبلز ديلي»* في صباح اليوم التالي، السادس والعشرين من نيسان «أبريل»، والحزب يحث المواطنين كافةً على دراستها بعناية. فكّر سبارو أنه يتحتّم على أي - مينغ أن تصمم جهازاً يُغلق راديوات الناس الآخرين سرّاً.

كانت ترجمة «مجموعة رسائل تشايكوفسكي» قد استقرتْ على سطح التلفزيون. لماذا بحق السماء تقرأ أي - مينغ هذا الكتاب؟ قلّب صفحاته الخفيفة. لم يستطعْ أن يركز على الكلمات بل على الصور الفوتوغرافية، لاحظ أن تشايكوفسكي كان يمتلك كرش رجلٍ موفور الحظ. بدا المؤلف الموسيقي قويّ البنية ومُسايراً للموضة.

قلّب صفحات الكتاب بأعلى صوتٍ ممكن، آملاً أن تظهر أي - مينغ، فقد افتقد صحبتها. كانت رسائل تشايكوفسكي زاخرةً بالمزاح، بدا أن لديه عدة أشقاء. هنا تشايكوفسكي كان، وهو يكتب إلى أحد أشقائه عن *«كونشيرتو البيانو في D major* [1]*، المقطوعة الموسيقية 35»* الشهير من تأليفه: «بالطبع إنني لولاه لما كنتُ قادراً على القيام بأيِّ شيءٍ. إنه يعزفها بطريقةٍ عجيبةٍ. حين يعانقني بيده، حين يستلقي ورأسه مائل على صدري، وأنا أمرر يدي عبر خصلات شعره وأقبّله سرّاً... العاطفة تحتدم في داخلي بقوةٍ شديدةٍ لا يمكن تصوّرها...».

خفض سبارو بصره ناظراً إلى الصفحة.

أين كان المسجل؟ كانت هذه حمى تعمّ أطرافه، مسببةً اضطراباً عظيماً في فكره. أحسَّ باشتياقٍ قوي جداً للموسيقى بحيث كاد يرجع طفلاً كرّةً أخرى، يُرهف السمع لأمه ولـ سويرل فيما كان ينتظر تحت طاولة الجايخانة. وأين كانت رسائل كاي؟ كانت مفقودةً من علبة

---

1 - الـ D major: وتعني على درجة رَي الكبير «ميجور»، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي - م.

الأسطوانة حيث درج على حفظها هناك في أغلب الأحيان. على مدى أعوام، لم يبلغْ سمعه أيُّ شيءٍ يتعلق بـ كاي ومن ثم، على نحوٍ غير متوقع في العام 1985، حين اشتدت الإصلاحات، وصلتْ رسالة. حينئذٍ فقط عرف أن كاي غادر البلد. في العام 1978، بعد أن زار سبارو في «قناة الماء البارد»، اجتاز الحدود ووصل إلى هونغ كونغ حيث قدّم طلباً للحصول على لجوء. في غضون سنة، كان قد تزوج، غادر إلى كندا، وأنجب ابنةً. الرسائل الأولى جاءتْ شيئاً فشيئاً إلى «قناة الماء البارد»، حيث كانت تصل كل ستة أشهر. الآن، في بكين، الخطابات المُرسلَة من كندا تصل كل بضعة أسابيع. قال كاي إنه لم يعدْ يعزف على البيانو. هذا العزوف عن الموسيقى كان عصيّاً على التفسير، كان مسكوناً بأشخاصٍ ووقائع؛ كان يشعر أنه كان نائماً طول هذه الأعوام كلها. كان يريد باستماتة أن يرجع إلى الصين، حتى ولو مدةً وجيزةً، لكن انشقاقه جعل الأمر مستحيلاً. رفضت الحكومة تزويده بتأشيرة دخول «فيزا». هل بمقدور سبارو أن يأتي ويراه في هونغ كونغ؟ كان قد أنعم النظر في جميع التفاصيل. كاي سوف يرسل بالتلغراف مبلغاً من المال ربما يكون بمنزلة ضمان الحصول على فيزا مغادرة لـ سبارو. هذا التفصيل دخل في رسالةٍ كما لو أنّه فكرة عادية عابرة. لم يفهمْ سبارو، لكن جوهر كتابة كاي، العجز عن تخيل أيّ واحد منهما في بلدٍ أجنبي، العجز، في الواقع، عن تخيّل العالم الخارجي على الإطلاق، أحرجه. كتب سبارو جواباً متردّداً. وعقب ذلك، في الشهر المنصرم، كتب له كاي. *منذ زمنٍ طويل، أخبرتني بأن أرجع لكني أعرف الآن أنكَ كنتَ مخطئاً. عرفتُ ذلك في حينها، سبارو، إلا أنّني كنتُ خائفاً جدّاً من النظر في الموضوع. كنتُ في منتهى الأنانية. وبأيِّ حقّ أطلب منكَ أيَّ شيء؟ لكن سبارو، المستقبل يعتمد على معرفتنا بماذا أحببنا وأيَّ بشر أصبحنا... أرجوك، إن كان باستطاعتك، أرجوك تعالَ إلى هونغ كونغ. ثمة قواسم مشتركةٌ كثيرةٌ بيننا. ثمة زمن حياة. عرفتُ منذ عهدٍ قريب أن البروفيسور سُجن ونجا من الاضطراب العظيم. فارق*

الحياة في العام 1981. لم نسوِّ الخلافات بيننا. كيف حصل أنني لم أسمعْ بوفاته حتى الآن؟

حتى حين حاول أن يتذكّر، أتتْ إليه الذكرى كأنها حياةٌ أخرى. كان الحب هو إخلاصه لأبويه، لـ لينغ، لـ أي - مينغ، لـ هذه الحياة. لكن لو كان هذا حبّاً، ماذا كان الآخر؟

«بابا، ما الخطب؟».

أين كانت الرسائل؟ كان قد نظر إليها قبل أسابيع قلائل، وتركها مخبأةً في علبة ألبوم غلين غولد.

«ماذا تفعل في الطابق الأرضي؟» سألته أي - مينغ.

«إنني أبحث عن أسطوانة»، قال.

«أي أسطوانة؟».

في الأمسيات، قبل أن تُضاء المصابيح، قد يخطئها المرء ويحسبها تسهولي. العينان الشكاكتان نفساهما. المراقبة المستديمة نفسها. اتركني، فكّر. ذات يوم، ألم تغادرني تسهولي؟ إلّا أنَّ الفكرة أخجلته.

«هل هما يداك؟ إنهما تسببان لك الألم مجدداً، صحيح؟ تعال واجلسْ على الكنبة».

كاي، بدوره، كانت له ابنة.

كيف يعرف المرء، سأل نفسه، ما هو الحب وما هي الصورة طبق الأصل له؟ هل يهمّ ذلك؟ هل إن الشيء الأهم هو الفعل الذي يقوم به المرء - أو يخفق في القيام به - باسم ذلك الشعور؟

«قلْ لي أيّ أسطوانة هي، بابا؟».

تلك الراديوات التي في الخارج واصلتْ تحذيراتها. *هذه مؤامرة وفوضى مخطَّط لهما. إن جوهرها هو أن تلغي قيادة الحزب والنظام الاشتراكي مرةً وإلى الأبد.*

كانت أي - مينغ تجثو على الأرض بجانبه.

اختارت ابنته أسطوانةً. اختارتْ سوناتات سكارلاتي[1] في الـ D[2].
كانت لدى سبارو رغبة ضعيفة بأن يزحف إلى داخل الماكينة. في العام 1977، تذكّر أنه، خلال احتجاجات «جدار الديمقراطية»، ثمة رجل في عمره نفسه يُدعى هوانغ كسيانغ[3] كان قد لصق قصيدة كتبها إبان «الثورة الثقافية». خلال سبعينيات القرن العشرين، حينما كتب القصيدة، غطّى كل صفحة بالبلاستك، لفّها حول شمعة، ومن ثم أضاف طبقة شمع أخرى من حولها. آن انتهت «الثورة الثقافية»، ذوّب الشموع ورفع جميع الصفحات الـ94 من قصيدته. هل كانت هذه قصةً حقيقيةً، تساءل سبارو، أم إنها شيء على غرار «كتاب السجلات التاريخية»، بقاءٌ متخيّل؟ كيف يُحتمل أن أشخاصاً من جيله اشتركوا في أفعالٍ كهذه ومع ذلك هذه الأفعال بقيتْ طيَّ الكتمان بصورةٍ باعثةٍ جداً على اليأس؟ ماذا يحصل لو أنكَ أذبتَ شخصاً ما طبقةً طبقةً؟ ماذا لو لم يكنْ هناك شيء بين الطبقات، ولا شيءَ في الوسط، باستثناء الصمت؟

الحزن على الرفيق هو ياوبانغ استخدم لتشويش عقول أبناء الشعب وتسميمها.

أجل، فكر. هذا ما يفعله الحزن. إنه التشويش، وربما السّم، هو الذي يفرّقنا إلى أن نصبح، في النهاية، شيئاً جديداً. أم إنه كان يكذب على نفسه؟ ماذا لو أنّه فشل في أن يخلق فرداً جديداً؟

---

1 – جيوسيبي سكارلاتي (1635 – 1757): مؤلف موسيقي إيطالي، أمضى ردحاً طويلاً من حياته لدى العائلتين الملكيتين البرتغالية والإسبانية. يُعدُّ بشكل رئيس مؤلفاً موسيقياً باروكياً، مع أنّ موسيقاه كانت ذات تأثير في تطوير الأسلوب الكلاسيكي. كما يُعدُّ واحداً من الموسيقيين الباروكيين القليلين ممّن انتقلوا إلى العهد الكلاسيكي، وهو معروف بسوناتاته المعزوفة على لوح المفاتيح (على البيانو أو الأرغن) التي بلغ عددها خمساً وخمسين سوناتا – م.

2 – الـD: هي درجة الـرَي، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.

3 – هوانغ كسيانغ (وُلد في العام 1941): واحد من أكبر الشعراء الصينيين في القرن العشرين، وضليع في فن الخط. يُعدّ من الشعراء المبرزين في الصين لحقبة ما بعد «الثورة الثقافية» – م.

«أبي...».

وضعتْ كأساً في يده وتذوق هو مشروب الـ باجيو. كم كان لذيذاً طعم الخمر على لسانه، رشفات قليلة سريعة وربما سيفقد جسده الحسّ، وهكذا يحرره، وكما ورد في المَثَل القديم: «حين يغطس الخمر، تسبح الكلمات».

«أي - مينغ»، قال. «مهما حدث، عليكِ أن تؤدي هذه الامتحانات. عليكِ أن تُحسني صنيعاً». الجامعة هي الطريق الوحيد، فكر، الذي من خلاله ستفتحين الباب عنوةً.

«بابا»، قالت، «لم يفت الأوان على الذهاب إلى خارج الوطن. ألا تزال تريد أن تكتب موسيقاك؟».

لماذا يستمر الجميع في ذكر موسيقاه؟ ألا يقدرون أن يدعوها وشأنها؟ ألا يستطيعون أن ينسوها؟ جرع الشراب، متظاهراً أنه لم يسمعها بشكلٍ مناسب. أمام العينين اليقظتين لـ أي - مينغ، شعر أنه مكشوف. كما لو أنّ ضعف الأزمنة قد استوطن في داخله، وببطء راح يدمر كل ما هو فريد وخاص به وحده، لأنه سمح له بأن يفعل هذا.

حيال حزنه الشديد، هبّتْ أي - مينغ واقفةً وتركته.

جلس أمام المسجل. كان المؤلف الموسيقي في داخله قد لزم الصمت لأن سبارو سمح له بأن يفعل هذا.

أيها المثقفون الثوريون كافة، حان الآن وقت خوض المعركة! دعونا نتوحّد، نرفع عالياً الراية الحمراء العظيمة لفكر ماو تسي تونغ، نتوحّد حول اللجنة المركزية للحزب... لكن لا، تلك الكلمات، تلك الافتتاحية، أتتْ من عصرٍ مختلف، من حركة مختلفة. إنها مجرد ذكرى لا غير.

مخبأً في علبة الأسطوانة الخاصة بـ كونشيرتو بيتهوفن «الإمبراطور»، قائد الفرقة الموسيقية ليوبولد ستوكوسكي مع غلين غولد كعازف منفرد، جنباً إلى جنب مع رسائل مبعوثة من كاي، ثمة صورة فوتوغرافية

لثلاثتهم معاً: سبارو، تسهولي وكاي. كانت ابنة خالته في الوسط، في الرابعة عشرة، هي الفرد الوحيد الذي كان ينظر مباشرةً صوب آلة التصوير، الفرد الوحيد الذي لا يملك شيئاً كي يخفيه. كانت تتعلّم بروكوفييف، جرى ذلك تقريباً في وقت «مهرجان الربيع»، وتذكر إلى أيّ مدى كانت واقعة في غرام ذلك المؤلف الموسيقي. «سبارو، أتعتقد أنه من الممكن أن يحب المرء شيئاً ما حبّاً جمّاً؟». كانت قد قبضتْ على يده، بالطريقة التي يفعلها الطفل. كانت لما تزل طفلةً في صيف العام 1966. «إنما كل عبارة موسيقية كانت مليئةً جدّاً، لو أنّني حاولتُ أن أسمع جميع نغماتها التوافقية وأصواتها الخفيضة، ما من شيء سيُعزف!» فضلاً عن ذلك، كانت قد تعلمتْ أن تسمع كثيراً جدّاً، فكر. سمعتْ أصواتاً كثيرةً جدّاً وكانت قد افتخرتْ بها كلها. كانوا قد تعلّموا، من خلال دروس الرئيس ماو ونشوة الثورة، أن الموت بوسعه أن يحفظ الحقيقة، أيّ حقيقة. لكن الموت لم يحفظْ شيئاً، فكر. لقد أزال كمال أولئك الذين تركهم وراءه، والحقيقة التي عرفوها ذات مرة تلاشتْ، لم تُسجلْ، باتتْ غير حقيقية، مثل صوتٍ يتبدد. كان قد عاش نصف حياة فقط. من دون أن يقصد، كان قد أسكت تسهولي. تذكّر كم سكب من روحه ووجدانه في السيمفونية رقم 3 تلك. كان باستطاعته أن يترك الأوراق في جملونات السقف، كان باستطاعته أن يخفيها مع «كتاب السجلات التاريخية». لماذا لم يفعلْ هذا؟ لماذا دمرها بيديه هو؟

ثمة سطرٌ من أحدث رسالة لـ بغ موذر بعثتها من «قناة الماء البارد» رجعتْ إليه: *«ليس ثمة سبيل لعبور النهر إلّا من خلال تحسس الأحجار»*.

-4-

أخبرتْ يوين أي - مينغ أن طلبةً من جامعة بكين سوف يتظاهرون في اليوم التالي، تحدياً لافتتاحية السادس والعشرين من نيسان «أبريل». «إنني ذاهبة»، قالت يوين. كانت في منتصف عملها وهي تضفر شعر أي - مينغ وبصورةٍ لاواعية شدّت الضفيرة بقوةٍ وحنق. «لا أبالي بما سيقوله أبواي. لقد مضينا إلى مأتم وسمّتنا الحكومة مجرمين ومجرمات! هل يتوقعون منا أن نغلق أفواهنا فحسب؟ نحن لسنا مثلهم...».

في غرفة مكتبها، أغمضتْ أي - مينغ عينيها. افتقدتْ صحبة نوم بغ موذر الثقيل. في ذاكرتها، كانت قد رجعتْ إلى «قناة الماء البارد»، وكانت الطفلة الفضولية نفسها التي تتطفل على محتويات خزانة ثياب بغ موذر. هنا كانت دفاتر الملاحظات الاثنين الأربعين الخاصة بـ «كتاب السجلات التاريخية»، فستان فتاة أزرق اللون، إضافةً إلى كراسة ذات غلاف أصفر، وعلى الغلاف كلمتا: «آلهة وأباطرة».

كانت الصفحات قد فتنتها. لاحقاً، فهمتْ أنها كراسة دعاية سياسية وهي ردّ على تحديثات دينغ تسياو بنغ الأربعة الشهيرة. «نحن لا نريد مزيداً من الآلهة والأباطرة»[1]، صرّح الكاتب. «يكفينا منقذين من أيّ نوع كانوا. نحن نريد أن نكون سادة بلادنا نحن. الديمقراطية، الحرية والسعادة هي الأهداف

---

1 - «نحن لا نريد مزيداً من الآلهة والأباطرة...»: اقتباس مكثف من مقالة وِي جينغ شينغ المعنونة: «التحديث الخامس»، مثلما أورده جورج بلاك وروبن مونرو في كتابهما الموسوم بـ«*أيدي بكين السود: حيوات التحدي في حركة الديمقراطية في الصين*» (نيويورك، ويلي، 1993): 50 - ك.

الوحيدة للتحديث. من دون هذا التحديث الخامس، الأربعة الأخرى هي ليستْ أكثر من كذبةٍ جديدةٍ أكل عليها الدهر وشرب».

حين فتحتْ عينيها، نظرتْ إلى الخارج وأبصرتْ أم يوين جالسةً في الفناء، تغسل الثياب. كان الفستان الوردي قد ارتفع مدةً وجيزةً من الماء قبل أن يُغطس مجدداً، وعاود الظهور ملتفّاً بين ذراعيْ قميص.

ما إن غادر أبواها إلى العمل، أغلقتْ أي - مينغ كتبها. مضتْ إلى الخارج، مشتْ بهدوء إلى البوابة الشمالية للزقاق واستعادتْ دراجتها الهوائية. قفزتْ فوقها. وبينما كانت تقودها مبتعدةً عن عالم الكتب، أحسَّتْ بغتةً أنها طليقة، منقولة بالجو. عند «الأكاديمية الصينية للعلوم»، انحرفتْ عبر التقاطع، تفادتْ عربة خشبية خفيفة محمّلة بخزانات ماء، وواصلتْ مسيرها تحت الأشجار الضخمة لـ «متنزه يويوانتان».

شارع جانبي وأزقة تسليم البضائع انفتحتْ أمامها، وطارتْ شمالاً إلى أن وصلت إلى «الطريق المستدير الثالث». هنا، كانت الضوضاء قد لكمت المباني. كل ما تمكنتْ من رؤيته أولاً هو مئات من رجال الشرطة بالقبعات الخضر. إنما وراءهم، شوهدتْ فقط في الجانب الآخر، أطراف رايات لا تُعد ولا تُحصى، معظمها حُمر وذهبية، وكأننا في حفل زفاف. كانت مكبرات الصوت، في الوقت نفسه، نطقتْ بالتحذيرات من دون تفكير وحرّفتها. «التظاهرات من دون موافقة رسمية تُعدُّ غير قانونية وسوف تُمنع! التظاهرات من دون موافقة رسمية...».

إلى جانب أي - مينغ من أرتال الشرطة، كان هنالك عجوزان بصدريتين بيضاوين يحملان شعاراً مكتوباً ببراعةٍ وإتقان. «الطريق الذي أمامنا طويل وبعيد، ومع ذلك سأبحث بعيداً وباتساع»، لكن الاثنين، اللذين أعادا إلى ذاكرتها الأب لوت، ظهرا أصلاً وهما يترنحان على سيقانهم، سيقان جَدين، شديدة الهزال.

أقفلتْ أي - مينغ دراجتها الهوائية بأن قيّدتها بحاجز ذي قضبان وعصرتها على المَعبر الفوقي. وهي تخفض بصرها ناظرةً إلى الأسفل،

رأت الطلبة وهم يضغطون مباشرةً على رتل الشرطة، حيث كان الضباط قد تراصّوا، شدّوا أنفسهم معاً، ذراعاً بذراع. كان الطلبة الجامعيون يستخدمون الحجم الصرف لأعدادهم كي يمارسوا ببطء، بتقنية، ضغطاً. كان عملاً ضارياً ومُضنياً.

سأكون بيضةً سخيفةً إذا ما فكرتُ بأني سأكون قادرة على العثور على *يبوين،* حدّثتْ نفسها، وتخضبتْ بحمرة الخجل حين خطرتْ ببالها هذه الفكرة غير المتوقعة. كان العدد الهائل من الشبيبة قد توارى في الأفق، كما لو أنّ الحشد قد امتد طول الطريق الممتد باتجاه «جامعة بكين» نفسها.

صاح غلام تسلّق عمود كهرباء بأن الرفاق المنتمين إلى «جامعة السياسة والقانون» قد اتحدوا معاً واخترقوا حصاراً عند «الطريق المستدير الثاني». الجلبة عربدتْ، وأحدثت اهتزازاً في المَعبر الفوقي. كانت تراقب بينما كانت السيدات تأتين إلى أو من العمل، بمرايل المصنع الزُّرق، الوردية، والأسماق «جمع سمق» الخُضر، وحاولن أن يُسمعن الضباط معسول الكلام كي يسمحوا للطلبة الجامعيين بالمرور. كان هنالك رجال مسنون ونساء عجائز يجلسون في شرفاتهم كأنهم يشاهدون أوبرا، يصيحون على الجميع كي يتفاعلوا مع الموقف. حتى حين تفاقم التوتر، كان جلياً لـ أي - مينغ بأن الشرطة لا يعتزمون سحب أسلحتهم. كانوا ببساطة يضعون أجسامهم في طريق تقدّم الطلبة.

انقضتْ دقائق، انقضتْ نصف ساعة أخرى، ولا يزال الدفع المُعذِّب مستمرّاً.

الطلبة، جميعهم حسنو الهندام، جذابون بعويناتهم الجدية، بدؤوا يهتفون بكلمات الرفيق دينغ نفسه: «الحكومة الثورية، أيّ حكومة، يتحتّم عليها أن تُصغي لصوت الشعب! يجب أن لا يُرعبها شيءٌ أكثر من الصمت!».

في هذا الجانب، كان المقيمون قد انخرطوا في التظاهرة، بحيث إنّ رجال البوليس كانوا مكبّلين بين موجتيْ صوت، موجتيْ مدٍّ وجزر. استمر هذا الحال نصفَ ساعة قبل أن يتوقف الجميع كي ينعموا بقسطٍ من الراحة. في

غضون ذلك على سطح المَعبر الفوقي، كانت الكتف على الكتف، الصدر على الصدر، ولما يزل يتوافد أناس أكثر. كانت أي – مينغ غارقةً بالعرق بحيث إنّها خشيتْ بأنها ربما تُعصر، مثل سمكةٍ زَلِقة، بعيداً عن الجسر.

كان الطلبة الجامعيون يعيدون تنظيم أنفسهم. جميع النسوة الشابات أُرسلن إلى طليعة الرتل. قلة من الرجال ممَّن يحيطون بـ أي – مينغ قهقهوا بفحش. ارتفع صوتٌ مُهدئ من جوقةٍ من الإناث المنشدات:

«ارفعوا عوائد رجال البوليس المالية!».

«أيها الأشقاء!» صاحتْ شابةٌ. «كنتم تعملون بجدّ طوال الصبح! يا مواطني بكين! أحضروا الماء لشرطة الشعب!».

وسط الضحك والتصفيق، تجسّد الماء. كانت أي – مينغ تُلقي باستمرار نظرةً شاملةً بحثاً عن ييوين. نفرٌ قليلٌ من رجال البوليس رفعوا قبعاتهم المدببة، سحبوا مناديلهم الورقية الزاهية الألوان، ومسحوا العرق من على وجوههم. ابتسموا بخجل للفتيات، اللائي ضحكن. زفر الجميع، كما لو أنّ ذلك هو استراحة بين مشاهد تمثيلية على المسرح.

تدبّر الطلبة الجامعيون أمرهم بأن أعادوا صياغة أنفسهم بحيث إنّ الصبيان والصبايا كانوا قد اختلطوا معاً مرةً أخرى. في غضون ذلك، تلقى المَعبر الفوقي الأنشودة الآتية: «ما هو الشيء العسير جدّاً؟ إن ذلك أشبه بتقطيع كرنب وشمّام!».

في هذا الأوان، كانت أي – مينغ على المَعبر الفوقي طول ما يقارب ثلاث ساعات وهي، كذلك، أحسّتْ أن اللحظة قد وصلتْ. لم تكنْ قادرةً على تحمّل أن تبقى محصورةً مدةً أطول. من جادة المحتجين، أقبل مزيدٌ من الصرخات، وجعلتْ تتدحرج إلى الأمام بقوةٍ ثاقبة.

«ارفضوا حُكم جريدة *[بيبلز ديلي]!*».

«نحن لسنا غوغاء، نحن أعضاء مجتمع متحضرون!».

تحت هذا الضغط المستديم، كان بوسع أي – مينغ أن ترى رجال الشرطة

المتعرّقين وقد بدؤوا يشعرون بالإعياء. ألحَّ الطلبة الجامعيون على ميزتهم، فيما هم ينشدون خلال ذلك: «الشعب يحب شرطة الشعب!».

كان الطلبة يدفعون عبر الوسط وطوابير الشرطة الخُضر ذابتْ مع الجوانب مثل ورقة نباتية لينة تلتف وتتجعد بحرية. سمعتْ أي - مينغ ارتفاعاً متزايداً في الصوت بحيث بدا كأنه آتٍ من الكونكريت والبنايات نفسها. أمال المقيمون أجسامهم إلى الخارج كثيراً جدّاً بحيث كانت تخشى أن يسقطوا سويةً من المَعبر الفوقي. كانت صرخاتها وهي صرخات دهشة وراحة معاً في الاضطراب العظيم. مع أنّ نجاح الطلبة بدا محتوماً، بدا مستحيلاً أيضاً، ولاح الجميع مصعوقين باعتدال. طارتْ قبعة رجل الشرطة من دون أن يحسّ بذلك وهوتْ على المَعبر الفوقي، ووجدتها أي - مينغ بين يديها، قذفتها برفق إلى الأسفل إلى ضابط حاسر الرأس، رفع الأخير بصره إلى الشمس، ناظراً إلى أي - مينغ. لوّحتْ له. ظهرتْ عربات خفيفة يبيع أصحابها الماء وشاياً مثلجاً. بجوارها، رجل عجوز أدرد الفم كان يرمي مثلجات على العيدان ماركة «بوب سايكل» إلى الحشد في الأسفل. كان ثمة حشد من الشرطة يتكلمون في راديوات، قلة منهم يبتسمون ابتساماتٍ عريضة، وكان الطلبة الجامعيون يربّتون على أكتافهم بينما هم يمرّون من هناك. مرَّ شعار يقول: «دربٌ جديدٌ ينفتح الآن: الدرب الذي حاولنا أن نسلكه في سالف الزمان لكننا مُنينا بالفشل».

تحرّك المتظاهرون إلى الأمام، محاطين من الجهات كلها بالقيّمين على الطلبة الجامعيين المزودين بعصابات الأذرع الحمر. هرعتْ أي - مينغ كي تفك دراجتها الهوائية من الحاجز ذي القضبان. وهي تدفعه بجوارها، انزلقتْ بين طوابير الطلبة. كانت ملابس الجميع مجعدةً كما لو أنّهم جميعاً كانوا يتصارعون أو يتقلّبون المرة تلو المرة في نومهم.

«لم يطلبوا شيئاً مستحيلاً»، فكرت أي - مينغ. فقط حيزاً حتى يتحركوا، كي يكبروا ويكونوا أحراراً، طلقاء، وأن ينتقد الحزب نفسه. ثمة راية حمراء من «جامعة بكين» تقول بحروفٍ ضخمة، ذهبية: «من دون الحزب الشيوعي لن تكون هنالك صينٌ جديدة».

كلّما اقتربوا أكثر من «الساحة»، بدا الحشد كأنه أصبح جزءاً من جسمها هي، بحيث إنّ أي - مينغ نفسها توسّعتْ[1] من دون حدود فيما كان طلبة الجامعات الأخرى يصلون تباعاً، وارتبطوا عند التقاطعات بين «الطريق المستدير الأول» و«الطريق المستدير الثاني». طهاة بقبعات مبتذلة ومرايل بيض وقفوا خارج مطابخهم، نُدُل دخنوا سجائرهم بحنان، بائعات مخازن خرجن مترنحات من المخازن التنويعية، بحيث إنّه في نحو الساعة السادسة عصراً، حين أنهى عمال المصانع نوباتهم، كانوا جميعاً قد انسحقوا معاً في الطرقات الأصغر. أشخاص في سنّ أبويها استمروا في أن يدسّوا الماء، سندويتشات الآيس كريم، الفواكه المجمدة، وحلوى ماركة «بوصة من الذهب» بين يديها. ولأنها متيمةٌ بالسكّر، حسبتْ أي - مينغ أنها رأت اللون الوردي المُذهل لعصابة رأس ييوين. تبعته كما لو أنّها تتبع ضوء مِشعل.

«ييوين!» صاحتْ. كادت رئتاها تنفجران. «ييوين!» من دون معرفتها أن ذلك كان يحدث، ما بدتْ عليه ظاهريّاً، ومَن كانت هي من الداخل، أصبح سيان. بدت النشوة خفيفةً بنحو غريب جدّاً. مجموعة من الصحافيين من الـ«*بيبلز ديلي*» مرّوا بأن أمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً، لم يعبؤوا بإخفاء «باجات» الصحيفة التي ينتسبون إليها. أحدهم كان يحمل لافتةً تقول: «أفكار حرة! كلام حرّ!». كان الجو غارقاً بكلماتٍ من هذا الطراز، رايات وبوسترات كست الشارع مثل حروف مطبوعة قابلة للتحريك، كما لو أنّ رصيف المشاة نفسه كان كتاباً ضخماً محظوراً. كان من الصعب أن يصدق المرء أن ما شهدته هو حقيقي وليس هذيان شابة مناوئة للثورة. ومن الأكثر غرابةً، أنه لم يكنْ هنالك بكاء، لا ندم أو قلق بشأن الماضي، ولا وجود للنفاق والرياء الذي يحدث بشكل روتيني وهو جزءٌ طبيعي في الحياة اليومية. وهنا كانت ييوين، أمامها مباشرةً. أي - مينغ قلّصت المسافة بينهما إلى النصف ومن ثم قلّصتها إلى النصف مجدداً. كان رجال البوليس قد تبخروا كما لو أنّهم، هم كذلك، كانوا ينتمون إلى بكين أخرى. هل سحب شخصٌ ما

---

1 - المقصود هنا: إنها بدأتْ تتحرك في مجال أوسع أو أرحب - م.

أسلاك مكبرات الصوت؟ هرعتْ أي - مينغ إلى صديقتها. الرصيف غير المستوي جعل جرس الدراجة الهوائية يجلجل وبينما هي تسمعه، التفتتْ ييوين، وشاهدتها وابتسمتْ بسمةً مشرقة.

«ما الثورة؟» قالت ييوين، شبه ضاحكة، شبه باكية. «أي - مينغ، ما الثورة؟». هل بالمستطاع أن تكون أيضاً كهذه، تساءلتْ أي - مينغ. دارتْ ييوين حولها، وتشبثتْ بخصرها. «هذه هي الثورة»، قالت، فمها يمس شعر أي - مينغ مسّاً خفيفاً. بسبب تدني منزلة أبيها السياسية في «قناة الماء البارد» لم يكنْ لديها أيّ صديقة حقيقية من قبل. كانتا تسيران كعضوين في أسرة واحدة ضاعتا ومن ثم وجدتْ إحداهما الأخرى. كانت «تيانانمين» بوابةً، الممرّ إلى أيّ ساحة من دون جدران، من دون عقبات، ولا يكون هنالك سوى الريح والفضاء كي تتنفس فيه، وحتى هنالك دعوة لتحاشي الذات. كان هنالك ذكور وإناث يتعانقون، كل واحد منهم يلتصق بالآخر في رغبةٍ ساذجة. أغلب الظن، فكرت، آنَ يحلّ وقت الامتحانات، سيكون محتوى أفكارها مباحاً، الشيء الوحيد الذي يحتاج إلى تنظيم هو نوع جدالها. لئن كان الحال كذلك، هذا التغيير حصل فجأةً، بقليلٍ جداً من التحذير، وحتى قبل أن تفكر بأن تطالب به أو تجرؤ على أن تتخيّل أنه بين عشيةٍ وضحاها سوف يتغيّر المجتمع، أيّ مجتمع. كانت ييوين تنشد: *«الآن يداكِ تهتزان، الآن دموعكِ تهطل. أغلب الظن ما تقولينه هو، إنكِ مغرمةٌ بي، والأمر لا صلة له باسمي، تعالي معي، تعالي معي!»*. كانت ترغب بأن لا تترك ذراع ييوين خصرها. أغلب الظن، لئن كان بمستطاع الصين أن تغدو أفضل حالاً، فهي لن تعود ترغب بالهرب إلى خارج البلاد.

***

الاحتفال أيقظ الشوارع. دخل باص لينغ الطريق المستدير الثالث» قبل أن يعمد إلى التوقف تماماً بوجه الدراجات الهوائية والحشود. ترجلتْ كما لو أنّها تنزل إلى وسط مدينةٍ مختلفة. حتى هنا، على مبعدة كيلومترات عدة عن «ساحة تيانانمين»، كان بوسعها أن تسمع الإنشاد. كانت هنالك تفسيرات

على شفاه أبناء الشعب إلّا أنَّ أيّاً منها لم يكنْ ذا معنى. «تظاهرات الطلبة اخترقتْ قوةً من الشرطة قوامها ثلاثة آلاف رجل...». «[الساحة] أُغلقتْ لذلك ملؤوا [جادة تشانغآن]...». كل ما فعلوه هو أنهم قدّموا التماساً وحكومتنا أطلقتْ عليهم تسمية: مناوئون للثورة! يا للعار!»، «استمتعْ بها طالما هي باقية. ما من زهرة يمكنها أن تعيش مئة يوم...». نتف حمر من الرايات علقتْ بالأشجار مثل أقحوانات الجنازة التي، قبل أسبوعين لا أكثر، كست الجادات.

في المنزل، خلعتْ لينغ فردتي حذائها، مضتْ إلى منضدة الطعام وعلّقتْ محفظة نقودها على الكرسي. كانت الشقة هادئة. قرعتْ على باب غرفة أي - مينغ ولأنها لم تتلقَّ ردّاً، فتحته. كان سبارو يكتب. حين رفع بصره إليها، بدا كما لو أنّه لا يملك أدنى فكرة أين هو.

أخذتْ لينغ نَفَساً. كانت الغرفة تعبق برائحة الكحول. «هل ذهبتْ أي - مينغ إلى [الساحة]؟».

«كانتْ قد ذهبتْ أصلاً في الوقت الذي أتيتُ فيه إلى البيت».

غطتْ يده صفحة الورقة التي أمامه.

في الخارج، تضاعفتْ ضوضاء الشارع، اختفتْ وعادتْ ثانيةً، مثل انفجار.

«المواطنون جميعاً من دون استثناء في الشوارع هذه الليلة على ما يبدو. عداكَ، عزيزي سبارو».

دنتْ أكثر، وراحتْ تنظر عن كثب إلى وجه زوجها. كان مفرط الشحوب. «ماذا حدث؟» سألته. «هل أنتَ قلق بشأن المتظاهرين؟ الحكومة لن تعتقل المدينة كلها. ليس باستطاعتهم أن يفعلوا ذلك».

ليس بوسعه أن ينظر في وجهها. «بماذا يطالب الطلبة الجامعيون؟».

«لستُ متأكدةً من كونهم يعرفون أيَّ شيء آخر. اتهمتهم الحكومة بإثارة الشغب. قارنوهم بعناصر [الحرس الأحمر] والطلبة الجامعيون لم يوافقوا. لم يوافقْ أحد منهم».

هبَّ سبارو واقفاً. «ليس لديهم أيّ فكرة عن الخطر المُحدق بهم»، قال. تحرك نحو الباب كما لو أنّ هذه الغرفة مزدحمة جدّاً.مكتبة سُر مَن قرأ

تبعته لينغ إلى الخارج. كانت صفحة الورقة، المقلوبة، قد ظلتْ في موضعها.

«لكن ماذا لو...». قالت، وهي تتعقبه إلى داخل المطبخ. ولأن لينغ شعرتْ بالإعياء فجأةً، جلستْ إلى الطاولة. «أولئك الطلبة الجامعيون يتمردون علينا، أيضاً. يتمردون على جيلنا، أعني».

لم يحرْ سبارو جواباً.

متى دار بينهما حوارٌ صادق آخر مرة، تساءلتْ. هل مضتْ أشهر، أو حتى سنوات، منذ أن ائتمن أحدهما الآخر على أسراره آخر مرة؟ «نحن ندع الحزب يحدد لنا وظائفنا، أقدارنا، منازلنا وطريقة تربية أولادنا. لقد استسلمنا لأننا...».

«كنا نظن أن خيراً ما قد يأتي».

«لكن متى توقفنا عن تصديق هذا الأمر؟ انظرْ إليّ، إنني أحرّر نسخاً طبق الأصل وأنا ممتنّةٌ لهذه المهنة. حياتي جبالٌ من العمل الورقي وبحرٌ من الاجتماعات». ضحكتْ، ووجدتْ ضحكتها مرعبةً. «عكسنا، هؤلاء الشبيبة ليس لديهم ذاكرة بكل معنى الكلمة. من دون ذاكرة، هم أحرار».

«نعم»، قال.

«كنتُ أفكر بحياتي، سبارو. ليس بالماضي بل بالمستقبل. هل حدث أن فكرتَ من قبل بحياتكَ؟».

«نعم، بالطبع، لكن هنا في بكين... في بعض الأحيان أتخيّل أني... لكننا -».

فجأةً اقتحمتْ أي - مينغ الشقة، مبتهجةً، طلقة المحيا. لمحتْ لينغ فتاةً أخرى مندفعةً كالسهم في عمق الزقاق، وميضاً بلون النيون. إنها ابنة الجيران الجامحة، يوين.

التفت سبارو ناحية الباب. «أين كنتِ؟».

«في [الساحة]، بالطبع! يمكنكَ أن تراها، الناس كافة».

شرع يوبّخها بقسوة. تفرّستْ أي - مينغ في والدها كما لو أنّه رجل غريب.

«كيف يمكنني أن أحميكِ؟». هتف. «كيف؟». كان قد شرب أكثر مما ظنتْ لينغ. هبت الأخيرة واقفةً من وراء الطاولة ومضتْ إليه. استطرد سبارو قائلاً: «الحكومة على حقّ. إنكِ لا تختلفين عن [الحرس الأحمر]! إنكِ تحسبين أنكَ تعرفين كل شيء، إنكِ تحسبين أن بمستطاعكِ أن تحكمي على أيّ فرد، إنكم تعتقدون أنكم الوحيدون المغرمون بهذا البلد. إنكم تعتقدون أن بوسعكم أن تغيّروا الأشياء تغييراً جذريّاً في يوم واحد، في لحظة!».

«سبارو»، قالت لينغ.

«لقد سرقوا كل شيء»، قال سبارو، وهو يلتفت إليها. «لكن لماذا ندعهم يفعلون ذلك؟ لماذا نستسلم ونذعن؟ إنني أتذكر كل شيء الآن. أشقائي. لا يمكنني... تسهولي. إنهم يحتاجونني كي أقدّم لهم يد العون، لكنني لم أفعلْ. لماذا رمينا كل شيء ذا أهمية بالنسبة لنا؟».

كاد قلب لينغ ينفطر. لم يسبقْ لها أن رأته يتداعى، كانت قد كفّتْ عن التفكير بأنه قادر على ذلك. بدا كما لو أنّ فرداً ما قد قطع سلكاً وحيداً في داخله كان كل شيء يعتمد عليه.

«سبارو، دعكَ من ذلك».

«كيف؟».

«أي - مينغ»، قالت لينغ وهي تريد أن تحجب ابنتهما. «اذهبي إلى غرفتكِ». أطاعتها أي - مينغ والدموع تجري على وجهها.

«كيف يمكنني أن أنسى؟» كان وجه سبارو بلا لون. نظر إلى لينغ كما لو أنّه كان يعرف الجواب دوماً. «لو حدث أن نسيتُ، فماذا يتبقى؟ لا شيءَ سوى الذكريات».

كل ما كانت تبتغيه هو أن تستلقي، تغمض عينيها وتستريح، إنما كان يتعيّن عليها أن تخرج من هذه الحجرة، من زيف هذا المنزل. التقطتْ لينغ

محفظة نقودها من على الكرسي. كانت الجدران تضغط عليها ولم يكنْ بمستطاعها أن تتنفس، وجعلتْ تفكر في كل شيء تخلتْ عنه من أجل أسرتها، إنما أغلب تضحياتها كانت من أجل الحزب. تطلعتْ مرةً أخرى إلى زوجها، الذي كان قد غطى وجهه بيديه. «ألا ترى؟». قالت. «الأشياء آخذة في التبدّل».

لم يجبْ.

«عشْ حياتك، سبارو. إنه أحسن شيء يفعله أيٌّ واحدٍ منا من أجل ابنتنا».

مضتْ خارج الباب، عبر الزقاق، ومن ثم أصبحتْ في الشارع.

***

حين استيقظ سبارو من نومه، كانت الهدوء يخيّم على الغرفة والمدينة. خرج من فراشه، أشعل المصباح وأخرج الرسالة من مخبئها. على طاولة المطبخ، كانت الورقة تلمع بلون أبيض.

حتى لو كنتُ أملك وسائل الرحيل

كنتُ مقتنعاً بحياتي.

كانت سماء الليل كثيفة السواد. إنه يودُّ الحصول على بيانو، يودُّ أن يجلس، الآن حصريّاً، في ظلمة غرفةٍ للتدريب. الموسيقى، بالنسبة له، كانت على الدوام طريقة من طرائق التفكير. نحّى الصفحات جانباً. لا يستطيع سبارو أن يتخيل أن يترك ابنته وراءه. أي - مينغ تشبه تسهولي إلى حدٍّ كبير. هل كانتا متشابهتين بسببه هو، هل أخفق في أن يمنح ابنته الحيز الذي كانت تحتاجه؟ في الأعوام الثمانية عشر من حياة أي - مينغ، لم يفارقها قط، حتى يوماً واحداً. غطى الرسالة الرسالة بيديه ووبّخ نفسه لأنه كان مهموماً، مكتئباً. لئن كان بمستطاعه أن يكنس هذه الأشياء المُحزنة، التي لا بدَّ أن تكون نوعاً من الغبار من حيواته الماضية، سيكون أباً أفضل وزوجاً أرقّ. ثقة لينغ بنفسها وطيبتها كانتا قد آزرته وأطالت أمد بقائه دوماً. لا حقَّ له بأن يحزن. كان جارهم يرهف سمعه للراديو، بوسع سبارو أن يسمع النبرة الرتيبة لمذيع نشرة الأخبار إنما ليس الكلمات. انطلقت الموسيقى، وجعلتْ

تتردّد أصداؤها عبر الزقاق، إلّا أنّها كانت موسيقى لم يستطع التعرّف عليها، موسيقى من عصرٍ يجهله، موسيقى لُحّنتْ في الحاضر.

***

فوضى عارمة تسود الشارع، المعمل، ومنزله. شكَّ بأن أي - مينغ كانت تؤم «الساحة» يوميّاً، لكن لا هو ولا لينغ لديهما الإرادة أو التأثير كي يمنعاها من ذلك. في عطلة الأول من أيار «مايو»، اتصل هاتفياً بـ «قناة الماء البارد» من خلال تلفون المنطقة السكنية. بغ موذر أتتْ على الخط وصاحتْ قائلةً: «[عيد العمال]؟ نحن نعيش في بلدٍ شيوعي. كل يوم من أيامنا هو عيد العمال!». كان بوسعه أن يسمع الأب لوت يضحك وراءها. تذمرتْ بغ موذر قائلةً: «قلْ لـ أي - مينغ، تلك الكسولة، أن تدرس بجدّ». حين قال لها إن هنالك فوضى وقلاقل في بكين، ردّتْ قائلةً: «جيد! يجب أن لا يرتاح أحد».

كيف، تساءل، حين وضع سماعة الهاتف، استطاعتْ بغ موذر أن تربي ابناً من طينته؟ كان من المستحيل أن لا يؤمن بأذى الآلهة.

كانت تظاهرات «ميّ فورث» قد أتتْ ومضتْ، كبيرةً حالها حال تظاهرة السابع والعشرين من نيسان «أبريل» التي سبقتها، وتضمنتْ حادثةً غير متوقعة من «معمل الأسلاك رقم 3 في بكين»، وهو معمل سبارو. لكنه لم يذهبْ.

بات النوم مستحيلاً. لجأ سبارو إلى المشي ليلاً. حتى في الساعة الثانية أو الثالثة فجراً، كانت الدراجات الهوائية تطوف الشوارع، الطلبة الجامعيون يتنقلون بسرعةٍ من مكانٍ إلى آخر. بدا الزمن مرناً، وراح يتمدد إلى أمكنة غير مألوفة، بحيث إنّه كان بمقدوره أن يكون معاً في بكين وشنغهاي، رجل عجوز وشاب، في العالم وفي فكره.

ذات ليلة، صادف ثلاثة رجال وامرأتين يعزفون الموسيقى عند الأبواب المغلقة لـ «متنزه بحيرة اليشب». جعل الموسيقيون الزمن يتوارى. على آلات موسيقية صينية، عزفوا الافتتاحيات الراقصة المبجلة من «صور في

معرض تشكيلي» لـ موسورجسكي[1]. كانت حركات موسورجسكي العشر تصف جولةً متخيَّلة في مجموعة من الأعمال الفنية، وكان اللحن كُتب على شرف صديقه، الرسام الذي مات فجأةً في سن التاسعة والثلاثين. هيمن هدوء عميق وغير مألوف على سبارو. على عمودٍ قريب، كان شخصٌ ما قد لصق رسالةً، «كنتُ أبحث عن ذاتي، لكنني لم أتوقعْ أن أجد ذواتاً كثيرةً جدّاً لذاتي». حين أقبل الصبح، حزم الموسيقيون آلاتهم الموسيقية. ابتاع سبارو عود عجين والتهمه فيما كان يشاهد عمال الليل يغادرون مواقع عملهم بعد انتهاء نوبتهم وعمال النهار يمضون إلى مقارّ أعمالهم.

ذات مساء، وصل إلى البيت قادماً من المعمل ليجد هديةً من أي – مينغ. كانت قد ابتاعتْ واحداً من مسجلات الكاسيت اليابانية الجديدة، بحجم صغير يكفي لأن يُحمل بيدٍ واحدة. كانت ابنته مغتبطةً جدّاً بالميزانية، ولم تستطعْ أن تمنع نفسها من أن تفحص جميع الأزرار وتجرّب سماعتي الرأس، تضبط حجم الصوت وتعاود ضبطه. ربما كانا سيلهوان به طوال الليل لولا أن لينغ جرّتهما عنوةً لغرض تناول طعام العشاء.

استمرّ في سرنمته، مصغياً إلى «وولك مان»[2]. كانت أي – مينغ قد صنعتْ دزينةً من الأشرطة له، استنسختها، قالت من شخصٍ يُدعى «الشفاه المكتنزة». مؤخراً، أصبح لها أصدقاء كُثر في كل أرجاء المكان. ذات مساء، سار سبارو طول الطريق المؤدي إلى منطقة الجامعة مصغياً إلى «*تنويعات غولدبيرغ*» لـ باخ. في العتمة، يستطيع المرء أن يسمع بشكلٍ أحسن. أمست الموسيقى واقعيةً مثلها مثل أرصفة المشاة الكونكريت وجدران الآجر الصلدة. حراس مسنون عند مدخل «جامعة بكين» كانوا منهمكين في دست

---

1 – مودست بتروفيتش موسورجسكي (1839 – 1881): مؤلف موسيقي روسي، أحد أعضاء المجموعة المسماة «الخمسة». هو مكتشف الموسيقى الروسية، في الحقبة الرومانسية. سعى من أجل تأسيس هوية موسيقى روسية متفردة، في تحدٍّ مدروس للأعراف المؤسّسة للموسيقى الغربية – م.

2 – وولك مان Walkman: ماركة تجارية من ماركات «سوني»، استخدمتْ بشكلٍ رئيس للمسجلات الصوتية المتنقلة من أواخر سبعينيات القرن العشرين وحتى الآن – م.

الورق في منتصف الليل الذي دأبوا على ممارسته، وهكذا مرَّ سبارو عبر البوابة من دون أن يعترض سبيله أحد. ربما بملابسه غير المؤذية، كانوا قد حسبوه منظفاً أو أباً يقوم بزيارةٍ قادماً من الريف.

مصابيح منخفضة ومضتْ في مهاجع الطلبة الجامعيين حيث، بين الفينة والفينة، كان بالمستطاع رؤية شخصيات مستارة في النوافذ الضيقة. انتهى الشريط ونقر زر الطرد، رفع الشريط الصوتي وقلبه. كانت الماكينة قد أحدثتْ قرقعات مقنعة. رشقات من الضحك أتتْ من المهاجع، ووصلتْ بانفجارات متهادية. بوسترات لُصقتْ على السطوح كلها، رايات بكتْ من النوافذ، كانت الأرض طوفاناً من الأوراق والزجاجات الفارغة. كان هنالك عمال يكنسون الأنقاض، مكانس من الأغصان الصغيرة تقشط الإسمنت. انطلقت «التنويعات» من جديد. كان الكاسيت لـ غلين غولد، أخبرته أي – مينغ، لكنه كاسيت مختلف، فهو تسجيل العام 1981 لـ *«تنويعات غولدبيرغ»*. في اللحن الاستهلالي، كل نوتة بدتْ لـ سبارو كما لو أنّها مسحوبة بغرض الفتح وليست مضغوطةً للأسفل. غالباً، كان يسمع غلين غولد نفسه، يهمهم. لماذا رجع غولد كي يسجل القطعة الموسيقية نفسها مجدداً؟ لا أحدَ يمكنه أن يخبره بذلك. «الشفاه المكتنزة» وحده يملك هذه الطبعة الوحيدة. قالت أي – مينغ، نسخة لنسخة كان قد أعطاها إياه رجل أجنبي.

كان ذلك الطباق قد انطوى في ذهنه. كلما أوغل سبارو أكثر في «جامعة بكين»، تعاظمتْ أعداد الملصقات السياسية. حتى الأشجار لم تسلمْ من الملصقات. وُضعتْ مشاعل في الأعالي، وهنا وهناك ثمة صبيان يتسكعون بالسراويل القصيرة، يطالعون الصحف، مثلما كان يفعل أفراد جيل سبارو، عند دائرة البريد والأمكنة كلها، يدرسون الجرائد المعروضة في صناديقها البلاستيكية. لُصق عدد أكثر من الملصقات على الملصقات القديمة، صانعةً كتاباً أكثر سمكاً من أيّ وقت مضى للاحتجاج. في العام 1966، كتب «الحرس الأحمر» في بكين قائلين: «علينا أن نخبركَ، أن العنكبوت لا يستطيع أن يوقف دولاب عربة! سوف نمضي بالثورة الاشتراكية حتى

النهاية!». بعد ثلاثة وثلاثين عاماً، كتب طلبة بكين: «الديمقراطية تتطلب وقتاً كي توضع موضع التنفيذ، إذ لا يمكن تحقيقها بين ليلةٍ وضحاها». إلّا أنَّ عدداً معيناً من الأشخاص اقترحوا إضراباً فوريّاً عن الطعام من شأنه أن يجعلهم يحتلون «ساحة تيانانمين» قبل وصول ميخائيل غورباتشوف في بحر أربعة أيام.

أومأ غلام طويل القامة بتهديدٍ إليه، إلّا أنَّ غلين غولد منع سبارو من سماع الكلمات المرتفعة الصوت. أزاح سبارو سماعتي الرأس العائدتين له. «قلتُ، لا تفكر بتدمير أيّ شيء!». قال الطالب الجامعي بنفاد صبر. «إنني أعرف أنك جاسوس حكومي لعين!». دُهش سبارو كثيراً جدّاً بحيث إنّه همهم باعتذار.

رجع إلى الوراء، وكاد يعثر بعمودٍ كُتبتْ عليه الكلمات الآتية: «إن المجتمع الذي يتكلّم بصوتٍ واحد فقط ليس مجتمعاً مستقرّاً».[1]

أشاع النسيم البرودة في جسمه. غادر التل المعشوشب وخرج عبر بوابات بيدا، متجهاً إلى الطرف المحفوف بالأشجار لـ«متنزه هيديان». في هذه المدينة غير المألوفة، بدا غلين غولد هو صديقه الحميم الوحيد، الحضور المألوف جدّاً. أحقّاً أبدو كالجاسوس، تساءل سبارو. هل يوجد جواسيس يتصرفون مثلي؟

***

مئة راديو مرَّ عبر يديْ سبارو.

في الأمسيات، آن يمضي إلى «ساحة تيانانمين» كانت الجادات تمتاز بانفتاحٍ صافٍ، وفضلاً عن ذلك مسكون، الشوارع الرحبة نفسها بدتْ كأنها تعد بنهايةٍ لهذا الطريق المسدود. الحكومة لم تبطل إدانتها لاحتجاج الطلبة، بل شرعتْ تتكلّم بنبراتٍ مهدئة. السكرتير العام للحزب تسهاو تسيانغ،

1 - «إن المجتمع الذي يتكلّم بصوتٍ واحد فقط...»: اقتباس من تسهينغ يي، خلال تظاهرات 1989، كما أورده جورج بلاك وروبن مونرو في كتابهما *«أيدي بكين السود»*: 177 - ك.

الذي عمل عن كثبٍ مع الراحل هو ياوبانغ، استخدم كلمة الرابع من أيار كي يذيع وجهة نظره هو. «الطلبة الجامعيون»، قال، «كانوا يدعون» الحزب الشيوعي كي يصحح أخطاءه ويحسّن أسلوب عمله، وهذه الانتقادات كانت تتطابق مع خط تقييم الحزب لنفسه. يتعيَّن علينا أن نلبي طلبات الطلبة الجامعيين المعقولة عبر الديمقراطية والقانون. علينا أن نكون راغبين بإجراء الإصلاحات ويلزمنا أن نستخدم أساليب منطقية ونظامية». يا لدهشة سبارو الكبيرة، كانت الصحافة قد شرعتْ تكتب التقارير عن تظاهرات الطلبة التي كانت تجري ليس في بكين فقط، بل في خارج العاصمة، في ما يقرب من واحدة وخمسين مدينة. ظهر شرخٌ في النظام، والآن شرع الماء يندفع بقوة كي يوسّعه. قالت لينغ إنه حتى في وحدة العمل خاصتها في «راديو الدولة»، كان الإجماع هو أن الحكومة كانت قد استخدمت القوة المفرِطة. وفّرت التظاهرات فرصةً: لئن كان الحزب قادراً على أن يبرهن على نزاهته، سوف يكسب ولاء الأجيال القادمة.

استمرت الليالي، وأصبحتْ أحرّ من أيّ وقتٍ مضى. كتب إلى كاي قائلاً: «نعم، سآتي»، وبعد أن بعث الرسالة، ضيّع نفسه من خلال المشي عبر أزقة «موكسيدي»، مصغياً إلى أشرطةٍ أخرى عائدة لـ أي - مينغ، هذا الشريط هو «السيمفونية الرابعة» لـ شوستاكوفيتش، التي لم يعزفها أحد منذ خمسة وعشرين عاماً. كيف ستكون الرحلة إلى كندا في هذه المرحلة من حياته؟ ماذا لو كان بمستطاع كاي أن يتولى رعاية أي - مينغ؟ سوف يسدد له الدين لاحقاً. ولكن ماذا بشأن لينغ وهذه الحياة؟ ماذا عن أبويه؟ بأيّ طريقة لا يزال هو مؤلفاً موسيقيّاً إذا كان لم يؤلف صوتاً واحداً طوال ما يزيد على عشرين عاماً؟ ما من أجوبة على أسئلته هذه.

مع ذلك، الشيء الذي كان يدركه هو أن كاي سوف يجلب له سعادةً غامرةً، لا يمكن نكرانها، وغير مضعّفة. وحين بعث رسالته، أحسَّ سبارو أنه تغيّر بصورةٍ مفاجئة. تلك الكلمات البسيطة القليلة يمكنها أن تحوّله من حالٍ إلى حال: نعم، *سآتي*، ألقته في لجة بحرٍ من القلق، عدم الاستقرار. لكن

لماذا يتعيَّن عليه أن يبقى خائفاً؟ ألم يطرأ تغيير على المجتمع؟ مضى شهر تقريباً على وفاة هو ياوبانغ، شهر استمر خلاله طلبة بكين بمقاطعة الدروس. انتشرتْ شائعات مفادها أن أعضاءً رفيعي المستوى في «الحزب الشيوعي» كانوا مستعدين للجلوس مع الطلبة الجامعيين، وجهاً لوجه، وأن يسهموا في حوار متلفز. لئن حصل هذا فعليّاً، ستكون هذه أول مرة يجري فيها حدث كهذا في زمن حياة سبارو، لم يستطعْ أن يسبر غوره، وتذكّر، مع ذلك، هِي لوتنغ، يرغمه عناصر «الحرس الأحمر» على أن يخفض رأسه إلى الأسفل.

إن تغييراً في نظام الحكومة لديه القوة بأن يغيّر البناء الجوهري للعالم الذي يعرفه. سوف يمضي إلى هونغ كونغ. نهاية صادقة ستأتي في خاتمة المطاف. هو وكاي لم يعودا في مقتبل العمر، فلكل واحدٍ منهما أسرته الخاصة. من الصعب أن ينتقل من دون غاية... لكن ينتقل إلى ماذا؟ لم يكنْ بوسعه أن يفكر بعيداً جدّاً في المستقبل وإذا ما فكّر في لينغ، سوف تتبخر كل تصوراته الصبيانية. تغيّر كل شيء خلال يوم واحد، خلال ساعة، لحظة. في الماضي، كان قد أساء قراءة الأحداث، كان ردّ فعله بطيئاً جدّاً. كان سبارو قد اقترف أخطاءً لكنه وعد نفسه بأنه لن يكررها ثانيةً. الآن، في أوقات العصر، آن يأتي سبارو إلى البيت من موقع العمل، يجلس إلى طاولة كتابة أي - مينغ ويؤلف الألحان. السيمفونية رقم 3 قد مضتْ، لم يعدْ قادراً على استعادة ما يُحتمل أن حصل في سالف الزمان، لذلك بدأ يشتغل على عملٍ جديد، قطعةٍ موسيقيةٍ أبسط، سوناتا للبيانو والكمان. المؤلف الموسيقي تورو تاكيمتسو[1]، وصف، ذات مرة، عمله هو بوصفه «الفيفة صورة يُكشف عنها»[2]، وشعر سبارو بصلة قرابة مع هذه الصورة. كان قادراً على سماع هذه السوناتا في رأسه بيقين يضاهي يقينه بسماع باخ وشوستاكوفيتش في المسجل كاسيت. كانت السوناتا واقعيةً وكان قد ابتكرها مسبقاً. إن عقل

---

1 - تورو تاكيمتسو (1930 - 1996): مؤلف موسيقي وكاتب في الموسيقى وعلم الجمال، ياباني الجنسية - م.

2 - تورو تاكيمتسو كما اقتبس منه أليكس روس في كتابه الموسوم بـ *«البقية هي ضجيج»*: 564 - ك.

المرء، يقول المثل السائر، يخفي معلومات تزيد على أحمال خمس عربات من الكتب. كان ذلك يضاهي التنفس مجدداً، ليس فقط برئتيه هو بل بكل عقله.

في الثالث عشر من أيار «مايو»، بدأ الطلبة الجامعيون إضراباً عن الطعام. كان سبارو يعمل في غرفة أي - مينغ حين أُذيع الإعلان عن الإضراب على الراديو. شعر أن مقطوعة البيانو والكمان كانت تظهر بدرجة سرعة متصاعدة، ومسح عمل الساعة الأخيرة وبدأ من جديد، وراح يُحصي ثانية الأوزان، ويبدل الحيز بين النموّ والرجوع، وهما موضوعان يسند أحدهما الآخر. كان من الصعب الإمساك بخط البيانو، إلّا أنَّ الكمان بدا طيّعاً ومتواصلاً. لم تكن المقطوعة الموسيقية بطوليةً، كانت تطمح فقط أن تعزف نفسها بمفردها، مع أنّها كانت تعرف أن شيئاً كهذا هو غير ممكن من الناحية الواقعية.

ناقش معلّقٌ على الراديو بأن هؤلاء الشبيبة الثوريين كانوا جزءاً من محاولةٍ مدروسةٍ من أجل إذلال الحكومة والأمة الصينية. «لماذا بدؤوا إضراباً عن الطعام يومين قبل القمة التاريخية مع ميخائيل غورباتشوف؟ هذه هي الزيارة الأولى لزعيم سوفييتي منذ أربعين سنة...». وقال معلّق آخر بأن نوايا الطلبة الجامعيين كانت طيبة، إلّا أنَّ طرائقهم غير ناضجة، وكان شيئاً أساسيّاً أنهم أحجموا عن تدمير صورة الأمة. كما بدت الأخبار أيضاً كأنها تتصارع مع مقدمتها هي؛ أعلن قارئ نشرة الأخبار أن السكرتير العام للحزب تسهاو تسيانغ يفضّل الإصلاحات الصحافية البعيدة المنال، بحيث إنّ المضمون والتحليل سيقرره محررو الأخبار وليس موظفي الحزب. اندلع وجع شديد في ظهر سبارو بنحوٍ غير متوقع، وأحسَّ كأنه بيانو عتيق لا يمكن أن يُدوزَن.

في أثناء عمله اليوم التالي، كان المعمل عاطلاً. كان نصف شركائه في العمل قد تعاقدوا مع «اتحاد العمال المستقل» الجديد الذي كان يشتغل تحت تربولين[1] في «جادة تشانغآن». كانوا قد تمادوا كثيراً بحيث إنّهم باتوا يعرّفون أنفسهم بأسمائهم الحقيقية، وحتى إنهم يُظهرون «باجات» عملهم.

1 - التربولين: قماش مشمع أو مقيّر - م.

كان زملاؤه في المعمل يريدون فقط الحصول على أخبار عن «الساحة». لم يتعاقدْ سبارو بعدُ، بل كان يريد أن يتخيّل نفسه وهو يركب الطائرة المتجهة إلى هونغ كونغ. كان كاي صادقاً في كلمته وكانت تأشيرة خروج سبارو قد تمَّت الموافقة عليها. لأول مرة في حياته، سيسافر إلى خارج الصين. كان كاي قد باشر بتعويم أفكار أخرى. *يمكننا أن نعطي دروساً في «المعهد العالي للموسيقى في هونغ كونغ». كما أنني وجهتُ أسئلة إلى «المعهد العالي للموسيقى في فانكوفر» لاستيضاح الأمور. ماذا كنتَ تؤلف من مقطوعات موسيقية؟ ابعثْ لي ما بحوزتك.* بدأ يشك بأن كاي كان يعيش على وهمٍ أكثر تعقيداً من وهمه هو.

مروحة، التي تشتغل معه في الخط الإنتاجي نفسه، قرعتْ بقلمها الرصاص على طاولة الكتابة العائدة له. «رفيق سبارو»، قالت. «تبدو بشعاً. هل تعاني من الحمى؟ هل هي مُعدية؟ ربما يتعيَّن عليك أن تذهب إلى البيت وترتاح».

كانت مروحة لا تزال يافعةً جدّاً، فكّر سبارو فجأةً. لو كانت تسهولي لا تزال حيةً، ستكون الآن في سن السابعة والثلاثين. في أيامنا هذه، كانت تدخل ذهنه بحرية، كما لو أنّ الحاجز بينهما قد تحطم.

«لستُ...».

«اذهبْ. الإنتاج غير موجود على كل حال». نهضتْ مروحة، كان بمستطاعه أن يراها في الممشى التالي تتحدث مع مشرف الطابق الأرضي، المعروف للجميع باسم «الرضيع ذرة». لا يعرف سبارو لماذا. كانت يداه ترتجفان. ربما لديه حمى. أقبل الرضيع ذرة، مراعياً لرغبات الآخرين، كما لو أنّ سبارو جده.

«رفيق سبارو، إنكَ تبدو رجلاً ميتاً واقفاً على قدميك. خذِ استراحة في ما بعد الظهر. ستعود إلى نوبة عملك غداً في كل الأحوال، أليس كذلك؟».

«إنني بالأحرى أفضل البقاء». كان سبارو يخشى من تعرضه للنقد، لاحقاً، لأنه لم يعملْ بكل طاقته. سوف يغتنمون هذا الضعف كي يعيدوا

ترتيب الأسبقيات وينحّوه جانباً. لو أنّه فقد مهنته، فربما يسحبون أوراق بكين الخاصة بـ أي - مينغ، ولن يسمحوا لها بأداء امتحانات الجامعة.

«إنني أصرّ»، قال الرضيع ذرة، ذاهلاً. تجول خطوات قلائل وأمعن النظر في الوجه الكبير لساعته اليدوية الحديثة الطراز.

«تعال»، همستْ مروحة. «إنه يشعر بوجع حقيقي حين يتضور جوعاً. ناهيك عن ذلك، أنتَ تبدو *مروّعاً*... هل آذيتَ ظهركَ؟ في سنكَ، يلزمكَ أن تعتني بنفسك أكثر».

حين غادر، سمع قارئ نشرة الأخبار يقول إن المحادثات بين الحكومة والطلبة، التي من المزمع عقدها صباحاً أُلغيتْ. في الخارج، حتى النسيم بدا لزجاً. كان قد بدأ يركب دراجته الهوائية من وإلى مقرّ عمله لأن الحافلات غير متاحة. أخبرته لينغ أن شبيبةً من كافة أنحاء البلاد بدؤوا يتدفقون على بكين بعشرات الآلاف. كانوا يطلون عربات القطار بشعارات الديمقراطية بحيث إنّه أينما تمضي القطارات، سوف تمضي، أيضاً، رسائل الطلبة. كان سبارو يقود دراجته الهوائية بتؤدة عبر الأرض المخصصة للمعمل، خجلاً من الإعياء الذي يحسّ به. لو لم يكنْ محترساً، لكانوا جميعاً قد سمّوه: الجد، وهو شيء جدير بالضحك لأنه حتى لم يبلغ سنّ الخمسين.

كان قد بلغ «جادة تشانغآن»، دراجته الهوائية قد سارتْ ببطء عبر حركة المرور كما لو كان جزءاً من موكبٍ أكبر. لم يكنْ يعني الذهاب إلى «ساحة تيانانمين»، إنه فقط أغفل الانعطاف يميناً بعد «جسر موكسيدي»، واستمر بالسير إلى الأمام. كانت «جادة تشانغآن» مكتظةً جدّاً؛ لم يعدْ بوسعه الآن أن يستدير حتى لو شاء ذلك. كان قد نشأ في شنغهاي، أحدث المدن الصينية، وفضلاً عن ذلك إنه يشعر أنه غريب هنا، بسبب عمقه. كان طوفان أهل بكين قد جرفه للأمام إلى أن، وهو يلمح «الساحة»، رأى أن الرايات قد اكتسحتها مرةً أخرى؛ تلك الرايات مثّلتْ جامعات كثيرة العدد لا يستطيع أن يحصيها. والآن لا يرغب سبارو أن يكون هنا. كانت مكبرات الصوت تذيع بشكلٍ متواصل. كان صوت الشابة الضعيف يفرقع على الشارع: «البلد هو *بلدنا*.

الشعب هو شعبنا. الحكومة هي حكومتنا. مَن يصيحُ إن لم نصخ نحن؟ مَن يعملُ إن لم نعملْ نحن؟».[1]

ترجل سبارو من على دراجته الهوائية وبدأ يدفعها. كانت الشابة تستخدم كلمات الرئيس ماو بالضبط، تلك التي كتبها آنَ كان ماو تسي تونغ مقاتلاً شاباً.

بجانب سبارو، كان ثمة رجل ضخم الجسم بوجهٍ رمادي يطالع الجريدة بينما هو يمشي.

«هذا الإضراب عن الطعام»، قال سبارو له. «هل هو حقيقي؟ هل سيرفض الطلبة الجامعيون تناول الطعام فعلاً؟».

«إي! هؤلاء الأولاد...». كان [باج] الرجل الغريب، موسوماً بالكلمات الآتية: «حديد وفولاذ العاصمة»، يرتعش من مِشبكٍ في قميصه. «سوف ينتهي في غضون ساعات قلائل. سوف يرافقون العجوز غورباتشوف إلى [الساحة] غداً والحزب سوف ينفض الأولاد من «تيانانمين» مثلما يُنفض النمل من على عصا».[2] طوى الجريدة إلى النصف. «هذا ما قاله لي ابني، على أية حال».

«وهؤلاء الناس كلهم؟».

«بالضبط. لقد أتيتُ لأرى ما الذي يجعل الجميع غاضبين جدّاً. بالطبع، إنني أُبدي إعجابي بمُثُلهم العليا. مَن لا يُبدي إعجابه؟ إنما حتى نكرةٌ من مثلي يستطيع أن يرى أن الطلبة الجامعيين والحكومة لا يتكلّمون باللغة عينها. الجميع يرغبون بأن يُصلحوا البلد ويقوّموا نهجه، لكن الجميع يتعطشون

---

1 – إذاعة راديو الطالب الجامعي، من «بيان الإضراب عن الطعام» الذي قرأه تشاي لينغ، اقتبسه المحررون ليانغ تسهانغ، أندرو جيّ. ناثان، بيري لينك، أورفيلي شيل في كتابهم المعنون: *«أوراق تيانانمين»* (نيويورك: القضايا العامة، 2008): 154 – ك.

2 – استخدمت الكاتبة مادلين ثين مصطلح: shake off الذي يعني: ينفض عن. لكننا نقول بالعربية إن القوات الأمنية فضّت الاعتصام، أو المعتصمين، أو المضربين عن الطعام – م.

إلى السلطة أيضاً، أليس كذلك؟ هذا ما كنا نتحدث عنه في الـ «دانوي»[1] خاصتي...». ربّتَ على باجه. «وحدة العمل خاصتنا قوامها أكثر من مئتي ألف عامل وإذا ما وقفنا إلى جانب الإضراب عن الطعام، سوف يتغيّر كل شيء، صحيح؟ هذه ثورة وحشية». تناول كيساً من الكعك المحلّى، كما لو بقوة السحر، من يده الأخرى وأعطى كعكةً واحدةً إلى سبارو، الذي قبلها منه. أكل الرجل نصفها بقضمة واحدة. «ألديك أولاد، رفيق؟».

«ابنة واحدة».

«أتمنى أن لا تكون طالبة جامعية».

«الحمد لله، ليستْ كذلك».

بلع الرجل قطعة الخبز وغسلها بجرعةٍ من شاي الترمس العائد له. «بصراحة، لا أفهم ماذا جرى لنا. الجنون الذي مررنا به، جيلٌ بأكمله يلطم على رأسه هو... كيف حصل أننا وصلنا إلى النقطة نفسها؟». أعاد الغطاء إلى الترمس العائد له. «هيي، إنكَ لستَ من البوليس السري[2]، صحيح؟ قال لي أحدهم إن هنالك آلافاً من أفراد البوليس السري يستطلعون بتطفل هنا وهناك».

«تقصد جاسوس؟» ابتسم سبارو. «كلا، إلّا أنَّ أشخاصاً آخرين يظنونني كذلك».

«لأنكَ شخص مسالم جدّاً»، قال الرجل. «لا تغضب مما يقوله أو يفعله شخصٌ آخر. إنكَ فقط تملك وجهاً مُصغياً جدّاً».

***

كان قد حلَّ الغسق. وراء «نُصُب أبطال الشعب»، مئات الطلبة الجامعيين

---

1 – دانوِي: هو الاسم الذي يُطلق على موقع العمل، في جمهورية الصين الشعبية. مع أنّ هذه الكلمة لا تزال متداوَلة حتى الآن، إلّا أنّها في الأرجح تُشير إلى حقبة النظام الاشتراكي، آنَ كانت الدولة تملك المؤسسات الاقتصادية – م.

2 – ورد في النص الإنكليزي تعبير plain coat: والذي يعني: أصحاب الستر الخالية من الزخرفة، «السادة»، بحسب الدارجة العراقية. وهذا النوع من الستر يرتديها المخبرون السريون أو العناصر الأمنية، كما هو واضح في المتن أعلاه – م.

كانوا مضطجعين على الأرض. كان يحرسهم طلبة آخرون، يلبسون عصابات الأذرع الحُمر، عملوا نوعاً من الحواجز البشرية من حولهم. أحسَّ سبارو أن عالماً كان يسكن في داخله قد فُتح عنوةً على مصراعيه. لكن ألم يكنْ هؤلاء الطلبة أيضاً يقيمون في عالم شيّدوه بأنفسهم؟ كان المُضرِبون عن الطعام يملكون مستقبلاً زاهراً جدّاً في البلد بأسره. كونهم خريجي «جامعة بكين» سيكونون مسؤولين عن آبائهم وأجدادهم، عن إخوانهم وأخواتهم إن كان لهم أخوة وأخوات، ومع ذلك ها هم أولاء، مستلقون على الكونكريت العاري. شعر برعبٍ مزعجٍ يقشط رئتيه. تدحرج ثلاثة غلمان على دراجة هوائية واحدة، بحركة بهلوانية، مبتهجين. صاحوا قائلين: «نريد أن نأكل ديمقراطية مقلية!». وانبجستْ موجةٌ من الضحك من طلبة جامعيين يرتدون «البيجامات». أين آباؤهم؟ تساءل. إنما، الآن، غلامٌ بعصابة ذراع حمراء أقبل إليه وقال بصرامةٍ: «لا تأخذ هذا مأخذاً سيئاً، رفيق، إنما مسموح لنا هنا فقط. إنه من أجل توفير الأمان لثوريي الإضراب عن الطعام». أومأ سبارو برأسه، وهو يتراجع للوراء. كان التسجيل على مكبرة الصوت قد بدأ ثانيةً، إنه الصوت الضعيف نفسه كما في السابق: «اليوم الحرية والديمقراطية يجب أن نشتريهما بحيواتنا. هل هذه الحقيقة شيءٌ يتباهى به الشعب الصيني؟».

رفع سبارو بصره، ساعياً إلى أن يجد مصدر الإذاعة، إلّا أنَّ لانهائية السماء جعلتْ من الصعب أن يرى المرء ما هو الشيء القريب.

لقد شختُ، فكّر. لم أعدْ أفهم طرائق هذا العالم.

***

في صبيحة اليوم التالي، إذ وقفا تحت مظلة مروحة المزهرة خارج بوابات المعمل، أعطتْ مروحة لـ سبارو كراسةً فيها لائحة تتضمن مطالب المُضربين عن الطعام. كان هنالك مطلبان فقط: الحوار المباشر على قدمْ المساواة، والاعتراف بشرعية الحركة الطلابية. أخبرته فان أن عمال «معمل الأسلاك رقم 3 في بكين» سوف يسيرون في موكب تضامناً مع طلبة السادس عشر من أيار «مايو». سمعتْ مروحة أن جميع مصانع بكين تقريباً، فضلاً عن

المعاهد العلمية والتربوية، تخطط في الاتجاه نفسه. كانت مروحة مقهورةً بشكل غير اعتيادي، وحين سألها سبارو ما إذا كانت بخير، ردّتْ عليه قائلةً إن شقيقتها في «محافظة غانسو» تعرضتْ لإصابة في أثناء العمل لكن مروحة لا تعرف درجة خطورة الإصابة. «وكنتُ أقصد [الساحة] في كل ليلة بعد انتهاء عملي»، قالت، «كي أقدّم المساعدة قدر استطاعتي، لأن هؤلاء الأولاد النحيلين والبنات الهزيلات لم يأكلوا شيئاً منذ ثلاثة أيام، والحكومة لم تحرّكْ ساكناً حتى الآن. كيف وصلنا إلى هذه الحال؟». أشاحتْ مروحة وجهها الذي بدتْ عليه سيماء القلق. «وأنا لا أرغب بأن أصنع الراديوات بعد الآن». تطلعتْ إلى الوراء وضحكتْ، ضحكةً ضائعةً، حزينة. «ثمة فرد يرغب بصنع الراديوات؟». قالت. «أوه، اللعنة على عملكَ الثاني!».

كانت هذه شتيمة بكينية خاصة وجعلتْ سبارو يبتسم.

رفعتْ مروحة حاجبيها، الأمر الذي جعل أُذنيها تتلويان قليلاً. مالتْ بعبث نحوه، اقترب أنفاهما كثيراً جدّاً حتى كادا يتماسان. «ماذا تنوي أن تفعل، رفيق سبارو، لو كنتَ حرّاً في اختيار مهنة معينة؟».

لم يتلعثمْ. «أودّ أن أعزف على البيانو».

أطلقتْ مروحة ضحكةً شبيهةً بصيحة الإوز. أقبل شخصٌ ما مرتقياً السلالم، وأنزلوا علب غدائهم القصديرية بدهشةٍ وأطلقوا *«واااا»* حزينةً، رقيقة!. لم يفت الأوان بعدُ على التعلّم!» صاحتْ مروحة.

ابتسم سبارو. «أعتقد ذلك».

«لكن البيانو هو نوعٌ معين، رفيق»، قالت وهي تغدو جديةً، «من الهواية ويمكن ممارستها بالإضافة إلى مهنة ثابتة وما عنيته بسؤالي هو مهنة معينة تتطلب التزاماً على مدى حياة المرء. كنتُ أريد أن أصبح طبيبةً، وأعتقد أنني أخبرتكَ بذلك مرةً، كنتُ أودّ أن أفتح عيادةً طبية خاصةً في مدينة شقيقتي لكنكَ تعرف كيف كانت الحال في ذلك الحين. لم يكن الأمر متروكاً لي وحدي».

كانت حبات المطر تضرب المظلة بصوتٍ غير رنان. كنتُ أريد أن أرى

ابنتي وقد اشتد عودها، فكر سبارو. كان الهاجس قد أخافه كثيراً بحيث إنّه مدَّ يده، راغباً في القبض على الجدار، ولكنه لم يقبضْ إلّا على الهواء.

لم تنتبهْ مروحة. كانت أصابعها تنقر بتكاسل على مقبض المظلة، كأنها تعزف على آلة موسيقية متخيّلة. «فيما يتعلق بالحديث عن البيانوات»، قالت. «أتذكر ذلك الموسيقي في العام 1968، المؤلف الموسيقي من شنغهاي، ذاك الرجل الفارع القامة ذا الوجه الطويل، ماذا كان اسمه؟ كانوا قد حبسونا في حجرةٍ وجعلونا نشاهد [جلسة النزاع] الخاصة به. كان ثمة رجل مُسنّ يُشبِع ضرباً على أجزاء جسده كلها في بثّ مباشر من على التلفزيون وكان يتعيَّن علينا أن نطلق عليه مزيداً من النعوت المُهينة».

«هِي لوتنغ».

«هو ذا اسمه بالضبط! مباشرةً على التلفزيون، كانوا يريدون أن يجعلوا منه أمثولةً. لم أفكرْ فيه من سنوات عدة. أتتذكر الحادثة؟».

«إنني أتذكرها».

«نعم، يا فتى. كان يتحتَّم على الجميع أن يشاهدوها، لا يهم إن كنتَ تعمل في الطوابق العليا أم في السرداب. لذا سمعنا كلنا حين كان يصرخ: [كيف تجرؤون، كيف تجرؤون... *عارٌ عليكم لأنكم تكذبون.*] هذا ما قاله، جعل يجأر من دون انقطاع: [العار! العار!] أولئك [الحرس الأحمر] لم يكنْ باستطاعتهم أن يصدّقوا. لا أزال أتذكر سحناتهم، عيونهم الكبيرة وأفواههم الخرساء. لا أحدَ كان قادراً على تصديق ما يجري، يا لأعصاب هذا الرجل. إني أتساءل ما إذا كان لا يزال حيّاً».

«إني أظن هذا»، قال سبارو.

«*عارٌ عليكم!* لن أنسى ما حييتُ». غابتْ لحظةً في تفتيشها الخاص. «كنا جميعاً نعرف أنه، ما إن تُغلق آلات التصوير، بووو، ستكون عندئذٍ قد حلّتْ نهايته. لن يدعوه يفلت منها».

«لكن فيما بعد، هل أنتِ نفسكِ أصبحتِ مختلفةً؟».

نظرتْ مروحة إليه، مصعوقةً. «رفيق سبارو، أيّ سؤالٍ هذا؟... كيف

يتسنى للمرء أن يكون مختلفاً؟». أطلقتْ تنهيدةً ساخطةً. «من المؤكد أن هِي لوتنغ هذا برهن على أنه من الممكن أن يقاوم، أن يصمد... لكنني مع ذلك لا أعرف كيف حدث ذلك. [الحرس الأحمر] في حينها، الشبيبة، إنكَ تعرف كم كانوا قساةً، وفاسدين...». مدتْ يدها في جيبها وأخرجتْ حفنةً من الحلوى. «تحب هذه، أليس كذلك؟ حلوى ماركة [الأرانب البيض]. خذْ قليلاً من هذه الحلوى ولا تطرحْ عليَّ مزيداً من الأسئلة. حسناً، إنني جبانة! لكن تبّاً لأسئلتك، لقد جعلتني أشعر كما لو أنّي أنتمي إلى معمل ولن أستحق مكاناً أفضل منه».

«لا تقلقي»، قال سبارو، وهو يتقبل منها قطعة الحلوى. «إنني على غراركَ تماماً. لديَّ الرغبة، لكنني لا أملك الإرادة».

«والآن؟» سألته مروحة.

هزَّ رأسه، إنما حدث أنه الآن، أخيراً، حين امتلك الإرادة، الرغبة نفسها ربما تكون قد تلاشتْ. على مدى عشرين عاماً، كان سبارو قد أقنع نفسه بأنه صان أكثر الأجزاء حسماً من حياته الباطنية، صانه من الحزب، الذات نفسها التي لحّنتْ وفهمت العالم من خلال الموسيقى. يا ترى، كيف يمكن أن يحصل ذلك؟ الزمن يعيد صنع الإنسان، أيّ إنسان. الزمن أعاد كتابته. كيف يستطيع المرء أن يقاوم الزمن نفسه؟

***

في تلك الليلة، حين عادتْ أي - مينغ إلى المنزل دامعة العينين، أعطاها سبارو قطعةً من الحلوى، بلا حول ولا قوة. كان يعرف أن أي - مينغ كانت تمكث في «الساحة» يوميّاً وكانت توهم الناس بأنها طالبة جامعية. قالت ابنته إن مئات من الطلبة الجامعيين فقدوا وعيهم، وكانوا يتلقون السوائل الوريدية. كانت قد سلخت النهار كي تُبقي ممرّاً خالياً أمام تدفق سيارات الإسعاف. كيف يُقيض له أن يصيح عليها؟ أكثر من ثلاثة آلاف شخص كانوا قد انضموا إلى الإضراب عن الطعام وكان بعضهم يهددون بأن يضرموا النار في أجسادهم. لكنه شاهد، حين مرَّ بتلفزيون الحيّ السكني، أن المواجهة

مع الحكومة لا يمكن أن تستمر إلى أجلٍ غير مسمّى. راقب قصاصات «كليبات» من فيلمٍ عن وصول غورباتشوف إلى بكين، جميع أعضاء المكتب السياسي للحزب يقفون بثبات على الإسفلت، وجوههم كئيبة مثل ستراتهم الشاحبة. السكرتير العام للحزب تسهاو تسيانغ كان التقى غورباتشوف، جلسا على كرسيين واسعين جداً بالمقارنة بجسميهما. قال الرفيق تسهاو إن بعض الشبيبة لديهم وساوس بشأن الاشتراكية، وإن همومهم مخلصة، ولهذا السبب فإن الإصلاح شيء حاسم. كان مذيع نشرة الأخبار يقرأ من دون أن يرفع بصره. كان الحفل الكبير الذي خُطط بأن يكون في «ساحة تيانانمين»، قد قصد به أن يُحتفى بأول زيارةٍ يقوم بها زعيم الاتحاد السوفيتي منذ العام 1959، قد أُلغي.

***

في صباح اليوم التالي، الأربعاء، التقى سبارو زملاءه في العمل عند «جسر موكسيدي». كان الجميع قد اكتسوا ببدلاتهم النظامية الزرق القاتمة النظيفة والمرتبة، بينما حولهم كانت «جادة تشانغآن» تتبجح بنوعٍ من النشوة والحزن. كان هنالك أناس من المصانع في أنحاء المدينة يصلون من دون انقطاع بالشاحنات والحافلات التي أُعيد تصميمها. كانت مروحة منهمكةً بإعطاء الأوامر، كان لها صوت حادّ بنحوٍ يكفي لتهشيم الزجاج. كان أولد بي هناك، أيضاً، مع داو - رين، الذي حمل أحد جانبيْ راية كُتب عليها: «لم نعدْ قادرين على البقاء صامتين». حتى المشرفون في الطابق الأرضي، المديرون والموظفون ذوو المراتب العليا كانوا يمشون معهم. كان قد سمع أن بعضهم، بمن فيهم الرضيع ذرة، لديهم أولاد انضموا إلى الإضراب عن الطعام، وكان ذاك حقيقيّاً، الرضيع ذرة لم يبدُ على ما يرام. كان نسيمٌ منعش قد جعل الرايات كلها تتجعد وتتموّج، وخطر بباله تعبير لـ بغ موذر: *«أولئك الذين يزرعون الريح سوف يحصدون الزوبعة»*. في النهاية انطلقوا، وراء راية «معمل الأسلاك رقم 3 في بكين». كانت السماء مثل ستارة صفراء لا يمكنهم أن يجتازوها تماماً.

أصبح الجوّ صاخباً إذ تبدتْ للعيان «ساحة تيانانمين». شاهد رايات تعلن عن «شركة حافلات بكين»، «مخزن أكسيدان التنويعي» وبنحوٍ صادم، «أكاديمية الشرطة في بكين». كانت لينغ هنا، أيضاً، تسير جنباً إلى جنب مع زملائها وزميلاتها العاملين معها في «راديو بكين». رجال من «حديد وفولاذ العاصمة» كانوا يلوّحون بأعلام برتقالية كانت قد اشتعلتْ بأشعة الشمس. كانوا بأجسام ضخمة وقوية، وقد أخذوا على عاتقهم أن ينظموا حركة المرور. كانت الحياة في حالة تدفق، أوركسترالية ولا يمكن تمييزها على الإطلاق. عبر مكبرات الأصوات كان ثمة طالب جامعي يقول: «أمنا الصين، اشهدي الآن مآثر أبنائكِ وبناتكِ»، فيما كان صحافيون أجانب ممَّن أقبلوا كي يكتبوا التقارير الصحفية عن القمة الصينية - السوفييتية، بأعداد كثيرة بحيث إنّهم بدوا كأنهم يضاعفون أنفسهم بين لحظةٍ وأخرى. صحافيون ومحررون من *«بيبلز ديلي»* كانوا يسيرون تحت رايةٍ بلونين أحمر - و - ذهبي، وهما لَوْنا أفول الشمس. في كل حدب وصوب، كان هنالك طلبة، مخمورون تقريباً من أثر الإرهاق، جمعوا التبرعات، وكانت دلاؤهم البلاستك وعلب البسكويت القصديرية خاصتهم قد فاضتْ. كان العمال المحيطون بـ سبارو قد باشروا بشراء الماء كله، وراحوا يغذون أنفسهم بتناول البسكويت، المثلجات ذات العيدان وعصي الفواكه المجمدة، ويرسلونها بالعربات التي تجرها الجياد إلى المضربين عن الطعام. أحسَّ سبارو كما لو أنّ كل حيواتهم الماضية، كل ذواته، كانت تمشي إلى جانبه.

«رفيق سبارو»، قالت مروحة، وهي تمسك بذراعه، «هل أنتَ على ما يرام؟ يتعيَّن علينا أن نجد شيئاً من الثلج من أجل الجرح الذي في ظهركَ».

«إنني على ما يرام»، قال. كان صوته أجش. «لم أتصوّر أبداً هذا العدد الهائل من الناس...».

ابتسمتْ مروحة بسمةً عريضةً جدّاً وبوغتْ بأنها كانت تنتحب.

في مكبرات الصوت، كان ثمة طالب موهوب يخاطب الجموع قائلاً:

«هنالك أشياء لا يمكنني أن أتقبّلها من الحكومة[1]، وثمة أشياء متطرفة في الحركة الطلابية. لكن التاريخ هو عملية من هذا النوع، الأشياء كلها مختلطة...».

في بحر أسبوعين، سيطير إلى هونغ كونغ كي يرى كاي، ومع ذلك أغفل أن يخبر لينغ أو ابنته بهذا التفصيل المهم، والحقيقة هي أنه كان يخفي أشياءً حاسمةً كثيرةً جدّاً لا يمكن المرور بها مروراً عابراً. ردّدت الأبدان كلها والمباني كلها أصداء الترنيمة: *هل تقوى الأكاذيب على الاستمرار إلى الأبد؟* حين وصل إلى «الساحة»، فكّر، هذا هو إذن شكل «ساحة تيانانمين» حين تكون ممتلئةً تماماً. حتى الرئيس ماو لم يحيا كي يراها بهذا الشكل. كان بورتريه ماو على البوابة، مألوفاً جدّاً وربما يكون أيضاً القمر في السماء، بدا أنيقاً ولبس ثوباً خارجيّاً بسبب رطوبة الربيع. على الرغم من المتظاهرين المليون، كان رجال البوليس المرئيون فقط هم أولئك الذين يسيرون متضامنين مع الطلبة الجامعيين. كانت مكبرات صوت الطلبة تحضّ المضربين عن الطعام على الالتزام بالنظام، كي «يناموا نوماً نظيفاً»، وأن يحجموا عن لعب الورق، لأن سلوكاً كهذا سوف يقلل من شأن نقاء وسموّ أهدافهم. كان الطلبة الجامعيون الصائمون لا يملكون حصراناً «جميع حصير» أو تربولين كي يرقدوا عليها، بل مجرد صفحات من صحف قذرة. ثمة لافتة تشير إلى: «الحزب يحافظ على سلطته من خلال اتهام أبناء الشعب بجرائم سياسيةٍ مفبرَكة».

لم يستطعْ سبارو أن يتخيّل كيف سيبدو مَشهدٌ كهذا من خلال عينيْ تسهولي، في العمر الذي تكون فيه الآن. كم عدد الحيل التي اتهمها بها «الحرس الأحمر»؟ كم عدد الجرائم التي فبركتها الحكومة ضدها؟ كيف يتسنى لكذبةٍ أن تستمر زمناً طويلاً جدّاً كهذا، وتشق طريقها في داخل كل

1 - هنالك أشياء لا يمكنني أن أتقبّلها من الحكومة...»: محوّرة من اقتباس من ليانغ كسياويوان في «*بوابة سِلْم سماوي*»، إخراج ريتشارد غوردون وكارما هنتون، بوسطن: لونغ بو برودكشنز، 1995، فيلم وثائقي - ك.

الأشياء التي تلامسها؟ لكن ربما سيُسمح لـ أي - مينغ بأن تصبح راشدةً من الناحية القانونية في عالمٍ آخر، صينٍ جديدة. ربما من السذاجة أن يفكر المرء بهذه الطريقة، لكنه وجدَ أن من الصعب أن لا يستسلم، أن لا يأمل، وأن لا يرغب.

***

يومياً، كان هنالك مزيدٌ من التظاهرات: مليون شخص في يوم الأربعاء، ومليون آخر في الخميس على الرغم من العواصف المصحوبة بالمطر. الإضراب عن الطعام دشن الآن يومه السادس وحتى جريدة «*بيبلز ديلي*» الرسمية كانت تنشر تقارير صحافية تفيد بأن أكثر من سبع مئة مُضربٍ عن الطعام قد انهاروا وساءتْ حالتهم الصحية. حين مضى سبارو إلى الخارج، بصرف النظر عن الساعة، كان بمستطاعه أن يسمع سيارات الإسعاف وهي تتسابق من وإلى «الساحة». كان معمله، ربما جميع المعامل في المدينة، كانت قد أُغلقتْ كلها تقريباً. كان لحنه الجديد قد اكتمل تقريباً. وهو يقرؤه من البداية إلى النهاية، سمع طباقاً في المؤَلف الموسيقي 24 لـ غابرييل فوريه[1]، اندفاع قوي متصل في الهبوط مشابه، والأصوات الملتوية الثلاثة لمقدمة أورغن باخ: «Ich ruf zu dir»[2]، التي كان مغرماً بها على الدوام. لكن أغلب الظن، فضلاً عن الطباق، الأعمال الأخرى كانت أصواتاً سُمعتْ بالمصادفة، حيوات داخل حيوات. لم يعدْ يعرف. كانت بنية السوناتا خاصته قد لاحتْ غير متوازنة، وحتى بشعةً، مع أنّه كان يعرف أنها انتهتْ تقريباً، لم تكنْ لديه أدنى فكرة كيف ستنتهي.

---

1 - غابرييل فوريه (1845 - 1924): مؤلف موسيقي، عازف على الأرغن، والبيانو، ومدرّس موسيقى، فرنسي الجنسية. يُعدّ واحداً من أبرز المؤلفين الموسيقيين الفرنسيين في عصره وأثر أسلوبه الموسيقي على كثير من الموسيقيين في القرن العشرين - م.

2 - Ich ruf zu dir: وردتْ بالألمانية في النص الأصلي «الإنكليزي»: وتعني: أناديكَ، أيها السيد يسوع المسيح. وهي كانتاتا كنسية، ألّفها باخ في ليبزج العام 1732، لمناسبة الأحد الرابع بعد عيد الثالوث الأقدس - م.

سمّاها، بشكلٍ مؤقت: *«الشمس تشرق على ساحة الشعب»*، وهو عنوان ردّد صدى رواية دينغ لينغ[1] التي تتناول الصين الثورية: *«الشمس تشرق على نهر سنغآن»*. لكن «الساحة» التي في ذهن سبارو ليستْ «ساحة تيانانمين» العام 1989. بدلاً من ذلك، كانت أمكنة عدة عرفها طوال حياته: «ساحة تيانانمين» التي سار فيها العام 1950 بصحبة بغ موذر نايف. «ساحة الشعب في شنغهاي». الفناءات المربعة لبيوت الأزقة، صفحات موسيقى تسهولي، بورتريهات الرئيس ماو، السرير الذي تقاسمه مع لينغ، أغلفة الأسطوانات المربعة التي أحرقها، هياكل الراديوات التي كان يصنعها يومياً. كان الفلاسفة الغابرون يؤمنون بأرضٍ مربعة وسماء مدوّرة (أو بيضوية الشكل). الرأس مدوّر والقدمان مربعتان. تابوت الدفن مربع. ما هو الشيء الذي ربما يجعل شيئاً ما يغيّر شكله، أن يتوسّع أو يتمدد أو يتحوّل؟ ألم تكنْ أعمال باخ، المرايا المطوية، الـ fugues والـ canons كلاهما مربعين ودائريين؟ لكن ماذا لو أنّ المقطوعة الموسيقية التي في باله عصيةٌ على الكتابة؟ ماذا لو أنّها يجب *أن لا تنتهي*؟ الأسئلة أربكته وشوّشته، كان يعرف أنها أتتْ من ذلك الكائن الحي الآخر الذي يسكنه.

ظهرتْ أي – مينغ في المدخل. «هل تكتب، أبي؟».

وضع قلم الرصاص جانباً. كانت تلبس ثياباً لم يتعرفْ عليها، فستاناً لا بدَّ أنها استعارته من الجارة، وهذا الفستان جعل أي – مينغ أكثر نضجاً، شديدة الشبه بفتاة مدينة شمالية.

«طلبتْ مني ييوين أن أجلب بعض البطانيات إلى [ساحة تيانانمين]»، قالت. «كانت هذه تبرعات من الجيران، لكنها لم تتمكنْ من حملها كلها. أمي ستساعدني. أتريد المجيء، أنتَ أيضاً؟». لاحتْ أي – مينغ نحيفةً، ومبتهجةً. في الأسابيع القليلة الأخيرة، لم تقلْ شيئاً عن كندا.

كان الوقت منتصف الليل تقريباً. قال سبارو نعم. نعم، سوف يذهب

---

1 - دينغ لينغ (1904 – 1986): واحدة من أشهر الكتاب الصينيين في القرن العشرين. حازتْ جائزة ستالين، الاتحاد السوفيتي، للأدب في العام 1950 – م.

معهما. ربما الليلة سوف يخبرهما معاً أنه سيشد الرحال إلى هونغ كونغ. سوف يقضي مدةً وجيزةً؛ وقبل أن يفطنا للأمر، سيعود إلى البيت مجدداً. لن يتخلى عن حياته، لكنه سيجد بدايةً جديدةً تضمهما هما الاثنتين.

في الخارج، كانت لينغ تكدّس البطانيات على دراجتيهما الهوائيتين، تثبتها بخيط قنبي. كانت كل حركة تقوم بها دقيقةً، ومقصودةً. كان يحب دوماً ميزتها هذه.

«كنتَ تؤلف لحناً»، قالت له.

«سوناتا جديدة. أكاد أنتهي من تأليفها».

«إني مغتبطة، سبارو». كان وجهها حذراً لكنه، في فضوله، منفتحٌ له.

كان يودُّ أن يخبرها بأن الاتصال بشخصٍ آخر، بالماضي، ينتقل من لحظةٍ إلى أخرى. كونها بدأتْ ثانيةً، حياته هو باتتْ واضحةً أخيراً. إلّا أنَّ لينغ كانت تعرف، فكّر، كانت تعرف هذا الأمر بالطبع. أشخاص كثيرون، أُرسلوا إلى معسكرات الأعمال الشاقة من مثل الأب لوت، أخذوهم عنوةً من مثل سويرل أو وِين، أعادوا تشغيلهم في محافظات بعيدة من مثل لينغ وبغ موذر، افتقروا إلى حريةٍ جوهرية، ألا وهي: تنشئة أولادهم.

انطلقوا في رحلتهم، أي - مينغ في الطليعة، استداروا عبر متاهة الأزقة التي تجاوزتْ «جادة تشانغآن». أمام سبارو، كان شعر لينغ يتلوّى في النسيم. كانت حركاتها قويةً ورشيقةً، وأريج اللوز الذي يفوح من جلدها بدا كأنه يطفو إلى الوراء ويمسك به، مرةً أخرى، بعبودية، يتبعها، كان يراوده الإحساس بصعود مجموعةٍ من السلالم.

حتى في هذه الآونة، في هذا الوقت المتأخر من الليل، ثمة أناس في الأمكنة كلها. كانت الرايات كلها، راية إثر أخرى، تقول: «أيها الرئيس دينغ كسياوبنغ، تنحَّ عن منصبكَ!» قاد دراجته الهوائية بصورةٍ أسرع. كان يقودها جنباً إلى جنب مع زوجته وابنته الآن، وكانت قد حجبتهم عشرات الآلاف ممَّن احتلوا محيط «ساحة تيانانمين» ليلَ نهار.

ترجّلوا من دراجاتهم الهوائية وشرعوا يدفعونها، أي - مينغ هي التي تتقدّمهم. في داخل «الساحة»، كان ثمة طالب جامعي - قيّم[1] ذو ذراعين طويلتين بصورةٍ مُذهلةٍ قد تعرّف إليها وأقبل إليها كي يقدّم لها العون. حين وصلوا إلى المُضربين عن الطعام، فكَّ سبارو الخيط القنّبي وهمَّ بنقل البطانيات إلى الداخل حين أوقفه الطالب الجامعي ذو الذراعين الطويلتين. «الطلبة وحدهم»، خاطبه بفظاظة. «لا يُسمح للدخلاء». كانتْ أي - مينغ قد سبقتهم راكضةً إلى الأمام. في ضوء المصباح، كان بوسعه أن يرى الوهج الخابي لهيئتها. كانت تتحدّث مع فتاةٍ طويلة، شاحبة بشعرٍ قصيرٍ جدّاً، ابنة الجيران: ييوين. بدت الفتاة نحيلةً بنحوٍ يبعث على اليأس. كان بعض المُضربين عن الطعام قد داهمهم النعاس سريعاً، وكان ثمة نفرٌ من الفتيان يغنون بهدوء، كان المخيّم يتضوّع برائحة البول والنفاية. أطباءٌ وممرضات بملابس خارجية فضفاضة[2] وسراويل «جينز» زُرق كانوا يمرّون بهم مسرعين. تعثرتْ إحدى الممرضات بمنضدة وسقطتْ فجأةً. «مهلاً، مهلاً»، همستْ ممرضةٌ أخرى بصوتٍ مرتفع[3]: «ألا ترين أنهم يحاولون أن يرتاحوا!».

كان هنالك رجلٌ هزيلٌ وقويّ يرتدي زيّاً رسمياً أزرق يركض مسرعاً. بنحوٍ مُستثار، وبسعادةٍ، أعلن قائلاً إن «اتحاد العمال المستقلين الجديد قد دعا رسمياً إلى إضراب شامل على مستوى المدينة بأسرها». صُعق سبارو،

---

1 - طالب جامعي - قيّم: a student - marshal: ويكون هذا الطالب الجامعي في السنة الثالثة من دراسته الجامعية، وعادةً ما يقوم بتقديم العون لطلبة السنة الرابعة. ويُعدُّ منصب الطالب الجامعي - القيّم أعلى منصب تشريفي للطلبة الجامعيين الذين لم يتخرجوا بعد. يُعيّنه رئيس الجامعة استناداً إلى منجزه الأكاديمي وانخراطه وإسهامه في مجتمع الحَرَم الجامعي. هذا المنصب تمَّ ابتكاره في العام 1895 في الجامعات الأميركية - م.

2 - المقصود هنا: المعاطف التي يرتديها الأطباء والممرضون والممرضات لوقاية ثيابهم من الاتساخ؛ تُسمى بالدارجة العراقية: الصداري - م.

3 - هكذا وردت الجملة في النص الإنكليزي، مع أننا اعتدنا على أن نفهم الهمسَ كونه صوتاً خفيضاً؛ من المؤكد التعبير هنا مجازي - م.

إنما بدا أن لا أحدَ آخر يتفاعل. لينغ، أيضاً، كانتْ قد التزمت الصمت. همستْ قائلةً له: «كيف يجرؤون على فعل ذلك؟ كيف نجرؤ نحن؟». بعد مضيّ دقائق، هرعتْ فتاةٌ إلى الداخل وقالت إن السكرتير العام للحزب تسيهاو تسيانغ ورئيس الوزراء لي بينغ هما في طريقهما إلى مقرّ قيادة الإضراب عن الطعام. كانت الخيمة تضجّ بالنشاط، وبعدها لا شيء، كما لو أنّ الأخبار التي كانت تصل باستمرار، تنفجر، تهطل مدراراً، ومن ثم تتبخر ولم تعدْ ثمة أخبار بعد الآن. كانت أي - مينغ قد طوّقتْ فتاة الجيران بذراعيها، ولبثتا هكذا لحظاتٍ قليلةً، عيونهما مغمضة، الفتاة تتمايل إلى الأمام والخلف، باكيةً. أتت امرأة عجوز عبر المدخل، كان تُعطي تبرعاتها من الماء وفي الوقت نفسه تأكل عودَ عجين كعكٍ مقليّ، وكان الحارس يهمس لها قائلاً: «تناول الطعام ممنوع هنا! الطعام ممنوع!». أما المرأة المسنة، شاحبةً، شاعرةً بالخجل، فقد استدارتْ على عقبيها وولتْ هاربةً.

حاولتْ لينغ أن تتدخل. «إنها مواطنة وكانت فقط تسعى إلى تقديم المساعدة».

«لا يوجد طعامَ هنا!». هتفت الطالبة.

«اهدئي» صاحت الممرضة التي تعثرتْ بالمنضدة وسقطتْ فجأة. «فقط اهدئي، أرجوكِ!».

ظهرتْ أي - مينغ، وهي تصرخ بحرية، وكلاهما دفعتا دراجتيهما الهوائيتين حول العدد القليل المتناثر هنا وهناك من البشر. كان الوقت متأخراً وكانوا يعانون من الجوع، لذا أرشدتهم لينغ إلى الرفيق الوحشي. كان المطبخ ما يزال مفتوحاً، مع أنّ لائحة الأطعمة والمشروبات كانت محدودةً، قالت النادلة إن المالك كان يؤدي خدمات التوصيل بشكلٍ منتظمٍ إلى «الساحة» كي يدعم الطلبة الجامعيين- القيّمين والمتطوّعين. أكلوا بصمتٍ، وقال سبارو أخيراً: «أي - مينغ، عليكِ أن تعتني بصحتكِ». كانت ابنته تحدّق إلى طبقها. كانت آثار الدمع الجافة قد خلّفتْ بقعاً بيضاً على بشرتها. «لكن ماذا عنكَ، أبي؟». قالت له. «في بحر أسبوع، هرمتَ عقداً من

الزمن». تنفستْ لينغ الصعداء. «هيا. ليأكل الجميع». حين خرجوا ورجعوا، كان المتحدثون يمشون بتثاقل هنا وهناك مع أنّ الوقت شارف على الثالثة صباحاً. كانت جموع البشر قد خرجتْ مجدداً لأن مركز إذاعة الطلبة كان يكرر الأنباء التي تفيد بأن السكرتير العام للحزب تسهاو تسيانغ قد وصل فعليّاً، بمعية رئيس الوزراء لي بينغ، وكانا يجتمعان مع ممثلي الإضراب عن الطعام. بعد رحيل دينغ كسياوبينغ، كان هذان هما أرفع قائدين في البلاد. كان سبارو في حالة إعياء شديد، أحسَّ كما لو أنّ فردتيْ حذائه قد لصقتا بالكونكريت. لم يعرفْ كم عدد الدقائق التي مضتْ قبل أن يحدث تشوش في الإذاعة أخيراً وتصبح أصوات المتكلمين متقطعةً. الوقت الآن الرابعة فجراً. الصوت ليس في حالة جيدة، الكلمات ضائعة. السكرتير العام للحزب تسهاو يواصل التنحنح والبدء من جديد.

أول الكلمات الواضحة التي ترشحتْ من حنجرته هي: «أيها الطلبة الجامعيون، نحن أتينا متأخرين جدّاً».

بدت «الساحة» نفسها كأنها تتوسع، مثل شيء يُمزق.

«أيها الطلبة، إنني آسف. كل ما تقولونه وتنتقدونه عنا شيء مُستحَق. إن مبرر وجودي هنا الآن هو أن أطلب منكم الصفح».

شاهد نظرة ألم على وجه لينغ. أدرك أنه ليس ألماً فحسب، بل هو خوف. كان صوت السكرتير العام للحزب نحيلاً، بدا كأنه يصارع عاطفةً كاسحةً. «لا يمكنكم الاستمرار في... بعد مضيّ سبعة أيامٍ من الإضراب عن الطعام... في الإصرار على المواصلة إلى أن تحصلوا جوابٍ مُقنع فحسب. أنتم لا تزالون يافعين، ولا يزال أمامكم وقتٌ طويل».

أشخاص من المطعم خرجوا الآن. رأى سبارو النادلة واثنين من الطهاة وعدداً قليلاً من الآكلين المسنين في قمصانهم الداخلية[1]. عدد مختلط غير نظامي من المراهقين. «الحال كما كان عليه دوماً»، صاح أحدهم. «إنهم

1 - القمصان الداخلية: هي ما يُلبس تحت القمصان؛ تُدعى بالدارجة العراقية: الفانيللات - م.

يريدوننا أن نُذعِن ونمضي إلى البيت!». سرتْ همهمات في الأرجاء كلها، هل هي مؤيدة أم رافضة، ليس بمستطاع سبارو أن يجزم تماماً.

«أنتم لستم مثلنا»، استطرد الرفيق تسهاو. «نحن قد تقدّم بنا العمر أصلاً ولا نبالي. ليس من السهل للبلد ولآبائكم أن يربوكم ويرعوكم كي تصلوا إلى الجامعة. أنتم الآن في آخر سنوات مراهقتكم وبداية عشرينياتكم وها أنتم أولاء تضحون بحيواتكم. أيها الطلبة، ألا يمكنكم أن تفكروا بنحوٍ عقلاني لحظةً؟ إن الوضع الآن مُلحّ جدّاً، كما تعرفون كلكم. الحزب والأمة في حالة تلهف شديد، المجتمع بأسره يساوره القلق، ويوماً بعد يوم يغدو الوضع أسوأ. لا يمكن أن يستمر هذا. إن مقاصدكم جيدة واهتماماتكم ببلادكم تستوطن قلوبكم. إنما لو استمر هذا سوف يخرج عن السيطرة وستكون له تأثيرات عكسية. خلاصة القول، هذا ما يدور بخلدي. لو أنكم أوقفتم الإضراب عن الطعام، لن تغلق الحكومة الباب أمام الحوار البنّاء، مؤكد أنها لن تفعل ذلك البتة! ما اقترحتموه، يمكننا الاستمرار في مناقشته. إنها مناقشة بطيئة، وبعض المواضيع طُرقتْ. كنتُ أبغي فقط زيارتكم اليوم وفي الوقت عينه... أن أقول لكم كيف نشعر، ونأمل أن تفكروا بهدوء بشأن هذا الأمر. في ظلّ ظروف غير منطقية، يصعب على المرء أن يفكر تفكيراً واضحاً. كل النشاط الذي تملكونه بوصفكم شبيبة، نحن نفهمه لأننا نحن، أيضاً، كنا شباناً في وقتٍ من الأوقات، نحن، كذلك، احتججنا ومددنا أجسادنا على خطوط السكك الحديدية من دون أن نأخذ بنظر الاعتبار العواقب المترتبة على ذلك. في النهاية، إنني أطلب منكم، ثانيةً، بإخلاصٍ، أن تفكروا بهدوء بما سيحدث من الآن فصاعداً. أشياء كثيرة من الممكن أن تُحلّ. يحدوني الأمل أن تُنهوا الإضراب عن الطعام فوراً وأنا أشكركم».

كانت الإذاعة قد تحولتْ إلى حالة السكون.

رفع سبارو عينيه إلى الأعلى ناظراً إلى السماء، كانت ساطعةً جدّاً في المدينة بحيث لم يكنْ بالمستطاع رؤية الكواكب، حيثما يحوّل أنظاره كانت هنالك زرقة عميقة، سواد غير تام.

«ماذا يعني هذا؟». قالت أي - مينغ.

كانت لينغ تنشج.

«أريد الذهاب إلى المنزل»، قالت أي - مينغ. كانت ما تزال يافعةً جدّاً إنما لماذا بدتْ أصلاً غبيةً جدّاً؟. «أريد الذهاب إلى البيت».[1]

الآن سبارو هو الذي قادهم، بصمت، كأنهم لصوص، عبر الليل المظلم، مارّين بالمكبرات التي كانت تعيد الحديث الذي أدلى به تسهاو تسيانغ: «أيها الطلبة، أتينا متأخرين جدّاً، إنني آسف...». مرَّ الحديث بمجاميع من الأشخاص كانوا ينصتون أول مرة، ماراً بأشجار مزهِرة وبصفٍّ من نباتات المغنوليا التي ليس بالإمكان رؤية أزهارها، إلّا أنَّ عبيرها بقي في الجو، من دون أن يضعف، مُنكِراً.

في ساعةٍ متأخرة من صبيحة اليوم التالي، حين أفاق من نومه، فاقداً الإحساس بالزمان والمكان، سمع بيوين تقول لشخصٍ ما إن السكرتير العام للحزب تسهاو تسيانغ قد جرّدوه من منصبه. كان شخصٌ ما من داخل الحزب قد سرّب هذه المعلومة. كانت المظاهرات قد اندلعتْ في مئة وإحدى وخمسين مدينة وكانت الحكومة تعتزم إعلان الأحكام العُرفية. كان الجيش قد وصل في وقتٍ سابق إلى محيط المدينة.

***

كان لا يزال من الواجب تأدية الامتحانات القومية. بالنسبة لـ أي - مينغ، العملية كلها كانت مُضحكةً بنحو جليّ. النظرية والممارسة، الممارسة والنظرية، لو أنّها حللتْ قصيدةً أخرى من تأليف دو فو[2] ربما سيتمّ نفيها،

1 - كلمة تسهاو تسيانغ الموجهة إلى الطلبة الجامعيين في «ساحة تيانانمين»، التاسع عشر من أيار «مايو» 1989، دخول الويكيبيديا على تسهاو تسيانغ.
https: / /en.wikepedia.org /wiki /Zhao_Ziyang -ك.

2 - دو فو: شاعر بارز إبان حقبة سلالة تانغ الحاكمة. جنباً إلى جنب مع لي بي، كان يُسمى دوماً أعظم الشعراء الصينيين. كان طموحه العظيم هو خدمة بلاده كموظف حكومي ناجح - م.

هي نفسها، إلى خارج البلد. كانت متكوّرةً على الكنبة، تأكل الخيار، حين ظهر سبارو، مترنحاً، كل شعر رأسه مهروساً ومائلاً إلى أحد الجانبين. بعد أن تمنَّتْ له صباحاً سعيداً، سألته قائلةً: «هل كنتَ تقاتل شخصاً ما في نومكَ؟».

ابتسم سبارو بارتباك. تناول الخيارة من يدها وشرع يأكلها.

كانت الراديوات تدوّي في الزقاق، وهنالك أُسر تصيح إحداهن على الأخرى بشأن قضايا كبيرة وصغيرة، لكنها هي وسبارو معاً تظاهرا بأنهما لم يسمعا شيئاً قط. قالت له أي - مينغ إنها، في ساعةٍ مبكرة من صبيحة هذا اليوم، كانت قد اتخذتْ قراراً بأن تدرس. فتحتْ كتالوغ الامتحان ووجدتْ نفسها عند أسئلة العام 1977. في ذلك العام، كانت المقالة القومية: «هل صحيح أنك كلما اكتسبتَ مزيداً من المعرفة، أصبحتَ مناوئاً أكثر للثورة؟ اكتبْ 800 حرف أبجديّ في الأقل». ماذا لو ظهر سؤال مشابه في اختبار هذه السنة؟ طوال ما يزيد على الساعة، جاهدتْ كي تؤلف السطر الاستهلالي. كانت الصفحة لا تزال خاليةً من الكتابة. لم يعدْ بمستطاعها أن تفهم معنى كلمتيْ: مناوئ للثورة.

قضم سبارو الخيارة بصوتٍ طاحن وأنصت.

«كيف يتسنّى لي أن أؤدي الامتحانات؟». قالت. «كيف يتسنّى لي...».

«لا تقلقي كثيراً جدّاً بشأن سؤال الاختبار». بدا صوت أبيها ثخيناً، مثل إسفنجة متخمة. «لماذا لا تعاودين دراسة الأدب أو الرياضيات؟».

أومأتْ برأسها إلّا أنَّ هذا ليس ما عنته. كانت فكرة الحل كلها، الخوف من أن لكل كلمة معاني عدة، وأنها لم تكنْ تفهم ضبطاً ما كانت تشير إليه.

قال سبارو إنه ذاهب إلى المعمل ليرى ماذا يجري هناك.

هل نسي أيَّ سنةٍ هذه؟ ولماذا بدا كأنه يكابد ألماً؟ الآن فحسب فهمتْ أنه كان يلبس بدلة المعمل خاصته. «لكن بابا!» قالت له. «الجميع يقولون إن الجيش سيأتي من تلك الناحية، من فنختاي».

أومأ برأسه من دون أن يسمع ما قالته. «أي - مينغ، لا تذهبي إلى [الساحة] اليوم. عِديني». تطلّع إلى الباب، ومن ثم عاد وحدّثها قائلاً: «أين أمكِ؟».

«في محطة الإذاعة».

«أوه». أومأ رأسه إلّا أنَّ عينيه كانتا زجاجيتين. «أي - مينغ، لي صديق في كندا ربما سيرعاكِ. إنني أرغب بأن أفعل كل ما أقدر عليه. سألتقي به في هونغ كونغ في حزيران».

«أيَّ صديق تعني؟ أنتَ ذاهب إلى هونغ كونغ؟».

«لكن أولاً عليكِ أن تؤدي الامتحانات وعليكِ أن تحققي النجاح. من دون حصولكِ على درجات عالية، حتى الرعاية لن تنفعكِ فتيلاً...».

كان يتكلم بنوعٍ من حالة مشوَّشة. أكانتْ هذه حيلةً، تساءلتْ. كي تبقى، حيثما هي الآن، تحيا في بطون الكتب، متجاهلةً ما يحدث لأفكارها؟ تُرى، مَن هو صديقه هذا؟

«سأتفوّق في الامتحانات».

حين قالت هذا، بدا «طائر الهدوء» مغتبطاً بدرجةٍ غير معقولة، كما الطفل. حاولتْ أن تملأ نفسها بالعزيمة والتصميم حيال بسمة أبيها البريئة.

«أنتِ صبية صالحة، أي - مينغ. ابنة صالحة. أنا أب محظوظ».

غادر سبارو المنزل قاصداً المعمل. بدّلتْ أي - مينغ ملابسها، مرتديةً فستان ييوين. في الفناء، تناولتْ ثياب ييوين من حبل الغسيل، حشرتها في كيسٍ جنباً إلى جنب مع فرشاة الأسنان وقطعة قماش لغسل الوجه والجسد، الكتب، وقطع نقدية قليلة كانت قد أعطتها إياها أمها. اعتلتْ دراجتها الهوائية وانطلقتْ مسرعةً.

***

بدت المدينة كما لو أنّ الحرارة المرتفعة قد جعلتها رخوةً. قادتْ دراجتها الهوائية بسرعةٍ متجهةً صوب «ساحة تيانانمين» لكنها ألفتها هادئةً بصورةٍ غير متوقعة. أحد الطلبة الجامعيين - القيّمين، وهو طالب فيزياء يُسمي نفسه كيلفين، أخبرها أن ييوين مضتْ مع «كتيبةٍ» إلى الضواحي الغربية في مسعًى منهم لسدّ الطرقات ومنع الجيش من بلوغ «الساحة». استدارتْ أي - مينغ وقادتْ دراجتها الهوائية راجعةً في الطريق نفسه الذي أتتْ منه.

عند «جسر موكسيدي»، تعذّر على أيّ فرد المرور من هناك: الدراجات الهوائية، الحافلات ذات الدواليب المثقوبة، الكنبات المحترقة، الأشخاص الذين يطلقون الصيحات وأكداس الخشب؛ هذه كلها كانت تغرق التقاطع المروري. حين تمكنتْ أي - مينغ أخيراً من اجتياز الجسر، لمحتْ زجاجاً مكسوراً، انحرفتْ بعنف وكادتْ تصطدم بدراجةٍ بخارية منخفضة. كانت «معذرةً، معذرةً!» اللتين نطق بهما السائق قد رفرفتا متجهتين إلى الوراء. كان دولابها الأمامي قد أحدث ضجةً ماصّةً قبل أن يغدو مسطحاً. ترجلتْ من دراجتها الهوائية وبدأتْ تدفعها. كان احتكاك الإطار بالكونكريت قد جعلها تحسّ بوجع الأسنان. ولأنها عاجزة عن الرؤية من خلال دموعها، أوثقتْ أي - مينغ الدراجة الهوائية الحمقاء، العديمة النفع، التي لا يمكن الصفح عنها بشجرة، تناولتْ كيس الثياب وشرعتْ تمشي. كان جسدها كله مسربلاً بالعرق. أقبلتْ حافلة ووثبتْ إلى داخلها، إلّا أنَّ الحافلة توقفتْ في الحال تقريباً. تعثرتْ بركابٍ آخرين: هنا يوجد أفراد الجيش الآن.

كانت شاحنات الجيش تمتد إلى أبعد مسافةٍ يمكنها أن تراها.

سارتْ أي - مينغ باتجاهها. دموع، تشوّش، هيستيريا كان الناس يطوّقون الشاحنات العسكرية. «أيها الجنود الأشقاء!». كان هنالك رجل عجوز يصيح. ترنّح أمام أي - مينغ. كانت بدلته النظامية الزرقاء، بدلة المعمل، متدليةً من حوله مثل مجرى النهر. «لا تُصبحوا عارَ أمتنا! أنتم أبناء الصين. أنتم، الذين يتعيَّن عليكم أن تدافعوا عن هؤلاء الطلبة الجامعيين بأرواحكم! كيف يتسنّى لكم أن تدخلوا مدينتنا بالبنادق والعيارات النارية؟ أين هي ضمائركم؟».

حاول ثلةٌ من الضباط أن يجعلوا أنفسهم مسموعين في خضم الهَرْج والمَرْج، قالوا إن مَهمتهم الوحيدة هي الحفاظ على الأمن والسلام. كان الجميع مصابين بالهيستيريا ويطلقون الصرخات.

كانت هنالك جدة طاعنة في السن اضطلعتْ بمسؤولية الاستلقاء في قارعة الطريق، أمام شاحنات الجيش. «ممَّن تسترجعون الشوارع، إيه؟».

قالت بصوتٍ أجشّ. «أنا لستُ ثائرةً! أنا أقيم هنا منذ أن كان والد جدكم لا يزال يلبس السروال القصير!».

رجلٌ ببدلة معمل نظامية، يحمل دزينات من الكعك الملفوف بشكل مستقل، بدأ يسقطها، كيفما اتفق، على درابزون الشاحنات. «ابنتي في [الساحة]»، قال. «إني أناشد شجاعتكم! إني أناشد، إني أناشد...».

لم تتمكنْ أي - مينغ من رؤية ييومين في أيّ مكان، كان هذا الموقع مزدحماً ألف مرة أكثر مما كان عليه الحال في «ساحة تيانانمين». ضمّتْ كيس الثياب إلى صدرها ووقفتْ في التعطيل التام للجسد، جائعةً، ظمآنةً، ترتجف هلعاً، خجلةً من كونها عصتْ أباها. ثمة جندي في عمرها تطلّع إليها بشوقٍ محسوس. كيف انتهى بي المطاف هنا؟ فكرتْ أي - مينغ. هذا بلدي، هذه هي العاصمة، لكنني لا أنتمي إلى بكين. أين ييوين؟ ليتني استطعتُ العثور على ييوين، سأعرف آنذاك ماذا يتعيَّن عليَّ أن أفعل.

كان العصر قد اختفى لكن الجموع ازدادوا عدداً. كان بعض الجنود قد ترجلوا من مركباتهم ووقفوا في عرض الشارع، مُذلين مُهانين. كان بعضهم يشعر بالصدمة، بعضهم بدوا حانقين، بعضهم شرعوا يبكون.

***

في الطابق الخامس من المعمل، جميع المقاعد كانت خاليةً. جلس سبارو في موقع عمله، ينعم بالسكون بالمطلق. كانت هذه أول طمأنينة يعرفها منذ أيام عدة، وكان الهدوء الساكن فيه بدأ يشعر بأنه قد تحرر، جلس إلى الطاولة، غير محبوس في قفص، مثل طائر منزل. على الرغم من الفراغ، أحسَّ كما لو أنّ شركاءه في العمل كانوا قد خلّفوا وراءهم صورةً تلويةً[1]: كل موقع من مواقع العمل ينتمي بصورةٍ لا يمكن الإعارة عليها إلى شخصٍ ما. أغلب الظن، في غضون لحظة، داو - رين، أولد بي ومروحة سوف يعاودون الظهور، وسيكون سبارو نفسه هو الذي سيختفي، كما لو كان دوماً محض

1 - الصورة التلَوية afterimage: إحساس بصري عادةً يحدث بعد أن يكون المنبه الخارجي الذي سببه قد كفَّ عن العمل - م.

وهم من الأوهام. كانت حرية الرحيل قد أدخلت الطمأنينة إلى فؤاده، وأسند رأسه على ذراعيه وغرق في نومٍ هادئ، عميق.

***

كان الوقت نحو العاشرة ليلاً آنَ عثرتْ أي - مينغ على ييوين، جاثمةً مع فتاتين أُخريين. كانت إحداهن تُدعى «ليلي» والأخرى «فايي». كانت الفتيات تتكوّرن الواحدة فوق الأخرى وبَدوْنَ مثل جسد واحد بثلاثة رؤوس. كان والد ييوين قد أخبرها أنه، لن يتمّ الترحيب بها في المنزل إلّا بعد تخليها عن تظاهرات الطلبة. كانت نائمةً في غرفة فايي في المبنى المهجعي.[1]

بعد معرفتها بأن الفتيات الثلاث كنَّ شاركن في الإضراب عن الطعام، الذي أُوقف رسمياً بعد ظهر هذا اليوم، كانت أي - مينغ قد تملقت الفتيات الأخريات كي ترافقنها إلى كشكٍ قريب يبيع شرائط المعكرونة المسطحة.

كانت البائعة امرأة ذات عينين ناعستين تتحدث بلكنةٍ شمالية شرقية غليظة. «استرجعي نقودكِ»، قالت لـ أي - مينغ، بعد أن هرعت الفتيات الأخريات إلى إحدى الطاولات. «لا، لا، إنني أعني ما أقول. لا أملك شيئاً كي أهبكنَّ إياه أيتها الفتيات الصغيرات سوى شرائط المعكرونة هذه. إنها شرائط معكرونة جيدة لكنها لن تغيّر العالم».

مرتبكةً، شكرتها أي - مينغ.

«إذن، ماذا تدرسين؟».

تفرّستْ أي - مينغ في وجه المرأة المتغضن، الطافح بالأمل. «أوم، التاريخ الصيني».

ردّت المرأة رأسها إلى الوراء كالطائر. «ما فائدة ذلك؟ حسناً، في الأقل أنتَ تعرفين أن حملات الرئيس ماو تقاذفتْ جيلنا يمنةً يسرة. حيواتنا ضاعتْ تماماً... نحن نعلّق آمالنا عليكم».[2]

---

1 - المبنى المهجعي dormitory: مبنى مؤلف من مهاجع للطلبة الداخليين - م.

2 - كلمات بائعة المعكرونة المسطحة محوّرة من حوار مع وو دينغ فو في «أب تيانانمين» من كتاب لياو ييوو المعنون «*السائر بالجثة*» (نيويورك: أنكور، 2009): 217 - ك.

«الفتيات الأخريات تدرسن الرياضيات»، قالت أي - مينغ، وهي تحاول مجدداً.

«هذا ما نحتاجه، على وجه الدقة!». قالت البائعة، وهي تضرب عُودي الطعام خاصتها بالقِدر المعدني مُحدِثةً دوياً. «الأرقام الحقيقية. من دون أرقام حقيقية، كيف يتسنّى لنا أن نقوّم اقتصادنا ونرسخه، نرسم الخطط، نفهم ما الذي نحتاج إليه؟ أيتها السيدة الشابة، لا أعني أن أكون فظةً، غليظةً، إنما يلزمكِ حقيقةً أن تفكري بشأن دراسة الرياضيات، أيضاً».

«سأفكّر».

حملتْ أشرطة المعكرونة المسطحة إلى طاولتهن. كان هنالك شيء يقِظ في عيون الفتيات، لكنهن أمسين لينات، رقيقات حين شاهدن الطعام.

«ماذا ستفعلين الآن؟». سألتْ أي - مينغ.

ابتلعتْ ليلي لقمةً من المعكرونة المسطحة. «ماذا يمكننا أن نفعل؟ إنني أتوجّس خيفةً من العودة إلى الجامعة. لعلها كانت كلها فخّاً وهم الآن يتظرون إلقاء القبض علينا في الحرم الجامعي. في العام 1977، وِي جينغشينغ[1] حصل على الحجز الانفرادي مدة سبعة عشر عاماً لأنه كتب ملصقاً جدارياً واحداً».

«ليس بإمكاننا أن ندعهم يأخذون [الساحة]». بدا صوت ييوين كأنه آتٍ من غطاء المائدة البلاستيكي. «علينا أن نوقفهم هنا، في الشوارع، علينا أن نقاتل الجيش. لا يمكننا أن ندعهم يقتحمون [الساحة]».

«[الساحة] هي مركزنا الرئيس»، قالت ليلي. «لو حصل أن أضعنا

---

1 - وِي جينغشينغ (وُلد العام 1950، بكين): ناشط صيني في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان، معروف بانخراطه في «حركة الديمقراطية الصينية». اشتهر بكونه مؤلف المقالة المعنونة «التحديث الخامس» التي نُشرتْ على «حائط الديمقراطية» في بكين، العام 1978. بسبب هذا البيان، اعتقل واتهم بممارسة أنشطة مناهضة للثورة وعلى إثرها سُجن في زنزانة انفرادية مدة 17 عاماً. أُطلق سراحه مؤقتاً في العام 1993، ثم عاودوا سجنه ثانيةً - م.

[الساحة]، نكون قد أضعنا كل شيء. كل شيء. أتعرفين ماذا فعلوا بالمحتجين في العام 1977؟ هذا ما أخشاه. حتى لا أحد يتذكر».

كانت المائدة واطئة بالمقارنة مع ارتفاع الكراسي، وجعلتهم جميعاً يميلون إلى الأمام كما لو كانوا يخططون لمؤامرة. ليلي، فايي ويويين واصلن الكلام، مستخدمات مصطلحات عسكرية أخرى. كيف يتسنّى لهن أن يتحدثن عن مقاتلة الجيش؟ وجدتْ أي - مينغ أفكارها تنجرف بنحو عصبي؛ لو لم تسمعهن، ما كانت لتتورط. أمسكتْ يوين بيدها وحملتها، عصرتها بقوة شديدة بحيث إنّ صدمة وجع ومضتْ في عينيْ أي - مينغ. في مكبرات الصوت العمومية، كان التكرار المزعج لإعلان الأحكام العُرفية قد بدأ من جديد. «*بحسب المادة 89، البند 16 من دستور جمهورية الصين...*». اندلعتْ أمواج من الصوت عبر الشوارع: «يسقط لِي بينغ! يسقط لِي بينغ!». كان الصوت في مكبر الصوت ما يزال يزحف إلى الخارج، ملحاحاً: «*في ظلِّ الأحكام العُرفية، التظاهرات، إضرابات الطلبة، تعطيلات العمل، محظورة...*».

«يتعيَّن علينا أن ننام هنا في الطريق، أمام الشاحنات العسكرية مباشرةً»، قالت فايي. كانت ذات عينين ناعستين وذقن رزين، ما جعل كلماتها صادمةً بكل معنى الكلمة. «أنا لا أبالي بما يحصل لي بعد الآن. لا أبالي. ما هو المستقبل الذي ينتظرنا بأي حال؟».

«إني متعبةٌ جدّاً»، قالت يوين. «ألا يبدو أنه قبل عمرٍ مضى مات هو ياوبانغ وجلبنا كلنا الزهور إلى [الساحة]؟ حصل ذلك في الثاني والعشرين من أبريل. كل ما نصبو إليه هو أن ننقل إكليل زهور جنازة إلى [قاعة الشعب الكبرى]. كانت تلك هي البداية، صحيح؟ ما هو تاريخ اليوم؟ العشرون من مايو. لم تمرَّ سوى أربعة أسابيع على جنازة الرفيق هو».

أحقّاً بدأت الأمور هكذا؟ تساءلتْ أي - مينغ. أكانتْ بهذه السهولة فعلاً؟

فتيات جالسات إلى مائدة قريبة أنشدن أغنيةً قديمةً من أغاني [الثورة الثقافية]، وبدت الكلمات كأنها تهدهد الطالبات وتثيرهنَّ.

«هذه الأغاني كلها»، قالت ييوين. شعرتْ بأن يدها صغيرة ورطبة. «لم أفهمْ قط. كنتُ أحسب أنها حقيقية».

«إنها كلمات فحسب»، قالت أي - مينغ.

نظرتْ إليها ليلي، بغير تردّد، بهدوء. «لكن ماذا لدينا أيضاً؟».

حين فرغتا من تناول الطعام، ليلي وفايي انطلقتا كي تبحثا عن صاحباتهما من «جامعة بكين لإعداد معلمي المدارس الابتدائية»، ولم يرجعن. أي - مينغ وييوين انضمتا إلى طالبات أُخريات تنمن على الجرائد المطروحة أرضاً. استلقتْ أي - مينغ على ظهرها. من هنا، بدت الدبابات رهيبةً جدّاً بكل معنى الكلمة. خائفةً، أغمضتْ عينيها إزاء الوضوح المتزايد للنجوم. كان أهم الناس في حياتها هم سبارو، لينغ، بغ موذر نايف، الأب لوت، والآن ييوين، وبدا كما لو أنّهم جميعاً نشؤوا في كواكب سيارة مختلفة.

«من السهل لنا أن نقول إننا نضحي بحيواتنا من أجل بلادنا»، قالت ييوين بهدوء. «في أول الأمر يبدو ذلك شيئاً جريئاً جدّاً. أهذا ما كنتِ تعنين، أي - مينغ؟ قلتِ إنها كلمات فحسب. أنتِ تعتقدين أن الأشياء المهمة هي أصعب من الكلمات - كي نتراجع عن مواجهةٍ ما، في سبيل المثال، أن نعمل على تغيير شيءٍ ما، تغيير شيءٍ ما بالفعل». رفعتْ يدها صوب الأبدان والدبابات. «أي - مينغ، إنكِ تدرسين التاريخ كي تستعدّي للامتحانات. ماذا لو كانت الثورة والعنف هما السبيل الوحيد؟».

بجوارهما، كان جنود الجيش يتكلمون برقة في شاحناتهم غير المريحة. كانوا «محصورين» جدّاً بحيث كان الجنود يتبادلون الأدوار حتى في الجلوس. حاولتْ أي - مينغ أن تصفي بالها. كل هذه الشعارات والأغاني قد سُلمتْ باليد، فكرتْ، وإذا لم تكن الكلمات هي كلماتهم فهل كانت العاطفة التي حفزتهم مستعارةً، أيضاً؟ ماذا عن رغبة الطلبة، عن مثاليتهم، صراحتهم، كم عدد الرغبات المتناقضة تلك التي خدمتها؟ في يومٍ ما كانت المثالية تنتسب للرئيس ماو، للثوريين، لـ «جيش المسلك

الثامن»[1] البطولي. هل ورثها جيلهم؟ كيف يستطيع المرء أن يعرف الاختلاف بين ما هو حقيقي وما هو وهم فحسب، أو يرى حقيقةً ما تتحول إلى نقيضها؟ الحقائق التي كانت ملكاً لهم والشيء الذي سُلّم إليهم باليد، أُمليَ عليهم، هل كانت تكراراً فحسب؟ كانت مكبرات الصوت تخترق الهواء: *«في ظلّ قانون الأحكام العُرفية، الجنود مخوّلون باستخدام جميع الوسائل الضرورية، ومن بينها القوة...»*. ألم تسرق الحكومة، أيضاً، كلماتهم من مكانٍ ما؟ *«يُحظر على الشعب فبركة أو نشر الشائعات، تأسيس شبكة المحطات الإذاعية أو التلفزيونية، إلقاء الخطابات العلنية، توزيع الكراريس، أو التحريض على الشغب الاجتماعي...»*. كما لو أنّ الكلمات وحدها بوسعها أن تصنع حقيقة، كما لو أنّه لا يوجد أشخاص متورطون، كما لو أنّ الكلمات وحدها يمكنها أن تجعل من المرء مجرماً، أو تستحضر الجرائم من الجوّ. ألم يحاولْ أفراد «الحرس الأحمر» أن يدمروا اللغة القديمة ويأتوا بلغةٍ جديدة إلى العالم؟ ماذا لو أنّه يتحتّم على المرء أن يخلق لغةً جديدةً تماماً حتى يتعلّم كي يحقق ذاته؟ قالت لـ ييوين: «أعتقد أننا مستمرون في تكرار الأخطاء ذاتها. ربما يتعيَّن علينا أن نشكك بكل فكرة نحسبها أصليةً وملكنا نحن وحدنا».

كان رأس ييوين قد مال على كتفها.

كانتا كلتاهما تتضوّعان بالرائحة نفسها، مثل شرائط المعكرونة المسطحة التي تناولتاها وكذلك كالأرض الرمادية. كيف نظرتْ إليها ييوين؟ هل كانت شقيقةً، صديقةً، مؤتمنتها على أسرارها، شيئاً آخر؟ هو ذا الشيء الوحيد في حياتي، أطرقتْ أي - مينغ مفكرةً، الذي ليس له باروميترات. كانت تريد أن تخبر ييوين كيف كانت تحسّ، إلّا أنّها كانت تخشى أن تُلحق الضرر بكل ما تمتلكانه.

---

1 – جيش المسلك الثامن: بالإنكليزية: Eight Route Army يُسمى رسمياً «كوكبة الجيش الثامن عشر» العائدة للجيش الثوري القومي في جمهورية الصين، كانت كوكبةً من الجيش تحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني ضمن بنية القوات المسلحة الصينية التي يترأسها الحزب القومي الصيني خلال الحرب الصينية – اليابانية الثانية – م.

«لا أستطيع النوم»، قالت ييوين. «اروي لي قصةً».

لم يكنْ بمستطاع أي - مينغ أن تفكر بشيءٍ ما، ما من كلمات تنتسب إليها. أنا في ربيعي الثامن عشر، فكرتْ، وحتى الآن لم أبدأ بفهم أفكاري أنا. أحسَّتْ كما لو أنّ شطراً من ذاتها قد تركته وراءها. أغمضتْ عينيها بقوةٍ وتلت الكلمات الوحيدة التي خطرتْ ببالها، القصيدة الواردة في افتتاحية الفصل 41 من «كتاب السجلات التاريخية»، «[يبدأ الغد من فجر آخر[1]، حين ننام بسرعةٍ.] تذكّر ما أقوله: لن تزول الأشياء كلها».

***

كان الوقت فجراً حين قاد سبارو دراجته الهوائية عائداً من المعمل ومتجهاً نحو البيت. كان تسجيل العام 1981 من «*تنويعات غولدبيرغ*» يتموّج عبر سماعتي الرأس خاصته، وأحسَّ أن الموسيقى طويلة ومؤقتة في آنٍ. كان غلين غولد قد غرس درجة سرعة مستمرة، نبضاً، بحيث إنّ التنويعات الثلاثين كلها انتسبتْ بنحوٍ أوضح إلى مقطوعةٍ موسيقية موحّدة. بعد إطلاق تسجيل العام 1981 بأسابيع قلائل، مات غلين غولد ميتةً مفاجئةً عن عمر بلغ خمسين عاماً. لم يعرفْ سبارو بوفاة غولد إلّا بعد مرور أعوام عدة، وأقنع نفسه بأن مذيع الراديو كان مخطئاً. وهكذا حصل الأمر بحيث إنّه، قبل بضعة أشهر، آن وصلتْ رسالةٌ من كاي ذكر فيها رحيل غلين غولد، شعر سبارو بالانزعاج مجدداً لدى قراءته الخبر في الرسالة. «من أيّ طراز من البشر كان عازف البيانو الشهير؟». تساءل. لو مُنع غولد من العزف على البيانو مدة عشرين عاماً، فأيَّ شكلٍ مختلف من الموسيقى يُحتمل أن تتخذه موسيقاه؟

لا بدَّ أن السماء أمطرتْ منذ زمنٍ غير طويل. كان الجوّ يبدو متجدداً، ضوء الفجر بلون اللآلئ، غير حقيقي إزاء الرصيف.

منعطفاً نحو «طريق غوانغآن»، كاد يسقط من على دراجته الهوائية حين رأى شاحنات الجيش. كان يطوقها حشدٌ قلقٌ من البشر، أشخاص بثيابهم

---

1 - «يبدأ الغد من فجر آخر...»: اقتباس من بيي داو: «مُدَّ يديكَ إليّ...» «*السائر في نومه في آب*»: 55 - ك.

الليلية وآخرون في طريقهم إلى عملهم. باستعجال، دوّر دراجته الهوائية واتجه جنوباً. كانت «*تنويعات غولدبيرغ*» قد استمرتْ في أذنيه. لكنه حين حاول أن يصل إلى المركز، التقى نقطة تفتيش بعد نقطة تفتيش. بكين، بشبكتها الملتفة من الطرق الدائرية وجسورها، صُممتْ بصورةٍ متينة كي تصون قلبها: «ساحة تيانانمين» و«المدينة المحظورة». الشوارع الأصغر كانت محصنةً بالطلبة الجامعيين، إنما على طول الطرق العامة الرئيسة، كان سكان بكين قد وضعوا حواجز بشرية، حشوداً كثيفةً بحيث إنّه ما من شاحنة من شاحنات الجيش تأمل أن تعبر من دون أن تواجه مقاومةً عنيفةً.

كان قد شقَّ طريقه عبر شوارع أكثر ازدحاماً من تلك التي مرَّ بها بصعوبة.

كان سبارو يعبق برائحة المشاعل مع أنّه لا وجود لشيءٍ يحترق. كانت الرائحة أعادتْ إلى الذهن وو بي، وهو يكافح كي يبقى واقفاً على كرسيه المتناهي الصغر آنَ كان أفراد «الحرس الأحمر» يعرّضونه لشتى أنواع الذل والمهانة. *المسخ يستيقظ، أيها المدرس! لقد دستَ على رأسه مراتٍ لا تُعد ولا تُحصى، والآن هو ذا المسخ يزحف خارجاً من الوحل.* عند الحواجز البشرية، كما لو في طِباق قلق، كان الناس ينشدون قائلين: «علينا أن ننقلب على جنبنا ونستيقظ من نومنا! علينا أن نضحي ونخدم [الثورة]!». مع ذلك استمر غولد، كاشفاً عن تنويعٍ واحد ومنقلباً بحركة بطيئةٍ نحو التنويع التالي. آنَ وصل سبارو إلى البيت، كان الوقت نحو العاشرة صباحاً. كانت الحجرات خاليةً. جلس إلى الطاولة وشرب كوباً من الشاي. ملأتْ جلبةٌ آتية من المظاهرات المستمرة حالياً الغرفة. راديو بكين لم يعدْ يُذيع الموسيقى بعد الآن، وبدلاً منه كانت مكبرات الصوت، تستمر في تكرار حقيقة قانون الأحكام العُرفية. ندم على كل أجهزة الراديو التي صنعها من أول راديو إلى آخر راديو. كان يريد أن يجد طريقةً ما حتى يقطع الأسلاك كلها، كي يُسكت الأصوات كلها، كي يُذيع السكون، الهدوء، في هذه المدينة التي أمستْ متحررةً، طليقةً.

***

في وقت الأصيل، استيقظ من نومه بغتةً. هنا كان وجه ابنته يرفرف فوقه، يصبح حاداً ببطء. «بابا»، قالت. «بابا!» ظلتْ تكرر قائلةً إن ممثلي» معمل الأسلاك رقم 3» كانوا في غرفة المعيشة. نهض من فراشه. أحضرتْ له أي – مينغ حوضاً من الماء البارد. غطس وجهه، معتقداً أنه أُعيد إدراج اسمه ضمن لائحة المطرودين من عملهم. بدلاً من ذلك، خرج ليجد الآنسة لو وأولد بي، بزيّ المعمل الرسمي، جالسين على الكنبة، يأكلان الجوز. ابتسما بعصبية آنَ قال سبارو: «هل أتيتما توّاً من نوبتكما؟».

استعادت الآنسة لو جوزةً كانت قد سقطتْ بين وسادتين. حين أمسكتها بقوة بين أصابعها، وجهتها إليه قائلةً: «أنا وأولد بي قررنا أخيراً الانضمام إلى [الاتحاد المستقل]. كانوا يطوفون في [ساحة تيانانمين] كي يحصلوا على مشتركين، أتعرف ذلك؟ [الاتحاد الفدرالي المستقل لعمال بكين]». كسرت القشرة مُحدِثةً صوتاً حادّاً ورمتْ لب الجوزة في داخل فمها.

مال أولد بي إلى الأمام. «لنقل فحسب إننا متعبون من الجلوس على قمة التل ومراقبة النمور وهي تتقاتل. لعلك أنتَ، أيضاً، رفيق سبارو، وإذا كان الأمر كذلك علينا أن نبقى مخلصين بعضنا لبعض».

تبعته أي – مينغ إلى الخارج، كان بوسعه أن يسمع الصرير الفاتر لخفيها وراءه.

«نعم، حسناً».

ظلَّ أولد بي والآنسة لو ينظران إليه، كما لو أنّهما لا يزالان ينتظران جواباً منه.

كيف يتعلّم مشاهدة ما حول الزوايا؟ ما هو الخطأ الكامن في الاندفاع بقوةٍ إليه؟

قالت الآنسة لو: «عليك أن تُظهر بطاقة هوية وحدة العمل خاصتك وتسجل اسمك الحقيقي. نحن نفهم حتى لو أنّك لا تفهم إلى حدٍّ ما. على كل حال، لديك أسرة ويتحتّم عليك أن تفكر بها...».

«مهلاً. سوف أحصل عليها».

مضى سبارو إلى غرفة النوم، وجد بطاقة هويته ووضعها في جيبه. كانت هنالك رسالة جديدة من كاي تستقر على سطح منضدة الزينة، بمَشهد جلي. لا بدَّ أن أي – مينغ قد وضعتها هناك. كانت تبعته إلى حجرة النوم، إنما قبل أن تتفوّه بأيّ شيء، أخبرها أنه ذاهب إلى «الساحة». «أريدكِ أن تبقي في الداخل». قالها بحدة، كما لو أنّها عصته مسبقاً. التقط الرسالة ووضعها، هي أيضاً، في جيبه.

«لكن، بابا...».

«مرةً واحدةً فحسب، أي – مينغ، افعلي ما أطلبه منكِ».

في الخارج، شاهد، مصاباً بدوار، أولد بي وهو يفك وثاق دراجته الهوائية. حين غادرا الزقاق، قاد سبارو دراجته الهوائية وراءهما. كانت الآنسة لو قد وازنتْ نفسها في مؤخرة دراجة أولد بي الهوائية، وكان حذاؤها القماشي العتيق الطراز قد استقر فاتناً في الهواء. مدّتْ يداً إلى الخارج، وناولته سيجارةً. كانت من «ماركة تجارية» جيدة، «بغ فرونت غيت».

«كان [الرضيع ذرة][1] عند المتاريس البارحة»، قالت الآنسة لو. «أخبرنا أن مليونيْ مواطن من بكين كانوا في الشوارع. قال إنه مزّق [بطاقة عضوية الحزب] خاصته».

كان طعم السيجارة دالّاً على الترف في فمه.

«كل شيء يغدو عاطفياً جدّاً»، قال أولد بي. «كل هذه الدموع والتهديدات تحجب القضايا الأكبر. بوسعنا أن نساعد هؤلاء الطلبة في أن يقودوا السفينة إنما مَن يُصغي للجيل الأكبر سنّاً؟».

كان الدخان قد تصاعد بهيئة سحابة من فم الآنسة لو. «هذا صحيح. لدينا يومنا وانظرْ كم خدمنا البلد بنحوٍ جيد. آه نعم، نحن [الحرس الأحمر] كنا من الدرجة الأولى بكل معنى الكلمة، عقلانيين جدّاً».

تظاهر أولد بي بأنه لم يسمعْ شيئاً.

وصلوا إلى خيمةٍ كبيرة في الركن الشمالي الغربي من «الساحة»، المركز الرئيس المؤقت لـ «الاتحاد المستقل»، حيث كان هنالك صف طويل

1 – الرضيع ذرة: في النص الإنكليزي: Baby Corn – م.

من العمال ببزاتهم النظامية قد انتشروا على طول الجادة. كانت النكات تمرّ من شخصٍ إلى آخر مثل وجبات خفيفة خاصة بمنتصف النهار. بعد مضيّ ساعتين، لدى وصولهم إلى المقدمة، وقَّع سبارو اسمه أسفل آلاف الأسماء العائدة لعمالٍ آخرين وعاملات أُخريات. أحسَّ بخوفٍ شديد من أن يكون خائفاً، أخبره متطوّع طائش، يداه تومئان في أثناء كلامه، أن العمال كانوا ينظمون أنفسهم في كتائب متنوعة، بعضهم كانوا يتولون مسؤولية جمع التجهيزات، بعضهم الآخر يقاتلون الجيش عند حواجز الطرق، وآخرون انخرطوا في» الجنود فرسان الحديد»[1]، وهي شبكة استطلاع على الدراجات البخارية.

غافلاً بسبب صوت الطائرات المروحية، أخبر سبارو المتطوّع أنه سيفعل الشيء المطلوب، لكنه لا يمتلك دراجة بخارية.

«أوه - أوه»، قالت مروحة، وهي تظهر على حين غرة بصوتها المدوّي. «كنْ عمليّاً، سبارو العجوز! أنتَ لم تعدْ صبيّاً! لم أركَ تقفز على الحواجز، بل رأيتكَ تتراجع عنها فحسب!».

«التراجع عنها هو أيضاً شكل من أشكال الإعاقة».

دمدمتْ مروحة بضحكةٍ، ناولته صفعةً لاسعةً على ظهره، ومن ثم أردفتها بصفعةٍ ثانية.

على مصطبةٍ قريبةٍ، كان أولد بي والآنسة لو يتقاسمان سيجارةً، نشوانين بإذاعة راديو العمال، تتحدث فيها شابةٌ بوجهٍ شبيه بالقلب وصوتٍ سوبرانو.

مضى سبارو إلى الخارج وأوغل في «الساحة». كانت الظروف قد تدهورتْ، بدا الطلبة وسخين ومُعدمين. كانت هنالك قمامة في كل حدب وصوب وكان المعسكر يفوح برائحة مثيرة للاشمئزاز. واحداً إثر الآخر، كان الناس قد تدافعوا بالمناكب متجهين صوب الميكرفون، معلنين أنهم معلمون، مدرسون، مثقفون، أو قادة طلبة.

---

1 - الجنود فرسان الحديد Iron Mounted Soldiers: هكذا يسمي هؤلاء العمال أنفسهم، لأنهم يخفرون، «يقومون بدورية»، ويدافعون، ممتطين دراجاتهم البخارية - هذا ما أوضحته لنا الكاتبة في ردٍّ لها على استفسارنا - م.

ظلَّ يراقب مدةً طويلةً. كانت كلماتهم («لا ركوع!») قد أصبحتْ أشد حماسةً إلى أن جاءتْ، مدفوعين بعواطفهم المتأججة («لا تنازل!») وبواسطة ارتفاع مدّ العواطف، هم أيضاً، كانوا قد أنهوا كلماتهم بأن طلبوا من المحتجين أن يقفوا بثبات ويخاطروا بكل شيء («لا تراجع»). انفتحت السماء وأفلتتْ مطراً غزيراً. كان التربولين قد انكمش على الطلبة الرابضين، وسمعهم سبارو يكون بحرقة، خليط من الضحك، التأوّه والسباب. هطلت الرايات، الأعلام التصقتْ بأعمدتها، زوج من السراويل القصيرة المهجورة وقليل من القمصان القطنية الرطبة استقرتْ مثل سطوح محدبة قبالة بورتريه الرئيس ماو. شاهد سبارو فتاةً طويلة القامة تقف وحيدةً، على رأسها عصابة وردية، وتساءل ما إذا كانت ييوين، ابنة الجيران. كان المطر قد أغشى بصره ما جعل صورتها غير واضحة، وأحسَّ أنه ينعم النظر في الماضي، أو في المستقبل الذي لن يصل أبداً. سمع وقع أقدام خلفه والتفت. كانت مروحة تركض في اتجاهه، تثب – تطفر – تقفز – تهتز برشاقة، حاملةً مظلةً زرقاء قانية مثل جائزة في الهواء.

***

كانوا قد حددوا له مكاناً ألا وهو العقبة الكائنة عند «جسر موكسيدي»، التي كانت قريبةً جدّاً من منزله بحيث كان ذلك أشبه بحراسة فناء منزله الخلفي. سبارو ودزينة من الجيران احتلوا موقعاً على سقف حافلة من حافلات المدينة، كانت إطاراتها مثقوبة. أغانٍ من عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين كانت تتوالد من حولهم، وجيران، من بينهم لينغ، كانوا يسلّمون باليد حلوى النوغة[1]، الشاي، والمعجنات. طوال الليل، لاحق هيئة لينغ في الحشد الكائن في الأسفل. كانت توزع نسخاً من ملحق غير مُرخص به من *«بيبلز ديلي»*، مطبوع خفيةً من كادر الصحيفة. في الأسبوع المنصرم، نادراً ما كان يراها سبارو. لم تأتِ لينغ إلى البيت، كانت قد كرّستْ كل طاقتها في الجدال الدائر في «راديو بكين». صحافيون ومُحرِّرون، بمَن

---

1 – النوغة: حلوى بيضاء معجونة بالفستق إلخ. هذا النوع من الحلوى رائج في الأسواق العراقية – م.

فيهم لينغ، تنازلوا بثبات ووقفوا إلى جانب الطلبة ولم يعودوا ينتظرون الموافقة الرسمية قبل أن يذيعوا تقاريرهم. كانت الـ لينغ التي التقاها أول مرة في حجرة كاي، طالبة الفلسفة الفطِنة، كانت تنتظر فرصتها الملائمة وهي ذي الآن، كما لو أنها لم تكنْ بعيدةً عن المنزل. في الحقيقة، في جميع أنحاء بكين، كان الناس الذين، على ما يبدو، كيّفوا أنفسهم من دون تذمر على ارتداء عشر طبقات من الستر «جمع سترة» كانوا يطرحونها الآن كلها مرةً واحدة. كانوا يتصرفون بشكلٍ مختلف، كانوا فخورين بأنفسهم، وحتى فرحين، في ريعان شبابهم ومنتهى نشاطهم.

وهو يصارع النوم، ألفى سبارو نفسه يتذكّر تمايل باص ووهان، حين مضى هو وكاي بحثاً عن الرفيق العين الزجاجية، حين غفتْ فتاة مورّدة الخدين في حضن سبارو بينما كان يعزف «منظر عين الطائر». هو، أيضاً، شعر أنه سعيد سعادةً خالصةً آنذاك. بدت الموسيقى كأنها تطهّر الجميع من كل ضروب الشوائب، العيوب، والأوساخ. ربما فعلتْ رسائل الطلبة الجامعيين شيئاً مماثلاً: أفكار مبسطة كانت قد حرّكتْ سلسلةً من الرغبات. ثمة شعار على عصابة رأس أو تي شيرت: «أعطني حريتي أو أعطني موتي»، أدى إلى إضراب عن الطعام ومأزق سياسي، وكلاهما: الإرادة والرغبة غايتهما هو تغيير ظروف المرء، أيّ امرئ.

في الليلة الثانية، قيل لـ سبارو أن يحضر قناعاً قطنيّاً، مناشف ومناديل، لأن الجيش من المتوقع أن يستخدم الغاز المُسيّل للدموع.

وحتى الآن، وحتى الآن. في صباح اليوم التالي، كان أفراد «جيش تحرير الشعب» قد بدؤوا مواكبهم[1]، وشرعوا يتحركون خارج الحيّ السكني. كان الجنود المرهَقون يلوّحون بينما كانوا يغادرون، بعضهم يبكون وبعضهم الآخر يضحك. حبال ساطعة من الزهور غمرت الشوارع التي تركوها وراءهم.

في يوم السبت، أتتْ أي – مينغ إلى البيت لاهثةً، مبتهجة. قالت إن الطلبة

1 – المواكب convoys: جمع موكب وهو قوة عسكرية مرافقة للسفن أو الأشخاص أو البضائع بقصد الحماية – م.

دخلوا في نقاشات مع الحكومة، ووافقوا على الانسحاب الكامل من «ساحة تيانانمين». «يوين تأتي إلى البيت». التفتتْ إلى سبارو وقالت: «يتعيَّن عليكَ ألّا تجلس في ذلك الباص المتهالك بعد الآن متظاهراً بأنك مقاتل».

حين لمس سبارو خدَّ ابنته، شعر تقريباً أن نعومته قد آذته. «هل ستأكلين الليلة في البيت، أي - مينغ؟».

«حتى إنني سأطهو الطعام. وستكون آسفاً لأنك سألتني!».

مضتْ لينغ إلى الخارج لشراء الخضار والفواكه من دكان البقال. لم يُذَعْ خبر قرار الطلبة حتى الآن، إنما في الأزقة، بدا الجميع كأنهم يعرفون ما جرى. كانت الشوارع تهتزّ بالأمل الذي لم تشهدْ له مثيلاً منذ الأعوام الأولى لـ «الجمهورية»، كما لو أنّ الأعوام كلها بين ذلك الزمن والآن لم تكنْ سوى هذيان أو طريق ملتوية. آنَ رجعتْ إلى المنزل، هرعتْ إلى والد يوين عند حنفية الماء العمومية. لم تكنْ يوين قد عادتْ إلى البيت منذ بداية الإضراب عن الطعام، مع أنّ أباها، الرفيق تسهو، هو الذي فقد قدراً كبيراً جدّاً من وزنه. وهو يرى لينغ، خاطبها قائلاً: «هؤلاء الأولاد، آه! إنكِ تهبينهم حياتكِ وهم يسحقون فؤادكِ!».

أخرجتْ لينغ قطعة لحم بقر جيدةً كانت اشترتها وأعطتها إلى جارها. رفع الأخير كلتا يديه، رافضاً. «خذها»، قالت له. «الطلبة ألغوا التظاهرات. الآن يمكنكَ أن ترحب بـ يوين وهي تأتي إلى البيت».

كان الماء قد فاض في الدلو وأغلق تسهو الصنبور. «أنتِ تفهمين كيف هو الحال»، قال، متقبلاً هديتها، ودعاها إلى دخول شقته. «لقد ضحينا بكل شيء حتى تنال يوين تعليماً جيداً. إنها ابنتنا الوحيدة، وليس لدينا ابن. حين قبلوا يوين في «جامعة بكين لإعداد معلمي المدارس الابتدائية»، كنتُ أحمل الرسالة في يديْ وأبكي.[1] كانت تلك أول مرة أبكي فيها منذ أربعين سنة! ظننتُ أنني ربما أُصبتُ بنوبة قلبية. يوين هي أول شخص في أسرتي وأسرة أمها تلتحق بالجامعة. كانت أذكى من جميع الأشخاص الذين سبق

1 - «كنتُ أحمل الرسالة في يديْ وأبكي...»: محاورة تسهو، محوّرة من حوار لياو ييوو مع وو دينغ فو في «أب تيانانمين»: «*السائر بالجثة*»: 217 - ك.

لي أن عرفتهم. حاولتُ أن أجعلها تفهم كم هي موفورة الحظ، أن تولد في هذه الآونة، أن تنال الفرص التي لم تكنْ متاحةً لنا». هزَّ رأسه. «لكن هؤلاء الأولاد يحسبون أن كل شيء متروكٌ لهم. إنهم لا يفهمون ما يتعلق بالقدر». تناول وعاءً من صندوق الثلج خاصته وأعطاه لها. كان دجاجة، كانت مملحةً مسبقاً. حاولتْ أن ترفض لكنه لم يسمعْ اعتذارها.

«ربما نحن السبب»، قالت لينغ، وهي تواصل حديثهما من حيث انتهى. «نحن نفهم القدر فهماً جيداً بكل ما تعنيه هذه الكلمة».

«آه»، قال. «أنتِ محقة في ما يتعلق بهذا الأمر. أولادنا [وقفوا على أقدامهم] والآن نحن، آباؤهم، نجثو على ركبنا ونتوسل إليهم كي يصفحوا عنا! لكن لا بأس، لا بأس، مهما يكن. انظري»، وسحب تسهو «باجاً» صغيراً من جيبه. «وحتى إنني التحقتُ بـ[الاتحاد الفدرالي المستقل لسكان بكين]. يلزمكِ أن تلتحقي به، أنتِ بدوركِ. توجد كل ضروب المبادرات وهي خاضعة للنقاش».

***

في وقتٍ متأخر من تلك الليلة، كان «راديو بكين» قد أعلن أن الطلبة تراجعوا عن قرارهم. قرروا أن يمكثوا في «الساحة» على أية حال، إلى حين انعقاد مؤتمر الحزب الذي من المقرر أن ينعقد في العشرين من حزيران «يونيو». كان التاريخ قد أزعج سبارو. كان هذا هو اليوم نفسه الذي حدّده للطيران متجهاً إلى هونغ كونغ لرؤية كاي. كما أعلن الراديو أن السكرتير العام للحزب تسهاو تسيانغ قد نُحِّي من منصبه، وجُرِّد من جميع الواجبات المتبقية ووُضع تحت الإقامة الجبرية في منزله.

عبر نافذة المكتب الصغير، رأى أي - مينغ ويوين جالستين في الفناء. كانتا تتماسكان بالأيدي وتتطلعان إلى الأعلى نحو شيءٍ ما في السماء. إلى النجوم، فكر، أو إلى الطائرات المروحية، ربما لا تستطيع إحداهما أن تفترق عن الأخرى بعد الآن. انتهتْ سوناتا البيانو والكمان خاصته، أول مقطوعة موسيقية كتبها خلال ثلاثة وعشرين عاماً، انتهتْ، لا يقوى على عمل المزيد.

كان قد صنع نسخةً نظيفةً، وقّع اسمه وكتب التاريخ: السابع والعشرون من أيار «مايو» 1989، والعنوان: *«الشمس تشرق على ساحة الشعب»*. وضع النسخة في مظروف كي يبعثها إلى كاي. كان يودُّ أن يسمعها وهي معزوفة، وتذكّر كيف أن تسهولي، على الرغم من احتجاجاته، دأبتْ على أن تعزف جميع مقطوعاته الموسيقية نصف المكتملة. حين تفحّص الموسيقى، لم يستطعْ أن يتخلّص من الإحساس أنها أتتْ من شخصٍ مختلف تمام الاختلاف، أو بنحوٍ أدق، أنها مكتوبة بقلمه هو وبقلم شخصٍ آخر، طِباق بين شخصين لا يزالان حيين ويقظين، شاب ورجل عجوز، عاشا عالَمين مختلفين تماماً.

في الخارج كانت هنالك الأصوات المألوفة - صوت هطول المطر، صوت الضحك، الراديو، صفارات الإنذار، الشجار المتسم بطيبة القلب، وحسن النوايا - إنما هنا في هذه الحجرة ثمة موسيقى حاضرة في السكون. في «المعهد العالي للموسيقى في شنغهاي»، تذكر، كانت الرسوم تُظهر الموسيقيين وهم يعزفون على آلة القانون الصيني ذي الأوتار الحريرية السبعة، فقط القانون الصيني the qin ليس له أوتار كما لو أنّه، في أنقى لحظة من لحظات التأليف الموسيقي، ليس ثمة ضوضاء. لم يسبقْ لـ سبارو أن صنع صوتاً ثابتاً، الموسيقى أتتْ في البدايات والنهايات مثل حافات منضدة. أما الحياة في الوسط، فماذا كانت؟ تسهولي، كاي. هو نفسه. عشرون عاماً في أحد المعامل. آلاف الراديوات. زواج وأسرة. تقريباً كل حياته البالغة: يوماً بعد يوم، سنةً بعد أخرى، أعطتْ شكلاً لشخصٍ ما، يزداد وزناً.

رأى نفسه يضع قلمه الرصاص جانباً ويهبّ واقفاً بعد أن جلس إلى طاولة الكتابة خاصته. رأى نفسه يمشي إلى خارج هذه الغرفة، هذا الزقاق، هذه المدينة، من دون أن يلتفت إلى الوراء.

في صباح اليوم التالي استيقظ باكراً، لبس بدلته النظامية وعاد إلى العمل.

-3-

بينما كنتُ أنتظر في شنغهاي، فتحتْ حياةٌ واحدة، بنحوٍ غير متوقع، البابَ المفضي إلى حياةٍ أخرى. بعد ثلاثة أيام على لقائي بـ توفو ليو، اتصل بي هاتفياً. كانت ابنة أخته العاملة في «راديو بكين» قد جعلته يتصل بشابةٍ ما يتعيَّن عليَّ أن ألتقي بها: لو ييوين، الصديقة الحميمة لمحررة «راديو بكين» التي فارقت الحياة في العام 1996. كانت هذه ييوين نفسها التي عرفتْ أي - مينغ وأبويها في العام 1988 والعام 1989. شعرتُ أن الشيء المستحيل قد حصل: كنتُ قد استخرجتُ إبرةً من البحر.

هذه الليلة، ليلة السادس من حزيران «يونيو» 2016، مضيتُ إلى شقتها الواقعة في «طريق فينيانغ»، بالقرب من «كونسرفتوار شنغهاي».

كانت ييوين امرأة طويلة القامة، فائقة الجمال، في منتصف أربعينياتها. كانت ترتدي سروال جينز، قميصاً قطنياً «تي شيرت»، وكان شعرها الطويل مربوطاً في عقدة غير مربوطة بإحكام. تكلمتْ بقوةٍ وجدتها لافتةً على نحو آسر. كانت قلقةً، كانت تومئ كثيراً خلال كلامها، كأنها ترسم على حاجز. تحدثنا بالإنكليزية. بعد تخرجها وحصولها على شهادة في اللغة الصينية والتاريخ الصيني في «جامعة بكين لإعداد معلمي المدارس الابتدائية»، غيّرتْ حياتها وقدّمتْ طلباً لغرض دراسة الهندسة الكهربائية في «جامعة طوكيو». ويا لدهشتها ـ قُبلتْ في هذه الجامعة. لم ترجعْ إلى الصين إلّا قبل عام واحد. كانت مطلقة ولها ابنة في سنّ المراهقة.

كان لدى ييوين كثير من الأشياء تودّ أن ترويها لي. القصة هي كائن

متنقل، مرآة أبدية تمسك حيواتنا في زوايا غير متوقعة. وخلال حديثنا، فتحتُ «اللابتوب» وأريتُها صورةً مأخوذةً بالماسح الضوئي للمقطوعة الموسيقية المعنونة *«الشمس تشرق على ساحة الشعب»*. بدأتُ أهمهم بالألحان.

«هذه موسيقى سبارو»، قالت ييوين في الحال. «لكن...».

«كيف عرفتِ؟».

«كان يغنيها على الدوام. تعوّدتُ أن أسمعها في الأمسيات، وأنا أتمشى متجهةً صوب البيت في ساعةٍ متأخرة من الليل. في العام 1989، كنا نسكن في الـ«موكسيدي هوتونغ»، كانت جميع الشقق صغيرةً ومتراصةً، كنا نقيم تقريباً كل واحد منا على سطح الآخر. كان سبارو يمرّ بنافذتي في طريقه إلى شقته. وكان بوسعي أن أسمعه في مكتبه الصغير، حيث اعتاد أن يكتب. كانت موسيقاه أشبه بشيءٍ في الجو». اقتربتْ ييوين أكثر من الحاسوب. «لكن، بحقّ السماء، كيف حصلتِ على هذه المقطوعة الموسيقية؟».

«عزفتها لي إحدى صديقاتي. قبل سنوات قلائل. كنتُ قد تعلمتُ أن أقرأ الموسيقى قليلاً».

«لكن كيف عثرتِ على نسخةٍ من الموسيقى؟ كانت قد أُتلفتْ في العام 1989. أي - مينغ لديها تسع صفحات فحسب. رأيتها بعد أن تعرضتْ للتلف».

أخبرتُها أن سبارو كان قد بعثها إلى والدي في رسالةٍ مؤرخة في السابع والعشرين من أيار «مايو» 1989. وهذه النسخة عثرتُ عليها قبل أعوام قليلة، في ملف بوليس هونغ كونغ. كانت من بين مقتنيات أبي حين توفي.

أمستْ ييوين عاطفيةً على حين غرة. «كانت أي - مينغ تعتقد أنها ضاعتْ».

«أتعرفين أين هي أم أي - مينغ؟ حاولتُ العثور عليها لكن العنوان الذي -».

«لينغ؟ لكنها توفيتْ في العام 1996».

احتشدتْ في كياني موجةٌ من العاطفة؛ كنتُ أشك دوماً بأن لينغ فارقت الحياة، ومع ذلك لا أزال أتمنى أن يكون شكّي في محلّه. فكرتُ لحظةً، وأنا أستجمع قواي. «أي - مينغ لها خالة أمها التي اعتادتْ أن تملك مخزن كتب. كانت طاعنةً في السن...».

«ذه أولد كات. إنها تقيم في شنغهاي. هذه السنة سوف يصبح عمرها مئة سنة وحين تسألينها عن سنة ميلادها، تقول إنها كانت حيةً على الدوام. سأكتبِ عنوانها لكِ. ليس بحوزتها هاتف».

استطردتْ بيوين قائلةً: «في العام 1996، رجعتْ أي - مينغ من الولايات المتحدة».

«في يومٍ من أيام مايو»، قلتُ.

«أجل، في منتصف مايو. جاءتْ إلى بكين من أجل جنازة أمها. كان الوضع صعباً. لم تستطع الحصول على تأشيرة الولايات المتحدة ولم تحصل على هوكو صينية، أي الإذن بالإقامة، بعد الآن. خاطرتْ وذهبتْ إلى مكتب الأمن العام كي تقدم طلباً، لكنهم رفضوا طلبها... رأيتها مراتٍ قليلةً بينما كانت لا تزال في المدينة. كانت وفاة أمها شيئاً لا يُطاق بالنسبة لها. لم تكنْ أي - مينغ على ما يرام. أخبرتني أنها سوف تقيم مع جدتها في [الجنوب]. فيما بعد، بعد مرور عام تقريباً، ربما 1997 أو 1998، كتبتْ لي رسالةً. قالت إنها ذاهبة إلى [محافظة غانسو] الواقعة في غرب الصين. طلبتْ مني الذهاب معها. كنتُ أقيم في طوكيو في تلك الآونة. سألتها ما إذا كانت تمزح، لماذا، بحقّ السماء، تمضي إلى الصحراء في منتصف الصيف؟ كل ما كنتُ أريده هو أن تعود أي - مينغ إلى رشدها، أن ترى العقل. لكنني قلتُ أشياء... كنتُ قاسيةً جداً في رسالتي، قلتُ أشياء كثيرةً. لم أسمعْ عنها بعد ذلك. لا بدَّ أنني كنتُ... في مطلع العام 1998».

كانت التواريخ تضاهي تواريخي. الأشياء التي أحسستها عصيةٌ على الوصف.

«كنتُ في ميعة الصبا. لم أفهم. كل ما جرى خلال التظاهرات، الطريقة التي انتهتْ بها، الطريقة التي مات فيها الناس، جعلتني غاضبةً وساخرةً»، قالت ييوين. «موت لينغ غيّر كل شيء بالنسبة لـ أي - مينغ. في الحقيقة... بعد أن ذهبتْ أي - مينغ إلى الخارج، أول مرة، إلى كندا في العام 1990، أقمتُ علاقةً قويةً مع أمها، كنتُ معجبةً بـ لينغ ورأيتُ كم هي شجاعة. بدأتُ أرى حياتي بطريقةٍ مختلفة. كانت هي التي شجعتني على أن أقدم طلباً للالتحاق بـ [جامعة طوكيو]. لينغ سهّلتْ علينا كلنا أن نبدأ حيواتنا من جديد، لكنها هي نفسها لم تُتح لها الفرصة». نهضتْ ييوين وخرجتْ من الحجرة. حين رجعتْ، كانت تحمل شيئين. الأول: صورة لـ لينغ، سبارو، وأي - مينغ التقطتْ في العام 1989. كانوا واقفين في وسط «ساحة تيانانمين». الثاني: الفصل 23 من «كتاب السجلات التاريخية»، الذي كانت أي - مينغ قد نسخته بيدها وأعطته إلى ييوين بمناسبة عيد ميلادها العشرين.

«لا أدري كيف اتصلتْ لينغ بأسرتكِ في كندا. إنني أعرف فحسب أن رسائلَ كثيرةً تأتي وتذهب. إلّا أنَّ أي - مينغ لم تخبرني قط بالتفاصيل، حتى حين عادتْ في العام 1996».

«ولينغ، ألم تخبركِ؟» سألتها.

ألقتْ عليَّ ييوين نظرةً ثاقبةً، كما لو كنتُ أملك الأجوبة التي يمكنني أن أعطيها إليها. «هكذا كانت الحياة آنذاك»، قالت في النهاية. «الناس يفقدون بعضهم. كان بالمستطاع أن يرسلوكِ خمسة آلاف كيلومتر، من دون أمل بالعودة. كل امرئٍ لديه أشخاص كثيرون جداً هكذا في حياته هو، أشخاصٌ أُرسلوا بعيداً. هذه هي مرارة الحياة لكنها كذلك الحرية. لا يمكنكِ أن تعيشي إزاء واقعية الزمن إنما لا يزال بالإمكان أن تحافظي على أحلامكِ الخاصة، فقط يجب أن تبقى هكذا، أحلاماً خصوصيةً بشدة، بقوة. يتحتَّم عليكِ أن تحتفظي بشيءٍ ما لنفسكِ، وحتى تفعلي ذلك، يلزمكِ أن تديري ظهركِ للواقع. من الصعب أن نفسر هذا إن لم

تكوني ترعرعتِ هنا. الناس ببساطة لا حقَّ لهم بأن يقيموا في الأمكنة التي يرغبون، أن يُغرموا بمَن يُحبون، أن ينجزوا العمل الذي يرغبون. كل شيء يقرره الحزب. حين بدأت التظاهرات، كان الطلبة يطالبون بشيءٍ بسيط. في أول الأمر لم يكنْ مطلبهم تغيير النظام، أو إسقاط الحكومة، ناهيكِ عن الحزب. كان مطلبهم هو منح المرء حرية العيش في المكان الذي تختارينه، أن تمارسي العمل الذي تحبينه. طوال هذه الأعوام كلها، تعيَّن على آبائنا أن يدّعوا أشياء لم يؤمنوا بها. حتى نرى المستقبل بضوءٍ مختلف يستغرق الأمر بعض الوقت. إلّا أنّنا كنا نعتقد أن كل شيء يمكن أن يبدأ بهذه الحركة الأولى».

جلسنا صامتتين لحظةً. بدا دفتر الملاحظات - كتابة يد أي - مينغ، الفصل 23 - واقعياً وعديم الوزن في يدي، قريباً جدّاً وبعيداً جدّاً في آن. «ما الذي جعلكِ تقررين العودة إلى الوطن».

وضعتْ ييوين دفتر الملاحظات على المنضدة، بجانب الصورة الفوتوغرافية التي أعطيتها لها، التي تُظهر أي - مينغ، أمي، وأنا، في العام 1991. انتهت الحركة الأولى. لن ترجعْ ثانيةً. «لكن ماري، كيف يمكنني أن أعبّر؟ ربما تكون قد انتهتْ، ربما تكون قد «خلصتْ»، إلّا أنَّ هذا لا يعني أنني توقفتُ عن الاستماع إليها».

***

منذ عهدٍ قريب جدّاً، شرعتُ أنصت إلى الألحان المكيّفة وإعادة التخيّلات[1] لـ موسيقى باخ التي كتبها عازف البيانو الإيطالي فيروتشي بوسوني[2]؛ هذه الألبومات كانت جزءاً من مقتنيات أبي الموسيقية وهي

---

1 - إعادة التخيّلات: في النص الإنكليزي reimagining، التي تعني أيضاً: التخيّل ثانيةً، أو التخيّل من جديد - م.

2 - فيروتشي بوسوني Ferrucci Busoni (1866 - 1924): مؤلف موسيقي، عازف بيانو، قائد فرقة موسيقية «مايسترو»، محرر، كاتب، مدرس إيطالي. تدلل مسيرته وشهرته العالمية على أنه كانت له علاقات وطيدة مع موسيقيين وأدباء بارزين في عصره - م.

الآن جزءٌ من مقتنياتي. مئتا عام تفصل بين ولادتيْ باخ وبوسوني، ومع ذلك أجد أن هذه التكييفات دقيقةٌ وجميلةٌ إلى حدٍّ كبير. لماذا كيّف بوسوني موسيقى باخ؟ كيف يمكن أن تغدو نسخةٌ ما أكثر من نسخة؟ هل إن الفن هو خلق شيء جديد وأصيل، أم إنه ببساطة التوسيع المستمر، أو التقطير، لـملاحظةٍ أتتْ من قبل؟ أيَّ جواب يمكن أن يُعطيه أبي؟

في العام 1989، حين ترك أمي وتركني، انتظر في هونغ كونغ مجيء سبارو. كنتُ يافعةً جدّاً حين هجرنا؛ الندم الذي حمله لم يكنْ بوسعي أن أعرفه. كنتُ أتوجس خيفةً من تخيّل معاناته ومع ذلك التفاصيل التي أعرفها لن تغادرني البتة. الحبوب وشرب الكحول، قيل لأمي فيما بعد. كآبة موهِنة. لعب القمار. لعله أحسَّ بأن ما جرى لـ سبارو لا بدَّ أن يكون بسببه هو بشكلٍ من الأشكال، وأن فيزا هونغ كونغ، أوراق الرحلة، التذكرة، جعلتْ من سبارو هدفاً. بطبيعة الحال، لم يكنْ ذلك شيئاً حقيقيّاً، إلّا أنَّ أبي لم يكنْ بمستطاعه معرفة هذا الأمر، وقد توصل إلى ما يبدو أنه تفسير منطقي. كان قد خدع أمي وخدعني، ولم يعرفْ كيف يعود، كيف يغدو ما كان عليه. سبارو، تسهولي، البروفيسور، أفراد أسرته هو، مضوا كلهم؛ كل الذوات التي حاول أن يكونها، كل الأشياء التي فقدها، لم يعدْ بوسعه أن يتبرأ منها. كان أبي مغرماً بـ سبارو طوال حياته كلها تقريباً؛ إني لا أشك في ذلك. كان الوقت هو الصباح الباكر، لا يزال الجوّ مظلماً، حين مضى إلى نافذة غرفته في الطابق التاسع. قفز منها. لم يرفعْ أحدٌ بصره إلى الأعلى، لم يره أحد، كان وحيداً بكل معنى الكلمة. إنني أفهم أنه كان يرغب بأن يضع حدّاً لحسرته، مهما كان الثمن، وأن يقضي على جيشان عواطفه المشبوبة. أغلب الظن، كان يأمل أننا، نحن أفراد أسرته، ننسى، إلّا أنَّ أمي وأنا، فيما نحن ننتظر في فانكوفر، كنا نتمسك بالشخص الذي عرفناه. كانت أمي تحبه فعلاً – تحب جزءَه الذي كان يُظهره لها.

قد توجد حيوات عدة وذوات عدة، إلّا أنَّ هذا لا يجعل كلَّ تنويعٍ كاذباً، باطلاً. لا أظن ذلك. لو كان لا يزال حيّاً، هذا ما أودّ أن أقوله له.

أعرفُ أنني إبان سنوات حياتي كافحتُ كي أغفر لأبي. الآن، وقد غدوتُ أكبر سناً، الشيء الذي أحبه أكثر من الأشياء كلها هو أنه كان قادراً على العثور على طريقة كي يغفر بها لنفسه. في نهاية الأمر، أعتقد أن هذه الصفحات و«كتاب السجلات التاريخية» يعودان إلى بقاء هذه الرغبة: أن نعرف الأزمنة التي نحيا فيها. كي نحافظ على السجل التاريخي الذي لا بدَّ من الحفاظ عليه وكذلك، أخيراً، ندعه وشأنه. هذا ما كنتُ سأقوله لأبي. أن أصدّق بأنه، في يومٍ ما، شخصٌ آخر سواي سوف يحتفظ بالسجل التاريخي.

-2-

يوما الاثنين والثلاثاء ظهرا كأنهما يوم مستمرّ واحد في حياة سبارو.

تقلّص الإنتاج إلى لاشيء تقريباً، أولد بي والآنسة لو كانا كسولين، فاتري الهمة، وبدتْ داو - رين كما لو كانت تفكك الراديوات بدلاً من أن تصنعها؛ غير أن سبارو بدا سعيداً بسبب لهو العمل وفي الواقع كان قد تجاوز حصته لليوم. كانت الموسيقى قد جمعتْ كل الحركات التي قام بها، انزلقتْ من بين أفكاره مثل سلّم يصل إلى اتجاهات عدة، إلى أن يغدو ليس أكثر من صوت. من حوله استمرت المناقشة: الشائعات والحقيقة انهارتْ معاً. قال أحدهم إن «جيش تحرير الشعب» يخطط للقيام بانقلاب. الآنسة لو روتْ قائلةً بأن البوليس ألقى القبض على دزينة من أعضاء «جنود فرسان الحديد» الذين غيّروا أسماءهم إلى «النمور الطائرة». قال أولد بي إن جنرالات رفيعي المستوى في الجيش قد تمَّ التخلّص منهم كونهم غير مرغوب فيهم، وإن الكتائب الجديدة لـ «جيش تحرير الشعب» سوف تدخل بكين ثانيةً هذه الليلة.

«غداً»، قالت الآنسة لو.

«مستحيل»، قالت مروحة.

في أثناء ذلك، في «الساحة»، كان مقاولو هونغ كونغ قد تبرعوا بمئات من الخيام ذات العلامات التجارية الجديدة وكان الطلبة قد شيدوا نُصُباً: «إلهة الديمقراطية». منتدى جديد للمناظرة والنقاش في الهواء الطلق، «جامعة تياناتمين الخاصة بالديمقراطية»، افتتح المنتدى الليلة الماضية.

في يوم الأربعاء، لم تصلْ مروحة لأداء نوبة العمل الخاصة بها.

في يوم الخميس، بلغتْ درجات الحرارة الأربعين مئوية وبدت الأسلاكُ في يديْ سبارو نابضتين بالحيوية. في «راديو بكين»، قال عضو نشيط في اللجنة الدائمة إن الشبيبة كانوا «صالحين، أنقياء السريرة وطيبي الأفئدة»، وليسوا هم المشكلة. كان العمال، وبالأخص قادة «الاتحاد المستقل»، هم الذين خلقوا خليةً سرطانيةً مؤلفةً من «حثالات المجتمع».

في يوم الجمعة، أتى أولد بي متأخراً. شعره الذي من دأبه أن يكون مرتباً ونظيفاً على الدوام، كان مبللاً بالعرق، وتعيَّن عليه أن يدخن ثلاثاً من سجائره الأثيرة «بغ فرونت غيت» الواحدة عقب الأخرى قبل أن يتمكن من أن يخبرهم بما حصل. وصف أولد بي جموع المحتشدين أمام «دائرة الأمن العام» في «جادة كيان مين». «كانوا يعتقلون الناس طوال الأسبوع»، قال. «لذلك مضيتُ إلى هناك كي أعرف ماذا حصل لـ مروحة. أولاد الزنا هؤلاء سألوني لماذا أبحث عن امرأةٍ مناوئة للثورة. مجرمة سياسية. خاطبوني قائلين: [اركضْ إلى منزلك قبل أن نعتقلكَ، أنتَ أيضاً]. أوه، حقّاً؟] قلتُ لهم. [عن أيّ جريمة تعتقلونني؟] [رفيق، إنكِ تنتهك قانون الأحكام العُرفية.] [اللعنة عليَّ]، قلتُ. [إنكَ تدنّس حرمة (الدستور }]». استل أولد بي سيجارةً أخرى. «كنتُ غبيّاً، كنتُ أرتدي بطاقتي التعريفية على قميصي. دوّنوا كل شيء».

انتزعت الآنسة لو السيجارة من فم أولد بي. «ما كان يلزمكَ أن تذهب بمفردك! أنت لا تسيطر على نفسكَ».

سكب سبارو له كوباً من الشاي.

«إنني عائد إليهم غداً»، قال أولد بي، وهو يقبض على السيجارة من جديد. «لا يستطيعون أن يقبضوا علينا كلنا».

في تلك الليلة، اتصل سبارو بـ«قناة الماء البارد». كانت بغ موذر نايف مقطوعة الأنفاس بسبب استدعائها إلى هاتف الحي السكني. بعد

أن أطلقتْ هبّات من الهواء على مدى دقائق قليلة، أخبرته أن تظاهرات الطلبة قد امتدتْ إلى شيتسهين وغوانغ تسهو. حين سألها ما إذا كانت قد انضمتْ إلى الاحتجاجات، صاحتْ عليه قائلةً: «دينغ كسياو بينغ وأدوات الحقل العتيقة أولئك يجب أن يتقاعدوا! كل أولئك الرجال المسنين في بكين، يبدو كما لو أنّهم يتنفسون من المنخر نفسه!».

بجانب سبارو، حافظة الهاتف، السيدة سون، كانت تدخن وتتظاهر بمطالعة *«بيبلز ديلي»*. كان أولادها يتسلقون بجهد من حولها مثل شرارات تنفجر.

في الطرف الآخر من الخط الهاتفي، كانت بغ موذر قد سكتتْ وكان سبارو يعتقد أنها أنهتْ كلامها.

كان في منتصف إلقاء تحية الوداع، حين قاطعته بغ موذر لتقول له إن لديها أخباراً. في الأسبوع المنصرم، كانت قد تلقتْ رسالةً من خالته سويرل وزوجها وِين الحالم.

«ماما»، قال.

«لا تقاطعني!» صاحتْ عليه. ومن ثم، راحتْ تتنهد: «القد شختُ. لقد دأبتُ على إضاعة سلسلة أفكاري».

الآن أُتخمتْ بغ موذر بالأعوام، تتكلم بسرعة كما لو أنّها تركض عبر عارضة خشبية ضيقة. سابقاً، في العام 1977، كان وِين على وشك أن يُعتقل مجدداً. لولا صديقه عارض الأفلام السينمائية بانغ، ما كان بمستطاعهما أن يفلتا. كانا قد تراجعا إلى منطقةٍ أعمق في قرغيزستان. في العام الفائت، وصلتْ إليهم الكلمة أخيراً بأن توسّل بغ موذر تكلل بالنجاح: خلال الإصلاحات التي استهلها هو ياوبانغ، انقلبت الاتهامات الموجهة ضد وِين الحالم ورُفع عنه نعت المجرم خاصته. «لم يستغرق الأمر سوى عشرة أعوام»، قالت بغ موذر بمرارة. سويرل ووين هما في طريقهما إلى الوطن. في الرسالة، قالت سويرل إنهما كانا قد عبرا «منغوليا الداخلية» في وقتٍ سابق ووصلا إلى لانتسهو. بعد ما يقارب

عشرين عاماً في المناطق الصحراوية، كانا يرغبان بزيارة البحر. كانا قد خططا للتوقف عند بكين قبل مواصلة الرحلة إلى شنغهاي و«قناة الماء البارد». كانت بغ موذر قد أعطتهما في وقتٍ سابق عنوان سبارو، مع أنّه ستمرّ أشهر قليلة أخرى قبل أن يصلهما العمل الورقي[1] الرسمي. لا بدَّ أنه توقع وصولهما في الشتاء.

«هل ستتعرف على سويرل؟» سألته أمه.

«دائماً»، قال. نقل سبارو الهاتف إلى أذنه الأخرى. «هل هما يعرفان كل ما جرى؟».

كان يخشى من أنه دفع أمه بنحوٍ غير متعمَّد عن عارضة التوازن وكانت قد سقطتْ وانحدرتْ إلى السكون. إلّا أنَّ صوت بغ موذر، حين ثابتْ إلى رشدها، كان ثابتاً. «إنها تعرف. كلاهما يعرفان».

عبر خط الهاتف، كانت الأصداء الضعيفة للحوارات الأخرى تتخلل حوارهما وتتراجع.

«ابني، هل كنتَ تكتب الموسيقى؟».

أجاب سبارو بصدق، وقد أدهشه سؤالها: «نعم».

«حسناً، ما نوع الموسيقى؟».

«سوناتا للبيانو والكمان». كان يريد أن يخبر أمه بشأن تسجيلٍ مختلف تماماً، كانت سوناتات باخ الست لهاتين الآلتين نفسيهما. خلال سنوات حياته، كان باخ يعود إلى هذه المقطوعات الموسيقية الست، يصقلها وينقحها، يعيد كتابتها فيما كان يكبر سنّاً. كانت جميلةً بنحوٍ لا يُطاق، كما لو كان المؤلف الموسيقي يرغب بأن يكتشف كم تستطيع أن تحمل أغلب أشكال السوناتات الرئيسة هذه - العرض، التطور، الخلاصة - وبأيّ سُبل يستطيع الاحتواء أن يعيق الحرية، الحياة.

---

1 - العمل الورقي paper work: المراسلات بين الدوائر الرسمية؛ تُسمى بالدارجة العراقية: كتابنا وكتابكم - م.

بدتْ أمه قريبةً بنحوٍ غير منطقي. «ماذا سميتها؟ أتمنى أنكَ لم تكتفِ بمنحها رقماً».

ابتسم سبارو في الهاتف. كان يحترس من أن تتطلع السيدة سون إلى السقف، وبالأخص إلى عنكبوت كبير. «سميتها *[الشمس تشرق على ساحة الشعب]*».

«حقّاً؟» انفجرتْ ضاحكةً ضحكةً كبيرةً.

لم يتمالكْ نفسه فشرع يضحك هو بدوره. «نعم، سميتها بهذا الاسم».

«سوف تجد طريقةً ما كي تعزفها لـ سويرل ووِين الحالم؟».

«بالطبع».

«إنه عنوان مُبهِج، صحيح؟» قالت أمه.

أومأ برأسه، مندهشاً من الأسى الذي استولى عليه. تذكّر شيئاً ما روته له تسهولي. *لحسن الحظ، الفرح يتسلل إلى الحانكَ الموسيقية*. جزءٌ منه كان موجوداً على الدوام بشكلٍ منفصل، كان قد استمر حتى حين كفَّ عن الاستماع. «أجل».

***

في اليوم التالي، السبت، نامتْ أي – مينغ حتى الظهر. كان الطقس شديد الحرارة، حتى السرير بدا كأنه يذوب. البارحة، هي ويوين بقيتا حتى ساعةٍ متأخرة في «ساحة تيانانمين»، حيث كان نجم الروك هو دجيان»، يقيم حفلةً موسيقيةً، صوته يتردّد حتى بورتريه الرئيس ماو كحلمٍ صرفوه، كلُّهم، عن أذهانهم.

الآن أي – مينغ استيقظتْ من نومها، مبللةً بالعرق، شاعرةً بالغثيان، أنين الغيتارات الكهربائية ينبض في ذهنها. أحسّتْ كما لو أنّها لم تنمْ أبداً. استمر صخب الطائرات المروحية، كانت تدور حول بكين كرّةً أخرى، مُسقطةً الكراسات. نهضتْ من فراشها. كان التقويم يشير إلى الثالث من حزيران «يونيو»، انتهى شهر أيار «مايو»، مُذاباً من التاريخ.

اليوم، سوف تنسخ أي - مينغ بيدها الفصل الثالث والعشرين من «كتاب السجلات التاريخية» باعتباره هدية عيد ميلاد لـ ييومين. هذا المساء، سوف تذهب إلى «ساحة تيانانمين» لكنها سوف تعود باكراً إلى المنزل، سوف تنال راحةً جيدة.

***

في المنزل، ظهر ذلك اليوم، غطَّ سبارو في نوم عميق لم تعترضه مكبرات الصوت، التي كانت إذاعتها تكرر بإلحاح: *«ابدؤوا فوراً، جميع مواطني بكين يجب أن يتوخّوا الحذر الشديد! من فضلكم انؤوا بأنفسكم عن الشوارع وابتعدوا عن [ساحة تيانانمين]! العمال كافة يجب أن يلازموا مواقع عملهم وجميع المواطنين ينبغي أن يمكثوا في مساكنهم حفاظاً على سلامة حياتهم»*. بماذا حلم؟ فيما بعد، كانت أي - مينغ تتساءل عادةً لأنه، حين خرج سبارو من غرفته في وقت الغداء تقريباً، كان هادئاً، وحتى مبتهجاً. كان يحمل حزمةً صغيرةً من الأوراق كانت مشدودةً سويةً بواسطة شريط، ومطويةً، بطريقة الأكورديون. جلس على الكنبة بجانب لينغ، متجاهلاً تحذيرات المذيع المتكررة. أغلب الظن، سبارو، حاله حال أي - مينغ، لا يعتقد أن الجيش سوف يدخل المدينة مجدداً. كان سبارو يهمهم بمقطوعةٍ موسيقية، وهي توسيع لنمط الألحان الموسيقية التي كان يهمهم بها على مدى الأسابيع الماضية. فوقه مباشرةً، كان تقويم «مهرجان الربيع» يُظهر سمكتين ذهبيتين مكتنزتين: حظ سعيد ينزلق على رأسه كالغيوم.

أنصتتْ أي - مينغ لدندنته. لم تكن الموسيقى نواحاً، ومع ذلك كانت تشي بحزنٍ مُبطِل، مُغيِّر لا يمكن أن يُثبّت في موضعه.

كانت لينغ تقرأ جريدة الأمس. أنعمت النظر، كما لو أنّها منوَّمةً، في الصفحة ذاتها. جنباً إلى جنب، بدا أبوا أي - مينغ متصلين عند الورك، مع أنّ لينغ كانت تميل بعيداً نوعاً ما، كما لو أنّها تفسح مجالاً لشخصٍ آخر. تفحصتْ أي - مينغ أباها عن كثب. كانت تسريحة شعره السيئة قد

نمتْ قليلاً، وجعلت «طائر الهدوء» يبدو شبيهاً بشخصٍ ما كان وسيماً جدّاً في يومٍ من الأيام.

مطّتْ يديها. بعد ثلاث ساعات من نسخ الفصل 23 باليد، حين تصل ميّ فورث إلى هوههوت وتبدأ رحلتها صوب الصحراء، جميع العظام الصغيرة في أصابعها تؤذيها.

كان ضجيج طائرات الهليكوبتر يورث الجنون، كما لو أنّ هدفها الوحيد هو إثارة أعصاب الجميع. فرقع صوتٌ حادّ على النوافذ ومن ثم على الباب. كانت هي ولينغ قد قفزتا لكن سبارو التفت، كما لو كان يتوقع متطفلاً طوال هذا الوقت. هتف صوتٌ خشن لامرأة: «رفيق سبارو! رفيق سبارو!».

وإذ لم يتحركْ شخصٌ آخر، مضتْ أي – مينغ إلى الباب وسحبته فانفتح.

كان للمرأة أنفٌ ضيق، عينان كبيرتان بنحوٍ مذهل وذقن صغير مدبب. ما هذه اللطخة على فستانها؟ طين. طين أحمر متيبس. وكان لديها كدمةٌ جديدة، منتفخة جدّاً، أسفل عينها اليسرى مباشرةً.

«مروحة»، قال أبوها.

«سبارو، ساعدنا... أرجوك». كانت مروحة ترتعد كما لو أنّها تشعر بالبرد. «أولد بي، داو – رين، علينا أن نحضرهما هنا...».

ابتعدتْ أي – مينغ عن الباب.

«لقد وصلوا إلى غونغ تسهوفين. علينا أن نُسرع. الجيش يدخل!» تطلعتْ إلى أي – مينغ برباطة جأش مصطنعة، بذُعر مُربِك.

«غونغ تسهوفين...». قال سبارو.

كانت لينغ تنظر إلى رزمة أوراق سبارو، رفعتها من على الكنبة وشرعتْ تتفرّس فيها كما لو أنّه ما من أحدٍ وما من صوتٍ دخل الغرفة. مضى سبارو وتكلّم في أذنها. هبتْ لينغ واقفةً على قدميها.

«أي – مينغ»، خاطبها أبوها، وهو يلتفت إليها. «ابقي مع أمكِ. أتفهمين؟».

«نعم»، أجابتْ.

«تعدينني بالبقاء هنا؟».
أومأتْ برأسها.
«أي - مينغ، عديني بأنكِ لن تغادري المنزل. عليَّ الذهاب الآن».
علامَ كان يصيح؟ أو لعله لم يكنْ يصيح. كان يتكلم بهدوء ومع ذلك بدا صوته يقرع بعنف في أذنيها.
«نعم، بابا».
تمشى في الغرفة بطريقةٍ مرتبكة، باحثاً عن شيء ما. سترته؟ بطاقته التعريفية؟ رزمة الأوراق؟ رسالة ما؟ مهما كان هذا الشيء الذي يريد أن يجلبه معه، تركه وراءه. ألقى على لينغ نظرةً أخيرةً، بسمةً كي يطمئنها، قبل أن يسرع وراء مروحة.
تبعتهما أي - مينغ إلى الباب.
«إنها شريكة في العمل»، قالت لينغ. «إنها تعمل في [معمل الأسلاك]».
شاهدتْ أي - مينغ دراجة أبيها الهوائية تتهادى في الزقاق وتوغل في الظلال. لفتَ أنظارها لونٌ زائل، فستانٌ وردي، وميضٌ من الضوء البرتقالي. كان الاهتزاز المتأتئ لطائرات الهليكوبتر يجعل التفكير مستحيلاً.
«أغلقي الباب، أي - مينغ».
التفتتْ لتجد أمها بجوارها.
«أغلقي الباب»، كررتْ لينغ، وهي تغلق الباب بنفسها.
كانت أمها تحمل تلك الرزمة من الأوراق ورأتْ أي - مينغ سطراً وراء سطر من التنويت الموسيقي، وهي لغةٌ لم تتعلمْ كيف تقرؤها. في الأعلى، كانت هنالك ثلاث كلمات واضحة: إلى جيانغ كاي. «سيعود إلى الوطن حالاً»، قالت أي - مينغ. بدا صوتها سخيفاً بالنسبة لها، مسطحاً.
«ماذا تعرفين عنها؟ ماذا عرفتِ عن أبيكِ؟».

دائخةً، لم تقلْ أي - مينغ كلمةً.

«أتعرفين أنه كان بوسعه أن يلحّن لـ[الفرقة السيمفونية المركزية]، وكان بوسعه أن يدرس خارج البلد، وكان بمستطاعه أن يعيش حياةً مختلفة، لو فقط كان شخصاً مختلفاً...». هزّتْ لينغ الأوراق قليلاً. «ما كان يتعيَّن عليه أن يكون معنا، ما كان عليه أن يختارنا، صحيح؟ لو مُنح حرية الاختيار». بدت الأوراق في يدها وكأنها تتكاثر. «كان أبوكِ رجلاً صالحاً على الدوام إلّا أنَّ الشفقة يمكن أن تكون سبباً للسقوط. قد تجعلكِ تفقدين وجهة النظر. قد تجعلكِ حمقاء».

جلستْ لينغ على الكنبة.

«ماما؟».

«لماذا ذهب معها؟» سألت لينغ. «ألا يعرف ما يجري هناك في الخارج؟ هل يعتقد أن هذه الحياة لا قيمةَ لها؟ أحقاً يعتقد هو أنه يستطيع الاستمرار في مساره كما لو أنّه غير مرئي؟».

***

في أول الأمر كان إطلاق المدافع متقطّعاً، صادماً، لكنه أصبح يأتي بشكل مطّرد، أشبه بتدريب عسكري في الظلام. وحينما لم يعدْ بمقدور أي - مينغ أن تطيقه أكثر، اختبأتْ في غرفة المكتب، محاطةً بكتبها، «*مجموعة رسائل تشايكوفسكي*»، «*المنتخبات الأدبية*»، «*المطر على جبل با*». في الفناء في الخارج، أصبح خليط الأصوات مسعوراً بشكلٍ متزايد.

يدان طرقتا برقة على الزجاج. كانت عصابة الرأس الوردية على شعر ييوين مروّعةً مثل ضوء النهار. دفعتْ أي - مينغ النافذة وفتحتها.

«اخرجي»، همستْ ييوين. كانت عيناها مفتوحتين على وسعهما، كانت تبكي.

أجالتْ أي - مينغ عينيها في أنحاء الغرفة. زوج من الصنادل البلاستيكية، صندلا أمها، كانا مقلوبين بجانب خزانة الكتب. دستْ

أي – مينغ قدميها فيهما. صعدتْ على طاولة الكتابة ودلّتْ في البداية ساقاً واحدة ومن ثم الساق الأخرى خارج النافذة. أحسَّتْ بيديْ ييوين الدافئتين تمسكان بكاحليها، وهما تسحبانها بإصرار إلى الأسفل. قفزتْ.

في منتصف الطريق خارج الفناء، أدركتْ أي – مينغ أنها نسيتْ أن تغلق الشباك. «انتظري، انتظري، ييوين»، همستْ، وهي تستدير بغية العودة. وإذ وصلتْ إلى النافذة، شاهدتْ شكلاً بشريّاً يرفرف في المدخل، متحركاً نحوها. حدّثتْ نفسها بأن الشبح كان في ذهنها فحسب. أغلقتْ أي – مينغ النافذة الزجاجية.

«أي – مينغ!» سمعتْ. «أي – مينغ، إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

واصلت الركض.

«أي – مينغ، عودي».

***

هذه الشوارع، المكسوة بالدخان، لا يمكن أن تكون شوارعها. دراجة أي – مينغ انحرفتْ حول الأنقاض: كراسي مقلوبة، قرميدات بدتْ كأنها أتتْ من اللامكان، غصون أشجار، سيارات مهجورة، عربة يجرّها حصان يجلس فيها طفلان، ينظران صامتين إلى الخارج. وراءها، عند «تقاطع موكسيدي»، شاهدتْ حافلاتٍ مقلوبةً وسُحُبَ دخانٍ تتصاعد من دزينة نيران في الأقل.

«ييوين، إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

إلّا أنَّ الفتاة الأخرى استمرتْ في استعمال دواسة دراجتها الهوائية. «كيف تسنى لهم أن يفعلوا ذلك»، قالت ييوين. كانت هادئةً وذاهلةً معاً نوعاً ما. «كيف تسنى لهم أن يفعلوا ذلك؟». استعملتْ دواسة دراجتها الهوائية بهياجٍ شديد كما لو أنّ شخصاً ما يتعقبها.

مجاميع قليلة من الدراجات الهوائية كانت تتحرك في الاتجاهات كلها. شاحنة مملوءة بالصبيان، متجهة نحو موكسيدي، جنحتْ مارةً

بهما. هتف الصبيان بأنهم في طريقهم إلى المتاريس. وما أدخل الارتياح إلى قلبها، أن «جادة تشانغآن» أمستْ أقل فوضويةً بينما كانتا تقتربان من «ساحة تيانانمين». كلما تقدمنا أكثر في الجادة، تتضاءل أصوات القتال. كانت «الساحة» ترتفع أمامهما، شاهدت المدينة – الخيمة، كئيبةً وثابتةً على الكونكريت، ونُصب «إلهة الديمقراطية» يشعُ مثل خداع بصري.

«لا يمكننا الرجوع»، قالت ييوين. «إنهم يقتلون الناس في فنغتاي. إنهم يقتلون الناس في غونغ تسهوفين. في الشارع مباشرةً، عند التقاطع. رأيتُ ذلك بأُم عيني، أي – مينغ. رأيتُ ذلك. في البداية كان الأمر يقتصر على غاز مُسيّل للدموع فحسب، إنما لاحقاً أمسى عيارات نارية حقيقية، كان هنالك دم بشري حقيقي، إنهم يتعقبون الناس من زقاقٍ إلى زقاق».

«غونغ تسهوفين؟».

«لا أعرف، لا أعرف».

كانت ساقا أي – مينغ تواصلان الحركة، الدراجة الهوائية تندفع مسرعةً إلى الأمام، لكنها شعرتْ كما لو أنّها تسقط. «يلزمني الرجوع. أبي في غونغ تسهوفين».

«هل جننتِ؟» كانت ييوين تصرخ بقوةٍ شديدة بحيث إنّها من الجائز لم ترَ ما هو كائن أمامها. «إنهم يطلقون النار. أفراد [جيش تحرير الشعب] يطلقون النار. رأيتُ ثلاثة أو أربعة أشخاص يخرّون صرعى أمامي. الرصاصات، بدا كما لو أنّها تنفجر في داخل الشخص».

«كلا، الجيش لا يجرؤ على ذلك. لا بدَّ أنها رصاصات مطاط».

«لا يجرؤون!» زعقتْ ييوين، وقد استولتْ عليها الهيستيريا. «كان الناس يصرخون قائلين: لماذا يرموننا بالرصاص؟ لماذا يطلقون الرصاص؟ وبعدئذٍ لا يمكنهم الهرب بسبب متاريس الطرقات. متاريس الطرق خاصتنا. جميع متاريس الطرق التي نصبناها نحن. لا يمكنهم القفز من فوقها».

في» الساحة»، حشدٌ هائلٌ من الطلبة كانوا لا يزالون يتجمعون في أسفل «نُصب أبطال الشعب». كانت دراجة ييوين الهوائية تتدحرج نحو موقف ما.

«لكن ماذا نفعل الآن؟». همستْ أي - مينغ.

كانت ييوين تنظر إليها مباشرةً، إلّا أنَّ أي - مينغ كان يهيمن عليها شعور مزعج بأنها، أي - مينغ، لم تكنْ هناك فعليّاً. رأتْ بقعاً على فستان ييوين، العتمة الطينية للدم. أهوَ دم شخصٍ آخر؟ فكرتْ، كان فؤادها يخفق بعنف، مؤكد، هو دم شخصٍ آخر.

«ماذا فعلنا؟» قالت ييوين. «ماذا فعلنا؟».

***

في بعض الأحيان، كانت شاحنات الجيش تندفع بقوةٍ إلى الأمام من دون سابق إنذار، من دون أن تبالي بمَن يقف في الطريق. في كل لحظة، كان هنالك فضلاً عن ذلك مزيدٌ من الجنود وفضلاً عن ذلك مزيدٌ من الناس، طالما أن أولئك الذين يحاولون الهرب يصطدمون بأولئك الذين كانوا متفرجين فحسب، أو أولئك الذين كانوا واقفين خارج مبانيهم، أو كانوا في طريقهم إلى العمل أو عائدين منه. سبارو ومروحة ركضا تقريباً طول طريق العودة إلى موكسيدي وكانَ كلاهما مقطوعي الأنفاس. في الأزقة، كان الجنود قد تجسدوا كما لو أنّهم وُلدوا من التراب. لم يكن الحشد يهرب، بل يتحركون فقط إلى الأمام والخلف، إلى الخلف والأمام، مثل دمى على خيط. حافلات كهربائية، التي شكّلتْ متراساً في وقتٍ من الأوقات، أمست الآن حطاماً من المعدن المتفحم.

«لا تدعوهم يمرّون»، كانت مروحة تقول. «إنهم قتلة. لا تدعوهم يصلون إلى [الساحة]».

ثمة مراهقات تتعثرن هنا وهناك، حاملات فتاةً مصابةً بأذرعهن.

قال صوتٌ في مكبرة صوت: «اذهبوا إلى مساكنكم، اذهبوا إلى مساكنكم». كان شخص يصرخ طالباً النجدة.

تقدّمت الدبابات مجدداً. سمع القرع غير الرنان للقرميدات على المعدن.

«فاشيون، فاشيون...». التفت سبارو. هل كانت تلك مروحة؟ ليس باستطاعته أن يراها. كم بدا الجنود نظيفين وهادئين وراءه، كتفاً إلى كتف، البنادق مرفوعة إلى الأعلى. إلّا أنّهم كانوا يمرون بـ سبارو كما لو أنّه غير حاضر هناك. خلفهم، ترقد امرأة مصابة على الطريق. ركض رجلان وشرعا يسحبانها إلى الوراء. كان الجنود يطلقون الرصاص مراراً على شخصٍ لم يستطعْ رؤيته.

كانت مروحة تجأر: «حيوانات، حيوانات وحشية!» نزل الدخان كما لو من الأشجار.

كانت مكبرة الصوت تخترق الضوضاء. «اذهبوا إلى منازلكم اذهبوا إلى منازلكم اذهبوا إلى منازلكم».

«غيو الصغير، أين أنتَ؟ غيو الصغير!».

«لقد خرَّ صريعاً، لقد خرَّ صريعاً. ليساعدنا شخصٌ ما!».

كانت مروحة تسند رجلاً ألقى بثقله على كتفها، كان طويل القامة، ضخم البنية، يرتدي بدلة عامل نظامية زرقاء داكنة، وتهاوى بكل ثقله مثل عمود ساقط آنَ سارع سبارو لنجدته. زلَّتْ قدمه إلى الأمام، خاف سبارو من أنه يتحتَّم عليه أن يساعدهم فيما هم جميعاً يسقطون صرعى. قبض على شيءٍ ما، قطعة معدن. انسحب حالما بدأتْ تسفع يده.

«حذارِ، حذارِ»، تمتمتْ مروحة، كما لو كانت في حلم، كما لو أنّها تقود رتلاً من أطفال صغار عبر الطريق. «لا تدعهم يصلون إلى الطلبة».

أحسَّ كأن يده تذوب. قال الرجل الذي يستند عليه: «أرجوك لا تتركني. عِدني، أرجوك. لا يمكنكَ أن تتركني وحدي».

«لن أتركك. أخبرني باسمك». كانت قوة صوت سبارو تبدو مصطنعةً وبعيدةً. «أين أصابتك الرصاصة؟». كان الدم يغطي الجرح الرئيس.

«في الداخل»، قال الرجل، وشرع يبكي الآن. «لقد فعلوا هذا بي».

هرع رجلٌ آخر مع دراجة هوائية ذات ثلاثة دواليب وصندوق مسطح، كان الجميع يصيحون، خشب العربة كان صقيلاً من أثر الدم والسخام السميك. كان الرجل الجريح، الضخم يشق طريقه دافعاً الناس بمنكبيه، جنباً إلى جنب مع المرأة التي شاهدها سبارو من قبل. كانت عيناها مفتوحتين، نظرتا إليه بتساؤل. بدأ السائق يحرّك دواسة الدراجة الهوائية، حاولوا أن يقدموا له العون بأن يدفعوا العربة في كلا الجانبين.

«أيَّ طريق نسلك؟» هتف السائق. «أيَّ طريق؟».

«اذهب غرباً، أوصلنا إلى [مستشفى فوكسنغ]». «لا، لا، خذه إلى المركز الواقع في تسهوشيكو».

«مهلاً، مهلاً، ثمة مزيدٌ من الناس هنا...».

جثتان أخريان أُلقيتا بسرعة في العربة.

«أنقذوا أنفسكم! إنَّ الرجل الجريح، محموم. ألا ترون أنهم يطلقون النيران».

فكّر سبارو بدراجته الهوائية، سوف يحتاج إليها لكن أين ركنها؟ ثمة رجل يسكب الغازولين على هيكل معدن، وهو يصرخ قائلاً: «حيوانات! جزارون! يسقط الحزب الشيوعي!» سارع الدخان إلى صدر سبارو، ملأ حنجرته وبصره. أحسَّ بغضبٍ بدا أنه فارقه منذ زمنٍ بعيد، أو لم يسبقْ أن وُجد بداخله قبلاً. عبر الحشد المتدافع بالمناكب، ظنَّ أنه رأى مروحة ومضى إليها.

***

في «تقاطع موكسيدي»، ألفى سبارو نفسه في الشوارع التي كان يعرفها، وتعرّف على المباني المألوفة وعلى مساكن جيرانه، أشياء جعلته يشعر أنه آمن بصورةٍ غير منطقية. كانت الضوضاء طاغيةً، قنابل غاز مسيّل للدموع، أناس يصرخون، قنابل بترول تتوهج فجأةً على طول

الطريق، تزحف على أعالي دبابات الجيش. اهتزاز طويل انفجر بغتةً في موضعٍ قريب. لو أنّه أغمض عينيه مدةً طويلةً جدّاً، ربما تُمسح صفوفٌ من المباني، مثلما كانت تختفي طوابير الناس، أيضاً. كان الجنود ينشدون كلمات الرئيس ماو: «*إن لم يهاجمني أحدٌ، لن أهاجم أحداً. لكن إذا هاجمني أشخاصٌ، يجب عليّ أن أهاجمهم*». سار سبارو صوب الشاحنات المدرّعة، حيث كان الجنود يتحركون في أشكالٍ هادئة، ذائبة: راكعين. مطلقين النيران. واقفين. زاحفين إلى الأمام. بدلاتهم النظامية الخضر الزيتونية، غلاف خوذهم الصلب الشبيه بالصدفة، بدا غير مناسب لوجوههم الفتية، النضرة. يافعين جدّاً، لاحوا في السن نفسها مثلما كان كاي وتسهولي في زمنٍ بعيد. ساروا ببطء مستحيل، كما لو أنّ أجسام الجنود بالونات وبنادقهم مصنوعة من الرصاص. سمع الفرقعة غير الواضحة لبلوك كونكريتي يرتطم بدبابةٍ مدرّعة. تسارع الصوت. اندفعتْ بسرعة دبابةٌ نحو المكان الذي كان واقفاً فيه قبل هنيهة خلتْ. ظنَّ أنه ما يزال هناك، يراقب الدبابة وهي تغدو أكبر حجماً. بدا الناس الراكضون كأنهم كفّوا عن الحركة بغتةً. كل الأشكال التي شاهدها باتتْ قويةً، فرقعة الأشجار، تأرجح بندقية، حافات حربة. أحسَّ بصفير الرصاص الذي يمر قريباً منه، لكن فرقعة البنادق تأخرتْ، أتت الضوضاء بعد ثانية، ثانيتين، ثلاث ثوانٍ.

لا يعرفْ سبارو أين هي مروحة. تعرّف على واجهة مغلقة لمكتب تذاكر أحد القطارات، وشاهد زوجاً وزوجةً رابضين هناك. كانت مكبرات الصوت في الأعلى مستمرةً في حثهم: «*اذهبوا إلى منازلكم، اذهبوا إلى منازلكم...*». لكن جنود «جيش تحرير الشعب» كانوا يخرجون من شاحناتهم ويتسللون إلى الشوارع الصغيرة والأزقة الضيقة. كان الرجل حسن الهندام وشعره متموج ووجهه نحيل، أما المرأة فقد كانت تحمل طفلةً صغيرةً بين ذراعيها. «يتعيَّن علينا الذهاب»، يقول الرجل. «كلا، كلا»، تقول المرأة همساً. «لقد وقعنا في الفخ، إنهم يطلقون النار هناك في

الخلف». كان الصوت السريالي لأغنية [بوب] يرن نازلاً من الأعلى، كان شخصٌ ما قد ترك مذياعاً أو تلفازاً يعمل. إطلاق مدافع اخترق الزقاق، مُحدِثاً شرارات ضوء. كان سبارو يرغب بأن يحميهما، إلّا أنّه يجهل كيف يعطيهما تلك الصفة المروِّعة نفسها: صفة جعل الأشياء خفيةً، غير منظورة، الصفة التي يمتلكها هو، على ما يبدو. كان شعر المرأة الداكن يشعّ بليلاً، ورأى الآن أن بقعةَ دمٍ طويلة كانت تنزّ من شعرها، تسيل على ثيابها، على الطفلة التي بين ذراعيها، وتقطر على رصيف المشاة. كان الرجل ينضح عرقاً. قميصه يمتاز بليونة جريدة عتيقة. «أعطني إياها»، توسّل إليها الرجل. رفضت المرأة، وضمت الطفلة بمزيدٍ من القوة إلى صدرها. «لماذا يطلقون النيران؟» قال الرجل بصوتٍ ضعيف. «كيف يتسنَّى لهم إطلاق النيران؟» مزيدٌ من الشاحنات المدرّعة كانت تندفع مسرعةً على طول تشانغآن، كما لو أنّهم تأخروا عن موعدٍ لا يزال بعيداً عنهم. «لا تخافي»، قالت المرأة للطفلة العديمة الحراك. «لقد وصلنا تقريباً إلى هناك، توقفي عن البكاء. لقد وصلنا إلى هناك». الآن، توقفت الشاحنات وتدفق مزيدٌ من الجنود. «فاشيون، فاشيون!» جأر رجل عجوز. كان يلبس سروالاً قصيراً وقميصاً داخلياً أبيض اللون. طوّقه في الحال ثلاثة جنود. رأى سبارو فتًى مراهقاً يحمل كاميرا، كانت آلة التصوير ترفرف أمام وجهه. استدار الجنود وأطلقوا عليه الرصاص. شرع سبارو يركض صوب الفتى المراهق، زاعقاً. استمر الجنود في إطلاق النار. أقبل أحدهم إلى الأمام بحركةٍ شريرةٍ وبحربته طعن الفتى في بطنه. أمسك الفتى بالحربة بكلتا يديه، زاعقاً، محاولاً سحبها إلى الخارج. في الوقت الذي وصل فيه سبارو إليهما، كان الجندي قد مضى وكان الطالب قد تكوّر على الأرض، كان الدم والأحشاء الداخلية تخرج من جسمه. شريط آلة التصوير الذي التفّ حول معصمه، كان يتحرك بطريقةٍ مهلوِسة. سقط وابل من القرميدات على الجنود، وتهاوى أحدهم، على حين غرة تضاعف الحشد، أصبح ثلاثة أضعاف، وأحاطوا بالجندي المصاب. حشية محترقة طارتْ بحركةٍ بطيئةٍ على شاحنة من

شاحنات الجيش. كان أحدهم قد قذفها من شقةٍ في الأعلى، وانفجرت الحشية بينما كانت تسقط. «لماذا أتيتَ إلى هنا؟» بكت امرأةٌ ما. «أنتَ غير مرغوب بك هنا. أتفهم؟ لقد احتالوا عليك. إنها كلها أكاذيب!»، «*إن لم يهاجمني أحد، لن أهاجم أحداً!*»، «كيف يمكنكم أن توجهوا بنادقكم إلينا؟»، «نحن لن نركع بعد الآن!»، «*لكن إذا هاجمني أشخاص، يجب أن أهاجمهم*». «قتلة، قتلة...». «عارٌ، عارٌ عليكم!».

قرفص سبارو بجوار الفتى المراهق، الذي كان يرنو إليه ببصره كما لو أنّه يرنو إلى وجه امرئٍ يعرفه، الشخص المرئي الوحيد. «أخبرني باسمكَ»، خاطبه سبارو. كان يصيح، كان يعمل بقلق، ساعياً إلى إيقاف تدفق الدم بيديه وبعدها بقميصه. قال الفتى إن اسمه غيوتنغ وإنه طالب في «جامعة الشعب». «ماذا فعلوا بي؟» سأل الفتى بفضول. سبارو خانته الكلمات. بدا كأن ذلك جرى أمس حين كان يمشّي طفلته الصغيرة هنا وهناك في فناء منزلهما في «الجنوب»، وهو يهمس لها بالتهويدة الآتية: «*أي - مينغ، وجهي أنظاركِ إلى السماء، لا تتطلعي إلى الأرض. تطلعي إلى مكانٍ آخر، أي مينغ*». لكن، هذه السنة، كان عمره قد بلغ الحادية والأربعين والزمن، الذي بدا منذ أمدٍ طويل جدّاً كأنه يتمدد بنحوٍ لا يُطاق، بات الآن يتقلّص. أمسك بيد الفتى ورأى الدم يتمدد نحوه. «غيوتنغ»، خاطب الفتى بثبات. «لا تخفْ. لن أتركك. ارنُ ببصركَ إلى السماء. انظرْ كم هي تنتمي إلينا... «لم يترك الجنود أيَّ حيزٍ للناس كي يستديروا للوراء أو يرجعوا. كانت جلبة الحشد قد دمرتْ أفكاره. ثمة جندي سقط بين أيدي الحشد كان يصرخ طلباً للرحمة. كان الفتى الراقد على الأرض يحتضر. هل حلَّ منتصف حياته الآن، متأخراً، ملتفّاً مرةً أخرى، مستعيداً إياه؟ بعد مضيّ دقائق قليلة، هبَّ سبارو واقفاً وحُمل جسد الفتى العديم الحياة على عربةٍ يجرّها حصان. بدت الشوارع خاليةً ومكتظةً بالبشر في الوقت عينه.

كان الزوج والزوجة اللذان شاهدهما في وقتٍ سابق واقفين في

التقاطع. أضواء منبعثة من الدبابات وجدتهم، واندمجت المرأة التي تحمل الطفلة كالسهم في أحد الأزقة. أما الرجل، الذي جمد من الخوف، فقد لبث في موضعه. حبّي، صاحت المرأة، مستميتةً. حبّي. كل ضجيج الشارع أتى إلى سبارو بينما كان يبدأ بالركض نحو رتل الجنود، ركض الضجيج تحت جميع الأصوات الماثلة في رأسه. لم يعدْ يحسّ بأيّ خوف. أتى إليه صوت بغ موذر: «لا تنسَ: إن أنشدتَ أغنيةً جميلةً، إن تذكرتَ بإخلاص جميع الكلمات، الناس لن يهجروا الموسيقى أبداً».

في سني صباه، كان يختبئ في حجرات التمرين الخاصة بـ«المعهد العالي للموسيقى»، يكرر canons و fugues باخ إلى أن تخدر أصابعه. لم يَخَفْ، آنذاك، أن تمنح يداه، عيناه، ذهنه، أنفسها لشيءٍ آخر. كانت تسهولي تعزف الألحان الافتتاحية من «*Xerxes*» من أجل أمها. كتب سبارو الكلمة الآتية: «*سآتي*»، وبعث هذه الرسالة بالبريد إلى كاي. تذكّر أرصفة القطار الضاجة بالشبيبة، الهجرة الجماعية الهائلة لمليون شخص إلى الريف، حركة لانهائية للستر الزرق والرمادية. تذكّر كيف كان يحمل تسهولي صوب البيت. ثقل جسمها، رأسها على كتفه. رأى كاي جالساً أمام البيانو، يعزف السيمفونية التي لم تكتملْ قط. كانت الكلمات والفقرات التي تذكّرها قد أدهشته. جميع الصفحات لصقتْ نفسها معاً، رأى بأنه لا وجودَ لأيِّ أملٍ ببلوغ النهاية. كانت الأضواء الآتية من الشاحنات والدبابات تعمي الأبصار. صوت المرأة لم يعدْ ينادي عليه، وكان يعرف أن الأب قد فرَّ، كان آمناً. توقف عن الجري، كانت يداه مرفوعتين لهما كي يريانها. ابنته، زوجته. ما هو الشيء الذي ارتكبته أيٌّ منهما الذي يُعدّ عملاً إجرامياً؟ ألم تبذلا كل ما بمستطاعهما كي تستمعا وتؤمنا؟ لا شيءَ في يديه ولم يكنْ في يديه شيءٌ من قبل. كانت فرقعة المدفع قد تأخرتْ وأتتْ إليه متأخرةً جداً، إلّا أنَّ الصوت وهبه شعور غلق آلاف الأبواب وراءه. ضوءٌ آتٍ من الدبابات عثر عليه، كما لو أنّ بمستطاعهم أن يجمعوا جميع أجزاء حياته المتناقضة. مهما تكن كثيرةً الأضواء التي كانوا يشعلونها، لا يمكنهم أن يزيلوا الظلام. ضوء النهار

يُعمي البصر، لكن في العتمة لا يزال هو حاضراً. ماذا رأوا، تساءل، كانت يداه لا تزالان مفتوحتين. من بين الناس جميعاً الذين أحبهم وأحبوه، من بين جميع الأشياء التي شهدها، عاشها وتمناها، من بين كل الموسيقى التي أبدعها، كم يمكننا أن نرى؟

***

في أسفل «نُصب أبطال الشعب»، رقدتْ أي - مينغ على الكونكريت، وراحتْ ترنو ببصرها إلى سماءٍ رمادية من أثر الدخان. على الرغم من الرطوبة، بطانيةٌ خفيفةٌ تعود لشخصٍ ما غطتْ قدميها، وبطانيةٌ أخرى غطتْ كتفيها. طلبة جامعيون متغضنو الملابس، مصابون بالهيستيريا ما برحوا يصلون، يصرخون قائلين إن الجيش يطلق النيران على الجموع في موكسيدي، وإن المشافي في غرب المدينة، من فوكسنغ إلى تونغرين، غصتْ بالأموات، وإن أعداد المصابين والجرحى ناهزت الآلاف. شارعاً إثر شارع، بصرف النظر عن عدد سكان بكين الواقفين في الشارع، كان أفراد «جيش تحرير الشعب» يشقون طريقهم بصعوبةٍ نحو المركز. سحبتْ ييوين إليها أكثر. «يلزمنا المغادرة قبل أن يفوت الأوان كثيراً. من فضلك».

ربتتْ ييوين على شعر أي - مينغ بانبهار كسول. «فات الأوان كثيراً أصلاً»، قالت. لم تعدْ تبكي، بدا كما لو أنها مضتْ أصلاً. «قبل ساعات، كان الأوان قد فات كثيراً».

الشائعات ما فتئتْ تنتشر بينما كانت الدقائق تجري ببطء. هنالك أموات عند فينغتاي، عند موكسيدي، عند كسيدان. مكبرات الصوت عاودتْ حيويتها، لكن الآن لم يكن الطلبة هم المذيعون بل الحكومة التي فرضتْ سيطرتها: *«على مدى أيام كثيرة، حافظ [جيش تحرير الشعب] على أعلى درجات التحفظ، لكن الآن تقرر أن يتمّ التعامل بعزم وتصميم مع الشَّغَب المناهض للثورة...»*. أغمضتْ عينيها. كيف يمكن أن يكون المناخ رطباً جدّاً وشديد البرودة في الوقت نفسه؟ جوٌّ من الكذب عمَّ كل

ما رأته. «*المواطنون والطلبة الجامعيون يجب أن يخلوا [الساحة] فوراً. لا يمكننا أن نضمن سلامة مُنتهكي الحُرمات، وسيكونون مسؤولين حصريّاً عن جميع العواقب الوخيمة...*». اهتزّ الكونكريت كما لو أنّ ذلك نجم عن اضطرابٍ حصل أسفلَ منهم مباشرةً. «كم الوقت الآن؟» قالت أي - مينغ، من دون أن توجّه سؤالها إلى شخصٍ ما، وردتْ عليها حفنة أصوات. *الساعة الثالثة وأكثر من دقيقتين، ثلاث دقائق تقريباً*. لم ترَ النار في الزاوية الشمالية الغربية تبدأ، لكنها الآن اندفعتْ بسرعةٍ عالياً في الليل، ناشرةً الضوء على الجنود المنتظرين. كانت النار قد أتلفت الخيام البالية، الطاولات التي كانت بمنزلة بدائل مؤقتة وكل أوراق «اتحاد العمال المستقلين». «أتمنى أنهم أحرقوا لوائحهم»، قالت أي - مينغ. «أتمنى ألّا يفوتهم بأن يجعلوا جميع الأسماء تختفي». «*المشاغبون هاجموا جنود [جيش تحرير الشعب] بوحشية. تعاونوا مع [جيش تحرير الشعب] كي تحموا [الدستور] وكي تصونوا أمن البلد...*».

غلامٌ ذو بندقية هائلة كان يُسحب، وهو يزعق، خارج إحدى الخيام. كان الغلام يبكي لأن الجنود أطلقوا النار على شقيقه الذي يكبره سنّاً وأصابوه في ظهره. «أخي مات!» صاح الفتى. «إنه ميت، إنه ميت! سأقتلهم! سأقتلهم!». هشّم طالبٌ جامعي - قيّم بندقيته المرة تلو المرة على الكونكريت إلى أن فرقعتْ. «هل تريدنا أن نُقتل نحن، أيضاً؟». قال. وضع آخر ذراعه حول كتف الغلام وسحبه بعيداً.

ماذا يستطيع المرء أن يقول؟ كانت أصابع ييوين تتحرك في شعرها ببطء، كما لو أنّها تستريح بعد طول عناء.

الآن طوّقهم الجيش. بروفيسور اسمه ليو كسياوبو والموسيقي [هو دجيان]، كانا قد شاركا في الإضراب عن الطعام دعماً للطلبة، والآن فروا من خيامهم وجعلوا يركضون غادين رائحين نحو فوج الجنود الذي يبعد عنهم بضع مئات من الأقدام. كانوا يحاولون أن يتفاوضوا معهم من أجل الانسحاب. مجاميع من الأشخاص تعقبوهم، انفصلوا عنهم، انضموا

إليهم ثانيةً. في غضون ذلك، ألقى القادة كلمات عن ضرورة اللاعنف ونقاء التضحية. «لستُ خائفةً»، دأبتْ يوين على الهمس، جسدها كله يرتعش. في انفجارٍ من الصياح، الجنود الذين كانوا مختبئين في «المتحف الوطني» راحوا يسيرون الآن، الآلاف منهم، الحربات الطويلة في بنادقهم مرفوعة في استعراض بهيّ. حول محيط «الساحة»، بوسع أي – مينغ أن ترى الدبابات. أحسّتْ بأنها ممتنة تقريباً حين صلصلتْ مصابيح «الساحة»، انقطعتْ مكبرات الصوت، وهذا الهدوء الجديد طوّقهم كالنفق. كان قد فات الأوان كثيراً على المغادرة، فات الأوان كثيراً على تغيير الاتجاه.

كان الطلبة الجامعيون الذين جثموا عند أول حاجز لـ «النُّصب» في حالةٍ من التشوش الكامل، يصيحون عبر مكبرات الصوت العائدة لهم، ساعين إلى تنظيم تصويت في العتمة.

«مَن الذي قرر البقاء ومَن الذي يرغب بالمغادرة؟».

تمكنَّ «هو دجيان» من الإمساك بمكبر صوت. «أيها الطلبة، الإخلاء السلمي لا يزال ممكناً». قال إن الجيش وافق على فتح ممرّ كي يخرجوا عبر الزاوية الجنوبية الشرقية من «الساحة». لن يُلحق بهم الأذى.

«الخزي والعار! الخزي والعار، أيها الجبناء!». غمره الهمس من حول أي – مينغ.

أصواتٌ قليلةٌ هتفتْ بأن جيشاً ثوريّاً، يقوده تسهاو تسيانغ، في طريقه لإنقاذهم.

وقف طالب جامعي بجانب أي – مينغ. «علينا أن نصمد حتى الساعة السادسة صباحاً. [جيش الولايات المتحدة] سوف يتدّخل».

«هو دجيان، الخزي والعار! الخزي والعار!».

«يجب علينا البقاء. انطلاقاً من تضحياتنا سوف تولد صينٌ جديدة!».

في المحيط الشمالي من «الساحة»، شرع الجنود يطلقون الرصاص

على السماء. فرقعة مئات البنادق جعلت الحال يبدو كما لو أنّ الهواء نفسه ينفجر. انفجر مصباحٌ إلى الأعلى منهم. ارتعب بشدة غلام بجانب أي - مينغ بحيث إنّه غاب عن الوعي. كان قد شعر بالصدمة حين ثاب إلى رشده تقريباً.

بدأ التصويت. كل الأشخاص يصيحون، في الوقت عينه، وكل منهم يعرب عن خياره. هتفتْ هي: «أغادر!» وبجوارها قالتْ ييوين بنحوٍ معاكس: «أبقى!».

خفتت الأصوات. سمعتْ طنين المصابيح، التي كانت مظلمةً أصلاً لكنها لا تزال تشتعل، وصوت ييوين المرهَق، غير المسموع تقريباً: «قفوا بثبات، قفوا بثبات. كيف يمكننا أن نجعل الأمور تنتهي هذه النهاية؟».

كان الجنود يتحركون بسرعة. رأتْ حفيف صفوفهم يصعد نحوهم.

«نحن ذاهبون!» صاحتْ فتاةٌ في الأمام. «لقد صوّتوا على المغادرة».

كانت كلماتها قد قُوبلتْ بالغضب. «هذا ليس صحيحاً!» «نحن نريد البقاء!»، «مزيد من الأشخاص صوّتوا على البقاء!».

زلّتْ قدما ييوين. «أشخاص آخرون ماتوا من أجلنا!». جأرتْ. «الآن سوف نتعاون مع قتلتهم؟ ألا نخجل من أنفسنا؟». آخرون هتفوا بكلماتٍ مشابهة، لكن الهتاف تحوّل إلى بكاء مُتعب. كانوا في «الساحة» منذ أكثر من خمس ساعات والآن فقط وجدتْ أي - مينغ نفسها تتحطم، وهي تفكر في الوعد الذي قطعته لأبيها، غير قادرة على فهم كيف أن ييوين كانت مستعدةً للتخلي عن حياتها وحيوات الآخرين. من أجل ماذا؟ من أجل الحفاظ على «ساحة تيانانمين» التي لم تكنْ عائدة لهم.

«اصطفوا في طوابير، اصطفوا في طوابير من عشرة...».

«ادخلوا في كتائبكم! اشبكوا أذرعكم!».

شبكتْ ذراعيها مع ييوين ومع فتاة صغيرة الحجم جدّاً بجوارها. كان هنالك الآلاف، ربما بضعة آلاف، من الطلبة، لا يزالون هنا. كانت رايات

الجامعة قد رُفعتْ بنحوٍ أخرق، كانت تهتزّ كما لو أنّها سقطتْ أصلاً. ييوين وأي - مينغ كانا قد أُزيحا من مكانهما ووجدتا نفسيهما تسيران تحت علم بيدا. هذه هي أول مرة والمرة الوحيدة، فكرتْ أي - مينغ، بأنني سأنتمي إلى «جامعة بكين». كانت الإنجازات التي كانت قد تمنتها لنفسها قد بدتْ بعيدةً عنها بمسافة عمر كامل، كانت تلك طموحات شخصٍ مختلف تماماً.

كانت الدبابات تدخل «الساحة»، وأحدثتْ اهتزازاً مُحطِّماً. بدأ الناس الذين من حولها يزعقون والتفتتْ أي - مينغ كي ترى المكان حيث كانت «إلهة الديمقراطية» واقفة. كان التمثال خفيفاً، مشيّداً من الهواء تقريباً. الجيش، فكرتْ بلامبالاة، لا يحتاج إلى الدبابات كي يهدّها. كان بمستطاعهم أن يفعلوا ذلك بأيديهم المجردة. استمر اهتزاز الدبابات والطائرات المروحية، كما لو أنّ الكونكريت نفسه كان يتمزق إرباً إرباً. هل لديهم الآن استعراض عسكري؟ تساءلتْ. الآن الجنود كانوا يضغطون من كلا الجهتين، جعلوا الطلبة يسيرون في شيءٍ يشبه القمع بين ممرّ ضيق من الأجساد. رأتْ جندياً يضرب غلاماً كان يقف أمامها بهراوته. وراءه، التفتتْ فتاةٌ وبصقتْ في وجه الجندي. لكن مع ذلك استمر الموكب يندفع بصورةٍ لا ترحم نحو الأمام. كان الناس الذين من حولها ينشجون. في الصدارة، بدأ قادة الطلبة يغنون *«النشيد الأممي»*.

أفيقوا، أيها العبيد، أفيقوا!

لا تقولوا إننا لا نملك شيئاً.

سنكون سادةَ العالم!

أمعن الجنود النظر.

غادر الطلبة «الساحة». انفصلتْ هي ويبوين عن الموكب وسارتا صوب مسكنيهما. في دوخان، تزاحمتا بالمناكب وهما تسيران في شارع جانبي، متحاشيتين صوت إطلاق المدافع. في الوقت الذي وصلتا فيه مجدداً إلى الزقاق، كانت الشمس قد بزغتْ وكانت السماء بيضاء.

-1-

يوماً بعد يوم، كانتا تذهبان إلى المستشفيات للبحث عن سبارو، لكن أي - مينغ، أخيراً، بعد ثلاثة أسابيع، رفضت التظاهر. عوضاً عن ذلك، سمحتْ لأمها أن تذهب بمفردها بينما جلستْ هي في الغرفة الصغيرة، تنظر إلى رزمة الأوراق الملصقة سويةً مثل كتاب - أكورديون. مكشوفاً، كان لحن سبارو يتدلى على ناحيتيْ طاولة الكتابة ويلامس الأرض. هذه الموسيقى، فكرتْ، هي تسجيل لشيءٍ لم يسمعه أبوها بأذنيه هو، لم يكنْ يمتلك حرية الوصول إلى الكمان ناهيك عن البيانو. كانت الموسيقى موجودةً منذ الأزل في ذهنه وهي ذي الآن حاضرةٌ، بصمت، على الورق. على ظهرها، كان قد نسخ باليد اقتباساً يقول: «الجمال يترك بصماته في الذهن. عبر التاريخ، كانت هنالك لحظات كثيرة لا يمكن استعادتها البتة، لكننا، أنا وأنت نعرف أنها كانت موجودة». اختفتْ مدة ما بعد الظهر وتراجع الشفق إلى الظلام. سمعتْ قعقعةً على الزجاج ورفعتْ بصرها متوقعةً أن ترى أمها، إنما عوضاً عن ذلك كانت ييوين، شاحبةً بنحوٍ لا يُطاق، جميلةً بنحوٍ لا يُطاق.

«أي - مينغ، السيدة سون أرسلتني كي أجدكِ. شخصٌ ما يبحث عن أبيك، كانوا قد نادوا في خط هاتف الحيّ السكني».

ذكّرها وجه ييوين بشيءٍ أو شخصٍ آخر. ما هو؟ *ألا تأتين معي! أرغب بأن أمسك بيديكِ. تعالي معي...*

«أعطني يدكِ، أي - مينغ. فلنذهب معاً».

بدأتْ أي - مينغ تطوي مؤلَّف أبيها الموسيقي ومن ثم تركته في موضعه. خدشت النافذة ساقيها العاريتين بينما كانت تتسلقه، وتساءلتْ ما إذا كان حجمها قد كبر وأصبح هائلاً. بدت الأشياء التي لامستها كأنها لا تتناسب مع شكل جسمها. في الخارج، كان الكونكريت الذي يلامس قدميها العاريتين ساخناً، حرارةٌ احترقتْ عبر جسمها وتلاشتْ في الجو.

ذهبتا إلى شقة السيدة سون، التي كان من دأبها أن تؤوي محطة التلفون في الشباك. كان التلفون قد نُقل إلى الداخل. «لدواعٍ أمنية»، كانت السيدة سون تقول الآن، بينما كانت تجرّ أي - مينغ إلى داخل الحجرة. كانت هذه تعجّ بقطع أثاث كثيرة جداً، بالإضافة إلى أحفاد سون، أبناء أختها، ابنها وأحفادها، لكنهم مضغوطون «محصورون» جميعاً في الخلف، بعيداً عن أي - مينغ كما لو كانت ريحاً صحراوية، بغيضة. ظهرت السيدة سون، وهي تقود أي - مينغ بقوة نحو التلفون. في يديْ أي - مينغ، بدت السماعة زلقةً، كما لو كانت تنضح عرقاً. قرّبتها منها وقالت: «نعم».

«مرحباً؟» كان المتصل ذا صوت ناعم، شجي. كانت لهجته، لهجة شنغهاي، غريبة الأطوار، ومسطحةً نوعاً ما. «إنني أبحث عن الرفيق سبارو».

أحسَّتْ كأن الجدران أصبح لها خمسين زوجاً من العيون. حفيد سون الأصغر سنّاً قد مشى بانحراف متجهاً إليها وكان يحضن ركبتيْ أي - مينغ. «أبي غير موجود هنا. إنني آسفة، مَن المتصل؟».

قال إن اسمه جيانغ كاي، وإنه يتصل هاتفياً من هونغ كونغ وإنه عازف بيانو. لعله هو أيضاً كان يتكلم كلاماً مشفراً، لم تترك الكلمات انطباعاً فيها مهما كان نوع هذا الانطباع. «متى يكون أبوكِ حاضراً في المنزل؟». سألها. «إنه شيء ملحّ، وأودّ التواصل معه».

تعرّفتْ على اسم الرجل، لكنها في غمرة الفوضى السائدة في الغرفة، كل المعرفة التي كانت تملكها ذابتْ مثل فص ملح في يدها. «لا أدري».

«غداً؟» قال جيانغ كاي بأمل. «أخشى... كنتُ أتابع الأخبار من على شاشة التلفزيون». ظهر صوته وتلاشى. «أتعرفين متى يُحتمل أن أتمكن من التحدّث معه؟».

«لا أدري».

«هل أنتِ الآنسة أي - مينغ؟». سألها. «هل هذه الآنسة أي - مينغ؟».

«أجل».

«أريد أن أتحدّث مع أبيكِ. هل الأمور كلها على ما يرام؟ أرجوكِ، طمئنيني...».

«لقد تفحصنا المستشفيات»، قالت أي - مينغ.

«المستشفيات؟».

«لا أعرفْ». كانت تخشى أن يضعف صوتها وإذا بدأتْ بالبكاء ثانيةً فلن يكون بمستطاعها التوقف. بدا التلفون كبيراً بشكلٍ منافٍ للطبيعة على أذنها. «عليكَ أن تكتب إلى أمي. لا أعرف».

«ماذا جرى؟ أنا صديق أبيكِ، سبارو هو أستاذي الجامعي في [كونسرفتوار شنغهاي]. إنني أقيم في كندا ويمكنني أن أقدّم العون، من فضلكِ دعيني أقدّم العون».

شعرتْ بالغثيان. الرسائل، الطوابع الأجنبية، المسجل، الأجنبي ذو القميص الأبيض الخالص. اسم كاي يُمكن كتابته، أو سماعه بالمصادفة، بطرائق كثيرةٍ جدّاً. لم تخمنْ أنه كان دوماً الشخص نفسه. «عليكَ أن تكتب إلى أمي. لا... لا أقدر». شرعتْ تنتحب الآن، من أثر الحيرة والارتباك. «كان يرغب دوماً أن يعزف على البيانو».

«ماذا؟» حلتْ هنيهة صمت ومن ثم: «أي - مينغ، ألا تزالين على الخط؟ من فضلكِ لا تنهي المكالمة الهاتفية!».

كان يصرخ وكانت متيقنةً من أن أفراد أسرة سون ويوين يمكنهم أن يسمعوا الرعب يندلق من التلفون، ومعرفتها بهذا الأمر روّعتها.

«لا أعرف ما إذا ستراه قريباً جدّاً». قالت أي - مينغ. «هو غير موجود هنا. لا أدري. هو غير موجود هنا».

«أي - مينغ»، قال.

«يلزمني الذهاب».

«انتظري، أرجوكِ».

«أنا آسفة، أنا آسفة جدّاً لأنني لا أستطيع أن أساعدكَ. أنا آسفة لا يمكنكَ أن تساعده».

سحبت السماعة بعيداً عن أذنها وقدّمت الهاتف إلى لا أحد.

تقدّمت السيدة سون بسرعة إلى الأمام. كانت عيناها محمرتين، كما لو أنّها كانت قد أغمضتهما بقوة. تناولت السماعة. كان جيانغ كاي ما يزال يتحدث. قطعت السيدة سون الضجيج المفرقع. «الرفيق سبارو لم يأتِ إلى البيت منذ ليلة الثالث من حزيران. لا تزعج ابنته. إنها، بالفعل، لا تعرف، الفتاة المسكينة. إنها مجرد صبية...».

كانت يومين تمسك بيدها. مَن الذي كان يرتعش؟ هل كانت هي أم الفتاة الأخرى؟ لماذا كانتا ترتعشان بإفراط؟

كان جدار أعضاء أسرة سون قد تجزأ إلى أصواتٍ متضاربة. «ألم تسمعي أنهم كانوا يدفنون الجثث في باحة مدرسة لا تبعد كثيراً من هنا؟ المدرسة تشكو من رائحة...».

«يا له من هراء! متى تفهمين...».

داستْ أي - مينغ بحذر على الأطفال وحول جدة سون التي كانت غاطسةً بصورةٍ أعمقَ في كرسيها. كان قد أتى مزيد من الناس إلى الشقة، أما هي ويوين فقد كانتا تشقان طريقهما بصعوبة بينهم، اجتازتا المدخل المزدحم وبلغتا الزقاق. أصواتٌ هامسة بدتْ كأنها إبر علقتْ بثيابها، بيديها وقدميها. كي تلغيها، ركضتْ أي - مينغ إلى الأمام، خارج الزقاق مباشرةً، خائفةً من أنها إذا صرختْ، إذا جعلتْ أيَّ جلبة تفلت، سوف يحصل شيءٌ رهيب. في الشارع، اصطدمتْ بزوجٍ وزوجة كانا ماشيين

هناك، المرأة ضربت الرجل بحركةٍ مفاجئة مرتجة فزلتْ قدمه وأسقط كيسه، كيس الفاكهة. وراءها، كانت ييوين قد اعتذرتْ أصلاً، والرجل، غاضباً، صاح عليهما كي تكونا حذرتين أكثر. «تصوري لو كنا...». لكنه لم يكملْ جملته. «انظري»، قال وهو يلتقط الكمثرى خاصته. «الكمثرى كلها أصابتها الرضوض الآن».

كان الشارع سرياليّاً في انتظامه. كان أحدهم قد رفع الدراجات الهوائية المرمية في الشارع كسقط متاع. كان العمال الليليون يكنسون أرصفة المشاة، سحب البقال إلى الأسفل مصراع بابه المعدني، نسخٌ من *«بيبلز ديلي»* كانت مثبتةً بدبابيس على ألواح النشرات. توقفتْ أي - مينغ كي تقرأ صفحةً. «التأثيرات الضارة للتحرر البورجوازي والتلوّث الروحي تقع مسؤوليتهما على هذا الشعب المناهض للثورة...». تلا ذلك تقرير حول التضحيات البطولية لـ «جيش تحرير الشعب». إلّا أنَّ أجزاء أخرى من الجريدة كتبتْ عن الجنود المزوّدين بأسلحة ثقيلة وقتلى البنادق الأتوماتيكية، كما لو أنّ الجريدة نفسها كانت ممزقةً إلى أصواتٍ مختلفة. أشاحتْ أي - مينغ وجهها. كانت ييوين تخبرها أنه في «جامعة بكين»، في «جامعة تسنغهوا» و«جامعة بكين لإعداد معلمي المدارس الابتدائية»، رئيس الوزراء لِي بينغ كان قد اتهم بكونه عدوّاً للشعب وكان عشرات الآلاف من الطلبة يرمون بطاقات عضويتهم في «عصبة الشبيبة» أو «الحزب الشيوعي الصيني» في كدسٍ، ويشعلون فيها النار.

«لكن الحكومة كسبت الرهان. انتهى الأمر»، قالت ييوين. «انتهى كل شيء، أليس كذلك؟».

لم يكنْ بمستطاع أي - مينغ أن تقول شيئاً. قال الجميع إن الصحف الأجنبية كانت تنشر تقارير عن مجزرةٍ في «ساحة تيانانمين»، إلّا أنَّها كانت في «الساحة». رأت الطلبة وهم ينصرفون مبتعدين. ألم يعلموا أن الدبابات أتتْ من الخارج؟ ألم يعلموا ما يتعلق بالآباء، بالعمال، بالأطفال الذين ماتوا؟

تذكّرتْ، أنه في نيسان «أبريل»، بينما كانت تركب دراجتها الهوائية في «جادة تشانغآن»، كم بدا هذا الشارع الواسع أشبه بدربٍ ليس فقط في وسط المدينة، بل في مركز حياتها. العراء، الفضاء غير المسوَّر لـ «الساحة». فكرتْ بـأسطوانات بروكوفييف وباخ وشوستاكوفيتش التي تعوّد سبارو أن يدفنها تحت الأرض في «قرية الماء البارد»، فكرتْ في بغ موذر نايف والأب لوت اللذين كانا متجهين إلى بكين. فكرتْ في وجه أمها، الذي كان هادئاً جدّاً في يوم ما، أما الآن فلم تعدْ قادرةً على إخفاء ألمها ومعاناتها. كيف يمكن أن يكون هذا هو الشارع نفسه؟ كيف يمكن أن تكون هذه الجدران نفسها؟ كيف يمكنها أن تتظاهر أنها لم ترَ العنف الذي تكشّف توّاً؟

سارتا عائدتين إلى الزقاق. كان الباب مفتوحاً. في حلمٍ ما، دخلتْ أي - مينغ، ظانةً أن سبارو قد جاء إلى المنزل. جميع الأبواب الكرتونية في المطبخ كانت مفتوحةً على وسعها. سمعتْ ضجةً في الحجرة الخلفية، حجرة نومها.

«انتظري»، قالت ييوين. «لا تدخلي».

سحبتْ أي - مينغ يدها من يد ييوين. واصلت الحركة. في غرفة أبويها كانت منضدة الزينة مقلوبةً.

كان بمستطاعها أن تسمع أصواتاً، صوت رجل وصوت امرأة.

دارتْ حول الزاوية ودخلتْ. كانت جميع كتبها مبعثرةً على الأرض. لم تكنْ تعرف الرجل ولا المرأة، ولا حتى نوع البدلتين النظاميتين اللتين كانا يلبسانها. سألت المرأة عن «إجازة سكن» سبارو و«باج» المعمل خاصته. كان صوتها لطيفاً تقريباً. هزتْ أي - مينغ رأسها نفياً. كان الرجل منهمكاً بالتفتيش بدقة في الأوراق. مزق ملاحظات الدراسة العائدة لها. بدأ يمزق المقطوعات الموسيقية التي كانت مستقرةً على الطاولة، مؤلفات أبيها الموسيقية. فعل الرجل ذلك بملل، من دون تفكير تقريباً، هكذا بدا الأمر لـ أي - مينغ، كما لو أنّه فحسب كان يطوي الغسيل أو

يغسل الأطباق. بدأتْ تصرخ طلباً للنجدة. كانت ييوين هناك، صاحتْ على الغريبين كي يخرجا من المنزل، كي يتركانهما وشأنهما. أخبرتهما المرأة بأن تعثرا على «البطاقة التعريفية الخاصة بوحدة عمل» سبارو لأنهما سيعودان لاحقاً. لأسباب لم تستطعْ أي - مينغ أن تفهمها، كان الرجل والمرأة قد خرجا من النافذة، تسلقاها ودخلا إلى الزقاق. حاولتْ ييوين أن تلتقط المقطوعات الموسيقية إلّا أنَّ أي - مينغ خاطبتها قائلةً: «اتركيها، اتركيها». جثتْ على الأرض. سحبت المقطوعات الموسيقية من يد ييوين وشرعتْ تمزقها إلى أجزاء أصغر فأصغر. كانت تريدها أن تختفي كلها من دون استثناء. ظلتْ ييوين تصيح عليها، تناديها باسمها، وهي تمسك الأوراق وتعيدها. بعد وقتٍ طويل، حين توقفتْ أي - مينغ عن الارتعاش أخيراً، عندئذٍ فقط فهمتْ أنها أنجزتْ مهمتها.

أنقذتْ ييومين ما استطاعتْ إليه سبيلاً. إنما في نهاية الأمر، هي وأي - مينغ كانتا قادرتين فحسب على جمع أجزاء تسع صفحات معاً وإعادتها إلى حالها الأول. أما بقية مؤلفات سبارو الموسيقية فقد أصابها التلف.

***

فتحتْ لينغ الباب الأمامي من دون صوت، زحلقتْ فردتيْ حذائها ودلفتْ إلى حجرة أي - مينغ. كانت القمر شاحباً، كان الضوء هادئاً تماماً، وكانت ابنتها نائمة، متكورةً على جنبها، إحدى يديها مبسوطة ومفتوحة. الكتاب الذي كانت تقرؤه قبل بضعة أسابيع: *«مجموعة رسائل تشايكوفسكي»*، الذي يستقر على الأرض بجوارها، لا يزال مفتوحاً. مضتْ ثلاثة أيام منذ أن دخل ضابطان من «الأمن العام» الشقة. كانت أي - مينغ قد رتبت الغرفة وتخلّصتْ من الفوضى التي تركها موظفا الشرطة وراءهما، إنما لا تزال لينغ تتصوّر أنها بوسعها أن ترى آثار أقدامهما بجانب طاولة الكتابة، كما لو أنّهما حفرا الأرض بإزميل.

جلستْ لينغ على الأرض، بجوار آثار الأقدام.

بدتْ أي - مينغ كأنها تتقلّب قليلاً في فراشها. خلال النوم، كان خوف ابنتها قد زال في الحال، لذا لاحتْ أكثر يفاعةً، شديدة الشبه بالصبية التي كانتها.

كانت ترغب بأن تزحف إلى الفراش بجانب أي - مينغ، كي تغفو وتمحو أفكارها. منذ الرابع من حزيران «يونيو» كان زملاؤها وزميلاتها في «راديو بكين» مرغمين جميعاً على كتابة اتهامات تتعلق بحراك الطلبة؛ طُرد عددٌ قليلٌ منهم. استمرت الحياة؛ انزلقتْ إلى الوراء. إنها فحسب مسألة وقت، تعرف لينغ، قبل أن تستسلم هي، أيضاً. جلسات الدراسة السياسية الجديدة، الإجبارية على الجميع، كانت تطالبهم بأن يتعهدوا بدعم الحزب. لئن كان شخصٌ ما يعتقد شيئاً آخر، يحلم بنحوٍ مختلف، يستطيع المجتمع أن يحرص بألّا تكون هناك وظائف، أو حيز، لهم. كم من السهل أن تستأنف الحياة دورتها اليومية.

على كل حال، زملاؤها وزميلاتها، أيضاً، رأوا ما رأته، وهم، بدورهم، كانوا قد اشتركوا في النشاط السياسي خلال أسابيع التظاهرات. إلّا أنَّ لينغ ذهبتْ وحدها إلى المستشفيات في الرابع من حزيران «يونيو». شاهدتْ كل صنوف البشر وهم يسخرون من الجنود، يصرخون، يبكون. شاهدتْ رجال أعمال ببزات فاخرة، كوادر من مكاتب الشوارع ولجان المقيمن، ممرضات، عمال إنشاء مباني، عمال مصانع. في «مستشفى فوكسنغ»، في الطابق الأرضي وفي الفناء، وفي سقيفة الدراجات الهوائية، كانت هناك جثث. ورقتان طويلتان جدّاً مثبتتان على جدار أُدرجتْ فيهما أسماء الأموات المعروفين. كانت قد شاهدتْ جثمان شاب، كان شريط آلة التصوير خاصته ملتفّاً على رسغه. رأتْ نسوةً في سنّها. ثمة جثث ملقاة حتى عند المدخل. أتتْ ممرضةٌ، توسلتْ إليها أن تتبرع بالدم. كان مصرف الدم في المستشفى قد نضب ما لديه من أكياس الدم المحفوظة في الثلاجات، قالت، وكان الناس يموتون من دون ضرورة. «في موكسيدي. في موكسيدي...». من حول لينغ، كان الناس

يتحركون بسرعةٍ شديدة أو ببطء شديد. كانت قد تبرعتْ بالدم في غرفةٍ مليئةٍ بالهَرْج والمَرْج، ومن ثم واصلتْ رحلتها فمضتْ إلى «مستشفى الأطفال»، «مستشفى البريد» وبعدها إلى «مركز بكين الصحي». كان الجرحى والمصابون يتضاعفون وبات عددهم لا يُعدّ ولا يُحصى. كانت قد تفرَّستْ في كل وجهٍ من الوجوه وتفحصتْ كل قطعة من قطع الثياب. وبينما كانت تنظر إلى الأحذية، إلى الأفواه، إلى العيون، إلى جروح طلقات البنادق المتعددة، الأبدان المحطمة. في ثلاجة الجثث، كانوا يرقدون هناك على حصران من القش أو على قطع طويلة ضيقة من القماش الأبيض الملطخ. كان هنالك كتاب للأسطوانات. إذا كان الاسم مجهولاً، الممرضات والأطباء كانوا يدوّنون جنس المتوفى وعمره المُقدَّر، الحاجيات التي كانت موجودةً في جيوب المتوفى أو المتوفاة، لون سترته أو سترتها، وطراز القميص. بعد مغادرة «مستشفى الشعب»، قابلت الجنود وجهاً لوجه. كانوا قد أطلقوا النيران على المدنيين بسلوكٍ أحمق، غير متجانس، وكانوا يصيحون على المارة كونهم مناوئين للثورة. قطاع طرق. قادتْ لينغ دراجتها الهوائية بعمى صوب البيت، ذاهلةً جدّاً بحيث لم يستطع الخوف أن يستولي عليها. حين بلغتْ باب منزلها، أمسكتْ بمقبضها، عاجزةً عن الحركة، كان خدرٌ جليدي قد امتد من قلبها. في الأيام القليلة الأولى، لم تحسّ بأيّ شيء تقريباً.

الآن، في غرفة نوم أي - مينغ، كان بوسعها أن ترى، بوضوح كم لو أنّه بين يديها، المقولة التي كتبتها لكنها لم توقعْ عليها بعد، وهي تدعم استخدام القوة من الجيش ضد المتظاهرين. تتعهد بولائها لـدينغ كسياوبنغ، لرئيس الوزراء لِي بينغ وللحزب الشيوعي. رأت المستشفيات. فكرتْ بـكاي، بـالبروفيسور، بـذه أولد كات. شاهدتْ عقوداً من الخداع والحب، وكذلك عمراً من الإخلاص. شاهدتْ مظاهر خارجيةً كاذبةً كانت تشرّح كل شيء، حافات ببُعدين يمكنها أن تتغلغل إلى لبّ الأشياء.

انزلق ضوء القمر على وجه ابنتها، جعله يلوح شديد النحول، ناعماً وبارداً. نهضتْ ومضتْ إلى الغرفة الخارجية. كان مسجل سبارو مكسوّاً بطبقةٍ من الغبار أزعجتها وكانت قد تناولتْ غريزيّاً قطعة قماش وشرعتْ تمسحه بعناية وحرص، كل جانب من جوانبه. حين فرغتْ من ذلك، فتحت الغطاء. كانت الأسطوانة بداخله هي تسجيل من تأليف غلين غولد ويهودي مينوهين، سوناتا باخ رقم 4 في C Minor [1]. ما هو آخر شيء قاله سبارو لها؟ ما هي آخرة نظرة ألقاها عليها؟ كانت حياتاهما مرتبطتين معاً، كانت لينغ تعرف ذلك. وضعت الإبرة إلى الأسفل وتمايلت الموسيقى مفعمةً بالنشاط والحيوية، النهر الثابت للبيانو، الدقة الغنائية للكمان.

فيما بعد، حين رفعتْ لينغ الأسطوانة ووضعتها في غلافها الكرتوني، عثرتْ على رسائل. كل الرسائل المكتوبة من كندا وهونغ كونغ.

في أثناء العمل، اليوم التالي، استدعى المدير الجديد لـ «محطة الإذاعة» لينغ إلى مكتبه. أبلغ لينغ أن جثة زوجها قد استعيدتْ في صبيحة الرابع من حزيران «يونيو» وأُحرقتْ في وقتٍ سابق.

«جثته؟» سألته. كانت المروحة السقفية تدور ببطء شديد، كما لو أنّ التيار الكهربائي في المبنى كله قد تدفق إلى الخارج بواسطة قمع.

«يلزمكِ أن تجمعي رماده من محرقة الجثث. بحوزتي العنوان هنا. خلال ثلاثة أيام، إن لم يُجمع الرماد، ما من خيار أمام المحرقة سوى أن تتخلص منه».

«كيف مات زوجي؟» سألته.

نظر إلى الأوراق الموضوعة أمامه. «سكتة دماغية».

تبادلا النظرات. كانت لينغ تودّ أن تغمض عينيها، لكن عقلها رفض أن يسمح لها بأن تفعل ذلك. «لكنه متى عانى من هذه السكتة الدماغية؟».

---

1 – الـ C Minor: وتعني على درجة الـ دو مينور «الصغير»، بحسب المصطلح الموسيقي العالمي – م.

زحلق المدير الأوراق في اتجاهها. «في البيت».

خفضتْ بصرها ناظرةً إلى الصفحة، وإلى الحيز الذي ينتظر توقيعها، وهي عاجزة عن الإتيان بأيِّ فعل.

«في الحقيقة، طالما أنكِ هنا»، استطرد قائلاً: «لدينا صعوبة في قضية أخرى. ابنتكِ سجلتْ كي تؤدي امتحانات القبول في الجامعة في الشهر المقبل. لسوء الحظ، بما إنها مقيمة في بكين منذ مدة وجيزة نسبيّاً، واجهنا بعض المعوقات. كما تعرفين، الخلفية السياسية، يجري التدقيق فيها... بالطبع، سأبذل كل ما أقدر عليه كي أضمن مقعداً لها».

ضمَّ يديه معاً كما لو أنّهما تضمان شيئاً ثميناً.

«يبدو أن زوجكِ كان على تواصل مع عددٍ من الأشخاص كانوا مستائين من الحزب. أيّ معلومة يمكنكِ أن تزودينا بها سوف تساعدنا حتماً في عملنا. بعض هؤلاء الأشخاص كانوا متهمين وهم الآن رهن الاحتجاز. هذا صراع طبقي جدّي وعلى كل واحدٍ منا أن يؤدي دوره في هذا الصراع. الحزب لن يخذلكِ. الحزب يفهم أن كوادر جيدة ضلتْ طريقها بسبب قلة خطيرة. يقول الحزب: اللين مع أولئك الذين يعترفون؛ القسوة مع أولئك الذين يقاومون».

ما هزَّ لينغ كثيراً جدّاً هو أنها حتى لم تغضب. الغضب، أيضاً، يمكن أن يتبدد، إلّا أنَّ هذا الفراغ الذي احتل مكانه ربما لن يُعتق.

«لقد بات في عِداد الأموات»، قالت أخيراً. وحين لم يقل المدير شيئاً، سألته: «ماذا تريد مني أكثر من هذا؟ لقد أعطيتُ حياتي للحزب. أعطيتُ حياتي. ماذا تريد مني؟ ليس لديَّ شيء آخر أقوله».

حين رفعتْ بصرها، كانت التعابير البادية على وجه المدير تشي بأنه شعر بالخجل فعلاً. ظلَّ صامتاً.

التقطتْ قلم الحبر ووقّعت اسمها.

فيما بعد، كان العالم في الخارج مصنوعاً من تقاطع مظاهر خارجية

مسطحة، زاويةً بعد زاوية، تقشّرها وستجد فحسب مزيداً من المظهر الخارجي نفسه، مع أنّه مظهر خارجي آخر. عمرٌ من العناية والحرص والتضحية كان يعني لها أن لا أحد لديها كي تثق به. في محرقة الجثث، أعطوها علبةً كارتونية تحتوي على رماد جثمان زوجها. كانت الصناديق الخشبية قد نفدتْ. ربما في داخل الورق توجد علبة أخرى ومن ثم أخرى وأخرى، وهلم جرّاً حتى اللانهاية. مرتعشةً، كانت قد فكّت الخيط ورفعت الغطاء. حول كِسر العظام، كانتْ جزيئات الرماد مضفورةً معاً، كانت تمتاز بنعومةٍ وخفةِ حطّمتها، فطرتْ قلبها. أعادت الغطاء، ربطت العلبة بإحكام إلى دراجتها الهوائية وقادتْ دراجتها الهوائية صوب البيت.

لا شيءَ يبقى من دون تغيير، فكرتْ. كانت ساقاها تقودان الدراجة الهوائية على عجل كما لو أنّ بمستطاعها أن تترك ذاتها وراءها. كانت قد رأتْ أشياء كثيرةً جدّاً. أجل، أشياء لا زال بالإمكان أن تتغيّر، ليس بالنسبة لها، ليس بالنسبة لـ سبارو، إنما بالنسبة لـ أي - مينغ. لا يمكنها أن تمنع فؤادها من أن يُدمّر، من أن ينفطر. لكن بالنسبة لابنتها وراء هذا الجبل يوجد جبلٌ آخر، ووراء هذا البحر، يوجد بحرٌ آخر.

التقفيلة[1]

في بالي، قصة أي - مينغ لها مئة نهاية ممكنة. ربما لأنها، ببساطة، كانت تريد أن تترك الماضي وراءها وقد تبنتْ كياناً جديداً وحياةً جديدةً. ربما انخرطتْ في شيءٍ ما لم يكنْ بمستطاعها أن تحدثنا عنه. ربما عادتْ أوراقها المزيفة لتسكنها. في الأعوام الأخيرة، هذا الاحتمال الأخير استنزفها، لأنه كانت هنالك قصص عن مهاجرين صينيين ضاعوا في متاهة مراكز الاحتجاز؛ وصل كثيرون إلى الولايات المتحدة في الأعوام التي أعقبتْ تظاهرات «تيانانمين» العام 1989 ولم يحصلوا على تصاريح مناسبة. في مطلع عقد التسعينيات من القرن العشرين، كانت الولايات المتحدة قد مررتْ «قانون حماية الطلبة الصينيين»، ومنحتْ إقامةً دائمةً للطلبة الذين انخرطوا في الاحتجاجات. على أية حال، كانوا مرغوباً بهم فحسب إذا كانوا قد وصلوا أميركا بين الخامس من حزيران «يونيو» 1989 والحادي عشر من نيسان «أبريل» 1990. كانت أي - مينغ قد اجتازت الحدود في أيار «مايو» 1991. بعد مضيّ عشرة أعوام، في 2001، حين تضاعفتْ أعداد مراكز الاحتجاز في الولايات المتحدة فجأةً وبسرعة، أولئك الذين كانوا بلا تصاريح كُنسوا أو كُسحوا خلال التدابير الصارمة المتخَذَة لفرض النظام.

في بعض الأحيان، في فانكوفر، أذهب إلى الشقة حيث اعتدنا: أنا، أمي، وأبي أن نقيم. أتخيل أن أي - مينغ وأنا، في ظروفٍ استثنائية جدّاً،

1 - التقفيلة: المقطع الختامي من اللحن - م.

نلتقي هناك. الشارع هو الشارع نفسه، البلوكات السكنية نادراً ما طرأتْ عليها تغييرات كثيرة. غالباً، حيوات الناس تنطوي سويةً، أحياناً كل ما يحتاجون إليه هو مكان للقاء، حظٌ وافر، الإيمان. قبل بضعة أعوام خلتْ، أخبرتني أي - مينغ أن أمها دأبتْ على الوقوف في «تقاطع موكسيدي»، منتظرةً سبارو، متذكّرةً، بعد مرور زمنٍ طويل على انتهاء حياته.

***

العشرون من حزيران «يونيو» 2016. في شنغهاي، شعَّ مصباحان عند النافذة حيث كان البروفيسور ليو يقف حاملاً كمانه. بحاجبيه العظيمين، الأبيضين، ذكّرني بزنبقة الثلج. عازفة البيانو، السيدة وانغ، بفستان منتصف الليل الحريري، تجلس إلى البيانو، جاهزةً.

بجواري، ابنة البروفيسور ليو، مهندسة الصوت خاصتنا، كانت تتطلع بتجهم إلى «اللابتوب» العائد لها. سحبتْ سماعتي الرأس خاصتها، دلّكتْ جبينها وخفّضتْ سماعتي الرأس ثانيةً إلى موضعهما السابق. بالدارجة الخاصة بـ شنغهاي، طالبتْ بفحص الصوت. كان الموسيقيون يعزفون افتتاحية السوناتا رقم 4 في C Minor.

كان هنالك ثلاثون فرداً في الحجرة، غالبيتهم موسيقيون وملحنون، بعضهم كانوا يعرفون سبارو قبل عقود خلتْ. في الصف الأول، كانت ييوين تضم ابنتها إلى جانبها. إلى يسارها خالة أم أي - مينغ: ذه أولد كات.

كان السكون يسود الغرفة. رفع البروفيسور ليو كمانه. سوناتا سبارو للبيانو والكمان، مهداة إلى أبي، بدأتْ.

في أول الأمر، كان الكمان ينطلق بالألحان وحيداً، درزة من الألحان اتسعتْ ببطء. حين دخل البيانو، رأيتُ رجلاً ينعطف ويدخل بدوائر محسوبة، أنيقة، رأيته ينظر إلى المركز الذي أغراه، هذا المركز الجميل الذي وعد بنهايةٍ للحزن، خفة الحرية. سار البيانو إلى الأمام وارتفع الكمان، رجلٌ يجتاز غرفةً وفتاة تنتحب بينما هي ترتقي مجموعةً من

السلالم؛ كانوا يعزفون كما لو أنّ كرّةً ما يمكن أن تندمج كرّةً أخرى، كما لو أنّ بوسعهما أن تصلا في الوقت المحدد وتُعتقا في لحظةٍ متداخلة واحدة. وحتى حين كانت الألحان التي عزفوها هي الألحان نفسها، كان البيانو والكمان منفصلين بنحوٍ لا يمكن تغييره، تجذبهما حيوات متباينة وأوقات مختلفة. مع ذلك، في انفصالهما عن بعضهما، وفي الصمت، كان كل آلة منهما تحتوي الأخرى. منذ أمدٍ بعيد، كانت أي - مينغ قد نسختْ باليد قصيدةً لي:

أخبرت إحدانا الأخرى سرّاً في هدأة عالم منتصف الليل
أننا نرغب بأن ننمو معاً على أديم الأرض، غصنين لشجرةٍ
واحدة.
الأرض تبقى، السماء تبقى، مع أنّ الاثنين سوف تنتهيان.

مشتْ أمواج الصوت عبر شاشة الحاسوب، مكررةً مع أنّها غير متوقعة، معيدةً مع أنّها ليستْ نفسها. رأيتُ رأس ذه أولد كات، وهو يومئ. على النافذة، كانت الستائر تواصل حركتها.

في هذه الحجرة، يوجد فحسب فعل الاستماع، يوجد فقط سبارو، كاي، تسهولي. نحصي من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى، نهايةٌ لن تكون نهايةً حقيقية أبداً. الذي لم يحدثْ بعد لم يأتِ بعد، وبقي الكتاب غير منتهٍ. لقد أحببنا وكنا محبوبين.

أي - مينغ، فكرتُ، أنا وأنتِ لا نزال هنا.

من حولنا، توسّعت الحركة الأولى، وراحتْ تدور كالدخان.

***

في دونهوانغ، في أقصى غرب الصين، سويرل، وين الحالم وعارض الأفلام السينمائية بانغ كانوا يصنفون النسخ الفوتوغرافية. كان ذلك هو العام 1990. جلستْ أي - مينغ إلى الطاولة قبالتهم، تراقب الحركة الطفيفة

لرؤوسهم الثلاثة التي غزاها الشيب. كانوا يقيمون جميعاً في غرف عارض الأشرطة السينمائية بانغ، يستريحون بضعة أسابيع كي يكون بمستطاعهم لاحقاً أن يرتبوا أمور السفر. هنا، كانت سماء الصيف عميقةً، بيضاء فضيةً.

عارض الأشرطة السينمائية بانغ، الذي كان له وجه أشبه بخوخة وردية جافة، يكسب رزقه وهو يكنس أراضي «كهوف موغاو»[1] الذائعة الصيت. كانت أي - مينغ تحب أن تسمع ما يتعلق بالكهوف، ولذلك سألته الآن ما هو الكهف المفضّل لديه. رحّب عارض الأشرطة السينمائية بالمقاطعة. قال إن بعض «كهوف موغاو كانت مرسومةً برؤى من الجنة، صور يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي». «لكن فكرة الرسام عن الجنة كانت محض نسخةٍ من الحياة على وجه الأرض»، قال. «الرقص، الخمر، الكتب، اللحم والموسيقى. الجنة تمنحنا كل الأشياء التي لم نتعلمْ قط أن نوزّعها بشكلٍ صحيح، على الرغم من تفوق لجان المقيمين خاصتنا وعوام[2] شعبنا».

خلف منزله القرميدي الصغير، كان الطريق الترابي يفضي إلى الرمال المتحركة لـ «صحراء تَكلامَكان». في صبيحة هذا اليوم فحسب، ترنحتْ قافلة من الجِمال، عائدةً إلى موطنها بعد رحلةٍ استمرتْ ثمانية وسبعين يوماً عبر الـ «غوبي»، كانت حدبات الدواب الخالية متدليةً مثل وسائد تالفة. ولأن أي - مينغ لم ترَ بعيراً من قبل، حسبتْ أن حدبات الجِمال مصابة بجروح. ضحك عارض الأفلام السينمائية ضحكاً قوياً جداً، بحيث وقع مساعده السمعي[3]. خجلتْ أي - مينغ كثيراً وتمنتْ

1 - كهوف موغاو Mogao Caves: تُسمى أيضاً «غارات بوذا الألف». تشكل نظاماً يتألف من 492 معبداً، يقع 25 كم جنوب شرق مركز دونهوانغ، وهي واحة ذات موقع استراتيجي تقع عند مفترقات طرق دينية وثقافية في «طريق الحرير»، بمحافظة غانسو، الصين. كما تُسمى الكهوف أيضاً: كهرف دونهوانغ - م.

2 - عوام جمع عامة؛ أي عامة الشعب، أو الطبقات الشعبية - م.

3 - المساعد السمعي hearing aid: أداة إلكترونية يلبسها شخص ثقيل السمع لتكبير الأصوات - م.

أن تنشق الأرض وتبتلعها، أو تختفي عبر بوابة جيايوغوان، «بوابة الأحزان»، حيث يصل اللسان المنبسِط الغربي من «السور العظيم» إلى نهايةٍ ما. في أحد الأيام، كانت قد تخيلتْ نفسها بوصفها تلميذةً متفوقةً، إلّا أنّها لم تكنْ تعرف حتى أن سنام البعير كان يفرغ ويغدو ليناً مثل بالون خالٍ من الهواء.

تدخلتْ سويرل، وهي تستعيد ذكرى بعير كانت عرفته في ثلاثينياتها، خلال عملها في «الحقل 835». كان اسم البعير ساشا.

الآن، ثانيةً، كان عارض الأشرطة السينمائية يكافح مع مساعده السمعي وبدا كما لو أنّه يحاول أن يثبته من جديد في أذنه. «أوه»، قال، حين أفلح في مسعاه. «بخصوص البيانو الذي كنتِ تريدينه، وجدتُ واحداً. عازف البيانو هو يميني عجوز، منفي إلى دونهوانغ في العام 1958، اعتاد أن يكون عالم فيزياء. انتهتْ مدة محكوميته أخيراً السنة الفائتة لكنه لم ينخدعْ كي يعود إلى منزله. إن حاله تشبه ما تقوله الكتب القديمة: [حتى الإمبراطور منفيٌّ في هذا الطرقات المغبرة].[1] على أيّ حال، تفحصنا المقطوعة الموسيقية، تلك الصفحات التسع، وقال هو إن باستطاعته أن يجهزها في غضون أيام قلائل. يلصقها سويةً بشكلٍ من الأشكال. في الأقل سوف نحصل على فكرةٍ ما عما بدتْ عليه».

«عارض الأفلام السينمائية بانغ»، قالت سويرل، «إن عزفتَ دور الكمان، أعتقد أن الأمر سيستقيم تماماً. هل يمكنكَ أن تعزفه على الـ إيرهو العائد لكَ؟».

«مؤكد، مؤكد»، قال بانغ. «نحن هنا أوركسترا لا ترحم».

***

أي – مينغ، سويرل ووِين الحالم سافروا سويةً على مدى خمسة

---

1 – «حتى الإمبراطور...»: عارض الأفلام السينمائية بانغ يقتبس من «*رومانس الممالك الثلاث*»، الفصل 14 – ك. (لم تذكر الكاتبة رقم الصفحة – م.)

أسابيع، قطعوا مسافةً قدرها ألفان وخمس مئة كيلومتر، بالقطار، بالحافلة، بالعربة التي يجرّها حصان، مستغرقين في التفكير وعلى الأقدام. خال أمها وخالة أبيها، وهما في سبعينياتهما، كانا يمتلكان عناد حيوانيْ لاما[1]. كل ممتلكاتهما كانت محزومةً في حقيبة سفر واحدة، مستطيلة ومسطحة، قطعة من الأمتعة كانا يعتنيان بها بشكل موسوَس، ومع ذلك كانت تبدو متهرئةً جداً كما لو أنها عاشتْ عشرة آلاف حياة. بمستطاع سويرل ووِين الحالم أن يعيشا على الماء الساخن والفجل، يأكلان نور الشمس والهواء المشبع بالغبار. لم تكنْ متأكدةً ما إذا كانا قد ناما لأنها كلّما تفتح عينيها، في منتصف الليل أو في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل أو عند الفجر، تجدهما صاحيين دوماً.

روى لها وِيـن قصصاً عن الصحراء، الرفيق العين الزجاجية وأبوها، «طائر الهدوء». حكتْ لها سويرل عن بغ موذر نايف، السيدة دويستويفسكي، وتسهولي. في بعض الأحيان، كانت أي – مينغ تبكي من دون سبب، حتى حين تكون القصة من النوع السعيد. غالباً، حين تكون القصة كئيبةً، لا يراودها أيّ إحساس، ولا يطرأ أيّ تغيير على نبض قلبها.

الآن، كانت سويرل تصنّف صفحات مجموعةٍ أخرى من «كتاب السجلات التاريخية» لأنها كانت قد سقطتْ على الأرض وتبعثرتْ. كانت أي – مينغ تراقب وِين الحالم. كان وجهه ذا زوايا حادة[2]، وهدوء عميق. في نور الشمس، كان شعره الأبيض شفافاً تقريباً.

كان وِين قد قرر أن ينسخ الفصل الأخير بيده. كان يستخدم كتابة اليد المتصلة، بينما كان يرسم كل حرفٍ من الحروف، قلّما تغادر الفرشاة سطح الورقة. كانت، كلها، تمتاز بشيء دائري، مائي وأبدي.

رفع بصره إليها ونحّى فرشاته جانباً. كانت الكلمة التي كتبها هي

---

1 – اللاما: حيوان من حيوانات أميركا الجنوبية، ذو عنق طويل وشعر طويل، يُستخدم لنقل البضائع ويُستفاد من صوفه – م.

2 – ذا زوايا حادة had angual sharpness: أي بمعنى أنه كان ناتئ العظام – م.

宇 (yǔ): التي تعني *«غرفة»* و*«كون»* معاً. «أيتها الصبية، أتعرفين إلى أين تريدين الذهاب؟».

تذكرتْ أنها كانت تسير مع أبيها متجهين إلى «ساحة تيانانمين» وكيف قالت له: *كندا*. قالت الآن: «لا أعرف. إنني أريد فحسب أن أترك شيئاً ما ورائي».

حدّق إليها بحزن. «إنما حتى بعد أن تفعلي ذلك، في يوم ما ربما يتعيَّن عليكِ أن تجدي طريقاً آخر كي تستمري».

«كيف؟» سألته.

لم يردّ على سؤالها. رفع فرشاته وواصل الكتابة. بدت الكدسة الصغيرة لدفاتر الملاحظات بجواره كأنها ارتفعت قليلاً، مثل أضلاع الأكورديون. عاينت الصورة الفوتوغرافية التي احتفظ بها بقربه. كانت تسهولي تحمل كمانها كما لو أنّ الآلة الموسيقية، الخشب والأوتار - وليستْ أفكارها التي كان يلزمها أن تحافظ عليها، ليس مستقبلها - الذي كان بحاجة إلى أن تحافظ عليه. ماذا لو كان هذا هو المكان الذي ينبغي لي البقاء فيه، تساءلتْ أي - مينغ. ماذا لو أنّني غير قادرة على البقاء على قيد الحياة بمفردي؟ شعرتْ أنها كالغريبة إزاء نفسها، كما لو أنّ جسدها كان فعلاً منزلاً ضخماً، لكنها لم تكنْ تزعج نفسها قط بزيارة غرفةً واحدةً من غرفاته.

«كيف أستمر»، قال وِين. «كان أبوكِ يطرح هذا السؤال أيضاً. طوال سنوات كثيرة لم يكتب الموسيقى البتة. أعطانا الرئيس ماو طريقةً واحدةً للنظر إلى العالم، وهكذا فعل ماركس، إنجلز ولينين. جميع الشعراء والكتاب، جميع الفلاسفة. كانوا يتفقون على المشاكل لكنهم لم يتفقوا على الحلول. شوستاكوفيتش وباخ وهبا أباكِ طريقةً أخرى للاستماع. إنني أفكر في أبيكِ يومياً... ربما، فيما بعد، حين ألّفَ الموسيقى ثانيةً، حاول أن يسمع هذه الأصوات المختلفة في الوقت عينه مع صوته هو، بحيث يجب أن تأتي موسيقاه من موسيقى مكسّرة، بحيث إنّ الحقائق التي فهمها لن تمحو العالم بل تكون جزءاً منه. حين أختلي بنفسي، أسائل

نفسي عادةً: هل يمكن أن تغطي كفٌّ واحدة السماء؟ كيف يتسنّى لنا أن نعيش هكذا ونرى قليلاً جدّاً؟ أي - مينغ... لديَّ لوعات كثيرة، حسرات كثيرة. الجميع يقولون لي كم أنا شديدة الشبه بـ تسهولي. لا تحاولي أبداً أن تكوني فرداً واحداً، كائناً بشريّاً واحداً منظماً. لو كنتِ هكذا سوف يُغرم بكِ أناس كُثر، أيمكنكِ، بصدق، أن تكوني فرداً واحداً؟».

لم تفهمْ سؤاله.

كانت فرشاته قد وصلتْ إلى نهاية سطر. الفصل الثاني والأربعون، حين تصل ميّ فورث إلى نهاية الصحراء. عندئذٍ تكون قد هرمتْ كثيراً وأصبحتْ طاعنةً في السن، وكان صديقها دا - وي قد مضى زمن طويل منذ أن غادر عالمنا هذا.

«خالي وِين، كم فصلاً هنالك بحسب اعتقادك؟».[1]

«في يومٍ ما سألتُ زوجتي هذا السؤال نفسه. قالت لي، وِين الحالم، إنه شيء طائش أن تعتقد أن القصة، أيّ قصة، يمكن أن تنتهي. ثمة نهاياتٌ ممكنةٌ كثيرةٌ شأنها شأن البدايات».

***

هواء الصحراء سببَّ الصداع لـ أي - مينغ. كانت قد لجأتْ إلى النوم باكراً، والاستيقاظ في ساعةٍ متأخرة، ونوم القيلولة بعد الغداء وقبل العشاء. في كل مرةٍ تفتح عينيها، كانت تشعر كأن رأسها هائل الحجم، ويديها صغيرتان جدّاً، ورئتيها مسحوقتان. في ما بعد ظهيرة أحد الأيام، أفاقتْ من نومها وسمعتْ أصوات الثلاثة الذين يضطلعون بمسؤولية الحفاظ عليها وبغ موذر نايف، التي وصلتْ من «الجنوب» كي تكون بمعيتهم، وكانت قد تمكنتْ من الحصول على أوراق مزورة لـ أي - مينغ. بغ موذر نايف تبصر قليلاً جدّاً الآن، حين تطيل التفكير في سبارو وولديها، تنسكب العبرات من عينها السليمة، أما هي نفسها فقد وهنت

1 - وين الحالم خال أم أي - مينغ، لكننا اعتدنا أن نسمي خال الأم: خال فقط - م.

الآن. لم ترَ أي - مينغ حِداد جدتها، سوف تمسح الدموع برفق أما بغ موذر فتغمغم قائلةً: «مَن هي تلك؟»، «هذه أنا». «آه، أنتِ».

«لو أنّ حفيدتي تجتاز الحدود وتصل إلى قرغيزستان»، كانت بغ موذر نايف تقول الآن، «فما هي الخطوة المنطقية التالية؟».

«هل تمزحين؟» لو أنّها تمكنتْ من الوصول إلى ذلك المكان البعيد، الخطوة التالية ستكون عرضاً نقدياً سخياً لـ «الأم - الملكة للغرب». كان هذا عارض الأفلام السينمائية بانغ.

«ما رأيكِ بأن نرتب مروراً عبر اسطنبول؟ هي تقول إنها تريد الذهاب إلى كندا».

«كندا؟».

«سبارو له صديق هناك. موسيقي». توقفتْ بغ موذر عن الكلام هنيهةً. «سبارو له صديق».

تطلعتْ أي - مينغ من دون أن تطرف عيناها إلى الغرفة البراقة. كانت الحقيقة هي، أنها كانت تخشى المستقبل. لن تدرس في «جامعة بكين»، لن تحذو حذو يوين، لن تنضم إلى «الحزب الشيوعي» ومن ثم لن تبلّغ عن عضويتها، لن تترك الأزهار عند «ساحة تيانانمين». كانت أي - مينغ قد أدت الامتحانات، حصلتْ على درجات عالية، إنما حين ظهرت النتائج، أخبرتْ أمها أنها لن تستطيع، ولا يمكنها، البقاء. لم تظهر الدهشة على لينغ. «أبوكِ، كان يريدكِ أن تكوني قادرةً على الاختيار»، قالت. لكن يا ترى ماذا لو كانت كلها خطأ؟ ماذا لو أنّها ببساطة لا تملك الجرأة؟ لا بدَّ من الجرأة كي يستمر المرء بالعيش في بكين. كانت أمها قد تخلتْ في وقتٍ سابق عن وظيفتها في «محطة الإذاعة»، وعادتْ إلى شنغهاي كي تكون مع ذه أولد كات. كانت أي - مينغ تخشى أن الحياة، التي بدتْ كأنها تتوسّع إلى الأمام، قد توقفتْ واستدارتْ. وسوف تأخذها أبداً إلى الوراء.

كانت تعتقد أنها كانت تبكي من دون صوت، إلّا أنَّ سويرل ولجت

الغرفة. كانت ممتنةً جدّاً وجميلةً جدّاً مثل كلمة مكتوبة، لكن أيّ كلمة من السهل جدّاً أن تُمسح. في يومٍ ما، فكرتْ أي - مينغ، كونها عاجزة عن منع تدفق العاطفة، سأفتح عينَيّ وكل واحد منكم يكون قد رحل، وسأكون وحدي. ربتتْ سويرل على شعرها. حين نظرتْ إليها خالة أبيها، ماذا رأتْ؟ هل أنا حقيقة بناء مُشيد؟ في يومٍ من الأيام، هل سيصنع أحدهم مني بناءً مشيداً، نسخةً مطابقةً؟

«إني خائفة جدّاً، خالة سويرل. أخاف أن أكون وحيدةً».[1]

«أعدكِ، أي - مينغ، سيكون الأمر سهلاً مع مرور الوقت».

نامتْ وحين استيقظتْ من جديد كان الظلام قد حلَّ. كان صوتا سويرل وبغ موذر يدوران في عتمة الليل.

«والمعسكر الذي هرب منه وِين...».

قالت سويرل: «هل حصل أن أخبرتكِ؟ لقد رجع كي يراه لكنه اختفى عن الأنظار. المعسكر كله ابتلعته الصحراء كما لو أنّه لم يكنْ موجوداً في يومٍ من الأيام».

«أتذكرين...». كان توقفُ وبدءُ صوت بغ موذر قد فطر قلب أي - مينغ.

«دار إنعاش الجبل الأحمر»، قالت سويرل.

همهمتْ بغ موذر.

«شنغهاي خلال الاحتلال»، قالت سويرل. «القبعة الخضراء التي صنعتِها لـ سبارو. الكلمات لـ [ياسمين]. ذه أولد كات. دا - وِي وميّ فورث. تسهولي تشخر في كوخنا الصغير، وكانت تركلكِ إلى خارج السرير».

«الأرامل الأربع اللائي سكنتِ معهن».

«الغلام الصغير الذي قاد صف الموسيقيين العميان، اليد على المرفق، المرفق على اليد. كنا ثلاثتنا نمشي في طول البلاد وعرضها».

---

1 - سويرل: خالة أب أي - مينغ، لكننا اعتدنا أن نسمي خالة الأب: خالة فقط - م.

«أطفال كثيرون جدّاً»، قالت بغ موذر.
سمعتْ أي - مينغ صوت كوب يوضع على سطحٍ ما.
«ستعودين للسكن معي، أليس كذلك؟ أنتِ ووِين».
«لن تتمكني من التخلّص منا»، قالت سويرل.
«هي صبية صالحة»، قالت بغ موذر. «فتاة شجاعة».
كانت سويرل تهمهم بمقطوعةٍ موسيقيةٍ صغيرة جدّاً، قطعة صغيرة من سوناتا بلا نهاية كتبها سبارو. أخذتْ بغ موذر الكلمات من «أغنية المطر البارد»، من «في ذلك المكان البعيد»، ودمجتهما، وغنتهما على إيقاع موسيقى سويرل. الألحان التي أتتْ من أغنيات وقصائد كانت أي - مينغ تعرفها نصف معرفة، أغنيات كان ينشدها أبوها آنَ كانتْ طفلة. كان تآلف الألحان غنيّاً ومكسّراً كذلك، لأن المرأتين كانتا أكبر سنّاً بكثير الآن، وكانتا قد أُغرمتا وتركتا أشياء كثيرةً جدّاً، إنما لا تزال الموسيقى وفن مزج الألحان الخاص بها باقيين، وأمعنا في البقاء. «كان مقدّراً لي أن أصل في دوامةٍ من الغبار»، أنشدتْ بغ موذر. «وأن أرتفع بنحوٍ لا يرحم كالسديم فوق النهر».
جلستْ أي - مينغ في السرير. شرعتْ تنصت.

***

حملتْ أي - مينغ حقيبة سفر صغيرة. في أول الأمر كانت ممتلئةً وثقيلةً، لكنها استنفدتْ شيئاً فشيئاً خلال تقدّم الرحلة التي استغرقتْ ما يزيد على ثلاثة أشهر.
رجلٌ عجوزٌ كان مترجماً في يومٍ ما التقى بها عند حدود قرغيزستان ورافقها إلى اسطنبول.
من اسطنبول، طارتْ إلى تورونتو.
في حقيبة السفر العائدة لها كانت قد حزمتْ قطع ملابس لتبديل واحد، فرشاة أسنان، قطعة قماش لغسل الوجه والجسد، قطعة صابون وترمس شاي؛ صورة فوتوغرافية لـ تسهولي، كاي وأبيها؛ رسالة من

يبوين. بدتْ مثل دا – وِي وهو يجتاز البحر، كمهرِّبة أو كجزء من شيفرة. أما أبوها فلم تُتح له الفرصة قط كي يعبر حدود بلاده.

لقد فعلتُ هذه الأشياء من أجل أبويّ، فكرتْ في سرّها، ومن أجل نفسي. أيُحتمل أن يكون كل شيء في هذه الحياة مكتوباً من البداية؟ أي – مينغ لا تقبل بهذا الرأي. إنني آخذ هذا التسجيل المكتوب معي، فكرتْ. إنني أحافظ عليه من التلف أو الضياع. حتى لو تكرر كل شيء، لن يكون هو نفسه. إنه مثلما قال وِين الحالم: إنه بوسعها أن تأخذ أسماء الأموات، وتخفيها، اسماً اسماً، في «كتاب السجلات التاريخية»، جنباً إلى جنب مع ميّ فورث ودا – وِي. سوف تؤهل هذا العالم المتخيَّل بأسماء حقيقية وأفعال واقعية. سوف يستمرون بالعيش، كأشخاص خطرين كالثوريين، إنما غير محسوسين كالأشباح.

في تورونتو، انتظرتْ هي أمي كي تتصل بها هاتفياً.

في فانكوفر، وصلتُ إليها وأخذتُ حقيبة السفر العائدة لها.

***

الحق، إنه لشيء بسيط أن تدوّن كتاباً. والأبسط، أيضاً، حين يكون الكتاب موجوداً ومتداولاً أصلاً، ومُرِّر من شخصٍ إلى آخر، بطبعاتٍ، بتعديلاتٍ، بتنويعاتٍ مختلفة. ليس بمستطاع شخصٍ واحد أن يروي قصةً بهذا الحجم الكبير، وهنالك، بالطبع، فصول مفقودة في «كتاب السجلات التاريخية» خاصتي. حياة أي – مينغ، الأيام الأخيرة من حياة أبي: يوماً بيوم، سنةً بسنةٍ، أحاول أن أرى أكثر قليلاً. في شنغهاي، أخبرني توفو ليو أن باخ نقّح الترانيم المقدسة والأغاني الشعبية، ماهلر جدّد لِي بي ووانغ وِي، سبارو اقتبس من بروكوفييف في مؤلفاته الموسيقية، وآخرون، من مثل تسهولي وأبي، كرّسوا أنفسهم لتفسير هذه الموسيقى التي لم تُكتبْ لهم. ضاع «كتاب السجلات التاريخية» كله، إلّا أنَّ بعض الأشياء والمؤلفات الموسيقية أمعنتْ في البقاء. في دونهوانغ، حيث مكثتْ أي – مينغ مع سويرل ووِين الحالم، أربعون ألف

مخطوطة أُنقذتْ في كهفٍ مختوم نحو العام 1000 بعد الميلاد. في العام 1900 حين تسبّب زلزالٌ أرضي في تفتت الصخر، رئيس دير للرهبان، حارس الكهوف، اكتشف الشيء المخبوء، أبراجاً من الصفحات حفظها هواء الصحراء الجاف. ممتزجةً مع الصلوات الصينية، كانت هنالك وثائق بالسنسكريتية، بالتبتية[1]، بالأويغور[2]، بالسوجدينية[3]، بالعامية اليهودية - الفارسية[4]، بلغة السورايا[5]، الخوتانية[6]؛ شذرة بارثية[7]

---

1 - «ممتزجةً مع الصلوات الصينية، كانت هنالك وثائق بالسنسكريتية، بالتبتية...»: محوّرة جزئياً من كتاب كولن ثوبرون الموسوم بـ*«ظل طريق الحرير»* (نيويورك: هاربركولينز، 2009): 94. المعلومات الموسّعة استندتْ على بيانات عامة مُشاعة من «مشروع دونهاونغ». فضلاً عن الكمية الكبيرة من الصلوات الصينية توجد وثائق بالسنسكريتية، التبتية، الأويغور، السوجدينية، الخوتانية، التركية في خليطٍ من المخطوطات؛ رسالة باليهودية - الفارسية، جزء بارثي في مخطوطة مانية، كراسة تانترية بأبجدية أويغورية، كتب مقدسة نسطورية. أغانٍ شعبية، قوائم جرد، وصايا، وأفعال. رسائل شخصية، علاقات حميمة بالمصادفة. شخصٌ ما يدبج جدالاً غريب الأطوار بين الخمر والشاي. اعتذار ضيف لأنه تصرف تصرفاً ثملاً غير لائق في ليلة أمس. عنوان جنازة لحمار ميت». http://idp.bl.uk / - ك.

2 - الأويغور: مجموعة عِرقية تركية تعيش في شرق ووسط آسيا. اليوم يقيم الأويغور في منطقة كسيانغ أويغور ذات الحكم الذاتي في جمهورية الصين الشعبية، وتُعدّ واحدةً من الأقليات العِرقية الـ 55 المعترف بها رسمياً - م.

3 - السوجدينية: نسبة إلى سوجديا أو سوجديانا: وهي حضارة إيرانية غابرة ضمتْ في أوقات مختلفة أراضي تقع حالياً في طاجستان وأوزبكستان من مثل: سمرقند، بخارى، خوجاند، بانجيكنت، وشهر سبز. كما أقام السوجدينيون في الصين الإمبراطورية وتبوءوا مراكز مهمة في حكومة سلالة تانغ الحاكمة (618 - 907 ب. م.) والقوات المسلحة التابعة لها - م.

4 - هذه اللهجات يتحدث بها اليهود المقيمون في إيران، ونجدها في النصوص الفارسية - اليهودية - م.

5 - لغة السورايا: هي لغة الآشوريين المقيمين في جنوب شرق تركيا، شمال العراق، شمال شرق سوريا، وشمال غرب إيران - م.

6 - الخوتانية: لغة إيرانية شرقية - م.

7 - بارثية: نسبة إلى الإمبراطورية البارثية (247 ق. م - 224 م)، وهي قوة سياسية وثقافية إيرانية رئيسة في إيران والعراق في الزمن الغابر - م.

مكتوبة بالمانية[1]، كراس تعليمي تانتري[2] بأبجدية الأويغور، قائمة دَيْن قديمة عن بيع بعير. أغانٍ شعبية، قوائم جرد سلع، مذكرات أو نشرات أو إعلانات مُرسلة إلى أشخاص عديدين وتبرعات. رسالة مبعوثة إلى أحد الأزواج تقول: «إنني أفضّل أن أكون زوجة خنزير على أن أكون زوجتكَ». خرائط فلكية. إرشادات لعبة على سطح طاولة. اعتذار ضيف لأنه ثَمَل وتصرّفَ بشكل سيّئ. قصيدة إلى حمار محبوب. بيع أخ. تنويعات من مؤلَف سبارو الكامل: *«الشمس تشرق على ساحة الشعب»*، يُمكن سماعها في جميع أنحاء الصين. في مولات التسوّق، المتنزهات العامة، المنازل الخاصة، على الحاسبات الشخصية، في النوادي الليلية؛ في سماعات الرأس بـ«ساحة تيانانمين»، ذلك المكان الذي تخيّله المعماريون الصينيون ذات يوم كونه نقطة الصفر، الموقع الذي يقرر كلَّ المواقع الأخرى. ربما لا أحدَ يعرف من أين أتى التسجيل الأصلي، أو ذاك الذي وصل، كالفيروس، عبر الإنترنت. قد يضيع اسم المؤلف الموسيقي في خاتمة المطاف. الرياضيات علّمتني أن الشيء الصغير قد يغدو شيئاً كبيراً بسرعةٍ بالغة، وكذلك الشيء الصغير لا يختفي تماماً. أو، بكلمة أخرى، إذا قسمناها على صفر يساوي اللانهاية: لا يمكنكَ أن تأخذ شيئاً من شيءٍ مراتٍ لا نهايةَ لها.

كي نؤرخ، أنا وييوين تركنا نسخاً لا تُعدُّ ولا تُحصى من «كتاب السجلات التاريخية» على الشبكة العنكبوتية وحتى في مخازن الكتب في بكين، شنغهاي، دونهوانغ، هونغ كونغ. حين قابلتُ ذه أولد كات في شنغهاي أرتني نسختها من الفصول الـ 31 من «كتاب السجلات التاريخية» التي نسخها بيده وِين الحالم منذ زمن بعيد يرجع إلى العام 1950.

---

1 – المانية: وهي حركة دينية بارزة أسسها النبي الإيراني ماني، في الأعوام (216 – 276 م.) إبان الإمبراطورية الساسانية – م.

2 – التانترية: نسبة إلى التانترا: وهي مزيج من التعاليم الهندوسية والبوذية – م.

أخبرتني ذه أولد كات أنه في يومٍ ما في المستقبل القريب هذه المكتبة، التي هي نفسها مرّتْ بتحولاتٍ كثيرة جدّاً، سوف تنتقل من يديها إلى حفظ أي – مينغ. قالت: «أنا فهمتُ من زمن صباي أن الأفق غير المحدود يقع عند المرتفعات المحفوفة بالمخاطر». فيما بعد، كما لو أنّها تحدث شخصاً آخر، قالت: «لينغ، عليكِ أن تبلغي تحياتي للمستقبل». ومن ثم ذه أولد كات، التي كانت تلبس بدلةً فيما كانت جالسةً في كرسيها ذي العجلات، التي كانت تحمل قلم حبر فضة براق في جيبها، ابتسمتْ لي. قالت لي: «يا للهول. كم تشبهين أباكِ».

حين قالت هذا فهمتُ أن هذه الصفحات، أيضاً، هي مجرد تنويع واحد. بعضها يجب أن يبقى فصولاً جزئية، لا نهايةَ لها ولا بداية.

ظللتُ أعيش حياتي، كي أدع أبي وأمي وشأنهما وأبحث عن حريتي الشخصية. سأنتظر أي – مينغ كي تجدني وظللتُ أعتقد أنني سأجدها – غداً، ربما، أو في دزينةٍ من الأعوام. سوف تمدّ يدها كي تصل إلى كتابٍ موضوعٍ على أحد الرفوف. أو أنها سوف تفتح الراديو، سوف تسمع مقطوعةً موسيقية تعرفها، وكانت تعرفها على الدوام. سوف تقترب مني أكثر. في أول الأمر، سوف تنكر وعقب ذلك سيرجع إليها سطرٌ ما، كلمات كانت قد سمعتها في الشارع منذ زمن طويل لكنها لم تنسها تماماً.

الغد يبدأ من فجر آخر، حين يداهمنا النعاس بسرعة بالغة.

تذكّر ما أقوله: لن تزول الأشياء كلها.



شكر

إلى تشارلز بوجان وسارة تشالفنت، امتناني ومحبتي. ثقتكما بي وحكمتكما كانتا خيرَ دعمٍ لي.

شكري إلى لين هنري في «كنوبف كندا»، إلى بيلا ليسي في «غرانتا بوكس» وكريستين بوب في «لوخترهاند ليتراتورفيرلاج»، على وجهات نظرهما العميقة، كرمهما والتزامهما بكتاب السجلات التاريخية هذا. إنني محظوظة جدّاً كوني قطعتُ هذا الطريق معكم.

أقر بالجميل للدعم المالي من «جامعة سيمون فريزر»، «جامعة غيولف»، «جامعة نانيانغ التكنولوجية في سنغافورة» و«Conseil des arts et des letters du Quebec». شكري إلى كاترينا ناربوتوفيتش والـ DAAD Berliner Kunstlerprogram اللذين ضيّفا شريكي[1]، ورحبا بي ليس فقط كأسرة بل كفنانة بحكم حقي الشخصي. «*لا تقل إننا لا نملك شيئاً*» بدأتْ بالحرية والانفتاح اللذين مُنحا لنا في برلين.

إلى طلبتي الجامعيين وزملائي وزميلاتي في الكلية في برنامج الـ MFA في «الكتابة الإبداعية» بـ«ستي يونيفرستي في هونغ كونغ» التي أُغلقتْ نتيجة السياستين الداخلية والخارجية، وإلى صديقاتي وأصدقائي في هونغ كونغ، شكري لكم على الأعوام الستة الجميلة.

مجموعةٌ صغيرةٌ حملتني عبر أزمنة صعبة، ماليّاً، فنيّاً وروحيّاً. شكري إلى إيلين سيلغمان، بي - دانغ ترويونغ، ديفيد تشارياندي، صوفي مكّال،

1 - شريك الكاتبة مادلين ثين هو الروائي اللبناني راوي الحاج - م.

ستيفن غالوي، سارة بلاكر، فانيويل أنتوي، جوهانا سكيبسورد، أماندا أوكوبسكي، بريا باسيل، كسو كسي، سارة أوليري، أنيتا راو بادامي، إيلي كرالجيي غاردنر، ميشيل غارنيو، دايوني براند، غويلين راسين، تسيتسي دانغاريمبغا، كلوديا كارماتشيك وتوبياس فينزيل.

إلى إميلي وود وجون عصفور، وإلى أمي ماتيلدا ثين، التي غادرتْ هذا العالم منذ وقت قريب جداً. كما كتب جون: «حين يمسك بي الموت في رصيف مشاة القصيدة، سوف أشعر باللوعة لأنني لم أضمكِ إلى صدري مدةً كافية».

إلى أبي وكاترين ليو، على حبهما وإخلاصهما. إلى راوي الحاج، على كل شيء.

لا يمكنني أن أذكر جميع أسماء الذين دعموا وقوّوا هذه القصة. إلى صديقاتي وأصدقائي المحبوبين في شنغهاي، هانغ تسهو، بكين ودونهاونغ، شكراً لكم على مصاحبتي عبر كتاب السجلات التاريخية هذا والذكرى المتعاقبة للتاريخ. تذكروا ما أقول: لن تزول الأشياء كلها.

المترجم

- ولد علي عبد الأمير صالح في مدينة الكوت - واسط سنة 1955. يمارس كتابة القصة القصيرة والرواية والترجمة منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين.

- نال جائزة وزارة الثقافة العراقية في الترجمة سنة 2000، وفي الإبداع الروائي سنة 2009، وجائزة دار الشؤون الثقافية العامة في النقد الأدبي سنة 2009، وجائزة الإبداع العراقي لعام 2017، في حقل الترجمة.

- من ترجماته المنشورة: أشرطة تسجيل صدام (بيروت 2017)؛ جمهورية الخيال (بيروت، 2016)؛ أشياء كنتُ ساكتة عنها (بيروت 2014)؛ ترويض الخيال (دمشق 2017)؛ العوالم الثلاثة (دمشق 2018)، الأميرة باري (بيروت 2017)؛ الجبل السحري (بيروت 2010)؛ دلتا فينوس (دمشق 2007).

- من أعماله المنشورة: الهولندي الطائر (قصص، دمشق 2000)؛ يمامة الرسام (قصص، بيروت 2010)؛ خميلة الأجنة (رواية، بيروت 2008)؛ أرابيسك (رواية، عمّان 2009)؛ ثقافة واسط: الماضي والحاضر (جزءان) (دمشق 2017).

برعتْ ثين في تدوين رواية على قدرٍ كبير من النضج والتعقيد، الفكاهة والجمال، رواية هي في آنٍ حميمة وسياسية بنحوٍ كبير، مدتْ جذورها في تفاصيل الحياة في الصين لكنها استثنائيةٌ في كونيتها.

ومما يلفت القارئ والناقد الأدبي هو قوة الحبكة ومتانة الأسلوب ورقة الكلمات وشاعريتها بحيث إنَّ المتلقي لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يلتهم صفحات هذه الرواية الأخاذة، فنرى الكاتبة تقفز من زمنٍ إلى زمن في لعبة سردية ذكية، إذ يتنقل الراوي بحرية بين الماضي والحاضر، تارةً للأمام، وطوراً للوراء. وخلال صفحات هذا الأثر الروائي المهم تُعرّفنا ثين على موسيقى بتهوفن وباخ وشوستاكوفيتش وكثير من الموسيقيين الغربيين، وعلى الإرث الأدبي والفكري والفني للكتاب والفلاسفة والرسامين والموسيقيين الصينيين منذ زمن السلالات الحاكمة والاحتلال الياباني وحتى يومنا الحاضر. نتعرّف على آلات موسيقية صينية لم نسمعْ عنها من قبل، ولا يفوت الكاتبة أن تصف لنا درجات السلالم وطرائق العزف والأحاسيس التي ترافق الاستماع للألحان والمؤَلفات الموسيقية؛ وهذا بالطبع لم يأتِ من الفراغ، على نحو ما يقول اليونانيون، بل من خلال دراسة عميقة، متخصصة، لأن كاتبتنا درست الموسيقى والباليه قبل شروعها بالكتابة الإبداعية. نعم، حازتْ ثين على شهادة البكالوريوس في الرقص المعاصر من «جامعة سيمون فريزر» قبل نيلها شهادة الماجستير في الكتابة الإبداعية من «جامعة كولومبيا البريطانية»، بعد حصولها على منحة دراسية.




ISBN 978-2843091667
9 782843 091667